

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية فصححة / العدد التاسع والأربعون / شتاء / ٢٠٢٥

عمر شبلي

هل الشعر فضية أم متعة؟

د. فاطمة ذيب

دلالة التكرار في قصيدة "فيتو على نون النسوة"

د. دويرين نصر أ. وعد آل حسن

تحولات الاستعارة في النظريات المعرفية والأنساق التداولية

د. كميل مخابيل

الخطاب والسلطة والأيدولوجية: تمولات ما بعد البنيوية

د. والي جزولي

وظيفة الشخصيات وهويتها وتشكلها في القصة القصيرة

د. زياد قسطنطين

المواقع الإلكترونية المعرّبة الإخبارية: ملجأ للأخطاء الشائعة

حنان مطر

بلاغة اللغة وجمالية الإيقاع في شعر الوطن عند فضل مخدر

شكيم درويش

أثر خطاب "امر اليوم" في التواصل الحظي في الجيش اللبناني

زهر عمير

حضور الزمزم وأثره في شعر فدوى طوقان

سامح العرجة

"العقل واضطراباته عند الأبنائين من خلال أمثالهم"

بتول يوسف

تلامذة المدرسة الرسمية بين التعلّم وضرورة العمل

Sandra Abi-Daheer

Turnover du personnel infirmier au Liban



– موقف "المنافذ الثقافية"

من قضايا الانتماء الفكري
والأدبي والروحي

للأمة العربية والاستجابة
الإيجابية للتحدي

مجلة فصلية ثقافية محكمة

المنافذ الثقافية

العدد التاسع والأربعون / شتاء / ٢٠٢٥

ISSN 2708-4302



9 772708 430007

المنافذ الثقافية
مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد التاسع والأربعون - شتاء 2025

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير
أ. د. درية كمال فرحات

المدير المسؤول: علي حمود

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان	أ.د. عماد هاشم	د. علي أيوب
أ.د. عيدا زين الدين	أ.د. زهور شتوح (الجزائر)	أ.د. منى دسوقي
د. دلال مهنا الحلبي	د. رضا العليبي (تونس)	أ.د. جمانة أبو علي
د. منال شرف الدين	د. ندى الرمح	د. سمية طليس
د. ربي شوكت محسن	د. أناند فرح	د. رولا الحاج حسن
أ. زينب راضي	أ. رثيفة الرزوق	أ. حكمت حسن
أ. سوزان زعيتر	أ.رانية مرعي	أ. مروان درويش
تدقيق لغوي د. فاطمة البزال. أ. سامي التراس / د. إيمان صالح	مسؤولة القسم الانكليزي	

اللجنة المحكّمة

أ.د. ديزيريه سقال	أ.د. حمدة فرحات	أ.د. محمد فرحات
أ.د. فؤاد خليل	أ.د. لارا خالد مخول	أ.د. علي حجازي
أ.د. جمال زعيتر	أ.د. مها خير بك ناصر	أ.د. محمد عواد
أ.د. عائشة شكر	أ.د. أحمد رباح	أ.د. يوسف كيال
أ.د. ماغي عبيد	أ.د. سعيد عبد الرحمن	أ.د. درية فرحات

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربية

ISSN 2708-4302



موقع المجلة الإلكتروني – www.al-manafeth.com

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية

للمراسلات: 00961 1 833 270

darnahdainfo@gmail.com

الإشتراكات السنوية:

لبنان للأفراد 20 دولار – للمؤسسات 40 دولار

باقي الدول العربية:

للأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

هل الشّعر قضية أم متعة؟

- 5..... عمر شبلي
دلالة التكرار في قصيدة «فيتو على نون النسوة»
- 7..... د. فاطمة محمد ذيب
تحولات الاستعارة في النظريات المعرفية واللسانيات التداولية
- 29..... د.دورين نصر أ.وعد آل حسن
الخطاب والسلطة والأيدولوجيا: تحولات ما بعد البنيوية
- 58..... د. كميل مخايل
وظيفة الشخصيات وهويتها وتشكلها في القصّة القصيرة.
- 94..... د. وائل جزيني
المواقع الإلكترونية العربية الإخبارية ملجأ للأخطاء الشائعة (نماذج مختارة)
- 115..... د. زياد قسطنطين
بلاغة اللغة وجمالية الإيقاع في شعر الوطن عند الشاعر فضل مخدر قراءة نموذجية لظاهرة الإيجاز والإطناب والمساواة في ديوان «صلة تراب»
- 132..... حنان مطر
البناء المجتمعي للأقليات الكردية في الشرق الأوسط
- 147..... ربيع سميح نور الدين
«العقل واضطراباته عند اللبنانيين من خلال أمثالهم»
- 168..... سماح يحيى العرجة
تلامذة المدرسة الرسمية بين التعلّم وضرورة العمل
- 186..... بتول يوسف
ثقافة الحوار في الوسط المدرسي
- 203..... منى حديفة
حضور الرّمز وأثره في شعر فدوى طوقان قصيدة « لن أبكي» أنموذجاً
- 221..... زهر عبد الرحمن عمير
تجليات الصّراع النفسي بين الانتحار والأمل في ديوان نهر الرّماد لخليل حاوي (قراءة أسلوبية نفسية على مستويي الدلالة والمعجم)
- 236..... نورهان غدار

- الذكاء الاصطناعيّ في المكتبات بين التطوّر والإشكاليّات
- 265.....آمال خليل عوض
دراسة بعض الحالات عند الفتيات المراهقات في النبطية
- 282.....زينب شريم
وسائل التّواصل الاجتماعيّ وانعكاساتها على الحياة الرّوجيّة (تطبيق واتس_آب نموذجًا)
- 303.....عبير قاسم صلاح
موقف السّلاط الفرنسيّة من اندلاع الثّورة الجزائريّة (1954-1956) دراسة تاريخيّة
- 326.....ديانا القزوي
أ.د محمد علي القوزي مشرفًا رئيسًا أ.د محمد عمر عبد العزيز عمر مشرفًا مشاركًا
التّجمل والتّزيّن عند العرب - دراسة حضاريّة لغويّة -
- 341.....روضة صبحه
أثر خطاب "أمر اليوم" في التّواصل الداخليّ في الجيش اللّبناني
- 361.....شئيم درويش
الأوضاع الداخليّة في جبل لبنان (1697 - 11841)
- 384.....صفاء أسعد
شعر: صلاة الشّهادة
- 411.....مريم اسماعيل
Discourse Analysis Of Pierre Pollievre's Statements: A Study On Political
Communnicttion And Rhetoric
Ghada M. Al Ahmadieh.....1
Turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux au Liban
- Sandra Abi-Daher Frangieh.....22**

هل الشعر قضية أم متعة؟

عمر شبلي

هذا سؤال يجيب عن نفسه بنفسه حين نعي معنى الشعر رسالةً وسلوكًا، وما الفصل بين كون الشعر قضية أم متعة إلا تفسير ظاهري لجوهره الشعر وغايته. حتى أولئك الذين يحصرون الشعر في كونه متعة هم لا يعون أنّ متعة الشعر تدخل في قضيته التكوينية، وتجعله رسالة لأنه حين يمتع النفس أو يفرغ أحزانها أو يمدّها بالدهشة الإيجابية والانتصار لقضية وينقلها إلى ضفة يرى فيها ما لا يراه على الضفة الأخرى، وقتها يغدو أبعد من متعة آنية عابرة، لقد قرأت كلامًا لطيارٍ مصريّ أنه كان يردّد شعراً للشاعر محمود درويش وهو يقصف خط بارليف على القناة، كان الشعر يخلق فيه متعة الاندفاع ويمدّه بإرادة الصمود، ولعلّ المتعة هذه هو ما يسمّى بلذة النصّ، وكلّ ما يخلق في الإنسان لذة إيجابية يكون بناء وارتقاء إلى الأعلى.

لقد استعمل العرب الشعر غناء، وهذا ما عزّز رواية الشعر، وجعله أبعد من النثر، إنّ غنائية الشعر تعطيه معنى أبعد من معناه. فالغناء لغة، تخلق معنى أبعد من المباشر، وأعني اللحن الذي هو «فضل في المنطق لم يقدر اللسان على استخراجِه فاستخرجته الطّبيعة بالألحان» كما يقول صاحب كتاب العقد الفريد. والمنطق هنا هو النطق الذي يفسّره الإيقاع ويأخذه إلى أقاليم داخلية في النفس البشرية.

لقد أثر الغناء عند العربيّ في المواشي والإبل والخيول في تصريف أمور القطعان ومواردها وزجرها وخطابها بغناء أصبح لغة تخاطب بين الإنسان والحيوان في تلك العصور المبكرة، ومن منا لا يذكر قول عنتره في معلقته عن جواده حين تضايق من جراح الرّماح في صدره:

فارورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمحم

نعم حمامة الجواد هنا كانت لغة فهمها عنتره بلا ترجمان.

الشعر هنا أبعد من المتعة، إنّه تجاوز محدودية الحواس إلى أعمق ما في الإنسان، وماذا نسمي الشعر الذي كان به قيس يتداوى من حبّ ليلي: «ولم أنشد الأشعار إلاّ تداويا»؟ أوليس دواء حين يهدئ صخب النفوس المعذبة.

والشعر بمتعته يصل إلى كونه رسالة حين ينحاز إليها وينصرها، كان الشعر العميق يأبى أن يمّحي من صدور الناس حتى لكأنه ذخيرة تداني المقدس، وحين يتخلّى الشعر عن رسالته العميقة يصبح سلاحاً شريراً حين يقيم العداوات بين الناس وينشرها، وقد أدّى هذا النوع من الشعر إلى إثارة الفتن وسيل الدماء.

وليس الشعر رسالة حين يصبح وسيلة للتكسب ومدح ما لا يجب مدحه، وهذا النوع من الشعر يُعدّ من مآسي الشعر العربي. حتى ولو حمل هذا النوع من الشعر صوراً خلّابة. ولنا حديث مطول مع هذا النوع من الشعر. في مقالات لاحقة.

والشعر الذي هو رسالة يجب أن يعاني بؤس الناس ويحرّض على صانعي هذا البؤس، ولنا معه وقفات.

دلالة التكرار في قصيدة «فيتو على نون النسوة»¹

The significance of repetition in the poem

«Veto on the Noun of Women»

د. فاطمة محمد ذيب

Dr. Fatima Muhammad Deeb

تاريخ القبول 2024 / 7/11

تاريخ الاستلام 2024 / 6/27

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة التكرار في قصيدة «فيتو على نون النسوة»؛ من ديوان «فتافيت امرأة» للشاعرة سعاد الصباح. والتكرار تقنيّة أسلوبية وظفته الشاعرة لعدة أغراض منها؛ التأثير في نفس المتلقي وإيصال أفكارها بأيسر السبل.

تناول البحث ثلاثة من أنماط التكرار وهي: تكرار الحروف وتكرار الكلمة (اسم | فعل) وتكرار الجملة، وبيان دور هذا التكرار في بناء القصيدة وجملها الشعريّة وأثرها في ترك دلالات مؤثرة في نفس المتلقي، لما فيه من طاقة إيحائية وموسيقية عذبة.

وخلص البحث إلى أنّ تكرار الأصوات في القصيدة كان له المرتبة الأعلى والنصيب الأوفر، فاكتملت قيمة الحرف الدلالية ضمن سياق من الأسماء والأفعال التي كوّنت جملها. وتكرار الأسماء أكسب القصيدة قوّة تأثيريّة، بغية التوكيد، إلّا أن تكرار الأفعال جاء بمرتبة أعلى من الأسماء، للدلالة على الحركة والاستمرار والتجدد. هذه الضروب من التكرارات جعلت القصيدة شبكة من الأنغام التي تطرب السامع، فأدّت الوظيفتين التأثيريّة والجماليّة. الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة التكرار في قصيدة «فيتو على نون النسوة»؛ من ديوان «فتافيت امرأة» للشاعرة سعاد الصباح. والتكرار تقنيّة أسلوبية وظفته الشاعرة لعدة أغراض منها التأثير في نفس المتلقي وإيصال أفكارها بأيسر السبل.

1 القصيدة مأخوذة من ديوان «فتافيت امرأة»، ط11، الكويت: دار سعاد الصباح، 2010، ص:13.

تناول البحث ثلاثة من أنماط التكرار وهي: تكرار الحروف وتكرار الكلمة (اسم ا فعل) وتكرار الجملة، وبيان دور هذا التكرار في بناء القصيدة وجملها الشعريّة وأثرها في ترك دلالات مؤثّرة في نفس المتلقّي، لما فيه من طاقة إيحائيّة وموسيقيّة عذبة.

وخلص البحث إلى أنّ تكرار الأصوات في القصيدة كان له المرتبة الأعلى والنصيب الأوفر، فاكتملت قيمة الحرف الدلاليّة ضمن سياق من الأسماء والأفعال التي كوّنت جملها. وتكرار الأسماء أكسب القصيدة قوّة تأثيريّة، بغية التوكيد، إلّا أن تكرار الأفعال جاء بمرتبة أعلى من الأسماء، للدلالة على الحركة والاستمرار والتجدّد. هذه الضروب من التكرارات جعلت القصيدة شبكة من الأنغام التي تطرب السّامع، فأدّت الوظيفتين التّأثيريّة والجماليّة.

Abstract

The purpose of this research is to study the repetition phenomenon in the poem «Vito on the Nuun Al Niswa»; From the office of «Crumbs of Woman» to the poet Soad Al-Sabah. Repetition is a stylistic technique that the poet employed for several purposes, including influencing the recipient and conveying her ideas in the easiest way.

The research dealt with three patterns of repetition: the repetition of letters and the repetition of the word (name/verb) and the repetition of the sentence, and the demonstration of the role of this repetition in the construction of the poem and its poetic sentences and its impact on leaving influential significations in the recipient, with its suggestive and musical power.

The research concluded that the repetition of voices in the poem was the highest ranking and the greatest share, The letter's semantic value was completed in a context of nouns and verbs that made up its sentence. Repeating nouns has earned the poem an influential force, to emphasize, but repeating verbs has come in a higher rank than nouns, to indicate movement, continuity and renewal. These types of repetitions turn the poem into a musical ensemble that delights the listener, thus fulfilling both the influential and aesthetic functions.

تمهيد

التكرار ظاهرة أسلوبية من الظواهر الصوتية التي تؤدي دوراً مهماً في إثراء الإيقاع الداخلي، فهي تضيف على النسيج الشعري جرساً موسيقياً، يجعل المتلقي يتذوق جمالية النص ويكتف الدفق الشعوري عنده فيقبل على القراءة باحثاً عن الدلالات الفنية والنفسية التي ينتجها.

ولكل شاعر نظامه الصوتي، إنه إيقاع الذات الشاعرة التي تكرر الوحدة النغمية، انطلاقاً من انفعالها بالقضية - الموضوع. «فالتكرار ظاهرة جمالية تعني إعادة المبدع لعبارة أو جملة أو حرف، وهو إلحاح وتسليط ضوء على نقطة في العبارة تكشف عن اهتمام المتكلم»¹. والمتأمل تجربة الشعراء القدامى والشعراء المعاصرين وحركتهم الإبداعية؛ يدرك أن هذه الظاهرة عرفت تداولاً واسعاً في النصوص الحديثة النثرية والشعرية منها. «والإيقاع عنصر تأثيري، اختلف في الشعر الحدائي عن الشعر القديم، فأصبح في الغالب أقرب إلى الهمس منه إلى الجهر. وأصبح للقراءة منه إلى الإنشاد وللمناجاة منه للخطابة. وهو يحتاج إلى هدوء وتأمل وأصبح شعر قراءة، لا شعر سماع»².

والتكرار من أهم الوسائل اللغوية التي يلجأ إليها الشاعر في تشكيل الموسيقى الداخلية لخطابه الشعري وإحداث نغم إيقاعي يمنح القصيدة لمسة جمالية فنية ويضفي عليها انسجاماً صوتياً يترجم دقات شعورية أو لاشعورية تنتج من تكرار الحرف أو اللفظة أو حتى العبارة، إضافة إلى دوره في «لفت النظر إلى المدلول من طريق الإيقاع الصوتي نفسه أو تخليصه مما يلبس معناه، وقد يرد التكرار استجابة لمقتضيات اللغة أو التركيب، أو لغاية لغوية متعلقة بالمعنى المسوق، أو موسيقية كالاستجابة للقافية، أو نفسية يرمي الشاعر من خلالها إلى هدف أراد تحقيقه في نسيجه الشعري».

1 رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر - دراسة جمالية، الإسكندرية. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص173.

2 راشد، نايف. شعرية الإيقاع، جريدة الرياض - مؤسسة البمامة الصحفية، عدد 14389 - 6 نوفمبر 2009.

ويمكن الوقوف على أهميّة ظاهرة التكرار التي تدعم الجانبين الدلالي والإيقاعي من خلال دراسة تطبيقية على قصيدة «فيتو على نون النسوة» للشاعرة سعاد الصّباح، لأنّها تستحقّ الكشف عن إيقاعاتها بأسلوب علمي حديث. ومن هنا كانت الفكرة في تناول ظاهرة أسلوبية متعلّقة بالبنية الصوتية في القصيدة، المتمثلة في التكرار، انطلاقاً من تقاطع المستوى الصوتي والدلالي في تكرار الحرف، ثم تكرار الكلمة أو تكرار الجملة.

ويشغل التكرار في قصيدة «فيتو على نون النسوة» للشاعرة سعاد الصّباح حيّزا واسعاً، ربّما لإدراك الشاعرة أهميته البالغة في إيصال أفكارها والتأثير في المتلقّي. فالصّباح تمكّنت من استعمال لعبة التكرار وأتقنتها، ما أكسب القصيدة، وحدة نغمية، وجاذبية، وسحرًا. ويسعى البحث إلى الكشف عن التكرار في القصيدة ووظائفه والكشف عن تجلياته في عملية الإبداع الشعريّ.

ولعلّ الإشكال الذي يطرح نفسه، يتمثّل في عدّة أسئلة هي الآتية:

- ما أهميّة التكرار في القصيدة؟

- كيف وظّفت الشاعرة سعاد الصّباح التكرار في التعبير عن أفكارها وانفعالاتها؟

- كيف ارتبط الموضوع بالشاعرة وبالإطار الاجتماعيّ في عصرها؟

أمّا الدافع إلى اختيار هذا الموضوع فهو ما تحتويه القصيدة من جماليّات موسيقية تدفع إلى دخول عالمها والتّقيب عن سماتها الجمالية من خلال التكرار الذي تزخر به. وتسليط الضّوء على القصيدة وما يتّصل بالمجتمع وقضايا المرأة.

والمنهج المتّبع في هذا البحث هو المنهج الوصفيّ التحليليّ، الذي يقوم على أدوات معرفية وتنظيمية للوصول إلى النتائج المرجوة. فهذا المنهج يعتمد استقراء المادّة اللغوية، ثمّ وصفها وإحصائها، وتبيان خصائصها، وصفاتها، ومميّزاتها. وهذا يتناسب وطبيعة البحث الحاليّ.

والتكرار عند الصّباح لوحة فنيّة؛ تشكّلت ضمن محاور متنوّعة؛ من تكرار حرف أو تكرار كلمة أو تكرار جملة. وقد برز في القصيدة بشكل لافت، يجعل المتلقّي يقتحم عالم الشاعرة وانفعالاتها ويشاركها أفكارها ورؤاها.

وأول ما يلاحظ؛ طريقة هندسة القصيدة وشكلها الطباعي الذي يوحى بتمرد الشاعرة على كل القوانين؛ وأولها التحرر من سطوة الشعر العمودي وتفعيلاته وقافيته ورويّه الموحدين. فبدت القصيدة جملاً قصيرة تصوّر صراع الشاعرة مع كل ما يتقل تفكيرها، فانعتقت من كل قيد يأسرها، مرتلة أفكارها في موسيقى عذبة، ولغة بسيطة، قادرة على اختراق كل قلب، بإيجاز يبعث على التأمل، وبحركة متنامية تشكّل وحدة نغمية، تمنح الحياة للعبارة الموسيقية، وتخلق رابطاً خفياً بينها وبين المتلقي. وقد اعتمدت الصباح الإيقاع الداخلي كتعويض عن الإيقاع الخارجي أو الوزن. فبرز التكرار بشكل لافت من خلال:

أولاً؛ التكرار الحرفي

التكرار الحرفي في القصيدة نوعان؛ تكرار حروف المعاني، كأحرف العطف والجر والنفي... وتكرار الصوائت والصوامت. ويبرز الجدول الآتي عدد تكرارات حروف المعاني:

جدول رقم (1) تكرارات حروف المعاني في القصيدة

عدد تكراراته	نوعه	الحرف
20	حرف مشبّه بالفعل	إنّ
7	حرف نفي أنهي	لا
10	حرف عطف - استئناف وتعقيب	الفاء
43	حرف عطف	الواو
1	حرف نصب	أنّ
2	حرف نفي وجزم وقلب	لم
2	حرف جر	في
4	حرف جر	من
3	حرف جر	على
3	حرف جر	اللام
2	حرف شرط	إنّ
4	حرف تحقيق	قد
97	حروف المعاني	11

بالاستناد إلى الجدول رقم (1) يلاحظ أنّ عدد تكرارات حروف المعاني بلغ سبعةً وتسعين مرّةً، ونالت الواو أعلى رتبة إذ بلغ عدد تكرارها ثلاثاً وأربعين مرّةً، تليها تكرارات إنّ وبلغ عددها عشرين مرّةً.

ولا شكّ في أنّ الحروف أسهمت في لحمة القصيدة وترابطها على صعيد المعنى، أمّا تكرار حرف الواو فقد أضفى مزيداً من الربط الفنّي، وكان جسراً أقامته الشاعرة بين صوتها الهادر وبين أذن كلّ فرد من أفراد المجتمع، بغية تغيير الواقع. وهذا ما برز أيضاً في تكرار حروف النفي التي تعبّر عن رفضها لكلّ أشكال العنف: فلم أتسمّم بحبر الدواة على مكتبي - وقاومت كلّ البحار ولم أغرق - فلا غضب الله عليّ ولا استاء منّي النبي - ليست (فعل ناقص) سوى غانية. فكانت الجمل المنفيّة نتيجة لكلّ ما قاومت الشاعرة به مجتمعها وبرهاناً أكيداً على السباحة عكس تيار القمع والوصول على شاطئ الأمان من دون أن تغضب الله والنبيّ.

أمّا تكرار الحرف المشبّه بالفعل، فقد أفاد تأكيد كلّ ما يسود المجتمع الذكوريّ من مغالطات وزيف ادّعاءات، فتدحض الشاعرة أقوالهم ومزاعمهم، مؤكّدة نجاحها وتفوّقها على الذين يريدون طمس الحقائق:

إنّ الكتابة إثم عظيم

وإنّ الصلاة أمام الحروف... حرام

وإنّ مداد القصاصد سمّ

إنّ الكلام امتياز الرجال

وإنّ التغزّل فنّ الرجال

وإنّ الكتابة بحر عميق المياه

إني كسرت بشعري جدار الفضيلة

وأنّ الرجال هم الشعراء

إني كسرت رخامة قبري

وإني ذبحت خفافيش عصري
وإني اقتلعت جذور النفاق بشعري
إنّ الأنوثة ضعف
وأنّ التحرر رأس الخطايا
إنّ الأدبيّات نوع غريب
وأنّ التي تكتب الشعر
وأعرف أنّ الرعود ستمضي
وأنّ الزوابع تمضي
وأنّ الخفافيش تمضي
وأنّي أنا الباقية

والملاحظ أنّ الحرف المشبّه بالفعل في المقطعين الأوّل والثاني من القصيدة سبق الاسم ليعرّفه؛ فالكتابة إثم عظيم والصلاة أمام الحروف حرام ومداد القصائد سمّ والكلام امتياز الرّجال والكتابة بحر عميق... هذه الأسماء انزاحت عن معانيها المعجميّة وجاءت صادمة للمتلقّي. وما ذكرها إلّا تهويل للمرأة ومحاولة لإبعادها عن الكتابة. والهدف تجهيلها ليبقى الرجل هو السيّد وهو العالم وهو المسيطر.

أمّا تكرار «إنّ» في بقية مقاطع القصيدة فجاء قبل الفعل الماضي أو المضارع لتأكيد محاولة إثبات وجود المرأة التي استطاعت أن تحقّق حضورها الإنسانيّ بالشعر:

إنّي كسرت، إنّي كسرت، وإني ذبحت، وإني اقتلعت، وأنّ التي تكتب، وأعرف أنّ،
وأنّي أنا الباقية

فقد كسرت الشاعرة كلّ القيود بإرادة وحزم محاولة تغيير الذهنيّة العربيّة التي تهتمّش دور المرأة في المجتمع، حرصًا منها على إعادة التوازن والتكامل بين دور الرجل ودور المرأة لبناء مجتمع صالح وإنسانٍ خيّر. إنّ تكرار الحرف المشبّه بالفعل وتكرار حرف التحقيق «قد» أربع مرّات قبل الفعل الماضي: قد شربت كثيرًا - قد كتبت كثيرًا - قد

عشقت كثيراً - قد سبحت كثيراً، دليل على الحزم والثقة بالرأي والحسم. وهذا التكرار لم يكن صراعاً داخلياً في نفس الشاعرة فحسب، بل هو صراع خارجي يمتد على مساحة الوطن العربي الذي يهيمش دور المرأة في عصر التطور والتكنولوجيا. فجاء التكرار سهماً قوياً أطلقته الشاعرة بقوة إرادة، ليصل إلى أعماق كل رجل نرجسي وكل امرأة خاضعة، خائفة من التجربة. وخير دليل على إنجاح هذه الثورة التي خاضتها الشاعرة هي تجربتها الشخصية والنتيجة أنهم هم زائلون وهي الباقية.

تكرار الحروف الصائتة والصامتة: يلاحظ في القصيدة تكرار الأصوات؛ الصوائت والصوامت، الحروف القوية المجهورة أو المهموسة والانفجارية، كما يبرزها الجدول الآتي:

جدول رقم (2) تكرار الحروف الصائتة والصامتة¹

عدد تكراره	نوعه	الحرف
157	رخو مهموس	حروف المدّ
97	لثوي، أسناني، مجهور، أنفي، متوسط بين الشدة والرخاوة.	النون
81	مجهور، قويّ	اللام
73	لثوي مكرّر متوسط بين الشدة والرخاوة	الراء
30	تفيد القلقة، صوت مجهور، شديد، قويّ	القاف
21	صفيري مهموس	السين
20	رخو، مهموس	الهاء
14	قويّ، مجهور، مدوّ	الضاد
10	صفيري، قويّ مدوّ	الصاد

يلاحظ من خلال الجدول رقم (2) أنّ حروف المدّ بلغت أعلى نسبة في تكرارها، تليها النون، ثمّ اللام، فالراء، والقاف، والسين، والصاد، والهاء. وهي حروف مهموسة في معظمها.

1 ينظر: مصطفى حركات، الصوتيات والفونولوجيا، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 1998.

- تكرر حروف المدّ: فيتو - يقولون - الكتابة - عظيم - فلا - تكتبي - الصلاة - أمام - الحروف - حرام - فلا - تقربي - مداد - القصائد - فإياك - تشربي - ها - أنذا - كثيرًا - الدواة - على - مكتبي - ها - أنذا - كثيرًا - في - حريق - كبيرًا - فلا - الله - يومًا - لا - استاء - منّي - نبي - يقولون - الكلام - امتياز - الرجال - فلا - تتطقي - الرجال - فلا - تعشقي - الكتابة - العميق - المياه - فلا - تغرقي - ها - أنذا - كثيرًا - قاومت - البحار - يقولون - إنيّ - شعري - جدار - الفضيلة - الرجال - الشعراء - شاعرة - القبيلة - هذا - الهراء - يريدون - الكواكب - النساء - نفسي - لماذا - يكون - غناء - الذكور - حلالا - النساء - رذيلة - لماذا - يقيمون - هذا - الجدار - الخرافيّ - بين - الحقول - بين - بين - الغيوم - بين - ما - بين - الغزال - بين - قال - قال - الطبيعة - صوت - الطيور - الجميلة - يقولون - إنيّ - رخامة - قبري - هذا - صحيح - إنيّ - خفافيش - عصري - هذا - صحيح - إنيّ - جذور - النفاق - شعري - الصفيح - جرحوني - ما - في - الوجود - غزال - جريح - قتلوني - وضعوني - المسيح - يقولون - الأنوثة - خير - النساء - الراضية - الخطايا - أحلى - النساء - الجارية - يقولون - الأدبيات - غريب - البادية - التي - سوى - غانية - ما - قيل - عنيّ - أفكار - أبقى - أغنيّ - على - قمّتي - العالية - الرعود - ستمضي - الزوابع - تمضي - الخفافيش - تمضي - زائلون - أنيّ - أنا - الباقية.

أسهمت حروف المدّ في تشكيل بنية إيقاعيّة، مكوّنة شبكة صوتيّة متجانسة. فجاءت الألف اللينة لتساعد الشاعرة على مدّ شأو صوتها متجانسة مع الياء التي تعبّر عن رفض الشاعرة لواقع المرأة، فأرادت إيصال صوتها لكلّ سامع، راسمة معالم الإيقاع الذي تولّد من التوافق الصوّتيّ بين الحروف والكلمات عبر شبكة أنغام تكرّرت وتماوجت في كلّ مفاصل القصيدة. وكأنّ أحرف المدّ سطرّت آلام الشاعرة وآهاتها؛ تحسّرًا على حال المرأة العربيّة، فحاولت لفت انتباه المتلقّي. إنّها صرخة وجع وردّة فعل على المجتمع الذي يرى الرجل محور الوجود، ويحوّل بين المرأة وتحقيق طموحاتها. فأرادت الشاعرة أن تستنهض همّة المرأة وتدفعها إلى الحرّيّة والانعتاق.

- تكرر حرف النون: يقولون - إن - أنذا - إن - إن - إن - أنذا - يوما - إنم -

عظيمٌ - سمٌ - نجمٌ - إثمٌ - عظيمٌ - حرامٌ - سمٌ - نجمٌ - حريقاً - كبيراً - يوماً - مئى
 - يقولون - من - ممّن - يريدون - النساء - يقيمون - بين - بين - أنثى
 - بين - من - جنس - جنس - جنس - من - إنّ - يقولون - إنّي - إنّي - النفاق
 - فإن - قتلوني - وضعوني - يقولون - الأنوثة - إنّ النساء - يقولون -
 - إنّ - نوعٌ - غريبٌ - إنّ - غانية - من - عني - التّك - منطق - التّك - أغني
 - أنّ - أنّ - أنهم - زائلون - أنّي - أنا.

إنّ تكرار صوت النّون في القصيدة وهو من الأصوات المجهورة التي تؤدّي دوراً في
 تكوين الموسيقى الداخليّة للشّعر. وهو صوت يتميّز بكونه متوسط بين الشدّة والرخاوة،
 اتّخذته الشّاعرة للتعبير عن انفعالها، وهو حرف يحمل دلالة الحزن والمعاناة، فهي
 تخوض معركة تودّ أن تثبت فيها قضيتها وبخاصّة عند مقارنتها بين الرجل والمرأة،
 فجاءت الحروف لتظهر الفواصل التي وضعها المجتمع بينهما.

-تكرار حرف اللام: على - يقولون - الكتابة - فلا - الحروف - فلا - فلم - كلّ
 - فلا - الله - عليّ - لا - يقولون - الكلام - فلا - التّغزل - الرّجال - فلا - الكتابة
 - المياه - فلا - كلّ - لم - يقولون - الفضيلة - الرّجال - ستولد - القبيلة - كلّ
 - الكواكب - أسأل - لماذا - حلالاً - رذيلة - لماذا - الخرافيّ - الحقول - الغيوم -
 المطر - الغزال - قال - للشّعر - للنثر - للفكر - قال - الجميلة - يقولون - اقتلعت
 - فأجمل - الوجود - غزال - قتلوني - لهم - يقولون - الأنوثة - المرأة - الخطايا
 - أحلى - الجارية - يقولون - الأدبيات - العشب - البادية - التي - ليست - كلّ -
 قيل - على - العالية - الخفافيش - زائلون - الباقية.

تكرّر حرف اللام في القصيدة إحدى وثمانين مرّة، وهي نسبة مرتفعة، أرادت الشّاعرة
 من تكرارها إنعاش وجدان القلوب المتحرّجة، مطلقة صرختها في وجه كلّ الذين يقولون.
 فاللام من الأصوات المجهورة، وهو من علامات التّعريف، إضافة إلى انحرافه، لأنّ
 اللسان ينحرف عند النّطق به، وهو يدلّ على التحدّي. وقد أرادت الشّاعرة عبر تكرار
 حرف اللام أن تتحدّى كلّ من يدّعي أنّ الكلام للرجال والنّثر للرّجال والشّعر للرّجال،
 وكلّ الذين يفرّقون بين الأنثى والذكور وبين الحقول والشّجر... فاللام تصوّر موقف
 الشّاعرة وارتباطها بقضية الدفاع عن الأنثى.

-تكرار حرف الزاء: الحروف - حرام - تقري - تشربي - شربت - كثيرًا - بحبر
 - كثيرًا - أضمرت - حريقًا - كبيرًا - الرجال - الرجال - بحر - تغرقي - كثيرًا -
 البحار - أغرق - كسرت - بشعري - جدار - الرجال - الشعراء - شاعرة - الهراء
 - أسخر - يريدون - عصر - حرب - الذكور - رذيلة - الجدار - الخرافي - الشجر
 - المطر - الذكر - للشعر - للنثر - ترفض - الطيور - كسرت - رخامة - قبري
 - عصري - جذور - بشعري - عصر جرحوني - جريح - فشكرًا - خير - المرأة -
 الراضية - التحرر - رأس - المرأة - الجارية - غريب - ترفضه - الشعر - أرفض
 - أفكار - عصر - عصر - أعرف - الرعود - أعرف.

يحتلّ حرف الزاء المرتبة الرابعة في القصيدة إذ تكرر ثلاثًا وسبعين مرّة. وهو صوت
 مجهور مكرّر وهذا التكرار ولدّ نغمة موسيقية تتردد بين درجتين؛ درجة الانخفاض
 ودرجة الارتفاع. فالشاعرة تعلق وتسمو بشعرها وفكرها وتتخفّض بانعدام العدالة في
 المجتمع العربيّ، فتسخر منهم وتقتلع جذور نفاقهم وتشكرهم.

- تكرار حرف القاف: يقولون - تقري - القصائد - حريق - يقولون - تنطقي -
 تعشقي - عميق - تغرقي - عشقت - قاومت - أغرق - يقولون - القبيلة - يقيمون
 - الحقول - قال - قال - يقولون - قبري - اقتلعت - النفاق - قتلوني - يقولون -
 يقولون - قيل - منطق - أبقى - قمتي - الباقية.

والقاف صوت مجهور، شديد، يوحي بالقوة. وقد كرّره الشاعر للشاعرة للتعبير عن كلّ ما
 يوحي بالقمع ويجهد النفس في الصراع مع القسوة والظلم، في معاندة القبيلة وشرائعها
 وكلّ الذين يهدّدون المرأة بالحرق والغرق. لم تستسلم الصّباح إلى أقاويلهم، بل تحدّث
 الجميع ولم تحترق ولم تغرق. فالقاف صوت قويّ يدلّ على المواجهة والجهر بالصوت
 طلبًا للسمع ولفت الانتباه. وتكرارها أسهم في تهيئة السامع للدخول إلى عالم الشاعرة
 والولوج إلى أعماق أفكارها التي أرادت إيصالها للمتلقية، فها هي قاومت وعشقت
 وقتلت واقتلعت جذور النفاق وحطّمت والنتيجة أنّهم لم ينتصروا عليها، بل وقفت شامخة
 على قمّتها العالية. وتكرار هذا الحرف تشاكل مع إيقاع الذات الإنسانية، ممتزجًا بمعاني
 القصيدة، ليفصح عن انفعالات الشاعرة وأحاسيسها، فتلاصقت الكلمة مع الصوت،
 ليتألف المعنى مع المبنى ويتدفّق شعرًا.

- **تكرار حرف السين:** النسوة - أَسَمَّ - استاء - سبحت - كسرت - ستولد - أسخر - النساء - أسأل - النساء - جنس - جنس - جنس - كسرت - المسيح - فسيح - النساء - رأس - ليست - سوى.

السين حرف صفيري، مهموس. وتكراره مرّات جعل طابع الهمس والرخاوة. ويمتاز حرف السين بصفير يوحي بنفس قلقة وحرقة، والانحدار والعلوّ يميّزان الصوت لتبليغ رسالة دلالية وتحقيق انفعال المتلقّي وإقناعه. فصارت القصيدة مقاربة للواقع، صرخة في وجه العتمة والتخلف والقهر. إنّه دور تؤدّيه الموسيقى المنبعثة من الحروف بشكل خفي يتغلغل في النفس الإنسانية ويسيطر عليها. وقد أرادت الشاعرة أن تلفت انتباه المتلقّي، فيصبح أسير انفعالاتها، تحركه وتحمله على أجنحة النغم وتجعله في حالة ترقّب، فينظر بعقله ويفكّر بقلبه. تصرخ الشاعرة ليكون المتلقّي شريكاً لها في تقرير المصير. فيبدو هذا التكرار وسوسة مياه في صحراء قاحلة وهمسات داخلية تبعث على التفكّر والتدبّر، في انسجام صوتي وإيقاع هامس، والهدف هو التأثير بالمتلقّي بغية التغيير.

- **تكرار حرف الهاء:** ها - ها - المياها - ها - الفضيّلة - هم - القبيّلة - هذا - الهراء - زديّلة - الجميّلة - هذا - الجارية - البادية - غانية - العالبيّة - أنّهم - الباقيّة.

الهاء صوت رخو، مهموس عند النطق به يصل المزمار منبسّطاً من دون أن يتحرّك الوتران الصوّتيّان. والهاء تدلّ على الاهتزاز، والاضطراب، والضيق، والتعب. وقد اعتمدت الشاعرة تكرارها ساكنة، مسبوقة بالياء لحشد التأييد المطلوب لعملية التغيير، فهي تنهّدت وزفرات أطلقتها بهدف التأثير في انفعالات المتلقّي وكسب أكبر قدر من التعاطف مع القضية المطروحة. فعرضت حججها وألقت براهينها وأثبتت أنّها الباقيّة.

- **تكرار حرف الضاد:** أضرمت - غضب - الفضيّلة - أضحك - وضعوني - ضعف - الراضية - ترفضه - أضحك - أَرْضَى - ستمضي - تمضي - تمضي - تمضي.

تدخل الضاد طرفاً في المعادلة التي طرحتها الشاعرة، إنّها حالة انتقالية بعد الغضب وإضرام النار والاستهزاء والضحك، تهدأ الشاعرة فتلجأ إلى تكرار الفعل المضارع تمضي ثلاث مرّات، للدلالة على فوزها وانكسارهم وهزيمتهم. بدلالة صوتيّة بين الهمس والجهر، بلغة الضاد وحرف الضاد انتصرت وجعلت المستحيل ممكناً في إيقاع مشحون بعاطفة

الشاعرة وقوتها.

- **تكرار حرف الصاد:** الصلاة - القوائد - عصر - يصبح - صوت - صوت - صوت - صحيح - عصر - الصفيح - عصر.

إنّ تكرار حرف الصاد يشبه في تأثيره تكرار حرف السين، فهو صوت صفيري ولا يختلفان إلا من ناحية الجهر والإخفات. وهذا التباين الصوتي بين الأصوات المجهورة والمهموسة يؤدي دورًا كبيرًا في إخفاء الصراع الداخلي للشاعرة التي تعاني من أجل انعتاق نفسها وقدرتها على التحدي والمواجهة، مقابل خنوع مثيلاتها من النساء اللاتي يرضين بالظلم والتمييز ويخضعن لسطوة مجتمع متخلف.

ثانيًا، التكرار اللفظي

التكرار اللفظي هو إعادة اللفظة الواردة في الكلام، والهدف هو التأثير في المتلقي، والتركيز على المعنى وتأكيده، ومنحه إيقاعًا موسيقيًا، ينسجم مع انفعالات الشاعرة. «فالتكرار ظاهرة جمالية؛ تعني إعادة المبدع لعبارة، أو جملة، أو حرف. فهو إلحاح وتسليط ضوء على نقطة في العبارة تكشف عن اهتمام المتكلم»¹. وإما أن يكون التكرار باللفظة نفسها، أو بتكرار حقل معجمي لها. والمقصود هو الإلحاح والتأكيد وتوجيه نظر المتلقي إلى عنصر دلالي. وكثير تكرار الألفاظ في القصيدة؛ كتكرار الاسم باللفظة عينها، أو بمرادفها، أو تبعًا لحقل معجمي، أو تكرار ضمير، والأمثلة الآتية توضح هذا التكرار:

1 - التكرار الاسمي

- الرجال: إنّ الكلام امتياز الرجال - إنّ التغزل فنّ الرجال - إنّ الرجال هم الشعراء - لماذا يكون غناء الذكور حلالاً؟ - وما بين أنثى الغزال وبين الذكر. (5 مرّات)
 - المرأة: وأد النساء - يصبح صوت النساء رذيلة - ما بين أنثى الغزال - خير النساء هي المرأة الراضية - أحلى النساء هي المرأة الجارية. (7 مرّات)
 - جنس: من قال: للشعر جنس - وللنثر جنس - وللنثر جنس. (3 مرّات)
 - التنك: حطّمت عصر الصفيح - أرفض عصر التنك - ومنطق عصر التنك. (3 مرّات)
- 1 رمضان الصباغ، م. س.، ص: 173.

مرّات)

- الكتابة: إنّ الكتابة إثم عظيم - فلا تكتبي - إنّ الصّلاة أمام الحروف - إنّ مداد القصاصد سمّ - فلم أئسمم بحبر الدواة على مكتبي - قد كتبت كثيرًا - إنّ الكتابة بحر عميق المياه - إني كسرت بشعري جدار الفضيلة - إنّ الرّجال هم الشعراء - فكيف ستولد شاعرة في القبيلة؟ - من قال: للشّعر جنس - وللنثر جنس - إنّ اقتلعت جذور النفاق بشعري - إنّ الأدبيات نوع غريب - إنّ التي تكتب الشّعر. (17 مرّة)

- كثيرًا: قد شربت كثيرًا - قد كتبت كثيرًا - قد عشقت كثيرًا - قد سبحت كثيرًا. (4 مرّات)

- بين: بين الحقول وبين الشجر - بين الغيوم وبين المطر - وما بين أنثى الغزال وبين الذّكر. (5 مرّات).

يُظهر التّكرار اللفظي في القصيدة تعارضًا يتجلّى من خلال حشد الشّاعرة مفرداتٍ تنتمي إلى حقلين معجميين متناقضين؛ حقل الرجل وحقل المرأة. وهذه المعارضة ما هي إلّا تسليط الضوء على الحقّ السليب وخضوع المرأة واستسلامها في عصر الكواكب. وقد أرادت الشّاعرة من خلال النصّ الشعريّ لفت نظر المتلقّي وحمله على رفض كلّ أشكال التمييز بين الجنسين، في انسجام صوتي يتفجّر ويؤثّر في التّكوين اللفظي والتّكوين الدلالي. وما هذا التّعارض إلّا أداة معرفيّة أرادت الشّاعرة استخدامها للوصول إلى غايتها. إنّها مزيج من القلق والانفعال وردود الأفعال، لتبرير ثورتها ومواجهتها هذا الكمّ الهائل من المغالطات. إنّها لعبة الخطوط المتوازية والجدران العالية والفواصل التي وضعها المجتمع بين الأنثى والذّكر؛ فتكرار ألفاظ الطّبيعة الصّامتة والحية تتمازج مع حركة تكرار ألفاظ المرأة والرّجل؛ لتظهر العلاقة التّكاملية بينهما، بين الحقل والشّجر وبين الغيث والمطر.

وهذا التّعارض يجعل القصيدة مبنية على محورين متناقضين؛ محور المرأة الخائعة، الخاضعة، المتمسّكة بموروثات وعادات قديمة، ألفتها وتوقّعت داخلها ومحور الشّاعرة التي ثارت لترسم صورة للمرأة القويّة، القادرة على تحطيم القيود ولتكون القدوة والمثل

لمثيلاتها. وقد وظّفت الصّباح الاسم للتعبير عن انفعاليتها ومشاعرها، فأثّرت المستوى الشعوريّ، وما تكرارها الأسماء إلا بغرض التأكيد، فترامت أصداء كلماتها عبر تكرار اسميّ آثار أحاسيس المتلقّي وأجبره على التأمّل والتفكير، فرضته الشاعرة ليكون نقطة تحوّل تميّط اللثام عن الواقع المرّ والمؤلم، عبر تشكيلات لغويّة متكرّرة، تقنع المرأة بخرافة تحرّرها، فتدعوها لكسر الأغلال والتخليق في سماء الشّعور والحرّيّة.

ابتعاد الشاعرة من التّعرّف اللفظيّ ومن الكلمات الثقيلة المهجورة زرع الدهشة في نفس المتلقّي، فالتكرار ليس حشواً إنّما « يقترن دائماً بالهواجس والأحاسيس الأساسيّة التي تدمن الحضور في البيئة النفسيّة للشاعر»¹. واستطاعت الشاعرة توظيف الأسماء للتعبير عن انفعاليتها بغرض التأكيد والمقارنة، أو المقابلة بين حال الرجل وحال المرأة.

جدول رقم (3) تكرار الاسم والضمير.

تكرار الاسم ومرادفاته	نوعه	عدد التكرارات	تكرار الضمير	عدد التكرارات
الرّجال	معرفة	5	هم	2
المرأة	معرفة	7	أنت	8
جنس	نكرة	3	أنا	16
بين	ظرف مكان	5	هم	1
كثيراً	معرفة	4	هم	11
التنك	معرفة	3	المقاطع 3- 5- 6	15
الكتابة	معرفة	18		

2 - تكرار الضمائر

من أوجه التكرار في القصيدة؛ تكرار الضمائر. وهذه الضمائر في تنوعها أضفت نوعاً من التنبّع الشكليّ ورفعت مستوى الإيقاع المنسجم مع انفعال الشاعرة لحظة بلحظة، ومقطعاً تلو المقطع. وسيجري تنبّع تكرار الضمائر المنفصلة والمتصلة في كلّ مقطع من مقاطع القصيدة:

1 بدوي طنانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبيّ، ط3، الرياض - السعودية: دار المريخ، 1986، ص: 217.

- المقطع الأول: توالى تكرار ثلاثة ضمائر في المقطع الأول؛ «هم» العائد لمجتمع الذكور عبر فعل القول «يقولون» (مرتان)، وضمير المخاطبة «أنتِ» العائد إلى المرأة؛ (فلا تكتبي - فلا تقربي - فأياك (ضمير نصب أفاد التحذير) - أن تشربي - فلا تنطقي - فلا تعشقي - فلا تغرقِي. (8 مرّات)، وضمير المتكلّم «أنا» العائد إلى الشاعرة: أن ذا - شربتُ - أتسمّم (أنا) - مكتبي - أنذا - كتبتُ - أضرمْتُ - عليّ - منّي - أبي - أنذا - عشقتُ - أنذا - سبحتُ - قاومتُ - لم أغرق (أنا). (16 مرّة)

الشكل رقم (1) المقطعان الأول والثاني الشكل رقم (2) المقاطع الثالث والخامس والسادس



- المقطع الرابع: يقيمون (هم).
- المقاطع الثالث والخامس والسادس، «هم»: يقولون (هم) - الرجال هم الشعراء - يريدون (هم) - يقولون (هم) - جرحوني (هم) - قتلوني (هم) - وضعوني (هم) - يقولون (هم) - يقولون (هم) - أنهم - زائلون (هم). «أنا»: كسرتُ - أضحك (أنا) - أسخر (أنا) - أسأل (أنا) - كسرتُ - نبحتُ - اقتلعتُ - حطّمتُ - أضحك (أنا) - أرفض (أنا) - أبقى (أنا) - أغتّي (أنا) - أعرف (أنا) - أني - أنا.

إذا أمعنا النظر في موقعيّة الضمائر وكيفية توزّعها من خلال الشكلين (1-2)، نستنتج أنّ الضمائر التي تواترت في المقطعين الأول والثاني؛ توزّعت فيها ضمائر الغائبين للذكور (الواو) متعاضدة مع ضمير المخاطبة أنتِ وضمير المتكلّم أنا؛ في حركة ثلاثيّة بين المجتمع الذكوريّ والمرأة المستسلمة مقابل أنا الشاعرة المتمردة التي لا تنتمي إليهما. في المقطع الرابع انفرد ضمير الغائبين العائد إلى الذكور ليؤكد الفروق

التي صنعها المجتمع بين الذكر والأنثى. أمّا في المقاطع الثالث والخامس والسادس؛ فقد بقيت الشاعرة وحدها تقاوم الجميع، فبرز ضمير المتكلم العائد إلى الشاعرة في مواجهة غير متكافئة مع ضمير الغائبين «هم». وتواتر هذين الضميرين دلّ على تأكيد انفصال التجربة الفردية عن واقع المجتمع العربي. فأثبتت الشاعرة أنّها تستطيع أن تصنع الحدث بإرادة وعزم وتتهض بدور فاعل من خلال العمل الشعريّ.

إنّ تكرار الضمائر أضفى على القصيدة نوعاً من التتبع الشكليّ في مقاطع القصيدة جميعها والتسارع في رفع الإيقاع المنسجم مع انفعالات الشاعرة، مبرزاً آراءها وتطلّعاتها. وهذا دليل على تركيز الشاعرة في موضوع واحد هو حرّية المرأة، فجعل القصيدة وحدة متكاملة انعكست في البنية الدلالية والصوتية، متخذة صفة الصفة التي توقظ المرأة من سباتها. فتضع تجربتها الشعريّة برهاناً ساطعاً يثبت ادّعاءاتهم، وهذا ما يثبتته المقطع السادس؛ حين تواجه ال «أنا» ال «هم»، فتتكشف حالة التوحّد والتفرد، فيفصح هذا التوجّه من رؤية شعريّة تعلن انفصال الشاعرة عنهم، إذ تهض من ركام التقاليد والأعراف، تكسر رخامة قبرها وتقتلع جذور النفاق وتبعث من جديد، متحرّرة من الجمود، فتكسر وتذبح وتحطّم وتقتلع، والنتيجة تحسم لصالحها: وأعرف أنّهم زائلون ١ وأنيّ أنا الباقية.

ثالثاً: تكرار الجمل

1- تكرار الجمل الاسميّة: جاءت الجمل الاسميّة معظمها مثبتة، مؤكّدة بحرف مشبّه بالفعل «إنّ»: إنّ الكتابة إنّم - إنّ الصلاة أمام الحروف - إنّ القصائد سمّ - ها أنذا - ها أنذا - إنّ الكلام امتياز الرّجال - إنّ التغزّل فنّ الرّجال - ها أنذا - ها أنذا - إنيّ كسرت - إنّ الرّجال هم الشّعراء - إنيّ كسرت - هذا صحيح - إنيّ اقتلعت - إنيّ ذبحت - هذا صحيح - إنيّ اقتلعت - أجمل ما في الوجود - إنّ الأنوثة ضعف - خير النساء هي - إنّ التحرّر رأس الخطايا - أحلى النساء هي - إنّ الأديبات نوعٌ - إنّ التي تكتب - إنّ الرعود ستمضي - وأنّ الزوابع تمضي - وأنّ الخفافيش تمضي - أنّهم زائلون - وأنيّ أنا الباقية. (30 جملة)

2- تكرار الجمل الفعلية

أ- المثبتة: يقولون - أن تشربي - قد شربت - قد كتبت - أضربت - يقولون - قد عشقت - قد سبحت - قاومت - كسرت - أضحك من كلّ هذا الهراء - وأسخر - يريدون - أسأل - يكون - يصبح - ترفض صوت الطيور - يقولون - كسرت - ذبحت - اقتلعت - حطّمت - جرّحوني - قتلوني - قتلوني - وضعوني - يقولون - يقولون - ترفضه البادية - تكتب - أضحك - قيل - أرفض - أبقى - أغني - أعرّف - ستمضي - تمضي - أعرّف. (37 جملة)

ب- المنفية: فلم أتسمم - فلا غضب الله - ولا استاء مني - لم أغرق - ليست سوى غانية. (5 جمل)

ج- الشرطية: فإن جرّحوني - إن قتلوني. (جملتان)

ج- الإنشائية - الطليّة:

- النهي: فلا تكتبي - فلا تقربي - فلا تنطقي - فلا تعشقي. (4 جمل)

- الاستفهام: فكيف ستولد شاعرة في القبيلة؟ - لماذا يكون غناء الذكور حلالاً؟ - لماذا يقيمون هذا الجدار؟ ومن قال للشعر جنس؟ ومن قال إنّ الطبيعة.

القصيدة أنغام حروف وإيقاعات جمل، تتماوج وتتوازن لتخلق صورة موسيقية متكاملة. يتجلّى فيها التصوير الانفعاليّ لتموجات أفكار الشاعرة التي استثمرت الطاقة الإيقاعية في خدمة اللغة.

ويكاد المتلقّي يدهش لما في القصيدة من وضوح وتماسك وانتقال من الخبر والإنشاء إلى النفي والإثبات ومن التعميم إلى التخصيص والتوازن والتطابق. فتتوّعت الجمل الفعلية، الخبرية المثبتة، المقترنة بالحركة، من جمل ماضوية مؤكّدة، تساعد على سرد كلّ حدث قامت به الشاعرة في معركتها مع الأفاويل وفي حوارها بين الأنا وال «هم»، ومضارعية تتوالى بتكرار جملة «يقولون» في بداية كلّ مقطع من مقاطع القصيدة؛ بحركة دائرية تتولّد من ختم الشاعرة بالجرس الذي بدأت به. وكأنّها تضرب على آلة موسيقية تتركها مدّة وتعود إليها، تليها النقطتان «:» كفاصلة من فواصل الصمت تراح الشاعرة لتخلق علاقة بين النطق والصمت، بين الحركة والسكون. فتكرّرت النقطتان

كوقفة نثير القارئ وتلفت انتباهه. وبتكرار هذه الجملة تصبح الكلمة نضالاً وحركة حياة بين الظلمة والنور، من القبر إلى البعث، إلى ملكوت الشعر والفكر. فحين تشتبك الجمل الاسميّة بالجمل الفعلية في تكامل يشبه الصلب على الجلجلة؛ تقدّم الشاعرة نفسها قرباناً للحرية.

ولتكرار الفعل المضارع وظيفه دلالية؛ تمتّلت في التأكيد اللفظي واستمرارية حصوله. فعلى الرغم من تكرار فعل القول؛ تؤكد الشاعرة عبر الجمل الاسميّة ما تقوم من فعل المواجهة. وعبر الأفعال الماضية المسبوقة بق؛ التي تحمل في ثناياها تحقق الأفعال، محدثةً إحصاراً يقوّض كلّ أركان ما قالوا وما زالوا يقولونه.

وقد استمدّت القصيدة حيويّتها الإيقاعية من خلال هذا التناوب بين تكرار الماضي والمضارع وبين الخبر والإنشاء ما يوحي بتكرار الحدث بين العنف واللاعنف، بين الأقوال الزائفة وبين التمرّد، بين النفي والإثبات:

إنّ الكتابة... فلا تكتبي إنّ الصلاة... فلا تقربي إنّ مداد القصاصد... فيأيك أن تشربي إنّ الكلام... فلا تتطقي اقد شربت... فلم أتسمم إنّ الكتابة... فلا تغرقني إنّ التغرّل... فلا تعشقي اقد كتبت... فلا غضب الله ا وأضمرت... ولا استاء منّي نبي.

إنّها مواجهة الأنثى مقابل المجتمع بأسره، وما تكرار الجمل الإنشائية التي تفيد الاستفهام والنهي والتحذير وتماوج الضمائر بين واو الجماعة و«أنا» التي تمتدّ على مساحة القصيدة؛ ما هو إلّا دليل على أنّ القصيدة تعتمد في منحى كبير على الوظيفة الإيعازية التي تركّز على المرسل إليها. فاستعمال حرف النهي لتدعيم حججها بالإقرار الذي لا يتزعزع، لتقديم الحركة الذهنية والوعي، وظيفتها التعليل وبيان السبب، فنتحوّل القصيدة إلى نصّ حاجي؛ يتضمّن طرحاً وطرحاً نقيضاً وينتهي باستنتاج في المقطع الأخير: أنهم زائلون ا وأنا الباقية، متخذة طابع النمط البرهاني - الجدلي الإقناعي، في بنية القصيدة المترابطة، المتدرّجة من قضية الخلاف بين الشاعرة وبين «هم»، أمّا الإشكالية فتبرز في مدى صحة أقوالهم، أو صحة تجربة الشاعرة.

إنّ ما يميّز الصّباح هو علاقتها بالآخرين؛ فهي فعل التضحية الفرديّ المؤشّر إليه بتكرار الفعل المشروط (إن قتلوني) - (إن جرحوني)، فموتها بعث للجماعة، إنّها

كالمسيح تفتدي نساء الوطن العربيّ، فتحملّ نفسها مسؤوليّة إنقاذهنّ وتقدّم نفسها قرباناً على مذبح الحرّيّة متلذّذة بانتصارها عليهم.

إنّ تكرار الجمل الاسميّة التي تفيد الثبوت، يعدّ دعوة للعزوف عن الحركة ودعوة إلى الهدوء والتركيز. أما تواتر تكرار الجمل الفعلية على مساحة القصيدة؛ وتكرار أساليب التأكيد وأسلوب الالتفات (وهو التّنقّل بين ضمير الغائب وضمير المتكلّم)، منح القصيدة روحاً خطابية وامتداداً في شكل انفعاليّ، متصاعد. وهذا ما أضفى الحيويّة وأبعد الرتابة من دون تعريض المعاني للغموض. فجاءت العبارات أسرة، قويّة البناء، مترابطة الأفكار، وهذا التكرار أعطاه توازناً وارتعاشاً إيقاعياً، فجاءت طبيعيّة في غير تكلف. إنّه حديث العقل إلى العقل والقلب إلى القلب، وموسيقاه الهادئة، الصاخبة، تلائم معاني الثورة التي قادتها الشاعرة، حاملة رسالتها لتكون روحاً مشعّة، فتكسر الرخامة وتنسلّ من قبرها، تتبثق طاقة نور، تمتشق لغتها، تضحك وتسخر من عصر التّنك؛ دعوة للإصلاح الاجتماعيّ، متوسّلة أسلوب الاستفهام لتجسيد الصراع بين خضوع المرأة وحنّها على الرفض والثورة على واقعها في مواجهة المجتمع، والشاعرة أصدق مثال، فقد تجرّدت من معناها الذاتيّ لتجسّد الوعي الجماعيّ، فيصبح الحوار شكلاً من أشكال تطوير المواقف ورسم شخصيات المجتمع رسماً واقعيّاً؛ بصوت واحد منفرد هو صوت الشاعرة وصرختها. فترتدي القصيدة ثوب التمرد لتصنع مشهداً رافضاً لكلّ أشكال العنف. ونستشعر وجود المعنى برهافة الحسّ وتتبع الحركة الداخليّة للإيقاع الموسيقيّ. هذا الإيقاع تولّد من التكرار الذي منح القصيدة انسجاماً سيطر على المتلقّي، فيغدو شريكاً في خلق الصورة الشعريّة، ويحلّق مع الشاعرة في عالمها، غاضباً لغضبها، صارحاً معها ما يسهم في تعزيز البعد الدلاليّ، فيستشعر المعنى برهافة حسّه، متنبّحاً الحركة الداخليّة للإيقاع الموسيقيّ.

هذه الأساليب الكلاميّة المتنوّعة النشأة والدلالة تلائم الوظيفة التعبيريّة الانفعاليّة وتزيد تموجات دلالاتها ومساندتها للغرض الذي رمت إليه الشاعرة، فلامت بين الفكر والشكل بالنتفقات القصيدة وبراعة موسيقاها الداخليّة، فنترصد مهارة التّأليف في ترجمة الإحساس بعفويّة واصطبغ القصيدة بألفاظ الانتصار على العدم. وهذه الأفعال المتلاحقة دالّة على أعمال صيرورة؛ كلّها أفعال حركة لا أفعال سكون، تقوم بها الشاعرة مدرّكة،

منفعلة، متحركة؛ ما أسبغ على القصيدة نعمة الحياة.

الخاتمة

يعدّ النصّ تجلياً لعمل إنسانيّ وجّهت به الشاعرة المتلقّي إلى بناء حالات فكريّة وانفعاليّة واجتماعيّة أبرزها التكرار. فالقصيدة تحمل صرخة الشاعرة النابعة من عمق معاناتها، ورفضها الاستسلام لأقويل المجتمع. وقد نجحت في إيصال أفكارها، فكانت قصيدتها مرآة تحوّلت صدئاً يتردّد في أذن المتلقّي، فيرفض الضغوطات المفروضة على المرأة وتحجيم دورها، بجدل يرتكز على العقل، والمنطق، والمقارنات، والاستنتاج. أمّا أبرز الاستنتاجات التي توصل إليها البحث فهي الآتية:

- التكرار ظاهرة فنيّة، وُظفت في القصيدة دلاليّاً وإيقاعيّاً لتحدث أثرًا في المتلقّي.
- مزجت الشاعرة بين عناصر إيقاعيّة أبرزها التكرار بأنواعه (تكرار الحرف - تكرار الكلمة - تكرار الجملة، فقد أسقطت المقاييس الشعريّة المتعارف عليها وقام السطر الشعريّ بمسؤوليّة نقل انفعالات الشاعرة.
- استطاعت الشاعرة من خلال التكرار إيصال أفكارها إلى المتلقّي، فارتقت بشعرها وبلغت مستوىً راقياً من خلال نغميّة الموسيقى، فجذبت المتلقّي واستمتع بالخطاب الشعريّ. ورفع من غنائيّة القصيدة ومستواها الموسيقيّ العذب، ما أعطاه قيمة دلاليّة وتعبيريّة، مستخدمة لغة مناسبة حتّى يمكن وصف أسلوبها بالسهل الممتع.
- إنّ التوازن التركيبيّ في العبارات حقّق إيقاعاً داخليّاً فرض على المتلقّي نظاماً في القراءة يجعل القصيدة تعلق بذهنه وتستنثير تفكيره، إذ استطاعت التعمّق في دوائر ذاتها، فكانت تجربتها الشخصية مثالاً للتجربة الجماعيّة.
- التكرار عامل مهمّ في القصيدة لما له من قيمة في التلوين الصوّتيّ للألفاظ، كما أنّه يكشف شعريّة النصّ ويخلق جوّاً موسيقيّاً عذباً، يحدث أثرًا نفسيّاً وصوتياً فعّالاً في بناء نسيج القصيدة.

المصادر والمراجع

- 1 - ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق (1401 هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط5، بيروت: دار الجيل ج74١2.
- 2 - أنيس، إبراهيم. موسيقى الشعر، ط3، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1965.
- 3 - حمدان، ابتسام أحمد. الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مراجعة وتدقيق أحمد عبد الله فرهود، ط1، سورية - حلب، دار القلم العربي، 1997.
- 4 - راشد، نايف. شعرية الإيقاع، جريدة الرياض - مؤسسة الإمامة الصحفية، عدد 14389 - 6 نوفمبر 2009.
- 5 - سلامة، أبو السعود. البنية الإيقاعية في الشعر العربي، مصر - دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2010.
- 6 - شرتح، عصام. جماليات التكرار في الشعر السوري المعاصر، ط1، دمشق: رند للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.
- 7 - طنانة، بدوي. التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، ط3، الرياض - السعودية: دار المزيخ، 1986.
- 8 - يونس، علي السيد، جماليات الصوت اللغوي، ط1، القاهرة: دار غريب، 2002.

العنوان: تحولات الاستعارة في النظريات المعرفية واللسانيات التداولية

Metaphor Transformations in Cognitive Theories and Communicative Linguistics

الدكتورة دورين نصر والأستاذ وعد آل حسن⁽¹⁾

Dr. Dorine Nasr and researcher Waad Al-Hassan

تاريخ القبول 2024 /8/29

تاريخ الاستلام 2024 /8/13

الملخص

إنّ الاستعارات الإدراكية العرفانية عملية ذهنية تصوّريّة، مفادها التفكيّر وأساسها الفهم، وهناك جانب كبير من تصوّراتنا وتفكيرنا -غير الواعي- حول الظواهر غير المادية تحكّمه البلاغة، مثلما تحكّمنا القواعد التوليدية -عند تشومسكي (Chomsky) - على استخدامها أثناء الكلام. بذلك تُشكّل التداولية إحدى الطرق الموصلة إلى اكتشاف المعاني رة إثبات للحجاج وإقناع بها، بغية تغيير سلوك المتلقّي وصولاً إلى إحداث الانقلاب الاجتماعي كما في الخطاب الديني عموماً. يُضاف إلى المقومات السابقة الوظيفة الجمالية، التي هي في ذاتها من وسائل التأثير ولفت انتباه المتلقّي وجذبه.

الكلمات المفتاحية: التداولية، التّخاطب، الاستعارات التّصويرية، المقصدية، الاستلزام الحواري، الذهن، البلاغة، القول، العلامة، السياق.

1 - د. دورين نصر: حائزة شهادة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها من معهد الآداب الشرقية-جامعة القديس يوسف، بعنوان: الوطن في تحولاته عبر القصيدة مضموناً وبناء عند الشعراء الثلاثة: الشاعر القرويّ و خليل حاوي ومحمد الماغوط. تدرّس في الجامعة اليسوعية مادة تحليل النصوص، وفي جامعة البلمند. وهي عضو في تحرير المعجم التاريخي للغة العربية في الشارقة، ورئيسة رابطة المتّقين العرب في لبنان، وعضو اللجنة العلمية للمؤتمر الدولي الثامن للدراسات العلمية. لها العديد من المؤلفات المنشورة، منها: شريل داغر: قصيدتي، معهم، وبلساني (2020)، قصيدة النثر: محمد الماغوط أنموذجاً، وإصدارات شعرية، وقراءات نقدية عديدة، وأبحاث منشورة في مجلات محكمة.

-أ. وعد آل حسن: طالب دكتوراه في جامعة القديس يوسف - بيروت. مدرّس لغة في عدة مدارس عربية: لبنان واسطنبول وسوريا. منقح لغوي سابق. باحث ألسني في فكر الحدائث وما بعدها.

Abstract

Cognitive conceptual metaphors are a mental conceptual process, the essence of which is thinking and its foundation is understanding. A large part of our unconscious perceptions and thinking about non-material phenomena is governed by rhetoric, just as generative grammar – according to Chomsky – governs our use of it during speech. Thus, pragmatics forms one of the ways leading to the discovery of meanings not apparent on the surface, as long as its most concise definition is: how do we say something and mean something else? The aspect of pragmatic rhetoric can be traced in daily conversations, poetry, and political, religious, cultural, and social discourse; meaning that metaphor is a proof of argumentation and persuasion with it, with the aim of changing the recipient's behavior to reach social revolution as in religious discourse in general. Added to the previous components is the aesthetic function, which is in itself one of the means of influence and attracting the attention of the recipient.

Keywords: Pragmatics, Communication, Conceptual Metaphors, Intentionality, Conversational Implicature, Mind, Rhetoric, Utterance, Sign, Context.

المقدمة

إنَّ الطُّرُوحَاتُ النَّجْرِيَّةَ النَّقَاعِيَّةَ للاستعارة، لجورج لاكوف (George Lakoff) وآخرين أثبتت أنه من الاعتبار الاحتفاظ بنظرية الاستبدال في فهم ماهية الاستعارة، فهي أكبر من نقل كلمة ومبادلتها بأخرى، لكونها وسيلة تجريبية وإدراكية، وهي فكرة قبل أن تكون لسانية لغوية، بها نفهم ما حولنا ونعيد تشكيله، ولهذا لا مناص من التركيز على البعدين؛ التواصلي والتداولي في مقاربتهما، فهما الكفيلان بفكّ تشفيرها وتأويل بنيتها. لقد اخترنا دراسة آلية اشتغالها وأبعادها التداولية في خطاب مهم، هو الكتاب المقدس العهد الجديد، الأنجيل الأربعة: متى، مرقس، لوقا، يوحنا.

وذلك لما لها من أهمية بالغة الأثر، في تكوين إيديولوجيات جمّة، سواءً أكانت على مستوى الفهم والإدراك الاجتماعي أم على مستوى الاستعارة التي بلورت جملة المجازات

بالخطاب الروائي والأدبي. والقارئ المطلع يجد الكثير من الاستعارات الإنجيلية موظفة على صعيد الشعر وبعض النناج الأدبي، لا سيما ترأسل الحواس الذي يُعنى بوصف حاسة ما بصفات أخرى، ليس من طبيعة الأولى. وقد شرّح جورج لايكوف ذلك بقوله: إنَّ الاستعارة هي «إسقاطٌ عابرٌ للمجالات في النّظام المفهوميّ، وما العبارة الاستعارية إلا تحقُّقٌ سطحيٌّ لتلك العمليّات من جملة تحقيقاتٍ أُخرى، كائنةً في الخطاب العاديّ والإنشائيّ قيامًا واحدًا» (لايكوف وجونسون، 2009، ص 21).

ولبلوغ الغاية، قسمنا البحث قسمين: الجانب النظريّ حيث نقلنا الضوء على مفهوم الاستعارة كونها عملية إدراكية كامنة في الدّهن، والجانب التطبيقيّ حيث نعالج بعض الاستعارات الواردة في الأناجيل الأربعة.

أولاً- الجانب النظري

إنّ دراسة الاستعارات في الأدب والبلاغة، ما هو إلا توسعة وإضافات جاءت من دروب استعارة المحادثات اليومية، وبما أنّ نسق الاستعارة اليومية هو الأكثر بروزاً، كونه مساهماً في إدراك الاستعارة الشعريّة، باعتبارها مركزيةً تصنع أغلب القوالب الأدبيّة، فإنّه لا مناص من الابتداء، مع هذا النسق اليوميّ، الذي تبلور في أحاديث السيّد المسيح مع تلاميذته وإرشاد الناس، فهي خير تمثيل على تداوليّة القول ومعناه، وبلاغة الاستعارة كوسيلة للتأثير والتعبير والفهم والاحتجاج بها لتغيير سلوك المتلقّي.

1- الاستعارة تمثيل ذهني

ليست الاستعارة، كلمة يتمّ تحديدها بأنّها تعبيرٌ لغويّ جديدٌ أو شعريّ بلاغيّ، حيث تُستخدَم كلمةٌ أو جملةٌ من أجل تصوّرٍ أو تشابهٍ ما، خارج المعنى الوضعيّ الحقيقيّ لتلك الكلمة أو العبارة، فليس مكان الاستعارات هي اللغة فحسب، إنّما «بالطريقة التي نتخيّل بها بواسطة الدّهن التجريبيّ مجالاً ما -مجرداً أو ميتافيزيقياً- من خلال مجال آخر مادّي أو مجرّبٍ» (لايكوف وجونسون، 2009، ص 23).

فهي لم تعد ظاهرة لغويّة ناتجة عن استبدالٍ أو عدولٍ عن معنى حرفيٍّ إلى معنى مجازيٍّ، بل هي «عملية إدراكية كامنة في الدّهن، تؤسس أنظمتنا التصوريّة وتحكم تجربتنا» (أحمد، 2014، ص 56).

إنّ الاستعارة قديماً وحديثاً هي من الصُّور البيانيّة المتداولة بكثرة، وذلك لأفضليّتها في تمثيل الخطابِ وتكوينه، علاوةً على شموليّتها وتغلُّغها في سائر النتاج الأدبي؛ لأنّ اللغة -أي لغة- بطبيعتها استعاريّة، وهي تقومُ على المواضعِ وترابطاتِ المُشاهدةِ الصوريّة، وهذا ما رمى إليه أمبيروتو إيكو (Umberto Eco) الإيطاليّ في كتابه، «السيميائيّة وفلسفة اللغة» (1984).

وهكذا فتخصيصُ تلك التّرابطات المُشاهدة عبرَ المجالاتِ المتنوّعة، التي أفرزتها البيئَةُ، هو ما يُعطي نظريّةً عامّةً لموضوعِ الاستعارة. والأمرُ يتعلّق هنا تحديداً بالتصوّراتِ المُجرّدة غيرِ الملموسة، كالزّمنِ والحالاتِ العاطفيّةِ والعلاقاتِ السببيّةِ، ومثالُ ذلك قولنا: الزّمن يمضي، والحُبُّ رحلةٌ، والحقيقةُ أنّ الزّمنَ لا يجري، ولا الحُبُّ سفرٌ، ولكننا نُقاربُ المعنويّ بالمُجسّد، أي أنّنا نقومُ بعمليةٍ ربطيةٍ لنتفهّم أو نتصوّر، مجالاً غيرَ مفهومٍ أو ضبابيٍّ -من خلالِ تجرّبتنا ومعرفتنا- بمجالٍ آخرٍ سابقٍ في المعرفةِ والوضوحِ، أي المواضعُ والبناءُ عليه، وبذلك نُسقطُ اللامعروفَ والللاواضحَ، على الذي سبقتُ مُمارستُهُ، أي باقتباسِ تصوّراتٍ من الواقعِ وتطويرها خيالياً من مسيرةِ الحياةِ وأحداثها.

فالإنسانُ لا يفسّرُ ماهيّة الأشياءِ ولا يستطيعُ أن يفكّرَ بها إذا كانتْ غائبةً عنه، إلّا إذا كانتْ لها صورةٌ سابقةٌ تُماثلُها في ذهنه، إذا لا بدُّ من مُستوياتِ التمثيلِ الذهنيّ، لتكونَ المعلومةُ التي تُقدّمها اللغةُ مُنسجمةً معَ طبيعةِ الإدراكِ عنده، وكذلك فإنّ المعلوماتِ القادمةً من البيئَةِ المُحيطة، كالسمعِ والرؤيةِ والشّم، إذا لم تتوافرَ فيها تلك المستوياتُ الذهنيّةُ يكونُ من الصّعبِ عندئذ، توظيفِ اللغةِ في عمليةِ الإفهامِ والإخبارِ (أحمد، 2014، ص 59).

والجدير بالذكر أنّ النظرةَ الكلاسيكيّةَ القديمةَ للعبارةِ الاستعاريّة، تفترضُ أن تكونَ مُخالفةً لاستعمالنا اليوميّ العادي؛ باعتبار أن لغتنا اليوميّةَ في المحادثات، لا تتضمّنُ مركباً استعاريّاً، وعليه فالاستعارة -حسب الكلاسيكيين- لا بدُّ أن تُستخدمَ آلياتِ بلاغيّةً خارجَ نطاقِ اللغةِ اليوميّة.

ولعلّ أولّ مَنْ خالفَ هذه الفرضيّةَ القديمةَ، هو مايكل ريدي (Michael Redy) (1978) في بحثٍ أكاديميٍّ تحتَ عنوان: «استعارةُ المجزى»، إذ بيّن أن لغةَ الحديثِ اليوميّةِ الطّبيعيّة، هي لغةٌ استعاريّة، وليستِ الاستعارةُ -كما عند النّقليديين- مَحصورةً

بالمجازِ والبلاغةِ والشعرِ، كما أثبتَ بحثُ مايكل ريدي أنّ مقامَ الاستعاراتِ قابِعٌ في ذهنِ الإنسانِ وفكرِهِ، وليسَ في اللّغةِ، كما أنّ الاستعارةَ جزءٌ رئيسيٌّ في تصوّرِ العالمِ، وفي طريقةِ التّعبيرِ والحديثِ اليوميِّ، فضلاً عن سلوكنا اليوميِّ المرتبطِ بتجارنا الشخصيةِ (ابن دحمان، 2010، ص 32).

استناداً إلى ما سبق، إنّ الفنونَ البيانيّةَ، خيرٌ وسيلةٍ في أيدي الأديبِ وغيره، ليصوّرَ ما في ضميره، وليربطَ بها بين أمورٍ عديدة كالتّراسلِ، وما تداخل الحواسِّ إلّا من أبرز مظاهرها الماثلة في مُحادثاتنا اليوميّة، كالانتقالِ من البصريِّ إلى اللمسيِّ، حيث يُبنى غالباً على أساسِ الاستعارةِ المكنيّةِ والتّشبيهِ، مثل قولنا: رائحةُ الورودِ حلوةٌ وجميلةٌ وطبيّةٌ، أو في قولِ أحدهم: رائحةُ البخيلِ حامضةٌ مرّةٌ. إذاً يمزجُ الأديبُ هذا النّوعَ مِنَ التّعبيرِ بين مدركاتِ الحواسِّ، فيصفُ بعضها بصفاتٍ غيرها، أو يصفُ الأمورَ المعنويّةَ بما يختصُّ بالحواسِّ الظّاهرة، وذلك حينما يسعفهُ هذا الامتزاجُ في بيانِ أغراضِهِ. و«العرفنةُ نشاطُ الذّهنِ في عمومِ مظاهره، يشمُلُ التّذكّرَ، والتّعلّقَ، وحلَّ المسائلِ، والتّخيلَ، والحلمَ، والتّخطيطَ، والإحساسَ، والشّعورَ، والتّعلّمَ، والتّبريرَ، والتّكلمَ، والرّسمَ، والرّقصَ، وجميعَ ما تتصوّرُون من الأنشطةِ الذّهنيّةِ الحسيّةِ العصبيةِ، ممّا له صلةٌ بالذكاءِ الطّبيعيِّ» (أمين، 2014، ص 134).

إنّنا، من خلال ما تقدّم، نسعى إلى تبيان دورِ التّصويرِ في زيادةِ المعرفةِ، والاستعاراتِ التّصويريّةِ المفهومانيّةِ العرفانيّةِ، في الكتابِ المقدّسِ، للوقوفِ على كفيّةِ استخدامِ هذا النّوعِ مِنَ التّعبيرِ، والذي جاءَ مليئاً بالمعاني المجازيّةِ والصّورِ. إنّ الإنجيلَ يتميّرُ باحتوائه على هذا النّوعِ مِنَ التّعبيرِ الاستعاريِّ، فهو يحفزُ الحاسّةَ المُناسبةَ، ليبيّنَ ويؤاخي عليها استعارةَ الذّهنِ، محاولاً الامتزاجَ بها في خطابهِ للمُتلقيِّ، غيرَ مُبتعدٍ عن المعاني والرّموزِ الإشاريّةِ، التي يفرضُها الدّالُّ الواحدُ على مدلولٍ واحدٍ محدّد، كما في الصّورتين السّميّةِ والذّهنيّةِ في كلمةِ شجرةِ وبحرٍ مثلاً، كما ورد عند دي سوسير (De Saussure)، وبيرس (Perce).

إذاً، لا يُمكنُ حصرُ الاستعارةِ وإبقاؤها قائمةً على التّشبيهِ، فكثيرٌ مِنَ الاستعاراتِ لا تُفهمُ إلّا من خلال سياقٍ مَخصوصٍ بين منشيِّ الخطابِ ومُتلقيهِ كما في أفعالِ الكلامِ عند سيرل (Searle)، ما يدلُّ على أنّ مبدأ التّشبيهِ غيرُ كافٍ بمفرده. والاستعارةُ قابلةٌ

للتأويل في أحيان كثيرة، كما في كلمة عين التي تدلُّ على معانٍ عديدة. فربطها بعلم النفس أدى إلى اكتشاف استعاراتٍ لا واعية، هي نتاج اليد الخفية للذهن اللاواعي، كالاستعارات الاتجاهية، والانطولوجية، والاستعارات الوضعية القاعدية الأولية البسيطة المُجسّمة، التي طوّرت إلى استعاراتٍ شعريّة إبداعية فيما بعد، وهذه الأخيرة نتاج العقل الواعي، وما هي إلا توسيع للاستعارات اليومية الوضعية التصوّراتية.

ونظريّة الدمج أو المزج الاستعاري، «هي نظريّة تفسّر اشتغال الذهن البشري (...)»، وهي آلية عرفانية تحكّم تفكير الإنسان وتمييزه. والتفكير ذاته هو دمج بين فضاءات ذهنية مختلفة، ونحن في شتى ضروب تفكيرنا، حتّى البسيطة منها، نقوم بالدمج بين الفضاءات الذهنية» (البوعمراني، 2015، ص 14).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستعارات في النتاج الروائي، أخذ مادته الخام من الاستعارات الأولية الوضعية في الكتاب المقدّس - كما في أغاني فيروز وأشعار المهجر الشمالي - الذي كان المصدر والمُلهِم في تكوين الاستعارات، ثم أُدخلت عليها عناصر التوسعة والخيال، لتُصبح استعاراتٍ إبداعية تركيبية، ثم جاءت مرحلة التمييز في إطار فكر ما بعد الحداثة، للكشف عن هذا المزج المركّب، الذي هو ملكة لا واعية كسائر الملكات الذهنية المُصاحبة للخيال، وذلك وفقاً لنظريّة فوكوني (Fauconnier) وتورنر (Turner)، التي ارتكزت على مبدأ المزج التصوّري، فقد بينا أنّ الاستعارة تقوم على دمج المجال المصدر في المجال الهدف (Fauconnier & Turner, 2002, p. 53). أي من المُستعار منه إلى المُستعار له، ويُقصد بالمجال المصدر المُستعار منه أو المُشبه به في التقاليد البلاغية، والمجال الهدف هو المُستعار له، فعلى سبيل المثال في استعارة: الحبُّ تجربةٌ مرّة، تكون التجربة المرّة هي مجال المصدر كونها مادية، في حين يُمثّل الحبُّ المجال الهدف كونهُ معنويّاً مجرداً.

وحسب تحليل أحمد المتوكّل تكون كلمة تجربة، هي بؤرة الخطاب، في حين تُصبح كلمة مرّة الذيل، وكلمة الحبُّ هي المحور الحَمَل (المتوكّل، 2010، ص 83)، ومن هذا المثال الأخير سننطلق للولوج في أعماق الأناجيل الأربعة لاستكناه ماهية الاستعارات وتحليلها وفق منظور اللسانيات العرفانية التجريبية (رتشاردز (Richard) ولايكوف وجونسون (Johnson) وأمبرتو إيكو، وفوكوني) كمكانٍ أول، إضافة إلى أقلامٍ أُخرى،

سنتطلبها أبواب الدراسة. كما أنّ «القولَ بارتباط اللغة بالعرفان البشري يعود إلى نظرية الجشطالت Gestalt، التي من أبرز أطروحاتها (...). القول: بأنّ الذهنَ البشريّ هو الذي يبيّن الكونَ وينظّمه، (...) والأفرادُ يبنونَ أشكالاً بها يدركون الوضعيات، وأنّ طريقة عملِ الذهن تكون بناءً على التّركيزِ على الثّوابتِ» (قريرة، 2011، ص 15).

وعليه فإنّ العرفانية الاستعارية، تلتقي مع النظريات المعاصرة، وما بعد الحداثة التي تُعتمد إلى جعلِ القارئِ واعياً الوسائطِ البنيوية التداولية لسياقِ القصّ، مع ما تؤدّيه الاستعارة، ممّا يُشكل تكاملاً لنظامٍ جديدٍ، «ويجعلُ من الممارسة النقدية على حدّ تعبيرِ جوناثان كولر (Jonathan Culler)، مجموعةً من التّوقعاتِ بين القارئِ والنّصّ» (محمد، 2016، ص 316).

ولأنّ النظرياتِ الإنسانيّة تتوالد من بعضها البعض، فإنّ العملَ البحثي يحاولُ أن يُسلّط الضوءَ على التأسيسِ النظري لهذه الأفكارِ المستجدة وتطبيقاتها على دراسة الاستعارة بوصفها ظاهرةً ذهنيّة، يُمكن أن تتمظهر لغويّاً في خطاباتٍ متنوّعة. هذا التّمظهر اللغويّ يدفع البحثَ إلى التساؤلِ عن الكيفيّة التي تعاملتُ بها النماذج المعرفيّة، التي اخترنا عرضها من الإنجيل.

ولمعرفة تنوّعاتِ الاستعاراتِ في العهدِ الجديّد، التي امتزجتُ بالحواسّ الخمس الظاهرة، وتضافرتُ في تكوينِ صورٍ بيانيّة قلّ نظيرها، تمّ التّحويلُ فيما بينها، كزوايا مرّعيّة، كمرّيعِ كريماس (Greimas) (Carré sémiotique)، وهذا الأخيرُ يجري تداوله في النّصوص السردية، لمعرفة نقاطِ التّقابلِ والتّقاطعِ في النّصوص المكتوبة، ليكون أداةً لتحليلِ بعضِ المفاهيم السيميائية.

إذا، ترتكزُ الاستعارةُ التّصويريّة على مبدأ الإسقاطِ، أي إسقاطُ مجالين تصويريين، الطرفُ الأوّلُ يُمثّل المصدرَ (أ)، والثّاني يُمثّل الهدفَ (ب)، وبالتالي نُسقطُ المصدرَ الذي يكون عادةً مادّيّاً، على المجالِ الهدفِ، وغالباً ما يكونُ معنويّاً أو ميتافيزيقياً أو مُجرّداً، وقد نُسندركُ في الاستعارة -أي المُتكلّمُ مُنشئُ الخطاب- إسقاطُ مجالين، مجالٌ مُجرّدٌ على آخرٍ مُجرّدٍ أيضاً، بغية تحقيقِ عمليّة الفهمِ والإدراكِ للمُخاطَبِ المُتلقّي.

وكمثالٍ توضيحيٍّ على ذلك، نذكرُ: التَّضخُّمُ خيبةٌ للوطنِ، فكلمةٌ تضخُّمٌ معنويَّةٌ وهي مجالُ الهدفِ، فُمنَّا بإسقاطها على المجالِ المصدرِ وهي كلمةٌ خيبةٌ، لأننا لا نستطيعُ إدراكَ المعنويِّ المجرَّد غيرِ المحسوسِ، إلَّا مِن خلالِ صورةٍ متعارفٍ عليها، وقارَّةٍ في الذَّهنِ أي في الدِّماغِ البشريِّ، بذلكَ استطعنا أنْ نكوِّنَ تصوُّراً محسوساً لذلكَ التَّضخُّمِ عبرَ إلباسه بآخرٍ أكثرَ عُرفيَّةً. وبذلكَ تمكَّننا الاستعارةُ التَّصويريَّةُ مِن تخيلِ أفضلِ المفاهيمِ غيرِ المحسوسةِ، وتمثَّلها كأنَّها مُدرَكةٌ بالحواسِّ الخمسِ. إضافةً إلى مفهومِ الاستعارةِ التَّصويريَّةِ السَّابِقةِ، هناكَ مبدآنِ أساسيّانِ تركَّزَ عليهما هذه الاستعارةُ:

1 _ إن نظامنا التَّصوُّري قائمٌ في جزءٍ كبيرٍ منه على أُسسٍ استعاريَّةِ

2 - الاستعاراتُ التي نحيا بها، هي نتاجُ تصوِّراتنا النَّقَّافيَّةِ، وأيُّ استعاراتٍ خارجَ هذه التَّصوِّراتِ النَّقَّافيةِ التَّجربيَّةِ، قد تودِّي إلى تعطيلِ عمليَّةِ الفَهمِ والتَّواصلِ» (البوعمراني، 2015، ص 124).

كما تعتمدُ الاستعاراتُ التَّصويريَّةُ على روافِدِ نظرياتٍ أُخرى، كالمزجِ التَّصويريِّ، أو نظريَّةِ الدِّمجِ التَّصويريِّ المفهوميِّ، أسَّسها الفرنسي جيل فوكونبي والأمريكي مارك تورنر، في كتابهما المُشترَكِ، «The way we think»، حيثُ نُشِرتْ بعضُ مضامينها قبلَ 1980، وهي نظريَّةٌ نفسيَّةٌ عرفانيَّةٌ، يقومُ بها فردٌ ما، في اللاوعيِّ، بواسطةِ ملكةٍ عرفانيَّةٍ تعتمدُ على تجميعِ المعلوماتِ مِن وراءِ حجابٍ، وتنفَّلتُ مِنَ الوعيِّ، لتبقى قابِعةً في أفضيةٍ ذهنيَّةٍ في اللاوعيِّ، ولتوضيحِ ذلكَ نطرحُ المثالَ الآتي كي نعرفَ آليَّةَ الدِّمجِ التَّصويريِّ في بنيةِ الذَّهنِ الدَّاخليَّةِ:

«تلكَ المرأةُ رئيسةُ المَصْرِفِ الفاسدةِ».

يتَّضحُ لنا أنَّ المثالَ السَّابقَ، مُكوَّنٌ مِن قطبينِ اثنينِ مُتباعدين، الأوَّلُ قطبِ الرِّعامةِ والرِّئاسةِ، وقطبِ ثانٍ هو الفسادُ، ومِن خلالِ دمجِ القطبينِ السَّابقينِ ومزجهما (أ) و (ب)، سينتجُ عنهما الحصيلَّةُ الآتيةُ (ج): سَرِقَةُ المالِ العامِّ ورُزُوحِ المجتمعِ تحتِ وطأةِ الفقرِ، نتيجةُ التَّعسُّفِ في مُزاولةِ السُّلطةِ، وهناكَ قطبِ جامعِ (د)، يُبلورُ (أ) مع (ب)، لِما فيهما مِن عناصرٍ مُشتركةٍ، فَمِنَ قطبِ الرِّئاسةِ تظهرُ علاقةُ الغايةِ بالوسيلةِ، بشكلٍ غيرِ متوافقٍ -علاقةُ الغايةِ بالوسيلةِ لقطبِ الفسادِ- بأنْ تكونَ الوسيلةُ هي الرِّئاسةُ،

والغاية هي النجاح. عندئذٍ يحدث التمازج التوليفي والتقريب بين وسيلة الفاسد وغايتها، ألا وهي السرقة، وجملة مقام هذه العبارة مُستقرٌ في القطب المزيج، وتحصيل ناتج العبارة السابقة هو الفشل.

2- الاستعارة في بعدها التداولي

وبالعودة إلى العنوان، الذي يَمتاز بِحَدِيثِهِ، وبعد أن شرحنا ما يتعلّق بِحَدِّهِ الأَوَّلِ العرفانيّةِ التَّصوُّريّةِ الاستعاريةِ، نأتي الآن إلى الجانبِ الثَّانيِ منه، وهي التَّداوليّةُ وتعريفُها المُتَشَطِّبَةُ، غيرَ أَنَّا سَنُحَدِّدُهَا بِمَنْطَلِقَاتِ تشارلز موريس (Charles Morris) (1938) الذي ربطَ التَّداوليّةِ بالعلومِ السِّيميائيّةِ، مثلَ دراسةِ التَّراكيبِ، والدَّلالاتِ في الخطابِ، ودراسةِ العلاماتِ بِمُؤَوَّلِهَا ومُفَسِّرِهَا، ومِنَ الأخيرةِ، استفادَ التَّفَكِّيكيونَ، كما عندَ جاك ديريدا (Jacques Derrida) في كُتُبِهِ الثَّلاثِ (1967) في التَّقْوِيضِ والتَّشْرِيحِ، وإِعادةِ البناءِ، والغراماتولوجيا، وهذه الأخيرة تُعنى بِدراسةِ أنظمةِ عِلْمِ الكِتَابَةِ.

وتختلف التَّعريفاتِ التَّداوليّةِ من باحثٍ إلى آخر، فكلُّ واحدٍ يَحاوِلُ أَنْ يُعَرِّفَهَا وَفَقَ الجَانِبِ المعرفيِّ الذي يَعْتَمِدُهُ في بحثه، فتعريفُ اللغويِّ يَختلفُ عن تعريفِ الاجتماعيِّ، وتعريفُ الأخيرِ يَختلفُ عن تعريفِ النَّفْسانِيِّ وهكذا دواليك... ولكنَّ السِّمَةَ الغالبَةَ التي تَجْمَعُهُم جميعًا تُركِّزُ على التَّواصلِ والاستعمالِ الحَقِيقِيِّ لِللُّغَةِ، فهي تعريفُ متفاوتةٍ مِن حيثِ العمومِ والخصوصِ. وقد نَجَمَ عن هذا التَّنوعِ غنىٌ لا نظيرَ له، مِن حيثِ التَّوظيفِ المفاهيميِّ والمعجميِّ. غيرَ أَنَّ هناكَ مَنْ حَدَّدَ التَّداوليّةِ وربطها بِالذَّهْنِيَّةِ واللِّسانِيَّاتِ، لذا يَقتَرِحُ ستيفن. ك. ليفينسون (Stephen C. Levinson)، في كتابِهِ «اللُّغَةُ البِراغماتِيَّةُ» (1983) تعريفًا كَثِيرَةً نَذْكَرُ مِنْهَا:

- «التَّعريفُ الأَوَّلُ دراسةُ اللُّغَةِ في إِطارها الوظيفيِّ، أَي فَهْمُ بِنِياتِ اللُّغَةِ، وربطها بالسياقِ.

- التَّعريفُ الثَّاني: التَّداوليّةُ دراسةٌ للعلاقاتِ بَيْنَ اللُّغَةِ والسِّياقِ، أو هي دراسةُ الشَّكْلِيَّةِ (...).

- التَّعريفُ الثَّالثُ: التَّداوليّةُ دراسةٌ لظواهرِ بِنِيَةِ الخِطابِ اللغويِّ مِن تَضْمِيناتِ، واقتضاءاتِ، أو ما يُسمَّى بِأفعالِ اللُّغَةِ» (مَقْبُول، 2006، ص 263-264).

واضح جدًا من التعاريف السابقة، أنها تتمحور حول الدلالة والاستعمال. فدراسة الاستعارات العرفانية التداولية تنضوي تحتها عناصر تفاعلية، من متكلم، ومستمع، ومقاصد ونوايا، وسياق، ومقام، وهي كلها تتضافر مع بعضها البعض لتبرز المعنى. ومن الأوائل الذين ربطوا بين السيمياء ومصطلح التداول، هو تشارلز موريس 1938م، عندما استخدم التداولية لتعريف علوم السيمياء الثلاث:

- 1 - علم التركيب: *syntaxe* أو *syntactics*، وهو يُعنى بدراسة العلاقات الشكلية، بين العلامات بعضها ببعض.
- 2 - علم الدلالة: *semantique* أو *semantics*، وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تُحيلُ أو تدلُّ عليها.
- 3 - التداولية: *pragmatics*، تهتم بدراسة العلامات بمؤولليها ومفسريها (نحلة، 2002، ص 9).

وهذا الترتيب الذي اعتمده موريس في هذه الفروع ليس اعتباطيًا، بل هو ترتيب ينتقل من الخاص إلى العام، حيث تتعالق العلامات اللغوية في الاستعارة المفهوماتية التصوراتية فيما بينها، وفق نظامها الخاص، ثم تأتي مرحلة الإحالة على مراجعها، ولولا التركيب لما حدثت إحالة وحصلت المقصدية وزالت الاحتمالية، فهذه العلوم الثلاثة هي في الحقيقة ليست مستغنية عن بعضها البعض.

ورغم استعمال مصطلح التداول المبكر من تشارلز موريس، فإنه لم يتبلور ليصير نظرية مستقلة أو علمًا محددًا الأركان لمجالات اللغة، إلا بعد زمن ليس باليسير، فقد أسهم ثلاثة فلاسفة في تطويره وإنمائه: جون أوستن (John Austin) في كتابه الموسوم «الأفعال الكلامية» (1962) والذي استفاد منه فيما بعد، بول جرايس (Paul Grice) (1969) وسوريل (1979). وكان هؤلاء الثلاثة من أنصار مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية أو العادية، التي تهتم بطريقة إيصال معنى اللغة الطبيعية للإنسان، من خلال إبلاغ رسالة ما، إلى مُرسَل إليه -مُخاطَب- يؤولها، ومع ذلك لم يستعمل واحد من هؤلاء الثلاثة، هذا المصطلح في بحوثه ومؤلفاته (نحلة، 2002، ص 83).

وعليه فإنّ الاستعارة في بعدها التداولي، مرتبطة بالوعي واللوعي، وتحليل النّاتج التّفسي مُعكّس حُكمًا على الأربعة: اللسان، والكلام، والفكر، واللغة. لذا فإنّ الاستعارة التّدالويّة فيها قُوّة حجاجيّة الخطاب ودرجات الإقناع، كما تُؤكّد على مقصديّة المُتكلّم، وتقرّض الاستلزام الحواري بين المُتخاطبين. فالاستعارة ليست شرطًا لزوميًا في أعمال المعرفة وإنتاجها، وتأتي استعمالها حسب مقصديّة المُتكلّم؛ بل أنّها وسيلة تقريبية من خلال التّشبيه والتّشخيص، لِمَا لها من حضورٍ بارزٍ في التّخاطب الأدبي.

ثانيًا- الجانب التّطبيقي: نماذج لتحليل الاستعارات التّصويرية من الأناجيل وفق المنظور العرفاني

نهدف من خلال هذا المبحث، تقديم صورةٍ عمليّة توظيفية، بالانكباب على تمثيلها بطريقة أكثر قُرْبًا وتفصيلًا، مما تنثوي عليه بالنظريات التّجريبية في الاستعارات المعاصرة. وكما بيّنا سابقًا فإنّ الاستعارة لا تنهض لوحدها لإدراك القصد منها، بل بجملة الإطارات المحيطة بها، وهو ما يُمكن تسميته بمبدأ إعادة المُعالجة، باستعمال الآتي:

- المُتكلّم وخلفيته المقصديّة.
- المُتلقي وقابليّة التّفكي.
- الانسجام بين الكلام والسّياق.
- الزّمكان والسّياق والنّص.
- أعمال المُخيّلة الدّهنيّة، الذي يعتبر شرطًا لعمليات التّرميز المعرفي المرتبط باللوعي، وهو من الأبعاد الأساسيّة في نتاجيّة المعاني وتأويلها. فالخيال مساهم في عمليات تطوير المعارف، ثم تأتي الاستعارة مُبرزة إياه. إنّ الاستعارة المعاصرة تلتقي مع عِلْم البيان، في أداء المعنى الواحد والفكرة الواحدة بأكثر من أسلوب، وهو ما يجعل الاستعارة كثيرة الانتشار، كونها تعبيرًا يَشْمَلُ سائر النّشاطات الفكرية عند الإنسان.

1- الاستعارة النبوية

نجد الاستعارة في إنجيل متى المسبوقة بالتشبيه، في معرض حديثه عن حساب يوم القيامة، وكيف يميز الله بين الصالحين والمذنبين «وُحْشِرُ لَدَيْهِ جَمِيعُ الْأُمَمِ، فَيَفْصَلُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا يَفْصَلُ الرَّاعِي الْخِرَافَ عَنِ الْجِدَاءِ، فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنْ شِمَالِهِ» (متى، 25: 32-33).

تظهر الاستعارة بقوله: فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ - جمع جدي - عن شماله، ويكون المعنى الحرفي: فيقيم الله المؤمنين عن اليمين، والكفار عن الشمال لمحاسبتهم بالعدل. «ثم يقول للذين عن الشمال: إليكم عني أيها الملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملأكته» (متى، 25: 41).

إذا قد شبه المؤمنين والكفار بالخراف والجداء على التوالي، وهي استعارة تصريحية حيث حذف المشبه المؤمنين والكفار، وأطلق المشبه به الخراف والجداء على سبيل المقاربة وبيان الغاية. غير أن فكرة الاستعارة التصويرية لا تعتمد علاقة المشابهة، إذ لا تشابه بين الخراف والجداء من جهة وعمامة البشر من جهة أخرى. ولناخذ تحليل السمات الدلالية كما عند أمبيرتو إيكو في تحديد المقومات المشتركة بين المجالين:

- الإنسان: +عافل +ثديي +ناطق +ساقان +ذهني +دم وعظام +ممتوع الغذاء +مفكر.
- الخراف والجداء: +حيوان +ثديي +غير عافل +أربع قوائم +عاشب +غير ناطق +غير ذهني +غير مفكر +لحم وعظام.

يظهر الشريح لكلا الجنسين تناقضاً بيناً بين المكونين، إذ إن فمؤدى المعنى بالاستعارة الإنجيلية يتضح من خلال مقصدية المتكلم المرتبطة بالسياق، والتي تعني تنبيه الإدراك بالمجال غير المجرب، وذلك باستعمال المجال النقا علي التجريبي المجرب. وعبر دمج المجالين في الإطار الذهني - حسب نظرية المزج التصويري - نتجت حالة التمييز بين المتناقضين. إن نظام التصوير في الآية السابقة، متأثر حكماً بالبيئة المكانية آنذاك، حيث تم التمييز بناءً على الواقع المعيش، الذي أفرزته معطيات الطبيعة والنظام الاجتماعي. فالممايزة تمت عبر إسقاطها الرعوي الزراعي، إذ استعار معنى العناد

والصَّلابة والقسوة مِنَ الجَدِي، ثم أسقط تلك المعاني السَّلبِيَّة على الكافرِ الرَّافضِ.
غيرَ أنَّ استبدالِ نظامِ تعريفِ المؤمنين والكافرين بالخِرافِ والجَداءِ لم يأتِ صدفةً،
بل جاء للاستدلالِ على معانٍ خبيثةٍ في البنية العميقة للمُتَكَلِّمِ والمُتَلَقِّي، فالخِرافِ تشير
إلى مدى الإطاعةِ والخضوعِ والاستجابةِ واللين، بينما الجداءُ ترمزُ إلى العنادِ والقسوةِ
وصعوبةِ المِرَاسِ، ومن خلالِ الحالتينِ انطَلَقَتْ استعارةٌ تصويريَّةٌ بالعناصرِ السَّابِقةِ.

بهذا فإنَّ الخِطابِ يتضمَّنُ السِّيميائيَّ والرِّمزيَّ، ولا نصلُ إلى تفسيرِ العلاقةِ الرِّمزيَّةِ
إلا عن طريقِ الانزياحاتِ، «الذي يحملُ كلَّ التَّطوراتِ والعلاماتِ النَّفسيةِ والاجتماعيةِ،
فيعدُّ جانباً تحفيزياً للتدليلِ على كيفيةِ اشتغالِ النَّصِّ من خلالِ مبادئِ الإزاحةِ أو
التَّكثيفِ والاستعارةِ» (لخداوي، 2014، ص 222).

ولا يُمكنُ إسقاطِ الاستعارةِ السَّابِقةِ على معطياتِ عصرِ الحداثةِ، حيثُ المعطياتُ
التَّداوليَّةُ والرِّمكانيَّةُ أفرزتْ قوالبَ عصريَّةً، إذ لا تنتمي بالضرورةِ إلى عالمِ الحيوانِ. فلو
أرادُ أحدنا أنْ يقدِّمَ مثلاً عن استعارةِ تميِّزِ بينِ رُكنينِ أو صِنْفينِ مُتداخِلينِ لقالَ مثلاً:
يستطيعُ الأستاذُ تميِّزَ طُلابِهِ بالامتحانِ، فيضعُ المُتأبِرِينَ في صفٍّ، والمتأخِّرينِ في
آخر. فالمُتأبِرُونَ تعني طُلاباً بعلاماتٍ عاليةٍ، والمتأخِّرونَ تعني طُلاباً بعلاماتٍ دونَ
الوسطِ، وهكذا دواليك...

2- استعارةُ الاتِّجاهِ

تَبَرَّرُ في الاستعارةِ الإنجيليَّةِ السَّابِقةِ -الجداءِ شمالاً والخِرافُ يميناً- دورَ الاتِّجاهِ
الذي تحدَّثَ عنه لايكوف وجونسون، وهي استعارةٌ تجسديَّةٌ اتِّجاهيَّةٌ تستندُ إلى شكلِ
الجسدِ البشريِّ المستقيمِ، كونِ الإنسانِ طبيعةً مُفكِّرةً يميِّزُ الجِهاتِ الأربعةِ، مع تفضيلِهِ
جِهَةً اليمينِ للأعمالِ الصَّالحةِ، والجِهَةَ العُلَيَّا للقيمِ الإيجابيَّةِ، أمَّا الأسفلُ والشَّمالُ فعكسِ
ذلكِ.

وهذا يعودُ بطبيعةِ الحالِ، إلى الموروثِ التَّاريخيِّ والعقائديِّ والثَّقافيِّ، طالما كان
المطرُ الهابطُ مِنَ الأعلى يُحيي الأَرْضَ ويُنبِتُ الزرعِ السَّقْلي، تغدو عنده السَّعادةُ قيمةً
عُلَيَّا بالمعنى الفوقي الإيجابيِّ، والسَّلبيَّاتِ بالاتِّجاهِ السَّقْلي. أما لماذا اليمينُ بالتَّحديدِ
غالبٌ في حركاتِ الإنسانِ؟ فمردُّ ذلكِ راجعٌ إلى طبيعةِ تكوينِ الدِّماغِ؛ فالقسمُ الأيسرُ

هو الأكثر نشاطاً عند عامّة البشر، وهو المسؤول عن وظائفٍ مُتعدّدة كاللغة والتفكير والتحليل والتخييل وحركة اليد اليمنى. تتبّع هذه الاتجاهات من وضعيّة الجسد وكيفيّة اشتغاله في المحيط الفيزيائي، «غير أنّ هذه التعلّقات مع التجربة الفيزيائية غير كافية لوحدها، بل لأبد من العامل الثقافي الذي يُحدّد نوع التعلّق المختار حيث تُقدّم التجربة الثقافية والفيزيائية العديد من الأسس المُمكنة» (عمايري، 2017، ص 149).

ونحن نلمح مثل هذه الاستعارات، التي تُغزّر كثيراً في إنجيل يوحنا ناقلاً عن المسيح قوله: «جنّت أنا إلى العالم نوراً، فكلّ من آمن بي لا يبقى في الظلام، وإن سمع أحد كلامي ولم يحفظه، فأنا لا أدينه، لأنّي ما جنّت لأدين العالم، بل لأخلص العالم» (يوحنا، 12: 46، 47).

ومن الآيتين السابقتين نجد ثلاث استعارات، مدركة بالعقل، مع إهمال الحسّ وفعل المخيلة.

- الأولى: جنّت نوراً، بدل جنّت هداية على التصريح بحذف المُشبه.
- الثانية: لا يمكث في الظلمة، بدل الظلال والباطل. على التصريح
- الثالثة: لأخلص العالم، بدل الخطيئة والجهل. على التصريح.

ومن اللافت للنظر، غلبت الاستعارات التصريحية في الأناجيل الأربعة على ما سواها من الأنواع الأخرى، التي تتركز على طريقة تعويضية، أي تعويض لفظٍ بآخر يخلو من المرونة والمداد الخيالي، على عكس المكنية التي هي الأبلغ في إرادة التعبير والمقاربة والتجسيم والتصوير والتشبيه. ويؤكد أبو بكر الصولي في كتابه «أدب الكاتب»، أنّ الاستعارة المكنية، أجل استعارة وأحسنها فهماً لبساطتها، وهي الغالبة على كلام العرب (الصولي، 1922، ص 125).

كما ظهرت في الأناجيل استعارات على غرار التشبيه، ونستطيع تمييزها من خلال مُركّب الجملة بدل استعارة الكلمة المفردة، نحو: «أم أية امرأة إذا كان عندها عشرة دراهم، فأصاعت درهماً واحداً، لا تُوقد سراجاً وتكنس البيت وتجده حتى تجده؟ فإذا وجدته دعت الصديقات والجارات وقالت: افرحن معي، فقد وجدت درهماً الذي أضعته! أقول لكم: هكذا يفرح ملائكة الله بخاطي واحد يتوب» (لوقا: 15: 8-10).

نتبين من التمثيل السابق، بيان استعارة ضمنية، وهو ما يُسمى بالاستعارة التمثيلية المنتزعة من مُتعدّد، حيثُ أقامَ المُتكلّمُ الدرهمَ الضائعَ في البيت، مكانَ الإنسانِ الشارد الضال في الدنيا. كما أقامَ المُتكلّمُ المرأةَ الباحثة، مكانَ الراعي الأمين أو الكنيسة، التي تبحثُ عن العصاة لتهدّيهم سبيل الصّلاح. وقد نتجت الاستعارة عن الخيال التّصويريّ من خلال مُزاوجة انطباعاتٍ سالفَةٍ في الدّهن، ليستلّ منها مقارباتٍ تشبيهيّةً. فأسقط صورةَ البيت وما يشتمل عليه على سماتِ البيتِ الكنسي، فضلاً عن تجسيدِ المُجرّد بالمحسوس، حيثُ حوّل الضال إلى درهم، والهداية باتت كفرحِ المرأة مع الجارات بالعثور على الدرهم. وهذا النوع من الاستعارات يعتمدُ على إعمالِ المِخِالِ الذهني، لإدراكِ واقعٍ مُرادٍ قِصديّ محسوس، هدفةً تجسيمِ الخيالِ غيرِ الموجود.

3- الاستعارة البسيطة الأوليّة

وهي تظهرُ لنا في استعارة تحذيرِ بعضِ الفريسيّين لیسوع: «أخرج فاذهب من هنا، لأنّ هيرودس يريدُ أن يقتلكَ. فقال لهم: اذهبوا فقولوا لهذا الثعلب: ها إني أطرد الشياطين وأجري الشفاء اليومَ وغداً، وفي اليومِ الثالثِ ينتهي أمرِي» (لوقا، 13: 31، 32).

حيثُ استعارَ المُتكلّمُ كلمةَ الثعلب للدلالة على القيصِرِ هيرودس، وعليه استعارَ صفاتٍ مُحدّدةً، لمطابقةِ الوصفِ الذي يتحلّى به الملك، لما في الثعلبِ من سماتِ المكرِ والغدرِ والخديعة، لذلك تقيّدنا الاستعارةُ في بيانِ شخصيّةِ قيصرِ آنذاك، كالمراوغة والدّهاءِ وسفكِ الدّم. إنّ هذا النوع من الاستعارات يُمكنُ تصنيفه ضمنَ الاستعارة الحقيقية البسيطة، لما بين المُستعار له والمُستعار منه من مُقوماتٍ موجودةٍ في الواقعِ المألوف.

فاسترجاع الاستعارة لا يحتاجُ إلى خيال، أو إجالّة فكرٍ وعقلٍ وتدبّر؛ لكن هذا لا يعني التّطابقَ التّامَّ بين الثعلب والقيصِر، إذ إنّهُ تطابقٌ في صفاتِ الحالِ والسلوكِ فحسب. لكننا نتناسى المُبالغة والتشبيه، ونصبحُ أمامَ انصهارِ تداوليّ ما بين المعنيين، بغيةِ إثارة الفكرِ والتّحريضِ على فعلٍ ما، بهدف التّغيير.

من ضمنِ معطياتِ التّعبيرِ التّداولي، إقامة جسرٍ بين الظاهرِ والمُضمرِ، وأفعالِ الكلامِ في التّعبيرِ الاستعاري - هذا الثعلب - تشيرُ إلى حالاتِ الخوفِ الاجتماعي وطبيعة الاستبداد، وعدم رضَى المسيح والسّائرين على خطاه على تلك النّظمِ الاجتماعيّة، التي

كانت تميل إلى صالح الفريسيين آنذاك.

يُعتبر هذا التشبيه تشبيهاً معنوياً لا حرفياً، أما القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، فهي استحالة أن يقول المسيح: اذهبوا فقولوا للثعلب الحيوان، فلا وجود لثعلب يعقل أو يُخاطب بالكلام. كما أن هذا النوع من الاستعارات القديمة، ما زال أثرها مستعملاً -كما عند بول ريكور (Paul Ricœur)- حتى اليوم، ولكنه يُسمّى بالاستعارات الحيّة والميّنة، نظراً لبساطتها وسهولة تلمسها واستحاضارها من طبيعة المعيش اليومي. وعليه «فإنّ الاستعارة لا تعني النقل المجرد بل الادّعاء، أي إثبات المعنى والمبالغة فيه، وكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة، وإدخال المشبه في جنس المشبه به، كلُّ هذه الأمور تنفي أن تكون الاستعارة مجرد نقل» (هاشم، 1994، ص 38).

فالاستعارة السابقة لا تنقل، بالقدر الذي تُفسّر لنا ماهية الحكم القيصري، كونه مجالاً بعيداً يشوبه الغموض، حتى صار في حكم المُجرّدات، ومن خلال تطعيمها بأخر حسيّ كالثعلب، يغدو المجال مُجرّباً مُجسّداً.

وقد طرحنا أعلاه مثلاً: «هذه المرأة رئيسة المصرف الفاسدة»، وبيننا كيفية تداخل قطبين متباعدين (أ) و (ب) لإنتاج قطب ثالث (ج)، وكذلك كيفية إنتاج قطب رابع (د) جامع. ويمكن تخطيط الاستعارة الإنجيليّة على النحو الآتي:

• (أ) = قيصر والسّلطة / الغاية.

• (ب) = الثّعلب / وسيلة.

• (ج) = المكر والخديعة / وسيلة.

• (د) = المظلمة والقتل / نتائج.

لكننا لا نستطيع الركون إلى أنّ الاستعارة تأخذ جانب تسمية الأشياء، لذا فهي تواصلية، صحيح أنها تُعنى بهذا الجانب؛ ولكن لا تقتصر عليه فحسب.

إنّ الدماغ البشري قائم على مبدأ التصويرية، كونه يُعمل الحواس الخمس في إدراك ماهية الأشياء في بعض أحوالها، وهذا ما أكدّه لايفوف وجونسون غير مرّة في كتابهما: «الفلسفة في الجسد والدّهن المتجسد»، 1996م، كما بيّن أنّ اللغة بطبيعتها استعارية،

كونُ اللغَةِ هي مِن صناعةِ نظامِ التَّفكيرِ. ونحنُ نلاحظُ في الاستعارة هيرود -الملك -ثعلب، أنّها استعارة بسيطة أوليّة، وعلى كونها حقيقيّة كما بيّنا سابقاً، لذا نجدُها تُحقِّقُ أعلى نِسبِ التّداوليّة في الدّيوع والانتشار والاستمرار في اعتمادها أمثالاً مسكوكة. ويرى جوزيف غرادي (Joseph Grady) أنّ الاستعاراتِ المُعدّدة «نتيجةٌ عن استعاراتِ أوليّة، تُبنى على تجربتنا اليوميّة بحيث ترتبط تجربتنا الحسيّة الحركيّة، بمجال أحكامنا الذاتيّة (...)، فمثلاً الاستعارة التّصورية الأوليّة (..) الحنان دفاء؛ لأنّ تجربتنا الأولى مع الحنان تُوفِّقُ التّجربة الماديّة للدفاء الناتج عن الاحتضان والاتصال الجسدي» (حفصي، وشقروش، 2021، ص 99).

ومثّل هذه الاستعاراتِ الأوليّة البسيطة، تتكرّر في العهد الجديّد، كما أنّها تُعادُ بصفاتٍ أُخرى مُتباينة في الخطابِ المسيحيّ عموماً، فقد شُبهَ المسيحُ بالحملِ الوديع في جامع الوداعة والألفة، لما في طبيعة الرُّسلِ مِنَ اللينِ ومحبةِ النَّاسِ والتّواضع والخُلُقِ الرّقيقِ، على سبيلِ الاستعارة التّصريحيّة «وفي الغدِ رأى [يوحنا] يسوع آتياً نحوه، فقال: هوذا حملُ الله الذي يرفعُ خطيئةَ العالم» (يوحنا، 1: 29).

جاء تشبيهُ المسيحِ بالأسد في جامع الهيبة والشّجاعة والإقدام، في دفاعه عن المظلومين ورباطة جأشه في مواجهة الجّدالِ الفريسيّ. لا تتأفّض بين الاستعارتين التّشبيهيّتين البسيطتين، إذ لا يُشترطُ التّطابقُ بالصفات، طالما يستطيع الإنسانُ أن يجمعَ أكثرَ من صفةٍ واحدةٍ في سجاياه. وقد لاحظنا أنّ الأناجيلَ الأربعة خلّت من تشبيهِ المسيحِ بالأسد، وأنّ مثلَ تلكِ الاستعارة البسيطة، لا يُعوّلُ عليها في إدراكِ المجالات الغامضة من خلال أُخرى مُجرّبة، بمعنى أنّ تلكِ الاستعاراتِ تبقى قابضةً في دائرة التّشبيهِ والمديحِ والمبالغة، ولا يُمكنُ عدّها من وسائلِ الفهمِ والإدراكِ وبناءِ معرفةٍ جديدةٍ «فقال لي واحدٌ من الشيوخ: لا تبتك. ها قد غلبَ الأسدُ من سبِطِ يهوذا، ذُرّيّةِ داود: فسيفتح الكتاب ويفضّ أختامه السبعة» (رؤيا، 5: 5).

4- الاستعارة الأنطولوجيّة

تُعَدُّ الأنطولوجيّة توسعةً لبعضِ المفاهيمِ المُجرّدة كظاهرةِ الغلاءِ والطلاقِ، من خلالِ لباسها بعضَ العناصرِ المُجسّمة، بغية فهمِ بعضِ أبعادها المجهولة، فنقولُ مثلاً: ارتفاعُ نِسبِ الطلاقِ يُدمّرُ الأسرةَ في لبنان.

إدًا صار الطَّلَاقُ مفهوماً من مفاهيم تشريدِ الأولادِ وتحطيمِ الأواصرِ الأسريَّةِ وهكذا، غير أننا نلتَمِسُ في الطَّلَاقِ معانيَ أُخرى غير السَّالفةِ، فقد يكون حَلًّا اجتماعيًّا لبناءِ حياةٍ أُسريَّةِ ثانية وإبعادًا للسَّجَالِ والخصوماتِ، لذا فنظرتنا للمجرّدِ تختلف حسب رؤيتنا للزَّمانِ، والمكانِ الذي نتواجد فيه. وعليه نُلَاحِظُ الاستعارة بقولِ المسيح: «أنا البابُ. فَمَنْ دَخَلَ مِنِّي يَخْلُصُ يَدْخُلُ وَيُخْرَجُ وَيَجِدُ مَرْعَى» (يوحنا، 10: 9). وكذلك قوله: «أنا الطَّرِيقُ والحَقُّ والحياة» (يوحنا، 14: 6).

في الآيتين السَّابقتين نَجِدُ استعارتين أنطولوجيَّتين، البابُ والطَّرِيقُ، وسنكتفي باستعارة البابِ، فهل المسيح بابًا كأبوابِ البيتِ الحديديِّ أو الخشبيِّ؟ لقد جاءتِ الاستعارةُ أنطولوجيَّةً في معنَى مجازيٍّ، في معاني الدَّخولِ إلى جادةِ الإيمانِ والشَّفاعةِ والأمنِ مِنَ المخاوفِ، غير أنَّ المعاني السَّابِقة لا يُمكنُ إدراكها، إلَّا من خلالِ عمليَّاتِ التَّقريبِ الأنطولوجيِّ، وكما أكَّدتْ عليه النَّظريَّةُ التَّداوليَّةُ إنَّ السِّياقَ المحيطَ بالاستعارة المركزيَّةَ ضروريٌّ في تقصِّي تلكِ الاستعارة -المسيح باب- فقد ذُكِرَ بعدها فَمَنْ دَخَلَ بي.

إدًا يُحيلنا السِّياقُ إلى تفريعِ الاستعارة إلى الأقاليمِ الأرضيَّةِ (الحاويات) وعليه يُشبَّهُ المسيحُ بابَهُ بالمجالِ الحاوي، الذي له جوانبيَّةٌ داخليَّةٌ وخارجيَّةٌ سطحيَّةٌ، فالبابُ صارَ كالأوعيَّةِ الكبيِّرةِ الحاضنة، التي لها سقْفٌ وأعمدةٌ وجُدُرانٌ وفواصلٌ كمُشتملاتِ البيتِ مثلاً، وفي حالةِ الولوجِ فيه نكونُ داخلًا بالمحتوى المادِّي، المكوَّنُ مِنَ الهيكلِ وكذلك في حالةِ الخروجِ، علماً أنَّ البيتَ ليس فيه الحدودُ الحقيقيَّةُ، هي حدودٌ معنويَّةٌ مُفترضةٌ تخيلاً.

بهذا المنظورِ ننتبِّهُنُ درجةَ التَّفاعُلِ بين الوجودِ المُحيطيِّ للسِّياقِ والوجودِ الفيزيائيِّ لنا كجسد. كمثالٍ توضيحيٍّ آخرُ نورد ما يلي: دخلتُ ساحةَ المعركةِ الآن، بمعنى افتترضتُ أنَّ الميدانَ حاويةٌ مغلقةٌ أو مجالٌ محدودٌ بسور، وله داخلٌ وخارجٌ وأبعاد. ويمثل هذه التَّمادجِ الاستعاريَّةِ اعتقد لايكوف وجونسون أنَّها استعاراتٌ وعائيَّةٌ، غير أننا نراها مجازاً عقليًّا، وقد وُضِعَتِ الألفاظُ على حقيقتها، ثُمَّ أُستعملتْ لغيرها من بابِ التَّوسعةِ والتَّطورِ والمجازِ.

ولعلَّ هذه الاستعارةُ تتطابقُ تمامًا مع حديثِ الرِّسولِ مُحَمَّدٍ (صلعم): «أنا مدينةُ العِلْمِ وعليَّ بابُها» تحتِ استعارةِ المقولاتِ الكلاسيكيَّةِ أوعية، ترثُ المقولاتُ خصائصها

المنطقية، «من الخصائص المنطقية للأوعية، ما يجعل إحدى الخصائص المنطقية الأساسية للمقولات الكلاسيكية، هو تقيدها بالقياس المنطقي الكلاسيكي (...)، وما دام هناك احتفاظ بالخصائص الطوبولوجية للأوعية في عملية الربط، فالنتيجة إذا ستكون صحيحة» (ابن دحمان، 2012، ص 94).

وهنا نشير إلى أن بعض نقاد الأدب واللسانيين، ما زالوا ينظرون إلى اللغة اليومية والأدبية الرسمية، على أنهما تنتميان إلى عالمين منفصلين، وعليه ينبغي دراسة كلا اللغتين بشكل منفصل، غير أن لايفوف وتورنر وإيكو، ينظرون إليهما على أن بينهما أواصر مشتركة. إن الاستعارات الثلاث البنيوية والأنطولوجية والاتجاهية تمتلك تأسيساً ثقافياً مُنبثقاً من طبيعة الإنسان، وباعتبارها من طبيعته فهي -الاستعارة- مُتجدرة فيه.

إن استعارات الجذور التي يتحدث عنها ريكور هي استعارات ارتبطت بمفاهيم مُتجدرة في الصور الذهنية للبشر، ولهذا فهي مُرتبطة معاً، وقادرة على استدعاء بعضها لمجرد ذكر بعضها الآخر؛ فكلما الله تستدعي كل هذه المعاني أو الصفات المُرتبطة به، فهو الملك، وهو القاضي، وهو الراعي. فالتجربة هي التي تضح تلك المعاني، فإذا ذكر أحد هذه الألفاظ استدعى من خلال الشبكة الذهنية باقي الصور الاستعارية والصفات المُستقرّة في الذهن، والمُتكوّنة نتيجة التجربة، وهذا الترابط بين الصور الاستعارية يجعلها ثابتة مُستقرّة في الذهن لارتباطها بالتجربة، والتجربة الجديدة هي التي تجعل الصورة حديثة ومُتجددة (Ricoeur, 1975, p. 142- 160).

ويمكننا القول إن الاستعارات الأنطولوجية أكثر إفادة في تجسيد الفهم خصوصاً في المعاني المُجرّدة، إذ تقوم بتجسيما عبر صور قريبة من ذهن المتكلم. وقد تختلف تلك القرابة من متكلم إلى آخر حسب النسق الثقافي الذي يستند إليه. مثلاً نُصوّر: التشدّد نجسده برجلٍ شرير، أو ترسّمه أنساقنا بالانغلاق والعصبية، أو بالأصولي المُحافظ.

إذا فالاستعارة حسب رأينا لا تخضع لتجربة الإنسان وتصوراته فحسب -بخلاف النظرية التصويرية والمزجية والتفاعلية- بل تدعّمها اللغة والمخزون الأدبي، ونحن على يقين أن الأدباء والشعراء أكثر إبداعاً في رصف استعاراتهم من الشخص البعيد عن الدراسات الأدبية، وكذلك التجربة والمكتسبات التصويرية وغنى الخيال، كلّها تمدد الاستعارة بمداد معرفي إضافي. وعليه تستدعي كل استعارة استعارة أخرى قابعة في

اللاوعي، أو ترسم صورة إضافية في شبكة الدّهن، فتتمو بذلك معارف جديدةً.

5- الاستعارة في بُعديها الثقافيّ واللّغويّ

تنوّع الخطابُ الإنجيليُّ بين الأسلوبِ الكلاسيكيِّ المُتمثِّلِ بروايةِ الأخبارِ والقصصِ والأحداثِ بطريقةِ السردِ، وبين الأسلوبِ الفلسفيِّ المجازيِّ، خصوصاً في أجوبة السيّد المسيح المُكثِّفة، لذا يحتاجُ الباحثُ إلى تأمُّلٍ وإعادةِ نظرٍ في الدلالاتِ التي ترمي إليها استعارته، وعلى سبيلِ المثال: «وقال [السيّد المسيح] لآخر: اتبعني! فقال: إيذَن لي أن أمضي أولاً فأدفن أبي. فقال له: دع الموتى يدفنون موتاهم، وأمّا أنتَ فامضِ وبشرِ بملكوتِ الله» (لوقا، 9: 59، 60). وتُلاحظُ كذلك رده لأحدِ مريديه وأنصاره، الذين يُريدون اللحاقَ به: «وقال له آخر: أتبعك يا ربّ، ولكن ائذن لي أولاً أن أودّع أهلَ بيتي. فقال له يسوع: ما من أحدٍ يضعُ يدهُ على المحراثِ، ثمَّ يينفَت إلى الوراءِ، يَصِلُحُ لملكوتِ الله» (لوقا، 9: 61، 62).

وفي أمثالِ هذه الخطاباتِ إشاراتٌ ورموزٌ قويّة، غير التي تظهرُ على السطح، ففي: دع الموتى يدفنون الموتى، استعارةُ صفةِ الأموات لبيان حالِ الأحياء وما هم عليه آنذاك من الضياع والانهلال، وهي دلالةٌ إلى كلِّ مَنْ يعيشُ الخطيئةَ فهو بحكمِ الميِّت، وإن كانوا أحياءً بين النَّاسِ، أي أنهم ميِّتون في الضمير والإخلاص، وما حملهم لميِّتي الأجسادِ سوى العِظّةِ منها والعبرة. ولعلَّ هذا ما تنبّه إليه الإمامُ الشافعي (ت/820) حين قال:

قد مات قومٌ وما ماتت فضائلهم، وعاش قومٌ وهم في النَّاسِ أمواتٌ.

والجدير بالذكرُ أنَّ بعضَ الاستعاراتِ انتقلتُ من زمانٍ إلى زمانٍ آخرَ، كما هو حالُ البحثِ في الأدبِ المُقارنِ، في التّلاقحِ الثقافيِّ وانتقالِ الآدابِ من أمةٍ إلى أخرى.

يمكننا القولُ إنّ الاستعاراتِ في بعضِ النّتاجِ الروائيِّ والشّعريِّ، أخذت مادتها الخام من الاستعاراتِ الأولىِّ الوضعيةِ في الكتابِ المُقدّسِ، الذي كان المصدرَ والمُلهمَ في تكوينها، ثمَّ أُدخلت عليها عناصرُ التّوسعةِ والخيالِ، لتُصبحَ استعاراتٍ إدماجيةً تركيبيةً، ثم جاءت مرحلةُ التّمييزِ في إطارِ فكرٍ ما بعد الحداثة، للكشفِ عن هذا المزجِ المُركّبِ، الذي هو ملكةٌ لا واعية كسائرِ الملكاتِ الدّهنيةِ المُصاحبةِ للخيالِ، وذلك وفقاً لنظريّةِ

فوكونيني وتورنر، التي ارتكزت على مبدأ المَزَجِ أو الدَّمَجِ التَّصْوري. فقد بيَّنت النظريَّة أن الاستعارة تقوم على دمج المجالِ الهدفِ في مادَّة المجالِ المَصْدَرِ.

إذا نستنتج أن الاستعارة لا تعتمد فقط على جانبِ خيالِ الذَّهني والإسقاطاتِ التَّصويريَّة، بل تدخلُ في صناعتها عواملُ التأثيرِ الثقافي واللغوي، وهذا ما وجدناه في بعض الأحاديثِ النَّبويَّة في قول الرسولِ مُحَمَّد (صلعم) عن عُمر بن الخطاب: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته، والأمير راعٍ». وفي هذا القول تناصَّ مع قول السيِّد المسيح: «أنا الرَّاعي الصَّالح، أعرفُ خرافي وخرافي تعرفُني» (يوحنا، 10: 14). وفي الرَّاعي الصَّالح تشبيهٌ بليغٌ.

وفي تشبيه السيِّد المسيح لنفسه: أنا الرَّاعي الصَّالح، لا تعني رعاية القطيع، وإن كان المسيح استعارَ اللفظَ مِنَ الرَّعي للغنم؛ لكنَّهُ أطلقه للدلالة على معنى القيادة ومتابعة شؤونِ النَّاس وهدايتهم، فمقصديَّة المُتكلِّم ومُناسبَةُ الاستعارة للتدليل فيها، ضرورةٌ في فهم الهرمنوطيقيا.

وعليه استقرت منذ ذلك الزَّمانِ الغابرِ مفهوماتُ الرَّاعي الخليفة والنَّاس الرعيَّة. إنَّ مثلَ هذه التَّداوليَّة وانتقالِ بعضِ الألفاظِ والأفكارِ، لا تعني جمودها على معانٍ ودلالاتٍ غائبيَّة، وإنَّما تتطوَّر لمحاكاةِ الضَّروراتِ وتسميةِ الأشياءِ، فكما تتطوَّر الصَّناعةُ الحديثة، كذلك الأفكارُ والاستعاراتِ والقالبُ اللغوي، مع بقاءِ قوَّة الجذرِ القديمِ محورًا أساسيًا فيها، ما يعني أهميَّة الجوانبِ التَّعويضيَّة مِنَ ذلك الجذرِ، لتغطيةِ بعضِ النواقصِ التي تعترى الجانبِ اللغوي في الاستعارة، فالكائنُ البشري يخلقُ استعاراتٍ خارجَ نطاقِ اللغَةِ القديمة لضرورةِ الاستمرارِ «تخلقُ اللغَةُ استعاراتٍ حتَّى خارجَ الشَّعر، وذلك لضرورةِ تسمية الأشياءِ» (إيكو، 2005، ص 264).

ومن وجهةِ نظرٍ أُخرى فإنَّ قَبولنا انفرادَ المتكلِّمِ بالمعنى الحصريِّ للاستعارة، يترتَّب عليه تحيةِ المَخاطَب، الذي هو شريكٌ في عمليَّة التَّخاطبِ الاستعاري، فليس شرطًا عليه أن يفهم المُتكلِّم، وهنا قد تُحمَلُ الرسالةُ الاستعاريَّة على غيرِ المُرادِ منها، لذا يقولُ إيكو في كتابه «التَّأويل بين السِّيميائيَّاتِ والتَّفكيكيَّة» (2000، 54): إنَّ عمليَّة تأويلِ الاستعارة تقومُ على التَّفاعليَّة، تفاعليَّة المؤوَّل مع النَّصِّ، مع النَّظرِ إلى المحيطِ الاستعاري وسياقِ النَّصِّ ومراميه. إنَّ الدَّوالَّ السَّابِقَةَ مساعدٌ إيساسيٌّ في التَّأويل، ولا

علاقة لها بقصد المتكلم. وعليه لا بدّ من إعمال المتلقّي كطرفٍ لا غنى عنه في العملية الاستعارية التداولية. وهذا ما لاحظناه في سؤال تلميذه يوحنا الرائي بن زبدي، إذ يسأله: «يا معلّم، رأينا رجلاً يطرد الشياطين باسمك فأردنا أن نمنعه، لأنّه لا يتبعك معنا. فقال له يسوع: لا تمنعوه، فمن لم يكن عليكم كان معكم» (لوقا، 9: 49).

ففي قول السيّد المسيح الكثير من التّكثيف: لأنّ مَنْ لم يكن عليكم كان معكم، قد يفهم منها أنّها مكيافيلية سياسية إيطالية (1527) التي تُبرّر المكرّ والازدواجية لمن أراد أن يسوس الحكم والرّعاية، فالغاية تُبرّر الوسيلة، بالذات حينما تظهر الأثانية صارخةً عند التلاميذ في منعهم عمل الخير بقولهم: فَمَنَعَاهُ، وقد يفهم القصد: نحن فقط من يفعل الخير للناس بهذه الحياة.

لكنّ المقولة لا تعني الظاهر والسّطح كما شرحنا، وإنّما المعنى يكتمل بما يفرّزه السياق من دعائم تعزيرية، وإلى خلفيات التّأويل في آيات الأناجيل الأخرى، التي ترتبط بتلك القصة، إضافة إلى معطيات السّاردة في الإصحاح رقم 49 عند لوقا، بمعنى لا بدّ من إعمال التّعاضد المشترك في بيان تداول القصد، خصوصاً إذا تعارض التفسير التداولي مع قول المسيح: «مَنْ لم يكن معي كان عليّ» (متّى، 12: 30).

وعليه فقد غاب عن التلاميذ، فكرة أنّ عمل الخير لا يقتصر على السيّد المسيح، وإنّما يتعداه لكلّ من لم تُنح له فرصة اللحاق به، وكذلك المسكونية الكنسية التي لا تقوم على التّجمعات، بل على الإيمان.

أمّا في ما يخصّ الحرفية الاستعارية، نكون قد قصرنا المعنى الحاصل على معطيات المعاجم، وتركنا في المقابل فكرة أنّ لكلّ مقام مقال وعامل السياق، وبذلك سنصبح أمام تفسيرٍ معجميٍّ أحاديٍّ، لا ينتمي إلى الواقع؛ ولكن هناك استثناء لقبول قصد المتكلم، وذلك في حالة انتمائهم إلى مقامٍ مشترك وثقافةٍ مشتركة، وبذلك يكون بين الاثنين -تناغم- فضاءً بيئيّ مشتركٍ جامعٍ، ومع ذلك قد تخرج الاستعارة عن معنى المتكلم.

ولنضرب مثلاً بأنّ المتكلم قال في معرض كلامه: إنّ الملك اللبناني زار منطقة عشتيت، فالمتلقّي سيفهم أنّ المتكلم يقصد الرئيس، فليس هناك ملك في لبنان؛ ولكن قد تكون كلمة ملك مقصودة، بمعنى التملك الانتقائي في احتكار ملكية الطائفة المارونية

من دون باقي المسيحيين، خصوصاً إذا ما كانَ تمديدًا دكتاتورياً كصفحة تسييس تجاريّة، وبذلك سنّفهم أنّ المتكلّم الأرثوذكسيّ مُمتعضّ ومُعترض، فلا ملكَ عنده إلاّ السيّد المسيح. وهذا ما يُمكن تسميتهُ بالاقْتضاءِ المعرفي المَسكوتِ عنه ضمناً، «أنّ الكلام الملفوظ (...) قد يقتضي معلوماتٍ (..) غيرَ واردة في التّلفظ، وقد يطرح المتلقّي أسئلةً (...)»، عندما أقول: ملكُ فرنسا، فهناك (...) أشياءٌ يجبُ أن تبقى داخلَ ذهن المتلقّي، أفترض: لست متأكّداً أنّ لفرنسا ملكاً، تُدرك أنّ المُلقّي (..) ليس مجبراً على إعطاء كلّ (..) المعلوماتِ للمتلقّي» (مصباحي، 2021، ص 724).

لذلك يقولُ إيكو في هذا الصّدّد «إنّ الاستعارة ليست بالضرورة ظاهرةً مقصودةً، فمن المُمكن أن تصوّرَ حاسوباً يُنتجُ من خلال تراكيبٍ عفويّةٍ عباراتٍ مثل: وسط، درب، حياتنا، ليقومَ مؤوّلٌ ما، بمنحها معنىً استعاريّاً» (إيكو، 2000، ص 238).

بذلك يَضَعُنا أمبيرتو إيكو أمامَ مبدأ العفويّة غيرِ القصدية، بمعنى قد يقولُ أحدنا استعارةً عفوَ الخاطر، تخلو من أيّ إشارةٍ إلى معنىٍ من المعاني، وكأنّها روتينٌ صادرةٌ عن اللاوعي من غيرِ إرادة المتكلّم، ما يجعلُ المؤوّلَ أمامَ خيارين: إمّا الرّجوعُ إلى السّياق لاكتشافِ معناها الحقيقي، وإمّا إهمالها بحسب المعطياتِ الثقافيّة المُشتركة بينهما.

وقد عُنيَت التّدالويّةُ زمنَ مورييس (1938) بالخطاب التّواصلي؛ لكنّها توسّعت لتُحللِ الخطابَ مثل: أن نقولَ كلاماً ما مع إرادةٍ شيءٍ ثانٍ، وإلى من كانَ الكلامُ؟ ومن أجل أيّ شيءٍ؟ ومن المتكلّم؟ وما القصد المجازي؟ فقد درسَ مورييس علاقةَ العلامة بالمُستخدم مع مراعاةِ المقام والضّمائر والزّمكان والاستعاريّة؛ لكنّ التّطوّر الملحوظ جاءَ مع جون أوستن (1962/1955) وويليام جيمس (William James) اللذين يشكّلان قطبي الرّحى في ربطِ التّدالويّة بالحديث اللغوي لفهمِ مقصديةِ الكلام وتواصليةِ، عبرِ التّلاثيّة النّقاطيّة، المُلقّي والمتلقّي والحديث الكلامي. كما تهنّمُ التّدالويّة بتوصيف العمليّة التّخاطبيّة. والشّروطُ السّابقةُ مأخوذةٌ بالاعتبار عندنا بجدلّية الحجاج والكلام الاستعاري. وتجدُرُ الإشارةُ هنا، إلى أنّ الخطابَ الإنجيلي يكادُ يخلو من تراسلِ الحواسّ، كتداخل حاسة الشّم باللمس، والسّمع بالنظر... إلخ، فهل كانتِ اللّغةُ وقتئذٍ قاصرةً عن أعمالِ التّراسلِ المعروفِ حالياً، في تطوير خطاباتها بالانزياح عن التّقليد الكلاسيكي؟!!

الخاتمة

توصّلت هذه الدّراسة إلى أنّ مصادر هذه الملفوظة «الاستعارة» منذ القَدَم قد أحدثت إرباكًا في آليّة التّعاطي معها. والباحث في البلاغة عموماً يجد نفسه مُخيراً أمامَ نظريّتين: النظريّة الكلاسيكيّة التي فسّرت الاستعارة بقيامها على الجَانِب اللغوي خصوصاً التّشبيه، إضافة إلى علاقات الاستبدال والمقارنة بين المعنيين: التّعينيّ والتّضمينيّ أي المجازي، وقد حاولَ أصحابُ هذا الاتّجاه وضع مؤلفاتٍ ترسمُ قوانينَ عملها في الأعمال الأدبيّة. وجاءت النظريّاتُ المعاصرةُ لتعتبر المجازَ عموماً من المنجزات الحياتيّة للبشر، وليس بكونها إبداعاً أدبيّاً فحسب، بل باعتبارها متداولة في حياتنا اليوميّة.

وعليه فهي لا تقتصرُ على الشّعْر والرّواية بل نجدُها في الخطاب اليوميّ، سواءً أكان دينياً أم سياسياً أم إعلامياً أم قضائياً، والسبب في وجودها يعودُ إلى طبيعتها وطبيعتنا معاً، كونها تنمّاهي مع طبيعة الأنساق التّصويريّة للإنسان، الذي يستند إلى المعرفة الاستعاريّة لفهم العالم وميتافيزيقيا المُجرّدات، وبذلك فكلُّ معرفةٍ جديدةٍ في حياتنا تتطلّب تبادلاتٍ استعاريّةً بين سابقٍ ولاحقٍ،

فالنظريّات الحديثة التي عُنيت بدراسة الاستعارة، كالنظريّة الاستبداليّة تتطابقُ إلى حدٍّ ما مع الكلاسيكيّة، وتختلف معها في التّشخيص. أمّا النظريّة السياقيّة فقد انطلقت من السياق أساساً لعمليات التّفسير وفهم أبعاد الجملة الاستعاريّة، بمعنى أنّ بنية السياق لا غنى عنها لتأويل الاستعارة.

أمّا فيما يخصُّ النظريّة التّفاعليّة فقد أفردنا الاهتمام بها، كون النظريّة البساط الأوّل والوعاء الحاضن للاستعارة التّصويريّة، فقد فسّرت الاستعارة مميّزة بين البؤرة الاستعاريّة والإطار المحيط لها.

وعليه لقد تميّزَ الخطابُ الإنجيليُّ بعباراتٍ واضحةٍ مأنوسةٍ سهلةٍ الفهم والإدراك، بعيدةً عن التّكلف والتّعقيد كونه خطاباً يُحاكي جميعَ شرائحِ النَّاس، عبر الأساليب القصصيّة تارةً، وتنوّع أحداثها بضرِب المثلّ تارةً أخرى.

وقد عنيت دراستنا تُعنى بالجانب الاستعاريّ والتّداوليّ فلا يُمكننا فصل الجملة المجازيّة والاستغناء بها عن السياق ومجريات قصص الأحداث وتاريخها، إذا لا بُدَّ أثناء تحليلها

من إشراك المرجعيات التي ولدت الأثر الاستعاري في الإنجيل. كذلك لا بد من إشراك القارئ في إنتاج المعنى من خلال معطيات السياق والنص كاملاً.

وعليه لا يمكننا الجزم باصطباغ الطابع الشخصي في توليد الاستعارة بمؤلفي الأناجيل مرس ومتى ولوقا ويوحنا، غير أنه من الطبيعي أن يتأثر الخطاب بمنتجه وإن كان تسجيلاً للمواقف، وهذا ما نلاحظه في تباين الأساليب الخبرية والإنشائية وتلونها في تداولية أفعال الكلام. ونشير هنا إلى أن طبيعة اللغة الشفوية تختلف عن طبيعة اللغة المكتوبة، فقياسنا على دلالة الاستعارة وبعدها التداولي سيتأثر بالحمولات المعرفية لتلك الطبيعة المنقولة. إن الإنسان بطبيعته لا يفسر ماهية الأشياء ولا يستطيع أن يفكر بها إذا كانت غائبة عن باله، إلا إذا كانت لها صورة سابقة تماثلها في الذهن.

فالمعنى الاستعاري عنده لا ينكشف إلا من خلال سياقات متعددة مختلفة. وبناءً على ما ذكره فالسياق التداولي يتبلور في شخصية المتكلم والمتلقي، نضيف إلى ذلك العوامل الاقتصادية والاجتماعية، والأحوال الزمكانية والنفسية.

بالتالي فإن هذا التفاعل بين النص والمتلقي إذا افتقد إلى هذه العوامل التيسر المعنى. من هنا لا بد من تعدد القراءات وتحليل الخطاب وفق تأويل معين، وقرينة تجمع بين الجملة اللغوية والعوامل المحيطة. وبذلك نستطيع الكشف عن البعد الحقيقي في المجاز الاستعاري، إذ لا يخلو خطاب من الخطابات إلا وفيه انزياح عن الأصل الوضعي للغة، بحكم التقدم الزمني وتطور الإنسان.

غير أن أثر بقائها محكوم بأمرين اثنين: الأول يكمن في شهرتها قوة دلالتها وتأثيرها في أفعال الكلام المتولدة عنها، والثاني إعجابنا نحن -إعجاب المتكلمين بها- من خلال قناعات أيولوجية محضة، فنبدى التردد باستعمالها كأثر استتباع وتقليد، لا لأنها ذات حمولات وأبعاد عميقة، بل كنوع من الافتتان والإعجاب وعادة التقليد.

وأثبتت الاستعارات التصويرية بأن مفرزات الرمان، لها حمولات تصويرية ثقافية، تسهم في تطبيق المشاهدات في الذهن، أي نتيجة الاكتساب البيئي.

وبالتالي، إن الاستعارات الإنجيلية جاءت من صلب بيئة السيد المسيح ومجتمعه، وكانت قريبة من فهم الناس وتفكيرهم، هدفها التعليم والإرشاد، لكنها بقيت رغم مرور

الأيام مناسبة لكلّ زمان ومكان؛ فهل يعود السبب إلى انتشار الكتاب المقدّس، وتحديدًا العهد الجديد، وتداوله عبر الأجيال؟ أو، بمعنى آخر، هل بقاء إرث ثقافيّ أو دينيّ يساهم في بقاء الصّورة البيانيّة واستمرار استعمالها متحدّية تبدل الأحوال والتطوّر الذي يصيب المجتمعات؟

قائمة المسارد (المصطلحات) مع المقابل الأجنبيّ ودلالاته الاصطلاحية

الاستبدال inference: «عَلَيْنَا التَّسْلِيمُ بِدَوْرِهِ، وَنَظَرًا لِإِنْعِدَامِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْكَيْفَاتِ وَالْكَلِمَاتِ، فَإِنَّ مُهِمَّةَ الْمُسْتَمِعِ تَتَمَثَّلُ فِي الاسْتِدْلَالِ الصَّحِيحِ الَّذِي قَصَدَ الْمُتَكَلِّمُ تَحْدِيدَهُ بِاسْتِخْدَامِ تَعْبِيرٍ إِشَارَةٍ مُعَيَّنٍ» (بول، 2010، ص 40).

تحليل الخطاب Discourse analysis: «لتحليل الخطاب تحديدات متنوعة (...)» فهو تحليل استعمال اللغة، كما هناك تعريف آخر: دراسة الاستعمال الفعلي للغة من قبل ناطقين حقيقيين في أوضاع حقيقية. وفي البلدان الأنجلوساكسونية خصوصًا، العديد من الناس ينظرون إلى تحليل الخطاب وتحليل الحديث وكأنهما شيء واحد نظرًا لكونهم يعدّون الخطاب نشاطًا تفاعليًا أساسًا» (منغنو، 2008، ص 9).

التداولية Linguistic pragmatics: هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يُقال» (بول، 2010، ص 19).

الحجاج Argumentation: «هو في صلب التّصوّر القديم للخطابة (...)» الذي قد يرتبط به أي الإقناع. وقد وضع هذا الأثر في المرتبة الأولى في التعريف الكلاسيكي الجديد الذي وضعه برلمان وأولبراخت وتيناكا. فموضوع النظرية الحجاجية هي دراسة الفنّيّات الخطابيّة التي تُمكن من الحصول على موافقة العقول على الأطروحات التي تعرض عليها أو دعم موافقتها. وقد وُسّع مجال الحجاج ليتجاوز الأجناس البلاغية التقليدية الكبرى، ليطبّق مفهوم المطارحة بكلّ أشكالها» (شارودو ومنغنو وآخرون، 2008، ص 68).

السياق Contexte: «يسعى تحليل الخطاب إلى ربط الملفوظات بسياقاتها (...)»، غير أنه لا يدرس الملفوظات بشكل محايت immanente (...) لا يوجد إجماع حول طبيعة مقومات السياق، فهاميس يدرج المشاركين والمكان والزمان والغاية، ونوع الخطاب والفتنة واللهجة المستعملة والقواعد التي تحكم التداول على الكلام (...) أما

البعض الآخر، فيدرج معارف المشاركين حول العالم (...). والمعروفة بالخلفية الثقافية للمجتمع» (منغنو، 2008، ص 27، 28).

السياق الداخلي Cotexte: «إنّ السياق الخارجيّ في تضادٍ مع السياق الداخليّ كتضاد المحيط النصّي المباشر لمحيطه غير النصّي، وتكمن الصعوبة هنا في تمييز ما هو من قبيل النصّ عمّا هو ليس كذلك. هناك دارسون لا يقصرون مفهوم النصّ على الوحدات اللغوية، بل يدرجون فيه العناصر التي هي من قبيل الحركة التي تصاحبها (الحركات، إيماءات الوجه ...) بل كذلك أفعال actions المتفاعلين أثناء تبادل الكلام، لكن في الواقع (...) يُحَبِّدُ التَّمييزُ بين السياق اللغوي والسياق غير اللغوي» (منغنو، 2008، ص 35).

القصدُ intention: أفعالٌ عقليةٌ بالإصرار، كالكتابة والحساب والقيام بأعمال اليد. القصدية Intentionality: توجّه، كالمفعول لأجله، وهي تتعلّق بالرغبات والمخاوف والمعتقدات، وهي غير نابعة من الإرادة الكلية فهي تُشبه الاكتساب الفطريّ وهي أفعالٌ غيرٌ عقلية. وكلا المصطلحين حسب مفهوم سيريل من كتابه: القصدية بحثٌ في فلسفة العقل:

«يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ مِنَ الْفَلَسَفَةِ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ **Belief** وَالرَّغْبَةَ **Desire**، يُمَثِّلَانِ الْحَالَاتِ الْقَصْدِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ. وَأَوْدُ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ بَعْضَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَيَّدَةِ أَوْ الْمُعَارِضَةِ، لِنَسَبِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ لَهُمَا. أَحَاوِلُ بِشَكْلِ عَامٍّ الْإِحَاطَةَ بِدَرَجَاتِ الْإِعْتِقَادِ مِثْلَ: الشُّعُورِ بِالْيَقِينِ. أَوْ وُجُودِ مُجَرَّدِ إِحْسَاسٍ، أَوْ الْإِفْتِرَاضِ، وَالْعَدِيدِ مِنْ دَرَجَاتِ الْإِفْتِنَاعِ الْأُخْرَى. وَأَحَاوِلُ فِي حَالَةِ الرَّغْبَةِ الْإِحَاطَةَ بِمَعَانٍ: التَّمَنِّيِ الْعَوَزِ، السَّعْيِ، الْإِشْتِهَاءِ الْإِشْتِيَاقِ، وَدَرَجَاتِ أُخْرَى لِلرَّغْبَةِ» (سيريل، 2009، ص 53).

لائحة المصادر والمراجع

1. ابن دحمان (عمر)، الاستعارات والخطاب الأدبي، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، منشورة، إشراف بوجمعة شتوان، جامعة مولود معمري، 2012.
2. ... (2010)، «تقنيات استخدام الاستعارة الأدبية الجديدة من منظور معرفي معاصر»، الخطاب، 5(7)، 2010، 142-160.
3. أحمد (عطية سليمان)، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية، المكتبة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، 2014.
4. أمين (فليسي)، «ملاحم العرفانية وعلاقتها بالتداولية الغرايسية»، الممارسات اللغوية، 5(1)، 2014، 129-142.
5. إيكو (أمبيرتو)، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، 2000.
6. ... السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، 2005.
7. البوعمراني (محمد الصالح)، السيميائية العرفانية الاستعاري والثقافي، مركز النشر الجامعي، 2015.
8. حفيصي (منى وشقروش عبد السلام)، «الاستعارة التصويرية وفهم العالم، رؤية في المفاهيم الإجرائية ونظام الذهن»، إشكالات في اللغة والأدب، 10(4)، 2021، 89-102.
9. سيريل (جون)، القصديّة: بحث في فلسفة العقل، ترجمة أحمد الأنصاري، ط 1، دار الكتاب العربي، 2009.
10. شارودو (باتريك) ومنغنو (دومنيك)، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر مهيري وحمادي صمود، ط 1، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، 2008.
11. الشيخ (مدوح)، عبد الوهاب المسيري من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح، 2008.
12. الصولي (أبو بكر)، أدب الكاتب، تحقيق: بهجة الأثري ومحمود شكري الألوسي، المكتبة العربية البغدادية، 1922.
13. علوي (حافظ إسماعيلي) والمتوكّل (أحمد) وآخرون، التداوليات: علم استعمال اللغة، ط 2، عالم الكتاب الحديث، 2014.
14. العلوي (مروان مولاي) والرامي (البنّي)، الاستعارة المسترسلة وانسجام النصّ الشعري، الكلمة، ع 115، 2016.

15. عميري (عزّ الدين)، «قراءة في كتاب الاستعارات التي نحيا بها، لجورج لايكوف ومارك جونسن»، العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، 1(1)، 2017، 145-156.
16. نُيم (أميرة)، المزج التّصويري: النّظرية وتطبيقاتها في العربيّة، ط1، دار مسكيلاني، 2019.
17. قريرة (توفيق)، الاسم والإسمية الأسماء في اللغة العربيّة: مقارنة نحوية عرفانية، مكتبة قرطاج للنشر والتوزيع، 2011.
18. الكتاب المقدّس: العهد الجديد.
19. لايكوف (جورج) وجونسون (مارك)، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، ط2، دار توبقال للنشر والتوزيع، 2009.
20. لحماذي (فطومة)، «السياق والنصّ استقصاء دور السياق في تحقيق التماسك النصّي»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعية، 2008، 1(2)، 243-272.
21. المنوكل (أحمد)، اللسانيّات الوظيفيّة، ط1، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، 2010.
22. محمد (أحمد عزّاوي)، «التقديم السينمائي للأحداث في رواية الحفيدة الأميركية، لإنعام كجه جي»، سرّ من رأي، كلية الآداب، جامعة تكريت، 12(45)، 2016، 315-336.
23. مقبول (إدريس)، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، 2006.
24. مصباحي (عبد العزيز)، «التداولية؛ مفاهيمها، جذورها الفلسفية واللسانية»، علوم اللغة العربية وآدابها، 13(1)، 2021، 714-728.
25. منغنو (دومينيك)، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحيان، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008.
26. نحلة (محمود أحمد)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة، 2002.
27. هاشم (زينب يوسف عبد الله)، الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة العربية، منشورة، إشراف دكتور علي العماري، جامعة أم القرى، 1994.
28. يول (جورج)، التّداوليّة، ترجمة قصي العنّابي، ط1، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، 2010.
29. Fauconnier (G). & Turner (M.), The way we think: conceptual blending and the minds hidden complexities, New York, Basic Books, 2002.

الخطاب والسلطة والأيدولوجيا: تحولات ما بعد البنيوية

Discourse, Power, and Ideology: Poststructuralism's Turns

د. كميل مخايل¹

Dr. Camille Mikhael

تاريخ القبول 2024 / 20/9

تاريخ الاستلام 2024 / 3/9

1. ملخص

يدرس هذا البحث العلاقة بين الخطاب والسلطة والأيدولوجيا في ضوء تحولات ما بعد البنيوية ويفترض أن ممارسة السلطة المترافقة والخطاب خصيصة خطابية، وترتبط كفاءتها بالأداء الخطابى للمسؤول السياسى أو غيره. يرتكز هذا البحث على منهج نقديّ وعابر للاختصاصات، وهو منهج ترافق ونظرية التحليل النقديّ للخطاب التي أضاءت على كثير من المسائل الغامضة المرتبطة بدراسة خطاب السلطة. لقد بينت نتائج البحث أن خطاب السلطة لا يرتبط فقط بالمسؤولين الذين يتولون منصباً سياسياً في مؤسسة سياسية، بل بكل شخص أدرك جوهر الأيدولوجيا المؤسسة للنظام السياسى والاجتماعى المعاصر له. إن ما تقترضه هذه النتائج أنّ الأيدولوجيا المرافقة لخطاب السلطة يمكن استغلالها لتحقيق أهداف متنوّعة وأحياناً متعارضة.

- **الكلمات المفتاحية:** خطاب، سلطة، أيدولوجيا، معرفة، نقديّ، ممارسات، شرعنة، قوة ناعمة، شعبية.

-Abstract

This research studies the relation among discourse, power, and Ideology after Poststructuralism's Turns and it assumes that the practice of power and discourse is of discursive property, and its efficiency relates to the discursive performance of a political official or any other official. The

1 دكتور كميل مخايل حائز على شهادة دكتوراه في اللغات والترجمة من الجامعة اللبنانية، باحث ولسانيّ يهتم بدراسات تحليل الخطاب والتداوليّة.

interdisciplinary method along side the critical one used by the critical discourse analysis approach are being applied in this research. This method has highlighted many subtle issues that are related to the study of discourse. The findings clarify that the discourse of power does not relate only to a political official in political institution but to every person who has realized the role of the contemporary ideology and its underlying basis of the political and sociological regime. Moreover, different goals, and sometimes contradictory ones, can be achieved by exploiting ideology, particularly when accompanied by discourse.

– **Keywords:** discourse, power, ideology, knowledge, critical, practices, legitimization, soft power, populism.

2. التحوّلات النقدية في العلوم الإنسانية

شهدت العقود الأخيرة تحوّلًا مهمًّا في دراسات العلوم الإنسانية، ومنها دراسات تحليل الخطاب التي ستؤلف بؤرة الاهتمام في هذا البحث، وتجسّد هذا التحوّل بالانتقال من دراسة سلطة الخطاب، إلى دراسة خطاب السلطة. اهتمت الدراسة الأولى بأفعال الكلام والتأدّب وغيرهما، أما الثانية فاهتمت في مرحلة ما بعد البنيوية ولا تزال بدراسة الممارسات الخطابية والمعرفية والأيدولوجية دراسة نقدية، وهو ما سمّي بالتحوّل النقديّ (Critical Turn). اهتمّ الباحثون بهذه الممارسات، أجرى ذلك تلقائيًّا في عيادة طبيب أو في مؤسسات اقتصادية أو في مؤسسات سياسية، لأنّها تشارك في إدارة عملية التّواصل ونجاحها ولأسباب أخرى.¹

ويرى الباحثون أنّ استخدام السلطة في عملية التّواصل إجراء دائم، سواء أكانت ظاهرة في البنى السّطحية أم العميقة، ومنهم من يرى أنّ استعمالها يتّسم بمعالم غير واضحة، ويصفها بأنّها إجراء يتّسم باللامساواة بين الأشخاص.² هذه اللامساواة تعني أنّ السلطة المترافقة واستخدام الخطاب أو النّاتجة عنه سلطة يرغب فيها كثيرون، ويسعى إلى

1 (Winter, David G. (2009) «How Power Can Be Tamed?», In Dean Tjosvold & Barbara Wisse (eds) Power and Interdependence in Organizations, Cambridge: Cambridge University Press, p. 33.

2 Martin, Judith N. & Nakayama, Thomas K. (2018) Experiencing Intercultural Communication: An Introduction. New York: McGraw-Hill Education, p. 54

امتلاك ناصيتها كل قائد سياسي أو عسكري؛ لذلك كثيرًا ما تتلازم السّلطة والخطاب، والتّمرس بممارستها في هذا السّياق يعدّ هدفًا استراتيجيًا دائمًا لكل ممثل اجتماعي، لأنّها ذات أبعاد اجتماعية واستعمالها يرمي إلى السّيطرة على النّاس وإخضاعهم¹، وهي خصيصة ديناميّة وليس مثل ما اعتقد مسبقًا.

ترتبط هذه الديناميّة بكثير من المسائل، ومن أهمّها الأداء الخطابي للمرء، ولا تزال هذه العلاقة محل تنظير وتحليل حتى الآن بسبب غموضها النسبي، ويصفها كثير من الباحثين بأنّها إجراء مجرد، وتعزوها بعض الدّراسات اللسانية إلى استغلال المركز أو السّلطة، وتعزوها دراسات أخرى إلى استغلال السّياق. افترضت هذه الدّراسات أنّ استعمال اللّغة لممارسة السّلطة أمر نسبي، أي هناك أشخاص يبرعون فيه وأشخاص لا يبرعون فيه لأسباب ترتبط بأداء المرء والسّياق، وتوصّلت هذه الدّراسات إلى تفسير كثير من تحولات ما بعد البنيويّة.

ويعود سبب نجاح الدّراسات أعلاه إلى عوامل عديدة، منها استنادها إلى منهج عابر الاختصاصات ينحو إلى حل المشكلات²، منهج يراعي التّعقيدات المتنوّعة الجامعة بين بنى الخطاب وبنى المجتمع³، وهو ما ساهم بنجاحه. هذا الأداء الخطابي واللّغويّ الغامض والمرتبط بممارسة السّلطة أصبح محل تنظير وتحليل؛ لذلك

يقدم هذا البحث دراسة نظريّة وتطبيقية لمسائل التّحوّلات التي طالت الخطاب والسّلطة والأيدولوجيا.

3. من اللّغة إلى الخطاب والمعرفة

تطوّر مفهوم الخطاب ولم يعد مجرد سلسلة مترابطة من الجمل، بل أصبح ينظر إليه نظرة مرنة ذات وجهين، فهو مكوّن (Constituent) ومكوّن (constitued)⁴.

1 Foucault, Michel (1982) «The Subject and Power», Critical Inquiry 8(4), p. 781.

2 Fairclough, Norman; Jane Mulderrig; Ruth Wodak (2011) «Critical Discourse Analysis», In Teun A. Van Dijk (ed) Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction, London: Sage Publications, p. 357.

3 Van Dijk, Teun A. (2001) «Multidisciplinary CDA: A Plea for Diversity», In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, London: Sage Publications, p. 96.

4 Jørgensen, Marianne & Phillips, Louise (2002) Discourse Analysis as Theory and Method. London: Sage Publications, p. 61

والخطاب بهذا المعنى يكون العالم الاجتماعي ويغيّره تارة، ويكوّن بالعالم الاجتماعي نفسه ويتأثر بسياقاته طورًا؛ فتحول الاهتمام من اللغة إلى الخطاب، لأن اللغة وسيلة تواصلية محايدة، أما الخطاب فكثيرًا ما يعبر عن المواقف والظروف الاجتماعية التي يستعمل فيها¹. والخطاب هنا ذو وجهين، الأول يرتبط بالمعرفة والثاني يرتبط بالسلطة؛ كتب ميشال فوكو (Michel Foucault) معلقًا على هذه الفكرة: تلتقي السلطة والمعرفة معا في سياق الخطاب فقط².

وبعبارات مختلفة، يترافق الخطاب وتطور الشخصية الإنسانية للمرء واكتشاف الأفكار والأهداف الاجتماعية، وفي هذا السياق تكون السلطة³، أي في سياق اجتماعي أو تربوي أو مؤسساتي تنظمه المعرفة والقوانين. فإذا مثلنا على سبيل المثال أمام قاضي التحقيق في مكتبه في لبنان، فيتبين أنّ الخطاب، أو الحوار، الناتج عن ممارسة السلطة أكثر صرامة من حالة الحوار الذي يديره الطبيب مع المريض.

يفترض وجود السلطة أحيانا عند الطرف الأول وجود ضعف عند الطرف الآخر أو أقله مقاومة، لذا هناك سعيٌ حثيث إلى الاستئثار بالسلطة للتأثير في الناس، ولأنه كذلك فإنّ ممارستها مقيدة بشروط ترتبط بالخطاب والسياق. فالقاضي يمارس سلطته فقط في قضايا محددة، وخاصة إذا كانت ممارسة مهامه تجري في مكتبه، والخطاب هنا يتحول إلى مركز جذب لاستعمال ممارسات خطابية متنوعة، أي من يسيطر على موضوع الخطاب وأساليب إنتاجه يسيطر على الممارسات الخطابية، ويستغل الأيديولوجيا استغلالا استثنائيا لتعزيز هيمنته، وإن أدى ذلك إلى إضعاف الممارسات الأخرى، ولو كانت لا تتوافق ومثباتها⁴.

وهنا يبرز دور الخطاب، وقد تساءل أيضًا كثيرون من العلماء عن دوره في أنواع

1 Fowler, Roger & Kress, Gunther (2019) «Rules and Regulations», In Roger Fowler et al. (eds) Language and Control, London: Routledge, p. 26.

2 Foucault, Michel (1998) The History of Sexuality: An Introduction. New York: Pantheon Books, p. 100.

3 Hardy, Cynthia & Phillips, Nelson (2004) «Discourse and Power», In David Grant et al. (eds) The Sage Handbook of Organizational Discourse, London: Sage Publications, p. 302.

4 Fairclough, Norman (1995) Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language. London: Routledge, p. 2.

معينة من التّواصل. هذا التّساؤل مرده إلى أنّ قوة الأيديولوجيّا والتّأثير الذي ينتج عنها في الناس يغلبان أحياناً على الطّابع اللّسانيّ والمعرفيّ للخطاب، أي أنّ هناك لغطاً يترافق واستعمال الخطاب؛ هذا اللّغط قد يكون مقصوداً أحياناً، فالمهمة الرّئيسة للخطاب إنتاج المعرفة باستخدام اللّغة أو النّص، ولكن الخطاب يترافق دائماً والأيديولوجيّا، والتّمييز بينهما يتطلّب أحياناً التّمييز بين الكلام الواقعيّ أو الحقائق العلميّة والكلام المزيف أو الحقائق غير العلميّة¹، وهي مسألة وإن بدأت بالخطاب، لكنّها تتجاوزه وترتبط بالممارسات الاجتماعيّة والخطابيّة والتّناص.

لا تزال هذه المسألة محلّ أخذ ورد حتى الآن، والمسألة لا تتعلّق فقط بالتّمييز بين الكلام الواقعيّ والكلام الزّائف، أو بين الخطاب والأيديولوجيّا، بل بتحديد فعالية الكلام وموضوعه أو قوّة الخطاب وأثره في الناس. فعندما يشارك الخطاب في صياغة موضوع ما بأسلوب معين، يشارك الخطاب أيضاً في الحد من استعمال أسلوب آخر. وهنا يبرز دور محلّ الخطاب، وعليه أن يسأل: لماذا ظهر تعبير معين بدلاً من غيره؟².

ينطلق الجواب من فكرة أنّ الخطاب يرتبط بإنتاج المعرفة التي ترتبط بدورها بالسياق الاجتماعيّ والإدراكيّ، وإذا كانت المعرفة تستغل اللّغة في الأغلب فإنّ التعبير الذي ينتج عن استغلال اللّغة لا يظهر فقط ممارسة الكفاية اللّسانية والبلاغية وطريقة حصول ذلك، بل يظهر أيضاً القواعد والممارسات الاجتماعيّة والخطابيّة التي اكتسبها المرء وأصبحت جزءاً رئيساً من أسلوب تفكيره في إنتاج الخطاب. والخطاب في هذا السياق نسق تمثيليّ يهتم بتمثيل المعرفة، أي نسق أيديولوجيّ يتكلّم عن موضوع ما في لحظة ما. يظهر هذا النّسق تمثيل معرفتنا، لذا ينتج أهدافنا ويوجّه تفكيرنا ويضبط الأسلوب الذي صيغت به الأفكار وأسلوب استعمالها للتّأثير في سلوكيات الآخرين³. والخطاب يؤثّر أيضاً فينا وفي الموضوعات التي نتكلّم عنها أو المعرفة التي نربطها بالموضوعات، لذلك فإنّ المعنى

1 Hall, Stuart (1992) «The West and the Rest: Discourse and Power», In Stuart Hall & Bram Gieben (eds) Formations of Modernity, Oxford: Blackwell Publishers, pp. 291-293.

2 Foucault, Michel (2002) The Archeology of Knowledge. New York: Pantheon Books, p. 27.

3 Hall, Stuart (2001) «Foucault: Power Knowledge and Discourse», In Margaret Wetherell, Stephanie Taylor & Simeon J. Yates (eds) Discourse Theory and Practice: A Reader, London: Sage Publications, pp. 72-73.

خارج الخطاب عبثي¹.

كتب أحد الباحثين المعاصرين في كتاب شهير عن موضوع التأثير أنّ المرء يرغب في ربط أفعاله بسبب ما لتسويغها، وإنّ من يملك القدرة على تفعيل هذا السبب يملك القوّة للتأثير في غيره، واللّغة كثيرًا ما كانت الأداة الملائمة للتأثير في الآخرين². فمن يُحکم استخدام اللّغة إذا يجدها سلاحًا فعالًا، وخاصّة لمن يدرك خفايا العقل البشريّ أو السلوك النّفسيّ للمرء. والمقصود هنا بخفايا العقل البشريّ هو أسلوب التّفكير عند البشر الذي يتشابه بطريقة مدهشة³، ومن هنا قيمة الخطاب لأنّه كلام موجّه للجمهور، أكثر منه للأفراد.

لذلك أصرت النّظريّات الإدراكيّة الحديثة أنّه لا يمكن فصل المعرفة عن الخطاب أو النّص، إذ إنّ المعرفة يكتسبها المرء باستخدام النّص، ويجري تنشيط المعرفة المخزنة في العقل باستخدام التّعابير اللّغويّة المتناسكة والواردة في النّص. وهذا لا يعني أنّه لا يتضمّن معرفة، بل المقصود هنا أنّ المعرفة التي ينقلها النّص تنشّط المعرفة المخزنة في ذاكرة المرء، وخاصّة المعرفة المخزّنة في ذاكرة المرء الطّويلة الأمد. وهنا تبرز قيمة المعرفة وأسلوب تضمينها في النّص، لأنّ مضمون المعرفة لا يتمثل والتّعابير اللّغويّة التي استخدمت لتمثيل المعرفة التي نقلتها⁴، وهذا ما يستغله أحيانًا مستخدمو الخطاب للتسلل إلى عقول الجماهير.

والخطاب هنا وفق النّظريّات الإدراكيّة وسيلة وليس هدفًا، وبالتّحديد وسيلة لبناء المعاني والتّصورات في العقل. وهذا يفترض أنّ المعاني ليست عملية محدّدة تحديداً مُسبقًا وقاطعًا؛ لذلك فإنّ عملية تحديد المعاني والهوية الدّاتيّة لا ترتبط بجوهر ذي منشأ إلهي، أو بفلسفة معينة؛ المعاني الاجتماعيّة والهويّات السياسيّة تتولّد من الخطاب الذي يُعرّف في هذا السّياق بأنّه مجموعة من القواعد المترسبة والعلاقات أو الأصوات

1 Foucault (2002) The Archeology of Knowledge. p. 89.

2 Cialdini, Robert B. (2007) Influence: The Psychology of Persuasion. USA: Collins Business, pp. 4-11.

3 Wodak, Ruth & Meyer, Michael (2009) «Critical Discourse Analysis: History Agenda Theory and Methodology», In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, London: Sage Publications, p. 8.

4 De Beaugrande, Robert & Dressler, Wolfgang (1981) Introduction to Text Linguistics. London: Longman, p. 84.

المنطوقة التي تصاغ في أثناء الصّراع على السّلطة أو تعاد صياغتها بواسطته¹. هذه الصياغة المتكرّرة أو التّوليدية تجعل من إنتاج السّلطة عملاً يتّسم بالإبداع، وكلما ازداد اطلاع صفوة القوم على المعلومات وتعززت سلطتهم ازدادت قدرتهم على ممارسة السّلطة باللّغة²، لأنه يصبح باستطاعتهم استغلال أدائهم الخطابية لممارسة سلطتهم والتأثير في الآخرين، ولكن كيف؟

4. تجليات ما بعد البنيوية في تحليل الخطاب

1.4 من الخطاب إلى السّلطة والأيدولوجيا

تبين مما ذكرته آنفاً أنّ دور الخطاب في المجتمع دور رئيس، لأنّه يمتلك القدرة الإنجازية الطّبيعية على كشف الحقائق الواقعية وإظهارها إلى حيز الوجود، وخاصة الحقائق التي يدعي أنّه يصفها³. ولكن هذا الكشف يكون منحازاً في الأغلب أو يتضمّن غموضاً ويجري أحياناً استغلاله لغايات خبيثة، لأنّ المعرفة أو أقلّه ما يظهره الخطاب من معرفة ترتبط بالممارسات الاجتماعية والأيدولوجية ارتباطاً وثيقاً لا يفصل، ما يجعل الخطاب أحياناً غير بريء⁴. لذلك تكمن المهمة الرّئيسة لمحلّ الخطاب في بيان هذا الغموض وبيان دور الخطاب في تعزيز السّلطة، أي دراسة دور البنى الصّغرى للغة في صياغة البنى الكبرى للمجتمع⁵.

هذا الاهتمام بدور الخطاب وكفائه مردّه الأطروحات التي اهتمت بدراسة فلسفة السّلطة وارتبطت بالتطوّرات

الاجتماعية في المجتمع الغربيّ بُعيد بدء القرن السّابع عشر وصولاً إلى فلسفة ما بعد الحداثة في أواخر القرن العشرين، حيث انتشرت الديموقراطية وأصبحت الذات الإنسانية

1 Torfing, Jacob (2011) «Discourse», In Keith Dowding (ed) Encyclopedia of Power, London: Sage Publications, p. 191.

2 Cappelen, Herman & Dever, Josh (2016) Context and Communication. Oxford: Oxford University Press, p. 185.

3 Fairclough (2003) Discourse Analysis: Textual Analysis for Social Research, pp. 203-204.

4 Hall (1992) «The West and the Rest: Discourse and Power», In Hall & Gieben (eds) Formations of Modernity, 291-293.

5 Mayr, Andrea (2008) Language and Power: An Introduction to Institutional Discourse. London: Continuum, p. 9.

محور القوانين والتشريعات، وأنتجت هذه التطورات فلسفة جديدة للسلطة، فلسفة ترى أنّ ممارسة السلطة تجري في الخطاب لا في خارجه، أي لا تمارس

دائماً من الأعلى باتجاه الأسفل (Top-Down)، لأنّها خصيصة خطابية¹. وهنا يجري استعمال اللّغة لغايات عديدة، أهمها:

- تحويل استعمال السلطة إلى استعمال محق وصائب.
- تحويل امتثال الآخرين إلى واجب ومسؤولية².

ترتبط الغاية الأولى باستغلال الحجاج وغيره في التفاعل المجتمعيّ، أما الغاية الثانية فترتبط باستغلال الإدراك الاجتماعيّ، وهو عامل رئيس في نظريّة تون فان دايك (Teun van Dijk) الخطابية³. يؤثّر هذا التحويل أو التعديل في التمثيل الذهنيّ للمرء عن الأفكار والأحداث والأنماط، وفي ربط هذا التمثيل بالأيديولوجيا المعاصرة والمتداولة على حدّ سواء، ويتم هذه الرّبط أحياناً كثيرة باستخدام الممارسات الخطابية أو استغلالها لتصبح متحيزة. ويتحوّل هنا تحرير المجتمعات من أثر الممارسات الخطابية المتحيزة هدفاً صعب المنال ما لم تتغير بنية هذه الأنماط تغييراً يعزّز نسبة الوعي والقدرة على الرّفص والمقاومة والتحرّر⁴. وما يجري في لبنان حالياً هو خير مثال عن الخضوع لإرادة الممارسات الخطابية المنحرفة التي ورثها المسؤولون السياسيّون.

هذا الإجراء الذي ذكرته آنفاً ينجز باستغلال الخطاب استغلالاً مختلفاً عما افترضته بعض الدّراسات النقديّة؛ يتخطّى هذا الإجراء مجرد تغيير الأداء اللّغويّ أو كشف الممارسات الخطابية المنحرفة، فالممارسات الخطابية تؤثّر في الفعل الإنسانيّ أو

1 Hardy & Phillips (2004) «Discourse and Power», In David Grant et al. (eds) The Sage Handbook of Organizational Discourse, p. 303.

2 Wareing, Shân S. (2004) «What is Language and What Does it Do?», In Ishtla Singh & Jean Stilwell Peccei (eds) Language Society and Power: An Introduction, London: Routledge, p. 10

3 Van Dijk, Teun A. (2009) «Critical Discourse Studies: A Sociocognitive Approach», In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, London: Sage Publications, p. 66.

4 Waugh, Linda R. et al. (2016) «Critical Discourse Analysis: Definition Approaches Relation to Pragmatics Critique and Trends», In Alessandro Capone & Jacob L. Mey (eds) Interdisciplinary Studies in Pragmatics Culture and Society, London: Springer, p. 80.

أدائه وتنظيمه، بيد أن الممارسات تعد وليدة أداء الفعل الإنساني في الوقت نفسه؛ لذا فإن ممارسة السلطة توجد في كل مكان وفي كل الأزمنة، ومن هنا أهميتها في تحليل الخطاب.

وهنا تبرز مسألة أخرى، وهي طبيعة العلاقة الدائرية بين الفعل الإنساني والممارسات الخطابية، والممارسات نفسها ليست جيدة أو سيئة، لكن دور الفعل الإنساني فيها والمتأثر بأيدولوجيا ما هو الهدف، لا بوصفه ممثلاً اجتماعياً مستقلاً عن غيره، لكن بوصفه ممثلاً اجتماعياً أدى دوراً اجتماعياً متكرراً. لذلك يتأثر المرء أحياناً بموضوعات متنوعة أو يؤثر فيها، وهذا ما يجعل من تحليل أثر السلطة في الخطاب أمراً ممكناً، ولو لم يكن تحليل السلطة على هذا النحو لما كان بالإمكان ملاحظة آثار الإنسان المعرفية في الخطاب¹.

وفي هذا السياق المعرفي، اتفق العلماء على أن الأيدولوجيا نظام راسخ من الأفكار التي تنظم النشاط الاجتماعي والسياسي². تكتسب الأيدولوجيا قيمة إضافية في تحليل الخطاب، لأنها لا تظهر دائماً ظهوراً صريحاً في البنية السطحية للخطاب، أو أن ملاحظتها تحتاج إلى الحكمة والتبصر بتاريخ المجتمعات، ولا سيما السياسي والديني وطريقة تطوره، بالإضافة إلى أنها أكثر قيمة من الإدراك وباستطاعتها إنارة سلوك المرء وتوجيه قراراته وأحكامه اليومية التي كثيراً ما تتسم بالتماسك³.

هذا الأثر للأيدولوجيا ينسحب أيضاً على الاستراتيجيات الخطابية والمعرفية اللتين يتشاركهما كثيرون، فالمعرفة التي يجري تبادلها بوسيلة لسانية كالخطاب، أو بوسيلة أخرى، تتميز بأنها ذات أبعاد اجتماعية ونفسية وأنتروبولوجية وسياسية، مما يجعل المعرفة شيئاً لا ينمو كنمو الأعضاء البشرية، بل شيئاً يعلم وينتج ويستعمل ويباع

1 Watson, Matt (2017) «Placing Power in Practice Theory», In Allison Hui, Theodore Schatzki & Elizabeth Shove (eds) The Nexus of Practices: Connections Constellations Practitioners, London: Routledge, pp. 174-181.

2 Malešević, Siniša (2011) «Ideology», In Keith Dowding (ed) Encyclopedia of Power, London: Sage Publications, p. 334.

3 Wodak & Meyer (2009) «Critical Discourse Analysis: History Agenda Theory and Methodology», In Wodak & Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, p. 8.

ويستهلك¹. تبدأ هذه المسألة في المنزل بخطاب الأهل مرورًا بخطاب المربين في المدرسة وغيره؛ لذلك تلتصق المعرفة التصاقًا وثيقًا بالممارسات الخطابية التي تتحوّل بدورها إلى ممارسات اجتماعية تحكمها أيديولوجيا معينة تحاول الحفاظ على نجاحها وتفوقها وقوتها باستخدام الممارسات الخطابية².

ويصف نورمان فاركلوف (Norman Fairclough) بدوره هذه العلاقة التي تترسخ في الخطاب على النحو الآتي: اللّغة هي التّجسيد الماديّ للأيديولوجيا، وهذه الأخيرة تستغل بدورها اللّغة³، أضف إلى ذلك أن استخدام الأيديولوجيا يرمي إلى إزالة آثار استخدام السّلطة من التّسيج الاجتماعيّ، أو جعل المعاني الجديدة والهويات تبدو أمرًا طبيعيًا وموضوعيًا ومسلّم به، أي أنه يرمي إلى إخفاء أثر المكون الخارجي⁴. ومن أمثلة ذلك ما ورد في المبحث (5.2)، حيث برع كاتب الخطاب في إخفاء المعاني الحقيقية، وأظهر المربع الأيديولوجي مقاصدها المضمرّة في الخطاب.

وهذا ما حاول ميشال فوكو الإضاءة عليه، أي الإضاءة على دور الممارسات التي تتبلور في الواقع الاجتماعيّ. فالسّلطة مثمرة، وهي تربط المعرفة والخطاب معًا، إذ تنتج الأحداث الاجتماعيّة والحقائق والذوات الواعية أي المفكّرة⁵. وفي عبارات أكثر وضوحًا، تتأثّر الذات الواعية بعوامل خارجية كاللّغة والأيديولوجيا، لأنّ الذات الواعية في تيار ما بعد البنيوية أصبحت مسرحًا للأحداث بدلًا من أن تكون مركزًا، أو حضورًا، أو هي ما يتعرّض للأحداث بدلًا من أن تكون الفاعل للأحداث⁶، أي تصبح ممارسة السّلطة

1 Van Dijk, Teun A. (2011) «Discourse Knowledge Power and Politics: Towards Critical Epistemic Discourse Analysis», In Christopher Hart (ed) Critical Discourse studies in Context and Cognition, Amsterdam: John Benjamins Publishing, p. 33.

2 Haidar, Julieta & Rodríguez, Lidia (2005) «Power and Ideology in Different Discursive Practices», In Christina Schäffner & Anita L. Wenden (eds) Language and Peace, Amsterdam: Harwood Academic Publishers, pp. 121–122.

3 Fairclough (1995) Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language, p. 73.

4 Torfing (2011) «Discourse», In Dowding (ed) Encyclopedia of Power, p. 196.

5 Foucault (1982) «The Subject and Power», Critical Inquiry 8(4), p. 783.

6 Enani, Mohammad (1996) Modern Literary Terms: A Study and A Dictionary English–Arabic. Beirut: Librairie du Liban. pp. 107–108

أشبه بلعبة¹.

لهذه الأسباب أطلق على مقارنة فوكو للسلطة المقاربة العلائقية، لأنها تربط بين استعمال المعرفة والسلطة والخطاب، واستعمالها لا يقتصر على فرع معين من العلوم، أكانت هذه الأخيرة سياسية أو تربوية أو نفسية أو أنتروبولوجية²، وهي أشبه بشبكة إنتاج متطورة ومثمرة انتشرت في مجمل الجسم الاجتماعي³. وتوصل الباحثون في هذا المضمار إلى خلاصة مفادها أنّ المعرفة الناتجة عن الخطاب تترافق والسلطة تارة وتؤدي إليها طوراً، والسلطة تعمل أيضاً بنجاح باستغلال المؤسسات والممارسات والخطابات⁴.

يمكن الاستنتاج من المفاهيم المذكورة أنّها أنّها كلما تضاعف تفاعل المرء ومحيطه الثقافي والسياسي تعمق انتماء المرء للثقافة المعاصرة، وتأثر بدوره تأثيراً أيديولوجياً بها، مما قد ينتج عن ذلك تقبل المرء لمحيطه المذكور كما تقبل اللبنانيون حكاهم الفاسدين. لذلك يلاحظ أنّ التأثير بالأيديولوجيا حدث تاريخياً في ذروة استخدام الحضارات للخطاب كما حدث في الحضارة الهلينية وخاصة في أثينا، أو في الإمبراطورية الرومانية إبان حكم الإمبراطور يوليوس قيصر، أو في الحضارة العربية إبان حكم العباسيين حيث تطوّرت البلاغة العربية وازداد استخدامها. لذا انطلق هذا النوع من ممارسة السلطة من رأي يعد السلطة وسيلة للإقناع، حيث يكون للغة دور رئيس، وليست وسيلة للهيمنة فقط⁵؛ وهنا تكمن خطورة الأيديولوجيا وأهمية تحليلها تحليلًا يترافق وتحليل السلطة.

والجدير ذكره هنا أنّ مقارنة فوكو لنشوء السلطة وممارستها وتفسيرها ليست الوحيدة،

1 Leezenberg, Michiel (2013) «Power in Speech Actions», In Marina Sbisà & Ken Turner (eds) Pragmatics of Speech Actions, Berlin: De Gruyter Mouton, p. 290.

2 Haugaard, Mark & Clegg, Stewart R. (2009) «Introduction: Why Power is the Central Concept of the Social Science», In Stewart R. Clegg & Mark Haugaard (eds) The Sage Handbook of Power, London: Sage Publications, p. 5.

3 Foucault, Michel (1980) Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings 1972–1977. New York: Pantheon Books, p. 131.

4 Gaventa, John & Cornwall, Andrea (2008) «Power and Knowledge», In Peter Reason & Hilary Bradbury (eds) The Sage Handbook of Action Research: Participative Inquiry and Practice, London: Sage Publications, pp. 173–175.

5 Mayr (2008) Language and Power: An Introduction to Institutional Discourse, p. 13.

وسأشير فقط وباختصار إلى مقارنة ستيفن لوك (Steven Lukes). انطلق هذا الأخير من المفهوم السائد عن السّلطة في سبعينيات القرن الماضي وهو أن السّلطة تترافق والسيطرة أو الهيمنة، وقد طور مفهومه لممارسة السّلطة وقسمه إلى ثلاثة أبعاد وفق تسميته، الأوّل والثّاني عدّهما غير كافيين، أمّا الثّالث فعده كافياً. يرتبط البعد الأوّل بأخذ القرارات المهمة، ويكمن البعد الثّاني في قدرة السّلطة على التّأثير، أو الحضّ على عدم اتّخاذ قرار، أما البعد الثّالث للسّلطة فيرتبط بالهيمنة، وهو أخطرهم لأنّه غدار وماكر وخفي ويؤثّر في أفكار الأفراد¹.

هذه المقاربة الأخيرة انطلقت من مفهوم تعميم الوعي الرّائف، أما المقاربات الأخرى لنشوء السّلطة فهي مقارنة النّظام الاجتماعيّ، والانحياز (الانحياز إلى القوي)، وأنظمة التّفكير السّائدة، وتعميم الوعي الرّائف، وترابط السّلطة بالمعرفة كمرحلة عبور إجباريّة، وقواعد السلوك أو الانضباط، والإكراه أو القوّة².

2.4 من تحليل الخطاب إلى التّحليل النّقدي للخطاب

تأثّرت نظرية الخطاب بأفكار ما بعد البنيويّة وتجسّد ذلك باهتمام مؤسسي نظرية التّحليل النّقدي للخطاب بدراسة علاقات الخطاب الخارجيّة وممارساته، وتركز هذا الاهتمام على دراسة علاقة الخطاب بالسّلطة والأيديولوجيا اللّتين تحدّدان أسلوب استعمال اللّغة، أي الخطاب، وما هو تأثيره، وكيف يجسّد مصالح ممارسي السّلطة، ويخدم موقعهم السّلطويّ ويؤيد وجهات نظرهم وقيمهم³. ويذكر تون فان دايك أنّ التّحليل النّقدي للخطاب بحث تحليليّ للخطاب، ويرمي أولاً إلى دراسة أساليب استغلال السّلطة الاجتماعيّة وطريقة وضع اللامساواة موضع التّنفيد وإعادة إنتاجها وانتشارها وشرعنتها

1 Lukes, Steven (2005) Power: A Radical View. Houndmills: Palgrave Macmillan, pp. 25-40.

2 Haugaard, Mark (2010) «Reflections on Seven Ways of Creating Power», In Stewart R. Clegg (ed) Sage Directions in Organization Studies, London: Sage Publications 4, p. 157.

3 Waugh et al. (2016) «Critical Discourse Analysis: Definition Approaches Relation to Pragmatics Critique and Trends», In Capone & Mey (eds) Interdisciplinary Studies in Pragmatics Culture and Society, p. 72.

أو مقاومتها عن طريق النص والكلام في السياق الاجتماعي والسياسي¹.

ويعد في هذا السياق دور الممارسات الخطابية دوراً رئيساً، إذ أسهمت في تعزيز دور الخطاب وجعله أداة فعالة في ممارسة السلطة، ما يؤدي أحياناً إلى علاقات غير عادلة بين أطراف المجتمع، كالعلاقة بين الذكور والإناث، والعلاقة بين الأقلية الإثنية والأكثرية الحاكمة²، أو العلاقة بين القاضي والمدعى عليه. وممارسة السلطة في هذا السياق ذات طبيعة خطابية وإدراكية، وهذه الطبيعة لا تتنافى وفكرة أن هناك سلطة مستقلة للمرء، بل تعززها، وترمي السلطة هنا إلى إدارة الفعل الحر للممثلين الاجتماعيين والسياسيين في إطار خطابي وإدراكي يوجه أفعالهم إلى اتجاهات معينة ليكفل تشاكلها لاحقاً³.

لذلك استهدفت مناهج التحليل النقدي للخطاب في مرحلة ما بعد البنيوية توضيح العلاقة بين استعمال الخطاب، أو المستوى الجزئي الذي كثيراً ما يرمي إلى التأثير في الآخرين باستغلال الأيديولوجيا السائدة من جهة، والمستوى الكلي أي السلطة والهيمنة واللامساواة من جهة أخرى⁴، حيث يصبح استعمال اللغة استعمالاً نشطاً يتخطى دلالات التواصل التقليدية بغية الوصول إلى دلالات مضمرة وملتبسة غالباً ما ترتبط بمسائل اجتماعية وسياسية. وبترافق استعمال هذا النوع من الدلالات وتحديد موقع الآخرين إلى المتكلم، ويجري ذلك عن طريق استعمال اللغة أو الخطاب بأسلوب موارد⁵.

تهتم نظرية التحليل النقدي للخطاب بكشف هذه الرموز أو الأساليب الملتوية التي ترسخت في الخطاب مستغلة الأيديولوجيا، لأنها ترمي إلى نشر العدالة الاجتماعية وإلى البحث عن خطاب بديل يحترم عقول الآخرين وحقوقهم الاجتماعية. ويعدّ هذا الموقف موقفاً إيجابياً لا سلبياً كما عدّه بعض النقاد لأول وهلة. فمعنى مصطلح النقدي

1 Van Dijk, Teun A. (2015) «Critical Discourse Analysis», In Deborah Tannen, Heidi E. Hamilton & Deborah Schiffrin (eds) The Handbook of Discourse Analysis, Oxford: Wiley Blackwell 1, p. 466.

2 Jørgensen & Phillips (2002) Discourse Analysis as Theory and Method, p. 63.

3 Torfing (2011) «Discourse», In Dowding (ed) Encyclopedia of Power, p. 191

4 Waugh et al. (2016) «Critical Discourse Analysis: Definition Approaches Relation to Pragmatics Critique and Trends», In Capone & Mey (eds) Interdisciplinary Studies in Pragmatics Culture and Society, p. 80.

5 Fyke, Jeremy P. (2017) «Power in Language», In Mike Allen (ed) The Sage Encyclopedia of Communication Research Methods, London: Sage Publications 3, p. 1316.

(Critical) لا يعني الوقوف على الحياد، بل يعني اتّخاذ موقف تصحيحي للممارسات السياسيّة والاجتماعيّة الخاطئة¹، لأنّ هذه الأخيرة انتقلت إلى الخطاب ولا تزال تنتقل في كثير من المجتمعات، وهو ما يسمى بالأثر الأيديولوجي².

لذلك يعدّ تحليل الخطاب تحليلاً للأيديولوجيا في الأغلب، وخاصة إذا اقترن تحليله بدراسة أساليب استغلال الخطاب للتلاعب بالضّم ليصبح عدلاً أو لتخفيف وطأته ليصبح أكثر مقبولية، سواء أكان ذلك في مؤسسة أم في منظمة³. يشرح أحد الباحثين الفكرة الأخيرة قائلاً: عندما تنظم الكلمات في جمل، والجمل تجتمع معاً في الخطاب، فإنّ قوّة اللّغة تزدهر ازدهاراً ملحوظاً، وذلك لأنّه قد تُستخدم وسائل ملتبسة أو حيل لسانیة لتشويه الواقع وإخفائه، سواء أكان ذلك على مستوى الجمل أم على مستوى الخطاب. يجري التّأثير في القراء لإدراك الواقع مثل ما قدمه المؤلّف، لذلك يبرز هنا شأن اختيار المنهج الملائم لتحليل التّأثير البارع للغة في الاستعمال⁴. وتوضيح ذلك سأتوقّف عند مثالين اثنين تردداً كثيراً في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة اللبنانيّة، وهما استخدام المصدر (انفجار) و (تفجير):

(1) ... انفجار مرفأ بيروت.

(2) ... تفجير مرفأ بيروت.

بحثت في تطبيق جريدة النهار على هاتفي الشّخصي عن عدد المرات التي تردّد فيها استخدام المصدرين المذكورين وتاريخ ورودهما، فوردت النتيجة: 923 مرّة للمصدر (انفجار)، و123 مرّة للمصدر (تفجير)، وذلك منذ تاريخ 2020 /9/9 حتّى 2021 /4/17. اشتقّ المصدر الأوّل من فعل (انفجر) أي على وزن انفعل، وهو وزن بني للمطاوعة، ومعنى المطاوعة هنا هو قبول الفعل، مثل كسرتة فانكسر، نحو: انكسر الزجاج، والفاعل الحقيقي هنا مجهول. والمصدر الثّاني اشتق من فعل

1 Wodak & Meyer (2009) «Critical Discourse Analysis: History Agenda Theory and Methodology», In Wodak & Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, p. 1.

2 Jørgensen & Phillips (2002) Discourse Analysis as Theory and Method, p. 63.

3 Fairclough, Norman (2013) Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language. London: Routledge, p. 7.

4 Hung Ng, Sik (2011) «Language and Power» In Keith Dowding (ed) Encyclopedia of Power, London: Sage Publications, p. 372.

على وزن (فعل)، أي فعل تفعيلاً، نحو: فجر فلان القنبلة تفجيراً، والفاعل النحوي والمنطقي هنا ظاهر في البنية السطحية.

وما حدث في المثال رقم (1) هو أن استخدام الوزن (انفعل) أخفى الفاعل الحقيقي أو المنطقي لأنه وزن بني للمطاوعة، ووظيفته إظهار الصيغة التي قيل فيها الفعل (Aspect)، وكأنه بني للمجهول. ويلتقي الغرضان، أي المطاوعة والبناء للمجهول، في فكرة الباعث أو المحرك وردة الفعل، فالمطاوعة هي انعكاس لمؤثر والمبني للمجهول هو استجابة لمؤثر أيضاً، ولذا يمكن عدّهما وجهين لغرض واحد¹.

وفي عبارات نقدية، أدى استعمال المصدر (انفجار) إلى إخفاء الفاعل المنطقي المسؤول عن تفجير المرفأ وحذفه من الوعي الجماعي اللبناني كما حذف من البنية السطحية في التركيب المذكور، وإن كان استعماله من باب المجاز. كتب تون فان دايك واصفاً بدوره مناهج التحليل النقدي للخطاب بأنها عابرة للاختصاصات، أي لا تقتصر فقط على استعمال منهج محدد لتحليل الخطاب، بل تستحضر مناهجها من العلوم العابرة للاختصاصات، وخاصة من العلوم الإنسانية، أو كل ما من شأنه أن يساعد على تحليل الخطاب تحليلاً نقدياً يبرز المشكلات الاجتماعية والمسائل السياسية في سياقاتها الاجتماعية والسياسية. ولا تكفي هذه المناهج بوصف البنى الخطابية والاجتماعية، بل تحاول أن تشرحها وتبين كيف تتفاعل خصائصها الاجتماعية².

هذه المناهج المرنة تتلاءم بدورها ومبادئ نظرية المعرفة (Epistemology) وأصولها المعرفية، لأن ممارسة السلطة ووفق فوكو توجد أينما كان، ولا سيما في العلاقات الاجتماعية، وتتعدد وجوهها أيضاً³. هذه المسألة تعني أن ممارسة السلطة تترافق وأنواع كثيرة من الأنشطة والعلاقات المهنية والاجتماعية. إن ما يميز نظرية التحليل النقدي للخطاب إذاً هو المنظور الذي تعالج به الموضوعات، فمعظم الأدوات يتمثل، والموضوعات أيضاً تتمثل وإن كانت بنسبة أقل. فتغيير المنظور إذاً هو الهدف الرئيس، لأن السلطة لا تكمن في اللغة نفسها، بل في أساليب استغلال اللغة، وخاصة ممن هم

1 عمارة، حنا إسماعيل (2012) "معاني الزيادة في الفعل الثلاثي في اللغة العربية: دراسة وصفية"، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، م 20، ع 2، ص 312.

2 Van Dijk (2015) «Critical Discourse Analysis», In Tannen; Hamilton; Schiffirin (eds) The Handbook of Discourse Analysis 1, p. 466.

3 Foucault (1998) The History of Sexuality: An Introduction, 93.

في السّلطة¹. ويمكن هنا إعادة وصف ما ذكرته آنفًا عن مناهج تحليل الخطاب النّقديّ التي يجب التركيز عليها، وهي:

- **الخطاب بوصفه لغة مكتوبة أو منطوقة:** حروف، وأصوات، ومفردات، وجمل، وتراكيب، وقواعد نحوية.
- **الخطاب بوصفه ممارسة بلاغية:** ظروف إنتاج الخطاب، وظروف تلقّيه، وسياقاته، وغاياته البلاغية، وأساليب تنظيمه وتداوله.
- **الخطاب بوصفه فعلاً اجتماعيًا:** علاقة الخطاب بالمسائل التي تحيط به من قوى فاعلة، وأيديولوجيات مؤثرة، وتأثيره فيها وتأثيرها فيه².

أما تون فان دايك فاهتم في مقارنته للتحليل النّقديّ للخطاب بالمكوّن الإدراكيّ، وهو مكوّن يتكامل والمقاربة المذكورة من جهة، ومع ما كان قد عمل له منذ بدء الثمانينات في القرن العشرين من جهة أخرى، بالإضافة إلى ما كان قد أشار إليه فوكو، أي دور المعرفة، وهذا البعد هو بدوره عابر للاختصاص:

- **الخطاب بوصفه وسيلة للمعرفة والإدراك:** دور العقل والإدراك الذي ينظم آليات عمل العقل كالنّقكير والملاحظة والتّمثيل، ودور الذاكرة بأنواعها، والأهداف، والمعرفة، والأيديولوجيّا، والمواقف النّفسيّة، والإجراءات الإدراكيّة، وعلاقة الخطاب بالذاكرة³.

والجدير ذكره هنا أن تون فان دايك لم يكتف بثلاثية فاركلوف، أي الملاحظة والوصف والنّقسير، بل أضاف إليها سمة الفعالية ووثيقة صلة المنهج المقترح بالموضوع، وهما سمتان ضروريتان جدا للنّجاح في عملية التحليل النّقديّ للخطاب⁴.

5. التّحليل

اخترت عمدًا خطابًا سياسيًا إلقاء الرّئيس الأميركيّ السّابق دونالد ترامب (Donald

1 Wodak, Ruth (2002) «Aspects of Critical Discourse Analysis», ZfAL 36, p. 10.

2 Fairclough (1995) Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language, p. 2.

3 Van Dijk (2009) «Critical Discourse Studies: A Sociocognitive Approach», In Wodak & Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, p. 64-65.

4 Van Dijk, Teun A. (1993) «Principles of Critical Discourse Analysis», Discourse and Society 4(2), p. 253.

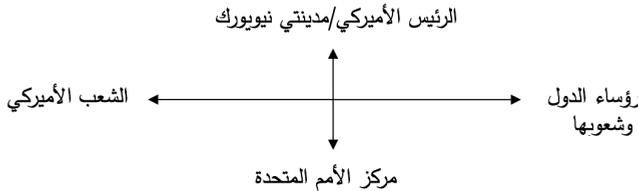
(Trump) أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة لتحليله¹، لأنها كانت فرصة مهمة حاول فيها الرئيس المذكور تضمين خطابه عصارة أفكاره التي روجها في أثناء حملته الانتخابية العام 2016 وصولاً إلى خطاب التّصيب في النّصف الثاني من شهر كانون الثاني العام 2017. أضف إلى ذلك، حاول الرئيس المذكور أيضاً الظهور أمام رؤساء الدّول بطابع معين، مما جعله أيضاً يضمّن خطابه المذكور مقارنته لممارسة السّلطة، وفي هذا السّياق ميز النّقاد السّياسيّون الرئيس ترامب من غيره وعدّوه رئيساً يمينياً شعبوياً.

انطلاقاً مما ورد، سأقوم بتحليل الممارسات الاجتماعية والأيدولوجية مع ما يرتبط بها من مكوّنات لغوية أو نصية أو أنماط نصية، بسبب قيمة هذه الممارسات وطبيعتها العابرة لأنواع الخطاب. سيتناول هذا التحليل موضوعات مثل السياسة الداخلية، والسياسة الخارجية، والاقتصاد والتجارة، والإرهاب والأمن؛ هذه الموضوعات ترتبط بتفكير الرئيس الأميركي وتوضّح استراتيجياته السياسية، ولا سيما سياسته الخارجية تجاه كوريا الشمالية وإيران وفنزويلا، وقد اقتصر هذا البحث على دراسة موضوع كوريا الشمالية.

1.5 أنواع الخطاب في كلمة الرئيس الأميركي

1.1.5 خطاب القوّة الناعمة

بدأ الرئيس الأميركي خطابه العام (Public Discourse) بالتزام مبدأ التّأدب، حيث رحّب بجميع الضيوف (مرحبا بكم في نيويورك)، وهو أمر غير استثنائي، ولكنه أمر استغله أيديولوجياً لتضمين الفقرة الأولى من خطابه ملامح القوّة الناعمة وبعض مبادئها التي ستنتج تفاصيلها الرمادية لاحقاً في خطابه، إذ يبدأ بتذكير الجميع بأسلوب غير مباشر ومهذب أنهم هم من أتوا إلى مدينته نيويورك، فكأنه يضع المخطط الآتي:



الرسم البياني رقم 1: مخطط تحديد السلطة.

1 ينظر الملحق في نهاية البحث للاطلاع على الخطاب.

فالرئيس الأميركي يحدّد هنا المكان والزّمان ويحدّد الأيديولوجيّا، ويضع الشّعب الأميركيّ مقابل رؤساء الدّول وشعوبها، ويرمي بذلك إلى رسم معالم استراتيجيته القياديّة مستغلّاً سلطته من جهة، والزّمان والمكان من جهة أخرى. يذكر الأنتروبولوجي إدوارد هال (Edawrd Hall) أنّ الزّمان والمكان عنصرين ثقافيين يتواصلان بقوة اللّغة¹، فالزّمان الآن زمان الرّويّة الاقتصاديّة الأميركيّة (سوق الأسهم الأميركيّة وصلت إلى أعلى درجاتها...!)؛ والرئيس المذكور نفسه رجل أعمال ناجح جداً، زد على ذلك أن برج ترامب الشّهير يقع في مدينة نيويورك نفسها، وذكر مدينة نيويورك هنا مضافة إلى ياء المتكلّم هو أشبه باستعارة تفيد معنى أيديولوجيا.

وبالانتقال إلى الفقرة الثّانية فصلّ الرئيس الأميركيّ بعض سياسات أميركا الاقتصاديّة، ومن المسائل المهمة التي وردت في هذا الموضوع ما ذكره في نهاية خطابه، وخاصة في الفقرة الثّاسعة عشرة، حيث دعا إلى الانجذاب إلى قيم السّلام والحرية والعدالة والعائلة. هذا كلّه يبين خبرةً برزت في ممارسات خطابيّة عزّزت الحبكة بين البنى الصّغرى والكبرى، وذلك لضبط فقرات الخطاب ومضمونها الأيديولوجي الذي استغله استغلالاً ذكيّاً للاستعلاء على بعض رؤساء الدّول ومحاولة التأثير في صياغة خطابهم، وهو ما سأتناوله أدناه.

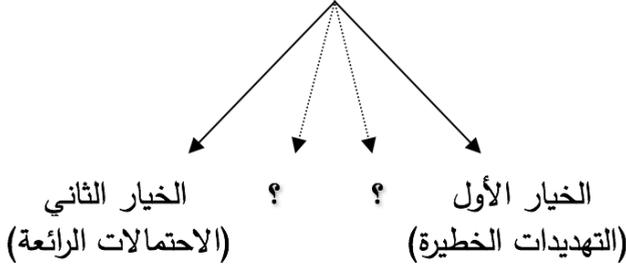
2.1.5 خطاب الاستعلاء والقوّة والتهديد

بادئ ذي بدء، إقناع الآخرين ومحاولة التأثير فيهم لا يقتصران على استخدام القوّة النّاعمة فقط، أو استخدام القوّة القاسية فقط، بل كثيراً ما يُستخدم نوعي القوّة المذكورين في الخطاب الواحد². انطلاقاً من هنا، يبدأ الرئيس الأميركيّ مباشرة بعد مقدّمة مقتضبة وذكويّة بخطاب القوّة، إذ يعلن بصراحة في نهاية الفقرة الثّانية تطوّر القدرة العسكريّة الأميركيّة (سنفق حوالي 700 بليون دولار على الجيش والدفاع)، ويطرح أيضاً أمام رؤساء الدّول مسألتين: (التهديدات الخطيرة) و(الاحتمالات الرائعة)، ثم يستفيض قليلاً في تفصيل المسألة الثّانية وشرحها (الاختراقات في مجالات العلوم...). هذه

1 Hall, Edawrd T. (1959) The Silent Language. New York: Doubleday, pp. 165-190.

2 Nye Jr., Joseph S. (2008) «Public Diplomacy and Soft Power», AAPSS, 616(1), p. 95.

الاستراتيجية عززت تماسك النص، زد على ذلك أنّ الرئيس الأميركيّ يرمي هنا على الأرجح إلى إغراء حلفاء أميركا وأعدائها وتهديد خصومها وأصدقائها في الوقت نفسه، فمن يملك القوة والسلطة يملك القدرة على تخيير الآخرين:



الرسم البياني رقم 2: الخياران الملتبسان.

يظهر هذا المخطط الخيارين الملتبسين اللذين وردا في خطاب الرئيس الأميركيّ، كأنّه لا يوجد خيار ثالث مناسب أو غيره قد يرد من أحد رؤساء الدّول الأخرى، وهذا يعدّ استغلالاً خبيثاً لخطاب السّلطة المرتكز على أيديولوجيا القوة. فما لا ينتمي إلى الخيارات الرّائعة التي تكلم عنها قد يعدّ من التّهديدات الخطيرة! وبهذا يكون الرئيس المذكور قد استغل نفوذه للتأثير في جدول المناظرات، وهو ما أشار إليه ستيفن لوك وذكرته سابقا.

وفي الواقع طرح الرئيس الأميركيّ ثنائيات عديدة في سياق خطابه، وخاصة في الفقرة الثامنة والتاسعة والعاشر. فقد ذكر في الفقرة الثامنة الثنائيات الآتية: (الانسجام والوئام والصداقة وليس النزاع والشقاق)؛ وفي الفقرة التاسعة ذكر الثنائية الآتية: (الرّضا الخادع مقابل القوة والاعتزاز)؛ وفي الفقرة العاشرة ذكر الثنائية الآتية: (الأخيار... الأشرار)؛ وذلك كله لترويج أسلوبه في التفكير القائم على الثنائيات وتعميم الوعي الرّائف.

3.1.5 خطاب الشّعبويّة

الشّعبويّة حركة سياسيّة عفوية، وهي تتيح لممارسيها الاستقواء بالشّعب ضد النّخب السياسيّة الحاكمة، أو الأحزاب السياسيّة الحاكمة، وتحقيق غايات عديدة متباينة، وكثيراً ما تكون غايات تتعلّق بالأشخاص لا بالمجموعات. وتبدو هنا الشّعبويّة كردّة فعل على

الممارسات السياسيّة السّابقة، أو ربما تبدو كشكل من أشكال الانتقام السياسيّ، وقد ظهر ذلك في خطاب الرّئيس الأميركيّ المذكور بأشكال عديدة، منها ما ظهر في خطاب الكراهية، ومنها أيضًا ما ظهر في أسلوبه السّاخّر من الآخرين. لذلك تقوم الشّعبيّة على عناصر أيديولوجية غير متماسكة في الأغلب رغبة منها في تحقيق الأهداف التّلاعبية للمرّوجين لها، وخاصّة في الأنظمة الديمقراطيّة¹.

وقد لجأ إليها الرّئيس الأميركيّ في خطابه السياسيّة قبل انتخابات عام 2016 ويعيدها كاستراتيجية سياسيّة تتيح له أوّلًا الوصول إلى البيت الأبيض. أما في هذا الخطاب فإنّه استغلها استغلالًا استراتيجيًا وسياسيًا للإطباق على السّلطة من جهة، ولترويج أفكاره من جهة أخرى. وقد خصّص فقرات عديدة من خطابه للحديث عن الشّعبيّة، وخاصّة في الفقرة الخامسة والسادسة والسّابعة، حيث ذكّر في الفقرة الخامسة بعبارة (نحن الشّعب) الواردة في الدّستور الأميركيّ، ثم ذكر بوضوح في الفقرة السادسة المبدأ الرّئيس للشّعبيّة وهو أنّ (الشّعب يحكم ويقرر)، وفي الفقرة السّابعة ذكر بوضوح أن سياسته الخارجيّة تقوم على وضع أميركا في المقام الأوّل، بالإضافة إلى مواقف متناثرة في الخطاب تبيّن أسلوبه الشّعبيّ.

2.5 الممارسات الخطابية والاجتماعية والأيدولوجية

سأتناول هنا مسائل تتعلق بالممارسات الخطابية والاجتماعية والأيدولوجية، وهي مسائل وردت في خطاب الرّئيس الأميركيّ وترافقت وأنواع الخطاب المذكورة آنفا. سأبدأ بدراسة أنواعها، ثم سأدرس دلالات استخدامها، وأخيرا سأدرس دلالات استخدام المربع الأيدولوجيّ والحجاج الذي استهدف إقناع رؤساء الدّول بأساليب نوعية، كالتمكّير العملي والتهديد أو التخويف؛ إذ كثيرا ما يتم استغلال السّياق الاجتماعيّ والإدراكيّ في هذه الممارسات للتأثير في أساليب تفكير الآخرين تأثيرا ملحوظا.

بالنسبة إلى الممارسات الخطابية تميز خطاب الرّئيس الأميركيّ باستخدام فقرات قصيرة نسبيا، وترافق هذا النوع من الفقرات واستخدام جمل قصيرة ورشيقة في معظم أقسام الخطاب. وفي هذا السّياق، يذكر كثير من الباحثين أن طريقة عمل الذاكرة العاملة

1 Canovan, Margaret (2001) «Populism», In Paul B. Clarke & Joe Foweraker (eds) Encyclopedia of Democratic Thought, London: Routledge, pp. 674-676.

(Working Memory) تركز على معالجة عدد محدود من الكلمات قد يبلغ ثماني كلمات في الجملة الواحدة. ويذكر الباحثون في علم النفس الإدراكي أنه كلما ازداد عدد الكلمات في الجملة ارتبطت عملية معالجة المعلومات بعددها؛ لذلك انتقلت الدراسات الإدراكية الحديثة التي تتناول تحليل الخطاب من الاهتمام بأسلوب تأليف المعلومات في سياق معين إلى الاهتمام بأسلوب معالجة المعلومات وتحليل الأداء المرتبط بمعالجة عدد الكلمات¹، فما كان قصده من استخدامها؟

تميّزت هذه الجمل بأنّها تحتاج إلى جهد إدراكي معتدل لمعالجتها، وقصد الرئيس الأميركيّ منها مسألتين، الأولى تخفيف الحمل الإدراكيّ على المترجمين الفوريين ووسائل الإعلام، والثانية مخاطبة رؤساء الدول بوضوح وفعالية وحثهم على التفكير وتجنب استخدام فائض من الجهد الإدراكيّ، أي ما يسمّى بالتفكير السريع أو التفكير الآني الذي لا يحتاج إلى جهد إدراكيّ ملحوظ²، وهو ما يمكن ملاحظته من أدائه الخطابية.

تميز الخطاب أيضاً باستخدام كلمات تدلّ على الشمولية، أو كلمات وردت في صيغة الجمع تدل على الشّيء نفسه، وباستخدام ضمير المتكلم الجمع، نحو: (النصر العظيم، زعماء، أخطار متنامية، أنظمة مارقة، أملنا، نزلق، شهدنا، مهمتنا، سنقاتل، نضحي). تنطلق هذه الممارسات الخطابية من مبدأ التأدب وترمي إلى تعميم شعور التضامن بين زعماء العالم³، وهو أمر استغله الرئيس الأميركيّ لتحقيق غايات استراتيجية عديدة وردت لاحقاً في خطابه وسأتكلم عنها أدناه.

بالنسبة إلى الممارسات الاجتماعية والأيدولوجية أخفى الرئيس الأميركيّ في سياق خطابه استراتيجيات عديدة، وأهمها الاستراتيجيات المرتبطة بشرعة سياساته وتبريرها. والشرعة أو إضفاء الشرعية (Legimitization) في الخطاب السياسي ترتبط مباشرة بشرعة ممارسة السلطة السياسية، أو غيرها، ومنحها الحق بالنسبة إلى الأشخاص الذين

1 Engle, Randall W. (2002) «Working Memory Capacity as Executive Attention», Current Directions in Psychological Science 11, p. 20.

2 Kahneman, Daniel (2013) Thinking Fast and Slow. New York: Farrar Straus and Giroux, pp. 20-21.

3 Scollon, Ron & Scollon, Suzanne W. (2001) Intercultural Communication: A Discourse Approach. Malden: Blackwell Publishers, p. 54.

تُمارس السُّلطة بحقهم¹.

وبعبارات تداولية، تستعين الأيديولوجيا السائدة للسلطة الحاكمة بالوسائل التي تراها ملائمة لإثبات صحة سلطتها المعنوية والسياسية². والرئيس الأميركي لجأ في خطابه أمام الأمم المتحدة إلى كثير من الاستراتيجيات لشرعنة سياسة بلاده الخارجية، وخاصة تجاه الدول التي اتهمها بأنها دول مارقة، وتكتسب هذه الاستراتيجيات قيمة متزايدة في الخطاب السياسي، لأنها تتصف بأنها فعل اجتماعي معقد أو إجراء يُنجز أيضاً باستخدام بعض أفعال الكلام، كالتأكيد، والنفي، ورد الاتهامات³. هذه الاستراتيجيات هي:

1.2.5 استراتيجية اللجوء إلى المستقبل المزدهر لأميركا

تعود قيمة هذه الاستراتيجية إلى أنها تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وقد بدأ الرئيس الأميركي استخدامها في الفقرة الثانية، حيث بيّن إنجازاته منذ استلامه مقاليد الحكم في شهر كانون الثاني في سنة 2017، إذ كان قد وعد في أثناء حملته الانتخابية بإعادة الأولوية لازدهار أميركا، وهو ما حدث إلى حدّ ما في العام الأول من عهده؛ وبرز استخدام هذه الاستراتيجية بوضوح في الفقرتين الرابعة والسابعة، حيث تطرّق أولاً إلى تحقيق وعود المستقبل عندما ذكر بخطة مارشال وآثارها المتنوعة على الحلفاء، ولاحقاً ذكر بوضوح: سأضع (أميركا أولاً) في المقام الأول. ومصطح أميركا أولاً (America first) مصطلح قديم تعود جذوره إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، وكأنه هنا يوازن تاريخه بتاريخ بعض الرؤساء الأميركيين الذين نجحوا قبله في رسم معالم مستقبل أميركا، واستخدام هذا المصطلح هنا يعدّ استغلالاً للأيديولوجيا المتوارثة.

2.2.5 استراتيجية اللجوء إلى العقلانية

استغل الرئيس الأميركي هذه الاستراتيجية في فقرات خطابه بغية الحجاج، وخاصة

1 Scruton, Roger (2007) The Palgrave Macmillan Dictionary of Political Thought. New York: Palgrave Macmillan, p. 388.

2 Enani (1996) Modern Literary Terms: A Study and A Dictionary English–Arabic. pp. 49–50.

3 Van Dijk, Teun A. (1997) «What is Political Discourse Analysis?», Belgian Journal of Linguistics 11(1), p. 37.

في الفقرات السابعة والثامنة والتاسعة، فقد وازى الرئيس المذكور في الفقرة السابعة بين ممارساته وممارسات الرؤساء الآخرين؛ وفي الفقرة الثامنة طرح مجموعة ثنائيات بالإضافة إلى فكرة (الواقعية المبدئية) التي أقل ما يقال عنها أنها تخاطب الذكاء الإنسانيّ وتحثّه على الاستدلال باستعمال أسلوب القياس. واستمرّ في الفقرة التاسعة بذكر (الواقعية) ومقدمات منطقيّة أخرى لاستخدام الأسلوب نفسه لاحقاً والوصول إلى استدلالات معينة. وفي الواقع يرتكز هذا النوع من التفكير على استخدام المعرفة المخزنة في ذاكرة المرء الطويلة الأمد، ما يسمح بتوليد استنتاجات جديدة، زد على ذلك اكتساب مخططات عقلية جديدة ذات طبيعة تعليمية¹. هذا الأمر يعني أنّ الرئيس الأميركيّ حاول توجيه أسلوب تفكير الرؤساء الآخرين إلى أهداف وضعها هو مُسبقاً.

3.2.5 استراتيجية اللجوء إلى المشاعر الوطنية

يلاحظ هنا أنّ الرئيس الأميركيّ لجأ إلى هذه الاستراتيجية لإضفاء الشرعية على ممارساته وآرائه أو قراراته بعيد لجوئه إلى استراتيجية العقلانية. ففي الفقرة الخامسة عشرة استغل أيديولوجيا البطولة، واستذكر تاريخ تأسيس الأمم المتحدة الذي ترافق وانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وأشار أيضاً إلى الدول التي حاربت النازية، كأنه يوازي بين كوريا الشماليّة والنازية داعياً رؤساء دول العالم إلى الخوف من تسلّحها ومحاولة الانتصار عليها كما انتصر الحلفاء على ألمانيا النازية.

4.2.5 استراتيجية اللجوء إلى الإيثار

على إثر قيام الرئيس الأميركيّ بإثارة مشاعر الخوف من الأنظمة التي سماها أنظمة مارقة كنظام كوريا الشماليّة لجأ إلى استغلال استراتيجية الإيثار لتبرير سياسة التدخل في مستقبل كثير من الدول لخير شعوبها وشرعنة سياسة أميركا الخارجية، مستغلاً بذلك مفهوم التضامن مع الآخرين. وبدأ إظهار استراتيجية الإيثار هذه في الفقرة الرابعة عندما بيّن حسانات خطة مارشال القائمة على السيادة والأمن والازدهار في أوروبا. وفي نهاية خطابه استخدم أسلوب الاستفهام التقريري، وبالتحديد استخدم في الفقرة السابعة عشرة ثلاثة أسئلة استغلّها لعرض استراتيجيته هذه القائمة على الموازة بين مستقبل الدول

1 Holyoak, Keith J. (2012) «Analogy and Relational Reasoning», In Keith J. Holyoak and Robert G. Morrison (eds) The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning, Oxford: Oxford University Press, p. 234.

الأعضاء في الأمم المتحدة¹.

5.2.5 المربع الأيديولوجي

لم يكتف الرئيس الأميركي باستخدام الاستراتيجيات المذكورة أعلاه بل استغلها ببراعة، حيث لجأ إلى ممارسات أيديولوجية بارعة أخفت مقاصد كثيرة، إذ وظّف الأيديولوجيا المعاصرة في أميركا، وبالتحديد ربط بين استخدام السلطة والمعرفة واستغلها استغلالاً ذكياً لتبرير سياسة بلاده الخارجية؛ وقد برز ذلك باستخدام المربع الأيديولوجي الذي يركز على المفاهيم الآتية²:

التشديد على حسناتنا	التشديد على سيئاتهم
التقليل من قيمة سيئاتنا	التقليل من قيمة حسناتهم

الرسم البياني رقم 3: المربع الأيديولوجي

ويمكن تحليل المربع الأيديولوجي في خطاب الرئيس ترامب على النحو الآتي:

- **التشديد على حسناتنا:** انتخابات، ديمقراطية، حرية، اصلاحات، عدالة، سلام، عائلة...
- **التشديد على سيئاتهم:** أشرار، تجويع الكوريين الشماليين وسجنهم وتعذيبهم، اغتيال شقيق الزعيم الكوري، خطف فتاة...

1 Reyes, Antonio (2011) «Strategies of Legitimization in Political Discourse: From Words to Action», Discourse and Society 22(6), pp. 785–787.

2 Van Dijk, Teun A. (2011) «Discourse and Ideology», In Teun A. Van Dijk (ed) Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction, London: Sage Publications, p. 396.

- **التقليل من قيمة سيئاتنا:** الهيمنة، التّدخّل في شؤون الدّول الداخلية، زعزعة الاستقرار في البلدان...
- **التقليل من قيمة حسناتهم:** لا يوجد

والجدير ذكره هنا أنّ لجوء الرّئيس الأميركيّ إلى استخدام الأيديولوجيا أكثر من استخدام الحجاج في بعض فقرات خطابه قد يعني أنّه سياسيّ مناوئ سعى لإخفاء افتقاره للحجج وللتّقاليد السياسيّة التقليديّة التي قد تشارك في إيجاد الاستراتيجيات النّاجعة للتّعامل مع الأزمات من جهة، ولأنّ الأيديولوجيا لا تضيف على الكلام معنى فقط بل تمنحه سلطة، سلطة الإقناع أو الاستقطاب أو الرّفص¹ من جهة أخرى؛ لذا هو يحاول التّلاعب بعقول الأميركيين ومشاعرهم، ويحاول أيضاً التّصرّف كرئيس شعبيّ، وهو ما انتقد عليه الرّئيس المذكور.

هذا الإحساس المفترض بضعف معين ربما حتّى الرّئيس الأميركيّ على تنويع ممارساته الخطابية، ولتحقيق ذلك استغلّ ذاكرة الشّعوب الأوروبيّة والأميريكية، وخاصّة استغلّ الأبعاد الإدراكية لرؤساء دول العالم المستمعين إلى خطابه، وذكّره بالحرب العالميّة الثّانية وخطورتها. وبدأ الفقرة الخامسة عشرة بأسلوب صريح، حيث ذكر مصطلح (الأبطال)، ثم انتقل في الفقرة السّادسة عشرة إلى ذكر هوية الأبطال في الحرب العالميّة الثّانية (بولندا وفرنسا وبريطانيا)، وفي الفقرة الثّامنة عشرة ذكّر بما كان قد قاله جون آدمز عن الثّورة الأميركيّة، كأنّه يستغلّ أيضاً الإدراك الاجتماعيّ للأميريكيين ويوجّج مشاعرهم الوطنيّة محأوّلاً التّلاعب بمشاعر الآخرين.

ولكي تتجح هذه الاستراتيجيةّ سعى الرّئيس المذكور في الفقرة الثّامنة إلى إقناع رؤساء هذه الدّول بفكرة قوّة دولة أميركا وضعف غيرها عندما تكلم عن النّتائج وسياسة الواقعيّة المبدئيّة المستخدمة في أميركا. وقد لجأ إلى أسلوب التّفكير العمليّ (Practical Reasoning)، أو الاستنتاج من الأحداث أو المقدمات، وهو تفكير حجاجيّ يحدث في سياقات توصف

1 روبرول، أوليفي (2005) "التكليف الأيديولوجي للغة"، في محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي (اعداد وترجمة)، اللغة 5، سلسلة دفاتر فلسفية، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص 114.

المشكلة أولاً لتصل لاحقاً إلى الحل، وخاصة الحل الذي يقترحه السياسي¹.

ويضاف إلى ذلك أنّ الرئيس الأميركيّ لجأ إلى سياسة التخويف من الآخرين واستغلها أيديولوجياً لكي يكفل نجاعة استراتيجياته الخطابية ووصولها إلى أهدافها. فعندما شبه الزعيم الكوري بـ (رجل الصواريخ) في الفقرة الثالثة عشرة ربما قصد من ذلك استخدام التناص وإعادة التذكير بالتاريخ المأساوي لأوروبا، وخاصة بالصواريخ التي أطلقها النظام النازي في ألمانيا على العاصمة الإنكليزية (لندن) في أثناء الحرب العالمية الثانية. والخوف من الآخرين يدوم أكثر من الحب وفق التاريخ النفسي والسياسي للشعوب، أي أنه أكثر تأثيراً من غيره، بالإضافة إلى أن بلاغة التخويف من الآخرين وربطها بالإرهاب أثبتت نجاعتها في السياسات الخارجية للدول الديمقراطية التي استغلت هذه البلاغة لإعادة التعريف بالتوازن القائم بين الحرية والأخطار الأمنية².

وفي الواقع كرّر الرئيس الأميركيّ استغلاله للتاريخ غير مرة في خطابه، فقد استغلّ تاريخ تدخل بلاده في نتائج الحروب التي دارت رحاها في أوروبا وغيرها، واستغل أيضاً تاريخ تأسيس بلاده واستغل تاريخ الحلفاء أعلاه. واستغلال التاريخ في الخطاب السياسي لا يتعلّق فقط بذكر أحداثٍ سياسية، بل يرتبط بتفعيل الإدراك الاجتماعيّ الذي ذكرته سابقاً، وبالتّعريف بهوية الشعوب والبلدان، وهو أيضاً وسيلة للتواصل الأممي³، وقد استغله لربط الماضي بالحاضر من جهة، وللإقناع والضغط من جهة أخرى، كأته من تداوليات الخطاب.

وأخيراً يمكن تشبيه ما ذكرته بسباقين بين الممارسات الخطابية والممارسات الاجتماعية والأيديولوجية، الأوّل بين السلطة والطرف المقاوم لها، والثاني بين نوعي الممارسات نفسها في كل طرف، وذلك على النحو الآتي:

1 Fairclough, Isabela & Fairclough, Norman (2011) «Practical Reasoning in Political Discourse: The UK Government's Response to the Economic Crisis in the 2008 Pre-Budget Report», Discourse and Society 22(3), p. 246.

2 Giroux, Henry A. (2003) The Abandoned Generation: Democracy Beyond the Culture of Fear. New York: Palgrave Macmillan, p. 5.

3 Martin, Judith N. & Nakyama, Thomas K. (2010) Intercultural Communication in Contexts. New York: McGraw-Hill Education. pp. 133-146.



الرسم البياني رقم 4: العلاقة التفاضلية بين نوعي الممارسات

1. يمثل الخط الأسود المسار الثابت للممارسات الخطابية وعلاقته الوثيقة بالممارسات الاجتماعية والأيدولوجية.

2. يمثل الخط المنقط الطبيعة المرنة للممارسات الاجتماعية والأيدولوجية وإمكانية تقدمها على نوعي الممارسات في الجهة المقابلة أو تراجعها بحسب أداء الطرف المقابل أو بحسب كفاءة الممارسات الخطابية في الجهة نفسها.

3. يمثل الهدف المفترض كل محاولة ناجحة للتأثير في الآخرين عن طريق الممارسات المذكورة.

6. آراء ختامية وآفاق جديدة للبحث

تبين من سياق الدراسة أن قيود ممارسة السلطة تترافق وقيود ممارسة الخطاب السياسي وإنتاجه، وقد تتغير هذه القيود بتغير المكان والزمان والثقافة والأيدولوجيا. وهكذا فإن دراسة علاقة السلطة بالخطاب هي دراسة لقيود أيدولوجية معينة. ويبدو أيضاً من هذه الدراسة أنه كلما تطورت حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية وتوعدت أفكاره وأحلامه تنوعت هذه القيود وتطور معها الخطاب.

تبين لي أيضاً في هذه الدراسة أن المرء أو المسؤول يستمد أحقية ممارسة السلطة من الذات الواعية، ومن الوعي المعرفي والجماعي الذي نشره كل من الخطاب السياسي والسياسة الثقافية بأنواعها بين أفراد المجتمع، ما يعني أن ممارسة السلطة بفعالية ترتبط بعامل يقع في داخل السلطة نفسها وخارجها. والسلطة هنا هي إعادة اكتشاف مستمرة للفكر والثقافة المعاصرة من جهة، وممارسة خطابية ذكية وناجحة لأساليب تفكيكها المتاحة من جهة أخرى.

لذلك يتراوح هنا هامش ممارسة السّطة على الأقل بين حدّين، حدّ يرسمه مسؤولو الدّولة الرسميين أو مسؤولو المؤسّسات والمنظمات، وحدّ يرسمه المواطنون أو من ينوب عنهم، والمسألة نفسها تنسحب على ممارسة الخطاب، وهو ما طرح إشكالية منهجيّة، إذ إن تحديد هذا الخط الفاصل يتغير باستمرار وهو ما يفسح المجال لاستغلاله ببراعة.

لاحظت في هذه الدّراسة أيضاً أنّ الرّبط بين استغلال أيديولوجيا ما والخطاب لا يعني حكماً أنّ هذا الخطاب أو ذلك يتميز بممارسات خطابيّة أو أيديولوجية ناجعة. فالخطاب الناجع، وعلى الرغم من شأن الأيديولوجيّا، يحتاج إلى ركائز أخرى للنجاح في ممارسته، لكن أين يمكن البحث عن هذه الركائز وكيف؟

لا غرو أنّ البحث عن هذه الرّكائز يحتاج إلى استقراء كثير من الدّراسات النّقديّة للخطاب، إلا أنّ كثيراً من الباحثين وأنا منهم أيضاً يرون أنّ ما لم يُقل في البنية السّطحيّة للخطاب يوازي قيمة ما قيل فيها إن لم يكن أهم، وهذا ما تحاول الدّراسات المذكورة أن تبينه وتشرحه متبينة منها عابراً للاختصاصات، لأنّ اختيار المنهج الملائم يعدّ العامل الرّئيس لنجاح التّحليل. وأخيراً كشف المنهج المذكور في هذه الدّراسة أنّ خطاب الرّئيس ترامب تضمن استخدام كثير من نظريات نشوء السّطة، ما يعني أنه كلما تنوعت القيود الأيديولوجيّة التي تكلمت عنها سالفاً تنوعت أشكال الإبداع في ممارسة الخطاب، وهو ما يؤسس لآفاق بحثية عديدة.

7. خطاب الرّئيس الأميركيّ دونالد ترامب أمام الدورة 72 للجمعية العامة للأمم المتحدة في المركز الرّئيس بتاريخ 2017/9/19، الساعة العاشرة والدقيقة الرّابعة صباحاً⁽¹⁾.

1. السيد الأمين العام، السيد الرّئيس، زعماء العالم، والمندوبون المحترمون: مرحباً بكم في نيويورك، إنه شرف

عظيم أنّ أقف أمامكم هنا في مدينتي، ممثلاً للشعب الأميركيّ لأتحدث إلى كل شعوب العالم.

2. ولحسن الحظ، فإن الولايات المتحدة تسير بشكل جيد منذ يوم الانتخابات في

1 يبلغ عدد كلمات الخطاب المذكور زهاء أربعة آلاف، وقد أثبت فقط نموذج عن سياسية الرّئيس ترامب الداخلية والخارجية وموضوع كوريا الشماليّة.

الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر الماضي. فسوق الأسهم وصلت إلى أعلى درجاتها على الإطلاق - وهذا مستوى قياسي. ومعدل البطالة وصل إلى أدنى درجاته خلال 16 عاماً، وبسبب إصلاح الإجراءات التنظيمية والإصلاحات الأخرى، أصبح لدينا عدد أكبر من العاملين في الولايات المتحدة الآن أكثر من أي وقت مضى. فالشركات أخذت تعود إلى بلدنا، وتخلق نمواً في فرص العمل، مثلما لم تشهد بلدنا من زمن طويل. وكما أعلن مؤخراً، فإننا سننفق حوالي 700 بليون دولار على الجيش والدفاع لدينا.

3. وفي وقت قريب جداً سيصبح جيشنا في أقوى حالاته على الإطلاق. ولمدة تزيد على 70 عاماً، في أوقات الحرب والسلام، وقف زعماء وكبار رجال الدول، والحركات والأديان أمام الجمعية العامة... اعتزم أن أتناول بعض التهديدات الخطيرة التي تواجهنا حالياً، ولكن أيضاً الاحتمالات الرائعة التي تنتظر أن يطلق لها العنان... فالاختراقات التي تحققت في مجالات العلوم والتكنولوجيا والطب أصبحت تعالج الأمراض.

4. وفي مثل هذه المدة قبل 70 عاماً، وضعت الولايات المتحدة خطة مارشال لكي تسهم في إعادة إعمار أوروبا. وهذه الدعائم الثلاث الجميلة - هي دعائم السلام الثلاث: السيادة والأمن والازدهار...

5. إن أعظم شيء في دستور الولايات المتحدة هو أول عبارة جميلة فيه. وهي، «نحن الشعب».

6. لقد ضحّت أجيال من الأميركيين من أجل الحفاظ على وعد تلك الكلمات، ووعد بلدنا، وتاريخنا العظيم. في أميركا، الشعب يحكم، والشعب يقرر، والشعب هو صاحب السيادة. لقد انتُخبت ليس لتولي السلطة،

ولكن لإعطاء السلطة لمن تنتمي إليه، الشعب الأميركي...

7. وبوصفي رئيساً للولايات المتحدة، سأضع أميركا دائماً في المقام الأول، مثلكم تماماً، فزعماء بلدانكم سيضعون بلدانكم دائماً أولاً، وينبغي أن يفعلوا ذلك دائماً... (تصفيق)

8. وبالنسبة للأمم العالم التي تتسم بالتنوع، فإنّ هذا هو أملنا، نحن نريد الانسجام واللواء والصداقة، وليس النزاع والشقاق. إنّنا نسترشد بالتناجح، وليس بالأيديولوجيات. فلدينا سياسة الواقعية المبدئية، وهي سياسة لها جذور في الأهداف والمصالح والقيم المشتركة.

9. وتلك الواقعية تدفعنا إلى مواجهة مسألة تواجه كل زعيم وأمة في هذه القاعة. إنّها مسألة لا يمكننا الهروب منها أو تجنبها. هل سوف ننزلق في طريق الرضا الخادع، ونفقد القدرة على مواجهة التحدّيات والتّهديدات وحتى الحروب، أم لدينا ما يكفي من القوة والاعتزاز لمواجهة تلك الأخطار اليوم، حتى يتسنى لمواطنينا التمتع بالسلام والازدهار غداً؟...

10. وإذا لم يحم الأختيار وهم كثرة بمواجهة الأشرار وهم قلة، فإنّ الشرّ سوف ينتصر. وعندما تصبح الشعوب

والأمم التي تتحلّى بالأخلاق الكريمة متفرجين على أحداث التّاريخ، فإنّ قوى التدمير لن تستجمع وتحشد سوى القوة والبأس.

11. لم يبد أحد احتقاراً للأمم أخرى ولخير ورفاهية شعبه أكثر من النظام الفاسد المنحرف في كوريا الشماليّة. فهو مسؤول عن موت الملايين من الكوريين الشماليين جوعاً، وعن سجن وتعذيب وقتل وقمع عدد لا حصر له أكثر من ذلك.

12. ورأينا في اغتيال شقيق الدكاتور باستخدام الغازات المؤثرة في الأعصاب المحظورة في مطار دولي. ونحن نعلم أنّه قام بخطف فتاة يابانية لطيفة تبلغ من العمر 13 عاماً من شاطئ في بلدها لاستعبادها كمعلمة لغة لجواسيس كوريا الشماليّة.

13. إنّ الولايات المتحدة تمتلك قوى عظيمة وتتحلّى بصبر بالغ، ولكنّها إذا اضطرت إلى الدفاع عن نفسها أو حلفائها، فلن يكون أمامنا خيار سوى تدمير كوريا الشماليّة تماماً. إنّ «رجل الصواريخ» في مهمة انتحارية لنفسه ونظامه. والولايات المتحدة جاهزة ومستعدة وقادرة، ولكن نأمل ألا يكون ذلك ضرورياً. وهذا ما تعنيه الأمم المتحدة؛ وهذه هي وظيفة الأمم المتحدة. دعونا نرى كيف يتصرفون.

14. لقد حان الوقت لكي تدرك كوريا الشماليّة أنّ نزع السلاح النووي هو فقط مستقبلها

المقبول. فقد أجرى مجلس الأمن الدولي مؤخرًا تصويتين حظيا بإجماع 15 صوتًا مقابل لا شيء لاعتماد قرارات صارمة ضد كوريا الشمالية، وأود أن أشكر الصين وروسيا على الانضمام إلى التصويت بفرض عقوبات، مع جميع أعضاء مجلس الأمن الآخرين. شكرًا لجميع المعنيين.

15. وإذ نتذكر النصر العظيم الذي أدّى إلى تأسيس هذه الهيئة، فإنّه يتحتم علينا ألا ننسى أبدًا أن الأبطال الذي حاربوا ضد الشر حاربوا أيضًا من أجل دول أحبّوها.

16. فقد قادت الوطنيّة البولنديين إلى الموت من أجل إنقاذ بولندا والفرنسيين للقتال من أجل فرنسا الحرة، والبريطانيين ليقفوا أقوىاء أشداء من أجل بريطانيا...

17. والسؤال الحقيقي بالنسبة للأمم المتحدة اليوم، وبالنسبة لأبناء الشعوب في جميع أنحاء العالم الذين يطمحون إلى تحقيق حياة أفضل لأنفسهم ولأطفالهم، هو سؤال أساسي: وهو هل ما زلنا وطنيين؟ هل نحب دولنا بما فيه الكفاية لحماية سيادتها والأخذ بزمام مستقبلها؟ هل نجلها بما فيه الكفاية للدفاع عن مصالحها، والحفاظ على ثقافتها، وتأمين عالم مسالم لمواطنيها؟

18. لقد كتب جون آدمز، أحد أعظم الوطنيين الأميركيين قائلاً: «إنّ الثورة الأميركيّة نفذت قبل بدء الحرب. إذ كانت الثورة في عقول وقلوب الناس»...

19. فلنكن هذه مهمتنا، ولنكن هذه رسالتنا للعالم: سنقاتل معاً ونضحي معاً ونقف معاً من أجل السلام، من

أجل الحرية، من أجل العدالة، من أجل العائلة، من أجل الإنسانية، وفي سبيل الله العظيم الذي خلقنا جميعاً.

20. شكرًا لكم. حفظكم الله. وليبارك الله دول العالم. وبيبارك في الولايات المتحدة

الأميريكيّة. شكرًا جزيلًا. (تصفيق)⁽¹⁾.

<https://sy.usembassy.gov/ar/1> كلمة الرئيس دونالد ترامب أمام الدورة 72 للجمعية العامة للأمم المتحدة (Accessed 1 March 2021)

المصادر المراجع

المصادر والمراجع العربية:

1. روبرول، أوليفي (2005) «التكليف الأيديولوجي للغة»، في محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي (إعداد وترجمة)، اللّغة 5، سلسلة دفاتر فلسفية، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص 113-114.

2. عمّاية، حنا إسماعيل (2012) «معاني الزيادة في الفعل الثلاثي في اللّغة العربية: دراسة وصفية»، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، م 20، ع 2، ص 295-326.

المصادر والمراجع الأجنبية:

3. Canovan, Margaret (2001) «Populism», In Paul B. Clarke & Joe Foweraker (eds) Encyclopedia of Democratic Thought, London: Routledge, pp. 679-674.
4. Cappelen, Herman & Dever, Josh (2016) Context and Communication. Oxford: Oxford University Press.
5. Cialdini, Robert B. (2007) Influence: The Psychology of Persuasion. USA: Collins Business.
6. De Beaugrande, Robert & Dressler, Wolfgang (1981) Introduction to Text Linguistics. London: Longman.
7. Enani, Mohammad (1996) Modern Literary Terms: A Study and A Dictionary English-Arabic. Beirut: Librairie du Liban.
8. Engle, Randall W. (2002) «Working Memory Capacity as Executive Attention», Current Directions in Psychological Science 11: 19-23.
9. Fairclough, Isabela & Fairclough, Norman (2011) «Practical Reasoning in Political Discourse: The UK Government's Response to the Economic Crisis in the 2008 Pre-Budget Report», Discourse and Society 22(3): 243-268.
10. Fairclough, Norman (1995) Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language. London: Routledge.
11. Fairclough, Norman (2003) Discourse Analysis: Textual Analysis for Social Research. London: Routledge.
12. Fairclough, Norman (2013) Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language. London: Routledge.
13. Fairclough, Norman; Jane Mulderrig; Ruth Wodak (2011) «Critical Discourse Analysis», In Teun A. Van Dijk (ed) Discourse Studies: A

- Multidisciplinary Introduction, London: Sage Publications, pp. 357–378.
14. Foucault, Michel (1980) *Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings 1972–1977*. New York: Pantheon Books.
 15. Foucault, Michel (1982) «The Subject and Power», *Critical Inquiry* 8(4): 777–795.
 16. Foucault, Michel (1998) *The History of Sexuality: An Introduction*. New York: Pantheon Books.
 17. Foucault, Michel (2002) *The Archeology of Knowledge*. New York: Pantheon Books.
 18. Fowler, Roger & Kress, Gunther (2019) «Rules and Regulations», In Roger Fowler et al. (eds) *Language and Control*, London: Routledge, pp. 26–45.
 19. Fyke, Jeremy P. (2017) «Power in Language», In Mike Allen (ed) *The Sage Encyclopedia of Communication Research Methods*, London: Sage Publications 3, pp. 1314–1317.
 20. Gaventa, John & Cornwall, Andrea (2008) «Power and Knowledge», In Peter Reason & Hilary Bradbury (eds) *The Sage Handbook of Action Research: Participative Inquiry and Practice*, London: Sage Publications, pp. 172–189.
 21. Giroux, Henry A. (2003) *The Abandoned Generation: Democracy Beyond the Culture of Fear*. New York: Palgrave Macmillan.
 22. Haidar, Julieta & Rodríguez, Lidia (2005) «Power and Ideology in Different Discursive Practices», In Christina Schäffner & Anita L. Wenden (eds) *Language and Peace*, Amsterdam: Harwood Academic Publishers, pp. 121–138.
 23. Hall, Edward T. (1959) *The Silent Language*. New York: Doubleday.
 24. Hall, Stuart (1992) «The West and the Rest: Discourse and Power», In Stuart Hall & Bram Gieben (eds) *Formations of Modernity*, Oxford: Blackwell Publishers, pp. 275–331.
 25. Hall, Stuart (2001) «Foucault: Power Knowledge and Discourse», In Margaret Wetherell, Stephanie Taylor & Simeon J. Yates (eds) *Discourse Theory and Practice: A Reader*, London: Sage Publications, pp. 72–81.

- 
26. Hardy, Cynthia & Phillips, Nelson (2004) «Discourse and Power», In David Grant et al. (eds) *The Sage Handbook of Organizational Discourse*, London: Sage Publications, pp. 299–316.
 27. Haugaard, Mark & Clegg, Stewart R. (2009) «Introduction: Why Power is the Central Concept of the Social Science», In Stewart R. Clegg & Mark Haugaard (eds) *The Sage Handbook of Power*, London: Sage Publications, pp. 1–24.
 28. Haugaard, Mark (2010) «Reflections on Seven Ways of Creating Power», In Stewart R. Clegg (ed) *Sage Directions in Organization Studies*, London: Sage Publications 4, pp. 155–182.
 29. Holyoak, Keith J. (2012) «Analogy and Relational Reasoning», In Keith J. Holyoak & Robert G. Morrison (eds) *The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning*, Oxford: Oxford University Press, pp. 234–259.
 30. Hung Ng, Sik (2011) «Language and Power», In Keith Dowding (ed) *Encyclopedia of Power*, London: Sage Publications, pp. 371–372.
 31. Jørgensen, Marianne & Phillips, Louise (2002) *Discourse Analysis as Theory and Method*. London: Sage Publications.
 32. Kahneman, Daniel (2013) *Thinking Fast and Slow*. New York: Farrar Straus and Giroux.
 33. Leezenberg, Michiel (2013) «Power in Speech Actions», In Marina Sbisà & Ken Turner (eds) *Pragmatics of Speech Actions*, Berlin: De Gruyter Mouton, pp. 287–312.
 34. Lukes, Steven (2005) *Power: A Radical View*. Houndmills: Palgrave Macmillan.
 35. Malešević, Siniša (2011) «Ideology», In Keith Dowding (ed) *Encyclopedia of Power*, London: Sage Publications, pp. 333–339.
 36. Martin, Judith N. & Nakayama, Thomas K. (2010) *Intercultural Communication in Contexts*. New York: McGraw–Hill Education.
 37. Martin, Judith N. & Nakayama, Thomas K. (2018) *Experiencing Intercultural Communication: An Introduction*. New York: McGraw–Hill Education.

38. Mayr, Andrea (2008) *Language and Power: An Introduction to Institutional Discourse*. London: Continuum.
39. Nye Jr., Joseph S. (2008) «Public Diplomacy and Soft Power», *AAPSS*, 616(1): 94–109.
40. Reyes, Antonio (2011) «Strategies of Legitimization in Political Discourse: From Words to Action», *Discourse and Society* 22(6): 781–807.
41. Scollon, Ron & Scollon, Suzanne W. (2001) *Intercultural Communication: A Discourse Approach*. Malden: Blackwell Publishers.
42. Scruton, Roger (2007) *The Palgrave Macmillan Dictionary of Political Thought*. New York: Palgrave Macmillan.
43. Torfing, Jacob (2011) «Discourse», In Keith Dowding (ed) *Encyclopedia of Power*, London: Sage Publications, pp. 191–196.
44. Van Dijk, Teun A. (1993) «Principles of Critical Discourse Analysis», *Discourse and Society* 4(2): 249–283.
45. Van Dijk, Teun A. (1997) «What is Political Discourse Analysis?», *Belgian Journal of Linguistics* 11, pp. 11–52.
46. Van Dijk, Teun A. (2001) «Multidisciplinary CDA: A Plea for Diversity», In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) *Methods of Critical Discourse Analysis*, London: Sage Publications, pp. 95–120.
47. Van Dijk, Teun A. (2009) «Critical Discourse Studies: A Sociocognitive Approach», In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) *Methods of Critical Discourse Analysis*, London: Sage Publications: 62–85.
48. Van Dijk, Teun A. (2011) «Discourse and Ideolog», In Teun A. Van Dijk (ed) *Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction*, London: Sage Publications, pp. 379–407.
49. Van Dijk, Teun A. (2011) «Discourse Knowledge Power and Politics: Towards Critical Epistemic Discourse Analysis», In Christopher Hart (ed) *Critical Discourse studies in Context and Cognition*, Amsterdam: John Benjamins Publishing, pp. 27–64.
50. Van Dijk, Teun A. (2015) «Critical Discourse Analysis», In Deborah Tannen, Heidi E. Hamilton & Deborah Schiffrin (eds) *The Handbook of Discourse Analysis*, Oxford: Wiley Blackwell 1, pp. 466–485.

51. Wareing, Shân S. (2004) «What is Language and What Does it Do?», In Ishtla Singh & Jean Stilwell Peccei (eds) Language Society and Power: An Introduction, London: Routledge, pp. 1–15.
52. Watson, Matt (2017) «Placing Power in Practice Theory», In Allison Hui, Theodore Schatzki & Elizabeth Shove (eds) The Nexus of Practices: Connections Constellations Practitioners, London: Routledge, pp. 169–182.
53. Waugh, Linda R. et al. (2016) «Critical Discourse Analysis: Definition Approaches Relation to Pragmatics Critique and Trends», In Alessandro Capone & Jacob L. Mey (eds) Interdisciplinary Studies in Pragmatics Culture and Society, London: Springer, pp. 71–135.
54. Winter, David G. (2009) «How Power Can Be Tamed?», In Dean Tjosvold & Barbara Wisse (eds) Power and Interdependence in Organizations, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 33–51.
55. Wodak, Ruth (2002) «Aspects of Critical Discourse Analysis», ZfAL 36: 5–31.
56. Wodak, Ruth & Meyer, Michael (2009) «Critical Discourse Analysis: History Agenda Theory and Methodology», In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, London: Sage Publications.

المراجع الإلكترونية:

كلمة الرئيس دونالد ترامب أمام الدورة 72 للجمعية العامة للأمم المتحدة (Accessed 1 March 2021) <https://sy.usembassy.gov/ar/.57>

وظيفة الشخصيات وهويتها وتشكلها في القصة القصيرة

The function of the characters and their identity and formation in the short story

د. وائل جزيني¹

Dr. Wael Jezzini

تاريخ القبول 2024 / 8/16

تاريخ الاستلام 2024 / 7/30

ملخص الدراسة

يبدو دور الشخصية بارزاً في الأعمال القصصية والروائية؛ لأنها باختصار، هي القائمة بتصوير الحدث وتمثيله والذي هو أساس القصة أو الرواية. فأمام كل حدث نتساءل عن كيفية وقوعه وزمانه، وعن سبب نشأته أصلاً. ومن هنا، تبدأ عملية الكشف عن الدوافع وراء هذا الحدث. والدوافع بالطبع تؤدي إلى شخص أو مجموعة أشخاص قاموا ببناءً عليها بتنفيذ الأحداث؛ بل إن أولئك الأشخاص هم المسؤولون عن وقوع الحدث بطريقة معينة، تبعاً لخصوصية هوياتهم ودوافعهم وسلوكهم؛ وبذلك ينمو الحدث ويتطور عبر مراحل وينحدر نحو العقدة ثم إلى الحل، بوجود شخصية أو مجموعة شخصيات تتفاعل معه وترسم مواقفه وآثاره عبر سلوكها ومشاعرها.

الكلمات المفتاحية: وظيفة، الشخصيات، الهوية، التشكل، القصة القصيرة.

Study summary

The role of the character seems prominent in short stories and novels, because in short, she is the one who portrays and represents the event that is the basis of the story or novel. In the face of every event, we wonder about how and when it occurred, and why it arose in the first place. From here begins the process of uncovering the motives behind this event.

1 محاضر جامعيّ ومشرف تربويّ (waeljezzini@gmail.com).

Motives, of course, lead to a person or group of people based on which they carried out events. Rather, those people are responsible for the event occurring in a certain way, depending on the specificity of their identities, motives, and behavior. Thus, the event grows and develops through its stages and descends towards a complex and then towards a solution, with the presence of a character or group of characters who react to it and draw its positions and effects through their behavior and feelings.

Keywords: function, characters, identity, formation, short story.

مقدّمة

تقوم القصة على شخصيات تتصف بخصائص وصفات معينة، ويستلهم الكاتب الروائي عنصر الشخصية من منبع ذاتي أو اجتماعي، فيتخيّل الشخصية في ذهنه، ويحييها في قلبه، ثم يخرجها شخصية روائية، أو يقتبسها من مجتمعه ومن حياته اليومية المملوءة بالأسرار، فيتعامل معها كأنها شخص حقيقي يعيش معه. والشخصية الروائية، مثلها مثل الزمان والمكان، منتمية إلى عالم متخيّل، وانتماؤها إلى هذا العالم يجعلها نتاجاً للخطاب الذي يصوغه الروائي؛ «فهي التي تصطنع اللغة، وهي التي تصف معظم المناظر، كما تنجز الحدث، كذلك تعمّر المكان، وتفاعلها مع الزمن يمنح معنى جديداً، إذ إنّه لا شيء من المكونات السردية الأخرى يقدر على ما تقدر عليه الشخصية بطيبة خاطر، أو رغماً عنه، وذلك باعتماده على مخيلته. وسنحاول من خلال هذا البحث الإجابة عن مجموعة من التساؤلات البحثية:

- ما القصة وما أبرز خصائصها ومقوماتها؟
 - ما دور الشخصية وكيف تُبنى في النصّ القصصي؟
 - كيف تتشكّل هويّات الشخصيات وكيف تُقدم؟
 - وما الفرق بين الشخصية الورقية في القصة والشخصية الواقعية؟
- لا بدّ للباحث في أيّ بحث علمي من أن يعتمد في دراسته منهجاً معيناً، وقد رأيت أن أختار في بحثي هذا المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي الذي يتيح للباحث أن يرى الظواهر بعين الفاحص الناقد، والذي يتماشى وهدف الدراسة. وسنبدأ أولاً مع مبحث

القصة ومن ثمّ ننقل إلى معالجة مبحث الشخصية.

أولاً: القصة

أ - نشأة القصة

وفدت القصة القصيرة إلينا بمفهومها الحديث في نهاية القرن التاسع عشر من الغرب، ولا يخفى على النقاد تأثر القصة الأوروبية بمفهومها الحديث بتراث القصّ العربي⁽¹⁾، وثمة منظوران يشيران إلى نشأة القصة وأسبابها في أوروبا؛ فالمنظور الأوّل يربط ظهور القصة بصعود الطبقة البورجوازية (ما فوق الطبقة الوسطى في التصنيف الاجتماعي القديم)، وأشهر المنظرين في ذلك هيغل (Georg Hegel) وجورج لوكتاش (György Lukács)، حيث يركّز لوكتاش على «أنّ الانتقال من الملحمة إلى الرواية هو انتقال منطقيّ ناجم عن تطوّر اجتماعيّ بدأ بالإقطاع الأرستقراطيّ وانتهى في عصر النهضة الأوروبية إلى صعود البورجوازية». والمنظور الآخر يعود إلى الناقد الروسيّ باختين الذي يرى القصة «تمثّل نوعاً أدبيّاً دونياً (سفليّاً)، كان ينطق باسم الطبقات الدنيا والمسحوقّة. ويرى أنّ نشأة القصة تزامنت مع تفسّخ اللّغة النّقافيّة الأم (اللاتينية) إلى لغات ولهجات شعبيّة»⁽²⁾ ويقول إنّ هناك تناقضاً واضحاً بين هذين النوعين الأدبيين (الملحمة والقصّ)؛ فالأوّل نشيد أحاديّ الصوت، بينما النوع الثاني نصّ متعدّد الأصوات. وهذا التّعدّد مرتبط بالشّعب، أي بالطبقات الدنيا، أو سواد النّاس. وعليه لا يكون القصّ فرعاً من فروع الملحمة، وإنّما من طينة مغايرة لطينتها. فبينما ترتبط الملحمة بهيمنة الأرستقراطيّة، وتبني عالمها في مناخ أسطوريّ راسخ، تنطلق القصة من الزّمن الحاضر المشاكس والمجدّد والمجربّ. وهكذا، ودائماً بحسب ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtin)، لا تُعدّ القصة نوعاً أدبيّاً محدّداً له بداية ونهاية، بل هو نوع

1 تجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أنّ النقاد يشيرون إلى تأثير الأدب القصصيّ العربيّ في هذا الرائد القصصيّ (بوكاتشيو) لا سيّما في «ديكاميرون/الأيام العشرة» كما كان لقصص «ألف ليلة وليلة» الأثر البالغ الأهميّة في تطوّر هذا النوع الأدبيّ.. يمكن مراجعة: يوسف علي طويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، بيروت: لان، لا ط، 2003م، ص304-303. محدّداً في كتابه هذا مراجع أخرى مثل: محمّد رجب البيومي، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ولطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا. وانظر أيضاً حسام الخطيب، تطوّر الأدب الأوروبيّ.

2 ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ترجمال شحيد، بيروت: معهد الإنماء العربي، ط1، 1982م، ص10-11-14. حيث يلتقي باختين مع «أنطونيو غرامشي» الذي لاحظ تزامناً بين انتعاش القصّ وظهور القوى الديمقراطية الشعبية والوطنية في كل أوروبا.

غير منجز ومستمرّ في تطوّره، أي أنّه يرفض الانغلاق والاحتواء، بيد أنّ الحسم في هذا الموضوع - بما يتعلّق بنشأة القصّ - يتطلّب دراسة مستقلة لا يسعفنا بحثنا للتوسّع بها في هذا المقام.

ب - نشأة القصّة العربيّة

عرف عالمنا العربيّ النّفس القصصيّ ممثلاً بفنّ الخبر، والحكايات والمقامات، ابتداءً بناصر اليازجيّ (1800 - 1871)، وأحمد فارس الشدياق (1805 - 1887)، ورفاعة الطّهطاوي، مروراً بسليم البستانيّ وجرّجي زيدان وميخائيل نعيمة.

وقد ظهرت البذور الأولى للقصّة القصيرة الحديثة في لبنان، ثمّ ترعرعت ونضجت في مصر على يد محمّد حسين هيكل، ومحمّد ومحمود تيمور وإبراهيم المازنيّ وتوفيق الحكيم، وطه حسين، وغيرهم⁽¹⁾، «كما أنّ طبيعة المرحلة التّاريخيّة حدّمت أن تؤدّي هذه الكتابات القصصيّة وظيفيّة تاريخيّة تتدرج في سياق مواجهة إشكاليّة النهضة، فكانت تسهم في تشكيل الهويّة، المهدّدة بالانقراض، كما أنّها كانت تبعث الشّعور بالانتماء إلى تاريخ مجيد، ما يعوّض الشّعور بالضّعة⁽²⁾. وقد «ظهرت بصمات الكتاب الغربيّين، أمثال «غي دي موباسان» (Guy de Maupassant)، و«أنطون تشيخوف» (Anton Chekhov)، و«نيقولا ي غوغول» (Nikolai Gogol)، و«إيفان سير جيفينش تورغينيف» (Ivan Turgenev)، عند بعض كتاب القصّة في لبنان وعالمنا العربيّ»⁽³⁾.

ويرى عبد المجيد زراقت بأنّ القصّة القصيرة تطوّرت في بداية القرن التاسع عشر، في أوروبا وأميركا، وتمنّلت في أعمال «إدغار ألن بو» (Edgar Allan Poe)، وغوغولوتشيخوف، وغي دو موباسان. وقد أتت الرّواية من التّاريخ ومن حكايات الأسفار والمغامرات، وتفاصيل الوقائع اليوميّة للحياة، أمّا القصّة القصيرة فجاءت من النّادرة

1 سهيل إدريس، محاضرات عن القصّة في لبنان، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربيّة ط1، 1975، ص92.

وانظر: شكري عباد، القصّة القصيرة في مصر «دراسة في تأصيل فن أدبي»، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربيّة، ط1، 1967م.

2 عبد المجيد زراقت، في الرواية وقضاياها، م.س.، ص54-53.

3 علي حجازي، القصّة القصيرة في لبنان، م.س.، ص46-44.

والأحدثه. (1)

ج - تعريف القصة

يعرّف فؤاد أفرام البستانيّ القصة: «بأنها تتبّع وتقصّي أخبار النّاس وفعالهم شيئاً بعد شيء أو حادثة بعد حادثة»⁽²⁾، ويعرّفها جبور عبد النور: «إنّها أحدثه شائقة، مروية أو مكتوبة، يُقصد بها الإقناع أو الإفادة.»⁽³⁾

فالقصة، بهذا المعنى العامّ، قديمة قدّم الحياة الإنسانيّة - الاجتماعيّة، عرفها الإنسان منذ أن أحسّ بالحاجة إلى حكاية حدث ما، أو إلى معرفته. وفي الحالتين تلبّي الحكاية حاجات منها: التوازن والمعرفة والتسلية والمتعة، وتنتطق برؤية منشؤها.

وتوصّل النقاد والمشتغلون بدراسة القصة القصيرة حتّى اليوم، إلى تعريفات تكاد تكون متقاربة، ومنها ما قدّمه الباحث يوسف إدريس، حيث قال: القصة القصيرة أكثر الأشكال الأدبيّة إيجازاً، وتشبه القنبلة الذريّة في صغرها وفعاليتها، ومع ذلك، حيث يمكن، فقط، تصنيعها على أيدي أناس ذوي موهبة خاصّة، لا ينفي وجود سمات مشتركة تسمح بتكوين تعريف عامّ، وهو أنّها نوع سرديّ قصير ذو موضوع بسيط، قليل الشخصيات، مشدود الخيوط إلى عنصر مركزي واحد (حدث أو لحظة)⁽⁴⁾. وذلك من خلال سرد نثريّ قصير يكتف في بناء محكم، أو من خلال سعي شخصيّة إلى قضية مهمّة من قضايا الإنسان العاديّ الساعي إلى تحقيق ذاته في مرحلة من التّاريخ توفّر له شروطها حريّة التحرّك وإمكانية التحقّق. ويعلّق فؤاد كنعان على القصة القصيرة قائلاً: «إنّها رشح من الخاطرة السهلة تعنّ لك وأنت مستقلّ على دنارك.. بل هي صنيع فنّي، هي وليدة خيال رحب محلّل لا ملهم، وبذلك تكشف حقيقة إنسانيّة كبرى عندما تضيء لحظات من الحياة.»⁽⁵⁾

تُعدّ القصة من الفنون النثريّة في الآداب العالميّة. وتطلق كلمة «قصة» عموماً على

1 عبد المجيد زراقت، الإبداع الأدبي العربي: قضايا وإشكالات، بيروت: الغدير، ط1، 2003م، ص303 و306.

2 فؤاد أفرام البستاني، دائرة المعارف: بيروت: 1969م، مادة (قص).

3 جبور عبد النور، المعجم الأدبي، بيروت، دار العلم للملايين، 1979، مادة قص.

4 ميشال جحا، القصة القصيرة في لبنان، م. س، ص 133.

5 عبد المجيد زراقت، في بناء الرواية اللبنانية، م.س، ص 22.

سرد وقائع ماضية، متماسكة من حيث المضمون، ومؤثّرة من حيث طريقة العرض الفنيّة»⁽¹⁾ والقصة نظام سرديّ مؤلّف من ثلاثة مستويات: «الحكاية وهي الحدث منقولاً إلى الكلام، وفعل السرد وهو عمل الراوي، والخطاب وهو كلام الراوي. يستطیع الخطاب وحده أن يكشف لنا الحكاية وفعل السرد معاً، لأنّ لا وجود للحكاية في غياب فعل السرد الذي يرويهها، ولا وجود لفعل السرد من دون الخطاب الذي يجسّده، والعكس صحيح»⁽²⁾.

وعرّف غسان كنفاني القصة القصيرة تعريفاً طريفاً، ورد في كتابه النّديّ «مقالات فارس فارس» ذاكراً: «إنّ كتابة القصة القصيرة عمليّة مرهقة للغاية، تحتاج إلى موهبة قول الشّيء باختصار شديد الإيحاء، إنّها من حيث الصعوبة تشبه أن تعمل على كسب موافقة سيّدة جميلة تراها لأول مرة في المصعد، لتقبل منك قبلة عرمرميّة قبل أن يصل المصعد اللعين إلى الطابق الخامس، حيث سيتوجب عليها أن تغادرك»⁽³⁾. وعلى الرّغم من كلّ التعريفات الأنفة الذكر: «تبقى القصة نوعاً أدبيّاً مراوفاً، يستعصي على التّعريفات الجامعة المانعة؛ لأنّ الأساس فيه الإبداع، ثم يأتي النّقد فيرصد الخصائص ويبلورها. وكما يرى «فرانك أوكونور» (F.O'Connor)، النّاقذ وكاتب القصة الإيرلنديّ في كتابه «الصوت المنفرد»: القصة القصيرة ذاكراً بأنّها: «ليست القصة القصيرة قصيرة؛ لأنّها صغيرة الحجم، وإنّما هي كذلك لأنّها عولجت علاجاً خاصّاً، وهو أنّها تناولت موضوعها على أساس رأسيّ لا أفقيّ، وفجّرت طاقات الموقف الواحد، بالتركيز على نقاط التحوّل فيه... والذي يفجّر نقاط التحوّل في الموقف يتاح له الجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل في لحظة واحدة، ماثلة للعيان». ويضيف أوكونور بأنّ «أسلوب القصة القصيرة يولع بالحاضر ويرتفع عنه في الوقت ذاته، وذلك على نحو يجعله يرى الماضي والحاضر متزامنين وواضحين بالقدر ذاته»⁽⁴⁾. كما يرى أوكونور، «فإنّ القصة القصيرة هي فنّ اللّحظة المهمّة... حيث إنّ هذه اللّحظة قد تكشف عصرًا بكامله، وذلك من خلال ما تنطق به من دلالة على رؤية القاصّ لقضايا معيّنة من عصره يُطلق عليها لحظة التنوير. وعليه، فإنّ القصة القصيرة تجسّد اللّحظة المهمّة في

1 لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، م.س، ص 133.

2 م.ن، ص 133.

3 غسان كنفاني، فارس فارس، بيروت: دار الآداب، ط1، 1996 ص98.

4 فرانك أوكونور، الصوت المنفرد، تر محمود الربيعي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، طبعة خاصّة، 2009، ص8.

بناء فنّي قوامه الأساس التكتيف والتركيز». (1)

لذا سنحاول أن نبين فيما يلي أبرز خصائص ومقومات القصة القصيرة.

د - خصائص القصة القصيرة ومقوماتها

يذكر رشاد رشدي، في حديثه عن بناء القصة القصيرة: «إنّ القصة القصيرة قد تصوّر حدثاً كاملاً له وحدة، ومع ذلك تظلّ قصة قصيرة من ناحية الحجم فقط، لا من ناحية الشكل ولكي تكتمل للقصة القصيرة مقومات الشكل يجب أن تصوّر حدثاً كاملاً يجلو موقفاً معيناً⁽²⁾. ويسمى جلاء هذا الموقف لحظة التّوير، وتُسمّى هذه اللحظة بلحظة التنبؤ، إذ إنّها كثيراً ما تكون لحظة تمرُّ بها الشخصية يحدث فيها تغيير حاسم وفاصل في موقفها من الحياة أو فهمها لها⁽³⁾، لذا فإنّ الخيار الفنّي في القصة القصيرة قائم على انتقاء الموضوعات البسيطة، والإكتفاء بالقليل من الشخصيات والحدّ الأدنى من الوصف، والوقوف عند التفاصيل الضروريّة، وتوجيه كلّ خيوط الحدث لتلتقي عند الخاتمة، وبذلك يقرب هذا الحدث القصة من المسرحيّة التي يتّجه فيها الحدث نحو ذروة يتقرّر بعدها مصير الشخصيات وتالياً نهاية الحكاية. ولكنّ القصة الحديثة ابتعدت عن الصيغة المسرحيّة بعدما قلّلت من الاعتماد على حدة التّأزم، وسعت إلى إغراق الحدث في الخيال، وتشويش المعنى.⁽⁴⁾ ويورد علي حجازي في كتابه «القصة القصيرة في لبنان» أنّ القصة القصيرة تركز على المقومات الأساسية التالية:

1 - الفكرة الواحدة التي يعزلها الكاتب عن كلّ شيء آخر، ويلقي عليها نوراً قوياً يبرزها بصورة واضحة مؤثّرة، يستطيع بها إيصال هذه الفكرة إلى القارئ، بشكل أقوى ممّا لو كانت الفكرة أو الحادثة جزءاً من رواية كبيرة متعدّدة الحوادث والوقائع.

- تخضع للحبكة كالرواية.

1 عبد المجيد زراقت، في الرواية وقضاياها، بيروت: مركز الغدير، ط1، 2011م. ص 23-25-26-27.
- وينظر تشارلز ماي: القصة القصيرة حقيقة الإبداع، تعر ناصر الحجيلان، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2011م، ص66،
- وانظر علي حجازي: القصة القصيرة في لبنان، 1950 - 1975، تق وليم الخازن. بيروت، دار الفارابي، ط1، 2015م. ص25.

2 رشاد رشدي، فنّ القصة القصيرة، بيروت: دار العودة، ط1، 1975، ص 41-40.

3 عبد المجيد زراقت، في القصة وفنّيها، م.س، ص 66.

4 ميشال جحا، القصة القصيرة في لبنان: سير ونصوص، م.س، ص 133.

- لا تعنى مثلها بالتفاصيل.
- لا تهتمّ إلا بما له علاقة مباشرة بالحادثة.
- تلتزم بداية ونهاية، وقد تترك النهايات مفتوحة أو غامضة.
- قد تكون صورة أو مشهداً أو جواً نفسياً خاصاً، تعالج لمحةً من حياة البطل في لحظة من لحظات وجوده أو أزمة من أزمات نفسه، ولا تعالج حياته بأكملها مع التطوّرات، فهذا من شأن الرواية⁽¹⁾.
- الزمن لا يكون طويلاً.
- المكان يكون محدّداً.
- الشخّصيّات تكون قليلة جداً.
- مفاجأة الشخّصيّات تتمّ في لحظة الحدث⁽²⁾.

ويورد لطيف زيتوني في كتابه «معجم مصطلحات نقد الرواية» أنّ القصّة نوع سرديّ، كالملمحة والحكاية الخرافيّة والرواية، أي تتضمّن حكايةً يرويها راوٍ، ولكنّ سمة السرد التي طبعت الأقصوصة الكلاسيكيّة لم تعدّ سمةً مميّزة في نتاج القرن العشرين. كما وتختلف بالحجم، حيث إنّ الأقصوصة نوع سرديّ قصير، أي أقصر من الرواية والملحمة، وتشبه الميثة والحكاية الخرافيّة. لذا، فإنّ القصّة تتميز بأنّها تكتفي بعدد محدود من العناصر (الشخّصيّات والأحداث والمكان والزمن). و تتميز القصّة بقصرها إذ يمكن قراءتها في جلسة واحدة، وبحبكتها التي تبدأ غالباً في وسط الحدث، وبعقدتها الواحدة، وبعناصرها القليلة، وشخصياتها المحدودة العدد والجامدة، وبمحافظةها على وجهة نظر واحدة وموضوع واحد ووثيرة واحدة، وميلها الظاهر إلى الاقتصاد في التفاصيل. وقد أوضح ولتر جيمس ميلر هذه الميزات في دراسة له بعنوان (The short story as a literary form)⁽³⁾ إذ أطلقت كلمة أقصوصة على القصّة القصيرة التي يكتبها كاتب وعلى الخبر الذي ينقله صحفيّ. وقد أدّت هذه الدلالة المزدوجة إلى ربط

1 علي حجازي، القصّة القصيرة في لبنان (1950، 1975)، م.س، ص 28.

2 علي حجازي، القصّة القصيرة في لبنان (1950، 1975)، م.س، ص 28.

3 لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، م.س، ص 133.

الأقصوصة بالحدث الواقعي بل الواقع الفعلي⁽¹⁾. ويرى «أكونور» (F.O'Connor)، إنَّ القصة القصيرة هي فنُّ اللحظة المهمة حيث إنَّ هذه اللحظة قد تكشف عصرًا بكامله وذلك من خلال ما تنطق به من دلالة على رؤية القاصِّ إلى قضايا معينة من عصره يُطلق عليها لحظة التتوير. وعليه، فإنَّ القصة القصيرة تجسّد اللحظة المهمة في بناء فنّي قوامه الأساس التكتيف والتكيز؛ لذا يرى بعض الباحثين بأنّها تتفق مع القصيدة الغنائية، وفي اتجاهها الذاتي، بالقدر نفسه الذي تتماثل فيه الرواية مع الملحمة أو كما يجادل الناقد الشكلي بوريس ميخائيلوفيتش أيخنباوم (BorisMikhailovich Aichenbaum) بأنَّ الرواية شكل توليفي، بينما القصة شكل أساسي وأولي⁽²⁾.

ويتوافق هذا بدوره مع ما توصل إليه الدكتور زراقت من قراءات تؤكد أنّ عملية القصّ تنتج أشكالاً من القصة القصيرة تتنوع بتنوع الكتاب الكبار أنفسهم، وفي حالات تتنوع بتنوع التجارب يجسدها هؤلاء الكتاب، كما تفيد بوجود خصائص عامّة تشترك فيها هذه الأشكال، وتعطيها صفة انتماء إلى نوع أدبيّ مستقل⁽³⁾، وبذلك، مهّدوا الطريق لتأخذ القصة مكانها المرموق بين الأنواع الأدبية الأخرى بعد أن كان يُنظر إليها نظرة دونية⁽⁴⁾. وعليه بعد أن عالجتنا موضوع القصة، لا بدّ لنا على المستوى المنهجيّ أن نعالج موضوع الشخصية.

ثانياً: الشخصية

تُعرّف الشخصية بأنّها كل مشارك في أحداث الحكاية، سواء أكانت تلك المشاركة سلبية أم إيجابية، أمّا من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشخصيات، بل يكون جزءاً من الوصف، إذ لا فعل من دون فاعل، ولا حدث من دون شخصية تتحرك على مسرح ما في الخط المصيري⁽⁵⁾ الذي يظهر في الحكمة. فالحبكة تؤمن إدارة الحدث في إطار المصير وتبني لهذا الحدث المصيريّ العالم الذي يتجلّى فيه، فتتكشف الشخصية.

1 م.ن.، 134.

2 عبد المجيد زراقت، في الرواية وقضاياها، م.س، ص 27-26-25-23. وانظر: تشارلز ماي، القصة القصيرة حقيقة الإبداع، م س، ص 66، نقلاً عن: فرانك أكونور، الصوت الوحيد، دراسة للقصة القصيرة.

3 عبد المجيد زراقت، في القصة وفنيتها، م.س، ص 147.

4 علي حجازي، القصة القصيرة في لبنان: 5-197 1950 تطورها، م.س، ص 41.

5 أنطوان طعمة، «الشخصية في الرواية العربية»، مجلة عالم الفكر العربي، المجلد 24، العدد 3، الكويت: 1996، ص 213-214.

والمقصود بمصطلح الشَّخصيَّة، الشَّخصيَّة داخل العمل السَّرديّ؛ أي ذلك الإنسان الحيّ الذي يعمل ويعيش ويفكر. والشَّخصيَّة تُخلق بواسطة الخيال الإبداعيّ للروائيّ، ولَمَّا كانت الشَّخصيَّة تركيباً أبديّة مخيّلة الروائيّ وجسّدته اللّغة، وبالتالي فلا سبيل لمعرفة الشَّخصيَّة إلاّ من خلال معرفة التركيب، فالشَّخصيَّة وحدة دلاليّة ذات دالّ ومدلول كأَيّ علامة لغويّة⁽¹⁾.

ويذكر عبد الرحمن منيف أنّ أهميَّة الشَّخصيَّة في السرد لا تقاس أو تحدّد بالمساحة التي تحتلّها، وإنّما بالدور الذي تقوم به، مع ما يرمز إليه هذا الدور، وأيضاً مدى الأثر الذي تتركه في ضمير القارئ، ما يدفع به إلى التّساؤل والمقارنة، تمهيداً لتصويب موقفه، في الواقع، وبالفعل، تجاه هذا الموضوع الأساس⁽²⁾.

وجاء في المعجم الوسيط أنّ الشَّخصيَّة هي: «الذات الواعية لكيانها المستقلّة في إرادتها»⁽³⁾، فالشَّخصيَّة هي مجموعة من الصّفات المميّزة للشخص عن غيره. ويتوافق تعريف «المعجم الأدبيّ» مع ما سبق ذكره حيث تُحدّد الشَّخصيَّة بأنّها: «عنصر ثابت في التصرّف الإنسانيّ، وطريقة المرء العادية في مخالفة الناس والتعامل معهم، ويتميز بها عن الآخرين»⁽⁴⁾. ووفقاً لذلك، فإنّ تطوّر الشَّخصيَّة الإنسانيّة في تصرفاتها ومميزاتها يحدث تدريجياً بسبب النّضج النّاتج من تجاربها في الحياة.

وفنياً، تحتل الشَّخصيَّة مكانة مهمّة في الآثار الأدبيّة، فهي عامل أساسيّ يمنح تلك الآثار خصوصيّة ظاهرة من حيث تصوّر الكاتب المميّز موضوعاته وطريقة تنفيذها وأسلوبه في ذلك. والمهمّ أنّ تعريفات الشَّخصيَّة المتعدّدة تتفق على أمرين مهمين: أنّها تُطلق على التصرّف الإنسانيّ والتصورات الفكرية التي دفعت إليها، وأنّ تلك التصوّرات والسلوكات تميّز صاحبها عن جماعته التي يُشبهها في الأصل وينتمي إليها، فيكون لديه أسلوبه المختلف في التّعامل مع تجاربه الخاصّة.

أ - أهميَّة بناء الشَّخصيَّة

إنّ الحدث دون تمثيل أفعال الشَّخصيَّة ومشاعرها هو مجرد خبر، فوحدة الحدث

1 أنطوان طعمة، «الشَّخصيَّة في الرواية العربيّة»، م.س.، ص 214-213.

2 عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، ط3، 2003م، ص 149.

3 مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط، ج1، ط 4، 2004م، ص 475، مادة (شخص).

4 جِبور عبد النور، المعجم الأدبيّ، بيروت: دار العلم للملايين، ط2، 1984م، ص 146-147.

وتكاملها تعتمد على تلاحمه التام مع الشخصية⁽¹⁾ وبذلك تُعد الشخصية من أهم عناصر القصة، لأنها في ملخص بليغ تمثل أفكار الكاتب، فبناء الشخصية القصصية بأبعادها المختلفة «يسهم في تحقيق هدف القصة وينير فكرتها»⁽²⁾.

وللشخصية القصصية أبعاد متنوعة منها: الجسمي والنفسي والاجتماعي، فالبعد الجسمي يُعنى بمظهر الشخصية الخارجي ومواصفاتها الشكلية وقسماتها الجسدية، أما البعد النفسي فيجسد النطاق الداخلي للنفس الإنسانية التي تمثلها الشخصية، حيث الدوافع والمشاعر والعقد والمؤثرات وغير ذلك، وفي البعد الاجتماعي يحيط الكاتب بالظروف الخارجية للشخصية وأحوالها داخل نطاق المجتمع فيصف - مثلاً - مكانتها وحالتها الاجتماعية، وأدوارها الثقافية والعلمية، وسلوكياتها وتصرفاتها مع الآخرين⁽³⁾.

وينبغي إدراك مدى التلاحم بين الجوانب المختلفة للشخصية، فالسلوك الاجتماعي للفرد نابع من دوافعه وصفاته الداخلية، كما أن تكوينه الجسدي له دور في نظرة الفرد إلى ذاته وتكوين فكرة خاصة ينطلق منها للتعبير عن نفسه وللتعامل مع من حوله. وهكذا، فالصراع الحتمي بين الأبعاد المختلفة للشخصية، وتفاعلها المستمر فيما بينها «هو الذي يُحدّد معالم هذه الشخصية ويكشفها للمتلقّي» ويُحدّد نوع علاقته بها، ولهذا قد يتعاطف معها متجاوباً، أو يفقد الصلة بها فيمقتها، أو تكون علاقته بها باعتماداً على تأزمه.

ب - طريقة تقديم الشخصية

اقترح «فيليب هامون» طريقتين لتقديم الشخصية الروائية، وذلك من خلال مقياسين:

- المقياس الكمي: وينظر إلى كمية المعلومات المتواترة المعطاة صراحة حول الشخصية.

- المقياس النوعي: وينظر إلى مصدر المعلومات حول الشخصية، هل تقدّمها عن نفسها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق التعليقات التي تسوقها الشخصيات

1 عباس نصر، البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة، الرياض: دار العلوم، ط1، 1983م، ص 19.
2 حسن الجازمي، البناء الفني في الرواية السعودية: دراسة نقدية تطبيقية، عمان: دار الجنادرية للنشر، ط2006م، ص 206.
3 يوسف الشاروني، القصة القصيرة نظرياً وتطبيقاً، سلسلة الهلال، القاهرة: عدد316، 1977م، ص 68-69.

الأخرى أو المؤلف، أم أنّ الأمر يتعلّق بمعلومة ضمنيّة تمّ الحصول عليها من خلال فعل الشّخصيّة ونشاطها.(1)

وبناءً على ذلك، فإنّ الملفوظات التي تقدّم المعلومات عن الشّخصيّة يتمّ توزيعها إلى نوعين بحسب طبيعة المعرفة (المعلومات):

- ملفوظات وصفية: تعتمد صيغة الوصف في تقديم الشّخصيات.
- ملفوظات سردية: تعتمد الأفعال في تقديم الشّخصيّة.(2)

تقدّم الملفوظات الوصفية معلومات ظاهرة، ومعرفة مباشرة عن الشّخصيّة، بحيث لا تحتاج إلى استنباط أو تأويل القارئ. أمّا الملفوظات السردية فتقدّم معلومات ضمنيّة، ومعرفة غير مباشرة عن الشّخصيّة، حيث إنّ القارئ مدعوّ لاستخراج مظاهر الشّخصيّة واستكشافها من خلال ما تُحيل عليه الأفعال.(3)

أمّا المواصفات أو المعلومات التي تقدّمها القصّة، فيمكن إجرائياً تصنيفها إلى ثلاث مواصفات:

- مواصفات سيكولوجية: تتعلّق بكيونة الشّخصيّة الداخليّة (الأفكار، المشاعر، الانفعالات، العواطف...).
- مواصفات خارجيّة: تتعلّق بالمظاهر الخارجيّة للشّخصيّة (القامة، لون الشّعر، العينان، الوجه...).
- مواصفات اجتماعية: تتعلّق بمعلومات حول وضع الشّخصيّة الاجتماعيّ، وأيديولوجيتها، وعلاقاتها الاجتماعيّة، ووضعها الاجتماعيّ.(4)

ويركز التّصنيف الشكليّ على دور الشّخصيّة ومهمتها في النّصّ استناداً إلى العلاقة الشكلية الخالصة بسائر الشّخصيات. والتّصنيف الآخر هو التّصنيف المضمونيّ الذي يعتمد على العلاقة المتينة بين الشّخصيات والحوادث، وهذان التقسيمان يعتمدان على

1 فليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائيّة، تر سعيد بنكراد، الرباط: دار الكلام، ط،1،1998م، ص24.

2 فليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائيّة، م. س، ص 37.

3 محمّد بو عزّة، تحليل النّصّ السرديّ، لبنان: الدار العربيّة للعلوم، ط1، 2010م، ص 42.

4 محمّد بو عزّة، تحليل النّصّ السرديّ، م.ن.، ص 40.

تقسيم النصّ الى شكل ومضمون. وهذا ما لا تعترف البنيويّة الشكليّة به؛ لأنّها اعتبرت أنّ هذا التصنيف يساعد في فهم الشّخصيّة داخل القصّ ولكّنه لا يمكّنا من معرفة بنائها.(1)

كما أنّ هناك تصنيفاً آخر ثلاثياً يساعد في تحليل بناء الشّخصيّة الروائيّة، وهذا التصنيف يعتمد على إمكانيّة العثور على الشّيء المشترك بين مجموعة الشّخصيات قبل التعرّف على خصوصية كلّ واحدة منها. ولما كان المقياس الكميّ غير كافٍ لفهم تكوين الشّخصيّة ومقومات بنائها؛ لأنّ المعلومات الكميّة وحدها لا تقدّم رؤية متكاملة للشّخصيّة؛ لذا يأتي المقياس النوعيّ ليدقّق في المعلومات، مصدرها ودقّتها وطريقة عرضها.(2)

ج - هويّة الشّخصيات

تُعرّف الهويّة الشّخصيّة شخصاً بشكله، وباسمه، وبصفاته، وبجنسيته، وبعمره، وبتاريخ ميلاده. والهويّة هي مجمل السمات والخصائص التي تميّز فرداً عن غيره أو جماعة عن غيرها. وتتميّز هذه العناصر بالديناميكيّة والحركيّة، إذ يمكن أن يبرز أحدها أو بعضها في مرحلة، وبعضها الآخر في مرحلة أخرى. وهناك الهويّة الجمعيّة (الوطنية والقوميّة) التي تدلّ على سمات وخصائص مشتركة لمجموعة من البشر يشتركون في مجموعة عناصر، كاشتراك الشعب أو المجموعة في: الأرض، واللّغة، والتاريخ، والحضارة، والثقافة والتحديات(3)، والهويّة مُصطلح يُعتمد لوصف مفهوم الشخص، وتعبيره عن ذاته وعلاقتها مع الجماعة (كالهويّة الوطنيّة أو الهويّة الثقافيّة)، ويتداول هذا المصطلح خصوصاً في علم الاجتماع، وعلم النفس. ويُشتق في اللّغة العربيّة من كلمة (هو). والهوية هي الذاتية والخصوصيّة، وهي القيم والمثل والمبادئ التي تُكوّن الشّخصيّة الفرديّة أو المجتمعيّة، وهوية الفرد هي عقيدته، ولغته وثقافته، وحضارته وتاريخه. وترتكز الهوية على الوعي بالذات الاجتماعيّة والثقافيّة وتتغيّر وتتحوّل تبعاً لتحول

1 أحمد رفيق عوض، العذراء والقرية، فلسطين: لان، ط1، 1992، ص 92.

2 جميلة الموسوي، الشّخصيّة والالتزام في رواية هزائم مبكرة، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها، إشراف أ. د علي زيتون، الجامعة اللبنانيّة، عمادة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، 2013م، ص 26.

3 جميلة الموسوي، الشّخصيّة والالتزام في رواية هزائم مبكرة لنبيل سليمان، م.س.، ص 41.

الواقع، بل أكثر من ذلك هناك داخل كلّ هوية هويّات متعددة نوات مستويات مختلفة⁽¹⁾. ويبحث رولان بارت (Roland Barthes) في تحليله البنيويّ للقصص، عن الوحدات الدلاليّة فيما يتعلّق بالشخصيّات في القصة، فميّز بين الوظائف والصفات، «الوظائف تعبر عنها الأفعال، والصفات تدلّ عليها الهوية...»⁽²⁾، وما يعنينا، هنا، ليس الوظائف، إنّما هوية الشخصية كما أخبر عنها، أو كما كشفت عن نفسها، فضلاً عن المؤشّرات الدالّة على هويتها وبيئتها وانتمائها.

ويؤكّد «رولان بارت» (Roland Barthes) أنّ شخصية القصة «نتاج عمل تأليفيّ وهويّتها موزعة في القصة عبر الخصائص والأوصاف، كما تُحدّد من حيث موتها داخل القصة»⁽³⁾.

وتُعدّ الشخصية، صورة للشخص البشريّ المتنوع الوجوه والسلوكيّات، والباحث عن ذاته الواحدة، وهويّته الواحدة عبر هذا التعدّد⁽⁴⁾. كما نعلم أنّه لا يمكن للأدب أن يكون مقطوع الصلة بواقعه الاجتماعيّ؛ فالأعمال الفنيّة والأدب حياة، وهي كما يقول «توماس بافل» (Thomas Pavel) صيغ فنيّة لا وجود مستقلّ لها خارج نشاط فكريّ فنيّ ينتجها⁽⁵⁾. وبذلك «خير ما يملك الإنسان هويّته، أي في النهاية شخصيّته نفسها، ما يجعله في الأساس مميّزاً من الآخرين. وعليه، فلا عجب أنّ القانون يهدف إلى حماية اسم الشخص من كلّ امتلاكٍ أو غلوّ في استعماله.

والشخصيّة عنصر فنيّ يُبنى في النصّ ومن خلاله، فيكون دالّاً عند اتّخاذه أسماء أو صفات تلخّص هويّته؛ وبمثابة مدلول عبر مجموع ما يُقال عنه، ما يشير إلى وجود جانبيين يحدّدان الشخصية: الأوّل، ويكشف التحليل في هذا المستوى عن انتماء الشخصية الجغرافيّ والاجتماعيّ والدينيّ والثقافيّ والإيديولوجيّ، وعن مدى تأثير ذلك على سير أحداث القصة، ووظيفيّ يتمثّل في الأفعال، والثاني وصفيّ يتضمّن الصفات والألقاب والأسماء. ومهمّة الناقد تكمن في التركيز على الجانب الأوّل (الأفعال والوظائف) من

1 أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعيّة، بيروت: مكتبة لبنان، ط1، ص206.

2 BARTHES, Roland, Poétique du récit, Seuil, Paris, 1977, p.21

3 Recherches collectives, L'analyse structurale des récits, Seuil, Paris, 1966, p.74.

4 أنطوان نعمة، «الشخصيّة في الرواية العربيّة»، الكويت: عالم الفكر العربيّ، المجلد 11، العدد32، ص241.

5 عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرواية، الكويت، عالم المعرفة، العدد 240، 1989، ص 150.

غير إهمال الثاني، فيرصد عناصر بناء الشخصية عبر وصفها الداخلي والخارجي، فضلاً عن وضعها العائلي والاجتماعي والطبقي والاقتصادي... فيكشف بذلك عن انتمائها الجغرافي والاجتماعي والثقافي، ويلحق النعوت سلباً وإيجاباً، ويرسم العلاقات بين الشخصيات، أكانت علاقات انسجام أم تنافر، مع ما يطرأ عليها من تطور وتحول، من خلال اختيار المؤلف للاسم واللقب والجنس والعمر والوضع العائلي... ولهذا الاختيار دلالاته، إذ يضع الظاهرة ضمن مستوى أعمّ منها، وهو عالم الخطاب⁽¹⁾. وما يعيننا في دراستنا، ليس الوظائف، إنّما هوية الشخصية كما أُخبر عنها، أو كما كشفت عن نفسها، فضلاً عن المؤشرات الدالة على هويتها وبيئتها وانتمائها.

ويعمد الراوي في رسم شخصياته وأبطاله إلى وسائل مباشرة (الطريقة التحليلية)، وأخرى غير مباشرة (الطريقة التمثيلية)؛ ففي الحالة الأولى يرسم شخصياته من الخارج، يشرح عواطفها وأحاسيسها، بواعثها وأفكارها، ويعلق على بعض تصرفاتها، ويفسر بعضها الآخر. وكثيراً ما يُعطينا رأيه فيها بصراحة دونما التواء. أما في الحالة الثانية فإنه ينحّي نفسه جانباً ليتيح للشخصية التعبير عن نفسها والكشف عن جوهرها بأحاديثها، وتصرفاتها الخاصة، كما قد يعتمد إلى توضيح بعض صفاتها عن طريق أحاديث الشخصيات الأخرى عنها، وتعليقها على أعمالها⁽²⁾. وللراوي أيضاً أن يستخدم كلتا الطريقتين، حيث يُساعده في ذلك قيام القصّ على الحوار والسرد، ما يتيح له استخدام الطريقتين معاً في رسم الشخصية⁽³⁾. والنقد الحديث يُؤثر استعمال الطريقة التمثيلية، لأنّ تكشف الشخصية من الداخل إلى الخارج أقوى أثرًا، وأدقّ تعبيرًا من وصفها وصفًا خارجيًا⁽⁴⁾، وهذا ما فعله القاصون إذ لم يغفلوا عن الطريقة التحليلية في وصف الشخصيات بغية تقريبنا من الواقع؛ فوصف المرئيات بتفاصيلها ودقائقها ما هو إلّا دوافع لنشاط الشخصية وتحركاتها، حيث يصف الكاتب الموجودات المرئية لأنها تساعد، وتعطي صورة واقعية عن بيئة معينة لفترة ما، في حين يصف خارج الشخصية لأنه يقرب القارئ من الواقع، وبذلك يتفقون حول نقطة محورية تكمن في⁽⁵⁾:

1 لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، م.س، ص93.

2 محمّد يوسف نجم، فنّ القصة، م.س، ص98.

3 م.ن، ص99.

4 م.ن، ص100.

5 GOLDMANN, Lucien, Pour une sociologie du roman, Gallimard, Paris, 1964, p297.

- تجريد الشخصية من كل الأئمة.

- تصفيتها من كل الشوائب.

- رسم نفسيّتها بتفاصيلها البارزة لكشف الواقع الذي تحياه، وتواجهه.

لذلك على الدّارس مراقبة وجهات النّظر التي يحمّلها الأديب للشّخصيّة، لا سيّما الذات الفاعلة، للكشف عن رؤيته إلى العالم، ومعرفة أيّ نوع من الشّخصيّات قد خلق الكاتب: صراعيّة، عبئيّة، ضائعة، هامشيّة، متسكّعة أم منسجمة، متأقلمة، وما هي منظومة القيم التي حملتها هذه الذوات الفاعلة.⁽¹⁾

وهذا ما سنحاول معرفته من خلال تحليل المستوى السردّي لدى الأدباء عبر كلّ من: عالم الرموز الذي «يرصد شبكة العلاقات بين الشّخصيّات في رسم ما يطبعها من انسجام وتناظر وما يطرأ على هذه العلاقات من تطوّر أو تراجع.

تتجاوز القصة الكشف عن سمات الهوية إلى إنتاجها⁽²⁾، ويكشف التحليل في هذا المستوى عن انتماء الشخصية الجغرافي والاجتماعي والديني والثقافي والإيديولوجي، وعن مدى تأثير ذلك على سير أحداث القصة، من خلال اختيار الرّواي للاسم واللقب والجنس والعمر والوضع العائلي... ولهذا الاختيار دلالاته، و«الدليل يدلّ، لكنّ العلاقة بين الدليل وما يدلّ عليه ليست بسيطة، لأنّها غير مباشرة. فالدليل يضع الظاهرة ضمن مستوى أعمّ منها، ولكن من نوعها، وهو عالم الخطاب»⁽³⁾. وعالم الرموز «يرصد شبكة العلاقات بين الشّخصيّات في رسم ما يطبعها من انسجام وتناظر وما يطرأ على هذه العلاقات من تطوّر أو تراجع... لأنّ كل شخصيّة هي صورة للشخص البشريّ المتعدّد الوجوه والشّخصيّات والباحث عن ذاته الواحدة وهويّته الواحدة عبر هذا التعدّد»⁽⁴⁾.

ويبحث «رولان بارت» (Roland Barthes) في تحليله البنيويّ للقصص، عن الوحدات الدلاليّة فيما يتعلّق بالشّخصيّات في القصة، فميز بين الوظائف والصفات، «الوظائف تعبّر عنها الأفعال، والصفات تدلّ عليها الهوية...»⁽⁵⁾، وما يعنينا، هنا، ليس

1 نبيل أيوب، الطرائق إلى نص القارئ المختلف، م.س، ص116.

2 رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي، م.س، ص21.

3 لطيف زيتوني، معجم مصطلحات الرواية، م.س، ص93.

4 مجلة «عالم الفكر»، م.س، ص214.

الوظائف، إنّما هويّة الشّخصيّة كما أُخبر عنها، أو كما كشفت عن نفسها، فضلاً عن المؤشّرات الدالّة على هويّتها وبيئتها وانتمائها.

د - الشّخصيّة الحقيقيّة والشّخصيّة الورقيّة في القصة

«إنّ الشّخصيّة الروائيّة إنسان من ورق يخلقه الرّوائي ليحقّق بواسطته هدفاً جمالياً ما، ويطرح رؤيا لعالم يؤمن بها⁽¹⁾، ما يعني أنّها «شخصيّة تخيليّة، لسانیّة، فهي من مادّة اللّغة لا من الواقع»⁽²⁾.

فهي تخيليّة لأنّ الرّوائي، اعتماداً على الخيال، هو من «ينتجها وبيئتها بناء على تفاعله مع واقعه التجريبي»⁽³⁾. وهي لسانیّة لأنّها «لا وجود لها خارج الكلمات»⁽⁴⁾. ولذلك فإنّ «الشّخصيّة بناء يقوم النّصّ بتشبيده أكثر ممّا هي معيار مفروض من خارج النّص»⁽⁵⁾.

وغنيّ عن القول إنّ الشّخصيّة الروائيّة مكوّن أساسي من مكوّنات العمل الرّوائي، لأنّ الحدث لا يمكن أن يقع في العالم التّخيليّ بمعزل عنها، كما أنّه ليس هناك أهميّة للشّخصيّة خارج الحدث، إذ إنّ الأحداث هي التي تكشف عن بنية الشّخصيّة النفسيّة والاجتماعيّة والسلوكيّة... وانطلاقاً من هذا النّصّور التّخيليّ اللّسانيّ لها، فإنّها تلتقي بمفهوم العلامة اللّغويّة في النّظرية الألسنيّة، «حيث يُنظر إليها كمورفيم فارغ في الأصل... يتخذ مدلوله من طريق إسناد الأوصاف والتّعوت إلى الشّخصيّة، ومن خلال العلاقات التي تقيمها الشّخصيّات داخل النّصّ الرّوائي»⁽⁶⁾. إلّا أنّ الشّخصيّة «لا يمكن أن تعدّ مجرد علامات لغويّة فقط، لأنّ الاقتصار على هذا الفهم يُفقد النّصّ الرّوائي صبغته الإنسانيّة، لذا فالشّخصيّة هي محض خيال بيدعه المؤلّف لغاية فنيّة محدّدة. كما أنّ القراءة السّاذجة تخلط بين (الشّخصيّة التّخيليّة) و (الشّخصيّة الحيّة). في حين

1 سمر روجي الفيصل، الرواية العربيّة البناء والرؤيا، دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العرب، لا.ط، 2003م، ص 160.

2 إبراهيم خليل، بنية النّصّ الرّوائي، بيروت: الدار العربيّة للعلوم، ط1، 2001م، ص 194 - 195.

3 سعيد يقطين، انفتاح النّصّ الرّوائي، الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2006م، ص 141.

4 حسن بحراري، بنية الشكل الرّوائي، الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م، ص 213.

5 فيليب هامون، سيميولوجيّة الشّخصيّات الروائيّة، م.س.، ص 51.

6 حسن بحراري، بنية الشكل الرّوائي، م.س.، ص 213 - 214.

أَنَّ الشَّخْصِيَّةَ التَّخْيِيلِيَّةَ (كائن من ورق)، كما يرى كلٌّ من بارت وتزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov)، أنَّها ليست أكثر من قضية (لسانيَّة). وبهذا فإنَّ تودوروف يُجَرِّدُها من محتواها الدلاليِّ من أجل إبراز وظيفتها النحويَّة، حيث يجعلها (فاعلاً) في السرد، بخلاف التحليل البنيويِّ الذي يعد الشَّخْصِيَّةَ (دليلاً) ذا وجهين: إحداهما (دالٌّ)، والآخر (مدلول)، ولا شك أنَّ القارئ هو الذي يحدِّد شخصيَّة البطل من خلال أقوالها وسلوكها؛ لذا؛ فإنَّ شخصيَّة البطل يمكن أن تتفاوت بتعدّد القراء واختلاف مستوياتهم وتحليلاتهم⁽¹⁾.

ولكي تبدو الشَّخْصِيَّة مقبولة واقعيًّا ومنطقيًّا، فإنَّ على الكاتب أن يُسَخِّر إمكاناته الفنيَّة من عناصر الخيال والعاطفة لإظهار الشَّخْصِيَّة، بعد تلوينها بتجربته الخاصَّة وتجارب من حوله، ومن ثمَّ نقلها برؤية دقيقة لتفاصيل واقعها المُستحدث، ولا يُقصد بذلك الواقع النقل الحرفيِّ الفوتوغرافيِّ الذي يمللنا منها، بل المقصود إظهارها في صورة تتوازي فيها مع مثيلاتها من الشَّخْصِيَّات في الحياة الواقعيَّة⁽²⁾. كذلك يوجد أتباع الطريقة الحديثة في وصف الشَّخْصِيَّات بالإظهار والاكتمال مع انتهاء الأحداث، بحيث تظهر الشَّخْصِيَّة - بدايةً - مُبهمة غير محدَّدة المعالم؛ فلا بد فيه من تبرير الكاتب لهذا الغموض وبعده عن الواقع، لأنَّ ذلك ينبع عادة من عمق الصراع وتعدّد أشكال المعاناة عند الشَّخْصِيَّة، ولا يأتي دون سبب أو تفسير مقنع للقارئ⁽³⁾.

ويحتاج الكاتب في هذه الطَّريقة إلى الإمكانيات الكبيرة التي تسمح له بتحرير الشَّخْصِيَّة من حدود الزَّمان والمكان، والانطلاق بها نحو جوانب إنسانيَّة عامَّة وشاملة، عبر الربط بين عوالمها الداخليَّة والخارجيَّة وبين سلوكها الإنسانيِّ، وتحريكها في مسارات الحدث وفق ما يناسب نزعاتها وسماتها وخصائصها والتي ستبدو كاملة في النِّهاية، وهي بتلك الصورة تعكس لنا منطق نموِّها وتطوُّرها في شتَّى الجوانب، فنرى من خلالها حياة متدفقة مقبولة رغم ما يعترضها من صراع واضطراب⁽⁴⁾.

1 نبيل أيوب، النقد النصِّي وتحليل الخطاب، م.س، ص 116.

2 محمود تيمور، دراسات في القصة والمسرح، القاهرة: المطبعة النموذجيَّة، ط5، 1945م، ص 105.

3 عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية: دراسة في الرواية المصريَّة، القاهرة: مكتبة الشباب، ط2، 1982م، ص 109 - 111.

4 عباس نصر، البناء الفني في القصة السعوديَّة المعاصرة، م.س، ص 26 - 28.

ينبغي للراوي إذًا أن يُلائم بين طريقة بنائه لشخصياته وبين أهدافه وأفكاره من جهة، وبين إمكاناته من جهة أخرى، فإنَّ «قوة الخلق الفنّي لشخصيّة قصيّة لا تكون فقط في حياتها المتدفقة النابضة داخل القصة نفسها، بل في حياتها خارج القصة، في حياتها الممكن استمرارها على وجوه أخرى في رؤوس الناس»⁽¹⁾، كما يحتاج الكاتب لدعم الموضوعيّة في عمله السردّي إلى عدم السيطرة على شخصيّاته بتحميلها أفكاره وإلزامها بنقل رغباته، بل عليه أن يجعل لها كيانهما المستقل، الذي تتبع فيه سلوكيّاتها من واقع خلفيّتها النفسيّة المحددة لها، وأن يصفها قدر المستطاع من الداخل قبل الخارج، بتعميق بعدها النفسيّ قبل الاهتمام بأبعادها الخارجيّة، فذلك أدقّ تعبيرًا وأكثر فاعليّة في تصويرها.

محصّلة واستنتاج

وانطلاقًا مما سبق ذكره، نستخلص مفهومًا مناسبًا للشخصيّة في العمل السردّي، وهو أنّها العنصر الأساس والحيويّ والفعال في البناء الدراميّ الذي يتأزر ويتضافر مع سائر العناصر الأخرى لنقل فكرة الكاتب ورؤيته، وطرح وجهة نظره من خلال ما تمارسه من أفعال وأحداث نامية تكون هي محور ارتكازها والموجّه الرئيسيّ لها، والشخصيّة على ذلك هي العنصر القائم بتمثيل السلوك الإنسانيّ المُعبّر عن العوالم الداخليّة والخارجيّة لكل شخصيّة مماثلة في الواقع، في إطار يسمح بنموها وتدرّجها وفق سنن الحياة الإنسانيّة وطموحاتها، وبالکيفيّة التي تُظهر براعة الكاتب في تقمّص تجارب الآخرين ومزجها بتجاربه ثمّ نقلها من خلال شخصيّاته المستقلّة في هيئة نابضة ومقبولة للقارئ؛ وهنا لا بدّ من التأكيد على ضرورة تلاحم عنصر الشخصيّة مع بقية العناصر في البناء الدراميّ، بعد سبکها بقوة وإتقان ووفق ما تقدم من لوازم وصفها، لتكتمل لهذا البناء سمات الوحدة والتأثير.

لكن يبرز السؤال: إلى أيّ متى ستحافظ الشخصيّة على دورها المحوريّ في العمل الدراميّ، وهل ثمة مقاربات نقدية تناولت الموضوع من منظور آخر؟

1. عبد المجيد زراقات، في القصة وفنّيها، م.س، ص 26.

المراجع العربية

1. إدريس، سهيل، محاضرات عن القصة في لبنان، القاهرة: معهد البحوث الدراسات العربية ط1، 1975م.
2. أفرام البستاني، فؤاد، دائرة المعارف: بيروت: 1969م.
3. أيوب، نبيل، النقد النصي (2) وتحليل الخطاب (نظريات ومقاربات)، بيروت: مطبعة لبنان ناشرون، ط1، 2011م.
4. أيوب، نبيل، نصّ القارئ المختلف (2) وسيمائية الخطاب النقديّ، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2011م.
5. بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م.
6. بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت: مكتبة لبنان، ط1، 1978م.
7. بو عزة، محمد، تحليل النصّ السرديّ، لبنان: الدار العربية للعلوم، ط1، 2010م.
8. تيمور، محمود، دراسات في القصة والمسرح، القاهرة: المطبعة النموذجية، ط5، 1945م.
9. الجازمي، حسن، البناء الفنيّ في الرواية السعودية: دراسة نقدية تطبيقية، عمان: دار الجنادرية للنشر، ط1، 2006م.
10. عبد النور، جبور، المعجم الأدبيّ، بيروت، دار العلم للملايين، 1979م.
11. جحا، ميشال، القصة القصيرة في لبنان: سير ونصوص، بيروت: مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانية الأميركية، ط1، 2008م.
12. الموسوي، جميلة، الشخصية والالتزام في رواية هزائم مبكرة، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف أ. د علي زيتون، الجامعة اللبنانية، عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2013م.
13. حجازي، علي، القصة القصيرة في لبنان: 5-197 1950 تطورها وأعلامها، بيروت: دار الفارابي، ط2، 2015م.
14. خليل، إبراهيم، بنية النصّ الروائيّ، بيروت: الدار العربية للعلوم، ط1، 2001م.
15. رشدي، رشاد، فنّ القصة القصيرة، بيروت: دار العودة، ط1، 1975م.
16. روجي الفيصل، سمر، الرواية العربية البناء والرؤيا، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، لا.ط، 2003م.
17. زراقت، عبد المجيد، الإبداع الأدبيّ العربيّ: قضايا وإشكالات، بيروت: مركز الغدير، ط1، 2003م.
18. زراقت، عبد المجيد، في الرواية وقضاياها، بيروت: مركز الغدير، ط1، 2011م.
19. زراقت، عبد المجيد، في القصة وفنيتها، بيروت: مركز الغدير للدراسات والنشر، ط1، 2010م.
20. زراقت، عبد المجيد، في بناء الرواية اللبنانية (1992-1972)، جزءان، بيروت: الجامعة اللبنانية: دائرة المنشورات، ط1، 1999م.

21. زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ودار النهار، ط1، 2002م.
22. الشاروني، يوسف، القصة القصيرة نظرياً وتطبيقاً، سلسلة الهلال، القاهرة: عدد316، 1977م.
23. طعمة، انطوان، «الشخصية في الرواية العربية»، مجلة عالم الفكر العربي، المجلد 24، العدد 3، الكويت: 1996.
24. عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، بيروت: دار العلم للملايين، ط2، 1984م.
25. عثمان، عبد الفتاح، بناء الرواية: دراسة في الرواية المصرية، القاهرة: مكتبة الشباب، ط2، 1982م.
26. عياد، شكري، القصة القصيرة في مصر «دراسة في تأصيل فن أدبي»، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ط1، 1967م.
27. كنفاني، غسان، فارس فارس، بيروت: دار الآداب، ط1، 1996م.
82. مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ج1، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004م.
29. مرتاض، عبد الملك، «في نظرية الرواية»، العدد 240 عالم المعرفة، الكويت: 1989م.
30. منيف، عبد الرحمن، بين الثقافة والسياسة، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2003م.
31. نجم، محمد يوسف، فن القصة، بيروت: دار صادر، ط1، 1996م.
32. نصر، عباس، البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة، الرياض: دار العلوم، ط1، 1983م.
33. يقطين، سعيد، انفتاح النصّ الروائي، الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2006م.

34. المراجع العربية

35. أوكونور، فرانك، الصوت المنفرد، تعر محمود الربيعي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط1، 2009م.
36. ماي، تشارلز، القصة القصيرة حقيقة الإبداع، تعر ناصر الحجيلان، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2011م.
37. هامون، فليب، سيمولوجية الشخصيات الروائية، تعر سعيد بنكراد، بيروت: دار الكلام، ط1، 1998م.

المراجع الأجنبية

1. BARTHES, Roland, Poétique du récit, Seuil, Paris, 1977, p.21
2. Recherches collectives, L'analyse structurale des récits, Seuil, Paris, 1966, p.74.
3. GOLDMANN, Lucien, Pour une sociologie du roman, Gallimard, Paris, 1964, p297.
4. BARTHES, Roland, Poétique du roman, Paris, 1977, p.21

المواقع الإلكترونية العربية الإخبارية ملجأ للأخطاء الشائعة (نماذج مختارة)

Arabic News Websites Are a Refuge for Common Mistakes

د. زياد قسطنطين¹

Dr. Ziad Constantine

تاريخ القبول 2024 /9/22

تاريخ الاستلام 2024 /9/5

ملخص

إنّ هذا البحث يُقدّم صورةً جليّةً عن أبرز الأخطاء الشائعة التي تنتشرُ في المواقع الإلكترونية الإخبارية العربية. وليس أيّ انتشارٍ، فهذه الأخطاء تتمدّد كالنّار في الهشيم. صحيحٌ أنّ هذا الموضوع ليس بجديدٍ، إذ إنّهُ قد عولجَ مراتٍ كثيرةً في مقالاتٍ نُشرت في الصّحف وكذلك الأمر في أبحاثٍ نُشرت بمجلاتٍ وحتى أُلقت كتبٌ تتناوله، لكنّ الرسالة التي أودُ إيصالها من خلال هذا البحث وبعد الاطلاع عليه تكمنُ في أنّ هذه الأخطاء الشائعة التي أضحت كالوباء الذي ينتشرُ بسرعةٍ قياسيةٍ فيصيبُ كُنْزاً من النّاس، الذين باتوا للأسف الشديد يعانون داء استخدام الأخطاء الشائعة، يجب بذل كلّ جهدٍ ممكنٍ لتجنّبها والابتعاد عنها. نعم، إنّهُ مرضٌ ينهشُ عقولَ القراء والكتّاب والإعلاميين والصّحافيين. والطّامة الكبرى تتجلّى في أنّ من يحاول اعتماد الألفاظ الصّحيحة والسّليمة لغويّاً وقاموسياً ومعجمياً يُنظر إليه على أنّه يستخدم كلماتٍ غير صحيحة ومرفوضة من جانب جمهور اللّغة العربية. وبذلك بتنا أمام لغةٍ جديدةٍ مختلفة تماماً عن لغتنا العربية المعروفة قواعدُها صرفياً ونحوياً، وإنّ في ذلك تهديداً لهذه اللّغة وثقافتنا وحضارتنا. يؤملُ أن يلقى البحثُ هذا انتشاراً بين أهل الاختصاص من جهةٍ، وكلّ من لديه شغفٌ باللّغة العربية من جهةٍ أخرى، لعلّه يسهم في تصويب الأمور بما يخصّ كيفية تلافي استخدام الكلمات غير الصّحيحة والإضاعة عليها، وذلك بهدف الحفاظ على لغتنا العربية كما كان يعرفها الأقدمون وأن يحاول أكبر عددٍ ممكن من النّاس وضع حدٍّ لهذه الأخطاء ولسيلها الذي يجرفُ في طريقه كلّ ما هو صائبٌ.

1 دكتور في اللّغة العربية وآدابها، باحث ومدقق لغويّ

Summary

Many years ago, and still the Arabic language faces a big dilemma which is «the common mistakes». These mistakes are spreading quickly everywhere. The objective of this research paper is to highlight the common mistakes that we find specifically in Arabic news websites. These mistakes represent a huge danger that leads to menacing our Arabic language. In every news website that uses the Arabic language, we can see and find a lot of mistakes. The morphological and grammatical rules of The Arabic language are well known, but the dilemma that we are talking about lies in using incorrect words or using words in an Inappropriate context. So, in this research paper we will highlight forty–seven common mistakes found in Arabic news websites. And after mentioning every common mistake, the correct word will be pointed out. The objective of this research paper is also to avoid these mistakes and protect our Arabic language from the danger previously mentioned.

It's true that this topic has been studied before, in so many ways in newspapers, magazines and of course in linguistic books, but what I am trying to say is that these common mistakes have become an incurable disease. The reason for this conclusion is that these mistakes are considered correct words, and unfortunately most people are incapable of distinguishing correct words from incorrect ones.

مقدمة

منذ أن أبصرت المواقع الإلكترونية التور، بدأ تباعا إنشاء المواقع الإخبارية. هذه الأخيرة جزء كبير منها باللغة العربية، لكن المشكلة تكمن في أي لغة عربية تُعتمد في هذه المواقع.

اللغة العربية معروفة قواعدها صرفياً ونحوياً، بيد أن من يتابع المواقع الإخبارية تلك تقع عيناه على جملة من الأخطاء على صعيد اللغة، لذلك فإن هذا البحث سيسلط الضوء على الأخطاء الشائعة في هذه المواقع.

أما المقصود بالأخطاء الشائعة، فكلمات غير صحيحة أو تُستخدَم في غير سياقها الطبيعي، غير أنها لقيت رواجًا لا مثيل له في وسائل الإعلام المختلفة، أكانت مرئية أم مسموعة أم مكتوبة.

إذًا، في هذه الدراسة سيوضَع عدد لا بأس به من المواقع الإخباريّة تحت مجهر البحث، وذلك للإضاءة على أبرز الأخطاء الشائعة التي يكاد لا يخلو منها أيٌّ من تلك المواقع.

فما هي أبرز الأخطاء الشائعة؟ ويبقى السؤال الأهم: ما الخطر الأكبر الناجم عن هذه الأخطاء؟

في ما يأتي أمثلة عن أخطاء شائعة وردت في عدد من المواقع الإلكترونية الإخباريّة:

1 - هل عبارة «عاطل عن العمل» صائبة؟

في الخامس من شهر أيار عام ألفين واثنى عشر، ورد في موقع **aljarida.com** الإلكترونيّ العنوان الآتي: «زوجك عاطل عن العمل». في هذه العبارة، خطأ شائع يتمثّل في استخدام «عاطل عن»، من المستحسن القول: «عاطل من العمل».

2 - استخدام كلمة «هكذا»

في العاشر من شهر أيار عام ألفين واثنى عشر، ورد في موقع **aljoumhouria.com** الإلكترونيّ خبر عنوانه «لو ترسّمت الحدود لما شهدنا هكذا أمور». من الأخطاء الشائعة استخدام كلمة «هكذا» كما وردت في الخبر آنف الذكر، كان يجدر القول: «لما شهدنا أمورًا كهذه».

3 - هل كلمة «أوقات» جمع تكسير أو جمع مؤنث سالم؟

في الرابع عشر من شهر أيلول عام ألفين وثلاثة عشر، ورد في موقع **elsport.com** الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه الآتي: «غيغز: فيلايني سيقضي أوقات ممتعة معنا». إنّ كلمة «وقت» تُجمع جمع تكسير لا جمع مذكّر سالمًا. لذلك، كان يجب أن يكون هذا العنوان كالاتي: «غيغز: فيلايني سيقضي أوقاتًا ممتعة معنا».

4 - خُمس وربع وثالث ونصف

في السادس من شهر كانون الثاني عام ألفين وأربعة عشر، ورد في موقع **naharnet.com** الإلكتروني خبرٌ عنوانه الآتي: «تُلت البالغين بأحاء العالم بدناء». كان يُستحسن القول «تُلت البالغين بأحاء العالم بدين»، لأننا نقول «هذا التُّلت».

وفي الخامس من شهر تشرين الأول عام ألفين وواحد وعشرين، ورد في موقع **arab48.com** الإلكتروني خبر عنوانه «خمس سكان العالم مسنون بحلول 2050». يُستحسن القول «خمس سكان العالم مسنّ بحلول 2050»، لأننا نقول «هذا الخُمس».

في الخامس والعشرين من شهر أيار عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **almodon.com** الإلكتروني خبرٌ عنوانه «نصف السّوريين مهددون بفقدان عقاراتهم...». كان يفصل القول «نصف السّوريين مهدد...»، لأنّه يقال «هذا النّصف».

وفي الثّامن من شهر آب عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **sabq.org** الإلكتروني خبر بعنوان «دراسة استمرت 3 عقود.. ربع سكان العالم يعانون فقر الدّم وتبعاته الخطيرة».

كان من الأفضل القول «ربع سكان العالم يعاني فقر الدّم وتبعاته الخطيرة»، لأنّه يُقال «هذا الربع».

5 - في أي صيغة كلمة «نُصب»، المفرد أم الجمع؟

في الثّاسع من شهر تشرين الثاني عام ألفين وخمسة عشر، ورد في موقع **aletihad.ae** الإلكتروني خبرٌ عنوانه «أفضل 10 نصب تذكارية في العالم». إن كلمة «نصب» تُجمع على «أنصاب»، لذلك كان يجب القول «أفضل 10 أنصاب تذكارية في العالم».

6 - «عمود» أم «عامود»؟

في الحادي والعشرين من شهر تموز عام ألفين وستة عشر، ورد في موقع **Youm7.com** الإلكتروني خبر عنوانه «صحافة المواطن: عامود إنارة مضاء في وضح النهار بالگردقة». إن استخدام كلمة «عامود» خطأ شائع، لذلك يجدر حذف الألف كالاتي

«عمود»، «والعمود معروف والجمع أعمدة وعمد بضمّتين وبفتحتين¹».

7 - «البرهة» و«الهنهية»

في السّادس عشر من شهر تشرين الثّاني عام ألفين وسبعة عشر، ورد في موقع rcinet.ca/ar الإلكترونيّ خبرٌ نصّه الآتي: «لم يصدّق شرطي في مدينة فانكوفر لبرهة ما رآه أمام عينيه عندما أوقف سيارة خلال دورية...». في هذا الخبر استُخدم تعبير «لبرهة» للدلالة على اللحظات القليلة المعودة، وهذا خطأ شائع، إذ إنه يدلّ على مدّة زمنية طويلة، لذلك كان يجب استخدام «لهنيهة».

8 - «إمكان» و«إمكانية»

في الثّاني عشر من شهر تشرين الثّاني عام ألفين وثمانية عشر، ورد في موقع IMLebanon.org الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه «برّي: إمكان الحل موجود... وربما قريباً جداً». هذا من الأخطاء الشائعة، إذ إن كلمة «إمكان» تعني الطّاقة والقوة أو المقدور، لذلك فإن الكلمة الأنسب للسياق هذا هي «إمكانية» أي احتمال.

وفي السّادس والعشرين من شهر شباط عام ألفين وأربعة وعشرين، ورد في موقع elnashra.com الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه «عز الدّين: المقاومة بكلّ ما تملك من إمكانيّات وقدرات وأسلحة متطورة هي بالمرصاد لأيّ حماقة إسرائيلية». المقصود بمعنى هذه الجملة «القدرات» لذلك كان يجب استبدال كلمة «إمكانيّات» بـ«إمكانات».

9 - «مشائخ» أم «مشايخ»؟

في السّادس والعشرين من شهر تشرين الثّاني عام ألفين وثمانية عشر، ورد في موقع Spa.gov.sa الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه «سمو قائد القوات المشتركة للتّحالف يلتقي مشايخ قبيلة خولان الطيال في اليمن». إن كلمة «شيخ» تُجمَع على «مشايخ» وليس «مشائخ»، وهذا من الأخطاء الشائعة في المواقع الإلكترونيّة الإخباريّة.

10 - «طرق» أم «طرائق»؟

في الثّاني عشر من شهر تشرين الثّاني عام ألفين وثمانية عشر، ورد في موقع

1 أحمد بن محمّد بن علي المقرّي الفيّومي، قاموس اللغة كتاب المصباح المنير، ص 587-586، مادّة عمد.

mawdoo3.com الإلكترونيّ مقال بعنوان «طرق التّعبير عن الذات». إن كلمة «طريق» تُجمَع على «طرق» أو «طرقات»، إذ إن «الطّريقُ: السبيل¹». أمّا كلمة «طريقة» فإنها تُجمَع على «طرائق». لذلك كان يجب القول «طرائق التّعبير عن الذات».

11 - ارتدى الحذاء أو انتعله؟

في الحادي عشر من شهر نيسان عام ألفين وتسعة عشر، ورد في موقع **Aljazeera.net** الإلكترونيّ العنوان الآتي: «... يفضل ارتداء حذاء باللون الأسود... وتجنبي ارتداء حذاء بنفس لون الملابس... يمكنك ارتداء حذاء بلون أحمر...». لا نقول «ارتدى الحذاء» بل «انتعل الحذاء»، فإن هذا من الأخطاء الشائعة التي يجب تجنّبها.

12 - «الكحول» مذكّر أم مؤنّث؟

في الرّابع والعشرين من شهر تموز عام ألفين وتسعة عشر، ورد في موقع **Sotor.com** الإلكترونيّ العنوان الآتي: «ما هي الكحول؟». هذا خطأ شائع، لأنّ كلمة «كحول» في صيغة المذكّر وليست في صيغة المؤنّث. يجب القول «هذا الكحول» لا «هذه الكحول»؛ فهو «سائل لا لون له، لاذع الطّعم، يُستخرَج من تخمير بعض الموادّ، يدخل في المشروبات الروحيّة، يُستعمل وقودًا ومطهّرًا²».

13 - ما معنى كلمة «أبدًا»؟

في الخامس والعشرين من شهر أيلول عام ألفين وتسعة عشر، ورد في موقع **Lebanondebate.com** الإلكترونيّ العنوان الآتي: «عطالله: لم أعرف أبدًا حقًا يشبهه حقد المأجورين». في هذه الجملة خطأ شائع يجب تفاديّه إن أمكن، ألا وهو استخدام كلمة «أبدًا» في سياق الرّمن الماضي. وهذا خطأ جسيم، لأنّه مع الماضي تُستخدَم كلمة «قطّ» أما «أبدًا» فمعناها «إلى الأبد»، أي حتّى نهاية الحياة.

14 - «مدارج» أم «مدرجات»؟

في الثّاني والعشرين من شهر آذار عام ألفين وتسعة عشر، ورد في موقع **Arabic**.

1 الصحاح في اللغة والعلوم، ص668، مادّة طرف.

2 جبران مسعود، الرّائد، ص1229، مادّة كذا.

cnn.com الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه «هذه أفضل 10 مدرجات هبوط ذات مناظر خلابة عن العام 2019». إن الطّريق الفسيح على أرض المطار الذي تدُرُّ عليه الطّائرات عند الهبوط أو الإقلاع هو مدْرَج لا مدرّج. ففي حين إنّ كلمة «مدرّج» تُجمَع على «مدرّجات»، فإنّ كلمة «مدرّج» جمعها «مدارج». فالمدرّج هو بناء نصف دائريّ يضمّ مقاعد طويلة دائريّة.

15 - هل نقول «ارتدى القبّعة»؟

في الثّاني عشر من شهر كانون الثّاني عام ألفين وعشرين، وردت في موقع **independentarabia** الإلكترونيّ الجملة الآتية: «ففي بريطانيا يرتدي الناس القبعات المتنوّعة بأشكال مبتكرة...». من بين الأخطاء الشائعة القول «ارتدى القبّعة»، أمّا الصّواب فهو «اعتمر القبّعة».

16 - «مسوّدة» أم «مسوّدة»؟

في الثّامن والعشرين من شهر كانون الثّاني عام ألفين وعشرين، ورد في موقع **aawsat.com** الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه: «مسوّدة قرار بريطانيّ في مجلس الأمن لوقف إطلاق النّار في ليبيا». إن كلمة «مسوّدة» أو «مسودّ» هي اسم مفعول للفعل «أسودّ». أمّا «المسوّدة» فهي «ما يكتب أو يطبع أوّل الأمر ليعاد مراجعته وتصميمه¹». لذلك، وجب القول «مسوّدة قرار» بتشديد الواو وليس الدّالّ.

17 - كيفية استخدام كلمة «كافّة»

في العشرين من شهر آذار عام ألفين وعشرين، ورد في موقع **aljouhouria.com** الإلكترونيّ الخبر الآتي: «قيادة الجيش تدعو كافة المواطنين إلى التّحلّي بالوعي والمسؤولية والتّشدّد في التزام منازلهم وتطبيق سبل الوقاية». الخطأ الشائع في هذا الخبر يكمن في استخدام كلمة «كافة» قبل «المواطنين»، كان يجب القول «تدعو المواطنين كافة».

18 - «عجوز» أم «عجوزة»؟

في الأوّل من شهر كانون الأوّل عام ألفين وعشرين، ورد في موقع **alalam.ir** الإلكترونيّ

1 نصار سيد أحمد وآخرون، المعجم الوسيط، ص516، مادّة المسموع- المثنوق.

خبرٌ عنوانه «قتل 26 امرأة عجوزة... القبض على قاتل متسلسل في تارستان». إن كلمة «عجوز» تُستخدَم في صيغتي المذكر والمؤنث، لذلك كان يجب أن يكون هذا العنوان كالاتي: «قتل 26 امرأة عجوزًا...».

19 - أيهما صحيح «إذ إن» أم «إذ أن»؟

في الثنائي والعشرين من شهر نيسان عام ألفين وعشرين، ورد في موقع **aljadeed.tv** الإلكتروني خبرٌ عنوانه «روحاني: انخفاض أسعار النفط لن يؤثر في طهران إذ أن اقتصادها أقل اعتمادًا على دخل الخام». من الأخطاء الشائعة استخدام «إذ أن»، لا بدّ من كسر همزة «إن» بعد «إذ».

20 - «هذا البلد» أو «هذه البلد»؟

في السادس عشر من شهر تشرين الأول عام ألفين وواحد وعشرين، ورد في موقع **raialyoum.com** الإلكتروني مقال معنون: «هل نصحي من حلم الوطن على حقيقة أنّ هذه البلد ليست بلدنا؟». قبل ذكر الخطأ الشائع، لا بدّ من الإشارة إلى أنّه إذا كان المقصود بالفعل «نصحي» «صحا» في زمن الماضي، فكان لا بدّ من استبدال الألف المقصورة بألف ممدودة (صحا، يصحو). أما إذا كان المقصود به «أصحي» فكان يجب أن يكون الحرف الأخير من الفعل ياءً لا ألفاً مقصورة (نصحي). أما الخطأ الشائع في هذه الجملة فيكمن في تأنيث كلمة «بلد»؛ ففي اللغة العربية الفصحى «البلد» مذكر وليس في صيغة التأنيث. لذلك كان لا بدّ من القول «هذا البلد ليس بلدنا».

21 - «رؤية» أم «رؤيا»؟

في العاشر من شهر تشرين الأول عام ألفين وواحد وعشرين، ورد في موقع **rasidnews.com** الإلكتروني العنوان الآتي: «دولة سمير الرفاعي والرؤيا الإصلاحية الشاملة بتوجيهات ملكية». هذا من الأخطاء الشائعة، إذ إن كلمة «رؤيا» تعني «تمثّل ما هو غير موجود، وذلك عن طريق الإحساس الرهيف، والخيال المُبدع...¹». لذلك، كان يجب أن تنتهي هذه الكلمة بالتاء المربوطة كالاتي «رؤية».

1 جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص134، مادة روي.

22 - «هذا الكتف» أو «هذه الكتف»؟

في السادس عشر من شهر آذار عام ألفين وواحد وعشرين، ورد في موقع **Arabic.rt.com** الإلكتروني خبرٌ عنوانه «الأم بالقرب من لوح الكتف الأيمن قد يكون علامة على أحد أنواع السرطان». في هذا العنوان خطأ شائع يتمثل في تذكير كلمة «الكتف»، إذ إنَّ «الكتف مؤنثة¹».

23 - «قارص» أم «قارس»؟

في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني عام ألفين واثنين وعشرين، ورد في موقع **aa.com.tr** الإلكتروني خبر اقتصاديٍّ عنوانه «البرد القارص يصعد بأسعار النفط عالمياً». في هذه الجملة خطأ شائع يكمن في استخدام كلمة «قارص» كنعت للمبتدأ «البرد». إن استعمال هذه الكلمة غير صائب، فالمراد هنا ليس إبراز عملية القرص بل الدلالة على شدة البرد، لذلك كانت تجب كتابة «البرد القارس» بالسين لا بالصاد.

24 - ما معنى «تواجد»؟

في التاسع عشر من شهر تشرين الثاني عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **arabic.rt.com** الإلكتروني العنوان الآتي: «كتائب القسام تستهدف منزلاً في منطقة جحر الديك تواجد فيه عدد كبير من الجنود الإسرائيليين». إن الفعل «تواجد» معناه «تظاهر بالوجود²» فهو يعبر عن الحزن والهَم في القلب، أما المقصود بهذا العنوان فهو الوجود. ورغم أن عددًا من المعاجم الحديثة يعرّف «التواجد» على أنه الوجود في مكان ما، إلا أنه يُستحسن استخدام الفعل «وُجد» بدلاً من «تواجد».

25 - استخدام «العديد» في سياق غير مناسب

في الثامن من شهر تشرين الثاني عام ألفين وثلاثة وعشرين، وردت في موقع **bbc.com** الإلكتروني العبارة الآتية: «كانت العديد من الدول داعمة لإسرائيل في البداية». كلمة «العديد» تدلّ على العدد وإن قلّ أو العدد الكثير أو النذّ والقرن، لذلك من الأفضل لو صيغت هذه الجملة على هذا النحو: «كانت دول عديدة داعمة...»،

1 محمد العدناني، معجم الأخطاء الشائعة، ص214، مادة كتب.

2 جبران مسعود، الرائد، ص469، مادة توأد.

أو القول «كان عددٌ من الدّول داعماً».

26 - «الذراع» مذكر أم مؤنث؟

في الحادي عشر من شهر تشرين الأوّل عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **bbc.com** الإلكترونيّ ما يأتي: «هو محمد دياب المصري (...) يتزعم كتائب عز الدّين القسام، الدّراع العسكري لحركة حماس...». في هذه الجملة خطأ شائع يتمثّل في تذكير كلمة «ذراع»، إنها مؤنثة. لذلك، كان لا بدّ من القول «الذراع العسكرية».

27 - كلمة «بئر» مذكرة أم مؤنثة؟

في الخامس عشر من شهر تشرين الأوّل عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **misbar.com** الإلكترونيّ العنوان الآتي: «هل يمكن معرفة عمق البئر الارتوازي؟». إن تذكير كلمة «بئر» خطأ شائع، إنها مؤنثة. كان يجدر القول: «البئر الارتوازية».

28 - هل عبارة «ناهيك عن» صحيحة؟

في الثّالث من شهر تشرين الأوّل عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **imlebanon** الإلكترونيّ ما يأتي: «... خلو السّاحة السّياسيّة من أي مؤشرات... ناهيك عن التّصعيد السّجاليّ والإعلاميّ...». استخدام «ناهيك عن» خطأ شائع، يجب القول «ناهيك ب».

1- «لصالح» أو «لمصلحة»؟

في الثّالث والعشرين من شهر أيار عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **France24.com** الإلكترونيّ العنوان الآتي: الانتخابات الرّئاسيّة التّركيّة.. هل حسمت المعركة الانتخابيّة لصالح أردوغان؟». من الأخطاء الشّائعة استخدام كلمة «صالح» في سياق كهذا، إذ إنّ الصّالح «ضدّ الفاسد والقائم بما عليه من حقوق العباد وحقوق الله تعالى. وهو صالحٌ لكذا أي له أهليّة القيام به¹». لذلك، يجب اعتماد ملفوظة «مصلحة».

2 - ما جمع كلمة «مدير»؟

في السّادس والعشرين من شهر آب عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع

1 بطرس البستاني، محيط المحيط، ص515، مادّة صلح.

almodon.com الإلكترونيّ العنوان الآتي: «مدراء المدارس يسألون الحلبي لمواجهة اليونيسيف...». إنّ كلمة «مدير» تُجمع جمع مذكّر سالمًا لا جمع تكسير. وهذا خطأ شائع، لذلك يُقال «مديرو المدارس» في حالة الرفع و«مديري المدارس» في حالتي النصب والجرّ.

3 - استخدام كلمة «كلما»

في الثّالث والعشرين من شهر تشرين الأوّل عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **Sputnikarabic.ae** الإلكترونيّ ما يأتي: «... وكلما زاد عدد هذه الخطوات الاستباقية من جانب أي دولة، كلما زاد الخطر...». من الأخطاء الشائعة جدًّا تكرار كلمة «كلما» مرتين في الجملة الواحدة، يجب استخدامها مرةً واحدة. لذلك كان يجدر القول «وكلما زاد عدد هذه الخطوات... زاد الخطر».

4 - ما الصحيح، «مبارك» أم «مبروك»؟

في التّاسع عشر من شهر تشرين الثّاني عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع الوكالة الوطنية للإعلام الإلكترونيّ **nna-leb.gov.lb** العنوان الآتي: «أحمد الحريري: مبروك فوز الصديقيين سامي الحسن وابراهيم حرفوش». كلمة «مبروك» يمثّل استخدامها خطأ شائعًا، إذ إنّها اسم مفعول من الفعل «برك». «بَرَكَ بُرُوكًا: استنسخ، أي ألصق صدره بالأرض، بَرَكَ الجَمَلُ¹». لذلك يجب القول «مبارك» لا «مبروك».

5 - استخدام كلمة «مؤخرًا»

في الثّالث من شهر تشرين الثّاني عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **dw.com** الإلكترونيّ العنوان الآتي: «ما السرّ وراء انخفاض مستوى مانشستر يونايتد مؤخرًا؟». هذه الجملة تحوي خطأ شائعًا ألا وهو استخدام كلمة «مؤخرًا»، أمّا الصّواب فهو استعمال كلمة «أخيرًا» أو عبارة «في الآونة الأخيرة» على سبيل المثال.

6 - ما الصّواب، «تزوج بـ» أم «تزوج من»؟

في الثّاني عشر من شهر تموز عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع صحيفة الشرق الأوسط الإلكترونيّ **aawsat.com** العنوان الآتي: «خدعهنّ عبر الإنترنت...»

1 مجموعة مؤلفين، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ص84، مادة برفح-بركان.

اعتقال هندي تزوج من 15 امرأة». في هذه الجملة خطأ شائع يكمن في القول «تزوج من»، الصحيح أن نقول «تزوج 15 امرأة» أو «تزوج بـ15 امرأة».

7 - أيها صحيح، «أخصائي» أم «مختص» أم «مختصص»؟

في الثالث من شهر كانون الأول عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **masrawy.com** الإلكتروني العنوان الآتي: «كيف تحصل على فيتامين د في فصل الشتاء؟ أخصائية تغذية تكشف». من الأخطاء الشائعة جداً استخدام كلمة «أخصائي» أو «أخصائية»، لذلك يُستحسن استخدام كلمة «اختصاصي» أو «مختص».

8 - هل عبارة «بعضهم البعض» صحيحة؟

في الثامن عشر من شهر حزيران عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **Sadaalwatan.com** الإلكتروني العنوان الآتي: «لنا رأي: هل من مصلحة العرب في دير بورن التحريض ضد بعضهم البعض؟». من الأخطاء الشائعة استخدام تعبير «بعضهم البعض» من خلال تتابع هاتين الكلمتين من دون ما يفصل بينهما. فكان يجدر القول: «تحريض بعضهم ضد بعض» أو «تحريض بعضهم على بعض».

9 - هل كلمة «رفات» مذكرة أو مؤنثة؟

في الثالث من شهر حزيران عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **France24.com** الإلكتروني العنوان الآتي: «المكسيك: السلطات تعثر على 45 كيساً يحتوي على رفات بشرية». إضافة إلى أنه بعد عبارة «45 كيساً» كانت تجب كتابة «تحتوي» أي أن الأكياس تحتوي، لا بدّ من الإضاءة على خطأ شائع جداً ألا وهو تأنيث كلمة «رفات»، فـ «الرُفَات: الحُطَام¹». لذلك، يجب القول «رفات بشري».

10 - ما معنى «سويّاً»؟

في الثامن من شهر أيار عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع **aljadeed.tv** الإلكتروني الخبر الذي نصّه: «شهدت محافظة الدقهلية شمال مصر حادثاً مأساوياً، عندما قفز شاب في نهر النيل لإنقاذ خطيبته من الغرق فماتا سوياً». المقصود بالخبر هذا أنّ الشاب وخطيبته كليهما مات، وعليه كان يجدر أن يُقال «ماتا معاً»، لأنّ من

1 محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، ص130، مادة رفاً.

معاني كلمة «سويّ» المعتدل، العادي، الوسط.

11 - ما الأصحّ «عاني الأمر» أم «عاني منه»؟

في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع Skynewsarabia.com الإلكترونيّ خبر بعنوان «عاني من صداع وفقدان بصر... رجل يكتشف مفاجأة داخل جمجمته». يفضّل القول «عاني صداعًا وفقدان بصر»؛ إذ إنّ الفعل «عاني» يتعدّى بنفسه وليس بحرف الجرّ.

12 - استخدام كلمة «نفس» للتوكيد

في الرابع عشر من شهر تشرين الأول عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع dw.com الإلكترونيّ الخبر الآتي: «أعلنت المفوضية الأوروبية عن رفع مساعداتها الإنسانية... كما عبرت في نفس السياق...». من المستحسن القول «في السياق نفسه»، لأن كلمة «نفسه» توكيد معنوي.

13 - ما معنى الفعل «نوّه»؟

في الخامس عشر من شهر كانون الأول عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع alghad.tv الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه «البيت الأبيض: سوليفان نوه إلى جهود واشنطن لردع أي محاولة لتوسيع الصراع في غزة إقليمياً». من الخطأ القول «نوّه إلى» بمعنى «أشار إلى». فالفعل «نوّه» يعني «رفع ذكره وعظمه» أو «أشاد به وأظهره»، لذلك كان يجدر القول «سوليفان أشار إلى جهود...» أو «نوّه بجهود...». إذ إنّ معنى «نوّه: الشخص: مدّح أفضاله وأفعاله، أشاد به، دعاه باسمه بصوت عالٍ¹».

14 - هل يجوز القول «وصل المكان»؟

في الخامس من شهر نيسان عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع aa.com.tr الإلكترونيّ خبرٌ عنوانه «حماس: إسماعيل هنية يصل العاصمة اللبانية بيروت». يكمن الخطأ الشائع في هذه الجملة في القول «وصل العاصمة اللبانية بيروت»، إذ من الخطأ القول «وصل المكان»، فالصواب القول «وصل إلى المكان»، لذلك كان يجب أن يكون العنوان كالاتي «وصل إلى العاصمة اللبانية بيروت».

1 نصار سيد أحمد وآخرون، المعجم الوسيط، ص595، مادة نَوَّلَ - النّيون.

15 - ماذا بخصوص دخول أداة التعريف «أل» على المضاف؟

في الرَّابِع من شهر أيلول عام ألفين وثلاثة وعشرين ورد في موقع gate.ahram.org.eg الإلكتروني خبرٌ بعنوان «منح لاعب السلة الأمريكي باتريك يوسف جاردنر الجنسية المصريّة»، جاء في نصّه ما يأتي: «وجاء في نص القرار رقم 1432 لسنة 2023: يعتبر باتريك يوسف جاردنر - الأمريكي الجنسية... متمتعًا بالجنسية المصرية...». يتمثّل الخطأ الشائع في إضافة «أل التعريف» إلى كلمة «أمريكي»، مع أن هذه الأخيرة مضاف وبالتالي «الجنسية» مضاف إليه، إذ من المستحسن عدم تعريف المضاف هنا.

16 - «لا زال» و«لا يزال»

في الثَّالِث من شهر آب عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع almanar.com.lb الإلكتروني خبرٌ عنوانه: «الهدوء لا زال سيد الموقف في مخيم عين الحلوة». يتمثّل الخطأ الشائع في استخدام الفعل «لا زال»، كان يجدر القول «لا يزال» أو «ما زال» لأنهما من أفعال الاستمرار.

17 - «ضروس» أم «ضروسة»؟

في الثَّامِن عشر من شهر تشرين الثَّانِي عام ألفين وثلاثة وعشرين، ورد في موقع aliwaa.com الإلكتروني مقالٌ عنون «كفى صراعات وقتل وحروب ضروسة.. إتقوا الله». إضافة إلى الأخطاء النحوية المتمثلة في عدم نصب كلمتي «قتل» و«حروب» مع العلم أن كلاً منهما تمييز منصوب - وكتابة الهمزة تحت الألف في الفعل «اتقوا» مع أنه خماسي، إن كلمة «ضروس» تُستخدَم كما هي من دون كتابة تاء مربوطة في نهايتها في صيغة المؤنث.

18 - «أكد» و«أكد على»

في الرَّابِع والعشرين من شهر آذار عام ألفين وأربعة وعشرين، ورد في موقع Sabanew.net الإلكتروني خبر عنوانه الآتي: «رئيس الوزراء يؤكد على إيجاد شراكة حقيقية مع الأمم المتحدة...». من الأخطاء الشائعة القول «أكد على الأمر»، إذ إنه يجب القول «أكد الأمر» أو «شدّد على الأمر».

في الرَّابِع والعشرين من شهر شباط عام ألفين وأربعة وعشرين، ورد في موقع mc-doualiya.com الإلكتروني خبْرٌ عنوانه «تونس: حكم بالسجن 8 سنوات على الرئيس الأسبق منصف المرزوقي...». إذا بحثنا في أي معجم يتبيّن لنا أن كلمة «أسبق» تعني «أول» فإذا قلنا «أنا أسبق منك» فإننا نقصد بها «أنا قبلك»، لذلك كان يجب القول «... الرئيس السابق منصف المرزوقي...».

الاستنتاج

سلط هذا البحث الضوء على الأخطاء الشائعة في المواقع الإلكترونية الإخبارية. صحيح أنّ هذا الموضوع ليس بجديد، إذ إنه عولج مرّاتٍ ومرّاتٍ في دراسات ومقالات كثيرة، حتّى أنّ مؤلّفات صدرت بشأنه. بيد أنّ ما وددت أن أوصله إلى القراء هو أن هذه الأخطاء التي شاعت في وسائل الإعلام، وأخصّ هنا تلك المكتوبة- مع أن المرئية منها تشكّل للأسف الشديد منبراً لا يُستهان به لنشرها- وتحديدًا المواقع الإلكترونية الإخبارية، لا تزال تنتشر كالنار في الهشيم بأنّه لغةٌ خاصّةٌ بها هي أبعد ما تكون عن اللّغة العربيّة الصحيحة السليمة، وفي نهاية المطاف يترسّخ في أذهان الناس معجمٌ يضمّ لا شيء سوى الأخطاء التي نصادفها في وسائل الإعلام كافّةً ومنها المكتوبة ولا سيما الرّقميّة، فتتناقلها الألسن وتشكّل ثقافةً قديمةً جديدةً يظنّ كُنْزٌ أنّها صائبة فيستخدمونها ويعتمدونها أينما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً والأخطر من كلّ ذلك أنهم يعتقدون أن تجنّبها هو الخطأ بعينه. وبذلك، فإنهم يضحون بمنأى عن اعتماد المصطلحات الصحيحة، ويغرقون في مستنقع الأخطاء التي لا تعرف نهايةً لها، فيشوّهون اللّغة العربيّة الصحيحة وبيتدعون أخرى جديدةً متوهّمين أنها لغتنا العربيّة.

لائحة المصادر العربيّة

1. أحمد سيد نصار، محمد مصطفى، درويش محمد، عبدالله أيمن، المعجم الوسيط، بيروت، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2014.
2. البستاني بطرس، محيط المحيط، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، لا ط، 1998.
3. العدناني محمّد، معجم الأخطاء الشائعة، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2008.
4. الرازي بن عبد القادر بن أبي بكر محمد، مختار الصحاح، عمّان، دار عمّار، ط9، 2005.
5. الفيومي المقرئ بن علي محمّد بن أحمد، قاموس اللّغة- كتاب المصباح المنير، ج4، نوبليس، لا ط، لا ت.
6. مجموعة مؤلّفين، المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة، بيروت، دار المشرق، ط3، 2008.
7. مسعود جبران، الرّائد، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1964.
8. مرعشلي نديم، مرعشلي أسامة، الصّاح في اللّغة والعلوم- معجم وسيط، بيروت، دار الحضارة العربيّة، ط1، 1975.
9. عبد النور جيّور، المعجم الأدبي، بيروت، دار العلم للملايين، لا ط، لا ت.

لائحة المواقع الإلكترونيّة

1. Arabic.rt.com
2. Bbc.com
3. Sotor.com
4. Misbar.com
5. Independentarabia.com
6. Aljazeera.net
7. Imlebanon.org
8. France24.com
9. Almodon.com
10. Sputnikarabic.ae
11. Nna-leb.gov.lb
12. Dw.com
13. Aawsat.com
14. Masrawy.com
15. Lebanondebate.com
16. Sadaalwatan.com

- 
17. Raialyoum.com
 18. Almanar.com.lb
 19. Arabic.cnn.com
 20. Rasidnews.com
 21. Aljadeed.tv
 22. Omandaily.com
 23. Aljarida.com
 24. Youm7.com
 25. Skynewsarabia.com
 26. Alqabas.com
 27. Aa.com.tr
 28. Aljournhouria.com
 29. Aletihad.ae
 30. Alghad.tv
 31. Elsport.com
 32. Gate.ahram.org.eg
 33. Rcinet.ca
 34. Sabq.org
 35. Almodon.com
 36. Naharnet.com
 37. Arab48.com
 38. Elnashra.com
 39. Sabanew.net
 40. Mc-doualiya.com
 41. Spa.gov.sa
 42. Mawdoo3.com
 43. Alalam.ir
 44. Aliwaa.com

بلاغة اللّغة وجماليّة الإيقاع في شعر الوطن عند الشّاعر فضل مخدّر

قراءة نموذجيّة لظاهرة الإيجاز والإطناب والمساواة في ديوان «صلة تراب»¹.

La rhétorique et l'esthétique du rythme dans la poésie patriotique de Fadel Moukhadder – Une lecture analytique des phénomènes de concision, d'amplification et d'équivalence dans le recueil «Silat Turāb» (Liens de terre)

حنان مطر

Hanan Matar

تاريخ القبول 2024 /4/5

تاريخ الاستلام 2024 /7/22

الملخّص

قراءة نموذجية في بلاغة اللّغة وجمالية الإيقاع في شعر الوطن عند الشّاعر فضل مخدّر، تتناول ظاهرة الإيجاز والإطناب والمساواة. اختيرت النماذج الشعرية المقروءة من خمس قصائد من ديوان «صلة تراب»، دُرست فيها إلى جانب الظّاهرة الأنموذج، موارد الاستخدام النحوي البارز الذي أثرى المعنى في هذه الظّاهرة، وكذلك دُرست نماذج من المعجم المستخدم، وحركة الضّمير، وعناصر الإيقاع الدّاخليّ والخارجيّ، وما إلى ذلك ممّا يمكن أن يُرصد في التّأويل الدّلالّي المحتمل الذي يفضي في النّتيجة إلى تحفيز مشاعر الاعتزاز بالوطن والفخر بمقاومته وبطولاته وأمّجاده.

الكلمات المفاتيح: الإيجاز، الإطناب، المساواة، الحذف، الإيقاع، الوطن، المقاومة، الفخر، النّورة، الحرّيّة، الظلم، الحياة...

Résumé

Cette étude propose une lecture analytique de la rhétorique et de l'esthétique du rythme dans la poésie patriotique du poète Fadel

¹ ديوان صلة تراب: فضل مخدّر، ديوان الكتاب للثقافة والنشر، بيروت، ط2، 2009م.

Moukhadder, en se concentrant sur les phénomènes de concision, d'amplification et d'équivalence. Les poèmes étudiés sont tirés de cinq œuvres du recueil «Silat Turāb» (Liens de terre). Outre ces phénomènes, l'étude porte également sur l'usage saillant de la syntaxe qui enrichit le sens dans le contexte des phénomènes, et analyse des échantillons du lexique utilisé, l'usage des pronoms et les éléments du rythme interne et externe, ainsi que d'autres aspects similaires qui peuvent être observés dans l'interprétation sémantique potentielle, visant tous à susciter un sentiment de fierté patriotique, valorisant la résistance, les exploits et la gloire de la nation.

Mots-clés

concision, amplification, équivalence, omission, rythme, patrie, résistance, fierté, révolution, liberté, injustice, vie.

تؤدّي اللّغة دورًا تعبيرياً تواصلياً في المجتمعات الإنسانيّة، يستعملها الناس في حياتهم اليوميّة وسيلةً تواصلٍ ضرورية، ويلجأ إليها المبدعون منهم، يأخذون منها النواة المتشكّلة من القواعد النحوية، ويضفون عليها من قرائحهم المتشكّلة من الصّورة البلاغية والإيحائية، وهذا ما يسمها بـ«اللّغة الإنسانيّة» عند الحديث عن ماورائيتها.

وفي حديثنا عن الأدب في مرسلّة ما، تأتي هذه اللّغة إمّا نثرًا يحمل رسائل بطابع فني مؤثّر، وإمّا شعراً. ويعدّ الشعر من أرقى الفنون التعبيرية، بما له من أثر في العقل والنفس معاً، ووجه التباين بين اللّغة النثرية واللّغة الشعرية، أنّ اللّغة الشعرية تلجأ إلى التعبير المنزاح، فهي «لا تمنح ذاتها بنفس الكيفية التي تهينا إياها اللّغة النثرية»¹. والمتلقّي «العميق»، ذو الذائقة الأدبيّة، هو من تجذبه بلاغة الكلمة وسحر معناها، فكيف إذا ما كان هذا المعنى يعبر عن موضوع من أهمّ الموضوعات التي تتصدّر العالم اليوم بأهميته الحاكمة، زماناً ومكاناً، وأعني به موضوع الوطن وقضاياه الكبرى!

هنا، يصبح حريّاً بنا، بل قد يكون من واجبنا، أن نضيء على نتاج شعراء اغترفوا من بحور الشعر واللّغة والأدب ما استطاعوا، ليرووا ميادين المقاومة الغارقة بدم الجراح والشهادة، يروونها بحبرهم، منتصرين لها بـ«أدب المقاومة». نتاج هؤلاء، الشعراء، فيه من الإبداع والجمال ما يسم لغتهم بالزّاقية و«السّاميّة» حدّ الخيال، بل فيه ما يسمها

1 النص واستراتيجية التأويل، دال للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2014م ص 56.

بسمه الخلود.

حريّ بنا، إذًا، أن نضيء على تجربة شعراء، قدّموا قضية الوطن بلغة إبداعية تحكي أسمى المشاعر الإنسانيّة وأنبأها وأصدقها، ومن هؤلاء المبدعين، الشّاعر فضل مخدّر، الذي يُدهش المتلقّي بفرادة لغته وعذوبتها، فيغدو غارقًا في وجدانيّة شعريّة غير مُدرّكة. لا شكّ، عزيزي القارئ، في أنّك تسأل الآن: ما هي مظاهر البلاغة والجمال في لغة الشّاعر فضل مخدّر؟! وكيف عبّر بها في شعر الوطن والمقاومة في قصائده؟ وما هي الظواهر اللّغويّة البارزة في شعره الوطنيّ؟

وقبل الشّروع في الإجابة عن هذه الأسئلة، أو محاولة الإجابة عنها، لا بدّ من الإشارة إلى أنه لا يمكن الإتيان على ذكر الظواهر جميعها في ديوان الشّاعر مخدّر، إذ فيه من الإيجاز والإطناب والمساواة، والخبر والإنشاء، والفصل والوصل، والتّقديم والتّأخير وغيرها كثير كثير، ما لا يتسع المجال لتناولها في صفحات هذا البحث وفي هذه العجالة، لذا، سيكتفى بطرق ظاهرة الإيجاز والإطناب والمساواة، في أبيات مختارة من قصائد شعر الوطن والمقاومة في ديوان «صلة تراب»، اخترتها من قصائد: «عروس من غفار»¹، «صلة تراب»²، «قطاف ودم»³، و«نشوة الأرض»⁴. وقد يكون من أكثر المباحث صعوبةً في مكان، أن يقف الباحث على قصيدٍ يتخصّصُ بلاغة الإيجاز فيه، ذلك أنّ عليه أن يكون حاذقًا في رصده البنى اللّغويّة في مخالفتها للمألوف، وفي الوقت نفسه، عليه أن يكون يقظًا في تلقّف المعاني المرجوة والتوليف بينها، فيردّ مواطن هذا الإيجاز، مميزًا بين إيجاز القصر، ذي المعاني الواسعة الكثيفة، التي يمكن تأويل دلالاتها مباشرةً، وإيجاز الحذف الذي عليه تحديد المحذوف فيه، ثمّ القصدُ إلى تبيين دلالاته المحتملة.

يقول الشّاعر في قصيدة «صلة تراب»:

قسوة الدهر أن يُلقّك ليلٌ وبك المجدُ مُنبعُ الإشراقِ⁵ [الخفيف]

1 القصيدة الثالثة في الديوان. ص 19

2 القصيدة الرابعة في الديوان. ص 29

3 القصيدة الخامسة في الديوان. ص 37

4 القصيدة السادسة في الديوان. ص 45

5 البيت 15. ص 34

مصورًا لنا حالة الظلم صورةً قائمةً سوادَ الليل، فقد جاء في صدر البيت بتركيب مكتمل المبنى والمعنى: «قسوة الدهر أن يلفك ليلٌ»: مبتدأ + مضاف إليه + خبر (أن) وما بعدها مؤولة بمصدر)، وجاء في العجز بجملةٍ حاليةٍ: «وبك المجدُ منبعُ الإشراق»، وهي أيضًا مكتملة المبنى والمعنى: جار ومجرور + مبتدأ + خبر + مضاف إليه، فإذا ما تأملنا بعينٍ بلاغيةٍ، أمكننا ذلك من توسيع المعنى، فالحديث هو عن شكوى حال الظلم، فيه نقرأ «قسوة الدهر» ألمًا ممتدًا، يحمل من «قسوة» صفة مرفوضة معجميًا في العقل والتفكير الإنساني السليم، مضافًا إليها صفة الثبات والديمومة من المحمول الدالّ عليها في «الدهر»، أما جملة «أن يلفك ليلٌ» المصدرية، فهي تختصر حكاية الإنسان المحاصر بالسواد المشؤوم، وهي في الموقع الإعرابي خبر المبتدأ المضاف (قسوة الدهر). أما الحديث عن سبب هذه الحالة، ففي الجملة الحالية «وبك المجدُ منبعُ الإشراق»، أي: وأنت صانع المجد المشرق، أو باعث إشراقه، فالمجد، بمحموله الإنساني، يعتز به الإنسان ويتباهى، وأنه لمن الظلم أن يُحاط بهذه الظلمانية وهذا المجدُ فيه، ويفتتا هنا ضمير المخاطب المفرد (الكاف) في الفعل المضارع (يلفك)، والحرف المجرور بحرف الجر (بك)، اللذان أضفيا قوةً إلى الخطاب، إذ يوحيان بضرورة النهوض والتحدّي والمواجهة، وبخاصةً أنّ شطري البيت وردا في تقابل ضديّ بين سلب الحياة (قسوة الدهر أن يلفك ليلٌ)، والإيجاب فيها (وبك المجدُ منبعُ الإشراق)، فيصبح المتلقّي بينهما في توثّب فكريٍّ ومعنويٍّ لاستخلاص العبرة من خلال الوقوف على الوجهين، ولا يمكننا هنا أن نهمل دور التقديم والتأخير الحاصل في عجز البيت، في إغناؤه الجانب الموسيقي، حيث إنّ أصل التركيب هو: «والمجد منبعُ الإشراق بك»، وقد قدّم الجار والمجرور على كلّ ما سواه، تحفيزًا للعاطفة وإثارةً للمعنى المبحوث عنه، ثم إنّ هذا الانزياح في التركيب جعل رويّ القاف منسجمًا في منظومة الروي في القصيدة كلها.

يقول الشّاعر في بيت آخر من القصيدة:

يا رفاقَ العراقِ لحنٌ تسامى ليغنيّ القلوبَ لحنُ الرفاقِ¹

يفتتحه بجملةٍ إنشائيةٍ طلبيةٍ بأسلوب النداء «يا رفاق العراق» ويتبع نداءه بجملة اسمية مبتدؤها محذوفٌ (أنتم) والخبر «لحن»، وتقدير الكلام فيها (أنتم لحنٌ تسامى)، فلأنه

1 البيت 23. ص 35

يستعجل بالثناء على الرفاق جاء بالخبر مباشرةً، حاذقاً المبتدأ إيداناً بسرعة وصول التعبير المرجو، وبخاصةً بعد ندائه لهم في مطلع البيت، وكأنه لا يطيق صبراً لإخبارهم بكيفية شعوره تجاههم، أو أنه لا يريد لهم الانتظار، وقد جاءت الجملة الفعلية النعتية (تسامى) خير دليل على عظمة ما يراه فيهم من شأنٍ ومقام. ثم إنّه في ما أتبعه في عجز البيت «لحنُ الرفاق» يلجأ مرةً ثانيةً إلى الحذف، لكنّ المحذوف هنا هو الخبر، فنقدير الكلام هو: لحن الرفاق (هو الأجل)، أو (هو الأسمى)، أو غير ذلك من الأخبار المدحية السامية، وكأنما الثقة تحدوه إلى هذا الحذف، فبعد ما بيّنه في الكلام السابق من سمات العظمة والسمو، ها هو ذا يكتفي بذكر المبتدأ المضاف (لحنُ الرفاق)، أو ربما كان سبب هذا الحذف اعتباراً شريف المعنى، بأنّ هؤلاء الرفاق الذين جعلهم لحنًا متساميًا، هم لحن الحياة، بما تشي به كلمة «رفاق» المتكررة مرتين من فكرة «الديمومة»، إذ إنّ الحياة هي البقاء، والرفاق هم الأصحاب الدائمون دوام الحياة. وضمن هذا البيت فعلان، أحدهما بصيغة الماضي (تسامى)، والثاني بصيغة المضارع المنصوب (ليغني)، نقرأ في «تسامى» إعجابًا وحسًا مرهفًا، إذ هو - هذا الفعل - نعتٌ لصيقٌ بـ«لحن»، يعضده بما يحمله الزمن الماضي من إحالةٍ إلى معنى الموروث المتغنى به، ونقرأ في «يغني» الرضى بالحاضر المعيش عبر لام التعليل قبله. ولقد جاء الامتداد الصوتي ممثلًا بالألف، في خدمة هذا التعبير، فهو يوحي بانبعث لحن حبّ ورضى مع أولئك الرفاق، حتى ليغدو المتلقّي تائقًا إلى معرفة هويتهم. ونلاحظ هنا استخدامًا للتكرار الذي جاء متوائماً مع هذا المعنى (رفاق، الرفاق/ لحن، لحن)، وهو بمنزلة توثيق له، كما لا يخفى على الأذن ذلك الصوت المنبعث من جملة «لحنٌ تسامى»، وجملة «يغني القلوب»، وكأنّ اللحن في صعود لا متناهٍ يؤمّنه مدّ الألف المتكرّر في «تسامى»، ومدّ الياء في «يغني»، ومدّ الواو في «القلوب»، وكذا في المعنى المتأني من «لحن»، و«يغني»، إذ يوحيان بحالةٍ من الطرب وإسعاد القلوب. وليت الشاعر اكتفى بهذا فحسب، فإذا به في استخدامه تفعيلات بحر الخفيف قد أحدث عند المتلقّي انجذاباً راقياً، من خلال تسارع هذه التفعيلات، التي بدت منسجمة مع الكلمات المحمولة بإيجاز وخفةٍ ضمن هذين البيتين.

وإذا ما انتقلنا إلى الإضاءة على بلاغة الإطناب، نلاحظ أنّ الشّاعر قد لجأ إليه بكثرة في ديوانه، ولا بدّ من أنّ له فيه مقاصد متجلية وخفية. ولا يخفى علينا أنّ الإطناب هو ممّا يلجأ إليه المبدعون، لما فيه من راحة أحياناً، إذ إنه «أرجح عند بعضهم من الإيجاز، وحقته في ذلك أنّ المنطق إنّما هو البيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والإشباع لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعاني. ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة، إلا بالاستقصاء والإطناب»¹.

يقول الشّاعر في قصيدة «قطاف ودم»: [الخفيف]

لا تلمني لنشوتي وغروري فغديرُ الخلودِ بعضُ غديري
تتهادى على يديّ القوافي تكتسي دفاً أنملي وسطوري
فأنا أوقدُ النّجوم بكفي ورعى الشمسِ موقدي وسعيري
عشتُ عمري على ظلالِ الأمانى أرتجي الشعرَ بين نارٍ ونورٍ²
منّ لشعري أنا الجنوبُ يغني بدمِ القدسِ موعدَ التحريرِ
لفلسطينَ في ترابي مواعيد دُ قطافٍ لكرمها المأسور³
في البيت الأول:

لا تلمني لنشوتي وغروري فغديرُ الخلودِ بعضُ غديري

ينطلق الشّاعر من أسلوبٍ إنشائيّ طلبيّ، وكأنه يبرّر حالته في النشوة والغرور (لا تلمني لنشوتي وغروري)، وهذا ما يستدعي جهداً شعورياً وفكرياً لمعرفة غاية الشّاعر، فالمعنى ليس معلوماً بعد، وإذ ينتقل إلى عجز البيت: (فغدير الخلود بعض غديري)، يزداد المتلقي عجباً، فالشّاعر يأتي بهذه الكلمات في إطار فخرٍ متعمّد؛ إنّ الغدير هو ما يرده الناس، وهو رمز الماء والانبعاث، يعبر عن الحيوية والاستمرارية، وفي إضافته إلى «الخلود» قوة إحياء، فالشّاعر يرى بأنّ «غدير الخلود» بعض غديره هو؛ ويتضح

1 الهاشمي، أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيدع والبيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط12، (د.ت)، ص 233 - 234.

2 الأبيات: 1 إلى 4. ص 39

3 البيتان: 8 - 9. ص 40

الأمر إذا ما لاحظنا أن في هذا الكلام إطناباً تتميمٌ قصد فيه الشاعر المبالغة وتعظيم شأنه، وكذا جاءت كلمة «بعض» بهذا المعنى، أي في سياق المبالغة، تأكيداً من الشاعر على ما بدأ به من زخْمٍ في مطلع القصيدة. وفي البيت الثاني تصريحٌ واضح بعد ما أعلنه الشاعر: الشعر ممثلاً بـ «القوافي» متهادٍ على يديّ الشاعر، يخرج بحلته من دفء أنمله:

تتهادى على يديّ القوافي تكتسي دفءً أنملي وسطوري

ونجدُ في هذا البيت إطناباً تذييل، وصف الشاعر قوافيه في صدر البيت، فجعلها سهلة البلوغ بالنسبة إليه (تتهادى على يديّ القوافي)، لكنّه عقّب في العجز بما يؤكّد هذه الانسيابية في شعره بجملة حالية (تكتسي دفءً أنملي وسطوري)، فالإياء في الفعل (تكتسي)، ضمير المفرد المؤنث الغائب، تعود إلى «القوافي»، متهاديةً على يديّ الشاعر مجازاً، وما تكتسيه هو دفء أنمل هاتين اليدين، على السطور التي خطّناها، فالمعنى إذاً تأكيدياً، حرص الشاعر من خلاله على تقديم وصفٍ رقيقٍ لشعره، أما في كلمة «سطوري» فإننا نقرأ إطناباً تتميم، يمنح الكلام قوة معنوية، باستخدام أحد عناصر معجم صناعة التأليف والكتابة، ويتابع الشاعر في البيت الثالث ضمن السياق نفسه، لكنه هذه المرة يتعالى إلى حدود النجوم وما فوق فوق، إلى الشمس:

فأنا أوقدُ النجوم بكفي ورعى الشمس موقدي وسعيري

وتتجلى فنية التصرف في بداية هذا البيت، عبر مجيئه بالفاء التفسيرية التي تفسّر كلاماً سابقاً، ولنا هنا أن نرجع هنيهةً إلى الوراء، فنرى أنّ عجز البيت السابق (تكتسي دفءً أنملي وسطوري)، الجملة الحالية (الإطنابية) المعبرة عن دفء مشاعر المرسل، مرتبطةٌ بصدر هذا البيت ارتباطاً وثيقاً، وكأنه تولّد معنويّ عكسيّ، من النتيجة إلى السبب، فمجيء شعره بهذه الحميمية الملتهبة في البيت السابق، يبدو كأنه بسبب هذه القدرة التي يطال بها الشاعر النجوم، بل يوقدها (فأنا أوقدُ النجوم بكفي)، ولا يفوتنا هنا أنّ النجوم تُحيل إلى زمن الليل، وهي بالفعل المضارع (أوقد) حاملة لمعنى رفض الحاضر المظلم، واستشراف مستقبلٍ مشرقٍ مضيء. على أنّ الإطناب هنا حاصلٌ أيضاً في الجارّ والمجرور (بكفي)، وقد يكون هذا الإطناب بالذات رمزاً إلى شعر الشاعر المفتخر، فهو يوقد النجوم بهذه الكفّ، لا بشيءٍ آخر، ولقد كان بإمكانه أن يكتفي بقوله

«فأنا أوقدُ النّجوم»، بيد أنّ هذا الاستخدام للجاءِ والمجرور مع ضمير المتكلم (بكفي)، منح المعنى قوة إحياء بقدره الشّاعر وفاعليته، وزاد الكلام حسناً. واذ يُردف الشّاعر في العجز بـ«ورحى الشّمسِ موقدي وسعيري»، فإننا نلحظ إصراراً عجيباً منه، فهو في هذه الجملة قد أتى بإطناب تذييل، ويبدو أنه لم يكتفِ بكونه يشعل النّجوم بشاعريته الخلاقة، فإذا به يفعل ذلك بين رحى الشمس مخضّعا إياها، فتغزو موقده وسعيره، ونلمح في استحضار الشمس، تفاعلاً وأملاً، فالشمس في توهجها ضياءً يعطي الحياة، وقد جعلها الشّاعر مصدرَ شعوره وأشعاره، متعالياً، لا يعترضه عارضٌ في هذا الكون الفسيح، أما في كلمة سعيري فقصدٌ في زيادة المبالغة، إذ يكفي أن يذكر الموقدَ ليُستدلّ منه على النيران المستعرة فيه، لكنّ الشّاعر رأى من الحسن أن يزيدها في الكلام تأكيداً.

في البيت الرابع:

عشتُ عمري على ظلالِ الأمانى أرتجي الشّعْرَ بين نارٍ ونورِ

أطنب الشّاعر ثلاث مرات، إذ كان بإمكانه في صدر البيت أن يستغني عن كلمتي «عمري» و«ظلال»، فيستقيم المعنى بـ«عشتُ على الأمانى»، كون العمر هو المعيش بطبيعة الحال، لكنه جاء بالأولى (عمري)، المفعول به، في سياق تتميم المعنى، بعد الفعل الماضي، متصلاً بضمير المتكلم المفرد (عشتُ)، وربما فعل هذا ليفرغ ما في جعبته من تأوهات العمر في الماضي القريب، فـ«عشتُ» هو فعل ماضٍ منفتح على الحاضر بدلالته المعنوية. ثمّ إنّه جاء بإطناب تتميم آخر هو الاسم المجرور (ظلال)، وكأنّما يهدف به إلى المبالغة في حالة ذلك الماضي، فحتى الأمانى تبدو وهماً أوحى به هذه الكلمة ضمن المركّب الإضافي (ظلال الأمانى)، فالظلال هي مما يعبر عن عدم الفاعلية والجدوى، وهي رمز اللّاقدرّة، تتحرك كما يشاء صاحبها، وقد أثرى هذا الإطناب المعنى، إذ جعله في صورة متخيّلةٍ عن واقع الشّاعر، الذي كانت فيه حتى الأمنيات صعبة الورد. في عجز هذا البيت يفصح الشّاعر عن تلك الأمانى، أو «ظلال الأمانى» كما شاء تسميتها، فيقول: «أرتجي الشّعْرَ بين نارٍ ونورٍ»، وقد أدركنا الآن أنّه أراد أن يعبر عن طموحاته بالشّعْر (أرتجي الشّعْر)، ونلاحظ استعمال صيغة المضارع، وكأنّه أصبح في الزمن الذي يريد، زمن تحقّق الأمنيات، ولمّا يكتمل المعنى، فلا يعلم المتلقّي بعد ما هي غاية الشّاعر، لذا جاء بإطناب الاحتراس (بين نارٍ ونورٍ)،

فلعلّه يريد أن ينشد الحرّية والتحرّر، ولما كانت النار رمزاً للحرية والثورة والرفض، والنور رمزاً للهداية والعمل والحضارة، فإنه يتبادر إلى ذهن المتلقي أنّ الشّاعر كان يعيش جوّاً من التأزم (بين نارٍ ونور)، يحاول الانفلات منه، وقد عبّر عنه حاضره بالفعل المضارع (أرتجي)، الذي يعود إلى ماضٍ عاشه الشّاعر وقد ولى، بدليل الفعل الماضي (عشت)، ويلفتنا في هذين الفعلين على اختلاف صيغتهما (الماضي: عشت / المضارع: أرتجي)، اتصالهما بضمير المتكلم المفرد الجامع بين نتيجتهما: حياة ورجاء دونما يأس، بيد أنّ المتلقي يغدو في حيرة من أمره من جدوى رجاء الشّاعر وفخره في كل المتتاليات في الأبيات السابقة. وبعد هذه الإطلالة عبر الأبيات الأربعة من القصيدة في قسمها الأول، يختمه الشّاعر بالبيت الآتي:

مَنْ لشعري أنا الجنوبُ يغنيّ
بدمِ القدسِ موعدَ التحرير¹

لقد بدأ صدر البيت باستفهام يوميّ إلى الفخر أيضاً، وربما في هذا إثارةً للحمية وروح التحديّ في المتلقي، وقد أتبع الاستفهام بتعريفٍ بهويّته وحاله: «أنا الجنوب يغنيّ»، فإذا بالموقف يزداد حماسةً: ماذا يريد الشّاعر؟!

إنّ هذه الجملة خبريةٌ توحى بثبات المرسل واعتزازه بانتمائه، ف«الجنوب» قد أصبح من منظور المواطن اللبناني، والإنسان القومي، وربما في أرجاء المعمورة، أرضاً ترمز إلى الفداء والتضحية والكرامة والانتصار. وهنا، كان يمكننا أن نتوقّف عند حدود هذا التأويل، لولا أنّ الشّاعر جاء بجارٍ ومركّبٍ إضافي، وهما إطناب في موضع اعتراض، ولكن، كيف لنا أن نقرأ اجتماع الفعل (يغنيّ) بمحموله الدالّ على الفرح، مع الاسم المجرور (دم)، أحد مفردات الحزن في تأويلاتها النهائية؟! إنّ ورود الإطناب عبر هذا المركب الإضافي، في هذا التعارض مع الفعل المضارع (يغنيّ)، ومن خلال اعتراضه، يبعث المتلقي على التأمّل لمقاربة المعنى المحتمل، فالفعل (يغنيّ) يحمل معنى الإيجاب، والاسم (دم) يتمركز إشارياً حول السلب، ولعلّ الإيجاب هو في تصوّر الفعل (يغنيّ) يحمل دلالة القسَم (بدم القدس)، بأنّ موعد التحرير آت. ويقودنا هذا إلى القول بأنّ الإطناب متعمّد في هذا المكان، والشّاعر أراد أن يفرح بانتصاره ويؤكد تمسّكه بقضية فلسطين، التي لن ينسى جرحها، فأقسم بدمه الناظف أنّ أوان تحريرها قادم.

ينقل الشاعر الى البيت الذي يليه مفتتحًا به القسم الثاني:

فلسطينَ في ترابي مواعيدٍ دُ قَظَافٍ لِكِرْمِهَا المَأسُورِ¹

نرى أنّ التّركيب تامٌّ إذا ما اقتطعنا منه الجارّ والمركّب الإضافي في نهاية العجز: (فلسطين في ترابي مواعيدُ قَظَافٍ)، ويمكننا أن نتحدّث فيه عن بشري يحملها الشاعر فلسطين الجارة الأسيرة، من منطلق أصلته (في ترابي)، إذ إنّ التراب دالٌّ على الأصالة والخير، وكأنّ الشاعر أمام عهدٍ يقطعه على نفسه (فلسطين في ترابي)، مانحًا المتلقي العربي القومي عمومًا جرعة أملٍ بالتحريّر (مواعيدُ قَظَافٍ)، ذلك أنّ «مواعيد» هي مبتدأ مؤخّر، خبرها الجار والمجرور (فلسطين)، وهي جملة خبرية ابتدائية خالية من التأكيد، ما يشي بحتمية الوعد والموعود، بيد أنّ الشاعر لم يكتفِ بهذا التركيب، ف جاء بإطنابٍ منح المعنى قوة تأثير، ولننظر إلى ما أضافه هذا الإطناب في نهاية العجز (لكرمها المأسور)، وإلامّ يرمز هذا الكرم المأسور! نلاحظ أنّ الشاعر انتقل فيه من العام (فلسطين)، إلى الخاص (لكرمها المأسور)، إنه بهذا يستحضر رمزًا من رموز الخير في فلسطين، ويجعله في وضعية مُظلمة وهي الأسر (المأسور)، فيبرز لنا أنه ينطلق من إحساسٍ بالتحسّر والألم والتوجّع لما يحلّ بخيرات الأرض. وإطناب التذييل هذا هو للتذكير بأنواع الظلم الذي تتعرّض له فلسطين في أرضها وشعبها. وإنّ المتلقي إزاء هذا البيت ليشعر أنه في حركة قلق، أوجدته فيها حروف الجر في بداية البيت (فلسطين)، وما يليه (في ترابي)، ثمّ في نهايته (لكرمها). وكذا تشير حركة الضمير المتقل، بين الـ«أنا» و الـ«هو»، إلى الحضور والغياب: حضور الشاعر المنتصر المتغنّي بترابه عبر الياء (ترابي)، وغياب الحرّية عن فلسطين المأسورة الغائبة، وقد تمثّل ذلك في البداية (فلسطين)، وفي ضمير الهاء الغائب (لكرمها)، ولنا أن نلاحظ أيضًا غياب الفعل بأزمته كلّها في هذا البيت، فقد حضرت متتاليات إمّا مجرورة وإما مضافة، وكلّ منها غير مستقلة بمعناها عن الأخرى: لفلسطين/ في ترابي/ مواعيد قَظَافٍ/ لكرمها المأسور، وغياب الفعل يكشف أنّ فلسطين في حالة منهكة، وأنّ الشاعر بغياب الفعل يفرغ أحاسيسه عبر هذا الاستعمال. ولا تفوتنا الإشارة هنا، وإن كنا سنأتي إلى مستوى الإيقاع، إلى ما أحدثته هذه المتتاليات من صوت موسيقي مفرّج مؤملٍ محزنٍ معًا، وكأنّ

1 البيتان: 8 - 9 . ص 40

الشاعر فيه يعزف على مشاعر العرب - شعباً - عزف أمل، وعلى مشاعر «العروبة» - سلطة - عزف نعي لنخوتهم الغائبة.

إن من مكامن القوة الإيحائية المحدثة في الأبيات الستة المتناولة، ذلك الحضور القوي للـ«أنا»، (تلمني، نشوتي، غروري، غديري، يدي، أنملي، سطوري، أنا، أوقد، بكفي، موقدي، سعيري، عشت، عمري، أرتجي، شعري، ترابي)، ما يكشف عن شعريّة جادّة، يمكن نعتّها بأنها تعبير صادق عن الوجود الإنسانيّ في ارتباطه بأرضه، ضمن رؤية فخريّة تُجيز أن يكون الفخر بالشعر وسيلةً للتعبير عن حب الوطن، في شعرٍ منظوم تغدو فيه الكلمات العادية أكثر تأثيراً وولوجاً إلى نفس المتلقي. وضمير الأنا في هذه الشعريّة، ربما هو كما يقول إتيان سوريو: «إنه في آن واحد شاعرٌ جوهريٌّ ومطلق وصورة عن الشاعر مصاغة شعرياً، يريد أن يتقدّم بها إلى القارئ. وهو أيضاً القارئ نفسه عندما يلج إلى القصيدة، نحو المكان المعدّ له، لأجل أن يشارك في العواطف التي يوحي إليه بها»¹.

على المستوى الإيقاعيّ يلفتنا الامتداد الصوتي، الذي كان سمة لافتةً في موسيقى النص، مذ بدأ الشاعر بـ«لا» الناهية في بداية البيت الأول مطلع القصيدة، وحتى البيت الأخير (البيت التاسع والعشرين) ضمن التماذج المختارة، عبر صوت الزويّ المشبع (ري) في «غرور»، وما بين البيت الأول وهذا، جسرٌ مديدٌ يعبُرُ عليه الشاعر، ليعبّر عن مكونات قلبه وفكره، فخرًا وحبًا، وقلقًا واستياءً، وقد جاء المدّ أحياناً لافتاً في توازيه، لنقرأ إبداعاً قصد إليه الشاعر المفخر المتباهي بشاعريته، ولقد تراوحت أصوات المدّ في الأبيات المتناولة ما بين ستّ وتسع أصوات ضمن البيت الواحد، مع تفوّقٍ لمدّ الياء، إذ إنّ القصيدة مبنيةٌ على رويّ الرّاء المشبعة بالياء، وهو مما يثير السّمع لغزارة وروده، كما في البيت الأول مثلاً (تلمني، نشوتي، غروري، غدير، غديري)، مرتبطاً بضمير المتكلم المفرد، الذي نصبح معه في لهفةٍ وشوقٍ إلى ما بعد هذا النغم الشجيّ المنبعث من الذات، فكأنما الـ«أنا» هنا متجسّدة بجمالية خالقة، يأبى المتلقي إزاءها أن يقتنع بحدودها، ويصبح في شغفٍ للذهاب إلى ما يليه، لتبيّن المعنى الذي يبثّه الشاعر عبر هذه الانطلاقة المحفّزة. ولقد كشف انتظام أحرف المدّ في هذه الأبيات عن ذوق

1 كوهين، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986م، ص 151.

فني رفيع على مستوى نظم الشعر وقدره الشاعر، وهو ما يأتلف ودلالة فخره الذي مررنا بمعجمه الخاص، ما يثبت لنا مقولة أن «الحمولة المعرفية هي مقصد المبدع من قصيدة، أو من كتابت الشعرية»¹. وإذ يغدو المتلقي في البيت التالي، يشعر وكأنه في لحظة شاعرية مع الشاعر، أوحى بها صوت مدّ الألف بتواؤمه مع صوت مدّ الياء (نتهادي، على، القوافي، تكتسي، أنملي، سطوري)، وهي فعلاً للَحظات مهيباً عندما يدخل القارئ من بوابة القصيدة، بشعورٍ مرهفٍ تحتويه هذه القدرة الإبداعية على مواكبة المعنى.

وكان مما عزفه الشاعر في هذه الأبيات، لحنًا خاصًا بفلسطين، لحنًا يُطربُ السمع ويلجُ الروح، وذلك في البيت التاسع:

فلسطين في ترابي مواعيد دُ قطافٍ لكرمها المأسور

لقد تنقل الشاعر ضمن هذا البيت بخفة ملحوظة وكأنه يسابق المعاني، جاعلاً فيه الوعد بالتحريير، مفرغاً إيّاه من أيّ فعل وزمن، ليلجأ إلى حروف الجرّ، يسحب فيها عواطفه المتداخلة، ضمن تراكيب غير مكتملة إذا ما انعزل كلّ منها عن الآخر، وهذه التراكيب وردت كالآتي:

فلسطين (جار ومجرور) / في ترابي (جار ومركّب إضافي) // مواعيدُ قطافٍ (مركّب إضافي) // لكرمها المأسور (جار ومركّب إضافي)، وهذه المتتاليات جاءت، على انعدام الفعل فيها، موحيةً بقدرة عجيبة، عبر الكثافة المتأنيّة من المعجم الخاص بفلسطين بكلّ متعلقاته (فلسطين، ترابي، مواعيد قطافٍ، كرمها المأسور)، وقد أدّت حروف الجرّ هذه دوراً استثنائياً في إحالة المعنى وتوجيهه، فاللام الأولى (فلسطين)، تُحيل إلى فلسطين كلّ وجود الشاعر، و«في»، الجار الثاني، يجعل في تراب الشاعر، مع الياء، ضمير المتكلم المفرد (في ترابي)، وعدّ التحريير الآتي، ومن جميل ما صنّع الشاعر في هذا البيت، التدوير العروضي² في كلمة «مواعيد»، إذ انشطر حرفها الأخير (دُ) ليصبح جزءاً من الشطر الثاني، كأنما الدلالة ممتدةً إيحاءً بوحدة الوجود والقضية، فكلمة «مواعيد» حضرت ما بين «ترابي» في الصدر، و«قطافٍ» في العجز. أما اللام الثالثة

1 النص واستراتيجية التأويل، مصدر سابق، ص 55.

2 حصل تدوير أيضاً في البيت الثامن عشر في كلمة «وجدان» إذ ألحقت النون بعجز البيت، ويمكن مقارنة الدلالة بالكيفية نفسها كما وردت في هذا البيت.

(لكرمها)، فتُحيل إلى رمز من رموز فلسطين المحتلة، إلى «كرمها المأسور»، حامل دلالة الخير والأصالة. ولقد دخل العطف، بحرف الواو، عاملاً إضافياً، أغنى الإيقاع والمعنى معاً، اعتمده الشّاعر شبه لازمةً، وردت في حركةٍ لافتةٍ من في تموضعها:

- نشوتي وغروري (نهاية صدر البيت الأول)

- أنملي وسطوري (نهاية عجز البيت الثاني)

- موقدي وسعيري (نهاية عجز البيت الثالث)

- نارٍ و نورٍ (نهاية عجز البيت الرابع)

والى كل هذا، كان إيقاع بحر الخفيف معبراً إلى أمنيات الشّاعر، فعبر بخفة المحبّ للوطن، الذي ينظر بعين الإنسان القومي إلى قضية عربية محقةً عنوانها «فلسطين»، وعبر بإبداع الشّاعر المفتخر القادر، الذي يصل متعالياً إلى التّجوم يوقدها بكفه. هذا البحر، ذو التفعيلات الرشيفة، حقّق انسجاماً لافتاً، إذ أنتج توازناً مع زفرات الامتداد الصّوتيّ وتتهذّاته، الامتداد الذي سار فيه الشّاعر منذ البيت الأول حتى البيت الأخير، ضمن هذه الأبيات، وهو مما يثبت لنا أنّ الشّاعر الذي لجأ في شعره إلى استخدام النحو، مؤثلاً مع معاني الأصالة والاعتزاز بالانتماء والاستعداد للبلد، ها هو ذا يقصد الشّعر إيقاعياً أيضاً، بموروثٍ عربي أصيل ضمن مقومات الشعريّة العربية، أعني اعتماده البحر الخليلي والقافية والرّويّ الموحّدين، مع الإشارة إلى أنّ الإطناب قد أسدى خدمة للوزن، إذ جاءت معظم قوافيه في مواضع إطناب. ولا بدّ من القول إنّ ما تناولناه في دراسة الإيقاع ضمن هذه الأبيات، لهوّ مؤشر إلى الالتحام الدلاليّ بين البنى المختلفة، فلقد التحمت دلالة استخدام الضمير مع صوت المدّ، وكان لغياب الفعل أحياناً، واللّجوء إلى الروابط، أثره المعنوي والموسيقي، وكلّ هذا لا يمكن أن يتأتّى إلّا من خبرة الإنسان العارف والشّاعر والمبدع المتذوق معاً.

في المساواة لا نكاد نعثر في قصائد الديوان سوى على عددٍ ضئيلٍ من الأبيات التي تتضمّنّها، وربّما كان ذلك لترجيح الشّاعر استخدام الإطناب والإيجاز، ولا سيّما إيجاز الحذف، على أنّ هذا الأمر قد لا يكون متعمّداً، وإنما مدعاته هي ثقافة الشّاعر الملمّ، التي جعلت قصائده غنيّة بالمعاني، ومرسلةً بلاغيّةً تشعّ بالدلالات، وهذا ما لا يتأتّى

من باب المساواة، على ما عرّفها البلاغيون «ما ساوى لفظه معناه»¹، ولعلّه يحقّ لنا ألا نجد ذلك مستهجنًا، إذ لا يمكن للغة الشعرية أن تقنع بهذه الحدود من قدرة التعبير، وأيضًا، قد يمكننا القول إنّ الانحراف عن المساواة حصل «وجوبًا» في هذا الديوان، لجنوح الشاعر إلى التعبير البلاغي الفني المبدع، ف«اللغة الشعرية وظيفية، وهما الأول والأساس التأثير الجمالياتي. إنها تتوجّه نحو التعبير نفسه وذلك بخلاف لغة المنطق»²، ولذا، سنكتفي بإطلاع القارئ العزيز على نماذج مما ورد في الديوان:

اتركونا لحاضرٍ ومصيرٍ نحن أدرى بما يخبئه وعدا³
 قسوة الدهر أن نرى الخزي عارًا ونرى الذلّ منهل الأخلاق⁴
 فثمارُ الدماءِ خيرٌ ثمارٍ وشهور القطافِ خيرُ الشهور⁵
 من يوقد النارَ لن يلقى سوى لهبٍ أو يزرع الحقدَ لن يجني به عنبا⁶

أخيرًا، وبناءً على ما تقدّم، يمكننا القول إنّ الشاعر قد عبّر بهذه الطّواهر، لا سيما إيجاز الحذف، عن أنّ ثمة قدرةً لديه على توليد المعاني في خدمة الرسائل المنشودة في تعبيره عن الوطن وقضاياها، حتى إنّ القارئ أو الباحث، ليقع على احتمالاتٍ كثيرةٍ من التقدير والتأويل وتتطوي أمامه المسافات، فتنبّئ له الدلالات في اتجاهاتٍ مختلفة، وتنهض المعاني المتأخّرة من الأعماق، لمقاربة غاية الشاعر عبر هذه الطّاهرة التي يمكن القول عنها إنّها لغةٌ وجوديةٌ تظهر من خلال غيابها. أمّا في الإطناب، فقد بدا الشاعر وكأنه يلتقط أنفاسه وهو يفصح عن مكونات نفسه، فانقل من العام إلى الخاص، وعكسهما، ودبّل وتمّم واعترض واحترس. وربما كان إصرار الشاعر وطموحه وأمله في التغيير، هو الباعث على هذا الاستخدام الكثيف للإطناب بأنواعه المختلفة، في قصائد ديوانه «صلة تراب»، وربما للسبب نفسه غيب عنه، أو غاب إيجاز القصر الذي يحتاج إلى مشاعر متأنيّة هادئة، فما قرأناه هو تعبير عن مشاعر ثائرة منفعة في

1 ابن الاثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، (د. ط)، (د. ت)، ق 2، ص 319
 2 النص واستراتيجية التأويل، مصدر سابق، ص 88.
 3 البيت 29. قصيدة «عروس من غفار». ص 26
 4 البيت 18. قصيدة «صلة تراب». ص 34
 5 البيت 30. «قصيدة قطاف ودم». ص 44
 6 البيت 9. قصيدة «نشوة الارض». ص 19

فرحها وحرزنها. وكذا الحال بالنسبة إلى المساواة، فهي قد ندرت في قصائد الديوان وكانت ندرتها ملحوظة، ولعل ذلك يعود إلى كون «اللغة الشعرية تعتمد الخرق والانحراف»¹، فيما المساواة تأتي بالكلام على قدر المعاني.

ولنا بعد هذه الإطلالة الجمالية على نماذج من الشعر الوطني، عند الشاعر فضل مخدر، أن نشدّ على أيدي الشعراء وسواهم من المبدعين، فيثوروا للقضية بأنفاسٍ ملحميةٍ تحكيها لكل من يجهل الحقيقة في مشارق الأرض ومغاربها، عازمين، غير يائسين، ومستبشرين غير خائفين، علّ الكلمة تفعل في النفوس، إذا لم تفعل الصورة والمشهد!

لائحة المصادر والمراجع

- 1 - الأيوبي، ياسين، وديب، محيي الدين: البلاغة العربية وأساليب الكتابة، مكتبة السائح، 1998م.
- 2 - ابن الأثير، ضياء الدين بن نصر الله بن محمد: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، (د. ط)، (د. ت).
- 3 - حسن عباس، فضل: البلاغة فنونها وافنانها: دار الفرقان للنشر والتوزيع، إربد، ط2، 1989م.
- 4 - عتيق، عبد العزيز: علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، (د. ت).
- 5 - كنفاني، غسان: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال: 1948-1968، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط2، 1986م.
- 6 - مخدر، فضل: ديوان صلة تراب، ديوان الكتاب للثقافة والنشر، بيروت، ط2، 2009م.
- 7 - نور الدين، صدوق: النص واستراتيجية التأويل، دال للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2014م.
- 8 - الهاشمي، أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبدیع والبيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط12، (د. ت).
- 9 - كوهين، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986م.

1 النص واستراتيجية التأويل، مصدر سابق، ص 56

البناء المجتمعي للأقليات الكرديّة في الشرق الأوسط

Societal Construction of Kurdish minorities in the Middle East

ربيع سميح نور الدين¹

Rabih Samih Nour Eddine

تاريخ القبول 2024 /3/15

تاريخ الاستلام 2024 /3/7

الملخص

يعد البعض أنّ المسألة الكرديّة هي قضية شعب مضطهد يهدف إلى تشكيل دولته المستقلّة ورفع الاضطهاد القوميّ، والظلم الاجتماعيّ عن كاهله، فمنذ بداية القرن التاسع عشر برزت القضية الكرديّة، واحتلّت في مراحل عديدة صدارة الأحداث في الشرق الأوسط. وحاليًا ما زال الأكراد يحاولون في كل جولة تحدث، وفي كل أزمة أن يُبرزوا مسألتهم وقضيتهم أمام المجتمع الدوليّ أملين بتحقيق أهدافهم التي من أبرز حيثياتها بناء دولة قومية كرديّة. الأمر الذي جعلهم بين اتجاهين، الأول وهو التأثير، لبناء أي دولة ذات يقظة القومية كإيديولوجيا يجعلها «قوة فعّالة في السياسة الحاليّة والمستقبلية الجارية في المنطقة، حيث تواجه هذه القوة تحديًا إسلاميًا»⁽²⁾، والثاني وهو المؤثر، أي الدّعم الأمريكيّ والإسرائيليّ للأكراد في بنائهم الذاتيّ وإن شكّل خطورة أو تهديدًا وكذلك العائق الدّاعشيّ.

الكلمات المفتاحية: الأكراد، الانتماء العرقيّ، النّظام الاجتماعيّ، كردستان، الشرق الأوسط.

1 طالب دكتوراه قسم الدراسات الإسلاميّة، كلبّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة الجنان - لبنان.
2 دالاي، غالب: القومية الكرديّة ستصوغ مستقبل المنطقة، موقع نون بوست الإلكتروني، ترجمة وتحرير نون بوست، مركز الجزيرة للدراسات، نشر بتاريخ 12 يوليو 2015، شوهد بتاريخ 19/5/2024، على الرابط:

<https://www.noonpost.com./7505/>

Abstract:

Some consider the Kurdish issue to be the issue of an oppressed people aiming to form their independent state and lift national persecution and social injustice from their shoulders. Since the beginning of the nineteenth century, the Kurdish issue has emerged and, in many stages, occupied the forefront of events in the Middle East. Currently, the Kurds are still trying, in every round that occurs, and in every crisis, to highlight their issue and cause before the international community, hoping to achieve their goals, the most prominent of which is building a Kurdish national state. Which put them between two directions: the first, which is the influence to build any state with awakened nationalism as an ideology that makes it «an effective force in the current and future politics taking place in the region, as this force faces an Islamic challenge,» and the second, which is the influence, that is, the American and Israeli support for the Kurds in their self-building, even if it constitutes a danger or threat, as well as an ISIS obstacle.

Keywords: Kurds, ethnic affiliation, social system, Kurdistan, Middle East.

مقدمة

يَدْعِي الأكراد أن كردستان، هي وطن قومي للشعب الكردي، وهي تحتل مساحة كبيرة من اليابسة في الشرق الأوسط، تتقاسمها أربع دول: إيران، العراق، تركيا وسوريا. وهناك استخلاصات من تصريحات القادة الأكراد توجي إلى التوجهات التي سينطلقون بها في بناء دولتهم وهما المشروعان الأساسيان في الساحة الكردية:

- مشروع يقوده رئيس إقليم كردستان مسعود البرزاني، وتقوم إستراتيجيته على إقامة دولة كردية مستقلة في إقليم كردستان العراق، على أن تشكل هذه الدولة مرجعية قومية للکرد في باقي كردستان، وتسعى إلى تشكيل مرجعية لمختلف الحركات الكردستانية، هدفها الإستراتيجي توضيح كيفية بناء الدولة القومية الكردية المستقلة.
- مشروع عبد الله أوجلان زعيم حزب العمال الكردستاني، إذ طرح أوجلان قبل أكثر من عقدين من الزمن مشروع إقامة فدراليات أو حتى كونفدراليات في الدول التي

يتواجد فيها الكرد من دون الانفصال عنها.

يرى سياسيون أكراد أنّ الوقت قد حان لإعلان بناء دولتهم، وأصبحت الظروف الآن ملائمة لإنشاء دولة كردية⁽¹⁾. لكن كل هذا يُنسف في لحظة إذا لم يرق لأي دولة ذات وزن كبير تستغلهم كأمریکا مثلاً، وقد تخذلهم وتتركهم إن إرتأت مصلحتها منع وجود دولة كردية بعدما يكون الأكراد قد أرهقوا وبذلوا كل محاولاتهم الدّاعمة لأمریکا، أي إن لم توافق القوى الإقليميّة والدّوليّة على بناء دولة كردية فإن كل ما يفعله وفعله سابقاً الأكراد سيذهب سدى في هواء «الرّبيع الكردي».

إشكاليّة البحث

تتزاخم المشاكل في منطقة الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا عموماً منذ تفتّت الدّولة العثمانية واصطناع جغرافيا جديدة للمنطقة. كان للقوى المتغلّبة في الحرب الكونية الأولى دور كبير في تكوينها بما يخدم مصالحها. والمسألة الكردية في صدارة المشكلات دائمة الانفجار، نظراً لتعقيدات كثيرة أهمّها أنّ مناطق الكرد تقع في دول إقليمية ليست ضعيفة تاريخياً وذات إمتدادات وتحالفات دولية مختلفة. أمّا موقف الدّول الكبرى فهو يتمايل تبعاً لمصالحها حيناً وتبعاً لقوة الدّول الإقليمية، فتشجّع على الانفصال تارةً في إقليم معيّن وتغطّي القمع للأكراد في إقليم آخر، مع خلاف تاريخي غير قابل للحسم بسهولة حول الهوية القوميّة للكرد بين من يراهم أمّة كسائر الأمم في تشكّلاتها اللّغوية والمكانية وبين من ينكر عليهم ذلك لعدم ظهورهم كجماعة سياسية أو حضارية في الماضي. فقد كانوا جزءاً من المشاريع السياسيّة في المنطقة على امتداد التّاريخيين القديم والوسيط فلم يُعرف لهم حضارة خارج الحضارات التي سادت في المنطقة. أمام هذا التّشابك لا بد من تشخيص الواقع الكرديّ بشكل واضح في أبعاده الاجتماعيّة والديمقراطيّة والثّقافيّة والسياسيّة لتحديد الموقف الأنسب للتعامل مع المسألة الكردية. فهل فعلاً الأكراد قومية ذات جذور تاريخية؟ أو شعب كان منصهراً في المحيط الإسلاميّ خلال تاريخه وهو جزء من الحضارة الإسلاميّة؟ وهل تمايزات اللّغة وبعض الأعراف

1 دلشاد، عبد الله: حلم الدولة الكردية، الدعوة لاستفتاء حول استقلال إقليم كردستان العراق.. تواجه خلافات وعقبات، موقع المركز اللبناني للأبحاث والاستشارات الإلكتروني، نشر بتاريخ 17 تموز 2014، شوهد بتاريخ 23/5/2024، على الرابط:

<https://center-lcrc.org/index.php?s&4=id.11576>

والتقاليد سبباً كاف لتشكل جغرافيةً سياسيةً مستقلة؟ أو يجب الإكتفاء بالاعتراف بالحقوق الثقافية والاجتماعية داخل دولهم التي يتشاركون مع باقي مواطنيها في الانتماء الديني والحضاري والمهموم المشتركة؟

أهمية البحث

المسألة الكردية من أبرز القضايا التي تحل مساحاً إهتماماً واسعاً وتطفو على سطح الإهتمامات مع كل متغير في المنطقة. لذا تكمن أهمية البحث في:

- تعدد القضية الكردية من القضايا الشائكة والتي لم تحل منذ تفتت الدولة العثمانية وانشطار معظم جغرافيتها على أساس قومي.
- تتقاطع مصالح الأكراد الطامحين بالانفصال عن الدول المقيمين فيها مع مصالح بعض الدول الأجنبية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية التي تريد إستغلال المسألة الكردية من أجل مزيد من التجزئة والقلق في المنطقة وبالتالي المزيد من الهيمنة والسيطرة الأمريكية.
- أهمية فهم البنية الاجتماعية والتاريخية للقومية الكردية كمقدمة ضرورية لفهم الواقع السياسي الحالي وحركته ومعالجة الأزمات والنزعات الناتجة عنه بشكل موضوعي وبتعبير آخر لا يمكن إكمال صورة المشهد السياسي دون معرفة الواقع التاريخي الاجتماعي.

منهج البحث

سنعتمد بالبحث على المنهج الاستقرائي التحليلي. فالأول يتحقق من خلال الإستدلال والملاحظة والتجربة، إذ تعد نتائج الإستقراء أعم من مقدماته، فهو عملية صاعدة يرتقي فيه الباحث من الحالات الجزئية إلى القواعد العامة. أما المنهج التحليلي فهو يُعنى بالنقد والإستنباط والتفسير للبحوث العلمية، من خلال تحليل النصوص وتأويل المشتبهات حتى تتضح المشكلات وتتكشف المبهمات لتبدو بصورة واضحة متكاملة.

أولاً. جذور الشعب الكردي

يُعد الأكراد أحد الشعوب القليلة التي حافظت على خصائصها العرقية منذ التاريخ القديم

ولغاية يومنا هذا، رغم ما توارد على ألسنة الباحثين من شكوك حول عرقهم ونسبهم، فالباحث ماكدونيل يقول: «إنّه من المشكوك فيه جدًّا أن يكون الأكراد مجتمعًا عرقيًّا منطقيًّا مترابطًا من ناحية النسب. فعدم وجود ثقافة مدنية كردية، وأدب قوميّ كرديّ في بدايات القرن العشرين كان يُعدُّ من العوائق القاتلة في تعريف الكرد كقومية»⁽¹⁾.

لكن، وعلى الرغم كل هذا التباين، فإنّ هناك من يرى أن الأكراد، كعرق، تشكّلوا منذ ألف وخمسمائة سنة، وإنّ التكوينات الأولى للشعب الكرديّ، وتوحده اللاحق في قومية قد جرى على تلك الأرض نفسها التي تحدد بكردستان المعاصرة. لهذا رأى بعضهم، الأكراد قومية نشأت في حدود تواجدهم الرّاهن كإحدى الأقليات في منطقة الشرق الأوسط، وهذه هي السّمة الأولى البارزة في التّاريخ الكرديّ⁽²⁾.

أ - التّاريخ الكرديّ - أرضًا وشعبًا

اختلف الباحثون حول تحديد التّاريخ الكرديّ أرضًا وشعبًا، ولم يكتشف المنقبون الأثريّون في أي جزء من العراق، وخاصة المناطق الشماليّة الجبليّة، مخطوطات كردية. وحتى أنّ كل متاحف العالم مليئة بالآثار البابليّة والآكديّة والآشوريّة والعربيّة والعثمانيّة إلّا آثار الكرديّ، وأنّ دخولهم شمال العراق كان حديث العهد، فنصفهم من السّوران والنّصف الباقي من البادينان⁽³⁾.

بينما يرى آخرون أنّ الأكراد يحاولون إقناع أنفسهم بوهم اسمه حضارة كردية، لأنّ بعض الرّجال والقادة من أصول كردية كانوا يقومون بفتوحات وانتصارات باسم الإسلام وليس باسم الأكراد في الدّول ذات الطّابع الإسلاميّ. ولكنّهم عملوا كمسلمين وليس باسم قوميّتهم الكردية، وكان هذا عامل يُضاف ويحسب للإسلام لأنّه كان لا يفرق بين العرب، وباقي القوميّات الأخرى⁴.

في حين يقول عالم الإنثربولوجيا الأمريكيّ «هنري فيلد»: أن الأكراد مجموعة من

1 خوين، جكر، تاريخ كردستان، مكتبة جياي كورمنج، ستوكهولم 1985، ترجمة: مسور، خالد، مطبعة أميرال للطبع والنشر والتوزيع، بيروت 1996-7-1، شوهد بتاريخ 2024 /6/25 على الرابط <https://www.dorar-aliraq.net/threads.8190/>

2 المرجع نفسه، ص 13.

3 حسين، إباد، تاريخ الأكراد ومستقبلهم، مجلة تحولات، 8 حزيران 2006.

4 ميران، عمر، مؤرخ كردي يكشف حقائق خطيرة عن تاريخ الأكراد: موقع النهي، 2008 /8/6

العروق المختلفة الأرمني و البلقاني، وحوض البحر الأبيض المتوسط، والأناضولي والألبني نسبة الى جبال الألب ولا ينحدرون من أصل واحد صاف جميعاً¹. كذلك فإننا نرى المؤرخ الإثنوغرافي «ليرخ» يقول: هم أحفاد أولئك الخالدين الإيرانيين المحاربين الأشداء الذين كانوا من سكان الجبال ويتمتعون بروح قتالية عالية².

ب - أكراد الشرق الأوسط والدولة

كان الأكراد يعيشون في ظل ما يعرف بالدولة الإسلامية، أو الحكم الإسلامي في تلك البقعة من الأرض التي يسمونها كردستان، وتحت سلطة الدولة العثمانية. في الحرب العالمية الأولى إتفقت فرنسا وبريطانيا بمصادقة من الإمبراطورية الروسية على تقسيم الدولة العثمانية وتحديد مناطق السيطرة والنفوذ في الشرق الأوسط³، فكانت معاهدة سايكس بيكو⁴ عام 1916، التي حطمت الآمال الكردية في تحقيق حقهم المشروع في تقرير المصير.

لم تدخل سايكس بيكو حيز التنفيذ بشكل رسمي، ولكنها شكّلت أساساً لمعاهدة سيفر (1920)⁵. وكانت نقطة التحول للأكراد وللشعوب الأخرى في الشرق الأوسط. وبعد الحرب العالمية الأولى، رسمت حدود الدولة العثمانية بما يسمى اتفاقية «سيفر» التي

1 فيلد، هنري، جنوب كردستان، دراسة أنثروبولوجية، ترجمة جرجيس فتح الله، منشورات الجمل، دار ناراس للطباعة والنشر، الطبعة 1، مجلد 1، 2012/8/2.

2 أحميس، حنان، أصل الأكراد - الجزء الأول، ديوان العرب قسم الدراسات والأبحاث، 19 كانون الثاني (يناير) 2004، ص (1).

3 ترك برس، نبذة من تاريخ الأكراد في الشرق الأوسط، 2015 /4/14 على الرابط <http://www.turkpress.co/node/748>

4 اتفاقية سايكس بيكو عام 1916 في مطلع القرن العشرين كان الشرق الأوسط على وشك أن يشهد تحولا كبيرا. وفي الحرب العالمية الأولى اتفقت فرنسا وبريطانيا بمصادقة من الإمبراطورية الروسية على تقسيم الدولة العثمانية وتحديد مناطق السيطرة والنفوذ في الشرق الأوسط. ورسم الدبلوماسي البريطاني مارك سايكس Mark Sykes والدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو - François Georges Picot خريطة بالسيطرة في عام 1916. ومع هذا الاتفاق السري حصلت فرنسا على سوريا ولبنان وسيطرت بريطانيا على العراق وفلسطين والأردن. وكان يسعى الفرنسيون والبريطانيون لتطبيق سياسة فرق تسد في المنطقة. لم يدخل اتفاق سايكس بيكو حيز التنفيذ بشكل رسمي، ولكنه شكّل أساساً لمعاهدة سيفر. وهذا الاتفاق كان نقطة التحول للأكراد وللشعوب الأخرى في الشرق الأوسط، (ترك برس م.ن).

5 معاهدة سيفر 1920: رسمت حدود الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى مع معاهدة سيفر من جديد، وفقدت الدولة جزءاً كبيراً من أراضيها. وتعطى هذه المعاهدة للأكراد حق الحكم المحلي، وبعد سنة واحدة حق مراجعة عصابة الأمم للاستقلال وفي 1 تشرين الثاني 1922 انتهى حكم الدولة العثمانية رسمياً، وفقدت معاهدة سيفر صلاحياتها و توزع بعدها الأكراد في ثلاث دول ضمن الحدود التركية والعراقية والسورية، إضافة إلى الأكراد في إيران (ترك برس م.ن).

أعطت للأكراد حقّ الحكم المحليّ، وهو أول دليل على اهتمام المجتمع الدوليّ واعترافه بقضية كرد العراق.

وفي العام 1922 انتهى حكم الدولة العثمانية رسمياً ووُزِع الأكراد ضمن الدّول الأربعة، إيران، العراق، تركيا وسوريا، وبهذا تكون قد فقدت معاهدة سيفر صلاحيتها لتستبدل باتفاقية لوزان¹، وهي دليل على عدم اعتراف المجتمع الدوليّ لكرد تركيا بحق تقرير المصير. وربما كان فشل تجربة دولة مهاباد دليلاً آخر على عدم اعتراف المجتمع الدولي بحق تقرير المصير لأكراد إيران، إلا أن المجتمع الدولي بقي يتابع تطوّر قضية أكراد العراق بطريقة تختلف عن قضية أكراد باقي الدّول خلال القرن الـ 20، حتى كان عام 1990 الذي رسم بعده المجتمع الدوليّ خارطة طريق الإقليم كردستان الحالي في العراق². إضافة إلى ما يجري اليوم في سوريا من أحداث، يجد فيها الأكراد أملاً نحو تحقيق مكتسبات. وهكذا بدأت رحلة الأكراد في هذه الدّول نحو المطالبة بحقوقهم إلى أن يصلوا المراد الموعود بالدولة.

ثانياً. جغرافيا الأكراد في الشرق الأوسط

ينتشر العدد الأكبر من الأكراد في جنوب شرقي تركيا، يليه أكراد شمال غربيّ إيران، وكتلة شمال العراق التي تحوّلت إلى إقليم كردستان، أما الكتلة الأضعف فهي الكتلة

أحدت المعاهدة حدود عدة بلدان مثل اليونان وبلغاريا وتركيا والمشرق العربي تنازلت فيها تركيا عن مطالبها بجزر دو ديكانيسيا وقبرص ومصر والسودان والعراق وسوريا، كما تنازلت تركيا عن امتيازاتها في ليبيا التي حددت في الفقرة 10 من معاهدة أوشي بين الدولة العثمانية و مملكة إيطاليا في 1912 (كامل) الفقرة 22 في معاهدة لوزان (1923). في المقابل، أعيد ترسيم الحدود مع سوريا بما يشمل ضم أراض واسعة وتضم من الغرب إلى الشرق مدن ومناطق مرسين وطرسوس وقيليقية وأضنة وعتتاب وكلس ومرعش وأورفة وحران وديار بكر وماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر (جزيرة بوتان، أي فعلياً ضم المناطق كافة التي تعدّ من كورستان الشمالية إلى تركيا. وكان السبب الأول لرفض تركيا معاهدة سيفر وإلغائها هو كونها تتضمن وطن قومي مستقل للكورد، فقامت تركيا آنذاك بإقناع الحلفاء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرهم عن طريق التنازل عما تنازلته من أراض في سبيل الحصول على كامل الأراضي الكوردية و بعض المناطق من أرمينيا وبالتالي زيادة مساحة دولة تركيا التي كان يطمح لها أتاتورك و فيما بعد قامت الحكومة البريطانية بضم ولاية الموصل إلى دولة العراق وبالتالي تقسيم المناطق الكوردية بين تركيا، سوريا، إيران والعراق و كانت هذه الاتفاقية هي الاتفاقية الأخيرة بعد الحرب العالمية الأولى و التي رسمت بموجبها الحدود الرئيسية لمعظم الدول الحالية في الشرق الأوسط (وليد شيخو، معاهدة لوزان وكيف تم تقسيم كردستان، الصفحة الرسمية للسياسي الكوردي 11 شباط (2013)

2 محمود عبد الستار، عمر، حق تقرير المصير لكورد العراق والاتجاه نحو الكونفيدرالية، موقع نون بوست 18/3/2015،

<https://www.noonpost.net/content.5884/>

الكرديّة السورّيّة.

أ - الأكراد في تركيا

يقدّر عدد سكان الأكراد في شرق وجنوب شرق تركيا بحوالي 15 مليون نسمة يتركّزون في المناطق الجبلية الشرقية حول ديار بكر، وهم يعملون بالرعي ولا يخضعون لنظام الدولة، ولم يُذكر لهم ثورة ضد الدولة العثمانية إلا في عام 1880 حين أرادوا تكوين دولة مستقلة لهم تحت اسم أرض كردستان، وكان رد الفعل العثماني هو إبادة أعداد كبيرة منهم¹.

خاض أكراد تركيا كثيرًا من المواجهات المسلّحة مع الدولة التركيّة، نتج عنها صراعات دمويّة كثيرة. إذ إنه «لم تتغيّر ردّة الفعل الحكوميّة كثيرًا من الدولة العثمانية من أتاتورك إلى أردوغان، وإن كان الأكراد في عهد أردوغان قد شهدوا انفراجة ضئيلة في تعامل الحكومة معهم»². وزاد من خطورة الموقف إلقاء القبض على زعيم الأكراد عبد الله أوجلان ومحاكمته، ما دفع الأكراد إلى الثورة، والمظاهرات الدامية ضدّ المصالح التركيّة في الدول الأوروبية وداخل تركيا، وعرض البلاد لخسائر كبيرة³. ولا زال أردوغان يتخوّف من الوجود الكرديّ خصوصًا ما يجري الآن من أزمة سورّيّة جعلت من الكرديّ يلعب الدور البارز في هذه الحرب للمطالبة بإقرار حقوقه والحصول على المزيد من المكاسب.

ب - الأكراد في إيران

يُقدّر عدد الأكراد في شمال غرب إيران ب 6 مليون نسمة تقريبًا وتعدّ أراضيهم امتدادًا لأرض أكراد العراق في مرتفعات كردستان و شمال مرتفعات زاغروس. وقد تمردّ أكراد إيران أكثر من مرّة على الحكومة الإيرانيّة، أهمّها تلك التي قامت بين 1920م و1925⁴.

1 فريق عمل ساسة بوست الأكراد.. التّشّتت وحلم الاستقلال، 18 فبراير 2014، شوهد بتاريخ -10-6-2016،

<http://www.sasapost.com>.

2 فريق عمل ساسة بوست الأكراد.. التّشّتت وحلم الاستقلال، م.ن.

3 محمد العيسوي، فايز، مشكلة الأكراد رؤية جغرافية، كتب المقال بتاريخ 28/2/2012، شوهد بتاريخ 3/6/2016 على الرابط:

http://www.alukah.net/world_muslims

4 القضاة، محمد سلمان، أكراد إيران.. حقائق ومعلومات، نشر بتاريخ 9/3/2007، شوهد بتاريخ 9/3/2016 على الرابط:

<http://www.aljazeera.net>.

واستطاع الأكراد إقامة دولة جمهوريّة مهاباد الشّعبية الديمقراطيّة بواسطة زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني قاضي محمد في شمال إيران عام 1946م، ولكن شاه إيران وبمساعدة الغرب استطاع أن يسيطر على الموقف العام 1956¹. وبعد قيام الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران 1979، سادت أجواء الغضب المناطق الكرديّة في إيران بسبب عدم إتاحة الفرصة لممثّلين عن الأكراد للمشاركة في كتابة الدّستور الإيراني الجديد.

ولكن، في العام 1997 بعد وصول الرّئيس محمد خاتمي إلى الحكم قام بتنصيب أوّل محافظ كرديّ لمحافظة كردستان وهو عبد الله رمضان زاده، كما قام بتعيين بعض الأكراد في مناصب حكوميّة، وتم تشكيل حزب الإصلاح الكرديّ، ومنظمة الدّفاع عن حقوق الأكراد برئاسة محمد صادق كابودواند العام 2005².

وبهذا العمل تكون الجمهوريّة الإيرانيّة قد تساهلت وأعطت الحقوق اللّازمة للأكراد، وهي أكثر من غيرها من الدّول تعاونًا مع الأكراد.

ج - الأكراد في العراق

يُقدّر عدد الأكراد في شمال العراق بـ 5 ملايين نسمة تقريبًا، أي ما يُعادل خمس سكّان العراق، ونسبتهم تتزايد في المناطق الوعرة في شمال شرق العراق، وهم يقيمون في أكثر مناطق العراق غنى، ويتبيّن هذا الغنى في الإنتاج الزراعي والإنتاج الحيواني مثلما يتمثّل في النّحّكّم بأهم حقول البترول العراقيّة³ وأعظمها في كركوك مثلًا. أي إن المسألة الكرديّة العراقيّة أصبحت ذات ثقل اقتصاديّ إستراتيجيّ، مما اضطرّ العراق إلى وضع دستور يسمح لهم بتولّي مناصب قياديّة، واعترف الدّستور بأنّ أرض العراق شراكة بين العرب والأكراد وأن يكون لهم نصيب في الوظائف⁴. ولكن بعد حرب الخليج الثّانية العام 1991 أصبح لأكراد العراق وضع خاص بهم، إذ استطاعوا أن يُحقّقوا في الملاذ الآمن الذي وفّرتّه حماية الطّيران الأمريكيّ والبريطانيّ كيانًا خاصًا بالأكراد، بعد أن حظرت الولايات المتّحدة إقليم شمال العراق على الطّيران العراقيّ، وجعلته منطقة

1 القضاة، محمد سلمان، م. س.

2 القضاة، محمد سلمان، م. س.

3 محمد العيسوي، فايز، مشكلة الأكراد: رؤية جغرافية، م. س، ص (1).

4 محمد العيسوي، فايز، م. س.

حظر جوي¹، ومن ثمّ حصلوا على نظام فيدراليّ لإقليم كردستان. وهذا يعني أن أكراد العراق أكثر المحظوظين سياسياً بالحصول على حقوقهم التي تتعاضد دائماً إلى أن حصلوا على إقليم كردستان شبه المستقل، فيما غيرهم من الأكراد في الدول الأخرى لا زالوا في مرحلة المطالبة بالحقوق.

د - الأكراد في سوريا

يقطن الأكراد في المناطق الرّئيسة في شمال شرقي سوريا في الجزيرة السّوريّة، كما تسكن أعداد كبيرة في مدينة حلب ومدينة دمشق، وفي محافظات حماه، وحمص، والرّقة، واللّاذقية، ومنطقة حوران². ويتكلّم معظم كرد سوريا اللّغة الكرديّة، إلّا أن الأكراد المقيمين في دمشق منذ القدم وكذلك أكراد اللّاذقية وحوران وحماه يتكلّمون العربيّة. أمّا عدد الأكراد في سوريا فلا توجد إحصائيّات رسميّة حول عددهم، لكنّهم يُعدون العدد الأقلّ عن غيرهم، بالنّظر إلى أنّ السّلطة في سوريا تعدّ كل المقيمين على الأرض السّوريّة عرباً، وهذه التّقديرات تتفاوت، وحسب إحصاءات لعام 2002 يُقدّر عددهم بمليون نسمة³.

ثالثاً. النّظام الاجتماعيّ للأكراد

لكل مجتمع نظام اجتماعيّ يضبط حركة أفرادهِ وفق منظومة من السّلوكيات والقيم ولكل نظام خصائص ومزايا عن غيره من النّظم. سنعرض أبرز صفحات النّظام الاجتماعيّ لدى الأكراد:

أ - العادات والنّقاليد

إن العادات والنّقاليد هي حصيلة التّطور التّاريخي والحضاري للأفراد، والرّمز الاجتماعيّة في البيئة الكرديّة، منذ الأزمنة القديمة وحتى الآن، حيث نجد الكرديّ لا زال يحافظ عليها في كثير من أمور حياته على الرّغم من نزعة التّطور والنّقد التي تجري في المجتمعات، إضافةً إلى حصول أي طارئ قد يشوش على العقليّة المستحدثة

1 محمد العيسوي، فايز، م.س.

2 فرست مرعي، أكراد سورية وصراع المحافظة على الهوية، مجلة رؤية البيان، 13/4/2014، ص (6).

3 مرعي، فرست، أكراد سورية وصراع المحافظة على الهوية، م.س، ص (6).

للأجيال الصاعدة.

ومن أهم التقاليد التي رصدها المستشرقون والرحالة عند المجتمع الكرديّ، وأوردها الأب «توماس بوا» احترام العائلات القديمة النّبيلة، إذ ما زال المجتمع الكرديّ ينظر بإجلال كبير إلى أحفاد رؤساء الأسر التي ناضلت من أجل الشعب الكرديّ في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، على الرّغم من أنّ هؤلاء الأحفاد ربما لم يبذلوا شيئاً يُذكر تجاه قومهم¹. إن مثل هذا السلوك يمثّل وفاء من الأكراد إزاء قادتهم السياسيّين، أو الدّينيّين، أو الاجتماعيّين، ويزيد من ترسيخ هذه العادات والتّقاليد للإستمراريّة بها بين الأجيال.

ب - مظاهر المجتمع الكرديّ بين التّديّن والإنتفاح على الغرب

إن القيم الإنسانيّة، والعادات والتّقاليد التي تسيطر على العائلة الكرديّة في علاقاتها في ما بينهم تؤثر حتمًا على علاقاتهم مع الآخرين خارج حدود العائلة إلى المؤسّسات الأخرى في المجتمع، كالمؤسّسات الدّينيّة، والسياسيّة، والتّربويّة والعمل². على الرّغم من ظهور القيم السّلفيّة، والأصوليّة، والإنغلاق وغيرها، فإن المجتمع الكرديّ يشهد ظهور قيم جديدة فيه خاصة عند الشّباب، كقيم الإنتفاح على الغرب، حيث تبنّى الشّباب الكثير من معتقدات الغرب وأزيائه ومفاهيمه، بما في ذلك ثقافة العولمة والإنترنت³.

ج - التّربية القوميّة والثّقافيّة

لقد روج الغرب في بداية القرن العشرين لكلمة الكرد والشّعور القوميّ الكرديّ، وعمّموها على جميع القبائل الجبليّة التي تتكلّم لغات مختلفة، الذين لم تجمعهم لغة واحدة، وعنصر وعرق واحد، فمثلًا اللّغة السّورانيّة التي يتكلّم بها بعض الأكراد تختلف من حيث القواعد والكلمات عن اللّغة الباديانيّة، واللّغة الفارسيّة أقرب إلى السّورانيّة. وقد نشر الاستعمار البريطانيّ الأفكار القوميّة بين الشّعوب الإسلاميّة، وذلك بهدف خلخلة

1 سوريشو، حنا، الدولة الكرديّة حقيقة أم يوتوبيا، موقع Kurdish State Arabic.htm، شوهد بتاريخ 2016 /3/11 على الرابط:

<http://www.bethsuryoyo.com/currentevents/KurdishState>.

2 حسو الزبياري، الطاهر، بنية المجتمع الكردي، نشر بتاريخ 5-23-2006، شوهد بتاريخ 2023 /6/24 على الرابط

www.aljazeera.net.

3 مرعي، فرست، أكراد سورية وصراع المحافظة على الهوية، م.س، ص (5).

أركان الإمبراطورية العثمانية، ومحاربتها في نهاية الأمر¹.

فظهر الشعور القوميّ عند العرب أولاً، كما ظهر عند الكرد، ويقول المؤرخ «ماكديول» أنّ الكرد ظهروا قوميّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بينما يرى المؤرخ «برنارد لويس» أنّ الشعور بالهوية الكرديّة ومن ثم القوميّة ظهر في بداية القرن العشرين. وتطوّر هذا الشعور عندهم تطوّرًا سريعًا لعدة عوامل، منها إعتبار الإمبراطورية البريطانيّة أن الكرد قضيةّ أمة متكاملة يستوجب على الغرب الدّفاع عنها. وتعاطف الكتاب الغربيّون مع الكرد، ما جعل الأكراد يبالغون في وحدة أصلهم ولسانهم وتاريخهم ووطنهم².

أما بالنسبة إلى النّقافة، يقول الأديب الأرمني «أبوفيان»: لقد تطوّرت القصائد الكرديّة الشعبيّة كثيرًا، وبلغت حدود الكمال، ويعتقد المؤرخ «فيلجيفسكي»: أنّ غنى الأدب الكرديّ بالقصائد الشعبيّة ليس إلا نتيجة لجهل العامة باللّغة الأم³. ولا زال الأكراد يحاولون أن يستغلّوا العصبية ويلعبون على وتر القوميّة لإقناع شعبهم المنتشر في إيران وتركيا وسوريا والعراق بأهميّة العامل القوميّ في بناء الدّولة الكرديّة.

رابعًا. الأحزاب والتّيّارات السياسيّة

تحوي المناطق الكرديّة في دول منطقة الشّرق الأوسط العديد من التّشكيلات، والأحزاب والتّيّارات السياسيّة المختلفة، منها العلمانيّ والقوميّ واليساريّ والإسلاميّ، من أبرزها:

أ - الأحزاب الكرديّة في العراق وأهمّها

تتمايز الأحزاب الكرديّة في العراق عن باقي الأحزاب الكرديّة في الأقطار المجاورة، أنّها جزء من التّكوين السياسيّ والسّلطة المركزيّة بعد عام 2003، ومن أبرزها:

1. الحزب الديمقراطيّ الكرديّ

تأسّس هذا الحزب العام 1946 ويتزعمه حاليًا مسعود البارزاني، وهو ابن مؤسس الحزب الملاً مصطفى البارزاني. وتغلب عليه النزعة القوميّة، ويعتمد إلى حد كبير

1 محمود حسين، إياد، تاريخ الأكراد ومستقبلهم، م.س، ص (3).

2 محمود حسين، إياد، م.س.

3 مجلة درر العراق، نشر بتاريخ 2010-8-10، شوهد بتاريخ 2024/6/24 على الرابط:

www.dorar-iraq.net.

على العشيرة البارزانية¹، وغالبية أتباعه يتواجدون في منطقة أربيل ودهوك في النصف الشمالي من كردستان العراق. قاد البرزاني منذ تأسيسه الحزب الحركات المسلحة ضد السلطات المركزية في بغداد، وهو لديه رغبة لا يخفيها في تأسيس دولة كردية، كما أنّ للحزب علاقات جيدة مع تركيا، والولايات المتحدة الأميركية، والدول الغربية إلا أن علاقاته مع إيران ليست على ما يرام غالباً.

2. الاتحاد الوطني الكردستاني

أسس هذا الحزب جلال الطالباراني عام 1975 إثر انشقاقه عن الحزب الديمقراطي الكردستاني. ويميل نحو القومية الكردية، مع أن لديه العديد من الرجال والكوادر ذوي ميول ليبرالية. ينتشر الحزب في السليمانية وهو على علاقة جيدة مع إيران.

3. حزب كادحي كردستان

إن هذا الحزب يساري يتزعمه قادر عزيز، وتربطه علاقات قوية بالاتحاد الوطني الكردستاني.

4. حزب الاتحاد الإسلامي

وقد تأسس العام 1992 بقيادة الشيخ صلاح الدين محمد بهاء الدين، وللحزب توجه إصلاحي لا يعتمد على المواجهة المسلحة. وهو يمثل فكر الإخوان المسلمين وله علاقات طيبة مع الجماعة الأم بمصر.

5. الحركة الإسلامية

تأسست الحركة الإسلامية في الثمانينيات وظلت لمدة طويلة أهم حزب إسلامي كردي. وهو حزب غير بعيد عن حركة الإخوان المسلمين.

6. جماعة أنصار الإسلام

ويطلق عليها (ياك) تأسست العام 2001، وهي تعدّ حديثة العهد، ويتزعمها الشيخ فاتح كريكار. انشقت عن الحركة الإسلامية وعُرفت بتشددها ولذلك نالها لقب «طالبان»

1 شحاتة، أمين، الأحزاب والتيارات السياسية الكردية، موقع الجزيرة نت، شوهد بتاريخ 2006/5/23 على الرابط:

الكردية»،¹ والتي ينسب الكثير من العمليات المسلحة ضدّ الوجود الأميركي وكذلك ضدّ حكومة إقليم كردستان، كما أنّها تتّهم بالتعاون مع تنظيم القاعدة وتصفّ أميركيًا منظمة إرهابية¹.

ب - الأحزاب الكردية في إيران

على عكس الواقع العراقيّ فإنّ الأحزاب الكردية في إيران ليست على وئام مع السّلطة القائمة في طهران، وهي أقلّ فعالية عن الأحزاب الكردية في باقي الأقطار ويعود ذلك للهوية الإسلامية الجامعة التي طرحتها الثورة الإسلامية. وأهم الأحزاب التي تأسّست في حقبات مختلفة هي:

1. جمعية بعث كردستان

تأسّست في كردستان/إيران عام 1942، مركز أنشطتها في «مهاباد» ثم تحوّل إسمها عام 1946 إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني، ولقيت دعمًا من كرد العراق.

2. الحزب الديمقراطي الكردستاني

تأسّس سنة 1946 عشية تأسيس جمهورية مهاباد الكردية، وتلقّى دعمًا من الاتّحاد السوفياتي السابق، كما دعا إلى الحكم الذاتي في كردستان في إطار الدولة الإيرانية دون تبني مسألة الانفصال.

ج - الأحزاب الكردية في تركيا

شكّلت الأحزاب السياسية الكردية في معظم الإستحقاقات الإنتخابية التّركية خلال السّنوات الأخيرة عامل دعم وتحفيز لأحزاب علمانية ويسارية محلية، على عكس الأحزاب اليمينية التي تُعادي النزعة القومية الكردية، وأهم هذه الأحزاب:

1. الحزب الديمقراطي الكردستاني

تأسّس العام 1965 من مجموعة إقطاعيين والملاك الكرد، وكان ذا إتجاهات يمينية. ولم يفكر في التعاون مع القوى اليسارية. ولكن بعد فترة سيطر التيار اليساري بعد إنتماء أشخاص إليه يحملون هذا الفكر، إلى أن تحوّل كليًا إلى حزب يساري طارداً منه كل

1 شحاتة، أمين، الأحزاب والتيارات السياسية الكردية، م. س، ص (2).

العناصر اليمينية والمحافظة. ولعب دورًا في قيادة الإضرابات العمالية.

2. حزب عمال كردستان التركيّة

هو حزب يساري خرج من عباءة الحزب الديمقراطي الكردستاني بعد الصراع الذي وقع داخل الحزب عام 1971، وكانت له صلات مع الأحزاب الكردية في العراق وإيران.

3. الحزب الإشتراكي الكردستاني

عرف بجماعة «طريق» الحريّة» وله نفوذ واسع بين المثقفين والطلّبة. قام الحزب بدور كبير في نشر الأفكار اليسارية، مستثمرًا النشر العلني أو شبه العلني الذي كان مسموحًا به في حقبة حكم حزب الشعب الجمهوري اليساري بقيادة «بولند أجاويد» وأواخر السبعينيات ويقوده أمينه العام كمال بورقاي¹.

4. حزب العمال الكردستاني

يُعرف اختصارًا بـ (PKK) وقد تأسّس في 27 نوفمبر/ تشرين الثاني 1978 بطريقة سرية على يد مجموعة من الطّلاب الماركسيين غير المؤثرين في السّاحة السياسيّة الكردية، بينهم «عبد الله أوجلان» الذي أختير رئيسًا للحزب². ويؤكّد الحزب في برنامجه الداخلي أنّ الماركسيّة اللّينينية أيديولوجيته في العمل³، ويضع نصب عينيه إنشاء دولة كردية ديمقراطية مستقلة في الشرق الأوسط، وكانت إستراتيجيته تركز على استعمال العنف وتصعيده في مواجهة عنف القوّات التركيّة. ولكن بعد القبض على عبد الله أوجلان العام 1999 أوقف الحزب أنشطته المسلّحة بدعوة من أوجلان الذي أعلن عن مبادرة سلام تتضمن الحوار مع أنقرة، ثم عاد العام 2005 إلى النّشاطات المسلّحة. هذا وللحزب نفوذ سياسيّ وعسكريّ قوي في المناطق الحدودية مع العراق وسوريا، كما يحظى بنفوذ قوي لدى العلويين من الكرد في منطقة تونجالي⁴.

1 شحاتة، أمين، الأحزاب والتيارات السياسية الكردية، م. س. ص (3).

2 فريق عمل موسوعة الجزيرة، حزب العمال الكردستاني، الجزيرة 7/6/2016، على الرابط www.aljazeera.net.

3 شحاتة، أمين، الأحزاب والتيارات السياسية الكردية، م. س. ص (3).

4 أمين شحاتة، م. س.

5. حزب السلام والديمقراطية

أسس في ديار بكر عام 2008، برئاسة «جولتان كيشانانك» ليصبح وريثاً لحزب المجتمع الديمقراطي الذي حصل على 22 مقعداً في البرلمان التركي عام 2005 عبر مرشحين مستقلين، قبل أن يُحظر الحزب لاحقاً بعد إتهامه بعلاقته مع الانفصاليين الأكراد¹.

6. حزب الشعوب الديمقراطي

تأسس حزب الشعوب الديمقراطي يوم 15 أكتوبر/ تشرين الأول 2012، ويرأس الحزب «صلاح الدين دميرطاش» مناصفةً مع السياسة الكردية لـ«فيغان يوكسيك داغ». ويقدم التنظيم نفسه بوصفه حزباً لكل مكونات وأطياف المجتمع التركي، مؤكداً أنه لا يمثل هوية أو عرقاً بعينه، غير أن الكثيرين يعتبرونه نسخة عن حزب السلام والديمقراطية الكردي، لكنه موجه إلى مناطق تركيا الغربية. كما أن هناك من يعتبره حزباً ذا توجه اشتراكي. وينص قانونه الداخلي على أنه «حزب يمثل المضطهدين والمهمشين».

د - الأحزاب الكردية في سوريا

هناك العديد من الأحزاب الكردية في سوريا تعمل لكن دون الحياة على ترخيص قانوني لها من الدولة السورية، ومن بين هذه الأحزاب:

1. الحزب الديمقراطي الكردستاني

تأسس العام 1957 وترأسه الدكتور «نور الدين زازا»، ودعا عند انطلاقه إلى تحرير كردستان وتوحيدها عن طريق الثورة. ثم لاحقاً بعد اعتقال غالبية قياديه، أعادوا النظر في برنامجهم وعملوا فقط على المطالبة بحقوق الكرد السوريين الثقافية والسياسية.

2. الحزب الديمقراطي اليساري الكردي

تأسس هذا الحزب في أواخر الخمسينيات، منتهجاً خطى الحزب الديمقراطي الكردستاني، لكنه اضطر لاحقاً إلى تغيير نهجه والسير نحو سياسة معتدلة.

1 فريق عمل سكاى نيوز عربية، خريطة بأهم الأحزاب الكردية في المنطقة، أبوظبي - سكاى نيوز عربية، نشر بتاريخ 2014/10/22، شوهذ بتاريخ 24/5/2024 على الرابط:

خامسًا: أهم الشخصيات الكرديّة في العصر الحديث

برز في المجتمع الكرديّ الكثير من الشخصيات التي أدت دورًا مهمًا في الحضارة الإسلاميّة على مختلف الصّعد، ولكنها كانت منخرطة بالبيئة العربيّة فنسبت إلى العرب، حديثًا من أهم الشخصيات الكرديّة:

- **عبد الرحمن الكواكبي:** وُلد في حلب من أصل كرديّ كاتب ومفكّر وصحفي، عمل في الصحافة، واشتهر بكتاب طبائع الاستبداد ومصارح الاستعباد¹.
- **قاضي محمّد:** مؤسس أوّل دولة كرديّة (1946) ورئيسها في التّاريخ الحديث، في مدينة مهاباد الإيرانيّة التي سرعان ما فشلت.
- **مصطفى البارزاني:** يصفه الكرد بالزّعيم الخالد، نتيجة قيامه بالحركة المسلّحة ضد الحكومة العراقيّة. في عام 1945 قرّرت الحكومة العراقيّة القضاء على حركة البارزاني فضاقت به السّبيل وهرب إلى الاتّحاد السّوفياتي.
- **جلال الطّالباني:** أوّل رئيس كرديّ للعراق (2014-2005) وزعيم حزب الاتّحاد الوطني الكردستاني، ولد العام 1933، وانضم إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة البارزاني. سافر العام 1957 إلى موسكو ودمشق مرّوجًا لدولة كرديّة.
- أسّس الطّالباني لنفسه إقليمًا وحكومة في السّليمانية عام 1992، لكنّه دخل في صراع نفوذ على المنطقة مع مسعود البارزاني. احتفظ الطّالباني بعلاقات جيّدة مع الأميركيّين، تم اختياره رئيسًا مؤقتًا للعراق العام 2005، وجدّد انتخابه من قبل مجلس النّواب لرئاسة من أربع سنوات في 2006².

- **مسعود البارزاني:** رئيس إقليم كردستان العراق منذ (2005)، وزعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني، ولد عام 1946م وكان للوجود الإسرائيليّ شمال العراق دور في علاقته بالإسرائيليّين، فقد منحه منظمة تسمى الجمعيّة اليهوديّة العراقيّة ومقرّها في نيويورك، لقب منقذ الشّعب اليهودي، لأنّه كما جاء ببيانها في الرّابع من أبريل 1987 أنقذ حياة خمسة آلاف يهودي عراقي بين عامي 1970 و 1973.

1 حافظ، جمال، الاكرد بين الانتماء الاسلامي او التعصب العرقي، ص (4)، جريدة حربة بوست، 2015 /6/25.

2 حافظ، جمال، الاكرد بين الانتماء الاسلامي او التعصب العرقي، م.س، ص (4).

هذا بالإضافة إلى التعاون الاستخباراتي المستمر مع الإسرائيليين¹.

- **عبد الله أوجلان**: أسس عبد الله أوجلان فرعاً لحزب العمال الكردستاني في تركيا عام 1978 بالإشتراك مع أقرانه من الطلاب الكرد ذوي الميول الشيوعيّة، حيث قاد الحزب بزعامته صراعاً دموياً عام 1984 ضد قوات الأمن التركيّة، كما اتّجه إلى تصفية معارضيه من الأحزاب الكرديّة الأخرى²، ويُعد بطلاً قومياً مناضلاً في نظر العديد من الأكراد. تم اعتقاله عام 1999، وأصدرت تركيا قراراً بإعدامه يوم 1999-6-29، إلا أن القرار لم ينفذ حتى الآن.

إذ أن الولايات المتّحدة أيّدت قرار إعدام أوجلان كونه «إرهابياً دولياً» إلا أنّ القرار أثار إستياء الاتّحاد الأوروبي الذي اشترط على تركيا إلغاءه لنيل عضويّة الاتّحاد، فألغى البرلمان التركي عقوبة الإعدام على أوجلان وحولها إلى سجن مؤبّد 2001⁽³⁾.

- **صلاح الدين ديمر طاش**: سياسي وحقوقى تركي من أصول كرديّة إنتخب في البرلمان التركي لثلاث حقب متتالية. وكان رئيساً لحزب السّلام والديمقراطيّة، مناصفة، ثم أصبح رئيساً لحزب الشّعوب الديمقراطي مناصفة أيضاً، فحقّق بقيادته مفاجأة كبرى في تشريعات 2015 بحصوله على نحو 78 مقعداً في البرلمان. ولد صلاح الدين ديمر طاش يوم 10 أبريل / نيسان 1973، واشتهر بدعوته المستمرّة إلى عصيان لغوي وثقافي يرتكز على فرض اللّغة والثّقافة الكرديّة في المجالات المهنيّة والاقتصاديّة⁽⁴⁾.

سادساً. خلاف الأكراد

يبقى الخلاف الجوهرى والأساسي بين الأكراد أنفسهم يتمحور حول توقيت إستقلال إقليم كردستان العراق وحول طبيعة نظام الحكم وشكل الدّولة ما أجج الخلافات أكثر فأكثر.

1حافظ، جمال، م.س.

2 حافظ، جمال، م.س.

3 حافظ، جمال، الأكراد بين الانتماء الاسلامي او التعصب العرقي، م.س، ص (4).

4 فريق عمل الجزيرة نت، صلاح الدين ديمر طاش، نشر بتاريخ 6/9 /2015، شوهد بتاريخ

2024 /5/24 على الرابط:

كذلك هناك إختلاف في توجّهات وتحالفات الحركات الكرديّة التي تنقسم سياسياً وإيديولوجياً، فإنّ طبيعة المجتمع الكرديّ قد ساعدت أيضاً في الإختلاف نتيجة التنوّع الديني واللّغوي. ففي إقليم كردستان رغم التّعاشيش البارد لسنوات بين الحزب الديمقراطي والاتّحاد الوطني، لا تزال الإدارات في أربيل والسليمانية مستقلة بعضها عن بعض، ولا تزال قضايا مثل توحيد الأجهزة الأمنيّة دون حل⁽¹⁾.

إن كرد تركيا مثلاً ينشطون من خلال حزب العمّال الكردستانيّ يساريّ التّوجه الذي عاد إلى العمل المسلّح بعد سنين من اعتقال قائده «عبد الله أوجلان»، وهذا الأخير كان يرى قيادات كرد العراق مجرد زعامات إقطاعيّة مصيرها الهزيمة، ولذلك لم يجد كرد تركيا ملاذاً لدى أشقائهم في العراق، فظلّوا في منطقة الشريط الحدودي المعقّدة والعصيّة على كل خصومهم⁽²⁾.

خاتمة

يتّضح ممّا تقدّم تشابك المسألة الكرديّة وإختلاف الرّؤى بين الأكراد أنفسهم حول مستقبلهم، ولكن لا يمكن فصل الأزمات الكرديّة عن أزمات المنطقة وبالأخص في هذه الحقبة الزمانيّة حيث أضحت العلاقات الإقليميّة والدّوليّة شديدة التّدخل والتّشابك. فالأكراد بغض النّظر عن أصولهم التّاريخيّة والخلاف حول تشكّلهم الحضاري أو القوميّ، هم جماعة بشريّة قائمة تتمايز في اللّغة وبعض العادات والتقاليد عن محيطها وتطمح لتوكيد خصوصيّاتها. وبالوقت عينه يجمعها بالمحيط كثير من المشتركات وفي طليعتها الدّين الإسلاميّ بشموليّته الجامع الأوّل لشعوب المنطقة، إضافةً للإنتماء الحضاري والتّاريخي وهموم التّتمية بكافة أبعادها حيث تعاني كلّ جغرافيا المنطقة من مشكلات متشابهة. فالأصلح للكرد مقارنة الواقع بموضوعيّة وواقعيّة والإستفادة من تجارب الانفصال وفشلها في الماضي، وعدم المراهنة على الدّول الكبرى أو الإرتقاء في أحضان العدو الصّهيونيّ، فهم جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلاميّة وسلوك طريق النّفاهم

1 العبيدي، مثني، محفّرات داعش: هل يستطيع الأكراد بناء دولتهم على أنقاض الفوضى الإقليميّة؟
2 الطلعة، قمصان، الدولة الكرديّة.. هل من فرصة؟ ص (3)، نشر بتاريخ 2006/5/23، شوهد بتاريخ

والحوار مع دولهم لإنتراع الحقوق بشكل سلمي، ولا بدّ للدول التي يقيم فيها الأكراد من الاعتراف لهم بحقوق إنسانية نصّت عليها المواثيق الدّولية ولم تعارضها الشريعة الإسلامية كالتعليم بلغتهم الأم والتحدث بها واستخدامها كلغة رسمية ثانية في مناطقهم والمحافظه على تراثهم الفنّي وما شابه، فالتعدد اللّغوي والثّقافي موجود في كثير من دول العالم دون أن يحدث نزاعات أو يחדش بوحدّة وهويّة الدّولة، بالإضافة لعدم التّمييز القانوني والواقعي في الحقوق السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والتّقديرات الإنمائيّة والخدماتيّة تبعاً لمفهوم المواطنة الواحدة التي يتساوى فيها جميع من يحمل جنسيّة بلد ما بالحقوق والواجبات..

قائمة المصادر والمراجع

أ. الكتب

1. أمخيس، حنان، أصل الأكراد، ديوان العرب، الجزء الأول، قسم الدراسات والأبحاث، 2004 / 1/19.
2. العبيدي، مثنى، محفّرات داعش: هل يستطيع الأكراد بناء دولتهم على أنقاض الفوضى الإقليمية، المركز الاقليمي للدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 2014 / 10/30.
- ب. المجلّات والدّوريات
3. حسين، إياد، تاريخ الأكراد ومستقبلهم، مجلة تحولات، 8 حزيران 2006.
4. مرعي، فرست، أكراد سورية وصراع المحافظة على الهوية، مجلة رؤية البيان، 2014 / 4/13.
5. فيلد، هنري، جنوب كردستان، دراسة أنثروبولوجية، ترجمة جرجيس فتح الله، الناشر: منشورات الجمل، دار ناراس للطباعة والنشر، طبعة 1، مجلد 1، 2012/8/2.
- ج. المواقع الإلكترونيّة
6. ترك برس، نبذة من تاريخ الأكراد في الشرق الأوسط، 2015 / 4/14،

<http://www.turkpress.co/node.7481/>

7. حافظ، جمال، الأكراد بين الانتماء الإسلاميّ أو التعصب العرقيّ، جريدة حرية بوست، 2015 / 6/25.
8. حسو الزبياري، الطاهر، بنية المجتمع الكرديّ، نشر بتاريخ 23/5/2006، شوهد بتاريخ 24/6/2023 على الرابط

www.aljazeera.net.

9. خوين، جكر، تاريخ كردستان، مكتبة جياي كورمنج، سنوكهولم 1985، ترجمة: مسور، خالد، مطبعة أميرال للطبع والنشر والتوزيع، بيروت 1/7/1996، شوهد بتاريخ 2024 / 6/25 على الرابط <https://www.dorar-aliraq.net/threads8190/>
10. دالاي، غالب: القوميّة الكرديّة ستصوغ مستقبل المنطقة، موقع نون بوست، ترجمة وتحرير

نون بوست، مركز الجزيرة للدراسات، نشر بتاريخ 12 يوليو 2015، شوهده بتاريخ 19/5/2024،
على الرابط:

<https://www.noonpost.com/7505>.

11. دلشاد، عبد الله: حلم الدولة الكردية، الدعوة لاستفتاء حول استقلال إقليم كردستان العراق..
تواجه خلافات وعقبات، موقع المركز اللبناني للأبحاث والاستشارات الإلكترونية، نشر بتاريخ 17
تموز 2014، شوهده بتاريخ 23/5/2024، على الرابط:

<https://center-lcrg.org/index.php?s=4&id=11576>

12. ديمر طاش، صلاح الدين، فريق عمل الجزيرة نت، نشر بتاريخ 9/6/2015، شوهده بتاريخ
24/5/2024 على الرابط:

www.aljazeera.net.

13. سلمان القضاة، محمد، أكراد إيران.. حقائق ومعلومات، نشر بتاريخ 3/9/2007 على الرابط:
<http://www.aljazeera.net>.

14. سوريشو، حنا، الدولة الكردية حقيقة أم يوتوبيا، موقع Kurdish State Arabic.htm
<http://www.bethsuryoyo.com/currentevents/KurdishState>

15. شحاتة، أمين، الأحزاب والتيارات السياسية الكردية، موقع الجزيرة نت، شوهده بتاريخ
23/5/2006 على الرابط:

www.aljazeera.net.

16. الطلعة، قمصان، الدولة الكردية.. هل من فرصة؟، موقع الجزيرة 23/5/2006.

17. فريق عمل ساسة بوست الأكراد.. التشتت وحلم الاستقلال، 18/2/2014،

<http://www.sasapost.com>.

18. فريق عمل سكاى نيوز عربية، خريطة بأهم الأحزاب الكردية في المنطقة، أبو ظبي - سكاى
نيوز عربية، نشر بتاريخ 22/10/2014، شوهده بتاريخ 24/5/2024 على الرابط:

www.skynewsarabia.com.

19. فريق عمل موسوعة الجزيرة، حزب العمال الكردستاني، الجزيرة 7/6/2016، على الرابط
www.aljazeera.net.

20. محمد العيسوي، فايز، مشكلة الأكراد: رؤية جغرافية، كتب المقال بتاريخ 28.2.2012،

http://www.alukah.net/world_muslims.0/38776/

21. محمود عبد الستار، عمر، حق تقرير المصير لكورد العراق والاتجاه نحو الكونفيدرالية، موقع
نون بوست 18/3/2015،

<https://www.noonpost.net/content.5884/>

22. ميران، عمر، مؤرخ كردي يكشف حقائق خطيرة عن تاريخ الأكراد: موقع النهى،
8/6/2008.

العقل واضطراباته عند اللبنانيين من خلال أمثالهم

The Mind and Its Disorders Among the Lebanese People Through Their Proverbs

سماح يحيى العرجة

Samah Yahya El Arja

تاريخ القبول 2024 /8/20

تاريخ الاستلام 2024 /8/1

الملخص

لا يمكن إنكار أهمية عقل الإنسان، فهو يميّز البشر عن الحيوانات ويُعدّ مقياساً لنجاح الشخص أو فشله. وتُعدّ الأمثال اللبنانية انعكاساً للقيم الثقافية والفلسفية، وتُستخدم لدراسة مواقف اللبنانيين تجاه العقل. وقد اعتمد هذا البحث على مجموعة من الأمثال اللبنانية، مسلطاً الضوء على نظرة اللبنانيين للعقل كمصدرٍ للحكمة وحلٍّ للمشكلات. إذ يؤكّدون من خلالها أنّ الذكاء صفة أساسية، ويصفون الذكي بأنه سريع البديهة وناجح في الحياة. وفي الجهة المعاكسة فقد يتم انتقاد الجهل والغباوة، إذ يساوي اللبنانيون بين قلة الذكاء والفشل وعدم الكفاءة. كما تعمّق البحث في المصطلحات المختلفة المستخدمة لوصف الذكاء والغباء، مقدّماً رؤية حول الثقافة والقيم اللبنانية.

الكلمات المفتاحية: العقل - الذكاء - الأمثال اللبنانية - الثقافة - الجهل.

Abstract

The importance of the human mind is undeniable, it distinguishes humans from animals and serves as a measure of one's success and failure. Lebanese Proverbs are reflecting cultural and philosophical values and used to study Lebanese attitudes towards the mind. This research is based on several collections of Lebanese proverbs, by highlighting the Lebanese view of the mind as a source of wisdom and problem-solving. They emphasize intelligence as an essential trait and describe intelligence as quick-witted and successful in life. Conversely, ignorance and stupidity are criticized, and the Lebanese are equating lack of intelligence with failure

and incompetence. The study delves into various terms used to describe intelligence and foolishness, offering insights into Lebanese culture and values.

Keywords: mind, intelligence, Lebanese Proverbs, culture, ignorance.

1- تمهيد

لا شكّ في أهميّة العقل بالنسبة إلى الإنسان. ونظرًا إلى هذه الأهميّة، قيل: «الإنسان حيوان عاقل، أي: إنّ ما يميّز الإنسان عن الحيوان هو العقل. وشتان بين العقل الإنسانيّ، والغريزة الحيوانيّة. ويُقيّم الإنسان بعقله، لأنّه هو الموجّه لأفكاره وأعماله، وهو أساس نجاحه وفشله، حتّى إنّّه يحاسب بحسب ذكائه وعقله ومدى صحّة هذا العقل واضطرابه.

ولا شكّ في أهميّة الأمثال من النواحي البلاغيّة، والوطنية، والتربويّة، والجمالية، والقانونيّة، والحضاريّة⁽¹⁾. ولعلّ أبرز أهميّة لها هي الأهميّة الحضاريّة، فالأمثال مرآة صادقة لحضارة الشعب، وضروب تفكيره، ومناحي فلسفته، ومثله الأخلاقيّة والاجتماعيّة. والباحث يستطيع أن يدرس جزءًا من حضارة شعب، استنادًا إلى أمثاله. ولعلّ بحثي هذا الذي يجمع بين الأهميّتين: أهميّة العقل وأهميّة الأمثال، خير دليل على ما أقول. وكُتّب الأمثال اللبنانية كثيرة⁽²⁾، لعلّ أهمّها ما اعتمدتُ إليه في دراستي هذه، وهي بحسب ترتيبها الزمنيّ:

أ- **Proverbes et dictons Syro-Libanais**، للمونسينيور ميشال فغالي.

وقد رمزت إليه في الحاشية بـ«فغالي».

ب- **A dictionary of Modern Lebanese proverbs**، للدكتور أنيس

فريحة. وقد رمزت إليه في الحاشية بـ«فريحة».

ج- **Proverbes populaires du Liban Sud Saïda et ses environs**،

لفردينان يوسف أبيلا. وقد رمزت إليه في الحاشية بـ«أبيلا».

د- **الأمثال العاميّة وأثرها في المجتمع**، لعبد الرزاق رحم. وقد رمزت إليه في الحاشية

1 للتوسّع في أهميّة الأمثال من هذه النواحي، انظر: موسوعة الأمثال اللبنانية 1/20-23.

2 المرجع نفسه 1/37-43.

بـ«رحم».

هـ - موسوعة الأمثال اللبانية، للدكتور إميل بديع يعقوب. وقد رمزت إليه في الحاشية بـ«يعقوب».

والأرقام، في الحواشي، بعد هذه الرموز، تمثل أرقام الأمثال فيها، لا أرقام صفحاتها.

2- تعريف العقل

العقل، في اللغة، هو ما يُقابل الغريزة التي لا اختيار فيها. وما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتّصديقات، وما به يتميّز الحسن من القبيح، والخير من الشرّ، والحقّ من الباطل⁽¹⁾. وقيل: هو مَرَكز الفِكر والحُكم والمُخَيِّلة وسواها، ومجموع القوى العقلية، وما يكون به التفكير والاستدلال عن غير طريق الحواس⁽²⁾.

3- أهميّة العقل عند اللبانيين

يمجّد اللبانيون العقل، ويعدونه زينة الإنسان وجوهره، ومصدر تفوّقه على سائر الكائنات. قالوا في أهمّيته: «العقل زينة لكلّ رزينة»⁽³⁾، و«الإنسان زينته عقله»⁽⁴⁾، و«أغنى الغني العقل»⁽⁵⁾، و«خير المواهب العقل»⁽⁶⁾، و«كلّ شي كثير رخص إلا العقل: كلّ ما كثير غلي»⁽⁷⁾، و«الفقير فقير العقل»⁽⁸⁾.

واستخدام العقل في الأمور الحياتية يُجنّبنا الخسارة والنّدم، ويحلّ مشكلاتنا، قالوا: «ما حدا عقل وندم»⁽⁹⁾، و«ما حدا تَقَلّ عَقْلُو وندم»⁽¹⁰⁾، و«كلّ مين عَقْلُو براسو بيغرف خلاصو»⁽¹¹⁾، و«عقلك براسك بتعرف خلاصك»⁽¹²⁾.

1 المعجم الوسيط، مادّة (عقل).

2 المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادّة (عقل).

3 فريحة 2390؛ أبيلا 2541؛ يعقوب 4806.

4 فريحة 712؛ يعقوب 1432.

5 يعقوب 615.

6 يعقوب 3265.

7 فريحة 2922؛ يعقوب 5710.

8 يعقوب 5169.

9 فريحة 3348؛ يعقوب 6501.

10 يعقوب 6490.

11 يعقوب 5790.

12 فغالي 120؛ فريحة 2397؛ يعقوب 4815.

والعاقل لا يُثرثر، ف«إذا تمّ العقل، نقص الكلام»⁽¹⁾، وأشاروا إلى الكبير بالعمر الذي يستفيد من خبراته وتجاربه الحيائية، فيكون عقله راجحاً متزناً، قائلين: «عقل الكبير كبير»⁽²⁾.

وكلّ مُعجَب بعقله، مهما كان مستوى هذا العقل، قالوا: «سبحان الراضي الناس بعقولا»⁽³⁾، و«سبحان مفرّق (أو مقسم) العقول»⁽⁴⁾، و«كلّ مين عقلو عاجبو (أو بعقلو راضي)»⁽⁵⁾، و«لما تفرقت العقول كلّ إنسان عَجِبو عقله»⁽⁶⁾، و«هات للمجنون ألف عقل، ما بيعجبو غير عقلو»⁽⁷⁾.

وفي نظرة تشاؤميّة إلى الإنسان، يرى النّاس أنّ قلة العقل هي المسيطرة على النّاس، وليس الذكاء أو الفطنة. قالوا: «لو قلة العقل بتوجّع، أغلب النّاس بتقضي عمرها بالصّريخ»⁽⁸⁾، و«العقل زينة، والمهابيل بالذّينة»⁽⁹⁾.

والعقل هو معيار تقييم الإنسان، ومحاسبته في أعماله وأقواله ونواياه. قالوا: «حساب المرء ع قدّ عقلو»⁽¹⁰⁾، و«اعطيني عقل وحاسبني»⁽¹¹⁾، و«إلي ما لو عقل ما لو خطيّة»⁽¹²⁾.

ويقابلون بين العاقل والجاهل، فيفضّلون الأوّل ولو أخرس أو عدوّاً، على الثّاني ولو ناطقاً أو صديقاً. قالوا: «أخرس عاقل، ولا جاهل ناطق»⁽¹³⁾، و«عدوّ عاقل ولا صديق جاهل»⁽¹⁴⁾. وأشاروا إلى سرعة فهم العاقل لما يُطلب منه بعكس الجاهل، فقالوا: «العاقل

1 يعقوب 289.

2 فريحة 2391؛ يعقوب 4808.

3 فريحة 1878؛ يعقوب 3795.

4 فريحة 1880؛ يعقوب 3796.

5 أبيل 2610؛ فريحة 2971؛ يعقوب 5791.

6 فغالي 321؛ فريحة 3204؛ يعقوب 6231.

7 فغالي 230؛ فريحة 4041؛ يعقوب 7778.

8 يعقوب 6266.

9 النّقافة الصّحيّة والغذائيّة وآدابها في الأمثال الشّعبيّة، ص 166.

10 أمثال الأقدمين في جبة المقدمين، ص 118.

11 فغالي 733؛ فريحة 246؛ يعقوب 582.

12 فغالي 712؛ فريحة 592؛ يعقوب 1197.

13 فغالي 107؛ فريحة 115؛ يعقوب 237.

14 فريحة 2348؛ يعقوب 4714.

من غمزة، والجاهل من رفصة»⁽¹⁾.

4- الذكاء والفطنة

الذكاء: سرعة الفهم والفطنة، وقيل: شدة قوة للنفس معدة لاكتساب العلوم. وقيل: قدرة على التحليل والتركيب والتمييز والاختبار وعلى التكيف حيال المواقف المختلفة⁽²⁾. وعرفه مجمع اللغة العربية بالقاهرة بأنه «القوة العقلية التي تتحلّى في سلامة التفكير، والقدرة على الفهم وإدراك المعاني الكلية والمجردات، وفي سرعة التعلم، وإدراك العلاقات بين الأشياء والموضوعات والأفكار»⁽³⁾.

والفطنة هي الذكاء، والنباهة، والمهارة⁽⁴⁾، أو هي الحنق والمهارة، وقوة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه⁽⁵⁾. وتقول العرب: «فلان ذكيّ، فطن، فهم، زكين، ندس، لودعيّ، ألمعيّ، أروع. حادّ الذهن، متوقّد الذهن، صافي الذهن، شهّم الفؤاد، ذكيّ القلب، خفيف القلب، ذكيّ المشاعر، حديد الفؤاد، مُرَهَف الذهن، حديد الفهم، دقيق الفهم، سريع الفهم، سريع الفطنة، سريع الإدراك، صادق الحدس، شاهد اللب، يقظ الفؤاد، مُلْتَهَب الذكاء»⁽⁶⁾.

ويسمّي اللبنانيون الذكاء أيضاً «شطارة»، والذكيّ شاطرًا ونيبهاً وليبياً. وإذا كانوا يعتبرون «العقل زينة»، و«أغنى الغنى»، و«خير المواهب»، كما تقدّم القول، فما بالك بتقديرهم للذكاء والذكيّ؟

رأوا أولاً أنّ أمارات الذكاء تظهر منذ الطفولة، فقالوا: «الذكيّ الفصيح من داخل البيضة (أو من تحت إمّو) بصيح»⁽⁷⁾، وأنّ أحداً لا يُنكر فائدة الذكاء في الحياة، ف«الشطارة مش منكرة»⁽⁸⁾، والذكيّ يُحسّن استثمار خيرات الدنيا: «الذني فريسة الشاطر»⁽⁹⁾، و«الشاطر بشطارتو»⁽¹⁰⁾، أي: إنّ الرزق مُتوافر أمام الجميع، فيأخذ منها

1 فريحة 2323؛ يعقوب 4652.

2 المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة (نكو).

3 المعجم الوسيط، مادة (نكو).

4 المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة (فطن).

5 المعجم الوسيط، مادة (فطن).

6 نجعة الزائد 97-96/1.

7 فريحة 1649؛ يعقوب 3394.

8 فريحة 2027؛ يعقوب 4062.

9 فريحة 1949؛ يعقوب 3394.

10 فريحة 1946؛ يعقوب 3937.

كُلُّ إنسان بحسب نكاته.

واللبنانيون يهتئون الذكيّ كُلّما نجح في أعماله وحقّق الأرباح، قائلين: «الشاطر ما يموت»⁽¹⁾. وهم ينصحون بصدقة الأذكىء ومعاشرتهم، فـ«عشرة الشّطار بتطوّل الأعمار»⁽²⁾. ويُفضّلون الشّيطان الذكيّ على الملاك الغبيّ: «الشّيطان المدمشق، ولا الملاك الغشيم»⁽³⁾. ووصفوا الذكيّ بأنّه:

أ- سريع الفهم للأمر واستيعابها من أدقّ علاماتها، قالوا: «اللّيب من الإشارة بيّفهم»⁽⁴⁾، و«بيّفهم ع الطّير»⁽⁵⁾، و«بيكمشا (أو بيلقّطاً) وهي طيارة»⁽⁶⁾.

ب- سريع في إنهاء عمله: «وقت ما يكون الفان حلّ كيسو، يكون الشاطر باع واشتري»⁽⁷⁾.

ج- يقوم بعمله بمفرده بدون الاستعانة بغيره: «الشّاطرة بتقضي حاجتا، والبلها بتنادي جارتا»⁽⁸⁾.

د- يُنجز عمله مهما كانت أدواته سيئة: «الشّاطرة بتغزل بإجر حمار، والعكشة بتعجز النّجار»⁽⁹⁾.

هـ- يتخلّص من المشكلات التي يقع فيها، والشّدّة التي يحج نفسه فيها، مهما كانت صعبة، فـ«كيف ما شلحتو بيحي واقف»⁽¹⁰⁾، و«مثل البسّ، كيف ما رميتو، بيحي

1 يعقوب 3938.

2 يعقوب 4765.

3 يعقوب 4211. المدمشق: الذكيّ المتحصّر. والنسبة إلى دمشق، وكانت عند اللبنانيين قديماً رمزاً للتطوّر الحضاريّ.

4 فريحة 3173؛ يعقوب 6155. ولعلّ المثل من قول الشّاعر (من الطّويل):
إشارتنا في الحبّ غمز عيوننا
وكلّ لبيب بالإشارة بيّفهم
(البيت بلا نسبة في موسوعة الأمثال اللبنانيّة 3/1245).

5 يعقوب 2333.

6 فريحة 1114؛ يعقوب 2344.

7 يعقوب 7955. الفان: الكسول البليد. حلّ كيسو: تهيأ لأخذ الدّراهم للشّراء. وفي المثل إشارة إلى وضع اللبنانيين قديماً المال في كيس يُرط على الخصر.

8 فريحة 1948؛ يعقوب 3940.

9 فريحة 1947؛ يعقوب 3939.

10 فغالي 480؛ فريحة 3060؛ يعقوب 5939.

واقف»⁽¹⁾، و«ارميه بالبحر، بيطلع وبتمو سمكة»⁽²⁾، و«بيزُمط من خروم الشبك»⁽³⁾.
 و- يعرف كيف يصل إلى هدفه بالطريقة المناسبة: «بيعرف من أين تُؤكل الكتف»⁽⁴⁾.
 ز- يُنجز أعمالاً مستحيلة الإنجاز على غيره: «بزُوج الذكر ع الذكر»⁽⁵⁾، و«أطلع من الأقرع شعر، ومن الحافي نعل»⁽⁶⁾، و«بفصل للبرغوث قميص»⁽⁷⁾، و«بيلحس الدبس عن الطحينة»⁽⁸⁾، و«بيلهي الحمار (أو الجحش) عن عليقو»⁽⁹⁾.
 ح- لا يحتاج إلى الوصية والنصيحة والإرشاد إذا أرسلته ليؤدّي لك عملاً: «ابعت الشاطر (أو الحكيم أو العاقلة)، ولا توصيه»⁽¹⁰⁾، و«ودّ الشاطر ولا توصيه، وودّ الغشيم وتبع فيه»⁽¹¹⁾.

ومنهم من يرى عكس ذلك، فيقول: «ابعت الشاطر (أو الحكيم أو العاقل)، ووصيه»⁽¹²⁾. وهذا الاختلاف صدى لاختلاف العرب في الأمر نفسه، فقد قالوا: «أرسل حكيمًا، ولا توصيه»⁽¹³⁾، كما قالوا: «أرسل حكيمًا وأوصيه»⁽¹⁴⁾. والواقع أنّ الذكيّ، بحكمته، لا يحتاج إلى من يُرشده، ولكنّه يحتاج أحيانًا إلى معرفة ما يريد من يرسله لقضاء أمر ما، فالأهواء مختلفة، وكذلك الأنواق والغايات. فإن لم تُعرّفه ما في نفسك، فقد سُمته علم الغيب، لكنّه، في كلّ الأحوال، لا يحتاج كالرجل غير الذكيّ، إلى كثرة الوصايا، وتتنوع الإرشادات.

- 1 فريحة 3481؛ يعقوب 6758.
- 2 فغالي 674؛ فريحة 177؛ يعقوب 448. ويُقال أيضًا في صاحب الحظّ.
- 3 يعقوب 2313. والمثل عربيّ قديم (مجمع الأمثال 1/42).
- 4 يعقوب 2313. والمثل عربيّ قديم (مجمع الأمثال 1/42).
- 5 يعقوب 1799.
- 6 أبيلا 304؛ يعقوب 1868.
- 7 فريحة 957؛ يعقوب 1959.
- 8 أبيلا 1185؛ يعقوب 2347.
- 9 فغالي 2745؛ فريحة 1117؛ يعقوب 2049، 2351.
- 10 فريحة 24؛ أبيلا 1790؛ يعقوب 50.
- 11 فريحة 4107؛ يعقوب 7914. الغشيم: الغبيّ.
- 12 يعقوب 51.
- 13 جمهرة الأمثال 1/98؛ ومجمع الأمثال 1/303؛ والمستقصى 1/140.
- 14 مجمع الأمثال 1/303؛ والمستقصى 1/140.

ولأنَّ «حساب المرء عَ قدَّ عقلو»⁽¹⁾، فإنَّ «غِلْطَة الشَّاطِرِ بألف غلطة»⁽²⁾؛ أي: إنَّ خطأه فادح يُلام عليه أشدَّ اللوم؛ لأنَّ ذكاهه كان حَرِيًّا بتجنبيه الخطأ.

5- الجهل والغباء

الجهل، في اللِّغة، عدم العلم، وعدم المعرفة⁽³⁾، أو عدم العلم بما من شأنه أن يكون معلوماً⁽⁴⁾. وهو، في علم الكلام، اعتقاد الشَّيء على خلاف ما هو عليه⁽⁵⁾.

ويُلاحظ من تعريفه أنَّه يُقابل العِلْم؛ أمَّا عند اللَّبنانيِّين، فهو يُقابل العقل، بدليل قولهم: «الجاهل بيثَعَلَم من كيسو، والعاقِل من كيس غيرو»⁽⁶⁾، و«جهد الجاهل بثيابو، وجهد العاقِل بِكُتابو»⁽⁷⁾، و«عداوة العاقِل، ولا صداقة الجاهل»⁽⁸⁾، و«عدو عاقِل، ولا صديق جاهل»⁽⁹⁾.

والغباء، في اللِّغة، عدم الفِطنة⁽¹⁰⁾، أو السِّخافة، والجهل⁽¹¹⁾. والغبيُّ هو الأبله، الأخرق، القليل الفِطنة، غير الذكيِّ، العاجز عن إصدار الحكم السليم⁽¹²⁾.

وتقول العرب: «هو بليد فَدَم، غبيِّ، أبله، غافل، مُغفَل، ضعيف الإدراك. بطيء الحِسِّ، مُظَلِم الحِسِّ، زَمِن الفِطنة، سَقِيم الفهم، بليد الفكر، غليظ الدَّهن، مُتخَلَّف الدَّهن، صلد الدَّهن، مُصنَّت القلب، أغلف القلب، عمه الفؤاد، خامد الفِطنة... مُظَلِم البصيرة، أعشى البصيرة، أعمى البصيرة»⁽¹³⁾.

وإذا كان الجهل يُقابل العقل، والغباء يُقابل الفِطنة أو الذِّكاء، فهما ليسا مترادفين، لكنَّ اللَّبنانيِّين لا يُميِّزون بينهما في أمثالهم، ويستخدمون الكلمات: جاهل، غبيِّ، غَشِيم،

1 أمثال الأقدمين في جبة المقدمين، ص 118.

2 فغالي 122؛ فريحة 2534؛ يعقوب 5035.

3 المنجد في اللِّغة العربيَّة المعاصرة، مادة (جهل).

4 المعجم الوسيط، مادة (جهل).

5 المرجع نفسه، الصَّفحة نفسها.

6 فريحة 1236؛ يعقوب 2600.

7 يعقوب 2689.

8 فريحة 2342؛ يعقوب 4706.

9 فريحة 2348؛ يعقوب 4714.

10 المعجم الوسيط، مادة (غبي).

11 المنجد في اللِّغة العربيَّة المعاصرة، مادة (غبي).

12 المرجع نفسه، الصَّفحة نفسها.

13 نجعة الزائد 1/98.

بهيم، طَلَطَمِيس، مُعَقَّل، كَمْرَادَفَات.

وضربوا المثل بالحمار في الغباوة. فقالوا: «أحمر من الحمار»⁽¹⁾. وقالوا في شديد الغباوة: «حمار بأربع دينين»⁽²⁾. ومن أمثالهم: «سألو جحي: مين أحمر من الثاني: ألي زرع السطح، يما ألي قَدَم البدار؟ قال: حمار خي حمار»⁽³⁾.

ووصفوا الجاهل أو الغبي بأنه «بملي بالسلة»⁽⁴⁾، و«ما بيغرف الألف من العصا»⁽⁵⁾، و«ما بيغرف البيضة مين باضا، ولا القن مين عمرو»⁽⁶⁾، و«ما بيغرف تلت التلاتة إديش»⁽⁷⁾، و«ما بيغرف الخمس من الطمس»⁽⁸⁾، و«ما بيغرف كوعو من بوعو»⁽⁹⁾، و«ما بيغرف ليلو من نهارو»⁽¹⁰⁾، و«منقلو أعزب، بقول: ولادو وين»⁽¹¹⁾، و«منقلو: تيس. بقول: احلبو»⁽¹²⁾، و«منقلو: أرملة. بقول: صاحب البيت وين؟»⁽¹³⁾.

ومن صفات الجاهل أنه:

- أ- لا يستفيد من تجارب غيره، قالوا: «الجاهل ما بيثعلم إلا من كيسو»⁽¹⁴⁾.
 ب- يضرب نفسه بأعماله الطائشة، ف«الجاهل عدو نفسه»⁽¹⁵⁾.
 ج- يُثعب نفسه لإنجاز عمل يقوم به العاقل دون تعب: «خفة الراس بتعب الساقين»⁽¹⁶⁾.

1 يعقوب 216.

2 فريحة 1469؛ يعقوب 3031.

3 يعقوب 3784.

4 فغالي 1181؛ فريحة 998؛ يعقوب 2060.

5 فريحة 3314؛ يعقوب 6440.

6 فغالي 2924؛ فريحة 3315؛ يعقوب 6441.

7 فغالي 135؛ فريحة 3316؛ أبيلا 1766؛ يعقوب 6442.

8 فغالي 135؛ فريحة 3319؛ يعقوب 6445. والطمس: كلمة لا معنى لها أتت بها للإلتباس الموسيقي مع كلمة «خمس».

9 فغالي 135؛ فريحة 3324؛ يعقوب 6451. الكوع: طرف الزند الذي يلي الإبهام. البوع: عظم يلي إبهام الرجل.

10 يعقوب 6452.

11 فريحة 3900؛ أبيلا 53؛ يعقوب 7545.

12 فريحة 3901؛ الحر 292؛ يعقوب 7546.

13 فريحة 3899؛ يعقوب 7544.

14 يعقوب 2602.

15 فريحة 1237؛ أبيلا 2986؛ يعقوب 2601.

16 فغالي 492؛ فريحة 1545؛ يعقوب 3171.

د- يتحجج بأتفه العراقيل لتبرير فشله. قالوا: «الرّقاصة الغشيمة بتتحجج بقشة الحصيرة»⁽¹⁾.

هـ- يعادي من ينصحه. قالوا: «لا تنصح جاهل، بتعاديه»⁽²⁾.

و- يشتري البضائع الفاسدة أو غير الجيدة، ف«لولا عميان القلوب، ما نفقت السلّع»⁽³⁾.

ز- لا يحسن تقدير الأشياء: «بشوف الألف، بخمنا ميدنة»⁽⁴⁾، و«بشوف الحبة بخمنا قبة»⁽⁵⁾، و«بشوف الحبة قبة، والحمل جمل»⁽⁶⁾، و«بشوف القبة، بحسب مزار»⁽⁷⁾.

ح- لا يحسن النقاش: «بحاكيه أو منحاكيه من الشّرق، بجابو من الغرب»⁽⁸⁾؛ ولذلك ينصحون بعدم التكلّم معه، ف«آلي ما بيّفهم بالإشارة (أو بالوَمَا)، الحكي معو خسارة»⁽⁹⁾.

ط- لا يحسن تدبير أموره واستثمار ما يتوافر له ممّا يفيد: «بروح عّ البحر، وبيرج عّ عشان»⁽¹⁰⁾، وكذلك لا يحسن القيام بأمر يتطلّب مهارة: «الحمار بدقّ بيانو؟»⁽¹¹⁾.

ي - لا يحسن التّمييز بين الأمور المتمايزة، بل «بيخلط شعبان برمضان»⁽¹²⁾، و«دخّل عباس بدباس»⁽¹³⁾. وكذلك لا يحسن التّمييز بين الذي ينفعه والذي يضرّه: «آلي بكحلّو وآلي بيغميه سوا»⁽¹⁴⁾.

1 فريحة 1808؛ يعقوب 3657.

2 فريحة 3140؛ يعقوب 6074.

3 فريحة 3230؛ يعقوب 6289.

4 فريحة 890؛ يعقوب 1833.

5 فريحة 891؛ يعقوب 1834.

6 فغالي 548؛ فريحة 892؛ يعقوب 1835.

7 فريحة 893.

8 فريحة 814؛ يعقوب 1660.

9 فغالي 94؛ فريحة 570؛ رحم 1178؛ أبيلا 3053؛ يعقوب 1158.

10 أبيلا 70؛ يعقوب 1784.

11 رحم 655؛ يعقوب 3032.

12 أبيلا 1245؛ يعقوب 2244.

13 يعقوب 3311.

14 رحم 540؛ يعقوب 925.

6- الحُمق والأحمق

الحُمق، في اللّغة، ضدّ العقل، وقلّته⁽¹⁾، أو «قلّة العقل، وفساد فيه»⁽²⁾، فالأحمق هو قليل العقل أو فاسده.

وقال النّعالبي⁽³⁾ (249هـ/1038م) في ترتيب صفات الأحمق:

«إذا كان به أدنى حمق وأهونه، فهو أبله. فإذا زاد ما به من ذلك، وانضاف إليه عدم الرّفق في أمره، فهو أخرق. فإذا كان به، مع ذلك، تسرّع، وفي قدّه طول، فهو أهوج. فإذا لم يكن له رأي يُرجع إليه، فهو مأفون ومأفوك. فإذا كان كأنّ عقله قد أخلق وتمزّق، فاحتاج إلى أن يُرّقع، فهو رقيق. فإذا زاد على ذلك، فهو مرّقعان ومرّقعانة. فإذا زاد حُمقه، فهو بوهة وعباماء ويهفوف. فإذا اشتدّ حُمقه، فهو خنّع هبّقع وهلباجة وعفّجج. فإذا كان مُشبعًا حُمقًا، فهو عَفِيك وكَفِيك»⁽⁴⁾.

ويلاحظ أنّ النّعالبيّ لم يذكر المعتوه ضمن هذه الصّفات. والعنّه، كما عرّفه مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، هو «تخلّف عقليّ شديد تصلّ فيه نسبة الذّكاء أقلّ من 25. ولا يستطيع المعتوه أن يقي نفسه من الأخطار الطّبيعيّة»⁽⁵⁾.

وفي «المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة»، أنّ «العنّه: نقص في العقل دون الجنون»⁽⁶⁾. ويُقال: هو أحمق، أخرق، أنوك، رقيق، سخيّف، سقيط، فسئل، مائق، ناقص العقل، خفيف العقل، سخيّف العقل، ضعيف التّمييز، وفيه حُمق وحماقة، وخُرُق، ونوك، ورقاعة، وسُخْف، وسخافة وموق⁽⁷⁾.

ويسمّي اللّبنانيّون مَنْ به نقص في العقل: أحمق، وأبله، ومُغفلاً، ومجدوبًا، ومعتوّهًا. وليس ثمة فاصِل دلاليّ بين الأحمق وشديد الغباوة في لغة اللّبنانيّين وأمثالهم، فالكثير من

1 لسان العرب، مادّة (حمق).

2 المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة، مادّة (حمق).

3 من أئمّة اللّغة والأدب من أهل نيسابور. كان فراءً يخيّط جلود النّعالب، فنُسب إلى صناعته. اشتغل بالأدب والتّاريخ. فنبغ من كتبه: «بتيمة الدّهر»، و«فقه اللّغة وسرّ العربيّة»، و«لطائف المعارف» (الأعلام 4/163).

4 فقه اللّغة وسرّ العربيّة، ص 136-137.

5 المعجم الوسيط، مادّة (عته).

6 المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة، مادّة (عته).

7 نجعة الزائد 1/101.

الأمثال التي ذكرتها في الفقرة السابقة عن الغباء والغبيّ تصدق على الحمق والأحمق، والعكس بالعكس. ومن الأوصاف التي أكثر لصقاً بالأحمق منها إلى الغبيّ قولهم فيه: «بشيل المي بالغربال»⁽¹⁾، و«بملي بالسلة»⁽²⁾، و«بعمير ع الرمل»⁽³⁾، و«عقلاتو بنص كم»⁽⁴⁾، و«عقلاتو شغل إيدو»⁽⁵⁾، و«عقلاتو ع صوص ونقطة»⁽⁶⁾، و«عقلاتو ما بيقلو بيضة»⁽⁷⁾، و«الطابق الفوقاني مأجر»⁽⁸⁾، و«عقله مثل العكوب اليايس»⁽⁹⁾.

إنه باختصار صاحب «راس كبير وعقل زغير»⁽¹⁰⁾، و«راسو معبي تبن (أو نخالة)»⁽¹¹⁾، و«راسو فارغ مثل الخفيفة»⁽¹²⁾، أو «راس ما في»⁽¹³⁾.

وينصحون بعدم نصحه، لأنّ «نصيحة الأحمق بعدواة»⁽¹⁴⁾، وعدم إعارته شيئاً. يقولون: «لا تعير الأحمق شي، بحسّ إتو إلو»⁽¹⁵⁾.

وضربوا المثل بمجاديب حمص في الحمق، فقالوا: «مثل مجاديب حمص»⁽¹⁶⁾، كما ضربه في الذي يُمخّط بكوعه: «أحمق من الي بمخّط بكوعو»⁽¹⁷⁾.

7- الجنون

يُفيد الجذر (جنن) في اللغة العربية السنن والنسنن⁽¹⁸⁾. والجانّ، أو الجنّ، عند المسلمين،

-
- 1 فريحة 895؛ يعقوب 1839.
 - 2 فغالي 1181؛ فريحة 998؛ يعقوب 2060.
 - 3 يعقوب 1931.
 - 4 فريحة 2393؛ أبيلا 3022؛ يعقوب 4810.
 - 5 يعقوب 4811.
 - 6 فريحة 2394؛ يعقوب 4812.
 - 7 فريحة 2395؛ يعقوب 4813.
 - 8 فغالي 724؛ فريحة 2221؛ يعقوب 4222.
 - 9 الثقافة الصحيّة والغذائيّة وآدابها في الأمثال الشعبيّة، ص 295. أي: إنّه خفيف العقل، طائش، فاقد الاتزان والاعتدال، فالعكوب اليايس، عندما يجفّ، يصبح خفيفاً جداً يطير مع أقلّ هبة ريح.
 - 10 فريحة 1719؛ يعقوب 3498.
 - 11 يعقوب 3506.
 - 12 رحم 2552؛ يعقوب 3505.
 - 13 يعقوب 3501.
 - 14 فريحة 4002؛ يعقوب 7715.
 - 15 رحم 3858؛ يعقوب 6035.
 - 16 فريحة 3600، يعقوب 7000.
 - 17 رحم 122؛ يعقوب 217.
 - 18 انظر: مادة (جنن) في مقاييس اللغة، والمعجم الكبير.

كانت حية تتخذ أشكالاً متعدّدة بشريّة وحيوانيّة، وتقيم في الحجارة والأشجار ووسط الأطلال، وتحت الأرض، وفي النّار والهواء. وتتميّز بقدرتها على القيام بمختلف الأعمال الخارقة⁽¹⁾. وسُمّي الجنّ بهذا الاسم لاستنارهم واختفائهم عن الأبصار⁽²⁾.

وإذا كان الجنون، في اللّغة، يعني الاستتار والاختفاء، فإنّه، في الطّبّ «اضطراب وظائف العقل العليا، كالنفكر والانفعال، والسلوك بصورة مؤقتة، أو مستديمة. وهو مصطلح عام لا يدلّ على مفهوم محدّد بحسب ما توصل إليه العلم الحديث»⁽³⁾.

قال أبو منصور النّعالبيّ في ترتيب صفات المجنون:

«إذا كان الرّجل يعتريه أدنى جنون وأهونه، فهو مُوسوس. فإذا واد ما به، قيل: به رئي من الجنّ. فإذا زاد على ذلك، فهو مَمْرور. فإذا كان به لَمَمٌ ومَسٌّ من الجنّ، فهو مَلْموم⁽⁴⁾ ومَمْسوس. فإذا استمرّ ذلك به، فهو معتوه ومألوق ومأسوس. وفي الحديث: «نعوذ بالله من الألق والألس»، فإذا تكامل ما به من ذلك، فهو مجنون»⁽⁵⁾.

ويُقال: اُخْتَلَطَ الرّجل، وخولط، وجُنّ، وخُبل، واخْتُبل، وعُرِضَ، وألِسَ، وألِقَ، وقد اختلط عقله، واخْتَلَّ، والتاث، وخُولِطَ في عقله، ودُخِلَ في عقله، واستُلبَ في عقله، وبه اختلاط، وجنون، وجِنّة، وخُبل، وخبال، وعَرِضَ، وألاس، وأولق، ولوثة، ودخَلَ⁽⁶⁾.

ويسمّي العرب واللّبنانيون من يُصاب بهذا الاضطراب العقليّ «مجنوناً»، و«مسكوناً»، و«ممسوساً»، لاعتقادهم أنّ الجنّ سكن فيه، أو مسّه⁽⁷⁾. ويسمّي اللّبنانيون الجنون «خوات»، والمجنون «أخوت»⁽⁸⁾.

وقد عرف اللّبنانيون الجنون والمجانين، وتعاملوا معهما، وبنوا لهما مَصَحّاً. وظهر كلّ ذلك في أمثالهم التي استنطقناها، وأهمّ ما تشير إليه الأفكار الآتية:

أ- ظهور أعراض الجنون واضحة على المجنون، فالجنون، بالتّالي، لا يحتاج إلى

1 موسوعة المورد العربيّة 1/396.

2 المعجم الكبير 4/607، مادة (جنن).

3 المعجم الكبير 4/610-611، مادة (جنن).

4 اللّم: جنون خفيف.

5 فقه اللّغة وسرّ العربيّة، ص 136.

6 نجعة الزائد 104-103/1.

7 لذلك كانوا قديماً يعالجون المجنون بضربه ضرباً مبرحاً كي يخرج الجنّي منه.

8 معجم الألفاظ العاميّة، ص 48.

حجج وبراهين وأدلة. قالوا: «الجنون ما بدو كُتِبَ حِجَّةً»⁽¹⁾، و«الخوات بدو كُتِبَ حِجَّةً؟»⁽²⁾، و«المجنون حِجَّتَه برقبته»⁽³⁾. وكان أولاد القرى اللبانية، إذا شعروا بجنون أحدهم، مشوا خلفه، قارعين التتكَ بالعصي، أو بالحجارة ليتهكّموا به. فإذا كان الرجل مجنوناً فعلاً، قرّر منهم، فعرفه هؤلاء على حقيقته؛ ولذلك قالوا: «أخوتُ (أو مجنون) طرطُفلو، بطير من حبال عقلو»⁽⁴⁾.

ب- اتّخاذ الجنون أشكالاً مختلفة، أي: إنّ المجانين ليسوا الذين في المصحّات الخاصّة بهم وحدهم، بل نَمّة آخرون منهم يعيشون بيننا بتصرفاتهم الغريبة، وشذوذهم. قالوا: «الجنون فنون»⁽⁵⁾، و«كلّ مين خواتو شكل»⁽⁶⁾، و«غسيل المجنونة ت تخلّص الصابونة»⁽⁷⁾، و«عصا الأخوت خشبة»⁽⁸⁾. ونظرًا إلى اختلاف حدّة الجنون عند النّاس، وتتوّع أشكاله، قالوا مبالغين: «العقل زينة، والمجانين بالدّزينة»⁽⁹⁾.

ج- عذر المجنون على تصرفاته الطائشة، فهو لا يتحمّل مسؤوليّة ما يصدر عنه من أعمال. قالوا: «آلي ما لو عقل، ما لو خطيّة»⁽¹⁰⁾، و«اعطيني عقل وحاسبني»⁽¹¹⁾، و«ما على المجنون حرج»⁽¹²⁾، و«الأخوت ما عليه حرج»⁽¹³⁾، و«إذا أخذ ما وهب، أسقط ما وجب»⁽¹⁴⁾.

د- ارتكاب المجنون حماقات تقود إلى مصائب كبيرة بالغة التّعقيد يصعب على العقلاء

1 فغالي 716؛ فريحة 1286؛ يعقوب 2687.

2 يعقوب 3213.

3 فريحة 3635؛ يعقوب 7052.

4 فغالي 506؛ فريحة 122؛ أبيلا 2908؛ يعقوب 7054-254.

5 فغالي 713؛ فريحة 1285؛ أبيلا 475؛ يعقوب 2686. قال الشّيخ أبو بكر عليّ بن الحسين القهستاني (من الطويل):

تذكّر نجدًا، والحديثُ شجونُ
فجُنُّ اشْتِيَاقًا، والجنونُ فنونُ
(البيت مع نسبه في موسوعة الأمثال اللبنانية 1/598).

6 فغالي 500؛ فريحة 2969؛ يعقوب 5786.

7 فغالي 1034؛ يعقوب 5019.

8 يعقوب 4770.

9 النّقافة الصّحيّة والغذائيّة وآدابها في الأمثال الشعبيّة، ص 166.

10 فغالي 712؛ فريحة 592؛ يعقوب 1197.

11 فغالي 733؛ فريحة 246؛ يعقوب 582.

12 فغالي 733؛ فريحة 3365؛ يعقوب 6538.

13 يعقوب 253.

14 أبيلا 1686؛ يعقوب 264.

معالجتها. قالوا: «أخوتُ (أو مجنون) رمي حجر بالبير. ألف عاقل ما شالوه»⁽¹⁾، و«الأخوتُ شلح شلحة، احتار فيها ألف عاقل»⁽²⁾.

هـ - الرّبط بين الغضب والجنون؛ وذلك لأنّ الغضبان يتصرّف بحمق ودون تعقل أو رويّة. قالوا في التّحذير من الغضب: «الغضب أولو جنون وآخرتو ندامة»⁽³⁾، و«الغضبان خي المجنون»⁽⁴⁾.

وإلى جانب هذه الوجوه السّليبيّة للجنون، ثمة أوجه إيجابيّة، فمن المفارقات في هذه الدّنيا أنّ المجنون قد تصدر عنه لمعات عبقرية تُدهش النّاس بحكمتها وبراعتها، وتقدّم حلولاً مبتكرة لمسائل مستعصية يحنّار العقلاء في معالجتها، من هنا قولهم: «خذوا الحكمة من أفواه المجانين»⁽⁵⁾. ومن قصص اللّبنانيّين المعروفة قصّة «أخوت شانيه»⁽⁶⁾ الذي كان له الفضل في إيصال مياه نبع الصّفا إلى قصر بيت الدّين.

ز - ولاحظوا أنّ المجنون يخلو من هموم الحياة وتبعاتها، فيكون سعيداً دائماً مهما كانت الظروف، قالوا: «جنّ تسعد»⁽⁷⁾، و«استراح من لا عقل له»⁽⁸⁾، و«مين بزمانه سمع مجنون قال: آخ»⁽⁹⁾. وقديماً قال مجنون ليلي⁽¹⁰⁾ (من البسيط):

قالوا جنّنت بمن تهوى؟ فقلت لهم: ما لذّة العيش إلاّ للمجانين⁽¹¹⁾

1 فغالي 718؛ فريحة 120؛ يعقوب 250.

2 رحم 415؛ يعقوب 252.

3 فغالي 522؛ فريحة 2527؛ يعقوب 5023.

4 فريحة 2528؛ يعقوب 5024. قال الشّاعر (من الطّويل):

ولم أر في الأعداء، حين اخْتَبَرْتَهُمْ عَدُوًّا لِعَقْلِ المرءِ أَعْدَى مِنَ الغَضَبِ
(البيت بلا نسبة في موسوعة الأمثال اللّبنانيّة 2/1037).

5 يعقوب 3142. قال طرفة بن العبد (من المتقارب):

وَكَمْ مِنْ فَتَى سَاقِطِ عَقْلِهِ وَقَدْ يُعَجِّبُ النّاسَ مِنْ شَخْصِهِ
وَأَخْرَسَ تَحْسُبُهُ أُنُوكًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَمْرِ مِنْ فَصَّاهِ

(ديوانه، ص 65).

6 شانيه: بلدة لبنانيّة قرب بين الدّين. وراجع قصّة «أخوت شانيه» في الإنترنت.

7 فريحة 1280؛ يعقوب 2679.

8 النّقافة الصّحيّة والغذائيّة وآدابها في الأمثال الشّعبيّة، ص 166.

9 المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

10 قيس بن الملوّح بن مزاحم العامريّ (68هـ/688م): شاعر غزل من أهل نجد. لقّب ب«المجنون» لهيامه

بليلى بنت سعد. مات في البادية هانجاً من شدّة العشق. له ديوان (الأعلام 5/208).

11 المشهور أنّ هذا البيت لمجنون ليلي، لكنّي لم أقع عليه في ديوانه.

وقال المتنبّي (1) (من الكامل):

ذو العَقْلِ يَشْتَقِي فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ (2)

كما رأوا أنّ اصطناع الخَبَلِ في بعض الظروف الالتباسية ليس دائماً سيئاً، بل قد يكون مفيداً للخروج من المآزق الحرجة، أو للتكيف مع الأوضاع المتعارضة، أو مخرجاً لمشكلة، فقالوا: «اعمل عاقل ومجنون» (3).

ومن أمثالهم أيضاً، قولهم: «مجنون يحكي، وعاقل يفهم» (4). يقوله من يحاول إقناع آخر برأيه، مُدّعياً الجنون، على أنّ من يخاطبه عاقل ويتفهّمه. وهو، ضمناً، يشير إلى صواب رأيه الذي لا يفهمه إلا العاقل.

وقالوا في وجوب مراعاة المجتمع في أفكاره ومعتقداته: «إِنَّ جَنِّ رَبِّكَ، عَقْلُكَ مَا يُبَيِّنُكَ» (5).

ومن حكمة اللبانيين، وشعورهم الإنساني، أنّهم رأوا ضرورة الاهتمام بالمجانين، ومساعدتهم، وتطبيبهم؛ لأنّهم إخوتنا في الإنسانية. قالوا: «المجانين ولاد ناس» (6).

وكانوا، وما زالوا، يعالجون المجانين في مَصَحِّ عَقْلِيّ في منطقة قريبة من بيروت تُسمّى «العصفورية». من هنا قولهم لمن يطلب شيئاً في مكان يخلو منه خُلُوءاً تاماً: «يا طالب العقل من العصفورية» (7).

8- خلاصة البحث

أدرك اللبانيون أهميّة العقل، فمَجَّدوه، جاعلينه «زينة لكلّ رزينة»، و«أغنى الغنى»، و«خير المواهب».

1 أحمد بن الحسين، أبو الطيّب (354هـ/965م): شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. وُلِدَ في الكوفة في محلّة اسمها كندة، ونشأ بالشّام. تنبياً في بادية السّماوة، فتبعه كثيرون، ثمّ تاب ووفد على سيف الدّولة الحمداني في حلب، وعلى كافور الإخشيديّ في مصر، ومدحهما. له ديوان ضخم، شرحه عدد من العلماء (الأعلام 1/115).

2 ديوانه 4/251.

3 النّقافة الصّحيّة والغذائيّة وآدابها في الأمثال الشعبيّة، ص 168.

4 فريحة 3667؛ أبيلا 479؛ الحر 218؛ يعقوب 7055.

5 يعقوب 1288.

6 أبيلا 502؛ يعقوب 7049.

7 رحم 5013؛ يعقوب 8099.

وجعلوه، عن حقّ، المعيار الأساسي لتقييم الإنسان، وفضلوا الأخرس العاقل على الجاهل الناطق، والعدو العاقل على الصديق الجاهل.

أمّا الذكيّ، فبالغوا في التّناء عليه، لأنّه سريع في الفهم وإنجاز الأعمال، يُنجز عمله مهما كان صعباً، يعرف كيف يصل إلى هدفه، وكيف يتخلّص من الشدائد والصعوبات. فدعوا له بطول العمر، لكنهم يتشدّدون في لومه إذا أخطأ؛ لأنّ «حساب المرء ع قَدّ عقلو».

ومع ثنائهم على الذكيّ، سخروا من الغبيّ أو الأحمق أشدّ السخرية، واصفينه بأبشع التّعوت، مشبّهينه بالحمار؛ لأنّه يضرّ نفسه بأعماله الطائشة، ويعادي من ينصحه، ولا يُحسّن تقدير الأشياء، ولا تدبّر أمره، ولا التّمييز بين الأمور المختلفة.

أمّا الجنون أو «الخوات» في لغتهم، فأماراته ظاهرة مكشوفة، وهو يتّخذ أشكالاّ مختلفة. وهم يعذرونه على تصرفاته الطائشة التي تأتي بالويلات أحياناً. وهو راضٍ بجنونه، وقد تصدر عنه لمعات عبقرية تدهش النّاس بحكمتها وبراعتها.

واللّافت في أمثالهم المتعلّقة بالجنون أمران: أولهما: شعورهم الإنسانيّ نحو المجنون، ف«المجانين ولاد ناس»، وثانيهما تنبيههم إلى أنّ الغضب قد يؤدّي كالجنون إلى أعمال لا تُحمد عقباها.

المصادر والمراجع

1. أمثال الأقدمين في جبة المقدمين، أنطوان جبرائيل طوق، بشاريا للنشر، زوق مكابيل (لبنان) ط1، 1992م.
2. الأمثال العامية وأثرها في المجتمع، عبد الرزاق رحم، أطروحة أُعدت لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1982م.
3. الثقافة الصحية والغذائية وآدابها في الأمثال الشعبية، الدكتور زاهي ناضر، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2019م.
4. جمهرة الأمثال، العسكري (الحسن بن عبد الله)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط12، 1988م.
5. ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت، لاط، 1980م.
6. ديوان المتنبّي (أحمد بن الحسين)، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتب العربي، بيروت، لاط، 1980م.
7. ديوان مجنون ليلي (قيس بن الملوح)، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة، لاط، لات.
8. فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي (عبد الملك بن محمد)، تحقيق الدكتور فائز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1993م.
9. مجمع الأمثال، الميداني (أحمد محمد)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، لاط، لات.
10. المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري (محمود بن عمر)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م.
11. معجم الألفاظ العامية، أنيس فريحة، مكتبة لبنان، بيروت، لاط، 1973م.
12. المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط1، 1981م.
13. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط5، 2021م.
14. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 2008م.
15. المنجد في اللغة العربية المعاصرة، أنطوان نعمة وغيره، دار المشرق، بيروت، ط1، 2000م.
16. موسوعة الأمثال اللبنانية، الدكتور إميل بديع يعقوب، جروس برس، طرابلس (لبنان)، ط2، 1993م.
17. موسوعة المورد العربية، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1990م.
18. نجعة الزائد في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي، المكتبة البولسية، ط3، 1970م.
19. Abella, Ferdinand-Joseph, **Proverbes populaires du Liban-Sud, Saïda et ses environs**, Maisonneuve et Larose, paris, 1981.
20. Feghali, Mickel, **Proverbes et dictons Syro-Libanais**, Institut d'ethnologie, Paris, 1938.
21. -Freyha, Anis, **A dictionary of Modern Lebanese Proverbs**, Collated annotated and translated into English, librairie du Liban, Beirut, 1974.

تلامذة المدرسة الرسميّة بين التعلّم وضرورة العمل

Public School Students Between Learning and the Necessity of Work

بتول عبد الله يوسف¹

Batoul Abdullah Youssef

المستخلص

مع تدهور الوضع الاقتصاديّ في لبنان، ارتفعت نسبة الأطفال العاملين، حتى بنتا نلتقي فيهم في معظم الأماكن والمحال والأسواق وغيرها. وقد عالجت هذه الدراسة مسألة عمالة الأطفال التلامذة الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و 18 عامًا. وقد كان لهذه الظاهرة تأثير على الصّعيد التربويّ، فانعكس ذلك سلبيًا على المستوى الأكاديمي للتلامذة، لا سيّما تلامذة المرحلة الثّانوية. وقد طرحنا الموضوع من جوانب عدّة حيث انطلقنا من الأسباب التي دفعت لتفاقم هذه الظاهرة بوتيرة سريعة، ولتداعياتها على التّلميز والأسرة والمجتمع، وصولًا إلى طرح حلول مناسبة للنتائج التي أسفرت عنها هذه العمالة. وقد اعتمد البحث على المنهجين النفسي في تصوير واقع التّلامذة وتأثير العمالة على سلوكهم، والتّحليلي لتوصيف هذه الظاهرة الاجتماعيّة الخطرة وانعكاساتها على التّلميز والأسرة والمجتمع.

(الكلمات المفتاحية: عمالة الأطفال، التسرّب المدرسيّ، ظاهرة إنسانيّة اجتماعيّة، عمالة رخيصة)

Abstract

With the deterioration of the economic situation in Lebanon, the percentage of working children increased, to the point where we now meet them in most places, shops, markets, etc. This study addressed the issue of child labor among students between the ages of 14 and 18 years. This phenomenon

1 بتول عبد الله يوسف باحثة لبنانيّة تعدّ أطروحة الدكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها في الجامعة الإسلاميّة، بإشراف الدكتور علي نسر، وحائزة على شهادة الماجستير، الفرع اللغويّ من الجامعة اللبنانيّة. والأطروحة موسومة بعنوان: «العزوف عن النّحو في المناهج اللّبنانيّة في المرحلتين المتوسّطة والثّانويّة». وأستاذة في التّعليم الثّانويّ الرّسميّ منذ عام 2000م.

had an impact on the educational level, and this had a negative impact on the academic level of students, especially secondary school students. We raised the issue from several aspects, starting from the reasons that led to the rapid worsening of this phenomenon, and its repercussions on the student, the family, and society, leading to proposing appropriate solutions to the results that resulted from this employment. The research relied on the psychological approaches to depict the reality of the students and the impact of employment on their behavior, and the analytical method to characterize This dangerous social phenomenon and its repercussions on the student, family, and society.

(Keywords: child labor, school dropout, social human phenomenon, cheap labor)

المقدّمة

الطفّل هو إنسان لم يتخطّ سن الثامنة عشر من عمره، حسب ما تمّ تحديده من قبل الجمعية العامّة للأمم المتّحدة، والتي تهتمّ بحقوق الطّفّل والمطالبة بها، فهي دعت لحماية هؤلاء الأطفال من أيّ استغلال يتعرّضون له، أو يسبّب ضرراً صحياً، جسماً أو نفسياً لهم. وتعاني المجتمعات في جميع أنحاء العالم من انتشار ظاهرة تشغيل الأطفال، وهو ما يعرف بالعمالة، إذ إنّ «حوالي 250 مليون طفل تقريباً يعملون في مختلف مناطق العالم في وقتنا الحاضر، منهم ما يقارب 150 مليون طفل يعملون في مجال الأعمال الخطرة، وأكثر من مليون طفل يتعرّضون لعملية الإتجار بالبشر»¹. وقد انتشرت ظاهرة العمالة بين المدن المتقدّمة صناعياً والدول النامية والفقيرة؛ وتعدّ هذه الظاهرة العالميّة مشكلة معقّدة لا سيّما في المجتمعات التي يكون مصدر العمالة فيها نابغاً من التّقاليد والتقاليد السائدة في ذلك المجتمع. ولبنان أحد هذه البلدان التي تضاعفت فيه عمالة الأطفال في السّنوات الأخيرة. فما معنى العمالة في المعاجم؟ وما مفهومها؟ وما الأسباب التي دفعت لانتشار هذه الظاهرة في لبنان؟ وما تداعياتها على التلميذ، وعلى الأسرة وعلى المجتمع؟ وهل من مقترحات أو حلول للحد وللمنع تفاقم هذه الظاهرة؟

1 الدويكات، سناء. مايو 2020 ظاهرة تشغيل الطفال. موقع «موضوع».

1- معنى العمالة: لغةً واصطلاحاً

إنّ ظاهرة عمالة الأطفال هي ظاهرة اجتماعية إنسانية، وقد أصبحت اليوم على المحك مع ما يحصل في مجتمعاتنا، ما دفعنا أولاً لتعرّف معنى العمالة في لسان العرب حيث جاء فيه: «العملة والعمالة والعمالة: أجر ما عمل. وقال الأزهري: العمالة، بالضم، رزق العامل الذي جعل له على ما قلد من العمل»¹. وجاء في معجم المعاني الجامع: «العمالة اسم ويعني أجره العامل، والعمالة هي مجموع الأيدي العاملة»². كما يقال: الأجاره والإجاره بضم الهمزة وكسرهما بمعنى العمالة»³. فعلى سبيل المثال، نقول: يحتاج المصنّع إلى عمالة كثيرة، والعمالة تعني «حرفة العامل ووظيفته، وقد أخذت بالقاعدة الصّرفيّة، وهي أنّ صيغة فعالة بكسر الفاء تدلّ على الحرفة، مثل: تجارة، صناعة، حدادة، خياطة وغيرها...»⁴. ومصطلح عمالة الأطفال يشير إلى الأشخاص الذين يبذلون الجهد الجسديّ والنّفسيّ والاجتماعيّ من أجل مردود ماديّ. وعمالة الأطفال هي العمل الذي يضع أعباء ثقيلة على الطّفل، والذي يهدّد سلامته وصحته ورفاهيّته، العمل الذي يستفيد من ضعف الطفل وعدم قدرته على الدّفاع عن حقوقه، فهو عمل يستغلّ الأطفال كعمالة رخيصة مقارنة مع عمل الكبار، العمل الذي يعيق تعليم الطّفل وتدريبه ويغيّر حياته ومستقبله.

2- العمالة وسوء الوضع الاقتصاديّ الحالي

لا شكّ في أنّ ظاهرة عمالة الأطفال قديمة قدم التّاريخ، إلا أنّها زادت كثيرًا خلال الأزمة الاقتصاديّة الرّاهنة، وهي تشكّل عبئًا ثقيلًا على الأطفال، وتعرّض حياتهم للخطر، وفي ذلك انتهاك للقانون الدّولي وللتشريعات الوطنيّة. والأزمة الاقتصاديّة التي عصفت بلبنان منذ صيف 2019 ولم تستثن قطاع التّعليم الذي ناله نصيب كبير منها، فتحوّل التلامذة إلى عمّال. وهنا يبرز قطاع التّعليم في لبنان كواحد من أكبر ضحايا الأزمة الاقتصاديّة المعيشيّة التي تعصف بالبلد منذ أعوام قليلة. فثمة فئات من اللبنانيين باتت غير قادرة على الحصول على التّعليم، وباتت محرومة من أحد الحقوق الأساسيّة التي

1 ابن منظور. لسان العرب، ج11، ص 476.

2 الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو منصور. تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي/بيروت، ط1، 2001م.

3 ابن منظور، لسان العرب. ج11، ص476.

4 حسن، عباس(ت:1398هـ) النحو الوافي (3/196)، ط15، ج4، دار المعارف

ينصّ عليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، كما أنّ 25% من العائلات اللبنانية بات عاجزاً عن تأمين كلفة التّعليم المدرسيّ حسب تقرير أظهرته منظمة اليونيسف التّابعة للأمم المتّحدة، فلم يعد الأهل قادرين على تحمّل تكاليف النّقل التي ارتفعت فاتورتها ربطاً بالتّغيير الكبير في جدول المحروقات، إضافة إلى شراء القرطاسيّة والحاجات اللوجستيّة (انترنت، كهرباء..)، ناهيك عن الأقساط المرتفعة التي فاقت قدرات المواطن، وتجاوزت مداخل الأسرة.

وتأثّر القطاع التربويّ بالأزمة الاقتصاديّة خلف وراءه ويلات، أهمّها، وهو موضوع بحثنا، ذلك الذي أدّى إلى زيادة في أعداد التّلامذة العاملين، لا سيّما في المدارس الرّسميّة وحصرياً الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و18 عاماً، أي: تلامذة المرحلة الثّانويّة؛ والجدير بالملاحظة أنّ نسبة التّلامذة العاملين في ازدياد دائم، وهذا أمر خطير يهدّد المستوى التعليميّ في لبنان، والمستوى الاجتماعيّ أيضاً. وقد توقّعت رئيسة لجنة الطّفل والمرأة البرلمانيّة عناية عزّ الدين، في مقابلة معها، «حصول تسرّب مدرسيّ نتيجة لهذا الواقع الاقتصاديّ الصّعب وعدم قدرة الكثير من الأهالي على دفع الأقساط المدرسيّة».¹ فقد وجد التّلميذ نفسه في بيئة قاصرة عن تأمين الخدمات لأبنائها، وبين أسرة تحتاج إلى مداخل إضافية لتستطيع العيش بكرامة، وقد تحوّل وضعه من تلميذ مدلّل محاط برعاية والدين يشجعانه على التعلّم مع تأمين طلباته كافّة إلى تلميذ مهتّد بترك الدّراسة إذا لم يستطيع تأمين حاجاته الضروريّة. ومع تفاقم الوضع الاقتصاديّ واتجاهه نحو التدهور، وازدياد الوضع المعيشيّ سوءاً، راح الأهالي يفتشون عن سبل للعيش بكرامة وتأمين الاحتياجات، وذلك يفرض على الوالدين أعباء كبيرة ذات كلفة عالية؛ فالبعض من العائلات اللبنانيّة يرفض طلب المساعدات من أحد لأنّه لم يحتج يوماً لأحد وتعود أن يخدم نفسه بنفسه وأن يؤمّن مصاريفه بعرق جبينه دون مئة من أحد. ونحن نعلم كم من الأسر المتعقّفة التي ترفض العيّنات الغذائيّة أو ربما المساعدات الماديّة وغيرها. والكثير من الوظائف والشركات قد توقّفت أو باشرت بتقليص عدد موظّفيها، ما أدّى إلى الاستغناء عن عدد لا بأس به من العمّال الذين بمعظمهم يشكّلون عصب الأسرة وهم الدّخل الوحيد لها. هنا وقعت الأسرة بين أمرين أحلاهما مرّ: إمّا طلب المعونة من الجمعيات أو المهتمّين والمكّلفين برعاية الأسر المحتاجة، وإمّا اللجوء إلى تشغيل أولادها

1 برجوي، نعيم. أيلول 2022، كلفة التعليم.. كابوس نالي إضافي يورق اللبنانيين/ موقع الأناضول.

للمساعدة في تأمين العيش بكرامة. فعدد لا بأس به اختار الاستعانة بأولاده للمساعدة في زيادة دخل الأسرة رغم اقتصار هذه الأسر بمعيشتها على المستلزمات الضرورية.

وقد يضيء هذا المقال جانباً من تلك الظاهرة، تبين من خلال المتابعة في المرحلة الثانوية للأعوام الدراسية الأخيرة. وانطلاقاً من التجربة، فإن نسبة العاملين في الصف الواحد ربما تفوق 40% موزعين بين إناث وذكور. وهذه ظاهرة جديدة وغريبة في مجتمعنا اللبناني، لأسباب متعددة يأتي في طليعتها الوضع الاقتصادي الذي فرض نفسه على الأهالي ومؤخراً تهجير أهالي القرى الجنوبية تاركين مصالحهم وأراضيهم ومصادر عيشهم حتى مستلزماتهم. هذه الحرب التي هجرت الكثير من اللبنانيين واضطرتهم الظروف القاسية إلى إلحاق أولادهم بالمدارس الرسمية القريبة لأماكن تجمعهم أو سكنهم؛ يعانون اليوم أضعاف ما يعانيه غيرهم من سوء الأوضاع، ما دفع الأهالي إلى العمل بأكثر من دوام لتأمين قوت عيالهم وإبعاد شبح الفقر والعوز منهم؛ فرأينا التلامذة، لا سيما المهجرين من قراهم في الوقت الحالي، يتحملون المسؤولية إلى جانب أهاليهم، ويحاولون الموازنة بين التعلّم في مرحلة ما قبل الظهر وللحاق بالعمل بعد عودتهم من مدارسهم من أجل تأمين مستلزماتهم المدرسية وحاجاتهم الضرورية، والمساهمة أيضاً في مصروف العائلة التي أرهقتها الأوضاع المعيشية.

علاوة على ما ذكر أعلاه، فإننا نشهد، في هذا الوقت، عمالة الإناث دون السن القانونية، فعدد لا بأس به من التلميذات في المرحلة الثانوية يعمل في الوقت الممتد من بعد الظهر إلى أوقات متأخرة من الليل، والأهل راضون (أو مرغمون) بما فرضته عليهم الظروف ليحافظوا على كرامتهم وعزّتهم. وهؤلاء الأطفال التلامذة العاملون ذنبهم أنّهم وجدوا أنفسهم فجأة مرغمين على دخول سوق العمل وترك مساحة لعبهم واللهو مع أقرانهم. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ عدداً لا بأس به من هؤلاء لجأ إلى العمل وحاول الجمع بين الدراسة والعمل، وعدداً آخر، ليس بقليل، أرغم على ترك المدرسة بسبب الظروف التي سبق ذكرها. ولربما لكل عائلة ظروفها الخاصة فيما يتعلّق بمستقبل أولادها، وإن لجأت معظم العائلات إلى التخلّي عن تعليم أطفالها لفترة معينة من الوقت ربما لسنة أو أكثر ريثما تتحسن الأوضاع المعيشية، لأنّ تكاليف العيش باتت شاقّة وصعبة على معظم العائلات لا سيما محدودة الدخل. ويترتب على ذلك تداعيات سلبية

على المستوى التعليمي والاجتماعي والثقافي، عدا عن رمي شبابنا في ركب الجهل، لأنّ البعض منهم من التلامذة النّاجحين المواظبين الخلوّقين الذين أرغمتهم الحياة على التخلّي عن حقوقهم، ومع ذلك يحاولون قدر استطاعتهم أن يؤدّوا واجباتهم دون تكاسل أو إهمال ليحافظوا على وجودهم بين أصدقائهم، وليبقوا في نظر معلّمهم أكفاء. وما زاد من تفاقم المشكلة ظهور فئة من الأهل تشجّع أبناءها على ترك المدرسة واللّحاق بسوق العمل لما يجدونه للمال من قيمة وأهمية في الحياة، ودوافعهم لهذا العمل كثيرة ومبرّرة، وربّما يصدر ذلك أحيانا عن جهلهم في استشراف مستقبل أولادهم ورسم الطريق السليم لهم، لأنّ استشراف المستقبل يجب أن يكون هدفاً عند الأهل، فيطلعون أولادهم على أهميّته وضرورته في بناء مستقبل ناجح. وليكن المال وسيلة من الوسائل التي ستساعد في بناء المستقبل لا هدفاً رئيساً وفريداً في الحياة.. وأنّ ما فرضته الأوضاع الحاليّة على تلامذتنا يجب أن يعوا أنّها مرحلة مؤقتة وعليهم التمسك بالدراسة لأنّها السبيل الوحيد لرسم مستقبل زاهر ومشرق، فالتعلّم هو السّلاح الوحيد للقضاء على الجهل والتخلف.

إنّ عدم المعرفة في إدارة الأمور واستشراف مستقبل الأبناء المترافق مع سوء الوضع الاقتصاديّ والسّعي إلى جمع المال وتصويره كمنقذ وحيد من الأزمة والمغيّر لأحوال النّاس والهدف المرجوّ من الجميع وهو عصب الحياة، وفهمهم لقوله تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» (الكهف، الآية 46) بالتشجيع على حبّ المال وجمعه، قد عزّز عند النّاس حبّهم للمال ودفعهم للاستغناء عمّا تعلّموه من الحياة وما سمعوه ممّن سبقوهم، ذلك» دفع بفئة واسعة من التّلامذة إلى الانقطاع عن التّعليم لا سيّما من هم بين 15 و 18 عامّاً من العمر¹، وهم الأكثر تأثراً بما يسمعون، وبينون طموحاتهم وأحلامهم على ما يرونه أمامهم، وسيؤدّي ذلك حتماً إلى كوارث اجتماعيّة تربويّة إذا لم نندارك الأمر، لأنّ المال بيد الأطفال وبمعزل عن رقابة الأهل وتوجيههم سيعرّضهم للكثير من المشاكل ويخلق لديهم الأزمات.

3- أسباب عمالة الأطفال التّلامذة

الوضع الاقتصاديّ السيئ في لبنان فرض ظروفًا صعبة على المواطنين، وقد ترافقت معه مجموعة من الأسباب التي دفعت بالتّلامذة إلى سوق العمل، منها:
1 اليونسف، البحث عن الأمل، نظرة قائمة لشباب وشابات لبنان الذين يتأرجحون عند حافة الهاوية/ لبنان، 27 كانون الثاني 2022م.

1- **الفقر** وهو من أهم أسباب عمالة الأطفال، والأحداث اللبنايية شكّلت حافزاً أساسياً لزيادة نسبة هذه العمالة، إذ إنّ فئات كثيرة من الناس لم تعد قادرة على تعليم كلّ أفراد أسرتها، وبقي البعض منهم دون تحصيل علمي، فدفّع بهم الأهل إلى سوق العمل باكراً لمساعدتهم على إعالة بقيّة أفراد العائلة.

2- « **المستوى الثقافي للأسرة** له دور أساس في التّشجيع على العمل من أجل المساعدة في الإنفاق، ففائدة التّعليم غير معروفة لديهم؛ كما أنّ انتشار الفقر والأميّة بين الأهالي في بعض المجتمعات يساعد في التسرّب المدرسي لوجود حاجة إلى عمل الطّفل وللحصول على دخل يؤمّن احتياجات الأسرة.

3- **عدم وعي الأهالي** بالآثار السلبية والضّارة الناتجة من عمل الأطفال في سنّ مبكرة.

4- **ارتفاع نسبة البطالة** بين البالغين من الأهالي، ما يدفع بالأهالي لإرسال أولادهم للعمل لتوفر فرص أوسع لديهم.

5- انتشار بعض **القيم الثقافيّة** التي تشجّع على عمل الأطفال في بعض المجتمعات.

6- **المشاكل الماليّة والديون** المتراكمة التي تعاني منها بعض الأسر، ما قد يدفع الأطفال للعمل لسدادها»¹.

إضافة إلى هذه الأسباب، فإنّ نسبة عمالة الأطفال ارتفعت بعد الأزمة الاقتصاديّة، لا سيّما طلاب المدارس الرسميّة، وبحكم إضراب الأساتذة الطويل في الآونة الأخيرة، لجأوا إلى العمل خلال هذه الفترة ومن ثمّ استمروا في العمل لأنّهم لاحظوا تحسّناً في المصروف وارتياحاً في الدخل العائلي. ونعتقد أنّ هناك صعوبة سيواجهها الأهل والتلامذة في حال تحسّن الوضع الاقتصاديّ وزيادة المداخيل فلا رجوع عن العمل، لأنّه كان مشجّعاً للأهل ومغرياً لأبنائهم. وقد لوحظ في الآونة الأخيرة أيضاً أنّ عدداً ليس بقليل من موظفي القطاع العام يدفعون بأولادهم إلى سوق العمل لمساعدتهم في تأمين الإنفاق على الأسرة. ولنا في ذلك أمثلة كثيرة نواجهها في التّانويات الرسميّة، فأغلبية التلامذة (الذكور) مرتبطون بدوام عمل بعد الظهر، فتراه صاحب مسؤوليّة ولديه

1 Child labour, unicef. in, Retrieved 4-3-2020. Edited.

شخصية ثابتة في الدفاع عن أسرته وفي تبرير أسباب العمل، ولا يفوتنا ذلك الوعي الاجتماعي الذي يتحلّى به هؤلاء التلامذة العاملون في حقول مختلفة من قوة في مواجهة الأزمة واستعدادهم للتغلب عليها، فهم يحدّثونك عن الواقع المرير كما لو أنّهم رجال خبروا الحياة وتعرفوا دهاليزها، وربّما يكون ذلك من إيجابيات العمالة المبكرة، ويعود السبب في ذلك إلى تحمّلهم هذه الأعباء والمسؤوليات ودفعهم لسوق العمل في سنّ مبكرة، واختلاطهم بالعالم من حولهم ومقارنة أوضاعهم بأوضاع آخرين، وفهم متطلّبات الحياة الصعبة؛ ونحن نوّكد أنّ هذا الوعي للواقع سببه الأول ما يسمعه ويتلقّنه الطّفل في أسرته، فبات يرى أنّ العمل أمر مشروع دون الالتفات إلى قانونيته أو إلى انعكاساته عليه تعليمياً واجتماعياً و..

4- تداعيات عمالة الأطفال

ظاهرة تشغيل الأطفال هي ظاهرة غير قانونية من خلالها يعمل الأطفال من هم دون الثامنة عشر من العمر مقابل مبلغ من المال للحصول على حياة كريمة. لكن كرامة العيش قد يُخطط لها من آخرين للسقوط في فخ الاستغلال أو غيره ممّن يشجعون على الرّبح السريع والشهرة التي يدفع ثمنها الأطفال أولاً ثمّ الأهل ولات ساعة مندم. هذا جانب من تداعيات عمالة التلامذة الأطفال ونموذج من التلامذة الذين يتأثرون بوسائل التواصل، ويسعون للشهرة وكسب المال الوفير بشكل سريع. وهناك نماذج أخرى أشدّ إيلاًماً لبعض التلامذة الذين يحصلون على منح دراسية للتخصّص في الخارج بناء على معدّلاتهم الدراسية، لكن يفاجئنا الأهل بمعارضتهم للسفر، لأنّهم أحوج إلى مدخول ولدهم، ولنا في ثانوياتنا نماذج على هذه الحالة، في الفترة الأخيرة، التي تقشعرّ لها الأبدان وتلين لها القلوب. إذ كيف للأهل أن يمانعوا ويحرموا ولدهم من حقّه في المنحة والتعلّم لأنّهم بحاجة إلى مدخوله؟ وهم أيضاً بحاجة إلى جانبهم حيث تقع على عاتقه مهمّات معيّنة في الأسرة. وهنا نطرح سؤالاً: من الجهة المخوّلة إقناع الأهل بضرورة إكمال ولدهم لدراسته؟ وما الضمانات للأهل لقاء الدّخل الذي كان يضيفه الطّفل إلى مصروف الأسرة؟ هذا واقع مرير حقاً، فالأهل بلا منازع يطمحون لتعليم أبنائهم، ويتمنّون لهم اختصاصات قيّمة لا سيّما في مجالي الطبّ والهندسة، ويدركون أهميّة ذلك، ويدركون أيضاً تكلفة هذه الاختصاصات في الجامعات الخاصة في لبنان،

لكنهم هم أيضاً مرغمون على التخلي عن المنح الخارجية لأولادهم المتفوقين بسبب صعوبة الوضع المادي الذي تعاني منه الأسرة، والغصة في الحناجر ريثما يتحسن الحال. هذا النموذج الأكثر تأثيراً في ذاكرتي، ويتكرر كل عام في ثانوياتنا، لأننا نرى كم من التلامذة يسعون نحو المنح الدراسية ويجهدون أنفسهم؛ بالمقابل هناك ممن تقدّم له ويرفضها الأهل لأنهم يعتمدون في معيشتهم على ما ينتجه أولادهم القاصرون ويقدمونه لهم. ولكن أيّ مستقبل ينتظر هؤلاء التلامذة؟ هؤلاء الذين فضلوا الوقوف إلى جانب أهاليهم على حساب تعلّمهم وتأمين مستقبلهم. فأيّ طفل هذا الذي يتحمّل كلّ هذه الأزمات؟ وأين حقوق الطفل التي تنادي بها القوانين والمواثيق الدولية؟ فلنضرب بها عرض الحائط إذا لم تطبّق في مجتمعاتنا، ولم تحترم الإنسان، ولم نبال بأوضاع طلابنا الأبرياء الذين يدفعون ثمن جريمة لم يرتكبوها.

إنّ تداعيات عمالة التلامذة الأطفال وخيمة، فمخاطرها تكمن في نوع العمل الذي يقومون به. وهي أعمال متنوّعة سبق وأشرنا إليها لكن أشدها خطراً ما يتمّ عبر الانترنت الذي يسرق وقتهم وبراءتهم وطفولتهم التي لم تتضح بعد، فعالم الانترنت عالم مبهم يحمل في طياته خفايا لا يدركها الطفل التلميذ لكنّها تسيطر على عقله وتفكيره وتغيّر في مسار حياته وتأخذه إلى أمور ليست بالحسبان، فيحصل ما لا تحمد عقباه. أضف إلى أنّ عدداً كبيراً من الأطفال يعملون (أونلاين) دون مراقبة أهاليهم، وهو أمر مقلق. فالمال بيد الأطفال يدفعهم إلى أمور كثيرة ومغريات لا تعدّ، وما أكثر المشجّعين الحقيقيين والافتراضيين على ذلك، وأخطر المغريات هو ترك المدرسة، ونسيانها لما فيها من صعوبة والتزامات وهدر للوقت وتقزيم للعب واللّهو مع الرفاق وبُعد عن وسائل التواصل وغيرها الكثير، إضافة إلى مخاطر أخرى. ولا أجد ضرورة للدخول في أتون الابتزاز والاستغلال وغيرها من الأمور المغرية للأطفال.

أ- تداعيات العمالة على صحّة الطفل وأسرته

- عدم قدرة التلميذ على متابعة دروسه بشكل جيّد.
- الإرهاق الجسدي الذي نلحظه في سلوكه في الفصل الدراسي يترافق مع عدم قدرته على التجاوب مع المعلّم أو المشاركة في الشرح والاستنتاج، ناهيك عن غفوته في أثناء الدرس فيغطّ في النوم بسبب الدوام الليلي الذي فرض عليه. فبدل أن يكون بين

أهله يقوم بواجباته المدرسيّة ويتلقّى الرّعاية اللّازمة من والديه مع تأمين حياة مريحة له وجوّ دراسيّ سليم، نراه يصارع الحياة للتغلّب على الحاجة. وما ساعد في ذلك هو وسائل التّواصل الاجتماعيّ التي شجّعت على العمالة وربطت ذلك بجني المال الذي يؤمّن السّعادة الأبديّة حسب زعمهم، وقد بات هذا الفكر مرتبطاً بمفهومهم للحياة. وما بين جني المال والعوز اختار الأطفال المال سعياً نحو حياة أسهل وأكثر راحة، وهذا ما أثر سلبيّاً على فكر التّلامذة واستهواهم، فالسّماح بالعمالة لتلامذة المدارس سيخلق جيلاً على حافة الهاوية.

ولم تنحصر تداعيات عمالة التّلامذة الأطفال في جوانب محدّدة من الحياة، بل يعمل التّلامذة في العديد من المجالات المختلفة، وتختلف آثارها باختلاف الأعمال التي يقومون بها، ولكنّها بالمجمل تعود عليهم بأضرار عديدة، ولا سيّما الجانب الصّحي في المستقبل البعيد، بالإضافة إلى الإرهاق والأذى النفسيّ اللّذين يلحقان به. ولا ننسى مخاطر استخدام بعض الأدوات الحادّة في العمل أو حمل الأوزان الثّقيلة وغيرها...

ب- تداعيات العمالة على المجتمع

كما ويتأثر الجانب الاجتماعيّ بشكل سلبيّ للأطفال العاملين، فبدلاً من قضائهم مرحلة الطّفولة باللّعب مع غيرهم من الأطفال، والاستمتاع مع أفراد عائلاتهم، والتفاعل مع الآخرين بطريقة سليمة وصحيحة، فإنّهم يقضون الكثير من الوقت في العمل ما يؤدّي إلى ضعف قدراتهم على التّواصل الاجتماعيّ مع الأسرة والمجتمع، إلى جانب ضعف كبير في بناء شخصيّاتهم وانخفاض ثقّتهم بأنفسهم. وقد انتشرت ظاهرة العمالة بشكل كبير بسبب الحاجة والعوز بالدرجة الأولى، فشكّلت تهديداً على حياة الأطفال. ولكن الأشدّ خطراً هو التسرّب المدرسيّ، الذي طال بشكل مباشر تلامذة المرحلة الثّانويّة؛ ونحن نعلم خطورة هذه الظّاهرة، فترك الطّفّل للمدرسة يؤثّر بشكل كبير على تعلّمه وتطوّره العلميّ والعاطفيّ، فيشعر بأنّه يفقد احترامه لنفسه، ويقلّل من ارتباطه بعائلته، ومن الصّعب تقبّله من الأطفال الآخرين. وكذلك تطوّره الاجتماعيّ والأخلاقيّ، فيصبح لدى الطّفّل رغبة في الانتماء للجماعة أو التعاون مع باقي الأشخاص. ولم ينحصر التأثير السلبيّ للعمالة بهذه الأمور فقط، بل له آثار سلبيةّ اقتصاديّة على نموّ المجتمع على المدى البعيد، إذ يمكن أن تعاني المجتمعات التي ترتفع فيها نسبة عمالة الأطفال

من فقد التوازن المجتمعي بسبب ارتفاع نسبة العمالة غير المتعلّمة، ما يحدث تدنيًا في مستوى الإنتاج وجودة السلع المنتجة، لذا لا بدّ من السعي للحصول على جيل جديد قادر على تحديّ الصّعوبات بهدف السعي للحصول على إنتاجية أفضل في المستقبل، ويكون ذلك من خلال إرسال الأطفال لتلقّي التّعليم فضلا عن تشغيلهم، حيث سيكون لهم دور فاعل عند تلقّيهم التّعليم المناسب؛ الأمر الذي قد يرفع من إنتاجية وجودة السلع على المستويين المحلي والدوليّ.

ج- تداعيات العمالة على المستوى التّعليمي

وللعمالة المبكرة أيضًا تأثير على المستوى التّعليمي للتلامذة، إذ يقضي التلميذ معظم وقته في العمل بدلًا من تخصيصه للدراسة ما يشكّل عبئا عليه، ويسبّب له التّعب والإجهاد وذلك يضعف من قدرة الطّفل على متابعة تعليمه، وقيامه بالتّشاطات الدّراسية والأكاديمية، والاندماج بالبيئة التّعليمية، وعدم قدرته على التوفيق بين المدرسة والعمل، ما يخلق لديه شعورًا بالقلق وضعفًا في التّركيز وتدنيًا في أدائه المدرسيّ وربما انقطاعه عن التّعلّم، وهذا ما شهدناه في المرحلة الأخيرة مع مجموعة لا بأس بها تركوا المدرسة بعدما شعروا بقيمة المال في انتشالهم من واقعهم المرير وانطلقوا للعمل، وإن كان بثمن زهيد، لكنّه يساهم في إنعاش العائلة فيشعر التلميذ بشيء من الراحة إذا ما لاحظ أنّ الأهل مرتاحون وراضون. ولم يمض وقت طويل حتى يجد التلامذة العاملون أنفسهم قد دخلوا ميدان العمل وأصبحوا جزءا منه بعدما كان موسميًا في أغلب الأحيان، وفي هذه الحالة يشعر التلميذ أنّ فرصته في العودة إلى المدرسة قد تقلّصت، فسرعان ما يصبح العمل الذي اعتاد عليه أسلوب حياة، وفيما بعد يصبح من الصّعب التّخلّي عنه.

كما يغفل بعض الأهل الآثار السلبية لتشغيل أطفالهم على المدى البعيد، فقد تتعارض عمالة الأطفال مع تلقّيهم التّعليم في المدارس، إلى جانب افتقارهم إلى القدرة على رفع الإنتاجية وزيادة أرباحهم المستقبلية، ما يعني انخفاض الدّخل المستقبلي لأسرهم الأمر الذي سيؤدّي إلى انتشار الفقر وزيادة احتمالية تشغيل أطفالهم في المستقبل.

د- تداعيات العمالة على المستوى النّفسي للطفّل

وما بين الفقر والحرمان تكبر معاناة الأطفال، ويتردّد على مسامعنا ما نسمعه من

أفواه تلامذتنا «أنا مضطرٌّ للعمل لكي أعيش». فحرمان الأطفال من طفولتهم يعرضهم للمس بكرامتهم وإمكاناتهم كما يعيق قدرتهم على التمتع بحقوقهم كافة. وقد يترك ذلك آثارًا تلازم الطّف بقية حياته على المستويين النفسي والجسدي. فما الشعور الذي يراود كلّ تلميذ ترك المدرسة خارج إرادته، وهو يعمل بعد الظهر في أماكن يرتادها معلّمه أو رفاقه؟ ماذا عساه يقول؟ وبمّ يشعر عند مشاهدتهم له في أماكن ليست له؟ فلا غرو في أنّه شعور مؤلم جدًّا، لا سيّما عند مشاهدته لرفاقه يواظبون على التّوادي الرياضيّة وقت فراغهم، أو يلتقون بالرفاق، أو يزورون الأصدقاء والأقارب برفقة أهاليهم، أو يقصدون منتدى أو مسبحًا أو استراحة لتناول كوب من العصير، فيما صديقهم يعمل بهذه الأماكن. تُرى أية حياة يحيها هذا الطفل؟ وأيّة معاناة؟ وأيّة مشاعر تلك التي تراوده؟! أليس لدى هؤلاء التّلامذة العاملين طموحات وأحلام يسعون إليها أو يتمنّون تحقيقها؟ من يدفن تلك الطموحات ويمحو تلك الأحلام ويحطّم الآمال؟ فمستقبل الأطفال إلى أين؟ وممّا لا ريب فيه، أنّ هؤلاء التّلامذة سيواجهون مشاكل نفسيّة كالاكتئاب، لأنّ الأغلبية تعمل لساعات طويلة ولا وقت للراحة لديهم، وهم عرضة أكثر من غيرهم لاكتساب عادات سيّئة وغير سليمة منها الإدمان على المخدرات، وهي معضلة شائعة اليوم في مجتمعاتنا لا سيّما في صفوف الشّباب المراهقين، إضافة إلى تعرّضهم للتّمر والمضايقات والرّفص من بعض زملائهم في المدرسة، وربّما أقاربهم إلى جانب عدم تلقّيهم لمعاملة عادلة ما يؤدّي إلى تنمية العزلة الاجتماعيّة لديهم، وضعف روابطهم العاطفيّة، وإمكانيّة ممارسة سلوكيّات غريبة أحيانا كإحداث الفوضى في الصّف و عدم احترامهم لمعلّمهم والاكتراث لكلامهم، وخطيرة أيضا كالجرائم. كلّ ذلك سببه العمالة المبكرة وعدم نيل الطفل حقوقه والاستخفاف بها من الأهل، وعدم احترام خصوصيّاته، وغيرها من الأسباب التي تتعكس سلبيًا على سلوكه فيصبح عدوانيًا.

5- مقترحات وحلول

إنّ استمرار ظاهرة العمالة وتسارعها بهذه الوتيرة ينبئ بخطر كبير يهدّد الأطفال ومستقبلهم والمجتمع بأسره. وبعد أن عرضنا لبعض أسباب تشغيل الأطفال التّلامذة دون السنّ القانونيّة ولتداعياته، نسأل هل من حلول مقترحة للحدّ من تفاقم هذه الظاهرة أو منعها؟

إنّ من أهم الأمور التي يجب الالتزام بها للحدّ من عمالة الأطفال هي التزام المعنيين بالحد الأدنى لسن القبول في العمل، والأهم التّعليم الإلزامي كما نادى به المركز التّربويّ للبحوث والإتماء، وذلك لإبعاد هؤلاء الأطفال عن كلّ ما يسبّب لهم الخطر على حياتهم. أمّا التلاميذ العاملون دون السن القانونيّة فيجب إبعادهم عن التّشغيل المبكر وإعادتهم إلى أماكنهم الطبيعيّة بين رفاقهم وزملائهم على مقاعد الدّراسة، ولينعموا بحقوقهم كاملة كما بقية الأطفال، وكما تنصّ القوانين والتّشريعات. وهنا تقع على عاتق الأهل مسؤولية كبيرة، ونحن نقدّر هذا الأمر، ونعلم أنّ هناك أسراً بحاجة ماسّة إلى من يعيّلها في تأمين قوتها. ومن هنا تبدأ المشكلة في كيفية تأمين مستلزمات العيش لهذه الأسر في ظلّ أوضاع معيشيّة صعبة للغاية، وهم بأمس الحاجة لعمل أبنائهم لأنهم يسدّون ثغرات كثيرة من حاجات أسرهم.

ونشير إلى أنّ هناك مبادرات عديدة ومتنوّعة طُرحت لحلّ مسألة تشغيل التلاميذ في سنّ مبكرة على حساب متابعتهم لدراساتهم وهي كثيرة ومتنوّعة، منها الفرديّ ومنها ما يتمّ عبر جمعيات وخيرين ومؤسسات وما شابه ذلك. وقد بدأ العمل على محاولة الحد من انتشار هذه الظاهرة الخطرة «منذ اعتماد اتفاقية منظمة العمل الدوليّة (international labor organization) اختصاراً (ILO) المتعلقة بأسوأ أشكال عمالة الأطفال 1999م؛ حيث تمّ اتّخاذ مجموعة من الإجراءات المهمّة لمعالجتها، وعلى الرغم من ذلك لا تزال هذه الظاهرة سائدة في معظم أنحاء العالم»¹. وقد عمد البعض إلى إيجاد حلّ لهذه الظاهرة بالاتفاق على اليوم العالمي لمحاربة تشغيل الأطفال، لكن ليس هناك من حسيب أو رقيب، ولم نسمع يوماً، في لبنان، على وجه الخصوص بمحاسبة مرتكبي هذه الجرائم ضدّ الأطفال، بل نشهد ازدياداً في أعداد الأطفال، وقد انضمّ إليهم في الآونة الأخيرة تلاميذ المدارس الرّسميّة.

وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بُذلت من أجل توفير بيئة حاضنة لهؤلاء الأطفال لا سيّما التلاميذ العاملين، والذين يجمعون بين التعلّم والعمل من تأمين المستلزمات المدرسيّة من كتب وقرطاسيّة وألبسة مدرسيّة، إن كان من الجهات الدّاعمة كاليونيسيف أو من القوّات الدوليّة التي تدعم في كثير من الأحيان مدارس رسميّة معيّنة، وتقدّم لها

1 Eric Edmond, 2019, Child labour: causes, consequences and policies to tackle it, p: 14, 24. Edited.

مساعداً عينية لتيسير أمور التلامذة وغيرهم، إلا أنها تبقى جهوداً ناقصة، لأنّ التلامذة العاملين ما زالوا مستمرين في العمل. فالوضع يفوق إمكانية هؤلاء المساعدين ليشمل أوضاع الأسر التي تحتاج إلى مساعدات مستمرة وفاعلة تغنيهم عن تشغيل أبنائهم، أو تضطربهم للتغيب عن المدرسة من أجل إكمال العمل خوفاً من حسم في الأجرة كعقاب له على التأخير أو الغياب أو غيرها من الأمور التي تكون سبباً في حسم الأجرة.

وهناك حلول فردية تُدرج في لائحة الحدّ من عمالة الأطفال والتي يمكن للأفراد تقديمها للمجتمع من أجل المساعدة، منها: التبرّع بمبالغ مالية من أجل دعم الأسر المتعففة، والمبادرة إلى رعاية الأطفال المرغين على العمل، أو الذين دخلوا مجالات العمل، وذلك من خلال التّكفل بدراساتهم. وهذا حتماً سيساعد في تخفيف الأعباء وبناء مجتمع سليم، كما يهيئ الأطفال جيّداً قبل دخولهم مجال العمل. والتواصل مع الأهل والإدارات المدرسية يساهم في دعم هؤلاء الأطفال ومساعدتهم لتخليصهم من هذا العمل وإرجاعهم إلى المدارس حتى يكملوا تعليمهم، وكذلك في توعية المجتمع من مخاطر عمالة الأطفال، وذلك من خلال العروض التقديمية في عدد من المؤسسات، مثل: الجامعات والمنظمات المحلية؛ إذ تؤثر هذه الطريقة في زيادة الوعي لدى الجميع حول ظاهرة تشغيل الأطفال وتشجيعهم على الالتزام بالعمل الإيجابي السليم.

وهناك حلول أسرية، والأسرة جهة مسؤولة مباشرة عن تشغيل الأطفال، فهي الأساس في دفعهم للعمل، وفي حال إيجاد حلول لتحسين حال الأسرة، فمن المؤكد «بأنّها لن تلقى بأطفالها نحو العمل»¹. وهي حلول تسهم في تحسين وضع الأسرة لتصبح قادرة على رعاية الأطفال وحمايتهم، منها:

- معالجة الفقر الذي تعاني منه الأسر والذي يؤثر سلباً على تعليم الأطفال ورعايتهم.
- التخلّص من مشكلة البطالة للكبار لنضمن عدم تشغيل الأطفال، فعندما لا يحصل الأبوان على عمل يكفي متطلبات الأسرة يستعينان بأطفالهما وغالباً ما يتوقّر العمل للصغار قبل الكبار بأجور متدنية.
- معالجة مشكلة تدني مستوى الدّخل، إذ بات الأبناء غير قادرين في الوقت الحالي على تأمين أدنى متطلبات أطفالهما.

1 كاظم، سميرة عبد الحسين. 2023م، عمالة الأطفال في العراق: الأسباب والحلول. ص 26 بتصرّف.

- ضرورة وجود شبكة اجتماعية آمنة وفاعلة، قادرة على تأمين الأسر بمصدر بديل للدخل في حال عدم الحصول على العمل، وذلك تجنباً لدفع الأطفال نحو العمل من أجل المال والتكفل بالأسرة.

ومنذ زمن طويل يسعى المجتمع الدولي للحد من ظاهرة تشغيل الأطفال وحمايتهم، وقد تبين ذلك من خلال «مجموعة من القوانين والاتفاقيات التي صدرت خلال سنتين متواصلتين وحتى وقتنا الحالي، ويدرج فيما يأتي عدد من هذه القوانين والمبادرات والاتفاقيات:

- صدور قانون معايير العمل العادلة عام 1938م (FLSA)، وهو أحد قوانين العمل في الولايات المتحدة الأمريكية.
- صدور اتفاقية الحد الأدنى لسن العمل عام 1973م، وقد صادقت عليها 172 دولة عالمياً.
- صدور اتفاقية حقوق الطفل عام 1989م.
- تأسيس البرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال (IPEC).
- إصدار اتفاقية أسوأ أشكال عمل الأطفال والتي صادقت عليها 186 دولة في العالم، وذلك عام 1999م.
- إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة بأن عام 2021 هو العام الخاص بالقضاء على عمل الأطفال¹.

كما أنّ هناك بعض الطرق العلاجية التي يمكن أن تساعد في تفادي ظاهرة تشغيل التلامذة الأطفال بعد الدوام المدرسي، بعدما ازدادت أعدادهم في السنوات الأخيرة، وأدى إلى تدني المستوى الدراسي. ومن هذه الطرق: تفعيل القوانين والعقوبات على أرباب العمل لئتمّ تحسين الظروف المعيشية لهؤلاء الأطفال، ومتابعة الأطفال في المدارس، ونصحهم بعدم ترك الدراسة الأكاديمية وغيرها.

1 Kathryn Reid, 22-6-2021, Child Labor; Facts, FAQs, and how to help end it, World Vision, retrieved 22-1-2022, Edited.

الخاتمة

صفوة القول، إنّ عمالة الأطفال ظاهرة اجتماعية وإنسانية قديمة، وقد اعتادت الشعوب الفقيرة على تشغيل أولادها دون تردّد أو تعنّت، سواء أدركوا أم لم يدركوا تأثيراتها السلبية على أطفالهم وجهلهم بالأعباء التي تنقل كاهلهم وتستغلّهم. كلّ ذلك تفاقم بعد الأزمة الاقتصادية التي حصلت مؤخراً لا سيّما في لبنان، والتي شجّعت بدورها التلامذة دون سن الثامنة عشر على العمل في دوامات ليلية، أو بعد الانتهاء من المدرسة. فتدهور الوضع الاقتصاديّ في البلاد أترّ سلباً في الوضع التربوي، فشهدنا تسرباً مدرسياً كبيراً. وإنّ توجّه طلابنا نحو العمل ترافق معه تقصير وإهمال وغيرهما ما أحدث خللاً في المسيرة التعليميّة للطفل. والجدير بالذكر، أنّ العاملين من التلامذة توزّعوا بين إناث وذكرور لأسباب عديدة: كالفقر وتدنيّ المستوى الثقافي للأسر، وعدم وعي الأهل للآثار السلبية للعمالة، إضافة إلى المشاكل الماديّة والديون وغيرها الكثير. فظاهرة تشغيل الأطفال هي ظاهرة غير قانونيّة أدت التلامذة ووضعهم في مواجهة مع الأزمة، فحُمّلوا فوق طاقتهم.. لذا، كان للعمالة تداعيات شتى وخطيرة، على مستويات متعدّدة، صحيّة، اجتماعية، أسريّة، تربويّة، سلوكيّة، نفسيّة، تعليميّة...ولكن الأشدّ خطراً هو التسرب المدرسيّ. أمّا الحلول التي اقترحت للحدّ من تفاقم عمالة الأطفال، وبناء على القوانين والتشريعات الدّوليّة، فلم توفّق في علاج هذه الظاهرة رغم الجهود المبذولة، فتطبيق هذه التشريعات يتطلّب التّضحيات والمساعدات والدّعم المالي الكافي للأهل، وتأمين البدائل من أجل الارتقاء بالمستوى الأكاديميّ والاجتماعيّ، وصولاً لمجتمع راق وواعٍ لما يدور حوله. ولكن هل يمكن لبلد مثل لبنان الذي يعاني اليوم من أزمات متنوّعة أن ينجح في إعادة التلامذة إلى مدارسهم ومساندتهم للتخلّي عن العمل لصالح التعلّم؟ وهل يضمن مستقبلهم في الدّراسة والتخصّصات الجامعيّة التي باتت عبئاً ثقيلاً على الأهل لارتفاع الأقساط وصعوبة تأمين السّكن وارتفاع أجره النّقل من الجامعة وإليها؟

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 1 - ابن منظور، لسان العرب. ج11، ص476.
- 2- الأزهرى، محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروى أبو منصور. تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى/ بيروت، ط1، 2001م.
- 3-الدويكات، سناء. مايو 2020ظاهرة تشغيل الأطفال. موقع « موضوع».
- 4 - اليونسف، البحث عن الأمل، نظرة قاتمة لشباب وشابات لبنان الذين يتأرجحون عند حافة الهاوية/ لبنان، 27 كانون الثاني 2022م.
- 5- برجايوي، نعيم. أيلول 2022، كلفة التعليم.. كابوس نالي إضافي يؤرق اللبنانيين/ موقع الأناضول.
- 6- حسن، عباس(ت:1398هـ) النحو الوافي (3/196)، ط15، ج4، دار المعارف.
- 7- كاظم، سميرة عبد الحسين. 2023م، عمالة الأطفال في العراق: الأسباب والحلول.

8-Child labour, unicef. in, Retrieved 4-3-2020. Edited.

9-Eric Edmond, 2019, Child labour: causes, consequences and policies to tackle it, p: 14, 24. Edited.

10-Kathryn Reid, 22-6-2021, Child Labor; Facts, FAQs, and how to help end it, World Vision, retrieved 22-1-2022, Edited.

ثقافة الحوار في الوسط المدرسي

The culture of dialogue in the school environment

منى حديفة

Moma Hudhayfah

تاريخ القبول 2024 /9/21

تاريخ الاستلام 2024 /9/4

الملخص

يعدّ الحوار من أهم صور التّواصل في الحياة اليوميّة والاجتماعيّة للفرد، كونه أسلوبًا لتنمية مهارات فن التّواصل والتّفاهم بين النّاس، وطريقة لتحليل الموضوعات وتبادل المعلومات والثّقافات، ليهدف إلى تقوية شخصية الفرد من خلال تنمية أسلوبه في التّعامل، وتعزيز القدرة على تقبل الآخر والتّفاعل بإيجابية، ليعكس رقي ونهضة المجتمع والأمة.

وعلى مستوى المؤسّسات التّعليميّة، فإنّ المدرسة تؤدّي دورًا مهمًّا في تربية الطّلاب على الحوار، لذلك لا بد من التّعرف على مقوّمات الحوار النّاجح بين الطّلاب، وتحديد معوّمات الحوار، والعمل على تجنبها. وإطلاق جو المناقشة واحترام الرّأي في حريّة تامة.

الكلمات المفتاحيّة: الحوار - ثقافة الحوار - الطّلاب - المؤسّسة التّعليميّة.

Summary:

Dialogue is one of the most important forms of communication in daily and social life, serving as a method to develop communication skills and mutual understanding among people. It is a way to analyze topics, exchange information and cultures, and aims to strengthen an individual's character by enhancing their interaction style, fostering the ability to accept others and engage positively, thereby reflecting the advancement and prosperity of society and the nation.

In educational institutions, schools play a significant role in teaching students the art of dialogue. Therefore, it is essential to understand the com-

ponents of successful dialogue among students, identify the obstacles that hinder effective communication, and work on avoiding them. Additionally, it is important to foster an atmosphere of discussion and respect for opinions with complete freedom.

Keywords: Dialogue, Culture of Dialogue, Students, Educational Institution.

المقدمة

للحوار أهمية كبيرة فهو الرّكيزة الأساسية للتّواصل الفكريّ والثقافيّ والاجتماعيّ بين الأفراد والمجتمعات. وذلك لما له من أثر في اكساب الأفراد والجماعات مهارات التّفكير والتّواصل والانفتاح على الثقافات الأخرى وتبادل الخبرات.

كما يعدّ الحوار من أهم أسس الحياة الاجتماعيّة لأنّه وسيلة الانسان للتّعبير عن حاجاته ورغباته وميوله ومواقفه ومشكلاته، فهو يحرّر الانسان من الجهل والعبوديّة والانغلاق والانعزال، ويفتح له قنوات الاتّصال والتّواصل مع الآخرين التي تسهم في اكتساب مزيد من النّقدّم والرّقي والوعي.

وتزداد أهمية الحوار في المؤسّسات التّعليميّة، فهو أسلوب من الأساليب التّربويّة التي يجب أن يتربى عليها الناشئة، سواء كان ذلك في تربية الأبناء داخل الأسرة، أو تربية المتعلّمين داخل المدرسة. وهذا يؤكّد على أهمية الدّور الذي تؤدّيه المؤسّسات التّربويّة في سبيل تأهيل جيل جديد يتبنّى قيم الحوار والاختلاف في الأفكار والطروحات. لذلك يجب إشاعة ثقافة الحوار بين الطّلبة حتى لا يتبنّى المراهق اتّجاهات غير مرغوب فيها، وتتنافى مع آداب وقيم المجتمع.

ولا بد أولاً وقبل الحديث عن الحوار كونه أحد الأساليب التّربويّة من بيان معنى التّربيّة لغة واصطلاحاً.

مفهوم التّربيّة لغة:

تعود كلمة (التّربيّة) لغة إلى أصول ثلاثة هي:

الأصل الأوّل: ربا، يربو، بمعنى زاد ونما، ينمو.

الأصل الثّاني: ربي يربي على وزن خفي يخفي، ومعناها: نشأ وترعرع.

الأصل الثالث: ربا، يرب، على وزن أصلحه وتولّى أمره، وساسه وقام عليه ورعاه¹.

أما من الناحية الاصطلاحية فالتربيّة هي عملية نمو واكتساب الخبرة، واستخراج ما لدى الفرد من قدرات كامنة وتنميته خُلُقياً وعقلياً، لإحداث تغيير مرغوب فيه في سلوك الفرد خاصة، وفي المجتمع عامة، بواسطة تفاعل الفرد مع البيئة المحيطة به من أفراد وكائنات حية وغيرها.

ويرى العلماء المسلمون أنّ التربيّة الإسلاميّة فلسفة واضحة مستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهي تتعهد الإنسان بدنياً وعقلياً وروحياً. وكل من يتدبّر القرآن يرى «أنّه كتاب عقيدة وتشريع وكتاب تربية وتوجيه ودعوة من الله سبحانه وتعالى للإنسان لدراسة الكون والحياة، دراسة متأنية عميقة، ليفهم ويتدبر ومن ثم يتجه الاتجاه الصحيح»².

مفهوم الحوار:

تعريف الحوار لغة: الحوار لغة أصله من الحور وهو «الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حار إلى الشيء وعنه حورًا ومحارًا وحورًا، رجع عنه وإليه...، والحور النقصان بعد الزيادة لأنّه رجوع من حال إلى حال. كقوله تعالى: «أَأَيْنَهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ»³. أي لن يرجع حيًا. وبين أنّ المحاورّة: المجاورة والتّحاور: التّجاوب... وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمحاورّة، مرجعة المنطق والكلام في المخاطبة⁴.

وفي المعجم الوسيط نجد أنّ كلمة الحوار لغة مشتقة من تحاور وتحاوروا أي تراجعوا في الكلام فيما بينهم. وبذلك تكون المحاورّة بمعنى مراجعة الكلام من قولهم. حار إذا رجع⁵.

الحوار اصطلاحًا:

أما المعنى الاصطلاحى للحوار فهو يفيد المشاركة أو الرّد أو المجاورة حول موضوع

1 عبد الرحمن بكار، مدخل إلى التربية في الإسلام، بيروت، المكتب الإسلامي، دط، دت، ص7. وانظر الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمادة، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، ط1، 1407هـ/1987م.

2 عبد الرحمن عميرة، منهج القرآن في تربية الأجيال، جدة، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، 1981، ط1، ص15.

3 سورة الانشقاق: الآية 14

4 ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، المجلد الرابع، ط6، 2008م، ص264.

5 حسين أحمد الزيات، المعجم الوسيط، بيروت، دت، ج1، ص212.

مطروح بين طرفين أو أكثر سواء كان الحوار عن طريق ندوة أو مناقشة أو مناظرة أو مجادلة أو موقف من المواقف الحياتية¹.

أما ثقافة الحوار فيمكن تعريفها بأنها «إطار ثقافي تنطلق فيه إمكانيات الحوار مع الآخرين والإيمان بوجودهم وحقوقهم مع المحافظة على تبادل المعلومات بين الأطراف من أجل فهم طبيعة الحوار وهدفه»².

وتعرف ثقافة الحوار أيضاً بأنها «الجو العام الذي يكتنف حياة الطلاب بالمدرسة وما يشتمل عليه من مبادئ وأعراف وأطر ونظم بحيث يصبح الجو معتمداً لتبادل الرأي لا أحاديته، ومحاولة فهم الطرف الآخر وعدم إغائه»³.

كما يفيد بأنه الحديث بين شخصين أو أكثر بطريقة متكافئة في مسألة معينة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن التعصب لإظهار الحق بالحجة والبرهان⁴.

والحوار من منظور إسلامي هو أسلوب تربوي واجتماعي يستخدم في حل المشكلات التربوية والاجتماعية، وتعتمد هذه الرؤية على المنهج الإسلامي وعلى التصور الإسلامي في فهم الكون والحياة والانسان. كما أنّ الحوار هو المنهج الذي خاطب به القرآن الكريم عقل الانسان ووجدانه ليدلّه إلى الصراط المستقيم في الحياة الدنيا ليصل به إلى النجاة في الحياة الآخرة.

وقد كان الحوار منذ بداية البشرية طريقة الأنبياء والرسل في الدعوة إلى الله، ولا يزال هو الطريق الأجدى في العمل الدعوي، وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تدلّ على الحوار، ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ، ثُمَّ قَالِ لِصَاحِبِهِ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ، أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾⁵. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ، صَاحِبُهُ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ، أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ

1 فيصل محمد الدنيس، الحوار الاجتماعي من منظور نفسي، الرياض، مطبعة النرجس، 2005م، ص6.
2 ريم بنت خليفة بنت محمد الباني، ثقافة الحوار، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، 1430هـ، ص33.
3 ماهر أحمد البقري، القيم الخلقية في الإسلام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1420هـ، ص76.
4 فهد بن ناصر العبودي، الحوار منهج وسلوك، الرياض، دار أطلس الخضراء، 2005م، ص12.
5 سورة الكهف: الآية 34.

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَبُّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾¹ يفهم من هذه الآيات أن الحوار هو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، وعليه فالحوار هو محادثة حول موضوع معين محدد، لكلّ منهما وجهة نظر خاصة به هدفها الوصول إلى الحقيقة أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر بعيداً عن التعصّب والخصومة. فالرسول عليه الصلاة والسلام أفضل من استخدم لغة الحوار على الإطلاق. فقد كان يستعمل الحوار كوسيلة للتّراحم والتّواصل مع الآخرين، وتجد في سيرته ﷺ نماذج كثيرة ومتنوّعة للحوار. وترد في أشكال شتى لتقدّم لنا الدّروس التي نتفعلنا².

ومما لا شك فيه أنّ للحوار في الإسلام آداباً وقيماً ومنهجاً أخلاقياً يحترم الانسان وحرية في الاختيار. فالإسلام يحترم حقّ الانسان في الاختلاف، وبما أنّ الانسان كائن اجتماعي بطبعه، لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن النّاس، فهو في اتّصال مستمرّ معهم، والنّفس البشريّة تميل بطبعها وفطرتها إلى الحوار والجدل قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾³.

أهمية الحوار

تبرز أهمية الحوار في أنّه يعدّ من أفضل الوسائل في الاقناع وتغيير الاتجاه الذي يدفع إلى تعديل السلوك. فالحوار الإيجابي يؤدّي إلى ترويض النفوس، وتعويدها على تقبل النّقد واحترام الرّأي الآخر، ودعم النموّ النّفسيّ، والتخفيف من مشاعر الكبت وتحرير النّفس من المشاعر العدائيّة والقلق من المستقبل، كما أنّه يعدّ وسيلة علاجية لكثير من المشكلات التي يصعب حلّها بالطرق التقليديّة.

فالحوار من أهمّ أدبيّات التّواصل الفكريّ والثّقافيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ التي تتطلّبها الحياة في مجتمعنا المعاصر، لما له من أثر في تنمية قدرة الأفراد على التّفكير المشترك والتّحليل والاستدلال، بغية إنهاء خلافاتهم مع الآخرين بروح التّسامح والصّفاء وبعيداً من العنف والإقصاء. كما أنّ الحوار هو سمة من سمات المجتمعات المتحضرة، والأداة الفعالة التي تساعد على حلّ المشكلات الصّعبة.

1سورة الكهف: الآية 37.

2 سيد محمد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام، القاهرة، دار نهضة مصر، 1999م، ص45.

3 سورة الكهف: الآية 54.

ويعد أسلوب الحوار من أهم أساليب التربية الإسلامية، لذلك فمن واجب كل من يعمل في مجال التربية، سواءً كان في وسط تربوي، كالأُسرة، أم في مؤسسة تربوية، كالمدرسة والجامعة أن يعنوا بمثل هذا الموضوع فيبحثوا فيه، ويتكلموا، فهم أحقّ بذلك وأولى، وألا يتركوه لمعرض أو لأصحاب النوايا السيئة¹.

وعلى الصعيد المؤسسات التربوية والتعليمية فإن أهمية الحوار تكمن من خلال ما تقدّمه هذه المؤسسات من أساليب وطرق تسهم في تعزيز ثقافة الحوار ومهاراته لدى المتعلّم. فالحوار يسهم في تحسين أداء المتعلّم في مختلف العلوم وعلى جميع الأصعدة. ولكي يكتمل نمو المتعلّم فكرياً فإن ذلك يتطلّب من المربي أن يكسب ثقة المتعلّم عن طريق استخدام أسلوب الحوار فيتحوّل المتعلّم إلى عنصر مشارك في العملية التعليمية². كما أنّ الحوار يوصل قدرات العقل وينمي ابداعاته، ويمنح الطالب جملة من القيم والمهارات لحسن التعامل مع الآخرين. ويساعد على تنمية السلوك التعليمي كالإيجابية والمشاركة الفاعلة، واشباع الحاجة للعلم، وتقريب الأفكار والآراء، وزيادة المعلومات والحصيلة العلمية، والتّوصل لكشف الحقيقة وإيجاد روح المنافسة، والدخول في المناقشات العلمية.

إنّ أهمية الحوار تكمن في تهيئة النشء لمواجهة عالم سريع التّغير، فاستخدام استراتيجيات التدريس القائمة على الحوار والمناقشة تساعد المتعلّم على مواجهة المشكلات المستجدة، وإعداده لعالم متغير.

أهداف الحوار

إنّ ما يدعو للحوار بين التلاميذ وأفراد الهيئة التعليمية وبقية العاملين في المؤسسات التعليمية سواء كانوا معلّمين أو مرشدين أو مشرفين أو مديرين هو الإيمان بضرورة تقبّل الآخر عن طريق التّواصل اللفظي وغير اللفظي. وهذا الأمر لا يتحقّق إلا عن طريق الحوار الإيجابي الذي يتيح للطالب الفرصة للتّطور والتّقدّم والنمو.

1 محمد يحيى زمزمي، الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، عمان، دار المعالي، ط2، 1422هـ، ص33.

2 عوض صابر جيدوري، دواعي تعزيز ثقافة الحوار لدى طلاب جامعة طيبة وطالباتها من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس، الكويت، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 158، ص 17.

وعندما تسود لغة الحوار بين عناصر الأسرة المدرسيّة فإنّ ثمة أهدافاً عديدة وآمالاً كبيرة يرجى تحقيقها سواء في القريب العاجل أو في المستقبل. ومن هذه الأهداف تربية الطّلاب على منهجية الحوار وفهم وجهة نظر الطّرف الآخر واحترامها حتى مع وجود الاختلاف في الرّأي، لكي يسلكوا هذا المنهاج في حياتهم ومعاملاتهم مع الآخرين، وليس في المدرسة فقط.

والحوار يتيح الفرصة للتّلاميذ بأن يعبروا عن آرائهم وأفكارهم بحريّة دون خوف أو خجل. كما يساعد المعلم على تخريج جيل صالح، قادر على النّقد البناء من خلال تشجيعهم على إبداء آرائهم وملاحظاتهم بجرأة وشجاعة من دون خوف أو تردّد. وقد يؤدّي المعلم دوراً فاعلاً في بناء الفكر النّقديّ عند الطّلاب من خلال إثارة أذهانهم على التّساؤل، وإعطائهم مساحة كافية من الحريّة والوقت ليعبروا عما يريدون. بمعنى أن يكون الطّالب متحرّراً من الرّهاب المدرسيّ الذي يولّد الكبت والخجل والخوف¹.

كما يعزّز الحوار ثقة الطّالب بنفسه من خلال منحه الفرصة والوقت الكافي للتعبير عن أفكاره. ويعمل على تنمية روابط الألفة والمحبة بين المعلم والطّالب، وبين الطّلاب فيما بينهم.

ومن أهداف الحوار إعطاء الفرصة للطّلاب للمشاركة في صياغة القرارات المدرسيّة وقوانينها، ومن المؤكّد أن الطّلاب سيحترمونها هذه القرارات المدرسيّة عندما يشاركون في وضعها. وسيطبقون القوانين المدرسيّة بطواعية عندما يدركون أنّها وضعت من أجلهم، ومن أجل تحقيق بيئة مدرسية آمنة².

شروط الحوار النّاجح

للحوار ركنان أساسيان يتمثّلان في وجود شخصين متحاورين أو أكثر، ووجود قضية يجري الحوار بشأنها. فالحوار لا يتم في فراغ وإنّما يدور حول فكرة معينة أو موضوع معين يستحق المناقشة مع الغير، وأن تكون الأطراف المتحاورّة على علم بالموضوع المطروح للتّحاور والوقوف على الفكرة التي يريدون اثباتها.

1 بدر بن محمد عيد الحسين، الحوار المدرسي، الرياض، مركز الملك عبد الله للحوار الوطني، 1432هـ/ 2011م، ص47.
2 المرجع نفسه، ص48.

وإذا أردنا للحوار أن ينتج ويؤتي ثماره ويخرج بنتائج ذات قيمة، فإن ذلك يتطلب عدة شروط منها:

1- تحديد موضوع النقاش

لكي يأتي الحوار بنتيجة، لا بدّ من تحديد موضوع النقاش، فاحترام التخصّص وعدم التّحاور في موضوعات ليس لها علاقة بموضوع النقاش وفكر المحاور واهتماماته من شأنها أن تنهي الحوار من دون نتائج مرضية للطرفين. لذلك لا بد للمتحاورين أن يتّفقا على الموضوع الذي سيكون مناط حوارهما أو حوارهم إذا كانوا أكثر من اثنين. ولعل هذا التّحديد يجدي في بقاء الحوار ضمن المضمار المتفق عليه. ومن الضّرورة معرفة الموضوع أو الموضوعات مسبقاً كي يكون كل محاور على بينة من أمره¹.

2- معرفة أسباب الحوار وأهدافه

فلا بد للمحاور أن يعرف أسباب الحوار وتتمثّل في الخلاف حول موضع محدّد، فقد يكون موقف أحدهما سلبياً من هذا الموضوع، وقد يكون الآخر إيجابياً. فلكل حوار بواعث ودوافع تدفع المتحاورين للاستغراق الحواريّ فيه. كما أنّه من الضّرورة معرفة أغراض وأهداف الحوار للطرفين للوصول إلى حقيقة متّفق عليها أو أن يعمل الطّرفان على الوصول إليها، وذلك بإفهام الطّرف الأوّل برأي الطّرف الثّاني أو العكس، فهما يحلّان رأيين متعارضين، وغرضهما الاتّفاق على رأي موحد بحيث يزول الخلاف بينهما، ومن ثم يصلان إلى نتائج محددة يخرج منها الطّرفان برضى عقلي، أو يبقى الخلاف بينهما لعدم اقتناع أي منهما برأي الآخر².

3- اعتماد العقل والمنطق في الحوار

يعني التزام أطراف الحوار بالطّرق المنطقيّة السليمة في أثناء المحاورّة، ويمكن تحديد معالم الالتزام من خلال تقديم الأدلّة المثبتة المرجحة لكل فرضيّة أو دعوى يقدّمها المحاور، لأن من واجب المحاور تقديم الحجة أو البرهان، فكل قول يتفوّه به المحاور من حقّ الآخر أن يطالبه بالدليل³.

1 السيد يس، الحوار الحضاري في عصر المعلومات، القاهرة، دار النهضة، 2001/ ط2، ص38.

2 عبد القادر الشخلي، ثقافة الحوار في الإسلام، الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، 2003م، ص 139.

3 سعيد زادة، الحوار قيمة حضارية، الأردن، دار النفائس، 1430هـ/ 2019م، ص123.

ومن أوجب الواجبات لكي يكون الحوار بين الأطراف ناجحًا ونافعًا، وترجى من ورائه النتائج الطيبة والعواقب الحميدة أن يقوم على الحقائق الثابتة، لا على الاشاعات الكاذبة، وأن يبنى على المعلومات الصحيحة، لا على الأخبار الملفقة.

4- إعطاء معلومات للمتحاورين

قبل البدء في الحوار لا بدّ من إعطاء معلومات للمتحاورين عن الموضوع أو القضية التي سيتحاورون فيها. وهذا ضروريّ جدًّا لطلاب المدارس والجامعات، ذلك أنّ المعلم حين يختار موضوعًا للمناقشة بين الطلاب يجب أن يختاره بعناية وأن يكون هذا الموضوع ذا فائدة لهم. وإذا لم يكن الطلاب يملكون المعلومات عن الموضوع المنوي طرحه للنقاش فإنهم لن يتفاعلوا ولن يشاركوا أستاذهم بالحوار لأنهم لا يملكون المعلومات الكافية عن الموضوع، أو أنّ الموضوع جديد بالنسبة لهم ولم يسبق أن طرح عليهم من قبل¹.

فإذا أراد المعلم أن يطرح أي موضوع للنقاش عليه أن يعطي طلابه أول الأمر معلومات عن هذا الموضوع مع شرح الفكرة والمغزى من طرحه وبعد ذلك يبدأ الحوار. وسوف يجد المعلم تجاوبًا من الطلاب ومشاركة بالحوار والمناقشة أكثر مما هو متوقع.

5- اختيار الوقت المناسب للحوار

ويدخل في ذلك اختيار الوقت المناسب للحوار، فليس كل وقت مناسب للحوار، كما أنّ الحوار يجب ألا يستغرق وقتًا طويلًا أكثر مما يجب، فيرهق المتحاورين وقد لا يوصلهم إلى نتيجة مرضية، وقد يؤجّل الحوار بسبب هدر الوقت من دون تحقيق نتيجة متوخاة².

6- البعد عن التجريح

من المهم في كل حوار البعد عن التجريح الشّخصي والتّعريض بالمحاور الآخر، كما ينبغي أن يخلو الحوار من الصّراخ والضّجيج أو العنف، أو الكلام الجارح، كأن ينعث أحد المتحاورين الآخر بنعوت غير لائقة، أو أن يتعرّض لقبيلة الرجل أو عائلته أو سلالته أو أن يسخر من عمله.

1 عبد الكريم بكار، التربية بالحوار، الرياض، مركز الملك عبد الله للحوار الوطني، 1429هـ/ 2011م، ص26.

2 محمد ديماس، فنون الحوار والاقناع، بيروت، دار ابن حزم، 1999م، ص86.

- أساسيات الحوار

من أهم أساسيات الحوار ومهاراته هو الانصات الجيد أو والاصغاء، إنّ الانصات جزء مكمل وأساسي لأي حوار فهو يتيح الفرصة لجميع المتحاورين في التعبير عن آرائهم، كما أنّ نجاح أي حوار يعتمد بشكل كبير على تعلّم فنّ الإصغاء.

والمحاور الجاد يهتم بصاحبه وينصت له بشكل يعين على هدوئها وبتيح لهما حسن الفهم ووضوح الرؤية والقدرة على إتمام الحوار¹.

ويعدّ النظر إلى المتحدث، أو الانشغال عنه وهو يتحدّث من أهمّ سمات الانصات أو الاصغاء التّاجح، وكذلك عدم مقاطعته في أثناء الكلام أو نقض كلامه أو الرّد عليه قبل أن ينهي كلامه ويعرض حججه. فمن يريد أن يحاور ينبغي أن يتعلّم أولاً أدب الاستماع، ولهذا يوصف الانصات بأنّه من أهم مهارات الحوار وأساسياته. والاستماع الجيد يكون بالإصغاء التام وحضور الذهن، وانفتاح النّفس للسمع، كما يكون بالنّظر إلى وجه المتحدث.

أما النقطة التّانية من أساسيات الحوار فهي عدم الغضب، وهذه وصية النّبي عليه أفضل الصلاة والسلام حين سأله رجل أن يوصيه، وقال أيضاً «ليس الشّديد بالصّرعة وإنّما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب»².

ومن أساسيات الحوار الانفتاح للوصول إلى فهم مشترك وتبادل الخبرات والأفكار، وهذا لا يتحقّق من دون انفتاح ذهنيّ يكون فيه كل طرف مستعداً لترك ما هو عليه وتبني وجهة نظر محاوره لأنّها أولى، أو لأنّها تنطوي على مصلحة للطرفين.

وأيضاً من أساسيات الحوار قبول النّقد، فالمحاور الجيد يجب أن يتقبل نقد أفكاره وآراءه من غير امتعاض، وإنّ النّقد لا يعني البحث عن سلبيّات الآخر ومساوئه فحسب، بل يعني أن نكتشف مساحات الجمال الموجودة في الأشياء، ومساحات الخير الموجودة في الأفعال والمواقف، ولدى النّاس كافة، إن النّقد يعني اكتشاف الإيجابيات والسلبيّات وما

1 أحمد عبد الرحمن الصويان، الحوار أصوله المنهجية وأدابه السلوكية، الرياض، دار الوطن، 1413هـ، ط1، ص108.

2 خليل فهد زايد، فن الحوار والافتتاح، عمان، دار النفائس للنشر والتوزيع، 1427هـ/2007م، ص132.

يقترَب وما ينتمي إلى كل منهما¹.

ولا يجب أن ننسى خفض الصوت واحترام المجالس ولزوم السكينة، فالمحاور القوي يستمد قوته من هدوئه ورزاقته ومنطقه، لا من الصراخ والصياح. لأنّ الصوت المرتفع يوتّر المتحاورين ويجعل الحوار أشبه بحلبة ملاكمة، وليس لأحد المتحاورين مصلحة في ذلك.

يعد إنهاء الحوار من الأمور المهمة التي يجب أن يأخذها المحاور باعتباره، وهي أصعب جزء في الحوار وأكثر احتياجاً للمهارة، ففي بعض الأحيان يجد المحاور نفسه مضطراً إلى وقف الحوار، مثلاً إذا تبين له أنّ الاختلاف في أمور أساسية لن يسمح الوقت بالتحاور فيها، أو تبين له أنّ الأمر بدأ يتجه إلى السخرية والاستهزاء وانعدام المنطق، لذلك فإنّ إنهاء الحوار بأسلوب لبق والانصراف هو السبيل الأمثل، ويجب أن يكون إيقاف الحوار بطريقة ذكية ومهذبة لا تدلّ على العجز ولا الهزيمة بل على الثقة².

- معوقات الحوار

في الحقيقية إنّ معوقات الحوار في غالبها أمر عارض، وليست أمراً موجوداً أصلاً. بمعنى أنّ التخلص منها أمر ليس بالصعب، إذا ما أدركنا تلك المعوقات.

إن المصداقية والأمانة صفتان مهمتان في المحاور الناجح، وفقدانهما أو فقدان أحدهما يُفقد الآخرين الثقة فيه، وحينذاك لا يصلح أن يكون أهلاً لإكمال الحوار معه، ولا للحوار أصلاً.

كما أنّ عدم وجود قواسم مشتركة بين المتحاورين يعدّ من عوائق الحوار، حيث تجد كل منهما يتحدث في موضوع لا يفهمه الآخر، أو أنه يتحدث عن أمور لا يستطيع الطرف الآخر استيعابها، فعدم وجود قواسم مشتركة بين الطرفين يجعل المناقشة تستمر من دون أي فائدة.

ومن معوقات الحوار عدم الالتزام بالسلوك المهذب والراقي في الحوار، لذا يجب على كلا الطرفين أن يلتزما الأسلوب اللائق عند طرح الرأي أو الفكرة، والمحاور الذي لا يلتزم

1 عبد الكريم بكار، التربية بالحوار، مرجع سابق، ص 39.

2 علي طارق الحبيب، كيف نتحاور؟، الرياض، مؤسسة الجريسي للنشر والتوزيع، 1421هـ، ص 59.

حدود الأدب واللياقة يسهم في فشل الحوار وفساده لأنّ الطّرف الآخر قد يلجأ للأسلوب نفسه، فيقابل الإساءة بمثلها، ومن هنا يفقد الحوار هدفه ويفقد المتحاوران مصداقيتهما. كما أنّ الاعتداد بالرأي والتعصّب له يفسد الحوار، لأنّ الذي يتعصّب لرأيه يطيل الكلام بغير فائدة، فتراه يبتعد أحياناً عن الموضوع ويأبى الدخول في صلبه ويتهرّب من مواجهة الحقائق التي يوردها محاوره.

وقد يكون اختيار الزّمان والمكان المناسبين لكلا الطّرفين أو لأحدهما معوّفاً من معوّقات الحوار، إذا ما أسيء اختيارهما. فهناك عوامل تتعلّق بالمكان، كالبعد، والقرب، والترتيب والتهوية، وما إلى ذلك. وعوامل أخرى متعلّقة بالزّمان، كالتّحاور بعد يوم عمل شاق، وما إلى ذلك.

وإذا لم يدرك المحاور قبل البدء بالحوار أنّ الخلاف أمر طبيعيّ في البشر فسوف يُقبل على محاوره بنفس غير مطمئنة، وروح ثائرة، ينتج عن ذلك تباعد في وجهات النّظر، وإحياء روح الفرقة والاختلاف¹.

يتّضح مما سبق أنّ معوّقات الحوار كثيرة ومتعدّدة، منها معوّقات ناشئة عن عدم تطبيق أصول الحوار أو أحد عناصره، ومنها معوّقات ناشئة عن عدم تطبيق آدابه، لكن تعد هذه المعوّقات أمر عارض يمكن السيطرة عليها، إذا وجد الوعي التّام والرغبة الصّادقة من قبل المتحاورين للتغلب عليها وعدم التّأثر بها لكي يحقّق الحوار أهدافه المنشودة.

- دور البيئة المدرسيّة في تعزيز ثقافة الحوار لدى الطّلاب

تعد المدرسة من أهم المؤسسات التّربويّة ذات الأثر الأكبر في نشر ثقافة الحوار لدى الطّلاب وتعزيزه وتفعيله، لما تحظى به من سبل ووسائل عديدة يمكن من خلالها غرس مبادئ الحوار وقيمه وآدابه، بحيث تؤثر المدرسة بشكل بالغ في تكوين شخصيّة الطّلاب وميولهم لاسيما إذا تضافرت الجهود من المؤسسات التّربويّة الأخرى كالأسرة والتي تقوم بجزء كبير من هذه المهمّة، ووسائل الإعلام وغيرها.

1 هلال حسين فلمبان، دور الحوار التربوي في وقاية الشباب من الإرهاب الفكري، الرياض، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، 1432هـ/ 2011م، ط4، ص64.

ومن المؤكد أنّ ليس هناك من مهمة خطيرة وعظيمة مثل مهمة بناء الإنسان عقلياً وسلوكياً. وإذا كانت الأسرة أصغر وحدة اجتماعية تضطلع بجزء كبير في أداء هذه المهمة، فإنّ للمدرسة دوراً كبيراً في إعداد الأفراد وبنائهم وتربيتهم وتعليمهم. كما تسهم بشكل فاعل في نشر ثقافة الحوار وترسيخ آدابه في نفوس الطلاب، وتحقيق العديد من الأهداف التربوية المنشودة.

وهنا لا بد من سياسة تعليمية جديدة تقوم على عنصرين أساسيين هما:

العنصر الأول: التحويل الجذري للعملية التربوية من عملية تقوم على تلقين وتقوية الذاكرة إلى عملية تقوم على الحوار والنقاش.

العنصر الثاني: التسامح مع الاختلاف، والحرص على التعددية.

ولكي تقوم المؤسسات التربوية بدورها بنشر ثقافة الحوار، لا بد من توافر بعض المقومات لهذه المؤسسات من حيث:

أولاً: إعداد المعلم: يعد المعلم حجر الزاوية في العملية التعليمية، وهو يمثل أساس العملية التربوية، إذ أنه من العوامل التي تؤدي إلى تحقيق الأهداف التربوية والاجتماعية المنشودة.

والحديث عن ثقافة الحوار في المدارس يرتبط بشكل أساسي بقضية إعداد المعلم الواعي والمنقّف والمنفتح.

وبالتالي فإن المعلم ليس ناقلاً للعلم إلى طلابه فقط، وإنما يعتبر الأداة الأمثل لغرس القيم النبيلة والأخلاق وبناء شخصية الفرد تحقيقاً للأهداف التربوية والاجتماعية التي يسعى إليها المجتمع، وخصوصاً فيما يتعلق بثقافة الحوار التي أضحت ضرورة حياتية لبلوغ الأهداف المشتركة للإنسانية، وهذا لا يتم إلا من خلال إرساء قواعد تربوية وتعليمية تتولّى انجاز هذه المهمة.

ومن سمات المعلم النّاجح أن يكون قدوة حسنة لجميع طلابه، فالترّبية بالقُدوة ذات أثر كبير في إكساب القيم الخلقية للمتعلّمين، والمعلّم قدوة ونموذجاً حياً للمبادئ والقيم والمفاهيم والمهارات التي يسعى إلى تعليمها. لأن القدوة من أقوى أساليب التعلّم وأبغها أثراً¹.

1 أمل الخليلي، إدارة الصف، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، 1425هـ/2005م، ص78.

والمعلّمون يعدون صناعًا والمتعلّمين مواد خام قابلين للتشكّل والصناعة كما تريد الأمة، فبقدر مهارة هؤلاء الصّناع يستطيعون صناعة جيل واع مثقف يمتلك ثقافة الحوار، ولكن لا يكون المعلّم صانعًا ماهرًا إلا إذا اتصف ببعض الصفات من أهمها: أن يكون بادئ الأمر ملماً بالمادة التي يقدمها لطلابه من كافة جوانبها، وبتمكنًا من المعلومات والمهارات التي يُكسبها لطلابه، وقادرًا على فهمهم، فعندما يكون المعلّم قادرًا على التّعامل مع كل الفئات العمريّة للطلّاب، فإن ذلك سيسهل عليه عملية الحوار معهم.

ولا بد للمعلم أن يكون لديه استعداد جيد لهذه المهنة، وأن يمتلك روح التضحية من أجل بناء جيل الأمة على نحو يستطيعون تحقيق آمال الأمة، وتتوافر فيهم روح التّضحّيّة من أجل خدمة المجتمع ودفع عجلة التّقدّم فيها.

ثانيًا: إعداد المناهج الدراسية بطريقة تعتمد على الحوار، وتساعد عليه من خلال اختيار المادة التّعليميّة، وإدراج التدريبات التي تحفز الذهن وتنمي التّفكير، وبالتالي تقود إلى الحوار وتنميته عند الطّالب وعند المعلّم، لأن المنهج الجيّد يرتقي بأدوات المعلّم وتفكيره، ويتطلّب منه المزيد من التّفاعّل وبذل الجهد في الإعداد.

وإعادة النّظر في الأهداف التّربويّة أي تحقيق التّوافق المنطقي بين الأهداف التّربويّة، بحيث تبدأ متناسقة تبدأ بالفرد وتنتهي بالإنسانيّة أخذة بالحسبان المهارات العمليّة والأخلاق الفرديّة والقيم الاجتماعيّة والتطور المتسارع للحياة المعاصرة.

ثالثًا: التّعامل مع المنهج الحالي بذكاء، وتطويعه ليكون قابلاً للحوار، من خلال إثرائه بأوراق عمل ووسائل تعليميّة ومسابقات ثقافيّة، ولا ننسى اللّوح التّفاعليّ الذي يعد وسيلة نافعة ومشوّقة في الوقت الرّاهن، ويساعد المعلّم على استخدام الطّريقة الحواريّة من خلال المقاطع الصّوتيّة أو المشاهد المصوّرة التي يعرضها على الطّلاب والتي تتعلّق بموضوع الدّرس بشكل مباشر أو غير مباشر¹.

رابعًا: تهيئة الطّلاب للحوار من خلال تكليفهم بجمع معلومات تمكّنهم من الإحاطة بشكل كبير بمادة الحوار لأن الطّلاب يعانون نقص المعلومات، كأن يكلف المعلّم طلابه

1 منى إبراهيم اللبودي، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، القاهرة، وهبة للطباعة والنشر، 2003م، ص 89.

بجمع معلومات عن موضوع معين. أو تحويل القصص القصيرة من النمط السردى إلى قصة حوارية ذات مغزى مؤثراً ومقنعاً.

خامساً: ولا بد أن يكون هناك حوار بين مدير المدرسة وطلابه، فيحاورهم ويصغي إليهم بمحبة، ويعطيهم الوقت الكافي ليعبروا عن مشاعرهم، وما يجول في خاطرهم من مشكلات حول مادة تعليمية معينة أو علاقتهم بمعلميهم، ومقترحاتهم التي تعد بمثابة التغذية الراجعة لسير النظام التعليمي والسلوكي في المدرسة. والحوار بين مدير المدرسة والطلاب يحقق أهدافاً عديدة أبرزها: إقامة علاقات ودية بين الطلاب وبينه، ومد جسور التواصل والحوار، كما يمكن المدير من معرفة طرائق تفكير الطلاب واهتماماتهم، والتعرف على مشكلاتهم ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لهم، وتوفير بيئة تربوية وتعليمية مريحة للطلاب¹.

سادساً: تقديم تغذية راجعة للطلاب وذلك عن طريق ثناء المعلم على طلابه أثناء الحوار أو بعده، لأن ذلك من شأنه أن يعزز ثقة الطلاب بأنفسهم ويجعلهم يسعون إلى المشاركة دائماً، وينمي لديهم مهارات الحوار، ليكونوا محاورين ناجحين مستقبلاً. كما أن تركيز المعلم على الطلاب والمنسجمين خلال توجيه الأسئلة إليهم ومنحهم الوقت الكافي للإجابة وتعزيزه ان كانت صحيحة له بالغ الأثر في تنمية قدرة المتعلمين على الحوار، واكتساب مهارته والتأدب بأدابه.

سابعاً: تفعيل المسرح المدرسي لما له من لأثر فعال في الطلاب على الحوار من خلال عوامل الجذب والتشويق التي يمتلكها، خاصة إذا كان المشهد المسرحي معداً اعداداً جيداً بدءاً من النص المليء بالقيم والمعاني النبيلة مروراً بالطلاب الممثلين وانتهاءً بالمؤثرات المستخدمة.

ويؤدى المسرح المدرسي رسالته في نشر ثقافة الحوار بين الطالب من خلال:

- تدريب الطالب تدريباً جيداً ليكون ناجحاً ومؤثراً.
- اختيار الأفكار الجيدة والنصوص الحوارية بعناية وجعلها متنوعة.
- اختار الطلاب الموهوبين في هذا المجال، وإعطاء الفرصة لمن عنده رغبة حقيقية

1 محمد عبد اللطيف خليفة، ارتقاء القيم دراسة نفسية، الكويت، عالم المعرفة، 1412هـ/ 1994م، ص49.

في التمثيل، لأن وجود الدافع عالم مهم من عوامل النجاح في الأداء.

- اختيار نصوص من المنهج وتمثيلها من أجل ربط الطالب بالمنهاج.

ولكي ننجح في إعداد الطالب ليصبح محاورًا ناجحًا، لابد من إعداده ليكون مستمعًا ناجحًا، لأن الاستماع الإيجابي يعدّ مهارة، وأدبًا من آداب الحوار، وحسن الاستماع لا يعني أن يكون المستمع صامتًا لا ينبس ببنت شفة طوال فترة الحوار، ولكن حسن الاستماع يتطلّب من المستمع إبداء بعض الإيماءات والإشارات والابتسامات، ويطرح بعض الأسئلة القصيرة على المتحدث في الوقت المناسب، ومن غير مقاطعة المتحدث قبل ان ينهي فكرته.

الخاتمة

في ضوء ما تقدم عرضه، يتّضح لنا أهمية التّربية بالحوار، ونشر ثقافة الحوار المدرسيّ، لما له من قيمة كبيرة في حياة المجتمعات، في البيئة المدرسيّة على وجه الخصوص، علماً أنّ التّأسيس لحوار فعال في المؤسسة التّعليميّة أمر ليس صعبًا كما يعتقد البعض، ولكنّه يحتاج إلى تضافر جهود وإخلاص عناصر الحوار المدرسيّ جميعهم. لأنّ المعلّم ليس ناقلًا للعلم فقط، وأنّما يعدّ الأداة الأمثل لغرس القيم النبيلة في السلوك والأخلاق وبناء شخصية الفرد تحقيقًا للأهداف التّربويّة والاجتماعيّة التي يسعى إليها المجتمع.

فالتّربية بالحوار عمليّة مهمّة للفرد والمجتمع وتتّضح أهميته في المؤسسات التّعليميّة تحديداً، فهو يعدّ من الأساليب التّربويّة الرّاقية التي يجب أن يتربى عليها الناشئة سواء كان ذلك في تربية الأبناء داخل الأسرة أو تربية المتعلّمين داخل المؤسسات التّعليميّة، في سبيل تأهيل جيل يتبنى قيم الحوار والاختلاف في الأفكار والطروحات.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، المجلد الرابع، ط6، 2008م، ص264.
2. أحمد عبد الرحمن الصويان، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، الرياض، دار الوطن، 1413هـ، ط1، ص108.
3. أمل الخليلي، إدارة الصف، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، 1425هـ/ 2005م، ص78.
4. بدر بن محمد عيد الحسين، الحوار المدرسي، الرياض، مركز الملك عبد الله للحوار الوطني، 1432هـ/ 2011م، ص47.
5. حسين أحمد الزيات، المعجم الوسيط، بيروت، دت، ج1، ص212.
6. خليل فهد زايد، فن الحوار والافتناع، عمان، دار النفائس للنشر والتوزيع، 1427هـ/ 2007م، ص132.
7. ريم بنت خليفة بنت محمد الباني، ثقافة الحوار، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، 1430هـ، ص33.
8. سعيد زادة، الحوار قيمة حضارية، الأردن، دار النفائس، 1430هـ/ 2019م، ص123.
9. سيد محمد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام، القاهرة، دار نهضة مصر، 1999م، ص45.
10. السيد يس، الحوار الحضاري في عصر المعلومات، القاهرة، دار النهضة، 2001/ ط2، ص38.
11. عبد الرحمن بكار، مدخل إلى التربية في الإسلام، بيروت، المكتب الإسلامي، دت، ص7. وانظر الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمادة، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، ط1، 1407هـ/ 1987م.
12. عبد الرحمن عميرة، منهج القرآن في تربية الأجيال، جدة، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، 1981، ط1، ص15.
13. عبد القادر الشихلي، ثقافة الحوار في الإسلام، الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، 2003م، ص139.
14. عبد الكريم بكار، التربية بالحوار، الرياض، مركز الملك عبد الله للحوار الوطني، 1429هـ/ 2011م، ص26.
15. علي طارق الحبيب، كيف نتحاور؟، الرياض، مؤسسة الجريسي للنشر والتوزيع، 1421هـ، ص59.
16. عوض صابر جيدوري، دواعي تعزيز ثقافة الحوار لدى طلاب جامعة طيبة وطالباتها من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس، الكويت، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 158، ص17.

17. فهد بن ناصر العبودي، الحوار منهج وسلوك، الرياض، دار أطلس الخضراء، 2005م، ص12.
18. فيصل محمد الدنيس، الحوار الاجتماعي من منظور نفسي، الرياض، مطبعة النرجس، 2005م، ص6.
19. ماهر أحمد البقري، القيم الخلفية في الإسلام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1420هـ، ص76.
20. محمد ديماس، فنون الحوار والافتناع، بيروت، دار ابن حزم، 1999م، ص86.
21. محمد عبد اللطيف خليفة، ارتقاء القيم دراسة نفسية، الكويت، عالم المعرفة، 1412هـ/ 1994م، ص49.
22. محمد يحيى زمزمي، الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، عمان، دار المعالي، ط2، 1422هـ، ص33.
23. منى إبراهيم اللبودي، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، القاهرة، وهبة للطباعة والنشر، 2003م، ص89.
24. هلال حسين فلمبان، دور الحوار التربوي في وقاية الشباب من الإرهاب الفكري، الرياض، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، 1432هـ/ 2011م، ط4، ص64.

حضور الرّمز وأثره في شعر فدوى طوقان قصيدة « لن أبكي » أنموذجًا

Presence of the Symbol and it's Effects on Fadwa Tuqan's poetry

«I will not cry» as a model

زهر عبد الرحمن عميري

Zehar abdulrahman Amiry

تاريخ القبول 2024 /6/25

تاريخ الاستلام 2024 /6/12

الملخص

يتتبع هذا البحث ظاهرة الرّمزية وتطورها وتحديد أصولها النظرية، بالإضافة إلى المفاهيم الجديدة التي طرحتها، مثل الإيحاء وغموض الشعر ووسائل تحقيق التجديد في الشعر. كما يتناول تجليات الرّمزية ومفاهيمها في الشعر العربي الحديث وتأثره بها من خلال تسليط الضوء على بعض الرموز الواردة في قصيدة الشاعرة الفلسطينية «فدوى طوقان»، بهدف تبيان قدرتها على إثارة مشاعر المتلقي، وكيفية استخدامها للصورة المعقدة للإيحاء بمضمراتها. كما اشتمل البحث على خاتمة أوضحت فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها، فضلاً عن قائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الرّمزية، الشعر العربي الحديث، فدوى طوقان، تجليات، غموض الشعر

Abstract

This research attempts to trace symbolism phenomena and its development, and determine its theoretical origins, in addition to the new concepts it proposed, such as inspiration and ambiguity and the means of achieving innovation in poetry. It also attempts to study the manifestations of symbolism and its concepts in modern Arabic poetry and the extent to which it is influenced by it by highlighting some symbols in the poem

of the Palestinian poet Fadwa Tuqan, in order demonstrating their ability to stimulate the feelings of the recipient. And the way she used complex images to indicate hidden meanings . The research also included a conclusion in which explained the most important results we reached, in addition to a list of references and sources.

Key words: symbolism, modern Arabic poetry, Fadwa Tuqan, manifestations, ambiguity.

المقدمة

التعريف بموضوع البحث

مما لا شك فيه أن انفتاح الأدب العربي عامةً والشعر العربي خاصةً على الثقافة الأوروبية كان له أثر واضح في ظهور مذاهب أدبية جديدة، ولعل أبرزها المذهب الرمزي الذي كان من أكثر المذاهب شيوعاً وانتشاراً في العالم العربي، وكان له أثره البارز على نتاج كثير من شعراء العصر الحديث. وتعدُّ قصيدة «الكوليرا» للشاعرة العراقية «نازك الملائكة» بداية انطلاق الشعر الحديث، كما شكّلت أيضاً تمرّداً على القيود التي كانت تفرضها البحور الشعرية في نظام الشطرين والابتعاد عن التكالّف والتعقيد، مواكبةً لروح العصر ومتطلّباته، محاكيةً معطيات الواقع بطريقة سلسة ومرنة. فالرّمز ظاهرةٌ جديدةٌ في التجربة الشعرية الحديثة، إذ لجأ إليه العديد من شعراء القرن الماضي واستخدموه في أشعارهم بغيره، وإغنائها وتحميلها إشارات ودلالات لنقل تجربتهم الإنسانية بمختلف جوانبها. ولقد ابتعد أصحاب هذا المذهب من المباشر في التعبير إلى استخدام الرّموز وما يُعرف بتراسل الحواس «فتعطي المسموعات ألواناً وتصير المسموعات أنغاماً وتصبح المرثيات عاطرة لتوليد إحساسات تُعني بها اللغة الشعرية ولا تستطيع اللغة الوصفية التعبير عنها» (غنيمي، 1892، ص412) وصاحب هذه الفكرة شارل بودلير في قصيدته «تراسل»، والهدف من هذه الوسيلة الفنية هو التوحيد بين الحواس حتى يستطيع الشاعر أن يتخطّى العالم الخارجي في ولوجه للعالم الداخلي الذي هو هدفه المنشود.

ولقد أصبح توظيف الرّمز سمةً مشتركةً بين غالبية شعراء القصيدة الحديثة، لما يُسهم ذلك من تعميق في المعنى والارتقاء بشعرية القصيدة للتأثير في نفس المتلقي. فعرف الشعراء من مناهل الرّمز صوراً فنية وإشارات ذات دلالات مختلفة لإضفاء جمالية خاصة وروح تجديدية على أعمالهم. ومن رواد هذه الحركة في عالمنا العربي نذكر كلاً من نازك الملائكة والسيّاب وخليل حاوي ومحمود درويش وفدوى طوقان وغيرهم الكثير، وتبقى لكل شاعر طريقته في استعمال الرّمز والدلالة التي يرغب في تحميله إياها. وهذا ما سنعالجه لاحقاً في حديثنا عن الرّمز عند الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان.

الإشكالية

يُعدّ الرّمز في الشعر الحديث من التقنيات التي يكثر استخدامها في القصائد الشعرية، وظهر ذلك عند فدوى طوقان بكثرة في قصائدها لا سيما تلك التي نظمتها بعد حرب 1967 كونه وسيلة اعتمدها الشاعرة للإيحاء والتلميح بدل المباشرة والتصریح، فمن خلاله تنتقل بالقارئ من المستوى المباشر للقصيدة إلى المعاني والدلالات الضمنية التي تكمن وراء الكلمات، والرّمز يُعبّر عن مكونات النفس ويفصح عما تعجز اللغة العادية التقريرية عن تبيانها، كما يحمل الرّمز قوةً كامنةً تخترق مشاعر المتلقي وتتغلغل فيه لتلامس وجدانه، إضافةً إلى الجمالية الشعرية التي تستقطب ذهن المتلقي وتحتّه للغوص في أعماقه واستنباط الدلالات التي يحملها، وهذا ما سنتناوله في بحثنا الهادف إلى دراسة الرّمز ومرامية وغاياته عند الشاعرة فدوى طوقان في قصيدتها «لن أبكي» نموذجاً للدراسة منطلقين من عدة تساؤلات وهي:

- هل استطاعت الشاعرة ملامسة وجدان المتلقي وتحفيز مشاعره من خلال الرّموز التي استعانت بها لاكتناه ما تحمله من أفكار؟

- وإلى أي مدى أثر أدب الشاعرة المقاوم في العدو؟

- وهل كانت الرّموز ذات دلالات بسيمائيتها قادرة على استنهاض همّة أبناء وطنها وإيقاظ جذوة الوطنية لديهم؟

ولإجابة عن هذه التساؤلات لا بد لنا من الإضاءة على الرّموز الواردة فيه، ومحاولة استتطاق النص والبحث في دلالاته بُغية الوصول إلى كنهها.

المنهج

يعتمد هذا البحث على المنهج السيميائي، «فالسيميائية هي علم دراسة الإشارات / العلامات، وكلّ ما ينوب عن شيء، وكيفية صناعة المعنى، وتمثيل الواقع بالأصوات والحركات ولغة الجسد والمرئيات والإشارات، سواءً أكانت إرادية واعية كإشارات السير، أم لا إرادية كعوارض المرض، أم غير ذلك. وهي ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات، سواءً أكانت لغوية أم أيقونية أم حركية، التي تنشأ في حضان المجتمع (جرجور؛ لبس 2020، ص 80). وبناءً على ما تقدم، ارتأينا أنّ هذا المنهج سيساعدنا على الغوص في أعماق المعاني واختراق جُدر رموزها، للوصول إلى الدلالة. وقدم ريفاتير (Riffutierre) في كتابه سيميائية الشعر مفهومه للغة الشعر الذي افترض أن تكون بعيدة من المتداول لتخيّب ظنّ القارئ، وتثير دهشته، وتترك له مساحةً واسعةً للتوقع. وحدّد دراسة النصّ الأدبيّ باعتباره نتاجًا خطابيًا أساسه العلاقة الجامعة بين المرسل والملتقي، متأثرًا بنظرية جمالية التلقي، كما هو جليّ عند إيزر (Iser) وياوس (Jauss). إضافةً إلى دراسة خصائص اللغة الشعرية ومفرداتها وأسلوبيتها وموضوعاتها.

الرمزية وخصائصها في الشعر العربي الحديث

ظهرت الرمزية كردّ فعلٍ على الرومانسية والبرناسية ولم يُعرف مصطلح «الرمزية» إلا في العام 1885م، وذلك في مقالة للفرنسيّ جان موريس (John Morris). والرمزية اتجه ظهر في الشعر في فرنسا وازدهر في الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وهو يصوّر حياة الشاعر الداخليّة ويجعل مما يرونه في العالم رمزًا للحالات النفسية (المذهب الرمزيّ، alukah.net). ولقد برز تأثير هذا المذهب واضحًا في نتاج الشعر العربيّ الحديث.

وتمتاز الرمزية بالعديد من السمات التي تُمكن القارئ من فهم القصيدة ذات الطابع الرمزيّ، ومن أهم تلك السمات ما يلي:

- 1 - الوحدة العضوية للنصّ الأدبيّ: حيث تصبح القصيدة جزءًا كاملًا متكاملًا لا يتجزأ، ومن الصّعب قطع جزء من القصيدة عن بقية الأجزاء.
- 2- الاستلهاج من التراث: يعتمد المذهب الرمزيّ على توظيف الأساطير المختلفة

والتراث الأدبي والديني والتاريخي للتعبير عن أفكار معينة تتناسب مع الأسطورة أو القصة أو القصيدة.

3 - الغموض وتعدد المعاني: إنَّ أحد أهداف الرّمزيين في الشّعر الوصول إلى العمق، وهذا يجعل النّوع الأدبيّ مبهمًا وغامضًا، ويظهر الغموض من خلال التّناغم الموسيقيّ بين الألفاظ والتراكيب والدلالات التي تعطي النّص معاني مختلفة.

4 - اللّجوء إلى الحدس الشّعريّ. إنّ الشّعر عند الرّمزيين يؤدي إلى الانفعال المزدوج بالقلب والعقل الذي لا يعتمد على نظام الكلام أو وزنه، فالمعنى الأدبيّ قد لا يوجد في الكلمات بشكلٍ مباشر، إنّما يُترك للتصوّر الذهنيّ للقارئ الذي قد يعطيها أبعادًا كثيرة، لذا اعتمدت الرّمزيّة على إعطاء المتلقّي الحدس والتصوّر الخاص في تفسير الحدس الشّعريّ للنّص (الأصفر، 1999)

5 - الكثافة التّصويريّة وتراسل الحواس: الأدب الرّمزيّ غني بالتصوّر الفنيّة المعنويّة والحسيّة التي يرافقها الغموض الذي يمتاز بالغرابة والإيحاء. ويعتمد الرّمزيون في صورهم على معطيات الحواس من خلال تهديم الجدر بين الحواس لما تتبّه في النّفس من المفاجأة والدّهشة، كما فعل بودلير.

ويُعرّف أدونيس الرّمز بأنّه «هو ما يتيح لنا أن نتأمّل شيئًا آخر وراء النّص. فالرّمز هو، قبل كل شيء، معنى خفيّ وإيحاء. إنّ اللّغة التي تبدأ حين تنتهي القصيدة، أو القصيدة التي تكون في وعيك بعد قراءة القصيدة (أدونيس، 2005، ص 160). وذلك يعني أنّ الرّمز يُعين الشّاعر على استيعاب جميع الموضوعات، لإنتاج معانٍ لا تتفد.

ولقد عملت فدوى طوقان في قصيدتها التي بين أيدينا، إلى تأسيس علاقة توحّد واندماج بين شعورها والمتلقّي، من خلال الصّور الشّعريّة التي قدّمتها وألبستها مشاعرها الصّادقة والنّابعة عن تجربة عاشتها بنفسها. لذا استعانت بالرّمز لازدحام الأحاسيس في نفسها التي تعجز اللّغة المباشرة التّعبير عنها وبهذا اقترب الرّمز عندها من الحدس. فالصّورة الشّعريّة قادرة «بما تحمله من معانٍ مستمدة من الواقع أن تكون إحساسًا نابغًا من الذات» (الأغا، 1996، ص 124). فالرّمز عند فدوى طوقان له خصوصيّة مرتبطة بمعاناة الشّاعرة نفسها، كونه نابغًا عن تجربة ذاتية.

أولاً: نبذة عن الشاعرة فدوى طوقان

فدوى طوقان من أهم شاعرات فلسطين في القرن العشرين من مدينة نابلس وهي من عائلة فلسطينية معروفة. ولقبت شاعرة فلسطين حيث مثل شعرها أساساً قوياً للتجارب الأنثوية في الحب والثورة واحتجاج المرأة على المجتمع.

وُلدت فدوى طوقان في مدينة نابلس الفلسطينية عام 1917 وفيها تلقت تعليمها حتى المرحلة الابتدائية، حيث اعتبرت عائلتها مشاركة المرأة في الحياة العامة أمراً غير مقبول، فتركت مقاعد الدراسة واستمرت في تثقيف نفسها بنفسها. ثم درست على يد أخيها شاعر فلسطين الكبير إبراهيم طوقان، الذي نمى مواهبها ووجهها نحو كتابة الشعر، كما شجّعها على نشره في العديد من الصحف العربية، وأسماها «أم تمام». ثم أسماها محمود درويش لاحقاً «أم الشعر الفلسطيني» ومع أنها وقّعت قصائدها الأولى باسم «دنابير»، وهو اسم جارية، إلا أن أحب أسمائها المستعارة إلى قلبها كان «المطوّقة» لأنه يتضمّن إشارة مزدوجة، بل تورية فصيحة إلى حال الشاعرة بالتحديد، فالمطوّقة تعني انتسابها إلى عائلة طوقان المعروفة، وترمز في الوقت نفسه، إلى أحوالها في مجتمع تقليدي غير رحيم (بدر، 1996، ص 18).

توالت النكبات في حياة فدوى طوقان بعد ما توفي والدها ثم أخوها ومعلمها الشاعر إبراهيم طوقان، وأعقب ذلك احتلال فلسطين إبان نكبة 1948، وقد تركت تلك المآسي المتلاحقة أثرها الواضح في نفسية فدوى طوقان كما يتبين من شعرها في ديوانها الأول «وحدني مع الأيام». وفي الوقت نفسه فإن ذلك دفع فدوى طوقان إلى المشاركة السياسية خلال الخمسينيات من القرن الماضي. سافرت فدوى طوقان إلى لندن في بداية الستينيات من القرن الماضي، وأقامت هناك سنتين، وفتحت لها هذه الإقامة آفاقاً معرفية وإنسانية إذ جعلتها على تماسٍ مع منجزات الحضارة الأوروبية، وبعد حرب حزيران 1967 خرجت من فوقعتها لتشارك في الحياة العامة في نابلس، فبدأت بحضور المؤتمرات واللقاءات والتدوات التي كان يعقدها الشعراء الفلسطينيون البارزون من أمثال محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وإميل حبيبي وغيرهم.

خلال حياتها، كانت فدوى طوقان واحدة من أبرز شاعرات فلسطين وكانت تمثل رمزاً شعرياً نسوياً ووطنياً. وقد شغلت عدة مناصب جامعية، كان آخرها منصب أمينة السر

في مجلس أمناء جامعة النجاح الوطنيّة بنابلس، وفي مساء السّبت الثاني عشر من شهر كانون الأوّل العام 2003 ودّعت فدوى طوقان الدّنيا عن عمر يناهز السادسة والثّمانين عامًا قضتها مناضلة بكلماتها وأشعارها في سبيل حرية فلسطين.

تركت فدوى طوقان إرثًا أدبيًّا أثرى المكتبة العربيّة شعراً ونثراً، وتُرجمت بعض أشعارها إلى عدّة لغات أجنبيّة كالإنكليزيّة والإيطاليّة والفرنسيّة والروسيّة والتركيّة والفارسيّة والعبريّة. نالت شاعرة فلسطين عدداً كبيراً من الجوائز والأوسمة كجائزة رابطة الكتاب الاردنيين 1983، وجائزة ساليرنو للشّعر من إيطاليا، ووسام فلسطين وجائزة كافافيس الدولية للشعر عام 1996، وغير ذلك الكثير.

ثانياً: دراسة الرّمز في قصيدة « لن أبكي »

ألقت الشّاعرة قصيدتها في مدينة حيفا التي تنبض حياةً وعمراً، لكنها آثرت استحضار صور الخراب والدمار في مدينة يافا والتي كانت كقيلة بأن تثير الشّجن في نفسها ويجري دمع العين ويثُنُّ القلب لذكراها. فجاءت القصيدة تعبيراً عن أساها وحرزها العميق على ما جرى ببلدها فلسطين بعد النّكبة.

ولقد تضمّنت قصيدة «لن أبكي» للشّاعرة الفلسطينيّة فدوى طوقان عدداً من الأساليب البلاغيّة الموحية بدءاً من مطلع القصيدة حتى نهايتها، حيث جاءت هذه الأساليب متحدّة مع الجو العام للقصيدة. وسأكتفي بدراسة الرّمز دون سواه من أنماط الصّور الشعريّة، لضيق المساحة المحدّدة للبحث. فتقنيّة الرّمز كانت وما زالت أداة فنيّة في صياغة الصّور والمعاني المتجدّدة، ومن خلالها تتّم عمليّة الفهم والإفهام لدى المتلقي الذي بدوره يقوم بتحليلها وتأويلها للكشف عن الدلالات الضمنيّة التي تكمن وراء الكلمات.

ويمكننا القول إنّ الرّمز لم يكن موجوداً في القصائد التي نظمتها الشّاعرة قبل نكسة حزيران 1967، ونجده بشكلٍ ملحوظ في القصائد التي نظمتها بعد عام النكبة، وربما استعانت به الشّاعرة للتّنفيس والتّفريغ عمّا في نفسها من ألم، وتغير نوعها الكتابيّ، حتى أصبحت القصيدة هاجسها الأوّل والأخير وحملت عبئاً ثقيلاً من الهموم والأحزان جزاء الاحتلال، ولم يخفّف عنها سوى التّعبير، على حد قولها، في مقابلة بثّتها قناة العربيّة السّعودية، وفيها تقول: إنّ الكتابة كانت عملية تطهير، تطهر النفس والداخل من كلّ

الرواسب السيئة. وهكذا جاءت رموزها مُشعّة وموحية لأنها ناتجة عن انفعالات صادقة مبعثها أعماق نفس الشاعرة. ويُلاحظ في شعرها ذوبان ذاتها الوطنية بذوات المقاومين والنّوار كسمة صبغت أشعارها كافة.

تُعد قصيدتها «لن أبكي» أول قصيدة وطنية تلقىها أمام جمهورها الفلسطيني بعد نكبة حزيران، وكان لها عميق الأثر في نفوس جمهورها، حيث شكّلت القوة الدافعة والمحفزة للمقاومين من أبناء وطنها لمواجهة العدوان بصبر وصلابة. ولقد قسّمت فدوى طوقان قصيدتها «لن أبكي» إلى أربعة مقاطع:

على أبواب يافا يا أحبائي

وفي فوضى حطام الدور

بين الردم والشوك

وقفت وقلت للعينين:

قفا نيك

على أطلال من رحلوا وفاتها

تتادي من بناها الدار

وتتعى من بناها الدار

وأنّ القلب منسحقاً

وقال القلب: ما فعلت؟

بك الأيام يا دار؟

ضمّنت الشاعرة هذا المقطع العديد من الرموز المرتبطة بمدينة يافا وعكست من خلال هذه الأبيات صور الدمار والخراب الذي ألمّ بيافا؛ كالفوضى والحطام والرّدم والشوك، وكلها ألفاظ تدلّ على هول المشهد وهمجية العدو فبدل كلمة البيوت أو المنازل استعملت الشاعرة كلمة «الدور» وهي البيوت الصغيرة التي لم تتجّ من آلة العدو المدمّرة، وكلمة فوضى رمزت لفقدان الترابط بين أجزاء المدينة وتراكم معالمها بشكل عشوائي حتى

طُمست تلك المعالم، واستعملت كلمة حُطام لأنها أقدر على التّعبير من كلمة الهدم، فهي أشد وقعاً في النفوس منها، حتى أنّ هذا الحطام طال النّبات والشجر والزّهر ليحلّ محلّه الشوك وبقايا الرّدم. ولقد أسهمت هذه الصّور المغلفة برموز ذات دلالات إيحائية حزينة في انصهار ذات المتلقي مع الشّاعرة واستطاعت ببراعتها الفنيّة أن تخترق وجدانه وتبعث الأسى والحزن في نفسه.

ثم تطالعنا كلمة الأطلال وهي بقايا التّراث البشريّ التي تبقى ظاهرة بسبب هجر الناس أماكن سكنهم، فالوقوف على الأطلال عادة شعراء الجاهلية الذين استعملوها في مطلع قصائدهم، لكن أطلال يافا تختلف عن أطلال شعراء الجاهلين التي لا أمل في عودة الحياة إليها مجدداً، بينما أطلال «يافا» وإن لم يبق منها سوى الحطام، ففيها خميرة دم الشّهداء التي ستنبُت جيلاً ثائراً في وجه العدو يعيد بناء ما فات.

ويظهر البُعد الطلليّ صادقاً لمناسبته الحادثة التي تتكلّم عنها، ذلك أنّ الحسّ النسويّ العميق أكثر تدفقاً للعاطفة منه عند الرجال. فالشّاعرة استوقفت عينيها للبكاء بدل الأصحاب، فالعينان رمّزا لأبناء وطنها المكوم، ليشاركوها الألم والحزن على ما حلّ بيافا.

وأنّ القلب منسحقاً

وقال القلب ما فعلتُ

بكِ الأيام يا دارُ

والأنين صوتٌ يصدر نتيجة التّوجع أو التّأوه ألمًا وهو شيء محسوس يمكن سماعه والانسحاق فعلٌ ماديّ، فكلاهما متعلّق بالمحسوسات، إلا أنّهما خرّجا عن دلالتهما الرئيسيّتين ليرمزا إلى القهر والحزن العميق الذي يملأ قلب الشّاعرة ووجدانها. وسؤال القلب الحزين عن الدّار التي هي مدينة يافا برمتها والأيام ليست تلك التي نعرفها بل هي أيام الحرب المدمرة «حرب الستّة أيام». وتُتهي الشّاعرة بشيء من التفاؤل والأمل بالغد القادم مستخدمةً لفظة «مشاريع الغد الآتي» والمشاريع يُخطط لها، وهذا ما أرادته الشّاعرة لتحقيق حلم الغدِ المشرق ليافا وبلدها. وتكمل تصوير المشهد برمزية لوصف ما عانته في يافا فتقول (شبلي، ص459):

وكان ما هناك جمعُ اليوم الأشباحُ

غريب الوجه واليد واللسان وكان

يحوم في حواشيها

يُمد أصوله فيها

وكان الأمر الناهي

وكان .. وكان

وغصَّ القلب بالأحزانُ

وكلمة اليوم رمز للخراب والشؤم، والأشباح دليلٌ على الفراغ وخلو المكان من أهله، ولقد استعانت بهما الشاعرة لتصوير خلو المدينة من أهلها وأصحابها. فاليوم والأشباح رمزًا للعدو الغريب التي يستبد بها أمرًا ونهيًا وطائراته تجوب أطرافها كيفما شاء، ويمدُّ أصوله ترمز محاولة التجذّر بالأرض المسلوّبة، فهو يزرع جذوره في أنحاء المدينة ليطمس هويتها الحقيقية. وتعجز كلماته أمام هول هذا المنظر لتقول: وكان... وكان وفي المقطع الثاني من القصيدة تخلع الشاعرة عباءة الحزن والألم وتمسح الدمع وتخاطب أحبّتها الفدائيين لتعلن انضمامها إلى صفوفهم وتمدّ يدها إلى يدهم وتستمد منهم القوة والإيمان لتسمو معهم نحو الشّمس، رافعة جبهتها بإيمان لا يتزعزع بما ستؤول إليه الأوضاع في قادم الأيام. فهي لم تُعدّ جزعةً على وطنها المسكون في وجدانها بل خجلت من دمعها المذروف على أطلال يافا.

فوا خجلي لو اني جنّت ألقاكم

وجفني راعش مبلول

وقلبي يائس مخذول

وها أنا يا أحبائي هنا معكم

لأقبس منكمُ جمرةً

لأخذ يا مصابيح الدجى من

زيتكم قطرة؛

لمصباحي

وها أنا يا أحبائي

إلى يدكم أمدُّ يديَّ

وعند رؤوسكم أُلقي هنا رأسي

وأرفع جبھتي معكم إلى الشمس

فالرّعدة دليل عدم الاستقرار والخوف، واستخدمتها الشّاعرة لتصوير اليأس والخذلان اللذين كانا يسيطران عليها قبل اشتعال الثّورة. والجمرة لها دلالة الحرق واللون الأحمر الذي يمثّل دماء الثّوار حيث استخدمتها لترمز إلى اشتعال الثّورة التي ستكلف الكثير من الدماء لاسترجاع الحق المسلوب وإعادة ما كان. واعتبرت الثّوار الذين يبذلون الروح لإضاءة درب لأبناء وطنهم كالمصابيح توهجًا وإشراقًا، لذا سعت الشّاعرة إلى الاستعانة بزيتهم الطّاهر لتشعل جذوة الثّورة في نفسها، فهي كانت توقن بأنّ الطريق إلى الحرية معبدًا باللحم والدم، وهما السبيل الوحيد للخروج من الهزيمة إثر عدوان 1967.

وتؤكد الشّاعرة معاني الثبوت والتمسك بالأرض، فتنزع رموزها من جمال الطّبيعة في فلسطين كغيرها من شعراء فلسطين الذين استوحوا من طبيعة بلدهم رموزًا شعريّة حيث تقول:

وها أنتم كصخر جبالنا قوة

كزهر بلادنا الحلوة

والصّخر رمز للصّمود في الأرض والصّلابة والقوة كما الجبال رمز للرّفعة والإباء. فالتّأثرون يمثّلون الثبات في وطنهم فهم مغروسون في الأرض كما الصخور العنيدة التي لا تنزاح، والتي توحى بالقوة والعنفوان ثم تنتقل لتستعير من الطّبيعة الفلسطينية الحلوة رمز الزهر الذي يمثّل أعمار أولئك المقاومين الأبطال، فنقسم يمينًا صادقًا نابغًا من أعماق الروح بعدم البكاء بعد هذا اليوم حين تقول: يمينًا، بعد اليوم لن أبكي! والنفي بلن يمثّل وثبة الجرح المقاتل عند الشّاعرة.

أحبائي حصان الشعب جاوزَ
 كبوة الأمسِ
 وهبَّ الشعبَ منتفضاً وراء النهرِ
 أصيخوا، ها حصان الشعبِ
 يصهلُ واثقُ النّهمه
 ويفلت من حصار النّحس والعتمة
 ويعدو نحو مرفئه على الشمسِ
 وتلك مواكب الفرسان ملتمة
 تباركه وتفديه
 ومن ذوب العميق ومن
 دم المرجان تسقيه
 ومن أشلائها علفاً
 ...

حتى نطرد الأشباح والغربان والظلمة.

ولقد استعانت الشاعرة في المقطع الثالث من القصيدة بالأسطورة واتخذت منها مطية لاستنهاض همم الثوار في دفاعهم عن وطنهم المسلوب وحثهم على الاستمرار، فاستحضرت صورة حصان طروادة وفرسانه من إلياذة هوميروس لتمجيد صنائع المقاومين. فحصان الشعب هو الثورة التي انبثقت بعد هزيمة حزيران بشراهة ونهم لتكسر حصار النّحس والعتمة. فالنّحس يوحى بالشقاء والشدة والعتمة اشتداد الظلمة الموشح بالسواد الذي يرمز إلى الحزن والحداد على أرواح من رحلوا. إلا أنّ النّحس والعتمة عند الشاعرة يرمزان إلى الاحتلال الغاصب الذي دمّر وهجر أبناء وطنها. ودم الثوار يروي أرض الوطن من «ذوب العميق ودم المرجان»؛ والعقيق الأحمر حجر كريم غال الثمن، استعملته الشاعرة دون غيره من الحجارة الكريمة مع المرجان كرمز لغلاء دم الشهداء

الذي يذود عن الوطن ويفديه بأعلى ما عنده، ولم يكتفوا بالدماء بل جعلوا من أجسادهم ذخيرة للثورة التي يلتئم الشعب خلفها كجيشٍ واحد في أرض المعركة المتمثلة بالوطن على امتداده، لطرد جماعة الأثبّاح أي الغرباء والغربان والظلمة والتي تجمع بينهما سمة السّواد إلّا أن الشّاعرة رمزت بالسّواد للغزاة الصهاينة.

أحبائي مصابيح الدجى، يا أخوتي

في الجرح

...

ويا سرّ الخميرة يا بذار القمح

ويعطينا

ويعطينا

على طرقاتكم أمضي

وأزرع مثلكم قدمي في وطني

وفي أرضي

أزرع مثلكم عيني

في درب السنى والشمس.

وتستكمل فدوى طوقان في المقطع الأخير من القصيدة مخاطبة المقاومين لكن هذه المرة بنبرة تفاؤلية أكثر مما سبق، معتبرة إياهم سرّ خميرة الأرض الولّادة التي ما انفكت تمنح الحياة للأجيال الذين يبذرون أرواحهم في باطنها كي يولدوا من جديد، جيلاً تلو الجيل على خطى من سبقوهم، وتتضم إليهم فدوى طوقان لتزرع قدميها في الوطن على أمل الوصول إلى الحرية والسلام.

ويمكننا القول أنّ شعر فدوى طوقان المقاوم، استطاع أن يبيث الحماس في نفوس أبناء شعبها بقوة، وأن تزرع قوة جيوش الاحتلال، مما دفع السلطات لمنع نشر قصّدها آنذاك، وما اضطر رئيس أركان جيش العدو «موشيه ديان» لاستدعائها إلى دارته،

حيث عبّر عن غضبه واستنكاره لقصائدها التي كما قال عنها «أنّ كل قصيدة من قصائدها تخلق عشر مقاومين». وبذلك تكون قصيدتها «لن أبكي» قد شكّلت نقطة تحوّل لا في مسيرتها الأدبيّة فحسب، بل أيضاً في مسيرة النضال الفلسطيني.

الخاتمة

هكذا نرى أن الشاعرة فدوى طوقان التي شهدت نكبة 1967 وعايشت ويلات وشهدت انطلاق الثورة الفلسطينية، وقد أستطاعت بشعرها أن تنقل المتلقي من أجواء الهزيمة والدمار الذي خلفته الحرب، إلى نهضة المقاومة وامتطاء حصان الشعب ليتحول الوضع العربي والفلسطيني - على وجه الخصوص - إلى قاعدة ثوريّة نتجت من جراح عميقة. واستطاعت بقولها لن أبكي أن تقنعنا بنفي الهزيمة والخلّاص منها وعدم الوصول إلى عدميّة الثورة بل إلى انتصارها الحتمي التي سينجزه المقاوم، ولذا رأينا أن قصيدتها تنتقل من مراحل الحزن والبكاء والهزيمة في قسمها الأول إلى مرحلة التفاؤل والحث على الثورة التي هي حتميّة الوجود الفلسطيني، وهذا هو دور الشعر عبر كل العصور، أن يبشر بالآتي وليس بالنوح على أطلال الماضي. فالشعر رسالة يجب أن تأخذنا باستمرار إلى الأمام.

وقد ظهر لنا في هذا البحث لجوء الشاعرة إلى الرّمز لتعبّر عن جيشان نفسها الممتلئة بالأحاسيس، فجاء الرّمز في قصيدتها هذه شفافاً وغير مغلق كما نجد في كثير من شعر اليوم. إنّ شفافية الرّمز في قصيدة فدوى طوقان نابعة من أنها تريد مخاطبة شعبها وتحريضه على المقاومة ولذا جاء رمزها غائصاً في شعبها، ومقاومتها، وليس في نخبة محدودة العدد. وهكذا جعلت الرّمزيّة في شعرها وسيلة للحض والإثارة والمقاومة وليس للنوم على أطلال الماضي المزدهم بالهزائم، فضلاً عن الجماليّة التي أضفاها على قصائدها والتي لم تكن غاية في حد ذاتها، ونجحت في ذلك بشهادة من العدو نفسه.

المصادر والمراجع

1. الآغا، يحيى زكريا (1996). جماليات القصيدة في الشعر الفلسطيني المعاصر (ط1). الدوحة: دار الثقافة.
2. أدونيس (2005). زمن الشعر. بيروت: دار الساقي.
3. الأصفر، عبد الرزاق (1999). المذاهب الأدبية لدى الغرب. طبعة إلكترونية، منشورات إتحاد الكتاب العرب.
4. بدر، ليانه (1996). فدوى طوقان ظلال الكلمات المحكية (ط1). القاهرة: دار الفنى العربي.
5. تودوروف، تزييفان (2017). الرّمزية والتأويل (ط1)، تر. إسماعيل الكفري. دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع [نشر العمل الأصلي عام 1978].
6. جرجور، مهى؛ لبس، جوزف (2020). دليل مناهج البحث العلمي (طبعة إلكترونية). بيروت: كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجامعة اللبنانية.
7. الجبوسي، سلمى (1997). موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
8. شبلي، عمر (2005). الأعمال الشعرية الكاملة / فدوى طوقان. جمعها وقدم لها عمر شبلي. بيروت: دار العودة.
9. غنيمي، هلال (1892). النقد الأدبي الحديث، (ط1). بيروت: دار العودة.
10. المذهب الرّمزي، https://www.alukah.net/language_literature/ تم استرجاعه بتاريخ 1/2/2024 الساعة الرابعة عصرًا.

تجليات الصّراع النفسيّ بين الانتحار والأمل في ديوان نهر الرّماد لخليل حاوي
(قراءة أسلوبية نفسية على مستويي الدلالة والمعجم)

**Psychological Conflict Between Suicide and Hope in the
Collection River of Ashes by Khalil Hawi**

(A Psychological Stylistic Reading of semantics and lexicon)

نورهان قاسم غدار¹

Nourhan Ghaddar

تاريخ القبول 2024 /9/15

تاريخ الاستلام 2024 /8/23

المستخلص

ذهب أغلب النقاد إلى أنّ خليل حاوي هو شاعر الانبعاث والإحياء، غير أنّهم لم يتطرّقوا لمسألة الصّراع النفسيّ العميق الذي تعرّض له هذا الشّاعر، والذي تبدّى واضحاً في ديوانه نهر الرّماد. فقد كانت الدّعوة للإحياء والثّورة على الواقع مصبوغة بصبغة الموت واليأس، وبرزت الأفكار المتناقضة في هذه المدوّنة من خلال تحليل مستوى الدّلالة، المعجم، والصّورة الشعريّة، لتوضّح دورها أزمة المنتج النفسيّ. اعتمد هذا البحث المقتضب المنهج الأسلوبّي وتحديدًا الاتجاه النفسيّ فيه، والذي يقوم على تحليل نفسيّة المنتج، ومن ثمّ تحليل آثار النّصّ في الجمهور المتلقي، من خلال ملاحظة سلوكه وردّة فعله بعد التّلقي.

الكلمات المفتاحيّة: الصّراع النفسيّ - نهر الرّماد - مستوى الدّلالة - مستوى المعجم

Abstract

Most critics believe that Khalil Hawi is the poet of revival. However, they did not address the deep psychological conflict that this poet was subjected

¹ -ماجستير في اللّغة العربيّة-الجامعة اللبنانيّة

to, which was clearly evident in his collection River of Ashes. As we read the texts, we realize that the call for revival and revolution against reality was tinged with death and despair. Contradictory ideas in this corpus were emerged through an analysis of semantics, lexicon, and poetic imagery, which clarifies the poet's psychological crisis. This brief research adopted the stylistic psychological approach, which is based on analyzing the psychology of the writer, and then analyzing the effects of the text on the audience, by observing their behavior and reaction after receiving.

Key words: Psychological insistence- River of ashes- Semantic level- Lexical level

المقدمة

كثرت تعريفات الشعر منذ القدم، وأجمع النقاد على أنه ظاهرة فنية وجمالية فريدة، يعبر الشاعر من خلالها عن مشاعره. وقد سيطرت الرومانسية والفردية على الشعر العربي ردحاً من الزمن، غير أن عبور الشعر من الرومانسية إلى الواقعية، منحه قوة اجتماعية وسياسية أصبح بلحاظها سلاحاً يقاتل به الشاعر. فالشعر الملتزم بقضية لسان الأمة، وسجلها التاريخي، والحافز الذي يدفعها إلى الثورة والتغيير. فالشاعر أو الأديب في هذه الحالة نبي، تخرج كلماته الشعوب والأمم من الظلمات إلى النور، وهذا الأصل في الشعر ووظيفته الرئيسية التي اضطلع بها في مرحلة ما قبل الرومانسية، فهذا الدور هو « الدور الذي كان يقوم به الشعر في الأطوار الأولى من الحضارة الإنسانية، حين كان الشاعر نبيّ القوم وكاهنهم وساحرهم، وقائدهم السياسي والاجتماعي » (عوض، 1979، ص97). فهذا المفهوم الذي يجب أن نعقله إذا أردنا الكلام على شعر خليل حاوي بكلّ وظائفه وأبعاده، إذ إنه لم يغرق في ذاتيته وهمومه بمعزل عن مجتمعه، بل «تحول -هذا- الشاعر الحديث إلى شاعر الرؤى الحضارية، وامتدت مسافة المعاناة والعذاب والتّموج الداخليّ والحنين ضمن التجربة الشعرية الذاتية الواحدة المتوحّدة » (مخائيل، 1968، ص38). وهذا يعني أن التجربة العامة انصهرت في تجربة الشاعر الذاتية الشعورية، واتحد بها حدّ الفناء والموت لأجلها.

رأى الكثير من النقاد أن حاوي هو شاعر البعث والإحياء في الموروث الشعري العربي الحديث، ذلك لأنّ «غاية الشعر عنده غاية حضارية، بمعنى أن القصيدة تلتزم

بمواجهة ما في الأعماق من تردٍ وانكفاء، لتحيلها إلى أعماق دافقة عاصفة، تعيد بعث حضارة إنسانها العربي من خلال اقتناعها برؤيا الانبعاث التي يحملها الشاعر» (علي، 1995، ص22). غير أنهم أغفلوا أزمة الصّراع النفسي الواضحة في شعره حتّى عندما كان متفائلاً، يدعو للثورة والانبعاث والتّغيير. فالتأمّل في ديوان نهر الرّماد يقف على تأرجح الشّاعر النفسي وتعرّضه للضّغط النفسي الذي يعرف بأنّه «ردّ فعل لا نوعي لجسم ما على تأثير بيئي» (ستورا، 1997، ص10). أي أزمة نفسية ناتجة عن صراع سببته البيئة أو المجتمع المحيط. وإذا عدنا إلى ما ذهب إليه معظم الدّراسين والنقاد، من انصهار حاوي في الأزمة الحضارية ومعاناته وألمه بسببها، نجد أنّ هذا الصّراع نتاج طبيعي لما يعيشه شاعر الأمة.

المنهج

إنّ الوقوف على الصّراع النفسي الدّاخلي للشاعر واستجابة الشعب أمرٌ تسعى إليه هذه الدّراسة المقنّضية من خلال المنهج الأسلوبّي النفسي الذي أسّسه عالم اللّغة والنفس ليو سبيتر (1887-1960)¹ وذلك بتطبيق المنهج الذي يسمح «باكتشاف الواقع النفسي للشاعر، ثمّ السّعي إلى إدراك روح الجماعة» (عزّام، 1989، ص102)، من خلال التحليل اللّغوي النفسي لبنى النّص «الفهم الصحيح للبنية هو الذي يقيم توحّداً بين الذات والموضوع، وبين المنتج والخاصية الأسلوبية» (صمود، 2018، صص114). فالشاعر هنا لا يعكس تجربة ذاتية خاصّة، بل يتمثّل تجربة أمة بأكملها من خلال اللّغة. وهنا تكمن الجدّة، إذ إنّ غير ناقد ودارس تناول خليل حاوي ودواوينه، غير أنّهم لم يذكروا ما تعرّض له هذا الشّاعر من صراع نفسيّ خاص، ناتج عن الصّراع النفسيّ العام الذي يتعرّض له الشعب، وتأثير صدمة انتحار الشّاعر فيه. فهذه الدّراسة تهتمّ بما يعرف التفسير النفس جماعيّ فضلاً عن التفسير النفسيّ الفرديّ.

الإشكالية

كيف برز الصّراع النفسيّ عند خليل حاوي في ديوان نهر الرّماد؟ أو بعبارة أخرى كيف أخبرنا أنّه سينتحر قبل أن يفعلها؟ وإلى أي مدى استجاب وتفاعل الشعب مع قضية 1 ولد في فرنسا ودرس فيها. تأثّر بالفلسفة الجمالية، المثالية... وأكّد وجود علاقة بين الاختيار اللّغويّ والعالم النفسيّ للفرد، ومن هنا جاء بالاتجاه النفسيّ في النّقد الأسلوبّي. للمزيد ينظر بحث: في الفكر اللساني الحديث ليو سبيتر واسلوبيته التكوينية (عامر، 2011، صص5-1).

الشاعر وما هي ردة فعله؟

أولاً: الإحياءات النفسية للعبة النصية: نهر الرماد

يعدّ هذا العنوان رمزاً أو شيفرة لغوية قائمة بحدّ ذاتها، فالرمز من أهمّ تقنيات الشعر وتشكيل الصورة. فهو ما يتيح لنا «أن نتأمل شيئاً آخر وراء النصّ، فهو معنى خفيّ وإيحاء إنّهُ اللّغة التي تبدأ حين تنتهي لغة النصّ، أو القصيدة التي تتكوّن في وعيك بعد قراءة القصيدة... فهو اندفاع صوب الجوهر» (أدونيس، 1978، ص160)، فالرمز يعبر عمّا في أعماق الشاعر من مشاعر، هواجس، مخاوف... فهو يأتي من الأعماق، ويصل إلى الأعماق، أي إنّهُ يأخذ حيناً مهماً في إيصال الدلالة الفكرية والنفسية للمتلقّي في العملية التواصلية.

جاء في لسان العرب «النّهر من مجاري المياه والجمع أنهار ونهْرٌ ونهْرٌ ونهْرٌ، ونهر الماء إذا جرى في الأرض وجعل لنفسه نهراً...» (ابن منظور، 1988، مادة نَهْرَ). والنّهر «رمز الارتواء والنّمو في الطّبيعة، لأنّ مياهه صالحة للشرب، ودائماً تكون الحياة مزدهرة جنب النّهر، فهو بمنزلة الشّريان الذي يجري في جسد الطّبيعة ليعثّ فيها الرّوح والألق والحياة» (البريكي، 2019، ص103). ولكن هل حمل النّهر في هذا العنوان طاقة نفسية إيجابية تدلّل على الحياة والأمل؟

لغويّاً العنوان مبتدأ (نهر) ومضاف إليه (الرماد)، ولا نعلم ما بال هذا النّهر إذ لا يظهر الخبر واضحاً. فنهر الرماد يبقى عنواناً غامضاً للوهلة الأولى، فهل نهر الرماد يجري أم ينضب ويموت؟! إذا تعمقنا في كلمة نهر، نرى أنّه يجمع كمّية كبيرة من الماء ثمّ يصبّ في البحر، فالرحلة الطويلة التي يجتازها النّهر تنتهي بالموت عند البحر حيث يختفي النّهر وتمتج مياهه بمياه البحر، فنفقد حلاوتها وبرودتها، وقدرتها على منح الحياة. ويمكن قراءة النّهر على أنّه نهر دموع، غير أنّ الشاعر أضاف الرماد، فكيف للرماد الخفيف الذي يتطاير مع الهواء أن يشكّل نهراً؟

الرماد ينتج عن الاحتراق بالنّار ويمكن القول إنّهُ موت الجمر، أمّا أن يتشكّل نهر من الرماد فهو دليل على كثرة تكرّر عملية الاحتراق، أي تكرر الألم، المعاناة، والموت كلّ يوم، ومع الأيام والسّنين ومن كثرة الاحتراق تكوّن نهر من الرماد. إنّهُ نهر ثابت، جامدٌ

لا حياة فيه، ولا يمنح الحياة. فالمقصود هنا من النهر ليس الارتواء الحسي والروحي، بل الموت المحتّم في نهاية المسير. وكذلك فإنّ ما قصد من الرماد، ليس التوهّج والاشتعال، بل الموت والفناء، لأنّه قال نهر الرماد، لا نهر الجمر. من هنا يسيطر على العنوان مناخ نفسيّ قاتم، يوحي بالغموض، الألم، النّهاية، الموت...

يمكن أن تحمل كلمة مثل نهر، دلالات نفسية إيجابية بحدّ ذاتها، مثل: الحياة، النّمو، الكرم، العطاء، النّشاط... غير أنّ إضافة الرماد إلى النهر يجعل إمكانية تلقي الدلالة السلبية أكبر، فكلمة رماد لا تحمل حمولة نفسية إيجابية، نظرًا لأنّها حاصل الاحتراق. من هنا يمكن الاستدلال قبل قراءة الديوان على التناقض والصراع النفسيّ، لأنّه استخدم لفظ مثل النهر للدلالة على الموت، وأضافه إلى الرماد أيضًا. فهو من جهة يريد الحياة، ومن جهة أخرى يريد الموت، من هنا تبدو حيرته، ومأزقه النفسيّ المتمثّل بصراع داخليّ بين الحياة والموت واضحًا من خلال العنوان.

ثانيًا: المستوى الدلاليّ: الأبعاد النفسية للحقول الدلالية في توضيح أزمة الصراع

يقصد بالمستوى الدلاليّ دراسة الدلالة العامّة لديوان نهر الرماد من خلال رصد الحقول الدلالية التي سيطرت عليه، والتّركيز على موضوعاتها وعلاقاتها من أجل الوقوف على الصراع النفسيّ الداخليّ عند الشاعر. وقد بدأنا التّحليل بالمستوى الدلاليّ لأنّه الأهم في هذه الدراسة، وتأتي المستويات اللّغوية الأخرى لدعمه. ويتناول المستوى هذا عادةً «انتقال معاني الكلمات لتشتمل على معانٍ أبعد وأعمق أي الانزياح الدلالي والمجاز» (Hock and Joseph, 1996, p188).

الحقل الدلاليّ «هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع تحت لفظ عام يجمعها» (عمر، 1998، ص 79)، لذا فموضوعات الحقول تدلّ بالضرورة على المعاني والدلالات المسيطرة وذلك تبعًا لاتساعها وضيقها. وعند تحليل هذا الديوان نرصد الحقول الآتية:

أ- حقل رفض الواقع واليأس منه: ومن الكلمات والتعبير الدالة عليه: التلج الحزين - ماتت - متنا - خفافيش - براكين الجحيم - أحرق القرية - نحن عواميد ملح مسوخ من بلاهات السنين - الموت - سرب غريان - جنازة مرسومة على الجدار - جنازة خرساء لا

تتوح-ماتت عروق الأرض-طفلهم يولد خفاشاً عجوز-أكفان-الغريق-فراغ الأفق-
صنماً خلفه الكهان للريح-جلداً وحرقا-وحيد-الرماد-نادمنا الطواغيت الكبار-اعتصرنا
الخمير من جوع العذارى والتهمنا لحم أطفال صغار-عمرنا الميت-الوحش الرهيب-
نموت-سكوت-أسى الصمت-محنة الصلب-أعياد الطغاة-المدى المجهول-ماتت
بعيني منارات الطريق-عرشة الموت الأكيد...

- من ضمنه الحقل الخاص بألفاظ جهنم: سحبا حمراء حرى-أمطرت جمراً وكبريتاً-
وملحاً مسموم-وبراكين الجحيم-براكين-الغاز الجحيمي-السعير-سحب صفرا...

- من ضمنه حقل السوداوية والعنمة: ومن الكلمات والتعابير الدالة عليه: عتمات
الطريق-كهوف-ليالي الضيق والحرمان-ليالي بيروت-زوايا الليل-الكهف الخراب-
نعاني الليل-الرؤى السوداء-بركة سوداء يطفو في أساها-ليلة-آخر ليلة-ليل-الجروح
السود-في جوف الحوت-ليل السجن-سواد رطب-طين عتيق-تمتصني عتمة سجنى-
ليالي الميتين-مطرح الشمس رماد وسواد-الكهوف-مطرح رطب يميت الحس-عتمة
المجهول-كان صباحاً شاحباً أتعس من ليل حزين...

- من ضمنه الحقل الدال على الموت: ومن الكلمات والتعابير الدالة عليه: وصف
الدرايش: عراة-زهة-اجتازوا الحياة-ينمو طفيلي النبات-طحلب-غائب عن حسه لن
يستفيق-شاع في البيت مناخ القبر-رثت عظامي-عرشة الموت الأكيد...

يرتبط هذا الحقل (أ) نفسياً، بالرّفص، الاستكار، التّمرد، والإلحاح على التّغيير...
فالشّاعر لا يريد أن تعيش الأمة الواقع المفروض عليها أيّاً كان. ونلاحظ سيطرة
السّوداوية والتّشاؤم على أسلوبية النّصوص عند وصف الواقع. ونقصد بالسّوداوية سيطرة
الجو أو الفضاء الأسود والليل بشكل عام على القصائد، وحتّى عندما لا يحدّد الشّاعر
الزّمن، فهو يضيف على المشهد شحنات من السّوداوية مثل: مشهد البحار التّائه،
الدّرويش الذي دوخته حلقات الذّكر فهي تشير إلى الموت، وكذلك مشهد: الجلاذ والسّوط
المدمي- ليتني ما زلت في الشّارع اصطاد الذّباب أنا والأعمى والمغني والكلاب...
فالمشاهديات التي تدعو للنفاؤل والأمل نادرة بالقياس إلى مشهديات النّعاسة والبؤس.

من هنا نجد أنه من الضروريّ فهم ماهية اللون؛ فاللون اصطلاحاً هو «إحساس وليس له أي وجود خارج الجهاز العصبي للكائنات الحيّة» (أسماء، 2020، ص21). فإذا تجاوزنا التعريفات الفيزيائية، وجدنا اللون طاقة، أو شعوراً نشعر به إثر رؤيتنا لهذا اللون تحديداً. واللون الأسود في علم النفس، وفي اختبار ماكس لوشر (Max Lüscher)¹ يشير إلى العدم، التّعاسة، النهاية... ففي هذا الاختبار تعدّ الألوان طاقات شعوريّة تدرس من خلالها نفسيّة المريض، أو الشّاعر... حيث يستفيد الناقد «من اللون شعورياً ولا شعورياً، ليتمكّن من تحليل النّصّ ويكتشف ما في ضمير الشّاعر... فكما يؤثر اللون في نفس الإنسان، فإننا يمكن أن نحلّل وندرس شخصيّة كلّ إنسان من خلال نزوعه البارز إلى بعض الألوان الخاصّة» (التميمي، 2018، ص656).

الكلمات هي شيفرات لغويّة دالّة، نتجت عن الشّاعر قاصداً منها معنىً معيّنًا، على أنّ هذه الألفاظ المنتجة ليست معزولة عن البنية النفسيّة للشّاعر، لأنّ اللفظ يعبر عن فكرة في عقل الشّاعر، ولهذه الفكرة أعماقها النفسيّة. وقد أكّد سوسير «سيكولوجيّة الإشارة اللغويّة بجانبها فهو يقصر تولّد الدلالة داخل النطاق النفسيّ بين الدالّ والمدلول» (مبارك، 1987، ص43)، والبيدهيّ أنّه لا شعر ولا رواية بلا لغة. فكلمًا حاول حاوي توصيف هذا الواقع استخدم أحلك الألفاظ والتّعبير لتوضيح قباحتها. فالمسألة هنا ترتبط بالدرجة الأولى بمفهوم الرّفص النفسيّ المقترن بالإلحاح² على تغيير سريع. فالواضح أنّه لا يطبق الواقع ويريد تغييره بأي طريقة.

ب- حقل الأمل بالتّغيير أو الانبعاث: الشّمس-العنقاء-النّار-الرّماد-يتولّى خلقه طفلاً جديد-غسله بالزّيّت والكبريت من نتن الصّديد-يا معاد التّلج لن أخشاك-أنا في حبّكم أعاني الموت في حبّ الحياة-مرضعة الأمس الرّحيمة-ضحكات أطفال-سرير دافئ-حكايات بجانب النّار-أعياد-وليمة-في بقايا شعرنا يزهر وهج التّلج-لهب أخضر في العروق-من مستنقع الشّرق إلى الشّرق الجديد-أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيد-لي خمر وجمر للمعاد-وكفاني أنّ لي عيد الحصاد-يا إله الخصب-يا شمس الحصيد-أنت يا تموز-يا فصحاّ مجيد...

1 للمزيد ينظر اختبار ماكس لوشر، وهو اختبار يحلّل الشخصيّة، النفسيّة، الاضطرابات، الضّغوطات والأمراض من خلال الألوان.

2 في اختبار ماكس لوشر يشير الإلحاح المتزايد على تغيير واقع ما إلى بداية اضطراب نفسيّ، وهذا يتجاوز مرحلة الضّغوطات النفسيّة.

ج- حقل التشكيك بالأمل: من الكلمات والتعبير الدالة عليه: غير أنني ما حملت الحب للموتى- طفلهم يولد خفاشاً عجوز-متى يخجل مصباح الخفير (لا يريد الأمل) -ضوء الشمس يخزيه (كأنه خفاش أو مصاص دماء) -كان قبل اليوم يغري العفو ويغري الفرار - عبثاً نسكب شهوة وحب الحياة جمراً وخمراً-عبثاً كنا نصلي ونصلي (في الدعاء) دون جدوى دون إيمان بفرديوس قريب ... ولإبراز التناقض في بعض العبارات نعرض الجدول الآتي:

جدول رقم 1: توضيح الصراع النفسي والتناقض من خلال التناقض الدلالي

الحقل (ب): التناقض	الحقل (ج): التشكيك بالتناقض
طالما أغرى الصدى قلبي وجفني، طالما راوغني صوت المغني	ليس يغوبنا ابتهاج - صوت المغني لم يعد يخدع كفي وجفني - لم يعد يخدعني العفو اللعين
أنت يا تموز يا شمس الحصيد	مطرح الشمس رماد وسواد
حبنا أقوى من الموت	عبثاً كنا نهز الموت - غير أن الحب لم ينبت من اللحم القديد

1- العلاقة بين الحقول وتوضيح الصراع النفسي

يرتبط الحقل (أ) بالحقل (ب) بعلاقة تعارض وتناقض، غير أننا نلاحظ أن الحقل (أ) هو الحقل الغالب على مساحة النص المدروس. وجاء التداخل بين الحقلين في أغلب القصائد، ليوضح أن الشاعر لا يعيش استقراراً نفسياً. بل تتجاذبه أفكار متعارضة فمن جهة هو يرفض الواقع بالراح مرضي، ومن جهة أخرى يحلم بالوصول إلى الواقع لأمة متماسكة، إلى شرق جديد. ويرتبط الحقلان (أ) و (ج) بعلاقة تعارض، فهو يرى أن التمرّد على الواقع واجب من جهة، ومن جهة أخرى يشك في إمكانية هذه الأمة تحقيق الحلم المنشود والوصول إلى الشرق الجديد. وكذلك، يرتبط الحقلان (ب) و (ج) بعلاقة تعارض وتناقض. من هنا نرى أن التناقض هو الذي يحكم شبكة العلاقات الدلالية في هذا الديوان. وهذا يدل بالضرورة على الشئ الفكري المرتبط بالصراع النفسي، الذي يعرف بأنه «حالة انفعالية غير سارة تحدث لدى الفرد نتيجة وجود رغبتين أو فكرتين متناقضتين في وقت واحد، مما يؤدي للشعور بالحيرة، الارتباك، التردد، والضيق نتيجة

عدم القدرة الفرد على الوصول إلى حلّ» (الدسوقي، 1999، ص121). فالرغبة بالانتفاض والثورة هنا تتبلور ببعدها المرضي، فهي رغبة يعلم الشاعر أنه لا يمكن تحقيقها، أو على الأقلّ صعب تحقيقها في وقته. وما حصل فعلياً هو: أنه واجه هذه الرغبة المرضية الآتية من الهو، غير أنّ الظروف الاجتماعية، السياسية الخارجية توجّه ضغطاً مركزاً يمنع هذه الرغبة من التحقق، عندها اضطر الشاعر لكبت هذه الرغبة، والواضح أنّ عملية الكبت والأوليات الدفاعية الأخرى لم تنجح في كبح جماح هذه الرغبة، ما أوصله للانتحار. ويعرّف الكبت أنه «عملية نفسية لا واعية تطرد بواسطتها نزوات معينة وكلّ ما يرتبط بها من معارف وخبرات إلى اللاوعي وهذه العملية تبقى نشطة، ويستعان بباقي الأوليات الدفاعية في حال إخفاقها» (الموسى، 2016، ص162). أمّا الأوليات الدفاعية فهي «عمليات نفسية لا شعورية تهدف للحفاظ على التوازن في الجهاز النفسي وحمائته من الضغوط الداخلية والخارجية» (صلاح الدين، 2020، ص22). إذاً فمن الواضح أنّ الشاعر كان يحاول طرد كلّ ما يتعلّق بهذه التجربة إلى اللاوعي، والتعويض عن عدم إمكانية تحقيق الرغبة من خلال الأدب وتحديدًا الشعر. وهذا بدوره أولية دفاعية تعرف بالتسامي، أي إخراج الضغط النفسي بأشكال راقية مثل: الموسيقى، الشعر... ويعرّف التسامي بأنه «عملية تقوم على تحريف الطاقات العدوانية والجنسية إلى أهداف سامية لها قيمة اجتماعية، رياضية، أو فنية» (الموسى، 2016، ص163). وقد جاءت عدوانية الشاعر، ونقمتها هنا على الواقع، وتكفي العودة إلى الحقول الدلالية السابقة لمعرفة شدة رفض الشاعر له. عادةً يخفف التسامي من حدة الصراع النفسي، غير أنّ حالة الشاعر المرضية التي طالبت بالبحاح، جعلت التسامي يخفق في تخفيف حدة المشكلة بل وتزايدت مع الوقت لتنتهي بالانتحار.

ذهب فرويد إلى الربط المباشر بين الأدب واللغة ونظرية التحليل النفسي، إذ إنّ مظاهر الإبداع الأدبي واللغوي عنده تؤكد الطابع الكبتي للإبداع، حيث قال «الشعراء والروائيون حلفاء كرام من الواجب تقدير شهاداتهم حق قدرها... لأنهم يعرفون أشياء كثيرة لا تجرؤ حكمتنا المدرسية على أن تحلم بها» (فرويد، 1978، ص7). إذ يرى هذا الأخير أنّ الفرد يقوم بتفسير تجربته الفردية التي خاضها وأثرت فيه من خلال اللغة في قالب أدبي، ومن ثمّ يمكن كشف المشاكل النفسية الفردية من خلال التحليل اللغوي. وبما

أنّ حاوي جعل تجربة الجماعة هي تجربة الفرد المبدع، فقد قام بتشفير تجربة الشاعر العامّة الخاصّة، ومكّننا من كشف المشاكل النّفسيّة العامّة (حسب وصفه هو لطبيعة هذا الشّعْب)، والخاصّة. إذًا، فالحقول الدلاليّة تسهم في توضيح جدية المأزق النّفسيّ للشاعر من خلال موضوعاتها، وعلاقتها المتناقضة.

ثالثًا: المستوى المعجميّ بين وهم الأسطورة ومرارة الواقع

لا ينفصل المستوى المعجميّ عن المستوى الدلاليّ، لأنّه لا قيمة للكلمات بمعزل عن الدلالة. ويجب التّركيز في التّحليل هنا على القيمة المعجميّة للألفاظ وعلاقتها بإنشاء الدلالة، ونعني بهذه القيمة المعنى المعجميّ للألفاظ الذي يشكّل جزءًا ضئيلاً من الدلالة الكلية، بالإضافة لما تحمله من إنزياحات وخيالات تكتسب الأهمية الكبرى في عمليّة التّليل، وذلك من خلال ما يسمّى بالانتقال الدلاليّ. ويعرّف المعجم بأنّه «تلك المجموعة القارّة من التّرابطات المخزّنة التي تحصل بين الأشكال الصّرفيّة ومعانيها أو استعمالاتها أي قيمها الدلاليّة والتّركيبية، ويسمّى كلّ ترابط مدخلاً معجمياً» (جحفة، 2014، ص114-110). ولما كان المستوى المعجميّ متصلاً بالدلالة كانت نقطة لقائهما المعنى المعجميّ، فكّل كلمة هي خيار لغويّ قصد الشاعر منه معنًى محدّدًا. غير أنّ الدلالة لا تقف عند المعنى القاموسيّ، بل تتجاوزه لتشكل دلالات جديدة لامتناهية.¹ وفي تحليل هذا المستوى أكثر ما يفيدنا هو السّؤال لماذا استخدم الشاعر هذه الألفاظ بالتّحديد دون سواها من الكلمات الأخرى؟ ولماذا تكرّر لفظ معيّن في أغلب القصائد؟ وما الأبعاد النّفسيّة لتكرار هذه الألفاظ؟ وكيف تسهم في فهمنا لمشكلة الصّراع النّفسيّ عند الشاعر؟ ذلك لأنّ «أي رمز معجميّ مكرر بوتيرة معينة يمكن أن يغيّر في الدلالة الكبرى للمدونة، فالترميز المعجميّ يمكّن الباحث من كشف نسبة مساهمة كلّ لفظ في إنتاج المعنى» (Milroy, 1978, p133).

الدلالة هي «كون الشّيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشّيء الأوّل هو الدالّ والثّاني هو المدلول» (الجرجاني، 2009، ص174). إذًا فهي دراسة العلاقة بين كلمات الشاعر، تكرارها، والأزمة النّفسيّة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أنّنا لا نستطيع الكلام على مفردات خليل حاوي بمعزل عن كونها رموزًا سيميائية تشتمل على غير

1 للمزيد ينظر: نظريّة العلامة وسيرورتها عند شارلز سندرز بيرس.

معنى ودلالة، وذلك لما تحمله من تناص أسطوريّ وتاريخيّ. ولتوضيح ذلك نعرض جدولاً يضمّ أبرز الكلمات المكرّرة:

جدول رقم 2: تكرار بعض الألفاظ في الديوان

الكلمة	التكرار
الموت	51 مرّة
الرماد	15 مرّة
نار	18 مرّة
عتمة-ليل	28 مرّة
تموز-إله	16 مرّة

نلاحظ أنّ هذه الألفاظ مرتبطة مباشرة بالحقول المعجميّة السّابقة، والواضح أنّ حقل اليأس والرّفص (أ) قد سيطر على كامل مساحة النّصّ، لأنّ مفرداته هي الأكثر من حيث العدد والتكرار. ولن نطيل في شرح معاني هذه الألفاظ المعجميّة لأنّها واضحة، وما يهمّنا من الأمر أبعادها الأسطوريّة التّاريخيّة التّفسيّة. وقد برزت لفظة موت بوصفها الكلمة الموضوع التي ترتكز عليها النّصوص الشعريّة، فهي مكرّرة بشكل صريح في أغلب القصائد، وإن لم تذكر بوضوح ترد معانٍ تشير إليها (اجتازوا الحياة). ولئن كانت هذه الكلمة محمّلة بأبعادٍ أسطوريّة فهذا لا يعني أنّنا ندرس التناص هنا، لكنّ دلالة الموت لا تنفك عن أسطورة طائر الفينيق أو الطائر المحترق الذي يحترق ويموت، ثمّ يحال رماداً، ليعود إلى الحياة مجدّداً. حيث أشار الماجدي (2020) إلى أنّ «الفينيق يمثّل فكرة الانبعاث الدائم، حيث يحترق ومن رماده يبعث من جديد. ونجد جذراً لهذه الفكرة في دورة الشّمس حيث يظهر النّسر في الأساطير المصريّة وهو يحمل في كلّ فجر الشّمس بقدميه ويغرب أو يموت مع غروبها لينبعث مرّة أخرى صباح اليوم التّالي، وهو يبعث الشّمس معه» (ص531). ونلاحظ أنّ الألفاظ المرتبطة بهذه الأسطورة هي الأكثر تكراراً لأنّها الخيط الذي يجمع القصائد بعضها ببعض. إذاً فالحمولة الأسطوريّة المرتبطة بالموت، النّار، الرماد تبدو حمولة بآسة لا تجد غير الموت طريقاً لنجاة الأمّة، فحتّى لو كانت النّتيجة البعث، إلّا أنّ النّمن هو الموت والفاء. ثمّ إنّ الأسطورة تقول

باحترق الطائر وانبعثه كل فجر، فهل يحترق الشعب ويبعث كل يوم؟ أم يحرق مرة واحدة، ويبعث بعدها شعباً أقوى وإلى الأبد؟! وما بين جدلية طاقة الحمولة الأسطورية -أهي إيجابية أم سلبية- والآراء المتباينة حولها، نجد أنه لا بد من الوقوف على الحمولة النفسية لهذه الألفاظ.

إذا أولينا كلمة موت دقة في التحليل وعمقاً في الرؤيا، نجد أنها تقع لغوياً تحت ما عرف عند العلماء العرب بالأضداد. «ولا نعني بالأضداد ما يعنيه علماء اللغة المحدثون من وجود لفظين يختلفان نطقاً ويتضادان معنى؛ كالقصر مقابل الطويل والجميل مقابل القبيح، وإنما نعني بها مفهومها القديم وهو اللفظ الواحد المستعمل في معنيين متضادين» (عمر، 1998، ص191). فالموت عند حاوي يعني الفناء والحياة في الوقت نفسه، فالشعب لا يحيا إلا بالموت، ولا يموت إلا ليحيا من جديد، إذاً فالموت عنده يعني الحياة أيضاً. ولعل الخلفية الأسطورية لأسطورة الفينيق جعلت البعض يغفل عن مسألة الصراع النفسي المتجلية في هذا اللفظ بالتحديد. فماذا يعني أن يكون الموت هو الحياة؟ وهل القوة الإيديولوجية التي تستند إليها أسطورة الفينيق كافية لجعل الموت حياة؟

إذا بحثنا في التاريخ البشري نجد في فلسفة بعض الفرق الدينية أن الموت حياة، وهذا ما يقوم عليه مفهوم الشهادة عند المسلمين، حيث تعرّف الشهادة بأنها «الموت الذي يتّجه نحوه القتل تحقيقاً لهدف مقدّس، إنساني...» (مطهري، 2000، ص15)، غير أن الإرث الإيديولوجي الواقعي الضخم للمسلمين يمكن العودة إليه بوصفه عقيدة تفسّر كيفية تحوّل الموت الذي يقع تحت اسم الشهادة، والذي يبرز بوصفه تضحية في سبيل قضية ما إلى حياة. فهذا الموت ليس موتاً عشوائياً اعتبارياً، فهو ليس انتحاراً لمجرد الاستنكار، إنّه الموت الذي يحافظ على القضية التي يموت الفرد لأجلها. وقد أشار عالم الاجتماع دوركهايم إلى أن «العوامل الأساسية للانتحار تتصل بشك الفرد بمحيطه الاجتماعي والقيود التي تحكمه» (Monde, 1978, p:8). وهذا ما نراه بوضوح عند حاوي، إذ يرد عنده حقل الأمل بالانبعاث وبشرق جديد (ب)، ثم ما يلبث يشكك بهذا الأمل، وبقدرة الشعب على صناعة الغد الجديد (ج)، بسبب قيود سياسية وفكرية... إذاً فقد كرّر الشاعر كلمة موت كثيراً، جاعلاً منها الكلمة الموضوع للديوان بأكمله، ويبدو أن الموت عنده لا يستند إلا إلى أسطورة فينيقية قديمة، أمّا قضيتّه فهي بناء جيل جديد

ومحاربة الواقع المرير. وهذا لا يعني إنكارنا أهمية ربط القصائد بالمرجعيات والإحالات التراثية الخارجية، «فما يحفظ للصورة الشعرية رمزيتها، ويهب للعمل الشعري حياة عبر العصور... هو الارتباط بالتراث الثقافي الحضاري» (عوض، 1992، ص119). فالمسألة هنا ليست الاستخفاف بالتراث الأسطوري، بل الإيمان به حد الموت.

وبالعودة إلى مسألة التّضاد وتحليلها النفسي، نجد أن الشاعر يشعر بالحيرة والتناقض حيال قضية الشّرق الجديد. فهي ليست مسألة أن تستخدم لفظ مثل مولى بمعنى العبد، أو السيد، لأننا ندرس الأبعاد النفسية للكلمة. ويعدّ الصّراع النفسي «جزءاً من سنّة الحياة لأي إنسان قد يكون عرضةً لهذا الصّراع، لكنّ الفشل في مواجهته يؤدي إلى العديد من الاضطرابات والأمراض النفسية، فخطورة هذا الصّراع ليست في وجوده إنّما في استمراره وشدّته، الأمر الذي يؤدي إلى استنفاد طاقة الفرد النفسية» (الدّسوقي، 2007، ص165). وهذا ما نراه واضحاً عند الشّاعر، إذ يبدو أنّه لا يشعر بالأمل بالانبعاث ولا يثق بقدرة الأمة على تغيير واقعها أبداً. ويبدو الصّراع مستمراً ومتطوراً تصاعدياً على كامل مساحة النّص. والواقع أنّ تلقي هذا النّص (ديوان نهر الرّماد) قد يحمل مشاعر الخيبة، والقلق للقارئ فكيف بالمنتج؟ لقد استنقذ الشّاعر طاقته النفسية في وصف الواقع المرير، في محاولة لتوجيه النقد للمجتمع والأمة، ولحثهم على الثّورة والتّغيير، مع عدم إيمانه بوصولهم إلى الهدف. ولكن لماذا كلّ هذا التّأزم النفسي حيال قضية عامّة لا تمسّ ذات الشّاعر مباشرة؟ الواقع أنّ حاوي كما قدّمنا صهر تجربته بالتّجربة الجماعية، لتصبح هذه التّجربة هي التّجربة الدّاتية المحورية، وقد ذهب بعض علماء النفس إلى أنّ «الصّراع النفسي ينشأ عندما يواجه موقفاً يحول دون تحقيق إنسانيته، فيكون الصّراع بين إرادة الفرد على تحقيق إنسانيته، وبين القوى التي تمنعه من ذلك» (عبد الغفار، 1996، ص107). وهنا كانت بدايات الصّراع حيث نشأ صراع بين إرادة الشّاعر المحبّة للحياة، التي تتمنّى تغيير حال الأمة العربية وشعبه خاصّة، وبين الظروف القاهرة التي تمنع تحقيق هذا الهدف، فاشتدّت حدّة الصّراع النفسي الدّخلي الناتجة عن الصّراعات الخارجية. وفي مقابل الصّراع نجد مفهوم الصّلاية النفسية وهي «مجموعة من السمات الشخصية التي تعمل على مواجهة أحداث الحياة الصّعبة. وهي اعتقاد عام لدى الفرد في فاعليته وقدرته على استخدام الموارد البيئية والنفسية المتاحة حتّى يكون قادراً على مواجهة أحداث

الحياة الضاغطة بفاعلية وجدارة» (Kobasa, 1979, p169). وهذا ما لم يقدر شاعرنا عليه، لأنه أصلاً لم يؤمن بفاعليته وقدرته على مواجهة الأحداث الضاغطة.

أشرنا سابقاً إلى الدلالة النفسية للعتمة واللَّيل والأسود، التي تبدو روح القصائد غارقة فيها حدّ الموت والبؤس. على أننا لا نكرّر هنا ما ذكرناه سابقاً، بل ننطلق من أسطورة طائر الشَّمس نفسها. ألم تقلّ الأسطورة: أنّ الطائر يبعث كلّ صباح ويبعث معه الشَّمس؟! إذاً لماذا تسيطر العتمة، والسواد على الأجواء النفسية الداخليّة للديوان بأكمله؟ أليس من المفترض بشاعر يؤمن بالبعث أن تشرق الشَّمس، وتحلّق العنقاء بين أبياته وصوره؟ إنّ المفردات لتساعدنا في رسم صورة أوليّة لمشهدين متضادين: مشهد الموت والبؤس، مقابل مشهد البعث. غير أنّ الواقع المرير سيطر بحقوله الدلاليّة، ألفاظه، وأبعاده النفسية على أغلب مساحة النّصّ، ولم يترك مكاناً إلّا لأمل بائس لا يشرق إلّا بعد الموت.

أمّا تموز أو دموزي كما ورد في بعض المراجع بوصفه «الإله الرّاعي أو إله الخصب» (علي، 1999، ص18)، فهو الإله الذي يناديه الشّاعر لينقذ هذا الشّعب من محنته حيث قال: «أنت يا تموز يا شمس الحصيد» (حاوي، السنة، ص119). وقد تكرّر ذكره في قصيدة ما بعد الجليد غير مرّة بصيغة الدّعاء كأنّه يرجو من تموز تحقيق أمنيته بالوصول إلى شرقٍ جديد. وبالرّغم من كون تموز إله الخصب، وزواجه من عشتار أو إنا آلهة الحبّ والجنس، إلّا أنّ أسطورة تموز في حدّ ذاتها تحمل بعداً مأساوياً، إذ تعرف بمأساة تموز، فما حصل أنّ «إنا واصلت سفرها فوصلت إلى مدينة دموزي زوجها وحبيب صباها، فوجدته على خلاف ما تقتضيه سنن الموت والعزاء والحزن الجماعيّ، رآته متربّعاً على عرشه مرتدياً حلل الأعياد والأفراح ونايه يصدح بأعذب الأنغام. فاستشاطت غضباً، وصوّبت عليه نظرة الموت، وأسلمته إلى أيدي المردة القساة ليحملوه إلى العالم الأسفل بدلاً لها، فصدّم دموزي وامتقع لونه...» (الأميري، 2020، ص37-38). وهكذا فإنّ حكاية تموز بحدّ ذاتها حكاية تراجميّة مأساويّة حيث أنزلت عشتار تموز بدلاً منها إلى العالم السفليّ¹، وقد كان تموز البديل القرين لها. وما يهمنا من الأمر، انطواء رمز تموز على غير معنى ودلالة، فصحيح

1 للمزيد، ينظر: كتاب إنا ودموزي دراما الحبّ والموت، الدكتور ماجد الأميري.

أنّه إله الخصب، لكنّه إله تعرّض للمأساة أيضًا. من هنا يمكن أن يحمل تموز جدًّا ذاته حمولة نفسيّة متناقضة، يشتمل بعضها على عناصر إيجابية مرتبطة بالحبّ والخصب، في حين يشتمل بعضها الآخر على حمولة سلبية مرتبطة بالمأساة والموت، وقد وردت ثنائيّة الموت-الحبّ في الديوان بشكل واضح: «حبنا أقوى من الموت» (حاوي، 1993، ص123) وهذا يحيلنا على مبدئي التّضاد، والصّراع النفسيّ الذين تكلمنا عليهما سابقًا.

رابعًا: التّناص والصّورة الشعريّة في تأكيد جدنيّة الصّراع النفسيّ

1-الإحالات الدينيّة والتاريخيّة

بدايةً لا بدّ من فهم ماهيّة الصّورة الشعريّة من أجل تحليل أبعادها النفسيّة، وقياس مدى توافقها مع التّحليل المقدّم في المستويين السّابقين. ولن نبالغ في الخوض في مفهوم الصّورة الشعريّة، لأنّها مفهوم نقديّ تكلمّ عليه الشعراء العرب منذ القدم. فتحقّق الصّورة الشعريّة في المعيار الأسلوبيّ «يتمّ في إطار الانزياح التركيبيّ الذي ينشأ عن العلاقات بين الوحدات المعجميّة، والانزياح الدلاليّ الذي يقوم على الاستعارة بحسبانها استبدالاً» (بلغيث، 2009، ص27)، غير أنّ التّصوير لا يقتصر على الاستعارة، بل يشتمل على باقي فنون البيان البلاغيّ. وقد ذهب أرسطو إلى أنّ «السّيطة على الاستعارة هي أعظم من أي أمر آخر، وهي ما لا يمكن تعليمه للشاعر لإتّها سمة العبقرية» (عوض، 1990، ص40)، وللخيال دور كبير في تشكيل الصّورة وتوحيد الإحساس العام في الديوان، فهو «القوّة التي بواسطتها تستطيع صورة معيّنة أو إحساس واحد أن يهيمن على باقي الصّور أو الأحاسيس في القصائد، فيحقّق الوحدة بينها بطريقة أشبه بالصّهر» (عبدالله، 1998، ص46). وإنّ كفيّة وماهيّة الصّورة الشعريّة هي التي تكسب العمل الشعريّ بعده الفنيّ والنفسيّ، فالصّورة هي ما يتخيّله الشاعر، وما يحاول قوله، وهي في الوقت نفسه ما يصل من صور ذهنيّة، وانفعالات نفسيّة إلى المتلقّي. من هنا يمكن مقارنة النّص المرسل وفقاً لنظريّة Roman Jakobson، فهذه المرسلّة الإبداعية تشتمل على شيفرات لغويّة زاخرة بالأبعاد النفسيّة إذ إنّ معنى العبارة أو الكلمة في الواقع هو «الحافز الذي يدعو إلى التّلفظ بها والاستجابة التي يستدعيها من المستمع» (جحفة، 2014، ص31). وبين قوّة وتكثيف الصّورة الشعريّة، واحالاتها النفسيّة، يجد النّاقّد أنّه

لا بدّ من فهم التّناص التّاريخيّ والأسطوريّ الدّينيّ... الذي ترتكز عليه هذه الصّورة. وقد استخدم باختين في البداية مصطلح الحواريّة الذي يعني «العلاقة بين أيّ تعبير والتّعبيرات الأخرى» (باختين، 1990، ص143)، وتلا ذلك مفهوم التّعالق النّصيّ، من هنا ننطلق لفهم شبكة العلاقات بين النّصّ المدرّوس ونصوص أخرى، لفهم البعد النّفسيّ للشّاعر، سواء أكانت تشبيهاً أم استعارة أم كناية... لأنّ ما يهّمنا هنا ليس نوع الصّورة، بل أبعادها النّفسيّة.

بالعودة إلى صورة الدّراويش في قصيدة البحار والدّرويش يقول:

«أه لو يسعغه زهد الدّراويش العراة

دوّختهم حلقات الذّكر

فاجتازوا الحياة» (حاوي، 1993، ص43-42)

إنّ استحضر الدّرويش بدّ ذاته ومن دون الإشارة إلى الموت، تكشف عن الرّغبة في الانسلاخ عن الحياة، لأنّ الدّرويش المتصوّف يرتبط مباشرة بالرّهد واعتزال الحياة وملذّاتها، والابتعاد من كلّ الماديّات، من أجل الاتحاد بالمحبوب النّهائيّ والفناء فيه. غير أنّ سفر الشّاعر المعنويّ لم يقتصر على حلقات الذّكر، والتّعبّد في الكهوف، حيث أشار إلى الموت عند قوله: «اجتازوا الحياة، شرّشت رجلاه في الوحل وبات ساكناً، في مطاوي جلده ينمو طفيليّ النّبات...» (ص43)، فالدّرويش يشير إلى الرّهد في الحياة، والعبارات السّابقة تضيف مفهوم الموت. والسّؤال الذي يطرح هنا: لماذا يرى حاوي أنّه بحاجة للعزلة والوحدة على لرّغم من أنّ قضيتّه قضيّة عامّة، تقتضي توجيه الأمتّة، وأنّ يكون بين النّاس لا منعزلاً عنهم؟

نفسياً ذهب العلماء إلى أنّه «إذا كان الشّخص ينكر المجتمع الذي يعيش فيه، ويراه لا يليب احتياجاته، فقد يرغب بالانفصال عنه باستخدام العزلة وسيلة لذلك» (محمود، 2022، ص357). وهذا ما حصل مع حاوي الذي لا يشعر بقدرة المجتمع على النّورة والتّغيير، فانكفاً مبتعداً عن الواقع، معتزلاً في صومعته لا يصدّق الأمل أبداً. كما وتعدّ العزلة نفسياً من علامات الكآبة، التي توصل بدورها إلى الانتحار.

وبالانتقال إلى بعض صور ومشاهد التناص الديني نجد ما يلي:

- «من يقوينا على حمل الصليب» (حاوي، 1993، ص52)، من قصيدة ليالي بيروت.

- «رست في جوف الحوت» (ص94) من قصيدة في جوف الحوت.

- «دوت جلجلة الرعد» (ص112) من قصيدة سدوم.

- «طوفان من برق، سفر أيوب» (149) من قصيدة عودة إلى السدوم.

- «وعبدناه إلهًا يتجلّى في المغارة» (ص145) من قصيدة المجوس في أوروبا.

جاء التناص الديني المسيحي هنا ليعود ويصبّ في خانة الموت، الألم، والعذاب. فذكرى الصلب وحمل الجلجلة حادثة مفاجئة تقوم على تضحية المسيح بنفسه من أجل غسل خطايا البشر، وبعد ثلاثة أيام يقوم المسيح. إذًا، فهو مفهوم الموت المقرون بقيامة جديدة من أجل تحقيق غد أفضل وهذا يتقاطع مع أسطورة العنقاء. فهو يرى الموت طريقًا إلى الحياة. كما وجاءت الصورة الدينية ذات المرجعية الإسلامية لتعبّر عن الوحدة، الظلمات، والمعاناة كما حصل مع النبي يونس في جوف الحوت، وكما عانى النبي أيوب من المرض. وإنّ مفهوم الموت والعنة يتقاطع مع الحقول الدلالية المدروسة، التي تبرز هنا بوصفها صورة تسيطر على المناخ النفسي العام للديوان. كما وعبرت هذه المرجعية عن القيامة بعد الفناء من خلال مفهوم الطوفان.

ذهب علماء النفس إلى أنّ كثرة تكرار قول أمر ما، يدلّ بالضرورة على التفكير العميق به. فمن يفكر في أمر يولد طاقة تجذب فكرته إلى الواقع، «فالتفكير الاعتيادي والتخيلي يكون ويشكل مصير الإنسان وشخصيته، فالإنسان يصير حسبما يرى نفسه في عقله الباطن» (ميرفي، 2018، ص15). من هنا كان حاوي يرى أنّ موته تضحية لا بدّ منها، لذا شقّر ذلك في قصائده حينًا، وصرّح به أحيانًا عندما قال: (بيدي سمّ الانتحار - باسم ما أحرقت نفسي بنفسني لأصفي وجه التاريخ وأمسي - أطعمت من جوهر عمري..)

وإذا أشرنا إلى التناص التاريخي سريعًا نجد: خاتم شهرزاد - دمع ليلي (حاوي، 1993، ص149)، نجد أنّ الإحالات التاريخية تدعم ما تقدّم. فشهرزاد هي المرأة المهذّدة بالموت عند كلّ فجر جديد، وليلي هي الحبيبة التي تعاني آلام الحبّ والبعد. فهذه المرجعيات التاريخية مرتبطة أيضًا بالألم والمعاناة والموت بطريقة أو بأخرى، وهي

تؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً.

هذا وقد اشتملت الصورة العامة على نقدٍ لاذع، يمكن توصيفه في العملية التواصلية بالحافز، أي سبب غلبة البؤس واليأس على الديوان، حيث قال «مهنة التمسح في الفندق لا يبرع فيها إلا أشباه الرجال - خرقاً ممسحة في فندق الشرق الكبير» (ص156). فهو يشبه الخاضعين الخانعين بالماسح والخرق، ويذهب إلى ما ذهب إليه الإمام علي بن أبي طالب عندما قال: «يا أشباه الرجال ولا رجال» (بن أبي طالب، 2009، ص309)، للتعبير مباشرة عن غضبه ويأسه من واقع هذه الأمة التي لا تحرك ساكناً، فحتى الشاعر حائر، ضائع، لا يعلم ما يصنع حيث نراه يناقض نفسه في الديوان نفسه فيقول: «ردّ لي يا صبح وجهي المستعار - اخلعوا هذه الوجوه المستعارة» (ص56)، والاستعارة الأولى تكشف عن علاقة الشاعر المأساوية بالصباح رمز النور، الأمل، والبدايات الجديدة وتوضّح سيطرة العتمة والظلام على الديوان. وفي ذلك قال: «هي ذكرى ذلك الصبح اللعين - كان صباحاً شاحباً أتعس من ليل حزين» (ص111)، وأضاف: «وأنا في الصبح عبد للطواغيت الكبار، وأنا في الصبح شيء تافه آه من الصبح ومن جبروت النهار» (ص57). من هنا ففجر البعث الذي تولد فيه العناء من جديد، والذي تبقى فيه شهرزاد على قيد الحياة، يشكّل صبحه مصدر قلق وخوف للشاعر، الذي يخلع ليلاً وجه الدّل والعبودية ليغرق في يأسه وحزنه، ويجد نفسه في الصبح مضطراً أن يخلع وجه الحقيقة ويلبس الوجه المستعار بسبب ضعف الشعب، ولبسه الأفتنة بدون كلل أو ملل أو نقدٍ أو ثورة. فما قوله اخلعوا الوجد المستعارة، إلا دليل أنه لا يستطيع خلع الوجه وحده، بل هو في انتظارهم يشكّ في رغبتهم وقدرتهم على خلع هذه الوجوه. فقد قال: «لو كان فينا جمره خضرا لثارت واستحالت خنجراً يصيح من لهب أخضر في الجروح» (ص89). وقد استعار هنا اللون الأخضر وأسنده للجمر للدلالة على حيوية هذه القضية، فالجمر المشتعل رمز القوة والثورة والأخضر رمز الحياة والنضارة وفي ماكس لوشر يشير الأخضر إلى طاقة القلب الذي ينبض بالحياة. إذاً فالصورة الشعرية توضح عمق التناقض والصراع النفسي الداخلي الذي أشرنا إليه سابقاً.

يبقى أن نشير إلى مرجعية الأرض-الأمّ في علم النفس، حيث يفترض النقاد أن ذكر الأمّ هو إشارة إلى الأرض والوطن. وقد جاء ذكرها على النحو الآتي: «غصتي

الحرى على مرضعة الأُمس الرّحيمة- رحمةً كانت على الأمّ الرّحيمة- امرأة تخفي بكف عينها المزرقه الرّهيبه، تعيا بثقل الشّمس والحقيبه، تمضي إلى محطّة القطار، مرارة وعار» (ص 62-88). والمرأة في هذه الصّور تشير إلى الأرض والوطن لبنان، غير أنّ صورة هذه المرأة بحدّ ذاتها لم تكن ثابتة، بل ظهر الصّراع النّفسيّ من خلالها أيضًا. فتارة يصوّرُها على أنّها المرضع التي تهيه الحبّ والحنان، وتارة يصوّرُها امرأة هاربة تمضي إلى محطّة القطار يقهرها الشّعور بالمرارة والعار.. على أنّ الصّورتين متناقضتين أوّلهما تحمل دلالة الحياة، والثّانية تحمل دلالة الموت، الانكسار، الاستسلام، الرّحيل... فهو يحاول القول إنّ الوطن حزين منكسر، بسبب تخاذل شعبه عن القيام بواجبه وتغيير الواقع. وهنا تحديداً نعود إلى مسألة الإلحاح النّفسيّ على التّغيير، إذ يبدو من خلال التّحليل أنّ الشّاعر يتحدّث عن الموت والحياة والثّورة، على كلّ المستويات، وكذلك في العنوان. وقد أشارت جمعة (2022) في دراستها لحاوي إلى «الصّراع الفكريّ، الذّهنيّ، النّفسيّ، الوجوديّ في شعره، مؤكّدة دراميّة شعره» (ص 151-166)، وقد ظهر الصّراع الوجوديّ واضحاً في «قصيدة ما بعد الجليد، فهو صراعٌ بين عوامل الفناء وعوامل الحياة» (ص 167). وهذا يدعم ما ذهبنا إليه من وجود تناقض، تجلّى في الصّراع بين فكرتيّ الحياة والموت، نتج عنه صراعٌ نفسيّ حاد.

2- النكوص الحضاريّ: الحنين إلى ظلال فينيقيا

أشرنا سابقاً إلى أسطورة العنقاء، تلك الأسطورة التي استند إليها نصّ الديوان بأكمله، حيث عوّل الشّاعر على انبعاث الشّعب من بعد موته واحتراقه. غير أنّ الأزمة النّفسيّة لا تتوضّح من خلال إيمان الشّاعر بهذه الأسطورة، وتأكيد له في كلّ قصيدة، بل في ذهابه للتصديق بيقينيّتها حدّ التّماهي الميتافيزيقيّ مع طائر العنقاء. فما معنى هذا؟

يعرّف التّماهي بأنه «تقليد أنموذج معيّن وهو آليّة مهمّة في تشكيل الشّخصيّة والأفكار وتكوينها» (الموسى، 2016، ص 163)، في حال كان من يتماهى يشكّل شخصيّة، والتّماهي لا ينحصر في تشكيل السّمات الشّخصيّة للفرد والجماعة، بل يشمل أيضًا تشكيل الأفكار والقناعات التي تنشأ عن نسخ بعض الأفكار والمعتقدات. ويمكن توضيح التّماهي بصورة أدقّ بأنه «عملية نفسية يتمثل الشّخص وبواسطتها أحد مظاهر أو خصائص صفات وخصائص شخص أو شيء آخر ويتحوّل كلياً أو جزئياً لأنموذج

منه...» (مالكي وبلعربي، 2017، ص39). فإذا تناولنا الشّاعر بوصفه حالة تخضع للفحص النفسيّ، نرى أنّه تماهى كلياً مع العنقاء، فاكسب نفسه خصائص هذا الطائر وسماته في لا وعيه، فصار يؤمن بفكرة الموت من أجل تحقيق حياة أفضل، في حين أنّ موته في الحقيقة لم يتبعه انبعاث الأمّة، والثّورة. وهذا ما قصدناه من خلال لفظ ميتافيزيقيّ، فالبعد الماورائيّ في أسطورة العنقاء يتمثّل في صفات وقدرات هذا الطائر الخارقة في القيام والانبعاث كلّ يوم بعد الموت والاحتراق، والميتافيزيقيا هي «العلم بموجودات لا تدرك بواسطة الحواس، حيث تقع في عالم ما فوق التّجربة وما راء الطّبيعة» (محمد، 2010، ص129)، وهذا يصدق على مفهوم الموت. وقد يطرح المتلقي هنا سؤالاً منطقيّاً: كيف استطاعت الأسطورة أن تأخذ هذا الحيّز الواسع في تشكيل فكر ونفسية الشّاعر؟

هنا يجدر بنا الإشارة إلى ما يُعرف بالصّلابة النفسيّة Psychological Hardiness وهو المفهوم الذي يساعد الإنسان على تخطّي العقبات والتّحدّيات التي يتعرّض لها في الحياة، ويعرّف بأنه «مجموعة متكاملة من الخصال الشّخصيّة ذات طبيعة نفسيّة اجتماعيّة، وهي خصال فرعيّة تضمّ: الالتزام، التّحدّي، التّحكّم. حيث يرى الفرد أنّها خصال مهمّة في التّصدّي للمواقف الصّعبة أو المثيرة للمشقة النفسيّة والتّعايش معها بنجاح» (محمد، 2002، ص35). والواضح أنّ الشّاعر لم يمتلك الصّلابة النفسيّة المطلوبة لمواجهة الضّغط النفسيّ الدّاخليّ النّاتج عن الصّراع بين رغباته الملحة وبين الواقع المأساويّ، الذي نتج بدوره عن الضّغوطات الخارجيّة. فالضّغط في هذه الحالة ضغط مركّب من عدّة عوامل، بشكل يصعب القول إنّهُ ضغط ناتج عن ظروف خاصّة داخلية، أو خارجيّة فقط.

تشكّل المقارنة التّاريخيّة جزءاً مهمّاً من الصّراع النفسيّ، فشاعر الانبعاث لا يكفّ عن ترديد أسطورة العنقاء فينيقيّة الأصل، وهذا يعني أنّه يحنّ إلى أمجاد السّلف حضاريّاً ومن النّاحية النفسيّة يعرف هذا بالنكوص وهو «الارتداد إلى الوراء والعودة إلى أساليب سابقة في التّصرّف مرتبطة بمرحلة قد تجاوزناها» (الموسى، 2016، ص162)، مثل أن يعود العجوز إلى اللّعب بالألعاب الأطفال للتعبير عن الحرمان الذي تعرّض له في مرحلة الطّفولة. فالشّاعر يعود إلى الماضي أي إلى الحضارة الفينيقيّة العريقة تحديداً،

لأنّها الحضارة التي يحلم أن تكون واقعه، ولا يتقبّل فكرة التّعهر الذي أصاب هذه البلاد. فقد كان الفينيقيون «من الطراز القويّ والماهر والمخترع والمبتكر، سلماً وحرّاً، فضلاً عن أساطيلهم البحريّة تركوا أجديتهم تؤسس أجديات أوروبا والعالم كلّه، وتركوا إرثاً اسطورياً وشعبياً يصعب حصره» (الماجدي، 2020، ص413). ولكن أين نحن اليوم ممّا كان الأجداد سابقاً؟ أين الإبداع والابتكار والثّقافة؟! إنّ أزمة خليل حاوي ليست أزمة حريّة الشّعب واحتلال إسرائيل للبلاد فقط، فقضيّته أعمق من ذلك، لأنّه يرفض التّراجع الحضاريّ الذي أصاب بلاده، بل وكلّ البلاد العربيّة. وبين ما كان عليه الأجداد، وما كان عليه الشّعب في زمن حاوي، تولد أزمة نفسيّة تتمثّل بالحنين المستمرّ للعيش في صور الماضي، ورفض الحاضر رفضاً قاطعاً مع إلحاح على التّغيير يعلم أنّه لن يحدث، ولهذا نرى هذا الإيمان بأسطورة الموت والانبعاث، فهي الأمل الوحيد الذي ينقذ الواقع. نعم الأسطورة كانت الأمل الوحيد لتغيير الواقع وإنقاذه...

خامساً: البعد الدرامي: استجابة الشّعب لمأساة موت الشّاعر

من أجل فهم الأبعاد الدراميّة لهذا الديوان لابدّ من أن نفهم أنّ ربط الشّعر بالموضوعيّة والعقلانيّة أي تحميلة حمولة أيديولوجيّة نقدية فضلاً عن وظيفته الانفعاليّة أدّى إلى ظهور الدراما في الشعر. فالدراما تقوم على «التخيّل ومحاولة فهم مجموعة من الظواهر الطّبيعيّة والإنسانيّة، فهي تقوم بربط عالم الإنسان الداخليّ المتصارع بالعالم الخارجيّ الذي يتوافق أو يتصارع معه... وقد ارتبطت الدراما بفكرة الصّراع» (نسارك، 2019، ص24). وهذا ما نراه واضحاً عند حاوي إذ توسّعنا في شرح الصّراع النّفسيّ عنده. ومن خصائص الشّعر الدراميّ «اعتماد تقنيّة السرد لنقل التجربة إلى المتلقي، حيث تنتظم الصّور الشعريّة في بناء سرديّ محكم يحمل رؤية الشّاعر فتتابع الصّور ويمتزج الماضي بالحاضر» (عيسى، 1997، ص171)، ولعلّ القارئ يسأل كيف تمّ ذلك؟ لم يسرد الشّاعر قصّة كاملة تقوم على حوار بين الشّخصيّات، وقد اختلف ذلك من قصيدة إلى أخرى: ففي قصيدة البحار والدرويش الشّخصيّات الدرويش والبحار واستخدام الضمائر العائدة إليهما (راوغه-رماه-رجلاه-جلده)، والشّاعر إذ ورد الضمير العائد إليه مباشرة (بكوخي- ماتت بعيني...)، أمّا في قصيدة ليالي بيروت فيتوجّه مباشرة إلى القارئ (من يقوينا على حمل الصليب؟) كأنّه يحدثه، وفي قصيدة جحيم بارد يتحدّث عن نفسه

(اليتي ما زلت اصطاد الدّباب...) وعن شخصيّة مجهولة (ليته ما لمّني من وحلة الشّارع..). فمن هي هذه الشّخصيّة؟ أمّا في قصيدة الجروح السّود فهناك امرأة مجهولة (خلّبتها تروح.. تمضي إلى محطة القطار.. الخ... ويبدو الشّاعر شخصيّة مشتركة حاضرة في أغلب القصائد، وكثير من شخصياته مجهولة يقصد من خلالها إضفاء مسحة الحزن والغموض والتّعربّ على الدّيوان، فالقارئ يحزن لحال هذه المرأة ولا يعرف من تكون، ثمّ يتضح أنّها الأرض الأمّ. وقد اعتمد السّرد من خلال الأفعال الماضية، التّصوير الخياليّ، عقدة خاصّة لكلّ قصيدة، وعقدة عامّة تجمع بين القصائد، مع غياب وضع نهائيّ إذ لا يبدو أفق حلّ المشكلة واضحًا.

إنّ الشّعْر الدّرامي هو الشّعْر الذي «تحكي أحداثه موقفًا تاريخيًا أو خياليًا مستلهمًا من الحياة الإنسانيّة، وهو على ضريبين المأساة والملهامة» (صالح، 2017، ص84)، وهدفه الأوّل والأساس التّأثير في المتلقي من أجل إحداث تغيير ما. وبالرّغم من عدم وجود قصّة مباشرة في هذا الدّيوان، إلّا أنّ الطّابع الدّراميّ المأساويّ يسيطر عليه من خلال المشاهدات التي يصوّرها، فهو حين يتحدّث عن نفسه والمغني في الشّارع يصطاد الدّباب، فهو لا يقصد ذاته ونفسه مباشرة، ذلك لأنّ الذات عنده هي ذات الجماعة، ولا مكان للفرداة والقضايا الشخصيّة. ففي كلّ مشهد يصوّره حكاية قصيرة، وكلّها تشير إلى الموت، أي المأساة. هذا وقد صرّح حاوي مباشرة بالانتحار حيث قال «ويدي تمسك بخذلانها خنجر الغدر وسمّ الانتحار» (حاوي، 1993، ص56). أمّا مشاهد الموت، أو ما نسميه هنا بموت الشّاعر الورقيّ الشّعريّ الذي سبق موته الفعليّ، حدث يهدف لضرب النّفسيّة الجماعيّة من خلال إحداث صدمة عند الشّعب تدفعه للثورة أو التّغيير، غير أنّ هذا لم يحدث.

لابدّ من التّعامل مع الدّيوان بوصفه مرسلّة لغويّة فنيّة جماليّة، يريد المبدع قول شيء ما من خلالها من أجل معرفة تأثيرها في الجمهور المتلقي، لأنّ مقولات الأسلوبية النّفسيّة تتطلّب دراسة نفسيّة المنتج والمستقبل على حدّ سواء. ولأنّه يستحيل إنتاج عمل فنيّ مهما كان نوعه (موسيقى، رسم، شعر...) لا يعني شيئًا، كما يستحيل أن يقول الإنسان مقولةً لا تعني شيئًا إلّا إذا كان مخمورًا أو مجنونًا، فوظيفة اللّغة الرّئيسة «هي الإبلاغيّة، حيث يريد المتكلّم إبلاغ السّامع أو القارئ بموضوع المرسلّة» (مونان، 1981، ص70)،

وذلك لإحداث استجابة ما عنده، حيث أشار جحفة (2014) إلى أنّ «المعاني ما هي انعكاس لوضعية محفزة، أو لاستجابة بالمعنى النفسي» (ص31). من هنا فإنّ كلّ عنصر لغويّ يسهم في تشكيل الدلالة الكبرى، وقد تناولنا مستوى الدلالة، المعجم، والصورة الشعريّة، من دون الكلام على مستويي الصوت والتركيب، لأنّ المجال لا يتسع لنتوسّع فيهما هنا.

بات واضحاً أنّ الشاعر شفر تجربته النفسيّة وصراعاته الوجوديّة في قالب لغويّ فنيّ نسميه قصيدة أو شعراً. وكانت الرموز اللغويّة والتناص أداة هذا التفسير، فهي عمليّة بوح خفيّة، حيث يقول ما لا يستطيع قوله صراحة وبوضوح. والشعر قبل كلّ شيء لغة، واللغة «هي الوسيلة التي بواسطتها تنقل الأفكار إلى الآخرين، ويتمّ من خلالها التّواصل الإنسانيّ والتّفاهم» (عطية، 1995، ص16)، وقد ذهب سوسير إلى أنّ «المركبة الصوتيّة تشكّل مع المعنى أو الفكرة وحدة مركبة فيزيولوجيّة ذهنيّة» (سوسير، 1987، ص217). من هنا لا يمكن فصل الإنتاج اللغوي عن الفكر، فكّل قصيدة أو بيت أو صورة تعبّر بالضرورة عن فكرة ما. فالإشارة أو العلامة اللغويّة دال ومدلول، والدال هو الكلمات أو الأبيات التي يقرؤها المتلقي، وهي صادرة عن البنية الفكرية العقلية والنفسيّة للشاعر، ولا يمكن عزلها عنها ولا بأي شكل من الأشكال، خاصّة إذا تعلّق الأمر بدراسة الشعر بوصفه فنّاً تعبيرياً انفعالياً. ذلك لأنّ «مجال الدّراسة النفسيّة للغة هو كيفية تحويل المنتج للاستجابة إلى رموز to encode وينتج عن هذه العمليّة العقلية مرسلّة لغويّة، عندما تصل إلى المتلقي يقوم بفك الشيفرة to decode وتحويل الرموز إلى معانٍ في ذهنه... وهكذا تتكوّن المعاني النفسيّة» (ص23). إذًا، فنحن هنا بصدد المعاني النفسيّة، وقد بيّنا عمق أزمة الصّراع النفسيّ الوجوديّ عند الشاعر من خلال كلّ ما تقدّم، أمّا الآن فنركّز على استجابة المتلقي، وتلقي المرسلّة.

«لا يخفى أنّ الرموز تسهم في تشكّل الدلالات غير المباشرة، لتحقيق التّواصل الإنسانيّ المباشر وغير المباشر، فمن غير الرموز تستحيل عمليّة التّواصل الإنسانيّ إذ تستحيل الحياة من دون رموز، وتستحيل الرموز من دون الحياة الإنسانيّة. فالرّمز يتّصف بطابع العموم والشّمول لأنّه ظاهرة إنسانيّة ضاربة الجذور إذ يندر أن تجد سلوكاً إنسانياً أو فعلاً اجتماعياً يبتعد من الرّمزيّة» (ابن رشيق، 1981، ص302). ففي هذا

الدَّيوان كثرت الرَّموز والإحالات التي تشير إلى الموت، الألم، المعاناة... وقد تكلمنا عليها سابقًا فكيف يتلقاها القارئ فكريًا ونفسيًا؟

إنَّ سيطرة إيديولوجيا الموت والضَّياع والصِّراع، على المجال النَّفسيِّ للمرسلَّة تجعل هذه المشاعر تنتقل هي نفسها إلى المتلقي. فالإنسان في الواقع يتكوَّن من ذات، ثمَّ لاوعي فرديٍّ يخزَّن فيه كلَّ تجاربه السَّلبية والإيجابية وكلَّ ما يتعرَّض له في مرحلة الطَّفولة، ولا وعي جمعيٍّ وهو « البوتقة التي تتصهر فيها كلُّ النَّماذج البدائية والرواسب القديمة والتراكُمات الموروثة... » (بونغ، 2007، ص194-191). والموت في الخافية الجماعيَّة مرتبط بالحروب والمآسي، وبالرَّغم من فلسفة الموت فلسفة إيجابية في معظم الأديان مثل المسيحيَّة والإسلام، إلَّا أننا نرى أنَّ هذه اللَّفظة لا ترتبط لدى الشَّعب والأُمَّة بذكراتٍ إيجابية تاريخيًّا. إذًا فما هي الطَّاقة النَّفسيَّة التي ستثيرها الحقول المعجميَّة المرتبطة بالموت، والألم، والعنمة عند الشَّعب المتلقي؟ وقد تكلمنا هنا على اللاوعي الجمعيِّ، لأنَّ حاوي شاعر الحضارة والأُمَّة كما أشرنا سابقًا، يخاطب الجماعة لا الفرد في أعماله. ولا يمكن إهمال مسألة اللاوعي الجمعيِّ وكيفيَّة تلقفه للمفاهيم والدلالات الواردة في العمل الفنيِّ، ذلك لأنَّه «ناتج عن خبرة بشريَّة تكوَّنت منذ آلاف السنين» (الموسى، 2016، ص160). وبالعودة إلى ما سبق فإنَّ الحقول الدلاليَّة المحمَّلة بطاقة سلبية هي الأكثر انتشارًا، كما إنَّ دلالات موضوعاتها في اللاوعي الجمعيِّ دلالات سلبية، قاتمة، تبعث اليأس وتكرِّس التناقض والتوتُّر الناتج عن صراع المنتج نفسه. ونحن هنا لا نقصد أنَّه لا يمكن للشاعر توصيف الواقع المأساويِّ، لكنَّ ربطه بالموت، وتكرار فعل الموت، ورهن الحياة بالموت الأكيد، يولِّد في النَّفس البشريَّة للمتلقي شعورًا باليأس. وإنَّ كثرة تكرار الفعل (الموت)، هو بمنزلة تعزيز للفكرة وهذا ما سمَّاه Skinner بالتَّعزيز اللُّغويِّ أي reinforcement، فكلِّما كرَّر المتكلِّم أو المنتج فكرة ما، دلَّ ذلك على اهتمامه بها وجدَّيتها بالنَّسبة إليه من جهة، وهذا ما قرَّناه في جدية قضية الموت عنده، فهو لا يشير إلى الموت بوصفه أسطورة فحسب، بل يعزز الفكرة ليقوم بتنفيذها. ومن جهة أخرى، كلِّما تكرَّر ذكر فكرة ما: الموت أو الانتحار مثلاً، تسلَّلت هذه الفكرة إلى لاوعي المتلقي وتأثَّر بها لا شعوريًّا حتَّى لو لم يرد ذلك، « فمن وظائف التَّكرار في اللُّغة التَّوكيد، المبالغة، والتَّهكُّم » (الشَّهراني، 1983، ص386-380). وهذا ما فعله

الشاعر عندما كزّر باستمرار فكرة الموت، «فالسوداوية الوجودية - عند الشاعر - تنتقل لتعزيز فكرة الحداد اللاشعوريّ على الموضوع المفقود - الحرية والثورة والتطور الحضاريّ - الأمر الذي عطّل الوظيفة الوجودية عنده وشوّه ديناميته النفس اجتماعية» (مزهري، 2012، ص187)، فهو يريد السخرية من الواقع من خلال تأكيد فكرة الموت، على أنّ هذا التأكيد والتكرار ليس عبثياً، بل يكشف عن رغبة الشاعر في الموت والنضحية كما سماها، وعن جدية بثّ فكر الموت في شعره إلى لاوعي المتلقي حتى لو لم يقصد. على أنّ التركيز على هذه الفكرة بهذه الطريقة قد يولّد استجابة عكسية في أغلب الأحيان، فالدعوة إلى الموت من أجل الانبعاث دعوة أسطورية. ومهما كان من الأمر فإنّ الدعوة إلى التقدّم والتطور يجب أن تكون دعوة إلى الحياة، لا إلى الموت. وإن كان يريد استجابة حقيقية من الشعب يجب أن يوجّه فكره، ليفكّر تفكيراً نقدياً واعياً يقوده أخيراً إلى تحسين حياته، ورفض الظلم، القمع، والعدوان، أي رفض ما عبّر عنه (عبد للطواغيت الكبار). فالشاعر المثقف الناقد وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون الشعب واعياً ناقداً لإحداث تغيير حضاريّ بالمستوى الذي يدعو إليه حاوي.

إنّ وظائف الكلام المسيطرة على الديوان توضّح مدى تأثيره في المتلقي، فإذا تجاوزنا الوظيفة الانفعالية التعبيرية «التي ترتبط بالمرسل مباشرة وتعبّر عن موقفه تجاه ما يحدث» (هويدي، 2012، ص262)، بوصفها الوظيفة الأكيدة والأولى، نجد تركيزاً على الوظيفة التأثيرية أو الافهامية «التي تتّجه إلى المرسل إليه، وتهدف لإثارة انتباهه وحثّه على القيام بعمل ما، ومن خلالها يأخذ النصّ قيمته التداولية» (262)، إذا فالهدف ليس التعبير عن المشاعر فحسب، بل التأثير في المتلقي، ولكن أي أثر؟! لقد رأى بعض نقاد عصر ما بعد الحداثة أنّ الشاعر أو الفنان نبيّ يخرج الشعب من الظلمات إلى النور، فيحمل قضاياها وآلامه ويناضل من أجله، وإذ بنا نرى الشاعر هنا يعيش صراعاً نفسياً وحيرة نتجا عن عمق تأثره بالقضية، وعن رغبته النفسية الملحة التي تطلب التغيير، فنقل مشاعره المضطربة هذه إلى المتلقي. وهنا تتوقّف الاستجابة على نوع القارئ أو المتلقي، وخلفياته النفسية، الفكرية والثقافية، ذلك لأنّ قوّة هذا الديوان الفكرية، والانفعالية، والنفسية، تجعل القارئ يقف حائراً بالفعل أمام المعضلة الوجودية يردّد: إذا لم أعش كما أريد حرّاً بل عبداً عند الطواغيت الكبار فما الفائدة من العيش؟ إذا لم

يتغير الواقع المذلّ فما الفائدة من العيش؟ وما الفائدة من وجودنا إذا كنا لا نقوى على شيء؟ وهذا يبدو واضحاً في غير مكان لاسيّما عندما يشبه حالة الشعب بالدب القطبيّ فيقول: «وغفونا عفو دبّ قطبيّ كهفه منظمسّ أعمى الجدار» (حاوي، 1993، ص58)، فهو يقصد أنّ هذه الأمة لهي أشبه بدبّ قطبيّ دخل في سباتٍ طويل ولا يفيق منه أبداً.

يمكن فهم الشعب المتلقي من خلال التفسير نفس جماعيّ، ويقوم هذا التفسير على مراقبة سلوكيات هذا الشعب. فقبل مأساة موت الشاعر يشبه ما بعدها، إذ لم تقم الثورات، ولم يحصل التغيير الدراماتيكيّ الذي يفترض أن يحدثه موت شاعر، وهذا يدلّ على طبيعة هذا الشعب الذي يتّجه للخضوع والتكيف مع ظروفه الصعبة، بدلاً من محاربتها والقيام عليها. والمطلوب من الشعب ليس الموت العبيّ والانتحار من أجل الحياة، بل العمل بصدق ووطنية من أجل إيجاد غد أفضل، ذلك الغد الذي لمّا يجده اللبنانيون حتّى اليوم. ذلك لأنّ العبرة ليست في الموت، وليست في تحرير البلاد فقط، بل في تحرير الفكر والعقول، والتّحلي بالإخلاص للوطن والأرض الأمّ، عندها ستعود الحضارة الفينيقيّة أقوى مما كانت سابقاً. والحال فإننا نرى أنّ جزءاً من أزمة حاوي وهو الجزء المتعلّق بالتراجع الحضاريّ ما يزال قائماً حتّى اليوم في بلادنا. فهل يجد الشعراء، المفكرون، والشعب طريقهم إلى التغيير سؤالٌ نسأله علّه لا يموت.

الخاتمة

إنّ ضرب اللاوعي الجمعيّ بانتحار رقيّ أو فعليّ، لم يوصل إلى النتائج المتوقّعة من الشاعر، ذلك لأنّ الصدمة وحدها لا تكفي لتحريك شعب أو أمة باتجاه الثورة، فالمطلوب دراسة إيديولوجيا هذا الشعب والعمل على اكتشاف مواطن الضعف فيها، لأنّ الفكر في الأساس هو ما يحرك الشعوب. ولذلك تحاول السلطات الدكتاتورية قمع الفكر والثقافة، في حين تحاول التيارات السياسيّة تشريب الشعب ثقافتها وإيديولوجيا خاصّة بها. والحال فقد ظهر صراع الشاعر النفسيّ واضحاً في هذا الديوان من خلال رغبتين متناقضتين: الموت والحياة، وإنّ هذا الصّراع وهذا التناقض ينتقل إلى المتلقي ليؤثّر فيه نفسياً بطريقة أو بأخرى، وتبقى استجابة المتلقي وردّة فعله مرهونة بوعيه وثقافته ونفسيّته. أمّا استجابة الشعب وفهمه للرسالة الشعريّة الحضاريّة في الديوان، فيمكن إجراء أبحاث عليها حتّى يومنا هذا، لأنّه لم يتحرّك بعد باتجاه ثورة وطنية حقيقية تقوده إلى تغيير المصير والواقع.

المصادر والمراجع العربيّة

1. ابن أبي طالب، علي (2009). نهج البلاغة (3). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
2. ابن رشيق، أبو علي الحسن (1981). العمدة في محاسن الشعر وآدابه. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر
3. ابن منظور، جمال الدين (1998). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربيّ
4. أسماء، سيرين (2020). دراسة سيميائية لرواية هدية من السماء لهشام بوشامة. (رسالة ماستر بإشراف د. علوات كمال). جامعة أكلي، الجزائر
5. أدونيس، علي أحمد سعيد إسبر (1978). زمن الشعر. بيروت: دار إحياء التراث العربيّ
6. الأميري، ماجد (2020). إنانا ودموزي دراما الحبّ والموت. بيروت: دار الزافدين
7. التميمي، إله (2018-11). «توظيف اللون في شعر سعاد صباح وفقاً لنظرية ماكس لوشر». مجلة آداب الكوفة (37)، 655-684
8. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني (2009). التعريفات (1). الجزائر: شركة ابن باديس للكتاب
9. الدسوقي، مجدي محمد (1999). مقياس الصراع النفسي. القاهرة: المكتبة الأنجلو مصرية
10. الدسوقي، مجدي محمد (2007). مدى فاعلية برنامج إرشادي في تنمية بعض العلاقات الشخصية لدى طلاب الجامعة من الجنسين. القاهرة: المكتبة الإنكلو مصرية
11. الشّهريّ، عبد الرحمن محمد (1938). التكرار مظاهره وأسراره. (رسالة ماستر بإشراف د. علي محمد حسن العماري). جامعة أم القرى، السعودية
12. الماجدي، خزعل (2020). ميثولوجيا شام: دراسة في الأساطير والآلهة الكنعانية، الأوغاريتية، الفينيقية، البونية. بيروت: دار الزافدين
13. الموسى، أنور (2016). نحو نظرية سيكولوجية في دراسة علوم البلاغة العربيّة (1). بيروت: دار المواسم
14. باختين، طودورف (1990). الشعرية. تر. شكري المخبوت. المغرب: دار توبقال للنشر والدار البيضاء
15. بلغيث، عبد الزازق (2009). الصورة الشعرية عند الشاعر عزّ الدين المهيني: دراسة أسلوبيّة. (رسالة ماستر بإشراف د. علي ملاح). جامعة بوزريعة، الجزائر
16. بلاوي، رسول (2019). «رمزية مفردة النهر وإنتاجها الدلالي في مجموعة عكاز الزريح للشاعر محمد البريكي». مجلة التواصلية (19)، 95-119

17. جحفة، عبد المجيد (2014). مدخل إلى الدلالة الحديثة (2). المغرب: الدار البيضاء
18. دي سوسير، فردينان (1985). علم اللغة العام. تر. د. د. يوثيل يوسف عزيز. بغداد: آفاق عربية
19. ستورا، جان بنجمان (1997). الضَّغَطُ النَّفْسِيّ (1). تر. وجيه سعد. الشَّام: دار البشائر
20. صالح، كامل (2018). حركية الأدب وفاعليته. بيروت: دار الحداثة
21. صلاح الدين، عليوش (2020). دراسة اكلينيكية لميكانزمات الدفاع خلال مقياس أساليب الدفاع لدى التلميذ المتمدرس الراسب. (رسالة ماستر بإشراف د. شطر حسين). جامعة قلمة، الجزائر
22. صمود، حمادي (2018). الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة. قطر: دار الكتاب الجديد
23. عايدى، جمعة (2022). شعر خليل حاوي: دراسة نفسية. الجيزة: وكالة الصحافة العربية
24. عبد الغفار، عبد السلام (1996). مقدمة في الصحة النفسية. القاهرة: دار النهضة العربية
25. عزّام، محمد (1989). الأسلوبية منهجاً نقدياً. دمشق: وزارة الثقافة
26. عطية، نوال (1995). علم النفس اللغوي. القاهرة: المكتبة الأكاديمية
27. علي، عبد الرضا (1995). دراسات في الشعر العربي المعاصر، القناع، التوليف، الأصول. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر
28. علي، فاضل عبد الواحد (1999). عشتار ومأساة تموز. دمشق: دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
29. عمر، أحمد مختار (1998). علم الدلالة (5). لا مكان: مكتبة لسان العرب
30. عوض، ريتا (1992). بنية القصيدة الجاهلية - الصورة الشعرية لدى امرأ القيس. بيروت: دار الآداب
31. عوض، ريتا (1979). أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر
32. عيسى، فوزي (1997). تجليات الشعرية. الإسكندرية: منشأة المعارف
33. الغدامي، عبد الله محمد (1998). الخطبة والتفكير من البنيوية إلى التشريحية. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب
34. فرويد، سيغموند، (1978). الهذيان والأحلام في الفن (1). تر. جورج طرابيشي. بيروت: دار الطليعة
35. مالكي، ربيعة (2017). الصورة الوالدية لدى المراهق العنيف. (رسالة ماستر بإشراف د. سامية دويدي). جامعة عبد الحميد بن باديس، الجزائر

36. مبارك، حنون (1987). مدخل للسانيات سوسير (1). المغرب: الدار البيضاء
37. محمد، إبراهيم (2002). الهوية والقلق والإبداع. القاهرة: دار القاهرة
38. محمد، كرد (2010). «ما الميتافيزيقيا». الموافق للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ (5)، 129-137
39. محمود، عنان (2022). «الضغظ النفسي وعلاقته بالعزلة الاجتماعية لدى طلبة المرحلة المتوسطة (الطلبة النازحين أنموذجاً)». مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية (3)، 355-377
40. مزهر، عباس (2012). زلزال في أرض الميعاد. بيروت: دار وكتبة البصائر
41. مطهري، مرتضى (2000). شهيد يتحدث عن شهيد. تر. بقية الله الأعظم. بيروت: الدار الإسلامية
42. موان، جورج (1981). مفاتيح الألسنية (1). تر. الطيب الكوش. تونس: منشورات الجديد
43. ميخائيل، أمطانيوس (1986). دراسات في الشعر العربي الحديث. بيروت: المكتبة العصرية
44. نسارك، زينب (2019). شعرية السرد في القصيدة الجزائرية المعاصرة. الجزائر: جامعة سطيف
45. هويدي، خالد (2012). التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث (1). بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون
46. يونغ، ك. غ. (1997). علم النفس التحليلي (2). تر. نهاد خياطة. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع

References

1. Hock, H. (1996). Language History, Language Change, Language Relationship: An Introduction to Historical and Comparative Linguistics. Berlin and New York: Mouton de Gruyter
2. Kobasa, S. (1979). Stressful Life Events, Personality, and Health, An Inquiry into Hardiness. Journal of personality and social psychology, 37(1), 1-11
3. Le Monde: Arts et Société. Paru en France. Du 18-7-1978
4. Milroy, L. (1987). Observing and Analyzing Natural Language. Oxford: Blackwell

الدّكاء الاصطناعيّ في المكتبات بين التّطوّر والإشكاليّات

Artificial intelligence in libraries between development and problems

آمال خليل عوض¹

Amal Khalil Awad

تاريخ القبول 2024 /6/6

تاريخ الاستلام 2024 /5/25

المستخلص

في عصرنا الحالي بدأ سحر جديد يسيطر على عالمنا، وهو الدّكاء الاصطناعيّ، فهو يسهل كلّ الأمور التي كانت معقدة الحل في الأيام الماضية، بحيث يستطيع المرء كتابة أيّ برنامج بمجرد ان يشرح للدّكاء الاصطناعيّ بكلماته العادية عنه، فموقع بلاك بوكس (blackbox.ai) يقدم هذه الخدمة وغيرها من الخدمات الكثيرة، كتلخيص فيديو من يوتيوب (YouTube)، وكذلك يمكنك خلق أي فيديو بالصّوت والصّورة بمجرد إعطاء برنامج الدّكاء الاصطناعيّ نصوصاً تشرح حاجة المستفيد وذلك من خلال موقع فليكي (FLIKI.AI)، من منا لا يحمل هاتفاً محمولاً يحتوي على نظم للدّكاء الاصطناعيّ، مثل مساعد الخاص بجوجل (Google assistant)، سيربي (SIRI)، واليكسا (Alexa) وذلك لأنّ شركتي ابل (Apple) وسامسونغ (Samsung) للأجهزة المحمولة تستخدمان وبشكل واسع الدّكاء الاصطناعيّ، بدءاً من التّعلّم الآليّ إلى الخرائط الذّكيّة في تحديد اتّجاهات القيادة.

الانتشار الواسع للدّكاء الاصطناعيّ في كلّ مجالات الحياة سيف ذو حدين، إذ يمكننا استخدامه في الأعمال التي تساعدنا على حلّ مشكلات حياتيّة واقتصاديّة وأكاديميّة، والمساعدات الرّقميّة والتّغييرات التي أحدثتها في معظم المجالات، وتأثيرها في المكتبات وغيرها، وكذلك يمكننا استخدامه في أمور سيئة مثل استنساخ الوجوه والأصوات واستخدامها في أمور مؤذية، وكان لأبديّ لهذا الانتشار من أن يطال المكتبات

1 طالبة دكتوراة في قسم ادارة المعلومات - كلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة بيروت العربية

بوصفها نواة الحياة التعلّميّة ليحل لهم بعض المشاكل الجوهرية بإنتاج مجموعة من النّظم للتّخزين والاسترجاع والفهرسة، وكذلك التّكشيف والاستخلاص والأعمال المرجعيّة.

والمؤكد أنّ بعد مدّة وجيزة من هذه الطّفرة في الذّكاء الاصطناعيّ، سنتستغني عن قراءة المقالات والكتب حيث إنّ المساعد الآلي سيقراً ويلخص ويعطينا جميع الأجوبة عن تساؤلاتنا، وسيوفر لنا حتى في بعض الأوقات حلولاً لمشاكلنا عبر تحليل معطياتنا، استناداً لما لخص من الكتب، ويمكننا ذكر بعض الصّفحات التي توفر هذه الخدمات مثل: هوماتا (Humata) التي تحلّل ملف بصيغة (pdf)، وتقدّم ملخصات قصيرة وسهلة الفهم، واسك يور ب دي اف (askyourpdf) تلخص ملف pdf بكفاءة عالية، وتحوّلها الى ملخصات، انتل اي بيبيتي (intellippt) تحوّل المستندات الى نصوص صغيرة تتضمّن التفاصيل الأساسيّة والمهمّة، وكويل بوت سامريزير (Quillbot summarizer) تحدد جميع التفاصيل الأساسيّة من دون تغيير السّياق الأصلي.

وهناك احتمال أن تصبح الآلة أكثر معرفة وقدرة من الإنسان، مما يؤهلها لتأليف الكتب ونشرها وتسويقها من دون الرّجوع الى البشر.

الكلمات المفتاحية: المكتبات، الذّكاء الاصطناعيّ، الذّكاء الاصطناعيّ في المكتبات، النّظم الخبيرة في المكتبات، تقنيات الذّكاء الاصطناعيّ في المكتبات.

Abstract:

In our current era, a new enchantment has begun to dominate our world, and that is artificial intelligence (AI). It simplifies tasks that were previously complex, enabling anyone to write a program simply by explaining it in ordinary language to AI. Websites like blackbox.ai offer this service and many others, such as summarizing YouTube videos. Additionally, AI allows for the creation of any video with audio and visuals simply by providing the AI program with text explaining your needs, through websites like FLIKI.AI.

Almost everyone carries a mobile phone equipped with AI systems such as Google Assistant, Siri, and Alexa, as companies like Apple and Samsung widely utilize AI in mobile devices, from machine learning to smart maps for navigation.

The widespread deployment of AI in all aspects of life has dual potential: it can help solve practical, economic, and academic problems through digital assistance and transformative changes, or it can be misused, such as in cloning faces and voices for nefarious purposes.

The spread of AI was bound to affect libraries, which are the nucleus of learning life, by solving some fundamental problems through the production of systems for storage, retrieval, indexing, discovery, extraction, and references.

Undoubtedly, after a short period of this AI surge, we may no longer need to read articles and books as AI assistants will read, summarize, and provide answers to our queries based on analyzed data from books. Some platforms like Humata, askyourpdf, intellippt, and Quillbot summarizer already provide these services, offering easy-to-understand and high-quality summaries of content.

There is a possibility that machines may become more knowledgeable and capable than humans, qualifying them to author, publish, and market books without human intervention.

Keywords: Libraries, Artificial Intelligence, Artificial Intelligence in Libraries, Expert Systems in Libraries, Artificial Intelligence Techniques in Libraries.

Keywords: Libraries, Artificial Intelligence, Artificial Intelligence in Libraries, Expert Systems in Libraries, Artificial Intelligence Techniques in Libraries
Top of Form

المقدمة

إنَّ الثَّورات الرِّقْمِيَّة والصَّنَاعِيَّة الأَخيرة كَرَّست ثقافة الابتكار والتَّطوُّر التَّكْنولوجيِّ، ما أَدَّى إلى ظهور العديد من التَّطوُّرات والانفتاحات في مجال الذِّكاء الاصطناعيِّ (AI). والذِّكاء الاصطناعيِّ عبارة عن مجموعة من الخوارزميات والتَّقنيَّات التي تحاكي وظائف العقل البشريِّ، ما يمكِّنها من تحليل البيانات وربط المعلومات واتِّخاذ القرارات، وتنفيذ المهام من دون الحاجة إلى إشراف بشريِّ.

والذكاء الاصطناعي شهد نمواً هائلاً خلال العقود القليلة الماضية، وأصبح يُعدُّ تقنية مُبتكرة ومُخرّبة في العديد من الصناعات والمجالات الحيائية، فهو يمتلك تطبيقات لا حصر لها، بدءاً من الرعاية الصحيّة ووصولاً إلى الزراعة، ومن الهندسة إلى الأمور الماليّة، وحتى الألعاب ووسائل النّقل.

باختصار، أصبح الذكاء الاصطناعي جزءاً لا غنى عنه من الثّورة التكنولوجيّة الحاليّة، ويؤدي دوراً أساسياً في تحقيق التّقدّم والابتكار في العديد من المجالات المختلفة وفي المكتبات.

وأحدث الذكاء الاصطناعيّ ثورة في المكتبات من خلال تلقيم المهام، وتعزيز قدرات البحث، وتحسين تجارب المستخدمين، ويمكنه تسريع فهرسة المحتوى، وتقديم التّوصيات الشخصيّة، وزيادة سرعة الوصول إلى المعلومات. أدوات الذكاء الاصطناعيّ مثل خوارزميات التّعلّم الآليّ تساعد في تصنيف وتنظيم كميات ضخمة من البيانات، ما يجعل من السّهّل على المستخدمين العثور على الموارد ذات الصّلة. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لأنظمة الذكاء الاصطناعيّ تحمل المهام المعقدة، ما يتيح للخبراء البشريين التّركيز على أنشطة أكثر استراتيجيّة.

بشكل عام، يقوم الذكاء الاصطناعيّ بتشكيل المكتبات، ما يجعلها أكثر كفاءة وسهولة للاستخدام، وأكثر تكيفاً مع العصر الرّقميّ.

مشكلة الدّراسة وتساؤلاتها

نظراً إلى أنّ الذكاء الاصطناعيّ، أحدث ثورة تكنولوجيّة تطال غير مجال حيوي في الحياة، وبناء على ذلك، هل يعدُّ الذكاء الاصطناعيّ عنصراً مطوّراً في عالم المكتبات أم يؤثر سلبيّاً كونه لا يؤدي المهام البشريّة والتّقنيّة للمكتبيين؟ وإلى أي مدى يؤثر إيجاباً أو سلبيّاً في تأدية أدوار تطال أخلاقيّات البحث والمكتبة؟ وما الدّور الإيجابي أو السلبيّ الذي يحقّقه الذكاء الاصطناعيّ في عالم البحث والتّقيّميش؟

ما الفروقات في محرّكات البحث بين الماضي والحاضر؟

أهمية الدراسة

يمثل موضوع الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته أهمية كبيرة في المكتبات ومجال المعلومات، لذلك سعت الدراسة إلى إبراز أهم الأعمال الفكرية حول الموضوع، والأدوات المستخدمة، وكيفية تطبيقها، وأهم الأبحاث التي نشرت في مجال الذكاء الاصطناعي والمكتبات.

من أهداف هذا البحث

- تعريف الذكاء الاصطناعي بوصفه مفهومًا أحدث ثورة علمية وتكنولوجية بارزة.
- توضيح مجالات الذكاء الاصطناعي في المجال التخصصي.
- شرح تأثير الذكاء الاصطناعي في المكتبات.
- تحليل تطبيقات الذكاء الاصطناعي في المكتبات.
- مناقشة أخلاقيات الذكاء الاصطناعي.

منهج الدراسة

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، من خلاله تم وصف الذكاء الاصطناعي بشكل عام، وفي المكتبات بشكل خاص، وكل ما يرتبط به، وتحليل الأدوات المستعملة حاليًا، ولماذا تستعمل؟ وأين تستعمل؟ وكيف تستعمل؟

الدراسات السابقة

أولاً: الدراسات العربية

- دراسة سيد، أحمد فايز أحمد (2020) بعنوان: المنصات الشاملة للذكاء الاصطناعي و تطبيقاته في المكتبات: دراسة وصفية تحليلية مقارنة، وتهدف إلى تحليل منصات الذكاء الاصطناعي الشاملة ومقارنتها لتحديد الأفضل للاستخدام في المكتبات. يتبع الدراسة ثلاثة مناهج بحثية: التاريخية، والوصفية التحليلية، والمقارنة، لتقييم وتبسيط الضوء على أفضل المنصات للمكتبات. يعتمد البحث على أدوات بحثية مثل البحث الوثائقي والتتبع التفاعلي وقائمة المراجعة.

يتضمّن البحث وصفاً وتحليلاً لثمانية عشر منصة للذكاء الاصطناعيّ، مع مقارنتها ودراسة تطبيقاتها المحتملة في المكتبات، كما يوصي بتحسين مستوى اختصاصي المكتبات وتدريبهم على استخدام التكنولوجيا ومواجهة التحدّيات القانونيّة والاجتماعيّة المتعلقة بتطبيق الذكاء الاصطناعيّ في المكتبات.

➤ دراسة ابو بكر، سلطان (2021) بعنوان: أخلاقيات الذكاء الاصطناعيّ، وتهدف إلى استكشاف مسوّغات الخوف من الذكاء الاصطناعيّ وارتباطه بأخلاقيات البحث العلميّ، مع التّركيز على الاعتبارات الأخلاقيّة اللازمة لمعالجة رهاب الذكاء الاصطناعيّ، وضمان تطوير الذكاء الاصطناعيّ بمسؤوليّة.

المصادر تناقش انتشار تطبيقات الذكاء الاصطناعيّ والمخاوف المصاحبة لها في البحث العلميّ، مع تسليط الضوء على المخاوف بشأن التّقدّم السّريع للذكاء الاصطناعيّ وتأثيره المحتمل في حياة الإنسان. كما تتناول المصادر الصّلة بين رهاب الذكاء الاصطناعيّ وأخلاقيات البحث العلميّ، والحاجة إلى إرشادات أخلاقيّة للتّخفيف من المخاطر المرتبطة بتطوّرات الذكاء الاصطناعيّ.

ثانياً: الدّراسات الأجنبيّة

➤ دراسة جانينا كريجر (Krieger, Janina) (2022) بعنوان: الذكاء الاصطناعيّ في المكتبات الأكاديمية: كيف يمكن أن تدعم خدمات الذكاء الاصطناعيّ الجديدة مستخدمي مكتبتك، تناولت الدّراسة دور التطبيقات الذّكيّة في المكتبات وتأثيرها في تحسين تجربة المستخدمين وتقديم خدمات قيمة للقراء والكتاب والمدرسين. يقدم سبرينغير ناشر (Springer Nature) مبادرتين للذكاء الاصطناعيّ تهدفان إلى توفير نظرة عامة عن الكتاب ومحتواه من خلال أداة اكتشاف المحتوى سكريبتينتر (Scriptinator) للطلّاب. يستكشف فرص وتحديات خدمات الذكاء الاصطناعيّ في المكتبات وتأثيرها في اكتشاف المحتوى واحتياجات المستخدمين.

➤ دراسة راجيش كومار داس، محمد شريف الإسلام (Das, K, R. and Islam,) (2021) بعنوان: تطبيق الذكاء الاصطناعيّ والتّعلّم الآليّ في المكتبات: مراجعة منهجيّة، تهدف الدّراسة إلى تقديم تجميع شامل للدّراسات التجريبيّة التي

تستكشف تطبيقات الذكاء الاصطناعي والتعلم الآلي في المكتبات. أجريت مراجعة منهجية للأدبيات وفقاً للمبادئ التوجيهية الأصلية التي اقترحها كتشنهام (Kitchenham) وآخرون (2009)، وجمعت البيانات من قواعد بيانات ويب اوف ساينس (Web of Science) وسكوبس (Scopus) و LISA و LISTA.

بعد عملية اختيار صارمة ومستقرة، تمت في النهاية مراجعة وتحليل 32 مقالة لتلخيص تطبيقات مجال الذكاء الاصطناعي والتعلم الآلي والتقنيات الأكثر شيوعاً في المكتبات.

وأظهرت النتائج أنّ الحالة الحالية لأبحاث الذكاء الاصطناعي والتعلم الآلي ذات الصلة بمجال علوم المكتبات والمعلومات تركز بشكل رئيس على الأعمال النظرية. ومع ذلك، يركز بعض الباحثين أيضاً على مشاريع التنفيذ أو دراسات الحالة. وفرت هذه الدراسة نظرة عامة شاملة على الذكاء الاصطناعي والتعلم الآلي في المكتبات للباحثين والممارسين والمعلمين، من أجل تعزيز النهج الأكثر توجهاً نحو التكنولوجيا واستباق مسارات الابتكار المستقبلية.

1 - ما هو الذكاء الاصطناعي؟

الذكاء الاصطناعي يشير إلى مجال علوم الكمبيوتر الذي يهتم بتطوير أنظمة قادرة على حل المشكلات المعرفية المرتبطة بالذكاء البشري، مثل التعلم والإبداع والتعرف على الصور. يمكن للذكاء الاصطناعي أن يكون من نوعين: الذكاء الاصطناعي الموّلد الذي يمكنه إنشاء محتوى جديد مثل الصور والفيديوهات، والذكاء العام الاصطناعي الذي يهدف إلى تطوير أنظمة تمتلك التحكم الذاتي والقدرة على تعلم مهارات جديدة. يواجه الذكاء الاصطناعي تحديات مثل حوكمة البيانات والخصوصية، ويعد تقنية حيوية تسهم في تحسين الكفاءة وتوفير فرص جديدة للدخل وتعزيز ولاء العملاء.

2 - تاريخ الذكاء الاصطناعي

أُستخدِم الذكاء الاصطناعي للمرة الأولى في عقد 1950، وأطلقه عالم الرياضيات البريطاني آلان تورنغ من خلال مفهوم «اختبار تورنغ»، الذي يُستخدم لتحديد ما إذا كان الجهاز يمكنه التصرف بطريقة تشبه التصرف البشري الذكي. وفي مؤتمرات في مجال

الدّكاء الاصطناعيّ في دارتموث وهانوفر عام 1956 من قبل مكارسي (Mccarthy) وهو أوّل من استخدم مصطلح الدّكاء الاصطناعيّ AI ليثير الانتباه، وبدأت الابحاث في مجال الدّكاء الاصطناعيّ بعيداً من مجال علوم الحوسبة والأتمتة، وقُدّم له تعريف خاصّ وهو برمجة الآلات الدّكيّة، ومن ثم عاد رُبط في العام 2007 ببرامج الكمبيوتر الدّكيّة، في الحقبة الممتدة من 1990 إلى 2000، تطوّرت تقنيات الدّكاء الاصطناعيّ بشكل ملحوظ، وظهرت تقنيات جديدة مثل نظم الخبرة والمنطق الضبابيّ والتّعلّم العميق. في العام 1997، حقّق برنامج الشّطرنج «ديب بلو» نصراً على بطل العالم في الشّطرنج «غاري كاسباروف»، ما أثار اهتماماً كبيراً بقدرات الدّكاء الاصطناعيّ. وقد أثر هذا التطوّر التاريخي في مجال المكتبات ومراكز المعلومات في العشر سنوات الماضية، وفي الحقبة الممتدة من 2010 حتى الآن شهد التطوّر المذهل في الدّكاء الاصطناعيّ رواجاً، بفضل التطوّر التكنولوجي والقدرة الهائلة على معالجة البيانات وتوفيرها بشكل كبير، كما أثر التطوّر بالتّعلّم العميق في شبكات الخلايا العصبية الاصطناعيّة، وبهذه التكنولوجيا أصبح للدّكاء الاصطناعيّ القدرة على تحليل الصّور، وحتى استكمال الناقص منها، كأرقام لوحة السيّارة وكذلك التّعرف إلى الأصوات والوجوه والترجمة الآلية الصوتية والكتابية والصّور والألعاب والروبوتات والقيادة الذاتية، وكذلك نظم المساعد الشخصي الذي استفيد منه في الطّب والتّجارة والتّسويق والتّمويل والمكتبات، وهو من نماذج الدّكاء الاصطناعيّ المفتوح (OPEN AI)، وآخر نموذج له هو GPT-4، وهو يستخدم في المحادثات الدّكيّة والترجمة والكتابة التلقائيّة.

3 - المجالات المخصصة للدّكاء الاصطناعيّ

الدّكاء الاصطناعيّ يمتد عبر مجموعة واسعة من المجالات والتّطبيقات. يمكن تقسيم المجالات المخصصة للدّكاء الاصطناعيّ إلى عدة فئات رئيسة وهي:

أ - تعلّم الآلة: يشمل تطبيقات التّعلّم الآلي استخدام البيانات لتدريب الأنظمة على اتّخاذ القرارات وتحليل النّماتج.

ب - التّحليل الضخّ للبيانات: يركز على استخدام الدّكاء الاصطناعيّ لتحليل وفهم البيانات الضخمة لاستخلاص الأنماط والتّوجيهات.

ج - الذكاء الاصطناعي العام: يهدف إلى تطوير أنظمة ذكية قادرة على تنفيذ مجموعة متنوعة من المهام بشكل شامل.

د - الذكاء الاصطناعي التفاعلي: يركز على تطوير أنظمة تفاعلية قادرة على التفاعل مع المستخدمين بطريقة ذكية.

هـ - الذكاء الاصطناعي الذاتي: يتعلق بتطوير أنظمة قادرة على التعلّم والتّحسين ذاتياً، من دون تدخل بشري.

و - الذكاء الاصطناعي الطبي: يستخدم لتحليل البيانات الصحية وتحسين جودة الرعاية الصحية، وتطوير تطبيقات صحية مبتكرة.

ز - الذكاء الاصطناعي التعليمي: يهدف إلى تحسين عمليات التعلّم وتطوير أنظمة تعليمية ذكية.

هذه المجالات تمثل جزءاً من التطبيقات الشائعة للذكاء الاصطناعي، وتعكس تنوع استخدام هذه التقنية الحديثة في مختلف القطاعات والصناعات.

4 - تأثير الذكاء الاصطناعي في المكتبات

شكل الذكاء الاصطناعي تحولاً جوهرياً في كيفية توفير الخدمات المكتبية، وتحسين تجارب المستخدمين، وإليك بعض النقاط التي توضح هذا التأثير بشكل أكبر:

أ - توفير الوقت والجهد: فمن خلال استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي، يمكن للمكتبات أتمتة العديد من العمليات الروتينية، مثل تصنيف الكتب، وفهرستها، وتحديد الموارد الرقمية، وهذا يوفر الوقت والجهد لموظفي المكتبة، ما يسمح بتوجيه الجهود نحو أنشطة أكثر استراتيجية، مثل تطوير المجموعات وخدمات الاستشارة.

ب - تحسين تجربة المستخدم: فمن خلال توفير توصيات شخصية ونتائج بحث مخصّصة، يمكن أن يسهّل على المستخدمين العثور على الموارد التي يحتاجونها بشكل أسرع وأسهل، وهذا يزيد من رضا المستخدمين ويعزّز تجربتهم في استخدام المكتبة.

ج - تحسين إدارة الموارد: فمن خلال استخدام خوارزميات تعلم الآلة، يمكن للمكتبات

تنظيم الموارد وتصنيفها بفعالية أكبر، استنادًا إلى الاهتمامات والاحتياجات الحالية للمستخدمين.

د - تعزيز البحث العلمي: يمكن استخدام الذكاء الاصطناعي في تحليل البيانات الضخمة، وتوليد الرؤى الجديدة، ما يسهل عملية البحث العلمي، ويساعد في اكتشاف العلاقات والاتجاهات الجديدة في المعرفة.

هـ - توفير خدمات متقدمة: يمكن للذكاء الاصطناعي تمكين المكتبات من تقديم خدمات متقدمة، مثل الإجابة الآلية عن الاستفسارات، وتحليل النصوص، واكتشاف البيانات، وتوفير المساعدة الافتراضية.

بشكل عام، يُعدُّ التكامل بين التَّقْنِيَّات الذِّكَاة الاصطناعيَّة وخدمات المكتبات نقلة مهمة نحو مكتبات أكثر كفاءة، وتقديم خدمات أفضل للمستخدمين في العصر الرقْمِيَّ.

5 - الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته في المكتبات

البرامج التي تستخدم في المكتبات بتقنيات الذكاء الاصطناعي تشمل:

أ - أدوات البحث الذكيَّة: تستخدم لفهرسة وتنظيم المواد بشكل دقيق وسلس، ما يسهل على المستخدمين العثور على المعلومات بسهولة.

ب - برامج توصيات الكتب الشخصية: تحلّل سلوك المستخدمين، وتقدّم توصيات مخصّصة لتوسيع آفاقهم وتعزيز تفاعلهم مع المكتبة.

ج - برامج الدّعم الافتراضيّ وخدمات الاستعلام الافتراضيّة: توفر دعمًا فوريًا للمستخدمين، عبر الإجابة عن استفساراتهم وتوجيههم داخل النّظام.

د - برامج حفظ المواد وحمايتها: تستخدم لتحليل الصّور للكتب والمواد الأخرى، لتحديد علامات التّدهور، واتّخاذ التّدابير الوقائيّة.

هـ - برامج تحليل البيانات وتحسين العمليات: تساعد في تحليل البيانات بشكل فعّال، وتحسين العمليات الروتينية، ما يسهم في تحسين كفاءة إدارة المكتبة.

هذه البرامج تؤدي دورًا حيويًا في تحسين خدمات المكتبات، وتعزيز تجربة المستخدمين من خلال توظيف التَّقْنِيَّات الحديثة للذكاء الاصطناعيّ نذكر بعض الادوات المساعدة

Research Rabbit, Puzzle labs, MEM, Fable Fiesta, Scite, Botsonic, Quillbot, Grammarly, Copy.ai, Dante..

6 - البرامج المستخدمة في المكتبات بتقنيات الذكاء الاصطناعي

هناك برامج لإدارة الكتب الإلكترونية، والمثال على ذلك برنامج Adobe Digital eXtreme Books ، Alfa eBook Manager ،Epubor ،Calibre ،Editions Manager، كذلك هناك أداة شاملة لإدارة الأدبيات وتحسين الأداء الأكاديمي Mendeley، والجدير بالذكر أنّ هناك أدوات تنظيم المكتب التي تساعد على تنظيم المكتب وزيادة الإنتاجية، مثل الأرفف والخزائن والصناديق والحاويات.

وتُعدّ Augmented Reality (AR) من أهمّ التقنيّات الذكيّة مستقبلاً للمكتبات خصوصاً الأكاديمية، هذه البرامج المتطورة والتقنيّات تؤدي دوراً حيوياً في تنظيم وإدارة المكتبات الإلكترونيّة، من خلال تقنيات الذكاء الاصطناعيّ.

7 - مقارنة بين محرّكات البحث المستخدمة في المكتبات بين الماضي والحاضر (الذكاء الاصطناعي)

تطوّرت محرّكات البحث في المكتبات بشكل كبير من الماضي إلى الحاضر، ما جعل عمليات البحث والتّواصل والتّخزين أكثر فعالية وسهولة وتكاملاً مع التّكنولوجيا الحديثة، مثال على محرّكات البحث القديمة مثل جوجل (Google) ، وياهو (yahoo)، وياندكس (Yandex) وبينج (Bing)، أما الآن فقد برزت محرّكات الذكاء الاصطناعيّ جيميني (Gemini)، شات جي بي تي (chatGPT)، بيرلكستي (Perplexity).

سأشرح كيفية عمل البحث قديماً، وكيف تطوّر في نهج البحث والاسترجاع، وسأخذ مثال جوجل (Google) وجيميني (Gemini):

<p>حديثاً: جيميني</p>	<p>قديمًا: جوجل</p>
<p>البحث المعتمد على الذكاء الاصطناعي</p> <ul style="list-style-type: none"> ➤ التعلّم العميق: يستخدم نماذج التعلّم العميق لفهم السياق والدلالات، ما يوفر نتائج بحث أكثر دقة وتفصيلاً. ➤ الوعي السياقي: قدرة محسنة على فهم سياق الاستفسارات، خصوصاً في الأسئلة المعقدة أو الغامضة. 	<p>البحث الخوارزمي</p> <ul style="list-style-type: none"> ➤ PageRank: الخوارزمية الأساسية لجوجل التي تصنّف صفحات الويب بناءً على أهميتها، حيث تُحدّد من خلال عدد وجودة الروابط المؤدية إليها. ➤ Hummingbird, RankBrain, BERT: خوارزميات متقدمة تحسن فهم استفسارات البحث والسيّاق، يعطي دقة لنتائج البحث. ➤ - خوارزميات الجودة: تركّز جوجل على المحتوى الجديد والمحدّث، لضمان نتائج بحث محدّثة.
<p>تكامل مخطط المعرفة</p> <ul style="list-style-type: none"> ➤ البحث الدلالي: يستخدم مخطّط المعرفة لفهم العلاقات بين الكيانات، مما يوفر نتائج بحث أكثر معنى وترابطاً. ➤ الإجابات المباشرة: قدرة على تقديم إجابات مباشرة للاستفسارات بناءً على مخطّط المعرفة، ما يقلّل من الحاجة إلى النقر على روابط متعدّدة. 	<p>الفهرسة</p> <p>الزحف والفهرسة: يقوم جوجل بـ (Googlebot) بالزحف على الويب، وفهرسة الصفحات ومحتواها لضمان تغطية شاملة للبحث.</p>
<p>التخصيص المتقدم</p> <ul style="list-style-type: none"> ➤ تحليل السلوك: تتبّع وتحليل أكثر تقدّمًا لسلوك المستخدم لتخصيص نتائج البحث بشكل أكبر وفقاً للتفضيلات والتفاعلات السابقة. ➤ التكيّف السياقي: تكيف نتائج البحث ديناميكياً بناءً على السياق الحالي، مثل الوقت من اليوم، ونشاط المستخدم، أو الجهاز المستخدم. 	<p>فهم نية المستخدم</p> <ul style="list-style-type: none"> ➤ فهم الاستفسار: تحلل خوارزميات جوجل استفسارات المستخدمين لفهم النية باستخدام معالجة اللغة الطبيعية (NLP) لتفسير معنى الكلمات. ➤ التخصيص: تخصّص نتائج البحث بناءً على تاريخ المستخدم أو الموقع أو التفضيلات

معايير جودة المحتوى المحسنة	جودة المحتوى
<ul style="list-style-type: none"> ➤ دورات تغذية راجعة من المستخدمين: دمج مستمر لتغذية راجعة من المستخدمين لتحسين نتائج البحث. ➤ تصفية الرسائل المزعجة المتقدمة: آليات أكثر قوة للكشف عن الرسائل المزعجة وتصفية المحتوى منخفض الجودة. 	<ul style="list-style-type: none"> ➤ E-A-T (الخبرة، الموثوقية، الثقة): تقيّم جوجل لجودة المحتوى مع التركيز على المصادر الموثوقة. ➤ الكشف عن الرسائل المزعجة: تستخدم خوارزميات ومراجعات يدوية لإزالة المحتوى المنخفض الجودة أو المضلل.
البحث متعدد الوسائط:	البحث الشامل
<ul style="list-style-type: none"> ➤ تكامل الوسائط المختلفة: دمج سلس للنص، والصّور، والفيديو، وإمكانات البحث الصوتي، ما يوفر تجربة بحث أغنى وأكثر تنوعاً. ➤ التوافق عبر المنصات: ضمان تجربة بحث منسقة عبر الأجهزة والمنصات المختلفة. 	<p>نتائج مدمجة: دمج أنواع مختلفة من المحتوى (صفحات ويب، وأخبار، وصور، وفيديوهات، وقوائم محلية) في صفحة نتائج بحث واحدة.</p>

الاختلافات الرئيسية

من حيث التكنولوجيا تعتمد جوجل بشكل كبير على النهج الخوارزمي التقليدي المدمج مع التعلم الآلي، بينما قد تعتمد جيميني على تقنيات الذكاء الاصطناعي والتعلم العميق الأكثر تقدماً. أما من حيث فهم نية المستخدم فكلاهما يسعى إلى ذلك، قد توفر جيميني فهماً أعمق للسياق، بفضل النماذج الذكّية الأكثر تقدماً، أما من حيث التخصيص والسياق، فإن جيميني أكثر تقدماً ويعطي نتائج بحث واعية بالسياق مقارنة بما تقدمه جوجل حالياً، وإذا أردنا مقارنة جودة نتائج البحث فكلاهما يركّز على الجودة، لكن قد تستخدم جيميني أنظمة تغذية راجعة من المستخدمين وتصفية الرسائل المزعجة بشكل أكثر تطوراً.

وأخيراً من حيث البحث المتعدد الوسائط والتوافق عبر المنصات توفر جيميني تكاملاً أفضل لأنواع الوسائط المختلفة وضمان أداء منسق عبر الأجهزة المختلفة، ما يحسن التجربة العامة للمستخدم.

باختصار، فإنّ جوجل هو محرّك بحث راسخ يعتمد على قدرات البحث الخوارزمية القوية، وتمثّل جيميني نهجًا أكثر مستقبلية ومعتمدًا على الذكاء الاصطناعيّ، ما قد يوفر فهماً أعمق للسياق، تخصيصًا متقدّمًا، وتكاملاً محسّنًا للأنواع المتنوعة من المحتوى.

1 - أخلاقيات الذكاء الاصطناعيّ في المكتبات

«توصّلت اليونسكو في تشرين الثاني/نوفمبر 2021 إلى تحقيق توافق آراء بين الدول الأعضاء على اعتماد أول إطار أخلاقي عالمي لاستخدام الذكاء الاصطناعيّ، وها نحن اليوم نخطو خطوة كبيرة أخرى عبر الحصول على الالتزام نفسه من شركات التكنولوجيا العالمية، وأنا أدعو جميع الأطراف المعنية بالتكنولوجيا إلى أن تحذو حذو هذه الشركات الثماني الأولى، فهذا التحالف بين القطاعين العام والخاص أساسي في إنشاء ذكاء اصطناعيّ يعمل من أجل تحقيق المنفعة العامة». لقد كان هذا الأساس الذي انعقد عليه المنتدى الثقافيّ الثنائي للذكاء الاصطناعيّ، وقد ألزمت الأونيسكو الشركات لأول مرة بتبني مبادئ حقوق الإنسان عند تصنيع برمجيات الذكاء الاصطناعيّ وبيعها وتطويرها وشرائها واستخدامها. ومن أهم ما نصّ عليه هذا الاتفاق تحديد الأضرار الممكنة الناجمة عن التطوّر بالذكاء الاصطناعيّ، والتقييد بمعايير السلامة، ومنع حدوث أي آثار ضارة، أو التخفيف من حدّتها، ومعالجتها بما يناسب المعايير المحليّة. وحاليًا هناك خمسون بلدًا ملتزمًا بهذا الإطار التقنيّ الأول من نوعه الذي وُضع بإشراف اليونسكو ومع سعيها الدؤوب لإحراز تقدم مع القطاع الخاص، نتج عنه إنشاء مجلس الأعمال لأخلاقيات الذكاء الاصطناعيّ، وتشارك في رئاسته شركتا مايكروسوفت (Microsoft) وتليفونيك (Telefonica).

تمثّل أخلاقيات الذكاء الاصطناعيّ مجموعة من القواعد والمبادئ التي تهدف إلى تحقيق العدالة والمساءلة، والشفافيّة، والقابلية للتفسير في تطبيقات الذكاء الاصطناعيّ. ويمكن للمؤسسات الحكوميّة والأفراد والمؤسسات الأخرى الاستفادة من هذه الأخلاقيات كدليل لاستخدام التقنيّات الذكيّة بشكل مسؤول، مع الحرص على حقوق المواطنين والمجتمعات المحليّة. تلك القواعد تعزّز الاستخدام الأخلاقيّ للذكاء الاصطناعيّ، وتضمن تطبيقه بطريقة تحافظ على القيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة. لكن هذه التقنيّات الحديثة في المكتبات ومراكز المعلومات، على الرّغم من فوائدها الكثيرة، لا يمكننا غضّ

النظر عن تداعياتها الأخلاقية في العديد من المجالات والظروف، ومن أهمها تقليص اليد العاملة وفقدان التواصل البشري بين المستفيد والمكتبيين، وعدم تبادل الخبرات والمعرفة في المكتبات، والاعتماد بشكل كلي على الآلة ولكن هذه الآلة في بعض الأحيان تستطيع التفلت من برمجتها من خلال التهكير أو الفيروسات لتخالف الأوامر وتتصرف بشكل عدواني مع المستفيد، كما يمكن للبرمجيات الخبيثة تغيير البيانات المخصصة لمستفيد مدرج في لوائح المكتبة لتلغي اشتراكه أو تعدل من تاريخ انتهاءه، وهذا يتعدى على الخصوصية والأمان للمستفيد.

ولابد من الإشارة هنا إلى قضايا العدالة والتحيز، حيث إن المبرمج يفرض قيوداً وتفضيلات بما يناسب المجتمع، وهذا قد يخفي حقائق وتوقعاً يجب على المستفيد الاطلاع عليها، مثل قضية غزة في المجتمع الأميركي، فالأكيد هناك حجب وتقليص للخيارات للتناسب مع المعتقدات العرقية والاجتماعية والجنسية لمجتمع معين، والتبعية التكنولوجية وعدم قدرة بعض المكتبات وحاجتها لهذه البرمجيات الذكية المكلفة التي تشكل عبئاً مادياً على وجودها، وخصوصاً مكتبات الاحياء الصغيرة ومكتبات المدارس.

الخاتمة

إن تقنيات الذكاء الاصطناعي قد طورت العديد من القطاعات، ومن ضمنها المكتبات، وساعدت على تحسين جودة العمل، والإنجاز بوقت قصير في مجالات متنوعة كالتصنيف والفهرسة والتعامل مع البيانات الضخمة، وتقنيات التواصل الحديثة، والتعلم المتقدم والمساعدة الآلية، بناء أنظمة ذكية متطورة تلبي حاجة المستفيد، ضمن خوارزميات الذكاء الاصطناعي الذي يوفر مساعدة ودعمًا، كما أنها تستطيع الإجابة عن الاسئلة المطروحة، والمساعدة في البحث وتقديم توصيات ومقترحات.

كما تستخدم الخوارزميات في الذكاء الاصطناعي لتحليل كميات كبيرة من البيانات في المكتبات لتحديد الأنماط والاتجاهات في سلوك المستفيدين والتفضيلات. ويمكن استخدام هذا التحليل لتخصيص الخدمات وتزويد المجموعات المختلفة بالمجموعات المكتبية الملائمة لها. بالإضافة الى تزويد المكتبات ببروبات الدردشة المدعومة بالذكاء الاصطناعي، لتوفير سرعة الوصول الى المعلومات. كل هذا يؤثر في تجربة المستخدم، ويجعل المكتبات أكثر أهمية وقيمة في عصر التكنولوجيا الرقمية. وعليه، فإن تكامل

الدّكاء الاصطناعيّ في المكتبات، قد أدّى إلى تحسين الكفاءة والتّوفر، والتّوجيه نحو المستخدم المركزي.

المصادر والمراجع

- 1 - حمزه ل.، & عبد المالك م. (2019). التوجه نحو المكتبات الذّكيّة: دراسة استشرافية لنظم مكتبات المستقبل. مجلة ببليو فيليا لدراسات المكتبات والمعلومات، 1(2)، 166-178. <https://www.dz.cerist.asjp/article/en/122173>
- 2 - ابو بكر، سلطان. (2021). أخلاقيّات الدّكاء الاصطناعيّ 81-88. *AI Ethics*. 70.
- 3 - لجندي، محمود عبدالكريم عبدالعزيز. (2020). المكتبات أداة لتحقيق التنمية المستدامة: دراسة مسحية تحليلية لبعض التجارب. مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، مج22، الإصدار 64، 1-25. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/1297330>
- 4 - بولحية ف. ا.، & نابتي م. ا. (2022). جاهزية أخصائي المكتبات الجامعية لتقديم عروض خدمات المعلومات باستخدام تطبيقات الهواتف الذّكيّة: مكتبات جامعة محمد الصديق بن يحيى بجيجل نموذجًا. مجلة هيرو دوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، 6(1)، 258-285. <https://www.asjp.cerist.dz/en/article186862/>
- 5 - سردوك، ع. (2020). استخدام الروبوتات الذّكيّة في المكتبات الجامعية: التجارب العالمية، والواقع الراهن في بلدان المغرب العربي. استرجع من www.qscience.com/content/journals/10.5339/jist2020.10.
- 6 - سيد، أحمد فايز أحمد. 2020. المنصات الشاملة للدّكاء الاصطناعيّ و تطبيقاته في المكتبات: دراسة وصفية تحليلية مقارنة. اعلم، مج. 2020، ع. 27، ص ص. 166-87.
- 7 - Yigitcanlar, T., Mehmood, R., & Corchado, J. M. (2021). Green Artificial Intelligence: Towards an Efficient, Sustainable and Equitable Technology for Smart Cities and Futures. *Sustainability*, 13(16), 8952. MDPI AG. Retrieved from <http://dx.doi.org/10.3390/su13168952>
- 8 - European Parliament, Directorate-General for Internal Policies of the Union, Herold, A., Gailhofer, P., Urrutia, C. (2021). The role of artificial intelligence in the European Green Deal, European Parliament. <https://data.europa.eu/doi/10.2861/882830>
- 9 - Peart, A. (2017, June 2). Homage to John McCarthy, the Father of Artificial Intelligence (AI). Retrieved from Artificial Solutions <https://www.artificial-solutions.com/blog/homage-to-john-mccarthy-the-father-of-artificial-intelligence>.



10 – Petska, A. (2018, August 31). Roanoke County library adds Pepper, a ‘community robot’. Retrieved from The Roanoke Times: https://www.roanoke.com/news/local/roanoke_county/roanoke-county-library-adds-pepper-a-community-robot/article_198827e4-e357-545a-9f142e8137f83208.html

11 – Gul, S., & Bano, S. (2019). Smart Libraries: An Emerging and Innovative Technological Habitat of 21st Century. *The Electronic Library*, 37(5), 764–783.

12 – Wang, Z. (2019, September 27). How Do Library Staff View Librarian Robotics? Librarian Staff’s Ignored Humanistic Views on the Impact and Threat of Robotics Adoption. Retrieved from <http://library.ifla.org/2751/1/s02-2019-wang-en.pdf>

13 – Krieger, Janina. (2022). Artificial Intelligence (AI) in academic libraries: How new AI services can support your library users (webinar).

14 – IFLA Trend Report.(2022). Advances in Artificial Intelligence, available at: <https://trends.ifla.org/literature-review/advances-inartificial-intelligence>

15 – Das, K, R. and Islam, U, S, M. (2021) Application of Artificial Intelligence and Machine Learning in Libraries: A Systematic Review. Available at: <https://arxiv.org/abs/2112.04573>.

16 – Jiang, C. et al. (2020) Research on Application of Artificial Intelligence Technology in Electrical Automation Control. Available at: <https://doi.org/10.1088/1742-6596/1601/5/052006>.

17 – Wang, C., Sha, Z. and Lin, J. (2021) Research on Digital Resource System Construction of Smart Library Based on Computer Network and Artificial Intelligence. Available at: <https://doi.org/10.1088/1742-6596/1952/4/042018>.

دراسة بعض الحالات عند الفتيات المراهقات في النبطية

دراسة ميدانية رقم (1)

Study of some cases among teenage girls in Nabatieh

Field study No.1

زينب شريم

Zeinab chriem

تاريخ القبول 2024/ 4/2

تاريخ الاستلام 2024 /3/20

ملخص

تمحورت دراستنا حول دراسة بعض الحالات عند الفتيات المراهقات في النبطية. إذ أنّ جسدنا هو بداية حضورنا في هذا العالم. وما يتركه من انطباعات لدى الآخرين. وإذا كان جسدنا يخصصنا، فهو أيضاً جسد اجتماعي يتعلّق بحضور الآخر ونظرته إلى هذا الجسد. من هنا كان للثقافة الاجتماعية والروادع الدينية تأثير قوي وضاعط على الفتاة.

وبعد دراسة عشرة حالات من خلال تطبيق ست لوحات من اختبار T.A.T جاءت طبيعة المشكلة (الاكتئاب، الشعور بالعجز والحرمان المادي والعاطفي، الصدمات النفسية والعاطفية، ومشكلة الخسارة والألم الجسدي والمرض).

بالنسبة إلى الحاجات: تبين لنا الحاجة إلى (الدعم والحماية، تجنب الأذى والتهديد، الاستقلالية والتعبير، والتعليم والتشجيع والحاجة إلى الحب).

أما بالنسبة إلى الدفاعات النفسية فكانت (النكوص، سلوك الرفض والهروب، الكبت، والتعويض).

وأما عن نهايات القصص غير السعيدة والتعيسة فكانت في الطليعة وكذلك نهايات غير واضحة (حالات انتظار او عدم يقين).

وهكذا يتبين لنا أنّ الوضع النفسيّ عند الفتاة ليس على ما يرام بسبب الإهمال أو القسوة من جانب الأهل فضلاً عن ضغوط البيئة التي تشكّل أرضية مشتركة من خلال الثقافة الاجتماعيّة الدينيّة المهيمنة.

تشير إلى أنّ نهايات القصص التي أعطتها الفتيات في رائر T.A.T حيث جاءت هذه النهايات تعيسة وسلبية. وهذا يثبت وجود ميول اكتئابيّة مقنّعة أو لنقل ألماً مكبوتاً. إن ما تحتاجه الفتاة، بالدرجة الأولى، هو الدّعم والحماية لتجنّب الأذى والتّهديد وقساوة الضّغوط المفروضة عليها بما في ذلك الضّغوط الناتجة عن الرّوادع الدينيّة والاجتماعيّة.

Abstract

Our study focused on studying some cases among teenage girls in Nabatieh. Where our body is our presence in our world. It is also a social body related to the presence of others and their view of this body. Hence, social culture and religious deterrents had a strong and pressuring influence on the girl.

After studying ten cases by applying six panels of T.A.T tests, the nature of the problem was (Depression feeling of helplessness and material and emotional deprivation, psychological and emotional trauma, and the problem of loss, physical pain and illness.)

Regarding needs, it shows us the need for (support and protection, avoiding harm and threats, independence and expression, education and encouragement, and the need for love.)

As for psychological defenses, they were (recidivism, rejection and escape behavior, repression, and compensation.)

As for the endings of unhappy stories, they were at the forefront, as were unclear endings (cases of waiting or uncertainty.)

Thus, it becomes clear to us that the psychological situation of the girl is not well due to neglect or cruelty on the part of the family, as well as the pressures of the environment that constitute a common ground through the dominant social and religious culture. The endings of the stories that the girls gave in the T.A.T test indicate that these endings came from

unhappy and negative .This proves the presence of disguised depressive tendencies, or to convey repressed pain.

What the girl needs, first, is support and protection to avoid harm, threats, and harsh pressures imposed on her, including pressure resulting from religious and social deterrents?

المقدمة

جسدنا هو بداية حضورنا في هذا العالم وما يتركه من انطباعات لدى الآخرين. وإذا كان جسدنا يخصصنا، فهو أيضاً جسد اجتماعي يتعلّق بحضور الآخر و نظرته إلى هذا الجسد. من هنا كان للثقافة الاجتماعية والروادع الدينية تأثير قوي وضغط على الفتاة. إنّ هذا الموضوع كان يثير فينا دائماً الرغبة في فهمنا لمسارات الصحة النفسية لدى المراهقات في مدارس النبطية المتنوعة (دينية، رسمية، إرسالية و علمانية). وهل تختلف آثار الروادع الدينية والاجتماعية عند الفتيات بحسب نوع المدرسة، وكيف تظهر تلك الآثار في أفكار الفتاة المراهقة وفي مشاعرها الظاهرة والمكبوتة وكذلك في اتجاهاتها وسلوكها.

لقد أردنا أن نقوم بتشريح نفسيّ لعدد من الفتيات اللواتي يعانين من بعض الاضطرابات النفسية وما ينقصهنّ من حاجات، كيف ترد الفتاة على الضغوط من خلال الدفاعات النفسية الإيجابية والسلبية الخ.

وهو يضمّ مجموعة من اللوحات وكل لوحة T.A.T اعتمدنا تطبيق رائد ذات الوضعيّات والمواقف الإنسانية المتنوعة التي تدلّ على الأزمات النفسية وعمليات التماهي ووسائل الدفاع النفسيّ. نطلب إلى الفتاة ان تروي لنا قصة كاملة عن كل لوحة نعرضها عليها، ثم نسجّل الأجوبة ونعمد بعد ذلك إلى تحليلها بحسب بروتوكول علميّ يساعدنا على رسم بروفيّل كامل لشخصية الفتاة وأوضاعها النفسية فضلاً عن الحلول التي تطرحها.

قمنا بدراسة عشر حالات بصورة معمقة وسوف نكتفي هنا في هذا البحث بعرض ثلاث حالات فقط، لأنّ عرض مجمل الحالات يستغرق حوالي خمسين صفحة. لكننا

سوف نقدّم في نهاية هذه المقالة توليفة تختصر مجمل النتائج التي توصنا إليها.

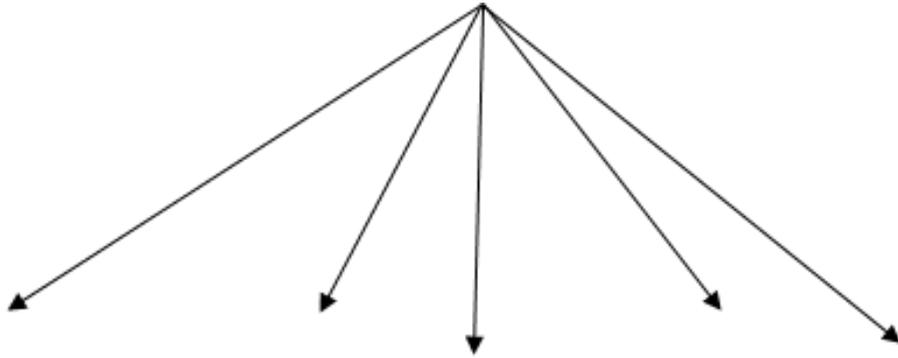
الرّوادع الدّينيّة والاجتماعيّة (ضغوط بيئية)

الرّوادع الدّينيّة والاجتماعيّة

(ضغوط البيئية)

المتغير المستقل

اضطرابات صورة الجسد



مستوى تقدير الذات

الاكتئاب

القلق

الوسواس القهريّ التّفاؤل

«إنّ صورة الجسد هي مفتاح الرّاحة النّفسية أو الاضطراب عند الفتاة (أو المرأة) لأنّها تشكّل الصّورة الدّهنيّة التي تكوّنّها عن نفسها وشخصيتها» (يعقوب، 2019) فكما كان موقف الآخرين من جسد الفتاة إيجابياً فإنّ الاضطرابات النّفسية قد تنخفض ويرتفع مستوى قبول صورة الجسد وتقدير الذات. أما عندما تتفاقم الضّغوط والرّوادع الدّينيّة، فتكون احتمالات تشوّه صورة الجسد قائمة وتترافق مع اضطرابات نفسية متنوّعة.

إنّ الهدف من هذا البحث هو التّحقّق من مدى تأثير تلك الضّغوط في صورة الجسد وما يرافقه من اضطرابات عند الفتاة قد تؤثّر سلبيّاً في صحّتها النّفسية بسبب وطأة الكبت وضغوط الأنا الأعلى. ما قد يحدث خلافاً في عملية التّكامل والتّفاعل بين عوامل ثلاثة هي الجسد والتّفكير والانفعال. مع الإشارة إلى أنّه قد يظهر عكس ذلك تماماً.

إنّ الرّوادع الاجتماعيّة والدينيّة المفروضة على الفتاة قد يكون لها تأثير كبير في بناء شخصيتها وسلوكها بالإضافة إلى تأثير هذه الرّوادع على نظرتها إلى جسدها. سيصار من خلال هذه الدراسة إلى تحديد مدى تأثير تلك الرّوادع في صورة الجسد لدى الفتاة المراهقة.

الهدف

إنّ الهدف من هذا البحث هو التّحقّق من مدى تأثير تلك الضّغوطات في صورة الجسد وما يرافقه من اضطرابات عند الفتاة.

الفائدة العلميّة المرجوة من البحث

يهدف هذا البحث إلى تحديد مدى قدرة الفتاة على التّكيف مع الضّغوط الدينيّة الثقافيّة وما تتركه من آثار سلبية أو إيجابية. وكيف تواجه الفتاة تلك الضّغوط، وكيف تؤثر وتتعامل معها في نظرتها إلى جسدها وإلى نفسها.

هذه دراسة نفسيّة تربويّة اجتماعيّة قد تكشف عن كيفية تشكّل مسارات التّمو الانفعاليّ والمعرفيّ والاجتماعيّ. وقد يقدّم لنا هذا البحث بعض النّتائج التي تفيدنا في فهم ملابسات التّمو الانفعاليّ عند الفتيات وكيف يمكن تعديل أسلوب التّنشئة الاجتماعيّة من أجل درء الأخطار النفسيّة ومن ثمّ تحسين ظروف الصّحة النفسيّة، فالهدف هو فهم المعاناة. وبعد ذلك يصبح بالإمكان تحديد استراتيجيّات التّدخل للمساعدة المطلوبة. عمدنا إلى تطبيق ست لوحات متخصصة للناث من اختبار T.A.T

1 - الحالة الأولى: (R)

الوضعية العامّة

الفتاة (R) في السّادسة عشرة من عمرها، وهي في الصّف الثّانويّ الأوّل. الأب يعمل في مجال صب الباطون (نجار باطون)، المدخول الشّهريّ كحدّ وسطيّ ثمانماية ألف ليرة لا غير، والأم تتولّى إدارة المنزل وتربية الأولاد، وعلاقتها مع أفراد العائلة شبه مستقرّة. تتحو بعاطفتها نحو الأب أكثر من الأم، وتعدّه الأقرب إليها، ولكن لا وقت لديه لمتابعها والجلوس معها، يأتي نهاية النّهار ويكون منهكاً من العمل، يقوم الجو العائليّ على شجار شبه دائم بين الأب والأم لأسباب اقتصاديّة بالدرّجة الأولى. أما تحصيل

الفتاة الدّراسي فهو في حدود الوسط، وينتابها من وقت لآخر شعور بالفراغ والملل وتعاني من الوحدة، إذ لا يوجد لديها صديقة تثق بها.

اختبار تفهم الموضوع T.A.T:

عرضنا عليها بطاقات تفهم الموضوع السّت فكانت إجاباتها كالآتي:

(1) - فتاة أمام صحن من الطّعام، وهي تنظر إليه، ولا تعرف كيف تأكل منه، إنّها فتاة فقيرة حزينة، جائعة ترفض تناول الطّعام على الرّغم من شعورها بالجوع، يظهر الأسى والحزن في عيني الفتاة، بالإضافة للهموم التي ترافقها.

تجاهلت الآلة الموسيقية، وشاهدت أمامها طبقاً من الطّعام، وهي في حالة جوع، لكنها ترفض تناول الطّعام. وكأنّها تعاقب نفسها على شيء ما، حيث تنظر إلى الطّعام مثلما ينظر الإنسان العطشان إلى كوب مياه في الصّحراء، فهي تبيّن لنا كم هي بحاجة إلى الطّعام وتقوم برفضه.

3GF - رجل يواجه مشاكل كثيرة ومتراكمة في حياته، ويظهر عليه التّعب والحزن، ومن شدّة الألم النّفسيّ فقد توازنه، وألقى بيده على الباب لكي يستند إليه خوفاً من الوقوع، ودموعه تنهمر على وجنتيه من شدّة الوجع والألم.

تحكي عن رجل حزين متعب كثير المشاكل، يقف عاجزاً عن حلّ مشاكله، رجل منهار من شدّة الإعياء، يعاني من ألم نفسيّ كبير، وعنده يأس من حلّ المشاكل الذي يتعرض لها.

7GF - أم تجلس مع ابنتها لترشدها وتقوم بتوعيتها، وتقدّم لها النّصائح لكي لا تقع في الخطأ، وتحذّرها من المجتمع الذي ينتشر فيه الفساد. لكنّ الابنة غير مكترثة لكلام والدتها.

أم خائفة على ابنتها من المجتمع الذي تنتمي إليه، وتريد أن تحميها من الفساد التي لم تذكر نوعه، ولكن الابنة منزعجة، ولا تتقبل كلام والدتها.

فتاة حزينة كئيبة، أصيبت بخيبة أمل، عاجزة عن إصلاح ما تخرب، ولكنها جالسة تتأمّل وتحلم بصديق يأتي صدفة لينقذها من قسوة الحياة، ومن المخالب التي تخدشها

كل يوم، واختارت الصّمت والانتظار كحلّ مؤقت لوضعها على أمل أن يأتي أحد لإنقاذها.

9GF - امرأة هاربة من رجل يريد إيذاءها، ويحمل بيده كتابًا وكيسًا، ويراقبها، والمرأة خائفة تنتظر أحدًا لإنقاذها من خطر الرجل الذي يلاحقها.

18GF - أم تودع ولدها الذي قضى برصاصة، تضمه إلى صدرها وتخاطبه بألم وحسرة لتخبره انها لم تعد تستطيع أن تراه وتكلّمه بعد اليوم. فقد تركها للحزن والألم، وتندبه على أنه كان كالحلم في حياتها فهي لم تهناً بوجوده معها، فقد تركها ولم يبق لها غير البكاء على فراقه.

ان الأسلوب الجيّد يشير إلى أنّ الفتاة تملك بعض الطّاقات ولكنها مكبوتة، ولا أحد يشجعها أو يدعمها بل أنّ هناك ضغوطاً خارجية تُفرض عليها.

إن صورة البطل في القصص المذكورة تبدو كئيبة وحزينة هاربة من واقعها السيء، لقد تكرّرت الحاجة إلى المساعدة والدّعم والمواساة وتجنّب الأذى والحاجة إلى النّجدة. أما العلاقة مع الآخرين فهي مؤذية ومهدّدة. فالفتاة تعيش في بيئة قاسية وغير داعمة. لذا فهي تعاني الحرمان الماديّ والعاطفيّ بالإضافة إلى الاكتئاب والقلق والخوف من الأذى. ومن الملاحظ إنّها قد تعرّضت لصدمة نفسية لم تستطع الخروج منها إلاّ بمساعدة أحد الاشخاص.

علاوة على ذلك جاءت دفاعاتها النفسيّة سلبية في معظم الأحيان: الدّفاع المازوشي والتّكوص والكبت والهروب والانتظار ونكران الواقع.

إذا نحن أمام مشكلة نفسيّة تتمثّل في الدّرجة الأولى بظهور الوسواس القهري بشدّة في المدارس الملتزمة دينياً، وقد تبين، بالإضافة لما تقدّم، وجود ميول اكتئابيّة مرتبطة باليأس.

علاوة على ذلك، نشير إلى أنّ نهايات القصص التي أعطتها الفتيات في رائز T.A. حيث جاءت هذه النهايات تعيسة وسلبية. وهذا يثبت وجود ميول اكتئابيّة مقنعة أو لنقل ألماً مكبوتاً.

إن ما تحتاجه الفتاة، بالدرجة الأولى، هو الدعم والحماية لتجنّب الأذى والتّهديد وقساوة الضّغوط المفروضة عليها بما في ذلك الضّغوط الناتجة عن الرّوادع الدّينيّة.

جاءت مشكلة الاكتئاب والشّعور بالعجز من الطّليعة من مجمل التّشكيلات القائمة

- مشكلة الحرمان الماديّ (الفقر) والحرمان العاطفيّ

- الصّدّات النّفسيّة والعاطفيّة.

- مشكلة الخسارة (خسارة أحد الاعزاء).

- مشكلة الالم الجسديّ والمرض.

- القلق.

- الدّفاعات النّفسيّة

- الحاجات

- الحاجة إلى الدّعم والحماية

- تجنب الأذى والتّهديد

- الحاجة إلى الاستقلاليّة والتّعبير

- الحاجة إلى التّعلّم والتّشجيع

- الحاجة إلى الحبّ (العلاقة مع الآخر)

الدّفاعات النّفسيّة

- النّكوص الذي يعني التّراجع في عملية التّمور الانفعاليّ وتدني المرونة النّفسيّة.

- سلوك الرّفص والهروب كتعبير سلبيّ عن الرّغبة في الاستقلاليّة و التّحرّر من ضغط الأنا الأعلى في المجتمع.

- الكبت الذي يدلّ على كبت المشاعر واحتباس الانفعالات السّليبيّة المؤلمة.

- التّعويض كوسيلة إيجابيّة لترميم الوضع والخروج من المشكلة.

مقابل التعويض جاء التمرد كوسيلة احتجاجية ضد ضغط البيئة المتزايد أو تخاذل الأنا أن تتمرد على قساوة الأهل والبيئة وترفض احتجاز حرية الذات (مثل الزواج المبكر).
الدفاع المازوشي الذي يعني ارتداد القسوة إلى الذات.

الغيرة التي تدلّ على تحمّل الفتاة مسؤوليات عائلية تفوق قدرتها بعد حصول تغييرات دراماتيكية (طلاق أو وفاة).

2 - الحالة الثانية (F)

الوضعية العامة:

الفتاة (F) في الخامسة عشرة من عمرها، وهي في الأول ثانوي، والدها يملك دكان للسّمانة في البلدة، وقد وصل في دراسته إلى المرحلة المتوسطة، أما الأم فهي ربة منزل وتهتم بتربية الأولاد، إنّ علاقتها بأفراد عائلتها شبه متوترة ومن الصعب التّفاهم معهم.

اختبار تفهم الموضوع T.A.T:

عرضنا عليها بطاقات تفهم الموضوع فكانت إجاباتها كالآتي:

(1) فتاة أمام آلة موسيقية، تنظر إليها بحزن لأنّها لا تجيد العزف عليها، ولديها رغبة شديدة لتتعلّم العزف، ولكن الأهل لا يؤيدون فكرتها ولا يسعون إلى تحقيق رغبتها بتعلّم الموسيقى، ما جعلها تشعر بالحزن والكآبة، وترى أنّ التعلّم يدفع بالإنسان لأن يصبح أكثر ذكاء.

3GF - شخص يعاني من الحزن والاكتئاب وهو فاقد للأمل في الحياة لأنّ مشاكله كثيرة ولا يستطيع حلّها، كما أنّ لا أحد يهتم بمصلحته كالأهل والأصدقاء، وهذا الوضع يجعله يعاني من صداع شديد.

7GF - أم حزينة على ابنتها التي تزوجت باكراً وأنجبت، حرمت من طفولتها بسبب الإنجاب والمسؤولية التي تقع على عاتق الابنة لتربية طفل صغير، والأم تنظر إليها بحسرة بسبب وضعها، ولكن في آخر سطرين من القصة تقول بأنّ الابنة فرحة بوجود شقيق لها، والأم تنظر إليها نظرات فرح. إنّها تُعبّر بصورة جسدها عن حزنها بلباسها الأسود (اللون الأسود في مجتمعنا يعبر عن الحداد والحزن).

8GF - فتاة حزينة كئيبة، تحلم بحياة أفضل، بعيدة عن المشاكل، وأشارت إلى ألم في القلب ربما خذلت من محبوب.

9GF - إنها الأميرة الهاربة، أو عائدة من مكان تأخرت فيه وأحدهم يلاحقها وهي خائفة.

18GF - أم حزينة على ابنها لفقدانه، وقلب الأم لا يتقبل تلك العبارة ولاسيما بخصوص أبنائها.

البطل لكل قصة بالتدرج:

(1) - فتاة حزينة ومحبطة.

3GF - رجل كئيب فاقد الأمل.

7GF - فتاة زوّجت في سن مبكرة.

8GF - فتاة حزينة.

9GF - أميرة هاربة.

18GF - أم ثكلى.

حاجات البطل

(1) - الحاجة إلى التعلّم والتشجيع.

3GF - الحاجة إلى الدّعم والمساعدة.

7GF - الحاجة إلى الدّعم.

8GF - الحاجة إلى الدّعم.

9GF - الحاجة إلى الحماية.

18GF - الدّعم والمواساة.

طبيعة العلاقة مع البيئة

- (1) - مسيطرة وغير داعمة.
- 3GF _ باعثة على الإحباط والإهمال.
- 7GF - سيطرة ثم تعاطف.
- 8GF - البيئة باعثة على الإحباط والمشاكل.
- 9GF - بيئة باعثة على الخوف والملاحقة.
- 18GF - البيئة باعثة على الحزن والحداد.

طبيعة القلق

- (1) - الشّعور بالعجز والكآبة.
- 3GF _ الشّعور بالعجز والكآبة.
- 7GF - ضغط نفسيّ (مسؤولية).
- 8GF - اكتئاب وصدمة عاطفية.
- 9GF - الخوف والقلق.
- 18GF - خسارة وصدمة كبرى.

إنّ مشاعر الخوف والحرمان والكآبة تسيطر على الفتاة التي تشعر بالوحدة وعدم الأمان والطمأنينة داخل أسرتها وفي المجتمع، وهذا الشّعور بالاهمال يولّد لديها الاكتئاب وخاصة في غياب الدّعم الأسريّ والدّعم الاجتماعيّ لها.

نوع الدّفاع النّفسيّ

- (1) - نكوص.
- 3GF - نكوص
- 7GF - نكوص
- 8GF - نكوص

9GF - هروب

18GF - إنهيار واستسلام للقدر.

نظام الأنا وقساوة الأنا الأعلى:

(1) - الأنا مستسلمة والأنا الأعلى قاسية.

3GF - الأنا ضعيفة ومستسلمة والأنا الأعلى غير مبالية.

7GF - الأنا ضعيفة تعتمد على الأنا الأعلى (الأم).

8GF - الأنا ضعيفة ونادمة

9GF - الأنا متبصرة وتدرك الخطر.

18GF - الأنا منهارة.

1 - الأنا قوية وتواجه وتتحدى الصعاب في القصة

3GF - تتخذ قراراً بالعمل ومساعدة العائلة مادياً.

7GF - تتحدى أختها وترفض الزواج في سن مبكرة.

9GF - قررت أن ترى حبيبها بالرغم من معارضة الأب، ولكن سلطة الأنا

الأعلى (الأب) دفعتها إلى الهروب من حبيبها، والكذب على أبيها بإنها تلحق به إلى الغابة لكي لا يؤذيه. أما في بقية القصص فالأنا ضعيفة تلتزم بالعادات الاجتماعية، والأنا الأعلى متسلطة.

من هنا نرى ان الأنا الأعلى (الأهل والمجتمع) مسيطرة ومحبطة مما يدفع الفتاة إلى حافة اليأس والاكتئاب.

نهاية القصة

(1) حل واقعي لإرضاء المجتمع، حالة نكران الذات بتجاهل الآلة الموسيقية التي تحب، ورؤيتها على أنها ماكينة الخياطة التي تدلّ على المهنة التي تعناش منها وتساعد أهلها، وقد حرمت نفسها من التعليم لتحمي وتساعدها.

3GF - نهاية تعيسة، حرمان الأم من أبنائها وطلاقها، وتشتت العائلة والمعاناة، وفي أثناء كتابتها للقصة ظهر التوتر والقلق، كانت مترددة ومنفعلة وظهر ترددها بكثرة حيث شطبت بعض الكلمات والجمل في القصة.

7GF- ناجمة بظهور فتاة متمرده رافضة للزواج لصغر سنها، ترفض تحمل المسؤولية، وتعتبر ان الزواج المبكر يعد جريمة بحق الطفولة.

8GF - الحل واقعي بالنسبة للمجتمع: إن وجود الفتاة في العائلة هو لتحمل المسؤولية وتشارك في تربية أخوتها في حال غياب الأم.

9GF - الحل واقعي، في البداية حاولت أن تتحدّى الأب وتخرج مع ابن عمها سرّاً، ولكن قسوة الأنا الأعلى (والدها) جعلتها تتراجع عن الخروج مع ابن عمها لتحميه.

18GF - نهاية مأساوية وتعيسة. الأنا ضعيفة مستسلمة، لم تستطع اسعاف أخيها، وهي تعاني من قسوة المجتمع.

نلاحظ من أن نهاية القصص تدلّ على الاكتئاب واليأس وقسوة المجتمع على الفتاة.

نمط سرد القصص

(1) - أسلوب جيّد

3GF - أسلوب محدود.

7GF - أسلوب ضعيف غير متماسك.

8GF - أسلوب ضعيف غير متماسك.

9GF - أسلوب مقبول.

18GF - أسلوب مقبول.

أسلوب ضعيف، وانما نستطيع أن نفهم القصة والفكرة المقصودة، ولكن بالرغم من حالة الحرمان التي تعيشها الفتاة فهي تحاول النهوض والمساعدة، وتحمل المسؤولية. أثناء تطبيق الاختبار ظهر واضحاً لديها التوتر والخوف والقلق. سألت كثيراً (شو يعني، فيكي تكتشفي شي، بدو حدا يشوفن غيرك؟).

أسلوب ضعيف وأفكار ضعيفة ما يدلّ على التوتّر والكبت والاكتئاب لدى الفتاة، بالإضافة إلى الأخطاء الإملائية.

3 - الحالة الثالثة: (N)

الوضعية العامة:

الفتاة (N) لها من العمر أربعة عشرة عامًا، وهي في الرّابع المتوسط، والدها عامل يوميّ، درس لغاية الأول الثّانويّ، ويكبر زوجه بتسع سنوات، علاقته مع أولاده عادية. الأم وصلت لغاية الرّابع المتوسط، وهي مسؤولة عن إدارة المنزل وتربية الأولاد، وعلاقتها بأفراد عائلتها شبه متوتّرة فهي لا تجيد التّعامل معهم. تعيش في منزل متوسط الحال، لا يتّسع كفاية لأفراد العائلة، توجد بعض المشاكل سببها في أغلب الأوقات الضيق الماديّ.

اختبار تفهم الموضوع T.A.T:

عرضنا عليها بطاقات تفهم الموضوع وكانت إجاباتها كالآتي:

(1) عايدة تحب الموسيقى، وتحب أن تتعلمها، وتعتبر الموسيقى غذاء الروح، ولديها رغبة قويّة بتعلم الموسيقى، أخذت قرارها بتعلّم الموسيقى مهما كانت النتائج، أي على (عائقها).

3GF - الياس يفقد أباه بعد معاناته لمرض عضال لمدة عشر سنين، كان يرعاه ويهتم به، وذات يوم ساءت حالته الصّحيّة فقام بنقله إلى المستشفى، ولكن لم يستطع أحد إنقاذه فتوفي الأب تاركًا الياس وحده يتألّم من فراق والده الذي يحبه كثيرًا وانهار من شدة الحزن.

7GF - ابنة تعيش صراعًا بين قناعاتها، وبين رأي والدتها، والتي تنصحها بارتداء الحجاب وتقنعها بالالتزام بالخط الدّينيّ، ورضى الله أهمّ من رضى الناس إذ إنّ الابنة أصبحت في سن التّكليف الشّرعيّ الذي يلزمها ارتداء الحجاب (التّاسعة من عمرها)، لكن الفتاة ترفض ان تستمع لكلام والدتها حيث تحمل الحجاب بيدها وتفكر، محتارة، بأصدقائها الذين سيسخرون منها من جهة، وبكلام والدتها. فهي تعيش صراعًا بين ما هو مطلوب دينيًّا وما هو مطلوب اجتماعيًّا، ولكن في النّهاية غلب رأي الأهل، وباتت

تعدّ نفسها محظوظة بوالدين يرشدها لتتال مرتبة التقوى ورضى الله.

8GF_ فتاة تحلم بتغيير نمط حياتها إلى الأفضل، والفقر والحاجة يمنعاها من تحقيق أحلامها، وتأمين حاجاتها يكون مثلاً عبر اقتناء هاتف خلوي لكي تواكب التطور إسهة برفاقها. والفقر جعلها فتاة حزينة تشعر بالحرمان وتتمنى حياة أفضل.

9GF_ زمرد أحبّت شخصاً فقيراً، وهي ابنة المليونير الذي لا يرفض لها طلب وتعيش حياة الرّفاهية. رفض الأب تزويجها نظراً للفرق الاجتماعيّ، ولكنها تحدّث والدها وهربت مع من تحب، وكان أحمد يراقبها من خلف الشجرة وخائف عليها، فالحب بالنسبة لزمرد هو أساس الحياة وشريانها وليس المال كما يعتقد أباه.

18GF_ العمّة ليلي، التي تقطن بجانب بيت أخيها، والتي توفي زوجها فأصبحت مسؤولة عن عائلتها لوحدها في إحدى الليالي أحسّت على شخص يتردّد إلى منزلها في ساعة متأخرة من اللّيل، فقرّرت المراقبة والانتظار تحت الدّرج. وعند منتصف الليل جاء سارق، فهجمت عليه وقتلته لكي تحمي عائلتها.

البطل لكلّ قصة بالتدرج:

(1)_ فتاة طموحة تحب أن تتعلّم الموسيقى.

3GF _ الياس حزين على والده الذي توفي.

7GF_ ابنة حائرة بين ارتدائها للحجاب وعدمه، فهي تريد أن تكون مثل رفيقاتها، ولكن والدتها تدفعها لارتداء الحجاب لأنّها أصبحت في سن التّكليف، وفي النّهاية استسلمت لرأي الأم.

8GF_ فتاة كئيبة وتحلم بتغيير حياتها والخروج من حال الفقر.

9GF_ أميرة هاربة مع حبيبها تاركة وراءها المال والجاه، وترى أنّ الحبّ أهمّ من المال.

18GF_ أم قتلت سارقاً في منزلها لكي تحمي عائلتها.

حاجات البطل

(1)_ الحاجة إلى التعلّم.

3GF _ الحاجة إلى الدّعم والمواساة.

7GF_ الحاجة إلى الاستقلاليّة من جهة والانتماء من جهة أخرى.

8GF_ الحاجة إلى حياة أفضل والتخلّص من حالة الفقر .

9GF_ الحاجة إلى الحبّ. فأميرة تركت الجاه والمال لتلتحق بحبيبها.

18GF_ الحاجة إلى إزالة الخطر والأذى.

طبيعة العلاقة مع البيئة

(1)_ البيئة غائبة.

3GF _ بيئة باعثة على الألم والحداد.

7GF _ مسيطرة (أم تسيطر على ابنتها بفرض رأيها بالترهيب بالعقاب الإلهي).

8GF _ بيئة باعثة على الإحباط والحرمان.

9GF_ البيئة العائلية باردة وغير متعاطفة (ماديّة فقط).

18GF_ البيئة باعثة على الألم والخطر.

طبيعة القلق

(1) لا قلق بل طموح ورغبة في التعلّم.

3GF _ خسارة وحزن.

7GF_ قلق ناجم عن الصراع بين حاجة الفتاة للاستقلالية وضغط الأهل (الأم).

8GF_ الحرمان الماديّ والفقر .

9GF_ الحرمان العاطفيّ والتمرد.

18GF_ القلق والخوف من الأذى الاعتداء.

إنّ مشاعر الخوف والحرمان والقلق تسيطر على الفتاة التي تشعر بالحرمان وعدم الأمان داخل أسرتها وفي المجتمع.

نوع الدفاع النفسي

(1)_ تعويض (التعلم).

3GF _ نكوص.

7GF _ استسلام لسيطرة الأنا الأعلى.

8GF _ نكوص وانتظار في المجهول.

9GF _ سلوك اندفاعي متهور.

18GF _ سلوك عدواني (جريمة).

الأنا ضعيفة تعتمد آليات دفاع سلبية بصورة عامة (نكوص، اندفاعية، عدوانية) وأحياناً قليلة يلجأ إلى الدفاعات الجيدة كالتعويض في اللوحة الأولى.

نظام الأنا وقساوة الأنا الأعلى:

(1)_ الأنا قوية، توكيد الذات.

3GF _ الأنا ضعيفة ومستسلمة للقدر، وتكيف ضعيف.

7GF _ الأنا تستسلم للأنا الأعلى.

8GF _ الأنا حزينة مستسلمة للواقع الأليم (حرمان مادي).

9GF _ الأنا متمردة وتحذت الأنا الأعلى بالهروب (اندفاعية).

18GF _ اندفاعية منحرفة (قتل).

نهاية القصة

(1)_ حل واقعي لتعلم الموسيقى وتعليمها ونهاية سعيدة.

3GF _ نهاية تعيسة، موت والد الياس، الذي عاش ألم الفراق.

7GF _ حل واقعي واستسلام لرأي الأهل.

8GF_ الحل غير واقعي، النهاية انتظار في المجهول.

9GF_ الحل غير واقعي، ونهاية مجهولة مخوفة بالمخاطر.

18GF_ مأساوية لأم قتلت السارق.

نهاية القصة تشير إلى وجود اضطراب في هوية الفتاة وميل إلى الحلول الوهمية (أحلام) والنهيات المجهولة وغير السعيدة مقابل نهايتين فيهما شيء من الإيجابية: الرضوخ لمشية الأهل والرغبة في التعلم وتحمل المسؤولية.

نمط سرد القصة

(1)_ أسلوب جيد.

3GF_ نص مترابط ويوجد قصة.

7GF_ نص مترابط ويوجد قصة.

8GF_ أسلوب ضعيف ونص وصفي لوضع الفتاة.

9GF_ أسلوب مترابط ويوجد نص لقصة.

18GF_ أسلوب غير مترابط.

أسلوب مترابط بشكل عام، ونستطيع أن نفهم القصة والفكرة المقصودة، ولكن بالرغم من حالة الحرمان التي تعيشها الفتاة فهي تحاول النهوض وتحمل المسؤولية، ولكن اذا توفّر لها الدعم العائلي والاجتماعي فإنها تستطيع تخطي حالة القلق والصراع النفسي.

تفسير نتائج اختبار T.A.T ومناقشتها

الخلاصة

بعد أن درسنا عشر حالات لا بدّ الآن من القيام بتوليفة نستطيع من خلالها أن نقدّم بروفيلاً لأهم المحاور، توصلنا إلى فرز النتائج وتبويبها، وهي: طبيعة المشكلة، الدّفاعات النفسيّة، الحاجات، ونهايات القصة. وقد توصلنا إلى ما يلي:

1_ طبيعة المشكلة:

جاءت مشكلة الاكتئاب والشّعور بالعجز في الطليعة وبلغت %37.7 من مجمل المشكلات القائمة، وهناك مشكلة الحرمان المادي (الفقر) والحرمان العاطفي بنسبة %22.22، ثم جاءت الصدمات النفسية والعاطفية بنسبة %15.55 وبعدها مشكلة الخسارة (خسارة أحد الأعمام أو الأهل) بنسبة %13.44، ومشكلة الألم الجسدي والمرض بنسبة %6.66، وأخيراً جاء القلق بنسبة %4.44.

2_ الدّفاعات النفسيّة:

أهم آلية دفاعية ظهرت عند الفتيات في الحالات المدروسة كان التّكوص الذي يعني التراجع في عملية النّمو الانفعاليّ وتدني المرونة النفسيّة، وقد وصلت نسبته إلى %48.14.

بعد التّكوص جاء سلوك الرفض والهروب كتعبير سلبيّ عن الرّغبة في الاستقلاليّة والتّحرر من ضغط الأنا الأعلى والمجتمع بنسبة %16.66، ثم جاء الكبت بنسبة %11.11 ما يدلّ على كبت المشاعر واحتباس الانفعالات السّلبية المؤلمة. بعد ذلك جاء التّعويض كوسيلة إيجابية لترميم الوضع والخروج من المشكلة، وهذا التّعويض يدعم عملية النّمو النفسيّ. مقابل التّعويض جاء التمرد كوسيلة احتجاجية ضد ضغط البيئة المتزايد، إذ تحاول الأنا في هذه الوضعية أن تتمرد على قساوة الأهل والبيئة وترفض احتجاز حرية الدّات (مثال الزواج المبكر) وقد بلغت نسبة ذلك %7.40. ومن الدّفاعات السّلبية نذكر أيضاً الدّفاع المازوشيّ الذي يعني ارتداد القسوة إلى الدّات مصحوباً بعذاب الضّمير والشّعور بالذّنب. والدّفاع المازوشيّ يدخل في باب اضطراب الاكتئاب. وتأتي أخيراً الغيرية بنسبة %3.70 التي تدلّ على تحمّل الفتاة لمسؤوليات عائليّة تفوق قدرتها بعد حدوث تغيير دراماتيكي في ظروف الأسرة (الطلاق أو مرض أحد الوالدين أو وفاتهما).

3_ الحاجات:

إنّ الحاجة الأولى والملحة عند الفتاة هي الحاجة إلى الدّعم والحماية بنسبة %60. وهذا يدلّ على خلل في تربية الأبناء بحيث لا يعير الأهل الاهتمام اللازم لتلبية هذه

الحاجة (ومرد ذلك إلى المستوى الثقافي المتدني عند الأهل والضيق الاقتصادي وحجم العائلة الكبير). أما الحاجة الثانية الملحة فهي تجنب الأذى والتهديد من جانب الأهل أو أشخاص البيئة، وقد بلغت نسبة الحاجة الثانية %14.54. تأتي بعد ذلك الحاجة إلى الاستقلالية والتعبير عن الذات بنسبة %10.10. وهذه الحاجة تلقى معارضة شديدة من جانب الأهل والمجتمع. أما الحاجة إلى التعلّم والتشجيع فقد بلغت %0.9 مقابل الحاجة إلى الحب (العلاقة مع الآخر) والتي بلغت نسبتها %4.5 لتكون في المرتبة الدنيا. وهذا الأمر قد يعود إلى الخوف من المجتمع ومن الكبت العاطفي أيضاً.

4_ نهاية القصص:

النهايات غير السعيدة أو التعيسة تمثل النسبة الأعلى ووصلت إلى %84 مقابل النهايات السعيدة التي وصلت نسبتها إلى %10 والنهايات غير الواضحة (في حالة انتظار أو عدم يقين) والتي بلغت نسبتها %6.

وهكذا يتبين لنا أنّ الوضع النفسي عند الفتاة ليس على ما يرام بسبب الإهمال أو القسوة من جانب الأهل فضلاً عن ضغوط البيئة التي تشكل أرضية مشتركة من خلال الثقافة الاجتماعية الدينية المهيمنة.

نشير إلى أن نهايات القصص التي أعطتها الفتيات في روائز T.A.T جاءت تعيسة وسلبية. وهذا يثبت وجود ميول اكتئابية مقنعة أو لنقل ألماً مكبوتاً.

إن ما تحتاجه الفتاة، بالدرجة الأولى، هو الدعم والحماية لتجنب الأذى والتهديد وقساوة الضغوط المفروضة عليها بما في ذلك الضغوط الناتجة عن الروادع الدينية.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

1. دمعة، ل. & يعقوب، غ. (1992). سيكولوجيا النّمو عند المراهق. دار النهار للنّشر.
2. دمعة، ل. & يعقوب، غ. (2015). المعجم الموسوعي في علم النفس : عربي-فرنسي-إنجليزي : مصطلحات، مدارس، نظريات، مناه. مكتبة لبنان ناشرون.
3. زهران، ح. (2005). علم نفس النّمو الطفولة والمراهقة (م 5). القاهرة: عالم الكتب.
4. فياض، م. (2000). فخ الجسد. دار النهضة العربية.
5. مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث «كوثر». (2007). الفتاة العربيّة المراهقة: الواقع والآفاق. المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.
6. يعقوب، غ. (2014). الثروة الفكرية لدى المراهقين. دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
7. يعقوب، غ. (2018). كيف نتغلّب على اضطرابات الوسواس بالعلاج النفسي. الدار العربية للعلوم ناشرون.

المصادر الأجنبية

1. Dolto، F. (1984). L'image Inconsciente du Corps. Seuil.
2. Schilder، P. (1984). L'image du Corps. Gallimard.
3. Sillamy، N. (1980). Dictionnaire Encyclopédique de Psychologie. Bordas.

وسائل التّواصل الاجتماعيّ وانعكاساتها على الحياة الزوجيّة
(تطبيق واتس_آب نموذجًا)

**Social media and its repercussions on marital life
(WhatsApp application as an example)**

عبير قاسم صلاح

Abeer Qasim Salah

تاريخ القبول 2024 /9/22

تاريخ الاستلام 2024 /9/6

ملخص

حاولت الدّراسة الحاليّة الكشف عن دور تطبيق الواتس آب وتأثيره على عادات وتقاليده وقيم الحياة الزوجيّة لدى الأزواج في منطقة بيروت الحمراء، إذ توصلت الدّراسة في جانبها النظريّ إلى معرفة وضبط بعض المفاهيم المتعلّقة بمتغيّرات الدّراسة من عادات وتقاليده وقيم وإدمان وسائل التّواصل، وما هي أهمّ الأعراض التي تظهر على الفرد كي يُحكم عليه بأنّه مدمن مواقع تواصل وتشخيصه ومساعدته للخروج ممّا هو عليه، حيث أنّ من أبرز السّلبيّات المترتّبة على استخدامه الخاطيء، الولوج في علاقات محرّمة من الشّرع والقانون والمبادئ الإنسانيّة والأخلاقيّة.

الكلمات المفتاحيّة: وسائل التّواصل الاجتماعيّ - الحياة الزوجيّة

Abstract

The current study attempted to reveal the role of the WhatsApp application and its impact on the customs, traditions and values of married life among couples in the Beirut Hamra area. The study, in its theoretical aspect, reached the knowledge and control of some concepts related to the study variables of customs, traditions, values and addiction to social media, and what are the most important symptoms that appear on an individual in order to judge him as a social media addict and diagnose him and help him get out of what he is, as one of the most prominent negatives resulting

from its incorrect use is entering into relationships forbidden by Sharia and the law Humanitarian and ethical principles.

Keywords: Socia media –Married life

المقدمة

تعدّ الحياة الزوجية ضرباً من ضروب العلاقات الإنسانية التفاعلية، إذ تتجسّد فيها أشدّ العلاقات ترابطاً، التي تقوم على المودّة والرّحمة، الصّبر والتّعاون. وضمن ما يُعرف بالمؤسّسة الزوجية بأصولها السلوكية الفرديّة أو حتّى الاجتماعيّة، يرتكز مناطها لقواعد أخلاقيّةٍ عمليّة تسهم في استمراريّة هذه المؤسّسة.

ومن الملاحظ أنّ الحياة الزوجية لا تسير دائماً وفقاً لنمط واحد، ذلك كون المواقف الاجتماعيّة المختلفة كفيّلة بتوجيه سلوكيات الأفراد، من وقت إلى آخر أو من بيئة اجتماعيّة إلى أخرى، فعوامل الزّمان والمكان هي من ضمن المؤثّرات الفاعلة في توجيه الحياة الزوجية، وتأثيرها في سلوكيات كل من الزوجين وفي مجالات تفكيرهم.

وفقاً لما سبق، تتشكّل الحياة الزوجية من خلال البناء النفسيّ - الاجتماعيّ للعلاقات بين الزوجين، حيث يهدّد استقرارها إحدى أقوى المؤثّرات التي تتجسّد في وسائل التّواصل الاجتماعيّ-الواتس أب نموذجاً- وما تبعه من خراب للأسرة والعلاقات الاجتماعيّة، إذ لا يقتصر تأثيرها على تحطيم البناء النفسي السليم للفرد، إنّما تمتد لتشمل أساس التماسك الأسري بشكل خاص والاجتماعيّ بشكل عام.

تصديقاً لما تقدّم ومن الواقع المعيش، وبحكم ما نشهده من خلافات أسريّة متنوّعة الأسباب، كان لوسائل التّواصل الاجتماعيّ وتحديدًا تطبيق الواتس أب حصّة الأسد، كونه مخترقاً للخصوصيّة ومساعدًا لتفشي هذه الخلافات، وذلك بتقويض العلاقة الزوجية التي تُعدّ أساس تماسك الرّوابط الاجتماعيّة، إلى العديد من الإضطرابات كحالات الاكتئاب، الادمان، الإنتحار، الخيانة الزوجية وغيرها من النتائج. ويدفعنا ما سبق إلى التساؤل إن كان الإستخدام للواتس أب بما فيه تلك الخصوصيّة هو الدّافع لإثارة الشكّ لبعض الأزواج، أم أنّ الخلل الزوجي قائم مسبقاً وجاء التّطبيق كمساعد للخروج من تلك الدائرة؟ هذا ما سنحاول الكشف عنه في دراستنا.

أ - أهمية البحث

بالنسبة إلى أهمية هذا الموضوع فظاهرها لا يدفع للجدل بأن المشكلات الأسرية منتشرة في المجتمع وهي ذات طبيعة قيمية، حيث يتم تهديد النسق القيمي بالمجتمع من خلال استخدام أحد الزوجين تطبيق الواتس آب بأسلوب يضر بحياتهم الزوجية التي تتميز في لبنان والمجتمعات الشرقية بأنها مؤسسة قانونية ينأسس على وجودها مفاعيل قانونية متعدّدة، منها على سبيل المثال التوارث. وكذلك ينشأ على انحلال الرابطة الزوجية وفقدانها آثار لا يُستهان بها لجهة ما يترتب على ذلك من تأثيرات سلبية على الأولاد أو على الزوج أو الزوجة المطلقة، كلّ ذلك يؤدي إلى تفكك المجتمعات وانحلالها. لذا كان من المهم تسليط الضوء على الاستخدام السلبي لهذا التطبيق، وعلى نتائجه التي سنبرزها في موضوع دراستنا لأنها محل جدل كبير، إذ تخترق البيوت بأسلوب ناعم جديد لتدمر الروابط الأسرية على نحو أسوأ من تدمير البيوت بقوة السلاح والصواريخ.

ب - أسباب اختيار الموضوع

من أهم الأسباب لاختيار موضوع بحثنا هي السعي إلى حل مشكلة البحث التي تدور حول ظاهرة انتشار استخدام وسائل التواصل وانعكاساتها على الحياة الزوجية، وكذلك الأهمية والفائدة التي يقف الموضوع خلفها من أهم الأسباب التي دفعتنا لاختيار الموضوع التي تشغل بال الكثير، أضف إلى ذلك تقديم الإضافة العلمية ضمن مجال البحث والتخصّص العلمي وذلك من خلال تقديم معرفة جديدة لم يسبق تناولها من قبل، إضافةً لأسباب تتعلق بكشف الغموض عن حقيقة الواتس آب وكيف يؤثر في العلاقات الزوجية.

ج - الإشكالية

بعد احتلال مواقع التواصل الاجتماعيّ الحيز الأكبر من حياتنا الاجتماعية، وخاصةً الواتس آب الذي أصبح تطبيق ضروري ومهم وحتمي موجود على هاتف أي فرد في المجتمع العالمي بشكل عام واللبناني بشكل خاص، أدى هذا النمط الجديد إلى صبغ حياة البشر عموماً بتأثيرات منها الإيجابي ومنها السلبي. وخاصةً على العلاقات الزوجية التي تعدّ محرك أي مجتمع. إذ إن إيمان الناس على هذه التطبيقات ومن ضمنها الواتس

آب بشكل مفرط، جعل التأثير السلبي لها يزداد يوماً بعد يوم خصوصاً على العلاقات الزوجية، إذ يتسابق الأزواج في وقتنا الزاهن لنشر تفاصيل حياتهم اليومية مع أشخاص تعدّ وهمية، أو غير حقيقية بسبب افتقارهم في حياتهم مع شركائهم هذه التفاصيل، إذ يتولّد لدى أحد الشريكين عدم الرضى عن شريكه وطريقة حياته ويسعى إلى لبحث عن تعويض لحرمانه في عالم الواتس آب الذي أصبح مليئاً بضعاف النفوس وصيادي الفرص، فيقع الباحث في فخهم ليصل إلى طريق الدمار والخيانة الزوجية وغيرها من الجرائم التي باتت تُعرف بالجرائم الإلكترونية.

انطلاقاً مما تقدّم يمكننا طرح السؤال الإشكالي الآتي :

ما هو دور وأثر وسائل التواصل الاجتماعي (الواتس آب نموذجاً) في الحياة الزوجية؟

ويتفرّع عن الإشكالية الأساسية عدّة إشكاليات فرعية:

- ما مدى تأثير الواتس آب في منظومة القيم (الإيثار، الصدق، وتبادل الحب والاحترام) في الحياة الزوجية؟
- هل استبدل الأزواج العادات القائمة على احترام معنى الرّابط الأسري والزوجي المقدّس على وجه الخصوص، بعادات بديلة؟
- هل تبدّلت نظرة أحد الزوجين إلى القيم والتقاليد المتعارف عليها في المجتمع؟

هـ - حدود الدراسة

تتضمّن ثلاث مجالات:

1 - المجال البشري: سيتم الاعتماد على العيّنة المقصودة التي ستتكوّن من عدد مناسب من الأزواج ضمن نطاق منطقة بيروت الحمراء، بحيث تكون ممثلة لخصائص المجتمع اللبناني من الناحية الديموغرافية والثقافية، حيث ستؤخذ عيّنة من الأزواج بأعمار تتراوح بين (25-35) سنة، من أجل الحصول على معرفة أكثر يقيناً مع أزواج في بداية العلاقة الزوجية، إذ تتكوّن من 200 مفردة مؤلّفة من 100 مفردة من الزوجات، و 100 مفردة من الأزواج، هذه العيّنة ستكون ضمن المعايير المعتمدة

عالمياً من ضمن مناهج البحث العلمي، بحيث تكون كافية لتعكس الصورة الواقعية المطلوبة عن مجتمع الدراسة.

2 - المجال الزمني: تخضع هذه العينة للوقت المتاح في إنجاز هذه الدراسة، من العام (2024) وهي المدّة الزمنية الكافية والمتوافقة مع مدّة الدراسة بهدف الحصول على عينة كافية ومتربطة من الأزواج في هذه المرحلة الزمنية.

3 - المجال المكاني: تمثّل منطقة الحمراء أكبر تجمّع سكاني يضم عينة تشمل جميع الشرائح اللبنانية بمختلف ثقافتهم وتوجهاتهم ودياناتهم على اختلافها، ذلك بغية التعرف على تأثير الواتس آب في العلاقات الزوجية في المنطقة المحددة في مدينة بيروت (منطقة الحمراء).

و - أهداف الدراسة

- الكشف عن مدى تأثير الواتس آب في منظومة القيم (الإيثار، الصدق، وتبادل الحب والاحترام) في الحياة الزوجية
- معرفة ما إذا استبدل الأزواج العادات القائمة على احترام معنى الرّابط الأسري والزّوجي المقدّس على وجه الخصوص، بعادات بديلة.
- البحث حول ما إذا تبدّلت نظرة أحد الزّوجين إلى القيم والتقاليد المتعارف عليها في المجتمع.

ح - الدراسات السابقة في الموضوع

1 - دراسة رحاب عبدالله الفوزان: بعنوان جودة الحياة الزوجية وعلاقتها بالافصاح عن الذات لدى المتزوجين في الرياض، حيث في هذه الدراسة يتم الاضاءة على نجاح الحياة الزوجية من خلال إفصاح الذات لدى المتزوجين ممّا يوّد حالة صراحة وثقة بين الطرفين. في حين أنّ دراستنا تستعرض وجود وسائل التّواصل الاجتماعيّ وتحديداً الواتس اب في سبب زعزعة الحياة الزوجية (الفوزان، عبدالله ر، 2020، صفحة 21).¹

2 - دراسة خالد عبد الجواد: بعنوان، علاقة استخدام وسائل التّواصل الاجتماعيّ

1 الفوزان، رحاب عبدالله، جودة الحياة الزوجية وعلاقتها بإفصاح عن الذات لدى المتزوجين في مدينة الرياض، 21، مجلة كلية التربية، 36 (3/2020 م)، 517-559.

بمشكلات الأسرة العربية، تركز هذه الدراسة بشكل أساسي على المشكلات التي تحدث بسبب استخدام وسائل التواصل الاجتماعيّ تحديداً خلافاً لأسرية متنوعة، في حين أنّ دراستنا تتصبّ بشكل أساسي على حدوث خلافات زوجية التي هي أضيق من الخلافات الأسرية التي تستوعب الخلافات الزوجية.¹

3 - دراسة نسرين عبدالله عبد القادر: بعنوان، أثر وسائل التواصل الاجتماعيّ على طبيعة العلاقات الزوجية إذ تركز هذه الدراسة على طبيعة العلاقات الزوجية في ظلّ تداعيات وجود وسائل التواصل الاجتماعيّ، إضافةً إلى ذلك حدوث صراع ثقافيّ لدخول هذه الوسائل الجديد. هذه الدراسة هي الأقرب إلى دراستنا مع فارق بسيط أننا في دراستنا الحاضرة نركز على جوهر تبدل العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية وليس فقط حدوث صراع ثقافيّ.²

ز - المنهج المتبع في الدراسة

إنّ طبيعة البحث الاجتماعيّ هي التي تحدّد المنهج الذي سوف يتّبعه الباحث لإتمام بحثه. لذا سنعمد في هذا البحث المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي يُعرف بأنه أحد أشكال التحليل والتفسير العلميّ المنظم لوصف الظاهرة أو المشكلة المحددة وتصويرها كميّاً.³ سيطبق هذا المنهج من خلال وصف العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية للحياة الزوجية، القديمة والمستحدثة حالياً بفعل التطور والتطبيقات المستخدمة، إضافةً لتحليل المعطيات التي حصلنا عليها ومقارنتها بالنتائج من خلال القيام ببحث ميدانيّ عبر اختيارنا لعينة الممثلة للبحث والتقنيات المستخدمة، ومن ثمّ تحليل نتائج الدراسة في ضوء الإطار النظريّ للدراسة نفسها.

1 عبد الجواد، خالد أحمد، « علاقة استخدام وسائل التواصل الاجتماعية بمشكلات الأسرة العربية»، 95، المجلّة المصريّة لبحوث الأعلام، 64 (3 / 2018) ، 95_138.
2 عبد القادر، نسرين عبدالله، « أثر وسائل التواصل الإجماعية على طبيعة العلاقات الزوجية»، 487، حوليات آداب عين شمس، 69 (7/2020) ، 487_504
3 سامي محمد ملحم، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، 74، الأردن، دار المسيرة، 1430هـ/ 2010م، 512صفحة.

الفصل الأول: مفهوم الحياة الزوجية وأسسها وتحدياتها

1_ المبحث الأول: الحياة الزوجية بين المتطلبات والأسس

نبدأ هذا المبحث بضرورة تعريف الحياة الزوجية كالتالي:

أ_ تعريف الحياة الزوجية:

أ- الزواج نظام عالمي، وعقد شرعي رضائي لا إكراه فيه بين الرجل والمرأة، ولا يقوم النظام الاجتماعي بدونه باعتباره ضرورة حتمية للمحافظة على النسل وإنجاب الأطفال، ويجعل لكل من الزوجين حقوقاً وواجبات.¹ ب_ يعد «الزواج مؤسسة موروثه عن الأجيال السابقة، وهو حق لكل الناس وتقليد متبع عند كافة الشعوب. وقد اعتبر تأمين النسل البشري وتشريع الممارسة الجنسية وتنظيمها من الأهداف السامية لهذه المؤسسة».

ب_ متطلبات الحياة الزوجية :

يمكن تقسيم هذه الفكرة إلى نوعين من المتطلبات الأساسية هما: المتطلبات المادية والمتطلبات المعنوية:

1_ المتطلبات المادية :

- أ. إن اختيار الرجل بأن يكون زوجاً في مجتمع شرقيّ يُلقى بالعبء عليه، تمثله بالقدرة المادية ليتمكن من تأسيس بيتاً والإنفاق على زوجته، فضلاً عن تأمين جميع احتياجاتها ومتطلباتها. هذا في العموم، أما بخصوص المجتمع اللبنانيّ فإنّه يتأثر بحرارة عاداته وتقاليدته كلّما شعر أنّ هناك ثوابت ما تهدد كيانه.²
- أ. على الزوجين الاتفاق منذ البداية بأن تكون المتطلبات المادية مناصفة بين الطرفين، بهذا الشكل يجعل كلا منهما مثابراً على عمله من أجل الحفاظ على الأسرة واستمراريتها.

1 حطّيب، زهير، تطوّر بنى الأسرة العربيّة، 110، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1400هـ / 1980 م، 249 صفحة، (1-2).

2 معتوق، فريدريك، التقاليد والعادات الشعبيّة اللبنانيّة، 6، بيروت، غروس برس، 1406هـ / 1986 م، 136 صفحة.

١١١. تكون المتطلبات المادية نابعة من الطرفين لكن ليس بالمنصفة التامة بل بحسب ظروف وقدرة كلٍّ منهما، قائماً على النسبية، وليس على العدل القائم على النظرة العامة المطلقة.¹

2_ المتطلبات المعنوية

المتطلبات المعنوية كثيرة ومتنوعة، لكننا سنعطي بعض الأمثلة بخصوصها في موضوع دراستنا على الشكل الآتي:

١. **الكلمة الطيبة:** كلمة مليئة بالحب والأمان والعاطفة، تُعد من أهم المتطلبات المعنوية التي يبحث عنها طرفا المؤسسة الزوجية. فالحياة الزوجية تُستدام بالكلام الطيب الممزوج بالغزل، بدون ذلك ستكون الحياة أشبه بحياة الروبوت لا مشاعر فيها ولا أحاسيس.²

٢. **تقدير الجهود:** تقدير الجهود أمرٌ ضروري يقع على طرفي المؤسسة الزوجية، إذ من خلاله يمكن الحفاظ عليها وإلا بحث كلٌّ من الزوجين عن شخص آخر لإشباع تلك الحاجة، وهذا البحث عن الغير بداية لخراب الحياة الزوجية أو لتهديد مسارها القائم. فالإنسان يتزوج لعديد من الدوافع الداخلية، ولكن الزواج في ذاته نظام اجتماعي ينبع من العرف أكثر مما ينتمي إلى البيولوجيا.³

ج_ الأسس المطلوبة في الحياة الزوجية:

من الأسس المنوطة بالحياة الزوجية الناجحة والسعيدة نذكر ما يلي:

١. **الثقة المتبادلة:** كون الثقة المفتاح الضروري لباقي أسس نجاح الحياة الزوجية، فالثقة تتولد بالمواقف والعشرة الحسنة، وغياب الثقة يعني غياب الحب والأمان وبالتالي سيعيش الطرفان في حالة ريبة وشك.

٢. **الحوار بين الزوجين:** لغة الحوار وثقافة التحاور، بعيداً عن لغة الإهانات واستعمال

1 سمير تناغو، النظرية العامة في القانون، 193، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1405هـ/ 1985 م.
2 شحاتة، عبد المنعم، الإختيار الزوجي: «دراسة على العوامل في المجال الأكاديمي والطالبات الجامعيات»، 110، مجلة العلوم الإجتماعية، 1419 هـ/ 1999 م.
3 الساعاتي، سامية حسن، الإختيار للزواج والتغير الاجتماعي، 19، بيروت، دار النهضة العربية، 1401 هـ / 1981 م، 483 صفحة.

العنف اللفظي والمعنوي، من الأسس والركائز الأساسية لبقاء الحياة الزوجية في ديمومة السلام، نظرًا كون الحوار يعزز ثقافة مفادها بأن الزوجين روح واحدة وإلاّ تولد عكس ذلك من عنف وصولاً لجرائم القتل والإنتحار¹.

III. حفظ الأسرار : قد تمرّ الحياة الزوجية بالعديد من التقلبات والتغيرات، لذلك من غير المقبول معرفة الآخرين لهذه التغيرات حتى ولو كانوا أقرب الناس كالأهل من الأم والأب. فالسر الذي يتم إفشاؤه قد يؤدي إلى مشاكل بغنى الزوجين عنها.

IV. أسلوب المودة والرحمة: تتبدل سلوكيات الإنسان ودوافعه الجنسية حين يكبر، ويبدأ حينها الزوجان بالبحث عن المودة والرحمة، لأنّ الحياة الزوجية في مراحلها الأخيرة تحديدًا تحتاج إلى المودة والرحمة أكثر من أي مرحلة سبقتها. هذا مع العلم أنّ أسلوب المودة والرحمة تحديدًا، مطلوب في كل المراحل الزوجية، غير أنّه من الواجب التشديد عليها في مرحلتها الأخيرة نظرًا لحاجة الطرفين لجعل العلاقة ذات مشاعر دافئة وسليمة على حدٍ سواء.

2_ المبحث الثاني: التحديات أمام الحياة الزوجية

أ_ التحولات التكنولوجية ومغرياتها

لم تعد الحياة تسير على وتيرة واحدة، ففي عصرنا الراهن بتنا نشهد ثورة تكنولوجية بمعنى الكلمة أي ثورة المعلومات، فلا نجد اليوم بيتًا يخلو من الهاتف الجوّال قادرًا على الاتّصال بشبكة الإنترنت، ممّا يعني بشكلٍ أو بآخر أنّ تدقّق المعلومات والحصول على قنوات للبت مثل اليوتيوب والواتس آب، إلخ غدا متاحًا على مستوى تواصل كل شخصٍ مع كل العالم².

لذلك نجد أنّ هذا العصر ذو ملمح خاص ومتطورّ، ألا وهو عصر التحولات التكنولوجية المتسارعة التي لم تعد تحت الحصر، إذ نجد بين ساعة وأخرى مبتكرات تكنولوجية جديدة وأبرز مثال على ذلك تنافس شركات الهواتف الجوّالة، وتعدّد إصداراتها

¹بعلقيني، نجيب، حب واستمرار، 11، بيروت، دار الفكر اللبناني، الجامعة الأنطونية، 1419 هـ / 1999 م، 166 صفحة.

² فلوريدي، لوتشيانو، الثورة الرابعة : كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، ترجمة السيّد، لؤي عبد المجيد، 15 الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1437 هـ / 2017 م، 318 صفحة.

من الهواتف الذكية، بحيث يلاحظ أنّ إصدارات كل عام تلغي إصدارات العام السابق لناحية التطور العلمي والتكنولوجي التي تظهر في الهواتف الجديدة.

ب_ الوضع الاجتماعي والاقتصادي في تغيّر مستمر

إنّ الوضع الاقتصادي الذي بات مسيطراً على الحياة المعاصرة ذو تداعيات سلبية، وذلك له انعكاساته على الحياة الزوجية بشكل خاص، ممّا تفرضه وقائع الحياة المعاصرة من متطلبات مادية مرهقة يقع ضحيتها الزوج أو الزوجة على السواء في الحالة التي يقوم فيها الإثنان معاً بالإتفاق على المؤسسة الزوجية بكل ما تقتضيه من واجبات وتطلّعات لكل أفراد الأسرة¹. ممّا بات يعني أنّ الحياة المعقّدة تزيد تعقيداً في ظل استمرار المبتكرات ووصولها إلى البيوت كحاجات لا يمكن الاستغناء عنها نظراً للانسجام والمركز الاجتماعي كالسيارة مثلاً². فواقع الأمر أنّ الحياة الاقتصادية المتردية في الغالب ذات انعكاسات سلبية وخطيرة على الحياة الاجتماعية وذلك بما تعنيه من توائم في الحياة بين الزوجين، وانصهار بين الأسر من خلال روابط الزوجية.

ج _ ظهور مبدأ الحرية الفردية

غدا مبدأ الحرية الفردية مبدأ مكرّساً على نحو قوي في مجتمعنا المعاصر، يجد له واقعاً ملموساً في حياة الزوجين تحت سقف واحد. ما يعني بشكلٍ آخر أنّ الشخص الحر إقتصادياً هو صاحب الحرية من مبدأ القرارات العائلية. كما أنّ الحرية الفردية غدت ذات طابع حقوقي، خاصّةً في ظل ما تتادي به فعاليات المجتمع المدني من حقوق الإنسان وبشكلٍ خاص حقوق المرأة، التي كانت في السابق قبل ثورة الاتّصالات، مجرد أمنيات صعبة التحقيق، صارت مع وسائل الاتّصال، شعارات للحرية، بحيث بات كل فرد قادراً على التعبير بحرية عن قناعاته وآرائه ومطالباته وإيصال كل ذلك للناس المتواصلين معه³.

1 عيسوي، أحمد، « إلى أين يسير بنا الإدمان الفيسبوكي؟ »، 43، مجلة الوعي الإسلامي، 53 (633/2018م)، 43-42.

2 الحلواني، محمد ابراهيم، « المساواة الاجتماعية في السيرة النبوية »، 10، مجلة الوعي، 64 (634 / 2019 م)، 15-11.

3 المؤتمر الوطني حول الأسرة اللبنانية وإشكالاتها، مصلحة الشؤون الأسرية، وزارة الشؤون الاجتماعية، 1429 هـ / 2009 م، 97-96.

3_ المبحث الثالث : التغيرات الحاصلة في الحياة الزوجية

أ- تحولات في طبيعة العلاقات بين الزوجين

لا تبقى العلاقات على ثباتها في حالة الحب، فمرحلة ما قبل الزواج هي مرحلة نموذجية في تبادل الأفكار، وغالبًا ما ينتج عنها مثاليات وأخلاقيات تعبر إيجابيًا على الرغبة في الارتباط والتعايش رغم الصعوبات التي تكمن في واقع الحياة¹، التي لا تلبث أن تتحول إلى إيقاع يومي رتيب وتقليدي منذ تحول شراكة الحب إلى شراكة المسؤولية المتعلقة بأساسيات الحياة والقدرة على إشباعها. هذا الاتجاه والتغير قد تكون له عواقب سيئة تساعد في تفكك روابط الأسرة وهدم كيان المجتمع.²

لذلك، يبدو لنا أنّ التحولات التي تطرأ على طبيعة الحياة الزوجية، هي تحولات يفرضها المستقبل وطبيعة الظروف الاجتماعية المحيطة بالأسرة، التي تؤثر عليها سلبًا. فنلاحظ بناءً على ذلك، هروب بعض المتزوجين باتجاه تعويضات نفسية، لنسيان مشاكلهم الزوجية وظروفهم الحياتية والمادية الصاغطة. بحيث قد ينحرف بعض الأزواج نحو علاقات ممنوعة في إطار المؤسسة الزوجية، كالخيانة الزوجية، نتيجة المعاناة النفسية التي لا تفتح على المصارحة ولا تقبل مطارحات الحلول.

ب_ الانتقال والتحول في العادات الزوجية

إنّ الحديث عن العادات الزوجية قد تجد بدايتها في الحديث عن العادات ما قبل الزواج، وفي هذا السياق نجد المرأة هي الأكثر تأثرًا بتغير عادات زوجها، حيث أنها تفسر هذا التغير بأنه تخلي عن الحب أو العزوف عن الرغبة بها، بحيث ترى الزوجة في زوجها «مكيافيلية عاطفية» ممقوتة. ومن ثم تغيير في العادات ينم عن نية التغيير في طريقة التعامل، وفي هذه الحال أكثر المتأثرين هم الأكثر التصاقًا ببعض كالأزواج مثلًا. وذلك يفيد بأن كثيرًا من الخلافات منشؤها تغير العادات، والتعبير البلاغي القرآني في هذه الواقعة خير شاهد في قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَمَلْ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 199] .

1 حمدان، حسان، الزواج والمعوقات للإجتماعية والإقتصادية،4، بيروت، مركز حقوق المرأة للدراسات والأبحاث، 1423 هـ / 2003 م ، 208 صفحة.
2 أتزيوني، أميناى، التغير الاجتماعي : مصادره، نماذجه، نتائجه، ترجمة حنونة، محمد أحمد، 123، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، 1404 هـ / 1984 م ، 123 صفحة.

وإذا كان هذا الخطاب موجّهًا لنبي الرّحمة محمد ﷺ فإنّه من باب أولى تعلّم لأمتّه أن تقتدي بأخلاقه، وتفسير ذلك ارتباط البيان القرآني أمر بالعرف بأمر ملازم لذلك (وأعرض عن الجاهلين)، فالآية تتضمن ثلاثة أوامر: خذ (العفو)، وأمر (بالعرف) وأعرض (عن الجاهلين)، ومعلوم ممّا تسوّقه كتب التفسير أنّ العفو هو ما فاض عن حاجة المرء من المال. حيث أنّه يبذل المال لمن يحتاجه يشعر المرء برضا الناس عنه أو عفوه عن زلله إن بدر منه ذلك أمام الناس. أما العرف، فهو العادة المتّبعة الملزمة خالف سنة (عادة) درج عليها وكانت سبباً لإرضاء الآخرين. أما الإعراض عن الجاهلين فمرّده إلى عدم علمهم وجهلهم بقيمة العادة الملزمة وتأثيرها المعنوي الكبير في استبقاء المودة أي إلّزام العرف بشكل إيجابي.¹

ج _ التّقاليد الزّوجيّة المستحدثة (مقارنة بين القديم والمستحدث)

مرّ زمان كانت التّقاليد الزّوجيّة تتبّع أعراف كانت سائدة في المجتمع التي أخذت إلى التغيّر في نهاية القرن العشرين²، وآلت إلى الاتدثار نهائياً في البلدان التي شهدت حروباً مدمّرة، جعلت من المستحيل القيام بأعباء حفل الزّواج ونفقاته في ظل الطّروف الاقتصاديّة الرّاهنة، ومرّد ذلك إلى غياب التّشريعات الحمائيّة والرقابيّة من الدّولة³ إذ لم يعد بالإمكان التمسك بالعادات والتّقاليد حتّى لمن أراد ذلك.

كما نجد إضافة إلى ذلك، أنّ الإنفتاح على دول العالم وخاصة دول العالم الغربيّ، أبقى في النفوس الشّابة تصوّرات وآمالاً أبعدتهم عن تقاليد المجتمع الشرقيّ بشكلٍ خاص. فالطبقة المتّفة من هؤلاء الشّباب والبنات التي ترى في الغرب وعاداته حضارة وتقدّمًا، باتت بعيدة عن التّأثر بتقاليد الشرق، لا بل أنّها ترى فيها تحلّفًا يجب القضاء عليه أو التخلّص منه بشكلٍ من الأشكال. والسبب في ذلك هو التّرويج للحياة الغربيّة التي تركز على قيم المادّة وتنسى قيم الإيثار والوفاء والتضحية⁴.

1 شليبيك، أحمد الصويبي، «العرف وأثره في الأحوال الشخصية في الفقه الإسلامي والقانون الكويتي»، 205، مجلة كليات الحقوق الكويتية، 7 (32 / 2020 م، 9، 255-201).

2 حسن أمين البعيني، العادات والتقاليد في لبنان في الأفراح والأعياد والأحزان، 41، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 1421 هـ / 2001 م، 416 صفحة.

3 الأيوبي، أحمد، «غياب الإهتمام بعلم التشريع في لبنان والعالم العربي»، 644، محامي نت www.Mohamah.net/law/

4 الشبول، أيمن، «المتغيرات الاجتماعيّة والثقافيّة لظاهرة الطلاق»، 647، مجلة جامعة دمشق، 48 (3 / 2010)، 647-705.

الفصل الثاني : مفهوم التّواصل الاجتماعي وأنواعه وانعكاساته الإيجابية والسلبية على الحياة الزوجية

1_ المبحث الأول : مفهوم التّواصل الاجتماعي

أ_ تعريف التّواصل الاجتماعي

التّواصل الاجتماعي الحديث مرهون بشبكات التّواصل الاجتماعي التي من شأنها إحداث هذا التّفاعل بين رواد هذه الشبكات، وذلك من خلال المراسلات الفورية، وتبادل الصّور والفيديوهات والملفات وغيرها من الأمور.

وعليه، فإنّ مقولة ديكارت «أنا أفكر إذاً أنا موجود» تغيّرت بسبب دخول وسائل الاتّصال والتّواصل إلى حياتنا بشكل يومي وملموس لتغدو العبارة بشكلٍ أكمل، أنا أتصل إذاً أنا موجود¹.

ب_ الانعكاسات السلبية والإيجابية للتواصل الاجتماعي

1_ الانعكاسات السلبية : لا مناص من وجود أضرار سلبية تطال مستخدم التّواصل الاجتماعي من أضرارٍ جسدية وأضرار دينية وأضرار اقتصادية. إلّا أنّ ما يهّمنا هو تسليط الضوء على الأضرار الاجتماعية وتحديدًا تلك المرتبطة بالعلاقة الزوجية وتداعيات استعمال وسائل التّواصل الاجتماعي ضمن النقاط الآتية:

- رفض الآخر: مع وجود مغريات وسائل التّواصل الاجتماعي وسهولة التّواصل وبروز الصّور والتعرّي والفساد، فإنّ ذلك يدفع بطرفيّ الزّواج لرفض بعضهم البعض وعدم التّقبل، كون صور وسائل التّواصل الاجتماعي لا تعكس حقيقة الواقع لخضوعها للتّبديل والتّزيين. هذا فضلاً عن تغيّر الألوان والانعكاسات الضوئية، كلّ ذلك يؤدّي إلى الغرق بالمظاهر الخيالية، والنفور ورفض الآخر والبحث عن البديل.

- الخيانة الزوجية: عندما يتولّد رفض الآخر والبحث عن بديل، يتبع ذلك بوادر وأفعال الخيانة الزوجية من خلال استعمال وسائل التّواصل الاجتماعي، وصولاً إلى حدوث علاقة جنسية غير شرعية يرفضها المجتمع والدين والقانون، كونها تؤدّي إلى

1 محمود الفطاطة، « مستقبل الإعلام الجديد » ، مركز رام الله للدراسات وحقوق الإنسان، 65، فلسطين، 9 (36 / 2012 م) ، 73-65.

حدوث تفكك أسري وانهيار الرابطة الزوجية وبالتالي إن الخيانة الناجمة عن وسائل التواصل الواتس آب، تقضي على الثقة المتبادلة بين الزوجين.

- استخدام أساليب العنف على مختلف أشكاله وأنواعه، كون العنف يولد مزيداً من التوتر، نظراً لما يشاهده المستخدم ويقوم بتطبيقها دون حسيب ولا رقيب مما يولد حالات إكتئاب وانتحار لدى الزوجين.

- الطلاق: قد يلعب الواتس آب دوراً سلبياً خطيراً في هدم أركان الأسرة، ويؤدي في نهاية المطاف إلى الطلاق المتمثل بالإنهيار الفعلي للمؤسسة الزوجية، والدخول في دوامة التفكك الأسري والتشتت الذهني.

وفي دراسة أعدتها ميرنا موريس نعمان بعنوان : استخدام الشبّاب لمواقع التواصل الاجتماعي بين الآثار الإيجابية والآثار السلبية¹، تذكر الباحثة السلبية على الشبّاب بقولها: يفضل الكثير من الشبّاب استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتالي يقضون ساعات طويلة في التحقق من مواقع التواصل الاجتماعي. وكلما زادت عدد الساعات التي يستخدمها الشبّاب في التصفح كلما زادت اضطرابات النوم، وارتفع إدمانهم لتملك المواقع؛ مما أدى إلى تنمية بعض العادات السلبية كتصفح مواقع التواصل الاجتماعي أثناء العمل والمحاضرات الدراسية مما أثر سلبياً على تحصيلهم الدراسي وارتفاع معدلات إدمان الألعاب الرقمية التي يتم ممارستها من خلال مواقع التواصل الاجتماعي.

بالإضافة إلى الإنحطاط الخلفي في الردود والمناقشات بين الشبّاب. فيتعرض الشبّاب لموجة لا تنتهي من التوتر والضغط، تصل إلى حدّ الإساءات والتتمر من الآخرين ممّن يختلفون معهم في الرأي وهو ما يطلق عليه التتمر الإلكتروني.

وفي دراسة أخرى أجرتها سميرة عمار حركات بعنوان: استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بين السلبيات والإيجابيات²، وبعد تحليلها في دراستها لعديد من الدراسات، توصلت لأهم النتائج السلبية منها:

1 نعمان، ميرنا موريس، « استخدام الشباب لمواقع التواصل الاجتماعي بين الآثار الإيجابية والآثار السلبية »، مجلة للبحوث العلوم الاجتماعية والتنمية، 5 (4 / 2022م)، 575 - 599.

2 حركات، سميرة عمار، « استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بين السلبيات والإيجابيات »، المجلة العربية للدراسات الأمنية، 36 (76 / 2020م)، 316-285.

• تترك عمليّة استخدام هذه الوسائل آثارها العميقة على شبكة العلاقات الأسريّة وخاصةً بين الرّوجين أو بينهم وبين الأبناء، فضلاً عن التأثير في القيم الاجتماعيّة للأبناء.

• تحطّم وسائل التّواصل الاجتماعيّ الخصوصيّة الفرديّة، وبدأت شركات التّأمين تدخل على بيانات الأفراد المنشورة على صفحاتهم في فيسبوك لمحاولة إثبات أنّهم يعانون من مشاكل صحيّة مثل الإكتئاب.

2 _ الانعكاسات الإيجابيّة: على الرّغم من السّلبات التي ذُكرت سابقاً، فالإيجابيات متنوّعة كما يلي:

- الاستفادة من المعلومات الواردة على وسائل التّواصل الاجتماعيّ بغية توظيفها في الحياة الرّوجيّة من خلال تعلّم سبل الحفاظ على الحياة الرّوجيّة وكيفيّة حل المشاكل التي قد تحصل بين الطرفين، حيث يتّم ذلك عبر الاستفادة من تجارب وأخطاء الغير من خلال الاطّلاع على القضايا العالقة حول الحياة الرّوجيّة في وسائل التّواصل الاجتماعيّ وكيفيّة تجنّبها.

- من الممكن توظيف وسائل التّواصل الاجتماعيّة لتعزيز الرّابط الرّوجيّ بين الشريكين من خلال الحديث والكلام مع بعضهما البعض ولو بإيجاز في مكان العمل أو في أثناء الاستراحة، فيكفي إرسال رسالة صوتيّة أو خطيّة للاطمئنان أو لإلقاء التحيّة، فكلّ هذه الطّرق تزيد جسور الوصال بين الرّوجين.

- إنّ استخدام وسائل التّواصل الاجتماعيّ فرصة للحفاظ على التّرابط الرّوجي عندما يكون الطّرفان كلّ منهما في بلدٍ أو مناطق بعيدة، فتكون وسائل التّواصل الاجتماعيّ سبيلاً للحفاظ على الحياة الرّوجيّة ومعرفة أخبار بعضهما البعض.

وفي دراسة ميرنا موريس نعمان التي ذكرناها سابقاً، قد وضعت الانعكاسات الإيجابيّة لوسائل التّواصل الاجتماعيّ سنذكر منها :

• بنى الشّباب مجتمعات افتراضية تحقّق الترابط والتّواصل الاجتماعيّ مع الآخر بناءً على اهتماماتهم وأفكارهم واتجاهاتهم فتواصل الشّباب مع الغير، فقد جعلتهم أكثر انفتاحاً سواء كان ذلك غير المختلف عنه في الدّين والعقيدة والتّقاليد والعادات

والتقاليد، واللون والمظهر والميول، فإنه قد اكتسب صديقًا ذا هوية مختلفة على بعد أميال قليلة أو على بعد آلاف الأميال في قارة أخرى.

- كذلك عززت وسائل التواصل الاجتماعيّ التعليم الذاتيّ، حيث مكّنت الشّباب من التّعليم عن بعد والاطّلاع على كل جديد فيما يخصّ مجال دراستهم، ما أدّى إلى تسريع عملية التّدرّيس والتّعلّم وسهولة البحث عن المعلومات أو زيادة المعلومات المطروحة بكل موقع من خلال مستخدميها من الشّباب.

2 - المبحث الثاني : تطبيق الواتس أب

بعد استعراض أنواع التّواصل الاجتماعيّ مستعرضين سلبيّات وإيجابيّات استعمالها الاجتماعيّة، لا بدّ من التركيز على تطبيق الواتس أب الذي يمثّل محور دراستنا وعليه سنعرض ذلك في ما يلي:

أ - ظهور الواتس أب كتطبيق

بالنسبة لمؤسّسي هذا التّطبيق يعود للأمريكي Brain Acton والأوكراني جان كوم، وكلاهما من الموظّفين السابقين لشركة ياهو، فقد تمّ تفعيل تطبيق الواتس في شهر آب من العام 2009، ثم في العام 2014 قامت شركة الفيس بوك بشراء تطبيق الواتس أب ليصبح تابعًا لإدارة الفيس بوك، ويعدّ تطبيق الواتس أب من أكثر تطبيقات الاتّصال الجديدة إنتشارًا في استخدامه، بحيث من الصّعب الاستغناء عنه نظرًا لسهولة استعماله، إذ إنّ الواتس أب من خلال الهواتف الذكيّة، يتم تبادل المعلومات والأخبار وبكلّ وضوح.

ب- استخدامات الواتس أب

يمكن تقسيم استخدام هذا التّطبيق ضمن معيارين:

1 - معيار من حيث الوصف :

- استخدامات معرفيّة: ترتبط بتقوية المعلومات، والمعرفة، وزيادة الفهم من خلال استخدام التّطبيق.
- استخدامات تأثيريّة: ترتبط بتدعيم الخبرات الجماليّة، والاستمتاعيّة، والوجدانيّة.
- استخدامات تكاملية: ترتبط بتدعيم المصادقيّة، والثقة، والاستقرار، والمكانة.

- استخدامات اجتماعية تكاملية: ترتبط بتدعيم الاتصال مع الأسرة، والأصدقاء، والعالم.
- استخدامات للهروب أو التنفيس عن التوتر: تساعد على الهروب من التوتر الذاتي، والخارجي.

2_ معيار من حيث الهدف

- يهدف الواتس آب إلى إرسال الرسائل بصورة فورية وذلك كوسيلة مجانية بديلة عن (SMS) عبر مشاركة الملفات، الصور، والبيانات.
- يهدف الواتس آب إلى تأمين التواصل الدائم بين الناس في مختلف المجالات والمناسبات.

ج_ التسهيلات المتاحة عبر تطبيق الواتس آب

هناك العديد من التسهيلات المتاحة والمتوفرة في هذا التطبيق من الناحية التقنية نوردتها كما يلي:

- يمكن للمستخدم إخفاء وقت وتاريخ ظهوره عند استخدامه لهذا التطبيق.
- خاصية حذف الرسائل، والحظر لمن يشكّل له الإزعاج.
- يمكن للمستخدم تحديد الأشخاص الذين يريد التواصل معهم.

3_ المبحث الثالث : تأثير الواتس آب على الحياة الأسرية

أ - آثار الواتس آب على العلاقة بين الآباء والأبناء

يؤدي التطبيق دورًا سلبيًا على صعيد أفراد الأسرة فيما بينهم، وذلك نظرًا لوجود التراسل المكتوم والكتابة بالحروف، وإمكانية كتم رثة الهاتف عند وصول الرسائل. فهذا يجعل المرء في عالمين في وقت واحد، عالم الواقع (مع الأسرة) وعالم آخر (افتراضي نوعًا ما) يحمل معلومات سرية على أقل تقدير بالنسبة لبقية أفراد الأسرة. وبقياس هذا الأمر وإسقاط واقعه على كل أفراد الأسرة المجتمعين في مكان واحد، سيظهر أن الجميع هم في مكان واحد، لكنهم معزولون فكريًا الواحد عن الآخر، وكأن مجلس المشاورة أو

الاجتماع المنزليّ هو مجرد شكليّ للجلوس معاً على سبيل المجاملة التي لا تعطي فائدة ولا توصل القرار إلى نهاية الاتّفاق عليه بين أشخاص قلوبهم شتى وبعيدين عن فهم ما يدور حولهم في المكان الواحد.

وفي النّهاية نجد أنّ العلاقة الأسريّة التي قامت قديماً على اللّحمة والتّماسك واجتماع الآباء والأبناء باتت في طريقها إلى الزوال لتزول معها فائدة العلاقات الاجتماعيّة لناحية التّشاور والتّناصح، وهذا خاصّةً يجعل من رغبة الفرد المتقلّنة أحياناً، محوراً لشخصيّة بعيداً من رقابة الأهل الموجودين معه في بيتٍ واحد، ممّا يسبّب ضياعاً للشّباب العربي¹.

ب_ آثار استخدام الواتس آب على علاقة الأزواج

والواقع أنّ أساس المشكلة تكمن في تشفير هاتف الرّوج أو الرّوجة بعد مدّة من الرّواج، وهو الأمر الذي يدلّ على تغيّر في السلوك كتعبير عن تغيّر في المشاعر. فمعلوم أنّ الإتّجاه السلوكي هو تعبير مادّي عن نيّة مستبطنة، قد يكون من الممكن التّعرف عليها بدليل². وعبر عن ذلك الإمام الشافعي (محمد بن إدريس)، حيث قال: «أحرص على صون القلوب من الأذى، فرجوعها بعد التّنافر يعسر، إنّ القلوب إذا تنافر ودّها مثل الرّجاجة ككسرهما لا يُجبر³.

إضافة إلى ذلك، يمكن أنّ تتولّد من الشّكوك شكوك أخرى، وذلك مع إمكانية التنبّع للشّخص المقصود، حيث يتم ذلك طبقاً لخيارات مصاحبة للتّطبيق، في مقابل رسم ماليّ. إنّ هذه الميزة تجعل أيّاً من الشريكين محبباً من أيّ سلوك غير متوقّع، يطلّع عليه بملء إرادته ومن دون علم شريكه الآخر. أو ربما يصبح كلّ من الرّوجين جاسوساً على الآخر، فتتقلب طبيعة حياتهما من المودّة والسّكينة والرّحمة، إلى الغيرة والرّيبة وتتبع الهفوات أو العورات، بما قد يؤدّي إلى سلوك سيكوباتي يدفع بصاحبه عادة إلى

1 صلاح الدين أحمد الجماعي، الإغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، 16، دار الزهران للنشر والتوزيع، 1433 هـ / 2013 م ، 292 صفحة.

2 جمال محمد الخطيب، « تعديل السلوك الإنساني » ، 13، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 11 (23 / 2016 م) ، (1-8) .

3 محمد بن ادريس الشافعي، (-204 هـ / 820 م) ، ديوان الشافعي، 50، بيروت، دار الكتاب العربي، 1416 هـ/ 1996 م ، (1-3) 218 صفحة.

إلحاق الأذى بالغير.¹

في كل ذلك نلاحظ تأثيراً سلبياً للواتس آب في الحياة الزوجية وعلاقة الزوجين من خلالها. ونجد إذاً أنّ إنعدام الثقة من أثر استخدام هذا التطبيق هو واقع ممكن حدوثه جداً.

ج - ظهور مفهوم الفردنة والحرية الشخصية للأزواج

إنّ تطبيق الواتس آب يمثل بحدّ ذاته عنوان الخصوصية، فالهاتف الجوّال بما يتيح من فرص التّواصل الصامت والمحمكي بالصوت، لا يمكن حسبانه هاتفاً للعموم، وذلك خاصّةً مع احتفاظ مالك الخط الهاتفي بميزه إغلاق الهاتف أو تشفيره لعدم استخدامه من الغير حتى ولو كان قريباً حميماً. ففي كلّ هاتف هناك ما يشبه البريد الخاص الذي لا يطلّع عليه إلاّ المرسل إليه وحده، لنكون بذلك أمام ظاهرتين مندمجتين معاً: الفردنة والحرية. ونعني بالفردنة أنّ التّواصل مع الشّخص المعني أو المرسل إليه عبر الواتس آب، لن يمرّ عبر أيّ شخصٍ آخر، وذلك بحيث يكون المتلقّي للرسائل بمثابة محتكر البريد الخاص.

أما الحرية فهي أيضاً ميّزة تظهر في تطبيق الواتس آب، حيث لا يمكن لأيّ شخص أنّ يقرأ الرسائل المحمية والمشفرة، فضلاً عن أنّ إمكانية الردّ على المرسل قابلة للتأخير من جانب المتلقّي، الذي يمكنه أن يستلم ويفهم الرسالة الواردة إليه دون أن يكون ملزماً بالردّ الفوري عليها مثلما كان الحال في الهاتف العادي السلكي.

الخاتمة

الحياة الزوجية يمكن تلخيصها بجملة واحدة، هي أنّها مؤسسة إجتماعية قائمة على الشراكة بين زوجين، تتطلّب من كلاهما الجدّ والصدق والإخلاص لاستمرارها بنجاح. فذكرنا ضمن بحثنا عن المتطلّبات الأساسية للحياة الزوجية في شقيها المادي والمعنوي وكيفية تأمين المادّة للزوجين كونها تمثّل جانباً مهماً لاستمرار الحياة الزوجية بكرامة، وضرورة وجود الملاطفة والكلمة الطيبة بين الزوجين وتقدير الجهود لكليهما. هذا بالإضافة للأسس المطلوبة في الحياة الزوجية التي تتمثّل بالثقة المتبادلة بين الزوجين،

1 عبد الرحمان العيسوي، علم النفس الجنائي أسسه وتطبيقاته العملية، 53، الإسكندرية، مكتبة معهد الحقوق القانون الجزائري، الدار الجامعي، 1410 هـ/ 1990م، 352 صفحة.

والحوار وحفظ الأسرار، وأسلوب المودّة والرحمة وغيرها من الأسس المهمّة التي يجب الحثّ عليها ومتابعتها والحفاظ عليها. هذا بالإضافة إلى أبرز التحدّيات التي تواجه حياة كلّ من الرّوجين، من تحديات اقتصادية، إلى ظهور وتطوّر تكنولوجيّ مثير للأهمية، لمبدأ الحرّية الفرديّة الذي بدأ يخيم بظلاله على أذهان الأفراد. واستعرضنا أيضًا ما لأهميّة القيم الاجتماعيّة في حياتنا كأفراد في مجتمع واحد، فالإيثار بالنفس لأجل الشريك على وجه الخصوص تضحية يقوم بها أحد الرّوجين في سبيل إسعاد الرّوج الآخر، مهم جدًّا للتراحم والتواد فيما بينهما.

هذا وقد عرجنا بوصف مفصّل لمواقع التّواصل الاجتماعيّ، أنواعه وأهم تطبيقاته، واسترسلنا في ذكر سلبياته وإيجابياته العامّة والخاصّة، العامّة للمجتمع بشكل عام، وخاصّة في تأثيرها بشكل مباشر على الحياة الرّوجيّة. وخصّصنا بشكل مفصّل مبحث كامل لتطبيق الواتس أب كونه المتغيّر الأساسي للدراسة، حيث عرضنا توقيت ظهوره للمرة الأولى كتطبيق فعّال بيت الأفراد، وما هي معايير وأهم استخداماته والتسهيلات المطبّقة به. وقد استعرضنا تأثيراته على العلاقة بين الآباء والأبناء من ناحية، وعلى العلاقة بين الأزواج من ناحية أخرى، وكيف خلق هذا التّطبيق خلخلة عند بعض العائلات، ومشاكل عند بعض الأسر قد وصلت إلى خلق عدم التّقة بين أفراد العائلة المهزوزة، التي أدت في نهاية المطاف إلى الطّلاق.

من أهمّ النتائج: لا يمكن معالجة النّتيجة إنّما معالجة السبب الذي دفع كلّاً من الزوج والزوجة إلى الغوص في غمار وسائل التّواصل وتحديدًا الواتس أب . وبهذا نكون قد وضعنا المشكلة ضمن إطار الحلول لها لمعالجة الأسباب وبالتالي فإنّ النّتيجة ستحلّ تلقائيًا، وطالما أنّ الأسباب الموجبة لهروبهم إلى العالم الافتراضي موجودة سيبقى لجوئهم لهذا العالم.

1 - على الطّرفين الرّجل والمرأة المقدمين على الرّواج إدراج خطّة تحت عنوان «الأمور الحياتيّة المناسبة للطّرفين» تتّصف بالشفافيّة والوضوح، بالتّقة وتحمل المسؤولية، لتلافي الأخطاء قدر الإمكان التي قد تُزعج أحدهما لتقليل خطر الوصول إلى مرحلة الطّلاق.

2 - عدم الإكثار والغوص في التّعامل والاستخدام للتّواصل الاجتماعيّ، وبالأخصّ

الواتس آب، الذي قد يلهيه عن الشريك وتالياً قد يثير الشكوك لديه، وأن يقتصر التعامل مع هذه التقنيّة في ما لا يخالف الشرع والأخلاق والقيم والمبادئ.

3 - المطلوب من الزوجين للحفاظ على استمراريّة الحياة الزوجيّة بينهما وعدم الوصول إلى الطلاق، احترام كلّ منهما الآخر وعدم الانجرار وراء الرغبات التي قد تخالف الأعراف والقيم، إذ يتحقّق ذلك بالتزامهما الحقوق والواجبات التي أقرّها وأمرهما بها الشرع، وبأن يضع كلّ منهما تقوى الله تعالى نصب عينيه.

4 - وسائل التّواصل بشكل عام جدًّا مهمّة، لذلك يُطلب الوعي الكافي والإدراك التّام لمدى أهميّة الأمانة في العلاقة الزوجيّة في المقام الأوّل ومن ثمّ الفطنة في كميّة الإستخدام الإيجابي للوسائل والتقنيّات المتوفّرة عبر الإنترنت فيما يخدم العلاقة الزوجيّة بشكل خاص وعلاقتهم الاجتماعيّة بشكل عام.

5 - عدم الاستخفاف بمشاعر الطّرف الآخر واستسهال الأمور، ففي العالم الفضائيّ المليئ بضعاف النفوس، قد يوقع أحد الزوجين بمتاهات خطيرة للغاية، لذلك على الطرفين التنبّه لتلك المخاطر واحترام مشاعر الشريك.

6 - وأخيرًا يأتي دور وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة لدينا، فبدلًا من التّركيز على عرض المسلسلات التي تحثّ على الخيانات الزوجيّة، التي قد تجعلها أمور مشروعة بعين المشاهد، عليهم التّركيز على ضرورة التّماسك الأسري والتّرابط العائليّ وتكثيف البرامج عن أهميّة الزّابط الزوجيّ وعدم الانجرار وراء الوسائل التي تؤدّي إلى الطلاق.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- الشافعي، محمد بن ادريس، (-204 هـ / 820 م)، ديوان الشافعي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1416 هـ / 1996 م، (1-3) 218 صفحة

المراجع

1. أنزيوني، أميتاي، التغيّر الاجتماعيّ : مصادر، نماذجه، نتائج، ترجمة حنونة، محمد أحمد، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السوريّة، 1404 هـ / 1984 م، 123 صفحة.
2. بعقليني، نجيب، حب واستمرار، بيروت، دار الفكر اللبناني، الجامعة الأنطونيّة، 1419 هـ /

1999 م، 166 صفحة.

3. البعيني، حسن أمين، العادات والتقاليد في لبنان في الأفراح والأعياد والأحزان، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 1421 هـ / 2001 م، 416 صفحة.
4. تناعو، سمير، النظرية العامة في القانون، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1405 هـ / 1985 م.
5. الجماعي، صلاح الدين أحمد، الإغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، دار الزهران للنشر والتوزيع، 1433 هـ / 2013 م، 292 صفحة.
6. حركات، سميرة عمار، « استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بين السلبيات والإيجابيات »، المجلة العربية للدراسات الأمنية، 36 (76 / 2020م)، 316-285.
7. حمدان، حسان، الزواج والمعوقات للإجتماعية والاقتصادية، بيروت، مركز حقوق المرأة للدراسات والأبحاث، 1423 هـ / 2003 م، 208 صفحة.
8. حطب، زهير، تطور بنى الأسرة العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1400 هـ / 1980 م، 249 صفحة، (1-2).
9. الساعاتي، سامية حسن، الإختيار للزواج والتغير الاجتماعي، بيروت، دار النهضة العربية، 1401 هـ / 1981 م، 483 صفحة.
10. عبد المعطي، عبد الباسط، البحث الاجتماعي، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1407 هـ / 1987 م
11. العيسوي، عبد الرحمان، علم النفس الجنائي أسسه وتطبيقاته العملية، الإسكندرية، مكتبة معهد الحقوق القانون الجزائري، الدار الجامعي، 1410 هـ / 1990م، 352 صفحة.
12. غرابيه، فوزي، أساليب البحث العلمي العلوم الاجتماعية والإنسانية، الأردن، دار وائل للنشر، 1428 هـ / 2008 م، 197 صفحة.
13. فلوريدي، لوتشيانو، الثورة الرابعة : كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، ترجمة السيد، لؤي عبد المجيد، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1437 هـ / 2017 م، 318 صفحة.
14. ملحم، سامي محمد، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، الأردن، دار المسيرة، 1430 هـ / 2010 م، 512 صفحة.
15. معتوق، فريدريك، التقاليد والعادات الشعبية اللبنانية، بيروت، غروس برس، 1406 هـ / 1986 م، 136 صفحة.
16. نعمان، ميرنا موريس، «استخدام الشباب لمواقع التواصل الاجتماعي بين الآثار الإيجابية والآثار السلبية» ، مجلة للبحوث العلوم الاجتماعية والتنمية، 5 (4 / 2022م)، 575-599.

5. الدوريات

1. الخطيب، جمال محمد، « تعديل السلوك الإنساني » ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 11 (23 / 2016 م) ، 397 صفحة، (8-1) .
2. شحاتة، عبد المنعم، الإختيار الزوجي: « دراسة على العاملات في المجال الأكاديمي والطالبات الجامعيّات » ، مجلّة العلوم الاجتماعيّة، 1419 هـ / 1999 م.
3. الشبول، أيمن، « المتغيّرات الاجتماعيّة والثقافيّة لظاهرة الطلاق»، مجلة جامعة دمشق، 48 (3 / 2010) ، 647-705.
4. عبد الجواد، خالد أحمد، «علاقة استخدام وسائل التّواصل الاجتماعيّة بمشكلات الأسرة العربيّة»، المجلّة المصريّة لبحوث الأعلام، 64 (3 / 2018) ، 95_138.
5. عبد القادر، نسرین عبدالله، « أثر وسائل التّواصل الاجتماعيّة على طبيعة العلاقات الزوجيّة»، حوليات آداب عين شمس، 69 (7/2020) ، 487_504.
6. عيساوي، أحمد، « إلى أين يسير بنا الإدمان الفيسبوكي؟»، مجلة الوعي الإسلامي، 53(633)/2018م، 42-43.
7. الفوزان، رحاب عبدالله، « جودة الحياة الزوجيّة وعلاقتها بإفصاح عن الذات لدى المتزوجين في مدينة الرياض»، مجلة كليّة التربية، 36 (3/2020 م) ، 517-559.
8. الحلواني، محمد ابراهيم، «المساواة الاجتماعيّة في السيرة النبويّة»، مجلّة الوعي ، 64 (634 / 2019 م)، 11-15.
9. الفطافطة، محمود، «مستقبل الإعلام الجديد»، مركز رام الله للدراسات وحقوق الإنسان، فلسطين، 9 (36 / 2012 م) ، 65-73.
6. المصادر الإلكترونيّة :
1. الأيوبي، أحمد، «غياب الإهنمام بعلم التشريع في لبنان والعالم العربي»، محامي نت. WWW.Mohamah.net\law\
2. المؤتمر الوطني حول الأسرة اللبنانيّة وإشكالاتها، مصلحة الشؤون الأسريّة، وزارة الشؤون الاجتماعيّة، 1429 هـ / 2009 م ، 96-97.

موقف السلطات الفرنسية من اندلاع الثورة الجزائرية (1954-1956)
دراسة تاريخية

The position of the French authorities on the outbreak of
the Algerian revolution

(1954-1956)

ديانا القزي

Diana Al-Qazzi

أ.د. محمد علي القوزي مشرفاً رئيساً أ.د. محمد عمر عبد العزيز عمر مشرفاً مشاركاً
تاريخ الاستلام 2024 /4/20 تاريخ القبول 2024 /5/8

ملخص البحث

قدّم الشعب الجزائريّ تضحّيات كبيرة وجهوداً جبارة من أجل تحقيق الاستقلال والسيادة الوطنيّة، فلقد ثار مرات عديدة في وجه الاستعمار الفرنسيّ واستخدم وسائل وأساليب مختلفة ومتعدّدة من أجل تلك الغاية، لكنّه لم يوفق إلا بعد أن فجر ثورة في الأول من تشرين الثاني 1954، زاوجت فيها القيادة الثوريّة بين العمل السياسيّ والعسكريّ فتمكّنت من تحقيق الاستقلال.

وقد ظهرت الكثير من المواقف بشأنها سجّلتها قيادات الاحزاب الجزائريّة، ومواقف صادرة عن الفرنسيين كمعمرين أو إدارة استعماريّة اختلفت تفسيراتها للأحداث بحسب سياستهم وأيديولوجياتهم وقربهم من مركز صنع القرار، وبحسب تصوّره لمستقبل البلاد واجهت الجزائر أعنف استعمار استيطانيّ، استعمار كان ولمدة 132 عاماً من 1830 حتى 1962 يهدف إلى محو الوجود التاريخيّ والحضاريّ وحتى الإنسانّي لدولة الجزائر. كما أنّ توالي صيحات الاستنكار ضد سياسة القمع التي انتهجتها السلطات الفرنسيّة ساهمت في تشكيل رأي عام فرنسيّ مناهض لهذه السياسة فكان ذلك ضمن العوامل التي ساعدت على نجاح الثورة الجزائرية، وأرغمت السلطات الفرنسيّة على الرضوخ للامر

الواقع والجلوس على طاولة المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني الجزائري والتي تكلفت باسترجاع الشعب الجزائري لحريته واستقلاله.

Abstract

The Algerian people made great sacrifices and tremendous efforts in order to achieve independence and national sovereignty. They revolted many times in the face of French colonialism and used many different means and methods for that goal, but they did not succeed until they sparked a revolution on November 1, 1954, in which the leadership combined the revolutionary movement between political and military action was able to achieve independence.

Many positions have emerged regarding it, recorded by the leaders of the Algerian parties, and positions issued by the French, as colonizers or colonial administrations, whose interpretations of the events differed according to their policies, ideologies, and proximity to the decision-making center, and according to their perception of the country's future.

Algeria faced the most violent settler colonialism, a colonialism that lasted for 132 years from 1830 until 1962 and aimed to erase the historical, cultural, and even human existence of the Algerian state. The continuous cries of denunciation against the policy of repression pursued by the French authorities contributed to the formation of French public opinion against this policy. This was among the factors that helped the success of the Algerian revolution, and forced the French authorities to submit to the fait accompli and sit at the negotiating table with the Algerian National Liberation Front, which culminated in by restoring the Algerian people to their freedom and independence.

مقدمة

بعد أن أعلنت الثورة الجزائرية عن نفسها سواء من خلال بيان أول نوفمبر، تشرين الثاني 1954، أو من خلال العمليات العسكرية عبر مختلف مناطق الوطن الجزائري، حتى ظهرت العديد من المواقف بشأنها، سجلتها قيادات الاحزاب الجزائرية ومواقف صادرة عن الفرنسيين كمستعمرين أو إدارة استعمارية ، اختلفت تفسيراتهم للأحداث بحسب سياستهم وإيديولوجياتهم وقربهم من مراكز صنع القرار ، وبحسب تصوّرهم لمستقبل

البلاد، لكن الشيء المؤكد هو أن السرية التي اعتمدها الثورة في التحضير والانطلاق أريكتهم جميعاً، مما جعل مواقفهم متناقضة، ولم توفق الى حد بعيد في تفسيرها لهذه الثورة، أضف الى أن الجانب الفرنسي لم يعطها قيمتها وحجمها الحقيقي الأمر الذي جعله يدخل في دوامة من القرارات المتناقضة التي انعكست سلبيًا على واقع الفرنسيين سياسيًا وعسكريًا، اقتصاديًا واجتماعيًا. أما الجانب الجزائري فالتبس عليه الأمر مما جعله يتردد بين دعم الثورة من عدمها.

سننطلق في هذا البحث الى بيان أول نوفمبر، تشرين الثاني 1954، وسنتناول ردود فعل الفرنسيين على هذه الثورة.

نظرة عن الحياة السياسية في الجزائر قبيل اندلاع الثورة

لم تكن فرنسا تنتظر أن ينهض الشعب الجزائري مجددًا وبذلك السرعة خاصة بعد المجازر التي ارتكبتها الفرنسيين في الثامن من أيار 1945 والتي أتت على الأخضر واليابس وراح ضحيتها 45 ألف شهيد ليحمل السلاح في وجه الفرنسيين، في ظل الظروف السياسية التي كانت السلطات تعتقد أنها حققت نوعًا من التوافق بين الجزائريين وذلك من خلال خلق جو سياسي مهّد له دستور 1946، وبفضله بدأ الجزائريون يتوجهون الى النضال السياسي محاولين إبراز بعض الليونة في التعامل مع الواقع خاصة حزب الشعب الذي لم يكن أكبر المتفائلين أنه سيقبل باللعبة السياسية، لكن أعضاء هذا التنظيم السياسي وقيادته كانوا يعرفون مكر فرنسا جيدًا، ولم يكونوا يؤمنون بعودها الكاذبة، لذلك حاولوا أن يتأقلموا مع كل الاوضاع، فاستعملوا ورقة الانتخابات للتغلغل داخل الإدارة، كما لعبوا ورقة النضال السري والتحضير للكفاح المسلح بتأسيسهم للمنظمة الخاصة، في المقابل وجدت الأحزاب السياسية الأخرى بعض الذي كانت تتشده من مطالب وعدت التغيير الذي حصل في السياسة الفرنسية بعد أحداث أيار، مايو 1945، يجب الاستثمار فيه لأجل تحقيق مطالبها السياسية، الاجتماعية والثقافية.

(مجلة الدراسات الافريقية بالجزائر، أيار 2020)

وفي ظلّ هذه الظروف ولتحقيق مطالبها لم تجد الحركة الوطنية بدأ من العمل على تحقيق وحدة وطنية ولو آنية لوضع فرنسا أمام مسؤولياتها فتشكّلت الجبهة الوطنية للحريّات سنة 1951، لكن ما لبثت أن تشتت بفعل تباين وجهات النظر وظهور انقسام

في حزب الشعب ابتداءً من سنة 1952.

وخلال المدة بين 1950 و1954، كل حزب حاول فرض نفسه للاستحواذ على السّاحة، فجد الاتحاد الديموقراطيّ للبيان الجزائريّ يظهر للحكومة الفرنسيّة أنّه الطّرف المعتدل الذي يمكن التّعامل معه بفضل برنامج يجعل من الجزائر قطعة فرنسيّة، في حين كان الحزب الشّيعويّ يلعب على التوتّرات الدوليّة ومخلفات الحرب العالميّة الثّانية ، والتموضع بناءً على سياسة المعسكر الذي ينتمي إليه، الحزب الشّيعويّ الفرنسيّ، وفي الوقت نفسه كانت جمعية العلماء المسلمين تحاول التّوفيق بين برنامجها كجمعية إصلاحية ثقافية وطموحاتها السياسيّة التي تجسّدت في الانخراط في الحوار والنّقاش والتّحالف أحياناً مع الحركات السياسيّة الأخرى (مجلة الدّراسات الإفريقيّة ، أيار 2020)

أولاً: اندلاع الثّورة الجزائريّة (1954 – 1956)

أ - إعلان بيان الثّورة في نوفمبر 1954

إنّ بيان الثّورة هو عبارة عن وثيقة أصدرتها الجماعة التي اضطلعت بتفجير الثّورة الجزائريّة في الفاتح من نوفمبر، تشرين الثّاني العام 1954، وقد تزامن خروجها مع العمليّات الأولى للثّورة التّحريريّة سواء داخل الوطن أو خارجه، فلقد كلّف محمد بوضياف، المنسق بين الدّاخل والخارج، بنقل هذه الوثيقة إلى القاهرة، وقام أحمد بن بيلا بتلاوتها في الإذاعة المصريّة بالقاهرة.

أما فيما يتعلّق بالصّياعة، يقول الدّكتور محمد العربيّ الزبيري، إنّ أصواتاً كثيرة تزعم أنّ صاحبها هو فلان أو علان، وهو كلام غير صحيح يتنافى مع مبدأ السّريّة المعتمد من طرف من تحمّلوا مسؤوليّة إشعال الفتيل في غياب القياديين السّتة، فإنّ المنطق يدعو إلى القول إنّ الصّياعة كانت جماعيّة وحتى لا تعكس أيّ توجه سياسي غير توجّه حزب الشعب الجزائريّ. ومن ثمة فإنّ الذين كان لهم شرف الصّياعة، لم يكونوا سوى المناصلين المتشبعين بالفكر الوطنيّ الثّوريّ». فالدّكتور محمد العربيّ الزبيري يعتقد أنّ الصّياعة كانت جماعية من طرف جماعة السّتة في أحد اجتماعاتها التّحضيريّة. وما يؤكّد ذلك ربما إحدى الشّهادات التي قدمها التّاريخيّ محمد مرزوقي أحد أعضاء اجتماع الواحد والعشرين في أحد الاجتماعات التّحضيريّة الذي قال: «يوم 23 تشرين

الأول، أكتوبر عام 1954، انعقد اجتماع عند «مراد بوكشورة»¹ ضم مجموعة الستة وخلال الاجتماع حرر بيان أول نوفمبر عام 1954... وتم تصحيح الوثيقة من طرف الصحافي العيشاوي...».

أما بالنسبة للغة فقد كتب البيان باللغة الفرنسية، فلا توجد نسخة باللغة الفرنسية وأخرى باللغة العربية إنما هناك نسخة واحدة وهي التي باللغة الفرنسية وهي الأصلية والبيان المتداول باللغة العربية هو ترجمة عن الأصلية.

ويمكن أن يقسم البيان من ناحية المضمون إلى ثلاثة محاور أساسية: «... أحدها ظرفي وأصبح اليوم جزءاً من التاريخ، ويتمثل في الإشارة إلى العوامل والظروف التي دفعت أصحاب البيان إلى إشعال فتيل العمل المسلح، أما المحور الثاني، فيتعلق بالصراع مع الاستعمار ووضع الشروط الواجب توفرها للتفاوض مع السلطة الاستعمارية (المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، كانون الأول 2016، ص 226). أما المحور الثالث الذي يبقى ساري المفعول حتى بعد استرجاع الاستقلال فهو الجزء المتعلق بالأهداف المستقبلية للثورة وبعبارة أدق مبادئ أسس الدولة الوطنية...» (المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، 2016، ص 227)

إذاً، إن بيان نوفمبر، تشرين الثاني عام 1954 هو أول نداء لجبهة التحرير الوطني الجزائري، والوثيقة الأولى المكتوبة التي أعلنت من اندلاع الثورة ضد الاحتلال الفرنسي، وله أهمية تاريخية كونه أول من عرف بثورة التحرير الجزائري، كما كان له دور بارز في حل الصراع الداخلي بالدعوة إلى التركيز على الهدف الأساسي وهو الاستقلال الوطني، إضافة إلى كونه قاعدة مرجعية بالنسبة للثورة وبناء دولة الجزائر المستقلة، إذ يعد دستور الثورة، ويهدف إلى توحيد الجزائريين على مبدأ الاستقلال والحرية وبناء الدولة الجزائرية العصرية في إطار المبادئ الإسلامية كما كان يعدّ مكملاً للأهداف التي كان يرمي إليها

1 مراد بوكشورة: هو ابن بولوغين بالعاصمة ولد في 31 آذار، مارس عام 1922 بالجزائر، انخرط بالكشافة الإسلامية الجزائرية عام 1942 وأصبح أحد مسؤوليها بمنطقة بولوغين وانخرط في حزب الشعب الجزائري بنفس العام. وعام 1947 وضع تحت تصرف المنظمة الخاصة كمسؤول فوج وكان طرفاً فاعلاً في التحضير للثورة من خلال توزيع التعليمات والتجسس وتجنيد عناصر العمل المسلح ووضع منزله الواقع في (رايس حميدة) تحت تصرف اللجنة الثورة للوحدة والعمل. حيث إنعقد اجتماع على مستوى عالٍ من الأهمية في صيف 1954. وفي 23 تشرين الأول، أكتوبر 1954 استخدم منزله مقراً لإجتماع القادة السنة التاريخي للثورة الجزائرية محمد بوضياف، مصطفى بولعيد، العربي بن مهيدي، كريم بلقاسم، مراد ديدوش ورايح ببطاط توفي في 15 تشرين الأول، أكتوبر 1991 (قدماء الكشافة الإسلامية الجزائرية، 14 أيار 2018).

مسيرة الحركة الوطنية.

وانتخب مجلس الثورة الوطني ليقود الثورة ويصبح لجنتها المركزية والسلطة العليا فيها. وأحمد بن بيلا هو قائد الثورة ورأسها المدبر، وهناك معه زعماء آخرون مثل كريم بلقاسم، وبوضياف وبزید وخيضر ورايح ببطاط وآية أحمد وغيرها كثيرون. إن أحمد بن بيلا هو أول من فكر في تحويل الثورة السلمية التي تتخذ من المفاوضات والمطالب السلمية أساساً لتحقيق مطالب الشعب الجزائري الذي انضم إلى هذه الأحزاب واللجان السياسية، وقد تم انتخاب 72 عضواً هم مجلس الثورة الوطني... (عمرو وعمرو، 1963، ص 45). وهكذا بدا الكفاح يتجه وجهة إيجابية وضعت جبهة التحرير الوطني المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار شخصي أو نفوذ من الاعتبارات التقريرية الزائفة: العدو الوحيد الآن هو الاستعمار (عمرو وعمرو، 1963، ص 45)

تسير الثورة الجزائرية في الخط الثوري الصحيح، لن تقف عند تحقيق المطلب العاجل وهو الاستقلال الوطني، إنما ستتخطاه إلى ثورة شاملة ثورة اجتماعية واقتصادية، لن تكفي بتحطيم الاستعمار وأجهزته ولكنها ستبني الشعب بناءً معنوياً ومادياً.

أحدث بيان أول نوفمبر، بداية الثورة المسلحة، تغييراً نفسياً عميقاً في جماهير الشعب. وقد لا يشعر المرء بعمق المعاني التي ينطوي عليها يوم أول نوفمبر العام 1954، فهناك ناحية إيجابية تكمن في الكفاح الذي غير الأوضاع في الجزائر. منذ هذه اللحظة بدأت الثورة من الشعب ومن أجل الشعب تجربة حية ستجسد كل يوم وتمارسها الجماهير في قلب المعركة: وقد اختار الشعب الجزائري ممثلاً في جبهة التحرر منذ اللحظة معركة الحياة. (عمرو وعمرو، 1963، ص 45)

إذاً، لم يكن تاريخ الثورة مبنوياً عن المسيرة الشاقة للشعب الجزائري بل هو جملة من الحلقات ترسبت في سلسلة واحدة احتفظت فيها الذاكرة الجماعية لتتفاعل في أول نوفمبر 1954 وتتفجر في ثورة يكون شعارها كما قالتها جريدة المجاهد «الثورة من الشعب وإلى الشعب» (عبدوي، 2016، ص 53). فقد كانت الثورة نتيجة النضال الطويل الذي مرت به الحركة الوطنية والذي دام عقوداً من الزمن. فولادة ثورة أول نوفمبر جاءت معبرة بصدق عن حال شعب عانى ظلمات الاستعمار وكانت عصارة لآلامه، ومعاناته ومرارة لآماله وتطلعاته لمستقبل مشرق. (عبدوي، 2016، ص 53). انطلقت الثورة يوم

أول نوفمبر، تشرين الثاني عام 1954، وقد صدر في اليوم نفسه بيان الثورة الذي جاء موضعاً للشعب الجزائري حقيقة الثورة وخبايها، فهي ثورة شعب بأسره. وحسب جريدة المجاهد التي عدت أن الانتشار الواسع للثورة رافقه تحول كبير من حرب العصابات إلى معارك كبرى تقوده وحدات جيش التحرير، فهي ليست ثورة حزب أو مجموعة، ثورة جاءت لتنفذ الغبار من هذه الأرض التي خيم عليها الظلام وتخرج بها إلى النور، لقد انطوت هذه الثورة تحت لواء جبهة التحرير الوطني التي جمعت مختلف التيارات السياسية ووحّدت كلمتها. وقد فرضت هذه الأخيرة شروط على كل منخرط فيها تمثلت في روح المواطنة والإيمان بتحرير البلاد واستقلالها، أيضاً الإيمان بمبدأ الوحدة بين أفراد هذا الوطن والابتعاد عن أي فئوية أو تحزب.

وعليه قامت الثورة من أجل توسيع نطاقها في كامل أنحاء الوطن، ولتسهيل عملية التنسيق بين مختلف الاتجاهات تم تقسيم البلاد إلى ستة مناطق، وعيّنت على رأس كل منطقة قائد أو نائب له. (عبدوي، 2016، ص 53)

كان انفجار الثورة مدوياً، وقد أوقع الرعب في نفوس المحتل، وكانت الانفجارات شاملة عمّت معظم مناطق الوطن، في التوقيت الزمني نفسه تقريبا. لقد جاءت الاعتداءات عبر نقاط مختلفة من القطر الجزائري، وبالأخص في عمالة قسنطينة، ومنطقة الأوراس. أما منطقة وهران، فمناضلو هذه المنطقة، لم يتسلّموا الأسلحة المنتظرة من طرفهم الآتية من الريف المغربي، وقد وافقوا على القيام بمعركة بلا أمل، وتوفيّ سويداني بو جمعة¹ على رأس ذويه في الساعات الأولى من حرب الجزائر. (عبدوي، 2016، السّلمات الفرنسيّة اتهمتها بأنها هي التي فجرت الثورة في الوقت الذي كان فيه مصالي الحاج تحت الإقامة الجبرية مدينة نيس جنوب فرنسا. (عبدوي، 2016، ص 57).

وبمجرد انطلاق الثورة من نيوز إلى «صابلدولون»، من هناك أرسل في يوم 4 تشرين الثاني، نوفمبر العام 1954 رسولاً يبلغ أنصاره بفرنسا والجزائر بالتعليمات التالية: **«لا تسألوا عن من يقف وراء الثورة، واصلوا غمار الكفاح حاولوا أن تسيطر على**

1 سويداني بو جمعة: ولد في قالمة الجزائرية في 20 كانون الثانيين يناير 1922 ينتمي إلى أسرة متواضعة، فقد والده وهو في الرابعة من عمره فكفلته أمه منذ صغره، كان عضواً في جمعية الكشافة الإسلامية التي كانت المدرسة الأولى لتكوين الرجال الوطنيين. وقد ساعده "أحمد جلول" (رئيسه في العمل) في إنخراطه في حزب الشعب حيث عين قائداً لمجموعة ثم قائد فصيلة. استدعي إلى الخدمة العسكرية عام 1944 ورغم كونه مجند ، فقد شارك في مظاهرات أو أيار 1948. (المصدر: قالمة مباشر، 2020).

الحركة». كانت هذه الرسالة موجّهة إلى مولاي مبراح الممثل الشّخصي لمصالي الحاج بالجزائر، لكنّها لم تصل اليه لأنّه قبض عليه عند اندلاع الثّورة، لذلك فإنّ مصالي الحاج لم يكن ضد إعلان الثّورة من أجل استقلال الجزائر، ولكن الشّيء الذي لم يستطع تقبله أن تندلع الثّورة بعيداً من قيادتها. ثلاثون سنة من قيادة الحركة الوطنيّة الجزائريّة، اقتنع مصالي بأنّ الشّعب هو الشّعب والشّعب هو مصالي (عداوي، 2016، ص 57)

ب- موقف الفرنسيين من الثّورة

لقد كان خبر اندلاع الثّورة مفاجئاً للسلطات الاستعماريّة التي رفضت بشكل تام العرض الذي تقدّم فيه بيان أوّل نوفمبر. حيث صدر بيان من وزارة الدّاخلية الفرنسيّة يقول أنّه حدث عدد من الاعتداءات في الليلة الماضية (ليل الأوّل من نوفمبر عام 1954) في عدة نقاط من الجزائر وهي من اقتتراف أفراد وعصابات صغيرة ومعزولة، وأنّ الهدوء التّام يسود الآن بين مجموع السّكان (قاسم، 2013، ص 105)

وفي صباح الثّاني من نوفمبر، تشرين الثّاني عام 1954 من اندلاع الثّورة، كانت الصّحف الفرنسيّة، وأبرزها لا ديباش دالجر (La Depeche D'Algerie) ولو جورنال دالجي (Le Journal D'Algerie) ولا ديباش كوتيديان (La Depeche Quotidienne) قد أطلقت أوصافاً عديدة على الثّورة والثوار، أبرزها «فلاقة» (لفظ شعبي يعني مخربون) و«ارهابيون» و«خارجون عن القانون» و«متمردون».

أما صحيفة (لو موند الفرنسيّة)، فكتبت من باريس «قتلى في الجزائر خلال هجمات متزامنة على مراكز الشرطة» ووصفت اندلاع الثّورة ب «إرهاب شمال افريقيا».

لقد كان الخطاب السّياسيّ في أوساط السّياسة الفرنسيّة شديد اللّهجة ويظهر ذلك في تصريح لرئيس الحكومة منديس فرانس: «ألا ينتظرن من أحد أي تفاهم مع المنحرفين ولا أية تسوية... إن المقاطعات الجزائريّة فرنسية منذ عهد بعيد». (حربي، 1994، ص 29). وفي تصريح آخر قال: «سنعامل التمرد دون هوادة... هنا (بالجزائر) فرنسا...» (عداوي، 2016، ص 160)

وجاء في تصريح وزير الدّاخلية فرنسوا ميتران (أن الجزائر هي فرنسا... هذه هي القاعدة لا لأن دستورنا يفرض ذلك بل لأن ذلك يتماشى وإرادتنا). وعليه فقد سارعت الحكومة الفرنسيّة منذ اندلاع الثّورة إلى جمع كل طاقتها واتّخاذ كل الإجراءات العسكريّة منها والقانونيّة وذلك لإخماد الثّورة في مهدها (عبدووي، 2016، ص 60).

إذا فشل المستعمرون الفرنسيّون عدّة مرات أمام ثورة الكفاح واتّساع رقعته واقتنع هؤلاء أنّهم هذه المرة لا يواجهون حركة إقليميّة محليّة بل يواجهون الشّعب الجزائريّ بأسره. فلا بدّ من حرب شاملة تشنّها القوات الفرنسيّة الاستعماريّة على الشّعب الجزائريّ بل حرب إبادة ثانية. وقد زادت عدد قوّاتها من 49 ألف إلى 400 ألف عسكري خلال شهر شباط، فبراير 1956. وبدأت الحرب، واستخدموا لهذا الغرض أحدث وسائل التّخريب والفتك الذّريع، حرب الإبادة تشنّها فرنسا على حسب خطط مرسومة، وتقع على مرأى ومسمع من العالم الذي أعلن في هيئة الأمم أنّه لن يسمح بإرتكاب هذه الجرائم بحق الإنسانيّة. وقد اعتمد الفرنسيّين على القسوة والتعذيب وإلقاء القنابل على المدن والقرى بما فيها من نساء وأطفال ومواشي، الجنود الفرنسيّون يقومون بهدم المنازل وإحراقها دون شفقة أو رحمة (عمرو وعمرو، 1963، ص 47). وقد ذكرت هذه الوسائل عشرات الكتب، معظمهم من الكتب الفرنسيّة، عن الجزائر وحرب الدماء. وقال أحد الجنود الفرنسيّين: «هذا جميل جدّاً، يجب إحراق الجزائريّين في مساكنهم الحقيرة لأنّهم لا يفهمون إلاّ بهذه الطّريقة». وذكر الكاتب الفرنسيّ «بيار هنري سيمون» في كتابه «ضدّ التّعذيب» كيف رأى جنود المظلّات وهم يعذبون الوطنيّين الجزائريّين بأبشع الوسائل لإرغامهم على الكلام وذلك بوضع ماسورة في فم الوطنيّ تحت ضغط الماء حتى يخرج الماء من جميع المنافذ، الجسم والأيدي مكتوفة وراء الطّهر، ثمّ يعلّق من رأسه حتى تخرج المفاصل من مواضعها. وحين ذلك ينهال عليه جنود المظلات ضرباً لا هوادة، فإن لم يعترف بشيء يرضيهم، يرتكبون عندئذٍ أشدّ الأعمال فظاعة ألا وهي تسليط الكهرباء على رأسه ورجليه حتى يكاد يموت وأخيراً يضرب بالخنجر بين الكتفين. (عمرو وعمرو، 1963، ص 47). وجاء في كتاب «المجدون» لكاتب فرنسيّ: «نحن الآن في وادي الصّمام بالجزائر، وقد جيء بثلاثة من الوطنيّين الجزائريّين وأمرهم الجند الفرنسيّون بحفر حفرة ثم دفنهم فيها إلى العنق وبقيت رؤوسهم معرضة لوهج الشّمس. ووضعوا أمام كل منهم

وعاء به ماء يبعد عن فمه نصف متر، وقيل لهم إنهم لن ينالوا شيئاً إلا إذا تكلموا، فقد ظلّوا على هذه الحال يومين كاملين ثم أعدموا» (عمرو وعمرو، 1963، ص 48).

وقال الصحافي الإنكليزي «جون جيتل»: «إنّ متوسط عدد القتلى الجزائريين في عام 1954 زاد على منّي قتيلاً في الشّهر الواحد، بلغت حصيلة القمع الفرنسيّ خلال شهر تشرين الثّاني، نوفمبر 42 مجاهداً واعتقال 1200 شخص، أما في عام 1956 فقد وصل المتوسط إلى 1400 قتيلاً في الشّهر الواحد ويرتفع العدد في الأشهر الأربعة الأولى من عام 1957 إلى أن وصل إلى 2600 قتيلاً في الشهر. (عمرو وعمرو، 1963، ص 48)، وكان الآلاف يموتون في كل الأوقات.

إن شعور السّلطات الاستعماريّة بخطورة الموقف، جعلها تذكر مرة أخرى بعودها المعسولة حول تطبيق الإصلاحات وهذا ما صرح به وزير الدّاخلية الفرنسيّة نفسه حيث أكّد أنّ على فرنسا أن تتفهم الوضع الدّاخلّي في الجزائر وأن تقوم بإصلاحات فورية، وأمل الجزائر بينهم الوطن الأم فرنسا، كما أكد من جهة أخرى أنّ التدابير العسكريّة غير كافية، وعليه لا بدّ من استثمار أكثر من أربعين مليار فرنك، ليعلم كل جزائريّ أنّه محلّ عناية من طرف حكومة باريس (بلقاسم، 1981، ص 98)

لم تكف السّلطات الاستعماريّة الفرنسيّة بالتّصريحات بل راحت تمارس ضغوطاً على الشّعب ومن يمثّله، فكانت النتيجة حلّ حركة انتصار الحريّات الديمقراطيّة وكذلك الاتّحاد الديمقراطيّ للبيان الجزائريّ (حربي، 1994، ص 263). كما منعت صدور جريدتي «الجزائر الحرّة والأمة الجزائريّة». وسوّغ ميتران وزير الدّاخلية الفرنسيّ قرار الحلّ بإعتبارات ايدلوجيّة: فاطروحات هذه الحركة في نظره هي التي دفعت العناصر المتطرفة فيها إلى حمل السلاح والصعود إلى الجبال (عباس، 2007، ص 93). وفي المدّة نفسها شرع في ترحيل السّكان وتجميعهم في أماكن محدّدة بهدف «تجفيف الماء» من حول «السّمك الثّائر» حتى يختنق ويموت. (عباس، 2007، ص 93) ويشهد على ذلك نداء عامل قسنطينة إلى سكان ناحية توفانة بالأوراس في 20 تشرين الثّاني، نوفمبر، ويأمرهم بالالتحاق فوراً بالأماكن الآمنة مع عائلاتهم وأملاكهم... في وقت أقصاه السّاعة السادسة من مساء الأحد 21، ويهدد النّداء الثّوار «بشرّ مستطير ينزل وشيكاً على رؤوسهم ليهيمن السّلام الفرنسيّ من جديد بالمناطق المتمردة (عباس،

2007، ص 94). ويرى المؤرخ فيدل ناكي في هذا الإجراء «دليلاً على اختيار فرنسا منذ البداية الحلّ الأمنيّ العسكريّ». أمّا في نظر الشاهد والمؤرخ أنري اليع « henry aley » فقد عزم جيش الاحتلال على استعمال جميع الأسلحة ضدّ المجموعات المسلحة بالأوراس» (عباس، 2007، ص 95)

وكما ذكرنا سابقاً قامت فرنسا في الأوراس بتجفيف الماء كي يموت السمك، وفوجئ الثّوار هناك بهذا الرّد السّريع، فجاع بعضهم واضطروا إلى أكل العرعار وحبّ شجرة الطّاقة». فالميدان حليف رئيسيّ للثّوار لكن ينبغي إعداده أيضاً ليكون كذلك فعلاً أسوة بالشّعب الذي ينبغي تحويل استعداده وحماسه إلى تبني حقيقيّ للثّورة وتأييد ملموس وفعال للثّوار (عباس، 2007، ص 99). وقد استقدم الجانب الفرنسيّ منذ البداية إلى منطقة الأوراس كونها البؤرة الأولى والرئيسية خبراء حرب الهند الصّينيّة، ليطبّقوا تقنيّات حرب العصابات المضادة التي استخلصوها من تجربتهم مع الجبهة الوطنيّة لتحرير فييتنام (عباس، 2007، ص 139). كما أدركت فرنسا أهمية المروحيات الحربيّة نظراً لاتساع الميدان وغلبة الطّابع الجبليّ الوعر عليه، ما يفسر لجوء حكومة ادغارفور إلى الحليف الأميركيّ لمدها بهذا النوع من السلاح سواء للقتال أو لنقل الوحدات الخاصة (عباس، 2007، ص 100).

أمّا في أواخر العام 1955، فقد برزت ثغرة خطيرة في الرّأي العام الفرنسيّ وموقفه من الحرب، ورغم بساطة هذه الثّغرة في بدايتها، ظهرت بوادرها في صفوف الجيش الفرنسيّ نفسه (عباس، 2007، ص 143). ففي 29 أيلول، سبتمبر عبّر 300 جندي كاثوليكي (متدين) عن حالة ضمير مبكرة في جيش الاحتلال، عندما وزعوا منشوراً سرياً كشفوا من خلاله عن قلقهم وخجلهم من استعمال القوّة في قضية لا تعني جميع الفرنسيّين، وكتب الوزير، نائب مقاطعة «مايان» «روبير بيرون» Robert perron عن المدّة نفسها أنّ الرّسائل التي كانت تأتيه من المجندين الشّباب وحتى شباب العائلة منهم، «تكشف عن بلبلة وغموض فكريّ وانعدام الواقعيّة» (عباس، 2007، ص 144). كما تحدّث بعض الكتاب الفرنسيّين عن عصيان داخل الجيش الفرنسيّ، الذين رفضوا عمليات التّجنيد الواسعة التي طالت شريحة واسعة من المجتمع الفرنسيّ، حيث عبّر 600 مجنّد من سلاح الجو في الجيش الفرنسيّ، من خلال مظاهرات في محطة القطار ليون بباريس، عن رفضهم الدّهاب الى المغرب العربيّ، مرددين شعار المغرب للمغاربة

ونرفض الذّهاب... (Vitorio,2001,page 53)

وتدلّ مثل هذه المواقف عن أنّ قناعات هؤلاء لم تكن راسخة ودوافعهم كانت دون ما تتطلّبه الحروب بعامة. ويتجلّى هذا الاهتزاز بوضوح وسط جزء من الرّأي العام الفرنسيّ، تعبر عنه فئة قليلة من الكتاب والصحّفيين المستنيرين. وقد كتب روبير بارا في هذا الصّدّد: «إنّ الشّباب الذي رأيته يركب السّفن من مرسيليا في ربيع 1955 الحزين، ذهب لمحاربة شعب فقير مستغل، دفاعاً عن مصالح أقلية اثنية عنصرية وكمشة من الإقطاعيين».

(انظر الصورة 1)



الصورة رقم 1: تمرد الجيش الفرنسي

المصدر: بو علام، 2007، ص 345

وفي السّياق نفسه، أصدرت مجموعة من المثقفين باسم «لجنة عمل المثقفين ضدّ حرب الجزائر» بياناً كان تنبيهاً صريحاً للضمير الفرنسيّ بأنّ «حرب شمال أفريقيا تشكّل تهديداً للجمهورية وجريمة ضدّ الإنسانيّة» (عباس، 2007، ص 144)، وبدأ التّشكيك في جدوى الحل العسكريّ وحده كذلك. وتطوّرت مواقف المثقفين الفرنسيّين تجاه القضية الجزائريّة خاصة بعد تولي ديغول مقاليد السلطة بداية من عام 1958، من خلال ظهور العديد من التنظيمات الرافضة للسياسة الاستعماريّة. وقد عرف هذا البيان ببيان 121، الذي يعد من أقوى البيانات وأشهرها في التّاريخ، وكان ملهمه جون بول سارتر، الذي انضم إليه مجموعة من المثقفين الفرنسيّين الذين وقفوا على حقيقة ما

يجري في الجزائر من تقتيل وإبادة وتعذيب واستطاعت مواقفهم أن تجد لها صدى في الوسط الثقافي الفرنسي، ونتيجة ذلك قام 121 متفقا فرنسياً بإمضاء بيان بداية أيلول، سبتمبر عام 1960 برفض السياسة الوحشية المتبعة من قبل السلطات الاستعمارية ضد شعب الجزائر، ونشر هذا البيان في جريدة *liberté*، وجريدة الحقيقة، ثم في الأزمنة الحديثة. ولا بد من الإشارة أنّ جان بول سارتر، هو من المثقفين والفلاسفة الفرنسيين الذين لم يكتفوا بالتمديد بالأعمال الوحشية المرتكبة ضد الشعب الجزائري، بل أدركوا أنّ قضية الاستعمار إنّما قضية حرية، واستقلال شعب، وله العديد من المقالات في هذا الصدد (عمراني، دون تاريخ ص 76). والجدير بالذكر، أنّ الحكومة الفرنسية منعت الذين وقعوا على البيان 121 بالظهور في التلفزيون والراديو والمسرح. (نور الدين، 2021، ص148)

(انظر الوثيقة رقم 2)



وثيقة رقم 2: بيان 121 المناهض للاستعمار

المصدر: hamon, rotamon, cit.opt, page 396

أما المؤرخ والصحافي الفرنسي روبر بارا، والنّاشط في مجال حقوق الإنسان ، بدوره، بعد سلسلة من الزيارات الميدانية ما بين تشرين الأول، أكتوبر العام 1954 وأيار، مايو العام 1955 فقد توصل إلى خلاصة مفادها أنّ استعادة النّظام بالوسائل العسكرية وحدها ضرب من المستحيل، اللهم إن كان ذلك بإيادى الشعب الجزائريّ إيادى تامة، نظرًا لإجماعه العميق وإرادته في المقاومة (عباس، 2007، ص 145).

ويمكن القول استنادًا إلى ما ذكرناه، إنّ جبهة التحرير الوطنيّ استطاعت في ظرف سنة واحدة التّمكن للنّورة التّحريرية على مختلف الأصعدة وبناء أسس انطلاقتها وتطوّرها باتجاه هدفها المحدّد بوضوح ألا وهو تحرير الجزائر واستعادة استقلالها التّام وسيادتها الكاملة. (عباس، 2007، ص 150)

الخاتمة

قدّم الشعب الجزائريّ تضحيات كبيرة وجهودًا جبارة من أجل تحقيق الاستقلال والسيادة الوطنيّة، فلقد ثار مرات عديدة في وجه الاستعمار الفرنسيّ واستخدم وسائل وأساليب مختلفة ومتعدّدة من أجل تلك الغاية، لكنّه لم يوفق إلا بعد أن فجر ثورة في الأول من تشرين الثاني 1954، زوجت فيها القيادة الثّورية بين العمل السياسيّ والعسكريّ فتمكّنت من تحقيق الاستقلال .

والمتتبع لمواقف الوطنيّين من الثّورة الجزائرية يستطيع القول إنّ السريّة ميّزت اندلاع الثّورة، وإخفاءها جعلت من الاحزاب الوطنيّة تترتّب في إبداء موقفهم منها، خاصة أنّهم يعلمون جيدًا دور السّلطات الاستعمارية في حياكة المؤامرات للقضاء على الوطنيّين المناضلين، وكانوا قد أخذوا العبرة من أحداث الثّامن من أيار 1945 التي أجهزت على الأخضر واليابس ، فأبي عمل أو موقف غير محسوب تكون عواقبه وخيمة على صاحبه. وعلى الرّغم من التّرتيب في بادئ الامر إلا أنّهم وبعد حين أعلنوا دعمهم للثّورة، وقدموا قوافل من الشهداء. (مجلة الدراسات الافريقية بالجزائر، 8 أيار 2020)

لم تواجه الجزائر دولة استعمارية تقليدية، بل واجهت أعنف استعمار استيطانيّ، استعمار كان هدفه ليس فقط استغلال الامكانيات المادية بل كان ولمدة 132 عامًا، من 1830 حتى العام 1962، يهدف الى محو الوجود التاريخي والحضاري وحتى

الإنسانيّ لدولة الجزائر. فعمليات الإبادة الجماعيّة ضد قبائل وعشائر بأكملها، من دون تمييز بين الكبير والصّغير، وبين التّساء والعجزة، إضافة الى ابتكار أساليب فظيعة في تعذيب الجزائريّين، فكل ذلك هي أعمال إجرامية ضدّ الإنسانيّة، محظورة دولياً وأخلاقياً. غير أنّ توالي صيحات الاستنكار ضدّ سياسة القمع التي تنتهجها السّلطات الفرنسيّة في الجزائر، قد أسهمت في تشكيل رأي عام فرنسي مناهض لهذه السياسة، فكان ذلك ضمن العوامل التي ساعدت على نجاح الثّورة الجزائريّة، وأرغمت السّلطات الفرنسيّة على الرّضوخ للأمر الواقع، هو الاعتراف بجبهة التّحرير الوطنيّ كممثل شرعيّ للشّعب الجزائريّ، والجلوس معها الى طاولة المفاوضات التي كلّلت باسترجاع الشّعب الجزائريّ لحريته واستقلاله، بعد ليل استعمار طويل.

المصادر والمراجع

- 1- بلقاسم ، مولود قاسم (2013). ردود الفعل الأولى داخلياً وخارجياً على غرة نوفمبر. دار الامة للطباعة والنشر، الجزائر.
- 2- بو علام ، نجادي(2007). الجلادون من 1830 الى 1962. دار الكتب الوطنيّة، الجزائر.
- 3- عباس، محمد(2007). نصر بلا ثمن الثّورة الجزائريّة(1954-1962). دار القصبة ، الجزائر.
- 4- عبدواوي أحلام (2016). أحمد بن بيلا الدور الوطنيّ والثّوريّ ورجل الدّولة (-1916 2012). مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ. جامعة 8 أيار 1945، قالمة ، الجزائر.
- 5- عمران، عبد المجيد (2008). جان بول سارتر والثّورة الجزائريّة. مكتبة كنزة ، الجزائر.
- 6- عمرو أحمد عمرو وعبد الرّؤوف أحمد عمرو (1963). أحمد بن بيلا ابن شمال إفريقيا. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- 7- حربي ، محمد (1994). الثّورة الجزائريّة سنوات المخاض. ترجمة نجيب عياد ، صالح المثلوني ، الجزائر.
- 8- جريدة الخبر (2 تشرين الثّاني 2012)
- 9- قداماء كشاف الإسلام الجزائريّ (2018-5-14).
- 10-مجلة الجزائريّة للبحوث والدراسات التاريخيّة (كانون الأوّل 2016)
- 11- مجلة العبر للدراسات التاريخيّة والاثريّة في شمال إفريقيا (2021-1-16)

التَّجْمَل والتَّزِين عند العرب - دراسة حضارية لغوية -

La coquetterie et l'embellissement chez les Arabes

Étude culturelle et linguistique

روضة محمّد رياض صبحة¹

Rawda Mohamad Riad Sabha

تاريخ القبول 2024 / 9/5

تاريخ الاستلام 2024 / 8/19

الملخص

الجمال ميلٌ فطريٌّ في الإنسان، يحبّه كائن من كان يسعى بما لديه إلى الوصول إليه، وهل أحلى في السَّمع من كلمة جميل؟ وأجلى في الإيقاع مفردة جميلة؟ إنَّها تُطربُ وتجعل صاحبها في نشوة لا تتضب.

ونزولاً عند تلك المشاعر، عمل الإنسان على الوصول إلى الحُسن، بعيداً من الشَّين. تجسّد العمل المذكور فيما يُعرف بصناعة الجمال، عن طريق فعل الزَّينة التي تغطّي العيوب وترفع للنَّاظرين كلّ مرغوب محبوب.

حضنت الفعل الحضاريّ الصَّيغَة «تفعل»؛ لقدرتها على تغطية المعنى المقصود، وصيغ العربية، بمختلف أوزانها جاءت لتؤدّي في المعاني المتباينة. وقد كَثُر فعل التَّزِين والتَّجْمَل في بطون الحضارة العربيّة التي اهتمّت به كلّ الاهتمام نظراً لمقامه في نفس كلّ الأنام.

عُرِف فنّ التَّجْمَل، فطاول غير عضو من أعضاء الإنسان: العيون، الحواجب... كما وصل إلى تغيير الألوان والزَّرَكشة على الأبدان، وهو ما عُرِف بالوشم... فضلاً على الصِّباغة بالمساحيق بما يُعرف اليوم بالمكياج وغيره من المصطلحات الأجنبيّة.

إنَّها عمليات كشف عنها البحث في ثناياه: وصفها، ذكر كيفية إجرائها ومدى تعامل النَّاس معها... فكان منجزاً حضارياً لغوياً لتاريخ فنّ التَّزِين، يرفع الوهم عمّا يخلد في الأذهان، ويظهر المعطيات والحقائق لكلّ إنسان.

1 باحثة في الدكتوراه جامعة القديس يوسف، معهد الآداب الشَّرقيّة، قسم اللُّغة العربيّة.

Résumé

La beauté est une inclination innée chez l'être humain, aimée par tous et chacun, cherchant par tous les moyens à l'atteindre. Et y a-t-il quelque chose de plus doux à entendre que le mot «beau» ? Ou de plus harmonieux que le terme «belle» ? Cela ravit et met celui qui l'entend dans un état d'euphorie sans fin.

En réponse à ces sentiments, l'homme a travaillé à atteindre la beauté, loin de la laideur. Cet effort se manifeste dans ce qu'on appelle l'industrie de la beauté, à travers l'acte de la parure, qui couvre les défauts et offre aux regards tout ce qui est désirable et aimé.

L'acte civilisationnel a été porté par la forme «taf'ala», en raison de sa capacité à couvrir le sens visé, et les formes arabes, avec leurs différents schèmes, sont venues pour exprimer des significations variées. L'acte de se parer et de s'embellir a été abondamment présent dans les tréfonds de la civilisation arabe, qui y a attaché une grande importance, étant donné sa place dans l'âme de chaque être humain.

L'art de l'embellissement est connu et a touché plusieurs parties du corps humain : les yeux, les sourcils... Il a également impliqué la modification des couleurs et les motifs sur le corps, ce qui est connu sous le nom de tatouage... Ainsi que la teinture avec des cosmétiques, connue aujourd'hui sous le nom de maquillage et d'autres termes étrangers.

Ce sont des processus dévoilés par la recherche dans ses détails : leur description, la manière de les réaliser et la façon dont les gens les utilisent... C'était une réalisation civilisationnelle linguistique de l'histoire de l'art de l'embellissement, levant le voile sur ce qui reste dans les esprits et révélant les données et les vérités à tout être humain.

فاتحة القول

الجمال هبة الله في مخلوقاته، ونعمة أنعمها على موجوداته. من وهبه شكر واعتبر، ومن حرمه صبر واعتذر. أليس هو في حقيقة أمره «الحسن الكثير»؟! وفوق ذلك كله، يُحبّ من اتّسم بسماته، واختصّ بخواصه، فكان واسطة الوصول منه إلى غيره، يصدق

ذلك ما رُوي عن الرسول (ص): «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»¹، تنبيهًا له أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة، فيحبّ من يختصّ بذلك.

إلى جانب ما سبق، يحبّ الإنسان من يثني عليه بالفضائل النفسية والجسدية، ويجد في نفسه الراحة والأمان، كأنه امتلك ما نقص من الإنسان. وهذا الميل الفطريّ طبيعيّ فيه، ولا أدلّ على ذلك ممّا يشاع من بيت: [من الكامل]

يهوى الثناء مبررًا ومقصرًا حُبُّ الثناء طبيعة الإنسان

إنها حقيقة حبّ الثناء، الماثلة «طبيعة الإنسان».

والإنسان، بطول باعه، وسعة قدرته يعمل جاهدًا على استدراك ما فاتته، والتعويض عمّا حُرِمَ من صفاته، عن طريق لمّ شتيت ما يصلح صورته، ويضفي عليها جمالاً في خلقته. إنّه فعل يدور في الطلب والتصنّع، والعمل على تزيين العضو المشوّه المتصدّع والسلوك المقصود يحمل «التجمل» و«التزيين». ماذا يعينان في رحاب الحدود اللغوية. عمّ يدلّ التجمل؟ وماذا يعني التزيين؟؟

التجمل والتزيين في فضاء الدلالة

التجمل مشتقة من الجمال، وأصلها [جمل]، قالوا رجل جميل وجُمال، وهذا يعني الحُسن، والجمال ضدّ القبح²... والجمال ضربان، أحدهما جمال يخصّ الإنسان في نفسه أو بدنه أو فعله، والثاني ما يوصل به إلى غيره³. والمعنى في خطّة البحث المعنى الأوّل، لما يتناول خلق الإنسان في بدنه ونفسه، بما يوصف به الإنسان بالقول: إنّه جميل. ويؤازره المعنى الثاني؛ حبّ النَّاسِ من يختصّ بذلك؛ لأنّ منه تفيض الخيرات الكثيرة.

أمّا التزيين فاشتقاقه من الزينة، التي أخذت من مادّة [زين]، وهو أصل يدلّ على حسن

1 مسلم: صحيح مسلم، تحقيق... محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، لاب، لا، ط، ج 1 ص 93، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر. وأوّل الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر...»

2 ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، اسماعيليان نجفي، إيران (قم)، لا، تا، مج 1 ص 481، مادّة [جمل].

3 الزاغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط 5، 1433هـ - 2011م، ص 203.

الشَّيء وتحسينه والزَّين نقيض الشَّين، يقال زَيَّنْتُ الشَّيءَ تزيينًا وازَّيَنْت الأرض وازيَّنت وازدانت إذا حسَّنها عشبها¹.

والزَّينة بالإجمال ثلاث²: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنية كالقوَّة وطول القامة، وزينة خارجية كالمال والجاه... والمقصود في هذا المقام الزَّينة البدنية وما تُزيِّن صورته في عيون النَّاس. وهي حقيقة يعرِّضها تعريف ابن فارس المذكور: «... وازيَّنت الأرض... إذا حسَّنها عشبها».

وبالنَّظر إلى الصَّيغتين «التَّجَمَّل» و«التَّزَيَّن»، يلاحظ أنَّ وزنهما «تفعَّل». وهي صيغة تأتي بمعنى «فعل»، مثال: تَخَلَّصه بمعنى خَلَّصه، كما قال الشاعر: [من الطَّويل]

خَلَّصني من غَفَلَةِ الغَيِّ مُنْعِمًا وكنْتَ زمانًا في ضِمانِ إِسارِهِ³

ويكون «تفعَّل» بمعنى التَّكَلَّف، مثال: تشجَّع وتجلَّد. والمعنيان مقصودان في البحث، لأنَّ من يتزَيَّن يقصد زَيَّن، ويهدف بسلوكه الوصول إلى الجمال عن طريق فعل التَّجَمَّل، يتكلَّفه تكلَّفًا وليس خَلْفًا. يتحوَّل بعدها إلى ما هدف إليه، ورمى من ورائه له، فجاءت الصَّيغَةُ لتدلَّ مجريات البحث بالهيئة، مفصحة بإجمال الإشارة إلى تفاصيل العبارة.

جوانب التَّجَمَّل والتَّزَيَّن وأساليبهما

ظهر فعل العربيِّ التَّجَميليِّ في بيئته، عبر مفاصل كثيرة، جابت العديد من أعضاء الجسم، على نحو ما يلي:

أ - الحواجب

اهتمَّت المرأة بجمال حواجبها، فاجتلبت ما يدقِّقها. حكى ذلك الفعل «زَجَّج»، الذي يدلُّ على التَّرقيق والتَّدقيق.

أنشد الرَّاعي الخيريِّ يصف الغانيات، وقد قمن بتجميل حواجبهن: [من الوافر]

1 ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مج 3 ص 41، مادَّة [زين].

2 الزَّاعب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص 389 - 390.

3 ينظر النَّعالي: كتاب فقه اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لا.تا. ص 242.

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً وَرَجَّجْنَ الحِوَابِ والعِيونَا¹

و«رَجَّجْنَ» يراد به جَمَلْنَ وَحَسَّنَ ونحوهما. وهو من فعل الجمال في المرأة، يعرِّز ذلك ما ورد عن العرب في التَّزْجِيجِ. ذكر الثَّعَالِبِيُّ في «فصل في الحاجب»: «من محاسنه الرِّجْجِ والبَلَجِ... فأما الرِّجْجُ فدَقَّةُ الحاجبين وامتدادها حتَّى كأنَّهما خُطًّا بقلم. وأما البلج فهو أن يكون بينهما فُرْجة، والعرب تستحبُّ ذلك وتكره القرن وهو اتصالهما»².

والقصد من فعل التَّزْجِيجِ الَّذِي يشبهه خطُّ القلم طولاً واستقامة، الدَّلالة على سعة العين الموازية لطول الحاجب؛ فيعكس ذلك جمال العين، التي تبدو واسعة نجلاء. إنَّها صفة من محاسن العين، قال الثَّعَالِبِيُّ: «...الدَّعْجُ أن تكون العين شديدة السَّواد مع سعة المُقَلَّة... والنَّجْلُ سعتها...»³.

ب - العيون

استحبَّ العربيُّ صفات في العين، واستجلاًباً لذلك الجمال المتمثِّل في صفتي: السَّواد والسَّعة، استعملت المرأة المكحلة، منتزعة الكحلِّ بواسطة الميل. قالوا: «وقد اكتحل وتكحلَّ، والمكحال الميل تكحل به العين من المكحلة. وأضاف ابن سيده: المِكْحَل والمِكْحَال الآلة التي يكتحل بها»⁴.

هكذا استتبَّطت آلة الكحل، جالبة بذلك الجمال للعين، عن طريق التَّصْنَعِ للفعل. وعمل تكحيل العين رافع القباحة عنها، وطارداً للقذى منها؟ فتغدو معه الفتاة جميلة مقبولة للنَّاظِرِينَ. أنشد ثعلب في عين لم تكحل، وما تترك أثر في المتلقي والنَّاظِر: [من الطَّوِيل]

فما لكَ بالسُّلْطَانِ أن تَحْمَلَ القَدَى جفونُ عيونٍ بالقَدَى لم تُكْحَلْ⁵

1 الرَّاعِي النَّمِيرِي: الدِّيوان، جمعه وحققه راينهت فايبيرت، فرانكس شتاينر فيسبادن، المعهد الألماني للأبحاث العربية، بيروت، 1401هـ - 1980م، ص 269، وابن هشام: شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط10، 1385هـ - 1965م، ص 242، وهو من شواهد «المفعول معه».

2 الثَّعَالِبِيُّ: كتاب فقه اللُّغَةِ، ص 66.

3 الثَّعَالِبِيُّ: كتاب فقه اللُّغَةِ، ص 66.

4 ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط6، 2008م، مج 13، ص 30، مادة [كحل].

5 ابن منظور: لسان العرب، مج 13، ص 30، مادة [كحل].

يتمّ فعل التّجَمُّل عن طريق تسويد الجفون، وتحكيل الرّموش، فتطول، وتبدو العين واسعة حوراء، تشبه أعين الطّباء، التي هام بها الشعراء، فغدت مطلب النّساء. قال جرير في صفة العين التي في طرفها حور، وهو اتساع سوادها، ممّا يقتل الشّاهد لهذا السّحر: [من البسيط]

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَ قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا صِرَاعَ بِهِ وَهَنَّ أضعفُ خَلَقِ اللَّهِ أركانَا
طَارَ الْفُوَادُ مَعَ الْخَوْدِ الَّتِي طَرَقَتْ فِي النَّوْمِ طَيِّبَةَ الْأَعْطَافِ مِبدَانَا¹

هكذا يأتي فعل العين بجمالها واسوداد مشاferها ورموشها، التي لا تبدو قاتلة بسهامها، مصيبة كبد الحبيب، فائقة سهام القوس وآسال النبال.

ج - الطيب والعطر

عرفت الأنثى في الحضارة العربيّة «العطر» و«الطيب» بأنواعهما المختلفة، فباتت معها في مقام التّجميل والتّزيين. برز ذلك جلياً في سلوكها الاجتماعيّ، في البيت وخارجه. عندما يتضوّع المسك منها، فتُعرف به، وكذلك العطور الأخرى التي أوجدتها الطّبيعة العربيّة، كرائحة «القرنفل». قال امرؤ القيس، يصف قيام حبيبته وحركتها، وما ينتشر منها في أثناء ذلك، ممّا تحلّت به: [من الطّويل]

إِذَا قَامَتِ تَضَوَّعَ الْمِسْكَ مِنْهَا نَسِيمَ الصَّبَا بَرِيَا الْقَرْنُفُلِ²

والمسك معروف في البيئّة العربيّة، ومتداول بين أبنائها، بأنواعه المختلفة، وكيفيّة استخراجها من الطّباء المتوقّرة عند العرب «وذلك أفضل المسك فيأخذونه ويودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان اصطادوها معدّة، فذلك هو المسك الذي تستعمل ملوكهم، ويتهادونه فيما بينهم وتحمله التّجار في النّادر من بلادهم...»³

1 محمد إسماعيل عبد الله الصّاوي: شرح ديوان جرير، مكتبة محمد حسين النّوري والشّركة اللبنانيّة للكتاب، دمشق وبيروت، ص595.

2 امرؤ القيس: الدّيوان، دار صادر، بيروت، لانتا، ص32.

3 ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م، مج2، ج 4 ص445.

وتبالغ الأنثى في التّطيّب بالمسك، حتّى يغدو مصدره جسدها، وينعكس على فراشها
التي ينبعث منه المسك. أنشد امرؤ القيس، ما تتمتع به حبيبته من زينة وعطور: [من
الطّويل]

وَتُضْحِي فَتِيَّتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا نُؤُومُ الضَّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضُلِ¹
إنها مخدومة ثرية بما يدلّ عليه تزيينها وتطيّبها...

ويتجاوز التّزيين غير شاعر، ويضحى سمة في الحياة العربيّة وتتعدّد العطور متخطّية
المسك إلى الزّنبق الورد². نقل عن الأعشى يصف حبيبته، وما تتمتع به من زينة
وعطور بحيث يذهب ريحها في كلّ حذب وصوب من مكان قيامها: [من البسيط]

إذا تقوم يَضُوعُ الْمِسْكِ أَصُورَةٌ وَالزَّيْبِقُ الْوَرْدِ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمِلُ³

هكذا كانت أردانها (أطراف ملابسها) منبعًا للمسك والزّنبق الورد، حتى إذا غدا طيبها
شاملاً. ويؤدّي الطّيب دور مفردات اللّغة، بحيث يفصح عن مكان الحبيبه: إنّه بمثابة
اسمها، فحلت الرّائحة المشهورة بها مكانه، فعرفت به تعريف اسم العلم. إنّه إحدائية
امتطاها عمر بن أبي ربيعة في الالتهاء إلى معشوقته، قال مصوّرًا ذلك: [من الطّويل]

وَبِتُّ أَنَا جِي النَّفْسِ أَيْنَ خِبَاؤِهَا وَكَيْفَ لِمَا آتَى مِنَ الْأَمْرِ مَصْدَرٌ

فَدَلَّ عَلَيْهَا الْقَلْبُ رِيًّا عَرَفْتُهَا لَهَا وَهَوَى النَّفْسِ الَّذِي كَادَ يَظْهَرُ⁴

هكذا جاء السؤال: «أين خباؤها؟» وفاه الجواب «ريا عرفتها»، وهو ما انتشر من
رائحة.

د - الحلى والجواهر

تخطّت المرأة العربيّة التّصنّع بواسطة المساحيق والعطور، إلى آليات أخرى، أمدها

1 امرؤ القيس: الديوان، ص 45.

2 قال أبو عبيدة: «أجود الزّنبق ما كان يضرب إلى الحمرة؛ فلذلك قال: والزّنبق الورد». ينظر، الخطيب
التّبريزي: شرح القصائد العشر، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1399 هـ -
1979 م، ص 422.

3 ينظر، الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، ص 422.

4 عمر بن أبي ربيعة: الديوان، شرح وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الأندلس، بيروت 1997 م،
ص 95 - 96.

بها البيئة العربية زينت بواسطتها أعضاء جسدها. من ذلك: «الخلخال»¹، الذي تلبسه المرأة ومن الفعل تخلخلت المرأة: لبست الخلخال من صور ذلك قول الشاعر امرئ القيس: [من الطويل]

هَصْرْتُ بِفَوْدِي رَأْسَهَا فَتَمَائِلَتْ عَلَيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَلِ²

إنه مقام وصف الجمال، وما تمتعت به المرأة من زينة لا محال. ويتعدى الموقف غير مكان، مؤكداً فعل التَّجَمَّلَ، فيها يذكر الخلل من الحلي، يتجلى ذلك في قول الشاعر: [من الرجز]

بَرَاقَةُ الْجِيْدِ صَمُوْتُ الْخَلْخَلِ³

وفعل التَّصَنَّعَ ظاهر في حقل البيت الدلالي: برّاقة، صموت... إذ ساقها ممتلئة، بحيث يصمت الخلخال عن الحركة، وهو ما يستحب في المرأة.

ويؤازر الخلخال القُرط من أدوات التَّجْمِيلِ المصطنعة. وهو ما يُعَلِّقُ في شحمة الأذن⁴. ولا أدلّ على مقصد الزينة والتَّجَمُّلِ من قولهم: قرطت الجارية فنقرطت، قال الرّاجز يخاطب امرأته: [من الرجز]

قَرَطَكَ اللهُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ عَقَارِيًّا سَوْدًا وَأَرْقَمَيْنِ⁵

والقُرط، والتَّزْيِينُ به بات دليلاً على الغنى، وآية من آيات الجمال، يحكيه علماء البلاغة عندما استندا إلى طول القُرط في الإشارة إلى الجمال، شاهده قول الشاعر: [من الطويل]

بَعِيدَةٌ مَهْوَى الْقُرْطِ إِمَّا لِنَوْفِلٍ أَبُوهَا إِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ فَهَاشِمٌ⁶

قال قدامة في التعليل على البيت، يؤكد دلالة القُرط على الجمال: «وإنما أراد الشاعر

1 الخلخال والمُخْلَلُ لغة في الخلخال... وأحد خلاخيل النساء، والمُخْلَلُ: موضع الخلخال من الساق. يراجع، ابن منظور: لسان العرب، مج 11 ص 220 - 221، مادة [خلل].

2 امرؤ القيس: الديوان، ص 42.

3 ابن منظور: لسان العرب، مج 5، ص 148، مادة [خلل].

4 ميز العرب بين ما يعلّق في أعلى الأذن من الذي يعلّق في أسفلها، قالوا: «القُرط: الشَّنْفُ، وقيل: الشَّنْفُ في أعلى الأذن والقُرط في أسفلها... والجمع أقراط وقراط وقروط وقِرطَة، يراجع، ابن منظور: لسان العرب، مج 12، ص 73، مادة [قُرط].

5 ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مج 12، ص 73، مادة [قُرط].

6 يراجع د. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان، بيروت، 2007م، ص 564.

أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد، وهو بعد مهوي القُرط»¹.

إلى جانب أدوات التّجميل الآنفة الذّكر، أغدقت البيئّة العربيّة أنواعاً أخرى، ومرادفات للمذكور. عّقدت المصادر باباً اسمه «معرفة حلّي النّساء»، تضمن... القلّب: السّوار يكون من عاجٍ أو نحوه، وكذلك المسكّة والجمع مسك، والوفّف: الخلخال، والسّمط: العقد، والحجّل: الخلخال أيضاً وجمعه حجول، وكذلك البُرّة، والجمع بُرين، والخُدّمة والجمع خِدَامٌ²... وصف عدي بن الرّقاع محبوبته «حُسينة»، وهي متزيّنة بعقد من الشّدْر والمرجان وغيره: [من البسيط]

وَمَا حُسَيْنَةٌ إِذْ قَامَتْ تُودِّعُنَا لِلْبَيْنِ وَإِعْتَقَدَتْ شَدْرًا وَمُرْجَانًا³

وقد ظهر التّزيّن عند القيام للوداع، فبدت آية في الجمال، بما أضافته على جسدها من متاع وجواهر وقلائد.

هـ - الوشم والوسم

اجتلبت الأنثى أقلاماً، ونباتات تفرز ألواناً عديدة، من حبر وسوائل وغيرها، تترك أثرها الظاهر على الجسم؛ فتزيده جمالاً على ما هو فيه، أو تطرد ما يعلوه من قبح عنه. إنّها آليات ومواد أملتھا بيئّة العرب الطّبيعيّة. من أبرز ذلك الأثر ما يسمى بالوشم، وحقيقته: «ما تجعله المرأة على ذراعها بالإبرة، ثمّ تحشوه بالنّوؤور، وهو دخان الشّحم والجمع وشوم»⁴. من وثائق ذلك ما ذكره لبيد بن ربيعة: [من الكامل]

أَوْ رَجْعُ وَاشِمَةٍ أَسِفٌ نُؤُورُهَا كَفَفًا تَعْرَضُ فَوْقَهُنَّ وَشَامُهَا⁵

1 قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، الجزيرة للنشر والتوزيع، القاهرة، لا.تا، ص 136.

2 ينظر تفصيل ذلك، ابن الأجدابي: كفاية المتحفظ ونهاية المتلقظ، حققه وشرحه عبد القادر المبارك، حرّره وشفع منته بالشواهد د. غازي طليمات، راجعة وضبطه د. مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط1، 1424هـ - 2003م، ص 42.

3 عدي بن الرّقاع العاملي: الديوان، جمع وشرح ودراسة د. حسن محمد نور الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م، ص 105. والشّدْر قطع من الذهب، ومما صاغ من الذهب فرائد يفصل بها اللؤلؤ الصّفّار أو نحوه، واحنته: مرجانة.

4 يراجع، ابن منظور: لسان العرب، مج 15، ص 220، مادة [وشم].

5 لبيد بن ربيعة: الديوان، دار صادر، بيروت، 1386هـ - 1966م، ص 165.

فقد جاء على عناصر عملية التزيين بالوشم كاملة: الواشمة، نُور (مادّة الوشم)، والكف (الدّارة والحلقة)، والوشام جمع الوشم... ممّا يؤكّد الصنعة المفضية إلى التّحلية، والأناقة الصّوريّة.

وتتجاوز عملية الوشم الذّراع إلى اليد، منتقلًا على كافة أطراف الجسم، ساكبًا عليها صورة حسنة، اقتطفها الشعراء لتجميل آثار الديار، وتظهير الأطلال. قال طرفة بن العبد: [من الطّويل]

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدِ تَلُوْحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ¹

فقد تعانقت حولة بأطلالها وجمال ذكراها، بعلامات الوشم في ظاهر اليد، التي كانت تتزين به.

ويمتد الوشم ماخرًا أعضاء أخرى من الجسم، ساكبًا عليها مسحة الجمال، ممّا يقربها من الكمال من الأعضاء التي يطالها الوشم «النّعْر»، شاهدة قول ثعلب: [من الرّجز]

ذَكَرْتُ مِنْ فَاطِمَةَ النَّبَسِمَا

غَدَاة تَجْلُو وَاضِحًا مَوْشِمَا

عَذْبًا لَهَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْبُرْشِمَا²

اجتمعت آلية التّجمل والتّزيّن في حقل دلاليّ: النَّبَسِمَا، تجلو، واضحًا، مَوْشِمَا، عَذْبًا والبرشما... إنّهُ فعل حضاريّ، تمّ بمواد محليّة، أوجدتها البيئة العربيّة، أوضح أبو عبيد عمليّة الوشم وكيفيّة القيام به بقوله: «الوشم في اليد، وذلك أن المرأة كانت تغرز ظهر كفّها ومِعصمها بإبرة أو بمسلة حتّى تؤثّر فيه، ثمّ تحشوه بالكحل أو النّيل أو بالنّوور... فيزرّق أثره أو يخضّر...»³.

و - الملابس والألوان

استخدمت الملابس في الأصل، لستر العورة، وما يغطّي الإنسان من قبيح، يصدقه

1 طرفة بن العبد: الديوان، تحقيق دريّة الخطيب ولطفي الصّقال، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ط2، 2000م، ص 23.

2 ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مج 15، ص220، مادّة [وشم].

3 يراجع، ابن منظور: لسان العرب، مج15، ص220، مادّة [وشم].

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْزِرِي سَوْءَ تَكْمٍ وَرِدِيْشًا﴾¹.

ومع تطوّر الأيام، تعدّى اللباس وظيفته الأساسية، إلى وسيلة للزينة وآلة للجمال. تمّ ذلك بما استحدث في الثياب من زركشة وزيادات عليها، وما أضيف إليها من ألوان ونقوش. روت المصادر أنّ المرأة العباسيّة، من سيّدات الطبقة الرّاقية «اتّخذت غطاء الرّأس (البرنس) مرصعًا بالجواهر، محلىّ بسلسلة ذهبية مطعّمة بالأحجار الكريمة. وكانت نساء تلك الطبقة يعلّقن الحجب بزوار البرنس للزينة»².

وزادت الملابس زينة في المناسبات والاحتفالات؛ فكانت توشىّ بخيوط الذهب والفضة، إلى درجة بلغ ثمن بعض الكسي خمسمائة دينار، وثمان المنديل خمسة دنانير³.

ونظرة بنمّعن إلى ملابس النساء، تفوه بالمقصد منها، المتجسّد بالزينة والتّجميل. فقد ميّزت ملابسهم بكثرة النقوش والألوان، ووجود الصّنع وغلبة الأقمشة الحريرية، صور ذلك الشّاعر بقوله: [من البسيط]

صفراء مّتحمةً حيكت نمانمها من الدّمقسّيّ أو من فاخر الطّوط⁴

فقد برزت الألوان: صفراء، متحمة (البرود المخطّطة)، النّمام، الدّمقسّيّ... كلّها تشكل الحقول الدّلالية للزينة والجمال.

وكان لناصم الثياب مكانته في زينة المرأة، على شاكلة ما يسمّى «بالخال»، وهو ثوب ناصم، وضرب من البرود، وبرد أرضه حمراء فيها خطوط سود...⁵.

والبرود توشىّ بتصاوير منها الرّجال؛ فسّمى الثّوب المرّحل، وهو ضرب من برود اليمن. وكذلك مرط مرّحل عليه تصاوير الرّجال. جاء في معلّقة امرئ القيس، وصفًا لثياب حبيبتة: [من الطّويل]

1 سورة الأعراف، الآية 26.

2 ينظر، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السّياسيّ والذينيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ، دار الجيل ومكتبة النّهضة المصريّة، بيروت والقاهرة، ط 13، 1411هـ - 1991م، ج 3 ص 453.

3 حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السّياسيّ والذينيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ، ج 3 ص 600.

4 د. يحيى الجبوري: الملابس في الشّعر الجاهليّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1989م، ص 36.

5 ينظر، د. يحيى الجبوري: الملابس في الشّعر الجاهليّ، ص 39.

حَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجْرُ وَرَاعَنَا عَلَى أَتْرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرْحَلٍ¹

وازدانت الملابس بالكتابة، وشعر الغزل، بحيث فاقت الزخرفة بما حملته من مضامين تثير المشاعر، كما تثير الألوان الحواس والنواظر. رُوي أنّ ولادة بنت المستكفي كتبت بالذهب على عاتقها الأيمن: [من الوافر]

أَنَا وَاللَّهِ أَصْلَحُ لِلْمَعَالِي وَأَمْشِي مِشِيَّتِي وَأَتِيَهُ تَيْهَا

وكتبت على العاتق الأيسر: [من الوافر]

وَأَمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي وَأُعْطِي قُبْلَاتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا²

لقد بدأ البذخ الماديّ مؤازراً للبذخ الفكريّ المعنويّ، حتّى تعانق فاخر الثياب بفاخر الأقوال.

إلى جانب ما تقدّم، عمدت المرأة إلى لبس الثياب الشفافة، التي تصف ما خلفها، إمعاناً في الإغراء، وإثارة لمفاتن الحسنة. وهو سلوك تميّزت به الحضريّات، قياساً بلباس البدويّات. قالت ميسون بنت بحدل موازنةً بين لبس العباءة البدويّة، ولبس الشفوف الحضريّة: [من الوافر]

لَبِيْتُ تَخْفِقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفِ

وَلُبِسُ عِبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشَّفُوفِ³

وتفتنوا بالثياب الرقيقة الشفافة، فجعلوها أنواعاً تبعاً لمقدار ما تظهره من الجسم. نقل الثعالبي في تفضيل الثياب الرقيقة، مفصلاً: «ثوب شفّ إذا كان رقيقاً يستشفّ منه ما وراءه، ثمّ سبّ إذا كان أرقّ منه... ثمّ سابري إذا كان لابسه بين المكتسي والعريان... ثمّ لهله ونهنة إذا كان في نهاية رقة النسيج...»⁴.

1 امرؤ القيس: الديوان، ص 41. المرط: كساء من خزّ أو من صوف. والمرحل: المنقش بنقوش رجال الإبل.

2 ينظر د. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1983م، ص 181.

3 يراجع ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، حقّقه وعلّق عليه د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت، ط 5، 1979م، ص 352.

4 الثعالبي: كتاب فقه اللغة، ص 155.

ز - تكبير الأعضاء

عملت آليّة التّجميل إلى أعضاء الجسم، عن طريق تزيينها بما أضافته إليها من زيادات؛ غيرت الأحجام حيناً، والألوان حيناً آخر، والأشكال في أحيان أخرى. كان مطلب العمل الوصول إلى الشّكل الحسن، وما في النفوس يستحسن، والمرغوب فيه عند كلّ إنسان. تجلّى الفعل في التّسميات التي حفظتها المواد اللّغويّة، على شاكلة: «الإعجازة»، قالوا: «العجاجة والإعجازة: ما تعظّم به المرأة على عجيزتها»¹. ويوصف فعل التّجميل، المائل في الإعجازة بأنّه شيء شبيه بالوسادة تشدّه المرأة على عجيزتها لئحسب أنها عجزاء. و«الرفاعة»، وهي الحشية، وما تضعه المرأة على عجيزتها تعظّمها بها، يقال: تحشّت المرأة، فهي متحشّية.

وكذلك حال «الأضخومة»، وهي الثّوب الذي تشدّه المرأة على عجيزتها تحت إزارها تضخّم به عجيزتها². وعلى شاكلته أيضاً الغلّة، أنشد الشاعر: [من المتقارب]

كفاها الشّبابُ وتقويمه وحسن الرّواءِ ولُبسُ الغلّ³

ولا أدلّ على فعل التّجمل، من محاولة الظّهور بمظهر الشّباب والصّبايا اللّواتي يتّصفن بالجمال والحسن من قوله: «كفاها الشّباب» و«حسن الرّواء» والوصول إلى جمال العجيزة بواسطة «لبس الغل». وهي حقيقة تمثّلت بلبس الغلالة، تناولها الشاعر قائلاً: [من الرّجز]

تَغْتال عَرَضَ النَّقْبَةِ الْمُدَالَةَ

وَلَمْ تَتَطَّقْهَا عَلَى غِلَالِهِ

إلا لحسن الخلق والنّباله⁴

وقوله: «لم تتطقها» السّبب للوصول إلى التّنتيجة «إلا لحسن الخلق والنّباله»، وهي الغاية، وإليها النّهاية.

1 ابن منظور: لسان العرب، مج 10، ص 44، مادّة [عجز].

2 أحمد مطلوب: معجم الملابس في لسان العرب، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1995م، ص 63، 86.

3 ينظر أحمد مطلوب: معجم الملابس في لسان العرب، ص 33.

4 ابن منظور: لسان العرب، مج 11، ص 76، مادّة [غلل].

وفي المقابل، كانت المرأة عظيمة العجيزة، تتمتع عن لبس الحشوة وسواها، وتفخر على أضرابها ممن يلبس تلك القطع من الملابس والحشوات، بما وهبها الله من أعطيات. أنشد ابن الأعرابي مصورًا الحدث الحضاري: [من الرجز]

لا نحتشي إلا الصميم الصادقا¹

ومن آليات تكبير الأعضاء، ما عرف في تعظيم الأرداف، على شاكلة «الإعظام». قال الفراء شارحًا: «العظمة شيء تعظم به المرأة ردفها من مرقفه وغيرها»². والأمر نفسه طاول غيرهما من الأعضاء، كالأصابع، والصدر... كما لحق الأيدي والشعر، بما أضافه إليهما من خضاب وحناء، فتحوّلت من لون الأصل، إلى أصباغ تحلو لكل متأمل.

من السرد والتحليل إلى السند والدليل

ما تقدّم، نماذج وصور تدلّ دلالة كافية على معرفة العرب صناعة التزيين والتجمل. وليست الأقوال السابقة، من باب التسلية والتندر، ولكنها وقائع في الحياة الاجتماعية تُذكر. حقائق تعززها الأدلة، وتشفع لها الأسانيد التالية:

1. الدّعوة إلى التّجمل سلوك اجتماعي معروف في البيئة العربيّة تلجأ إليه المرأة لتحسّن صورتها وتجمّل أعضائها. إنّها نزعة فطريّة في الإنسان، وهو ينزع إلى كلّ حسن. وقد اهتمّت به الفتيات، ودفعت النساء بناتهن إليه. روي أنّ امرأة قالت لابنتها: «تجملي وتعقّفي»³. أي كُلي الجميل، وهو الشّحم المُذاب، قال ابن قتيبة موضّحًا الفعل: «أصله من الجميل، وهو ودك الشّحم المُذاب، يراد أنّ ماء السمن يجري في وجهه»⁴. وأشرب العفاف، وهو ما بقي في الضرع من اللبن. وفي هذا الفعل، يحمّر الوجه، وتتورّد الخدود، فتشرق صورة البنت، وتشعر معها بسعادة الجمال، وفرحة الاكتمال، يدلّ على ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي: [من الوافر]

جمالك أيها القلب الجريح ستلقى من تحب فتستريح⁵

1 ابن منظور: لسان العرب، مج 4، ص 134، مادة [حشا].

2 أحمد مطلوب: معجم الملابس في لسان العرب، ص 34.

3 ينظر، الرّاعب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص 203.

4 ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة، مج 1 ص 481، مادة [جمل].

5 ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة، مج 1 ص 481، مادة [جمل].

2. عرف التَّجْمَل والتَّزَيَّن في الحضر، وكان من سلوك الحضريّات قياساً إلى البدويّات، التي تستند إلى المأكل والمشرب من الأطعمة، التي تغيّر اللّون، كالمذكورة سابقاً. ومعرفة التَّجْمَل وصنعتة حفظها الشعراء، في أثناء الموازنة في الجمال، بين البدويّات والحضريّات، على نحو ما ذكره المتنبّي: [من البسيط].

مَا أَوْجُهُ الْحَضْرِ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأَوْجِهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَائِبِ
حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرَ مَجْلُوبِ
أَيْنَ الْمَعْيُزُ مِنَ الْأَرَامِ نَاطِرَةٌ وَغَيْرَ نَاطِرَةٍ فِي الْحَسَنِ وَالطَّيِّبِ¹

والأقوال السابقة تجلو حقيقة التزيّن والتجمل، وأوضح التحسين في الخلق والمآل إليه... فقد اكتملت لوحة من الجمال سطرّتها ريشة المفردات المستحسنات، الرعائيب، حُسن، تطرية، الحضارة، ناظرة، الطيب...

3. حفظت المصادر أصول التَّجْمِيل الشَّائِعَة في تلك الأونة، بما أوردته من أوصاف النِّسَاء الممدوحة، على نحو: الخَوْد: المرأة الحسنة الخلق، والغادة: الناعمة... والخَدْلَجَة: الممتلئة الدَّرَاعِين والسَّاقِين... والرَّعْبُوبَة: البيضاء الناعمة، الهيفاء الضامرة البطن... والعُطْبُولَة الطَّوِيلَة العنق... والغيداء: المُنْتَنِيَّة من اللّين...² والصفّات نفسها مذكورة عند النّعالبي، في فصل «محاسن العين»، فصل «في الحاجب»، فصل «في تقييم الأنوف»... ومما ورد في تفصيل أوصاف الأنوف المحمودة والمذمومة: الشَّمَم: ارتفاع قصبه الأنف مع استواء أعلاها... الخَنَس: تأخّر الأنف عن الوجه...³ إنّها أثر يدلّ على عين ما كان معمولاً به في أساليب التَّجْمِيل والتَّزَيَّن ومقاييس لجمال الخلق تراعي في مهارات الإبداع، واصطناع التَّحْسِين.

4. النُّطَيْبِ مطلب اجتماعي-حضاريّ، حفظته المادّة اللُّغويّة [طيب]، وغدا هدفاً يقصد إليه الانسان، وتتعلّى به المرأة، ما استطاعت، في كلّ أوان . وارتقى درجة وصل

1 المتنبّي: الديوان، شرح العكبري، ضبطه وصحّحه مصطفى السّقاد إبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، بيروت، 1431هـ - 2010م، ج1، ص 168.

2 ينظر ابن الأجدابي: كفاية المتحقّق ونهاية المتلفّظ، ص39-38.

3 النّعالبي: كتاب فقه اللّغة، ص70-66.

معها إلى أنه حاجة اجتماعية، لا تبارح النساء، يشدّ الأزرق قول امرئ القيس: [من الطويل]

ألم تزياني كلما جئت طارقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تتطّيب¹

وقوله: وإن لم تتطّيب، هي المسعى وإليها تُشدّ الرّجال وتسعى، والطّيب بات معروفاً موجوداً يرسمه قوله: وجدت بها طيباً.

ويشارك الطّيب «التكحلّ» و«التخصّب»، دعت اللّياقة المجتمعية إليها، وبخاصّة في المنتديات، وعند لقاء الرّجال في كثير من المقامات، صوّر ذلك عنتر بن شداد: [من الكامل]

إنّ الرّجال لهم إليك وسيلة² إن يأخذوك تكحلي وتخصّبي²

والدعوة إلى التزيّن جليّة في فعليّ الأمر الواردين في صدر البيت: «تكحلي» و«تخصّبي»؛ ممّا يؤكّد انتشار التّجمل في المجتمع، تدعو إليه دواعٍ كثيرة. قال البطليوسي موضّحاً الغاية من التّجمل: «الرّجال يتوسّلون إليك بما تحسّبه فيهم، وتتقبلينه منهم، وهو البضع، فتتكحلين لذلك وتخصّبين»³.

5. تضمّنت أشعار العرب تشبيهات من موجودات البيئة؛ بما تصنعه الرّينة في الجسم. من أمثلة تشبيهه طرفة آثار الديار - السابق الذكر - بباقي الوشم في ظاهر اليد. وكذلك الأمر في تصوير جمال المرأة، وما تنتزيّن به من الجواهر، تزداد معها صفة الحسن الأخاذ، قال امرؤ القيس يصف حبيبته وأعضاءها، وما حوته من جواهر وقلائد حول عنقها: [من الطويل]

وجيدٍ كجيد الرّئم ليس بفاحشٍ إذا هي نصنّهُ ولا بمُعطلٍ⁴

ومنه أيضاً قول امرئ القيس، يشبه لحم النّاقة وشحمها بأطراف الثّوب من الحرير الأبيض، ومن كتّان إبريسم: [من الطويل]

1 امرؤ القيس: الديوان، ص 64.

2 عنتر بن شداد: الديوان، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق، ط2، 1403هـ - 1983م، ص 273.

3 أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي: شرح الأشعار الستة الجاهلية، تحقيق ناصيف سليمان عواد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 2000م، ص 24، ص 112.

4 امرؤ القيس: الديوان، ص 44.

فَظَلَّ الْعِدَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا

وَشَحْمَ كَهْدَابِ الدَّمْفَسِ الْمُفْتَلِّ¹

بجيدها كجيد الظبي غير متجاوز قدره المحمود، ثم ذكر أنه لا يشبهه جيد الظبي في التعلل عن الحلي، مؤكداً أدوات التجميل من قلائد حول العنق. ومعلوم أن العرب تستعمل في تشبيهاتها، وتصويرها ما عرفته في بيئتها، الأمر الذي يعزز التزيين. قال ابن طباطبا: «واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرّت به تجاربها...² ونزولاً عند المبدأ المذكور، تبنت آلة الزينة، وأدوات التجميل...»

6. يفضى اشتقاق الجمل والأناقة، إلى عمليات التجميل، والتزيين عند العرب؛ نظراً لارتباط الاسم بسماه. ولم تكن تسمية الجمال والأناقة عرضاً لا ارتباط له بالبيئة. أفصح ابن جنّي عن هذا الاشتقاق والربط، قائلاً: «...ألا تعلم أن في الناقة معنى الفعل، وذلك أنها فعلة من التتوق في الشيء وتحسينه... والتقاؤهما في الناقة عندهم مما يتحسن به، ويزدان بملكه، وبالإبل يتباهون، وعليها يحملون ويتحملون؛ ولذلك قالوا لمذكرها: الجمل؛ لأنه فعل من الجمال، كما أن الناقة فعلة من التتوق، وعلى هذا قالوا: قد كثر عليه المشاء والفتشاء والوشاء، إذا تناسل عليه المال. فالو شاء فعّال من الوشي، كأن المال عندهم زينة، جمال لهم، كما يلبس من الوشي للتّحسن به...³

إنها جملة من الأسانيد، تؤكد حقيقة ما تقدّم من عديد، وتشير إلى اليقين وعنه لا يحدد.

خاتمة رحلة الفكر والتجوال

خُصّ البحث، بعد تجواله، إلى ضرب الكشح عن معطيات حضاريّة، تتمثّل في صناعة الجمال، ومهارات التزيين وصولاً بالخلق إلى ما يشبه الكمال، أو ما يشكّل من رضا النفوس بلا جدال. برز جلياً معرفة العرب في القديم فنّ التجميل، واعتماده في حياتهم بما يقربهم من اللياقة، وقبول الآخر.

وتوجز معطيات البحث قضايا أولها معرفتهم أدوات للتجميل وآليات للزينة، بما أغدفته

1 الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، ص 31. والدّمفس: الحرير الأبيض، ويقال: القَرّ وقيل الدّمفس والمدقس كلّ ثوب أبيض من كتان أو إبريسم أو قرّ، نشبهه شحم هذه الناقة والجواري يترامينه بهدّاب الدّمقسّي.

2 ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق د. محمد زغول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، لا.تا، ص 48.

3 ابن جنّي: الخصائص، حقّقه محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، لا.تا، ج 1 ص 122.

عليهم بيئتهم، وأن ما يعرف اليوم من آليات، برز غرسها في أيام العرب الضاربة في القدم... وثانيهما قدرتهم على ابتداع ما يكبر الأعضاء، التي بدأت حشايها وغلل... وانتهت اليوم إلى آلات صناعية لا تبارح الأولى إلا بما استجد من أدوات أملتتها الحضارة الحديثة، كالحقن بالسيليكون Silicone بدلاً من الإعجازة... وثالثهما إبداعهم في الوشم، وما يترك من جمال على الأعضاء، وقد تحوّل بفعل الحضارة الجديدة إلى ما يسمى «بالتاتو» Tatoo، كأن التسمية الأجنبية تشير إلى أنّ الصناعة أجنبية، لا فضل للعرب فيها.

ويؤازر ما سبق، معرفة العرب مكامن الجمال، وصفات كلّ عضو جميل، مما يضيء الطريق لفاعل التزيين لتقليده، والسير على منواله، لأنّه مثاله. من ذلك صفات العيون النجلاء، ولون الخدود الحمراء والشفاة اللمياء والأسنان البيضاء والحواجب البلجاء...

يفسر ذلك قول الشاعر، الذي أجمل معظم الصفات في قوله: [من البسيط]

وأمرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتُ ورداً، وعضتُ على العنابِ بالبرد¹

شبه الشاعر الدّمع باللؤلؤ، والعين بالنرجس، والخذ بالورد والأنامل بالعناب والنعر بالبرد، مقدّمًا صورًا لجمال كلّ عضو، وما يشبهه من وجودات الطبيعة، كأنّه يذكر أدوات التجميل المطلوبة به للتزيين وألوانها المحببة للناظرين.

وبالمضامين السابقة كشفت عن أصول جمالية حضارية، أرساها البحث، مبررًا في ذلك القيم الحضارية التي ساهم فيها العرب في فنّ الزينة والتجميل النسائية إلى جانب وضعهم الكثير من المعايير الجمالية لكلّ عضو: كجمال العينين والحاجبين، وامتلأ الساق، واستدارة الكشح ودقته... ممّا تعتبر أساسًا لمعايير الجمال المعتمدة اليوم.

وأجلت خوا في الكثير من الحركات الجذابة المثيرة التي تؤدّيها المرأة، والتي شاعت في الميل والرّقص، التي استودعت بطون الأشعار، كقولهم: «إذا قامت» و«قامت» و«تمايلت» وما يشاكلها.

لم تعد شواهد العربية وعاءً لأحكامها وقواعدها، بل تجاوزت ذلك إلى ما تحتضنه في رحمها من قيم حضارية، وقضايا اجتماعية، كالبازرة فيما تقدّم... وكذلك حال المواد

1 ينظر الثعالبي: كتاب فقه اللغة، ص 244.

اللُّغوية، التي اختزنت نشاط المجتمع، مسطرةً المعارف التي عاينها، والعلوم التي أتقنها... لقد جاءت مساندة لكتب الحضارة والتاريخ والاجتماع... وسواها من العلوم، فيجب التنبيه إليها والاعتماد عليها عند خوض أقلام الباحثين فيما شاكلها.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- 1- ابن الأجدابي، كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، حققه وشرحه عبد القادر المبارك، حرّره وشفع منته بالشواهد د. غازي طليمات، راجعه وضبطه د. مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط1، 1424هـ - 2003م.
- 2- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م.
- 3- ابن جنّي، الخصائص، حققه محمد علي النّجار، دار الهدى للطباعة والنّشر، بيروت، ط 2، لا.تا.
- 4- ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، لا.تا.
- 5- ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلميّة، اسماعيليان نجفي، إيران (قم)، لا.تا.
- 6- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط6، 2008م.
- 8- ابن هشام، شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط10، 1385هـ - 1965م.
- 9- ابن هشام، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، حققه وعلّق عليه د.مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت، ط 5، 1979م.
- 10- امرؤ القيس، الديوان، دار صادر، بيروت، لا.تا.
- 11- البطلبوسي، أبو بكر عاصم بن أيوب، شرح الأشعار السّنة الجاهليّة، تحقيق ناصيف سليمان عواد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد 2000م.
- 12- التّبريزي، الخطيب، شرح القصائد العشر، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1399هـ - 1979م.
- 13- النّعالبي: كتاب فقه اللّغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لا.تا.
- 14- الجبّوري، يحيى، الملابس في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989م.
- 15- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسيّ والدينيّ والثقافيّ والاجتماعيّ، دار الجيل

- ومكتبة النهضة المصريّة، بيروت والقاهرة، ط 13، 1411هـ - 1991م.
- 16- الشّكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1983م.
- 17- الصّاوي، محمد إسماعيل عبد الله، شرح ديوان جرير، مكتبة محمد حسين النّوري والشّركة اللبنانيّة للكتاب، دمشق وبيروت.
- 18- طرفة بن العبد، الدّيوان، تحقيق دريّة الخطيب ولطفي الصّقال، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 2000م.
- 19- العاملي، عديّ بن الرّقاغ، الدّيوان، جمع وشرح ودراسة د. حسن محمد نور الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م.
- 20- عمر ابن أبي ربيعة، الدّيوان، شرح وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الأندلس، بيروت 1997م.
- 21- عنتره بن شداد، الدّيوان، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق، ط2، 1403هـ - 1983م.
- 22- قدامة بن جعفر، نقد الشّعور، تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، الجزيرة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، لا.تا.
- 23- لبيد بن ربيعة، الدّيوان، دار صّادر، بيروت، 1386هـ - 1966م.
- 24- المتبني، الدّيوان، شرح العكبري، ضبطه وصحّحه مصطفى السّقّاد إبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، بيروت، 1431هـ - 2010م.
- 25- مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى الباجي الحلبي وشركاه، لا.ب، لا.ط.
- 26- مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، مكتبة لبنان، بيروت، 2007م.
- 27- مطلوب، أحمد، معجم الملابس في لسان العرب، مكتبة لبنان، بيروت، 1995م.
- 28- التّميري، الرّاعي، الدّيوان، جمعه وحققه راينهت فايبيرت، فراننتس شتاينر فيسبادن، المعهد الألمانيّ للأبحاث العربيّة، بيروت، 1401هـ - 1980م.

أثر خطاب «أمر اليوم» في التّواصل الداخليّ في الجيش اللبناني¹

The impact of the “Order of the Day” speech on internal communication in the Lebanese Army

شئيم الدرويش²

Shaim Al-Darwish

تاريخ القبول 2024 / 8 / 14

تاريخ الاستلام 2024 / 8 / 1

الملخص

يشكّل التّواصل الفعّال مع الكادر البشري في المؤسسات عاملاً رئيساً في نجاحها وتحقيق رؤيتها وأهدافها، وذلك يحتاج إلى إدارة تدرك أهميّة الاتّصال والتّواصل معهم. ولأنّ المؤسسة تقوم على مستويات إدارية متعدّدة (استراتيجية - تكتيكية - تنفيذية)، فإنّ رؤيتها تأتي في المستوى الاستراتيجي وهي مرتبطة بأصحابها أو قادتها. على هذا النحو، فإنّ الجيش اللبناني يُعدّ تنظيمياً مؤسسة بعيداً من خصوصيته الأمنيّة - لها رؤيتها وأهدافها التي تخدم مصالح الدّولة اللبنانيّة من ضمن أدوات القوّة الوطنيّة.

يسير الجيش اللبنانيّ بأهدافه الوطنيّة بقيادة ضابط عام برتبة عماد، وهو يدرك تماماً أهميّة التّواصل الداخليّ مع مرؤوسيه من العسكريين لتوجيههم وتحفيزهم خدمة للمصالح الوطنيّة والأهداف الاستراتيجية للجيش. لكن التّواصل مع العسكريين لتحقيق الرّؤية الاستراتيجية يأخذ عدّة أشكال، منها التّواصل اللفظي. يشكّل خطاب «أمر اليوم» أحد أساليب التّواصل الداخليّ اللفظي مع العسكريين، يستخدمه قائد الجيش اللبنانيّ ليتوجه به إليهم.

كلمات مفتاحية: التّواصل - الجيش - قائد الجيش - أمر اليوم

1 إنّ الأفكار والمعلومات الواردة في هذا البحث هي من مسؤولية الكاتب الشّخصيّة حصراً، ولا تتبناها قيادة الجيش اللبنانيّ بأي شكل من الأشكال.

2 باحث لبناني وطالب دراسات عليا في قسمي اللّغة العربيّة وآدابها والتاريخ في الجامعة اللبنانيّة - كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة.

Abstract

Effective communication with the human staff in institutions constitutes a key factor in their success and in achieving their vision and goals. This requires constant management that recognizes engaging with them. Since an institution operates at multiple administrative levels (strategic – tactical – and operational). Its vision is formulated at the strategic level and is closely linked to its owners or leaders. Indeed, the Lebanese army is an organizational institution – apart from its security role – that has its vision and goals that serve the interests of the Lebanese state as part of the national power equipment.

The Lebanese army, led by a General Officer with the rank of General, is dedicated to its national objectives. The Army recognizes the crucial importance of internal communication with its military personnel to guide and motivate them in serving national interests and the strategic goals of the Army. However, communication with the military personnel to achieve the strategic vision takes various forms, including verbal communication. “Order of the Day” is one of the verbal communication methods used by the Lebanese army in chief commander to address and communicate with the personnel.

Keywords: Communication – Army – Army Commander – Order of the Day

المقدمة

تقوم الجيوش على حسن القيادة والإدارة العسكرية التي لا تنفك تمزج بين القوتين العقلية والجسدية. هي قائمة على فكرة وأيديولوجيا تبتأن فيها العزيمة والدافع للعمل في سبيل الهدف الأسمى الذي وجدت لأجله، ألا وهو الذود والدفاع عن حدود الأوطان من كل شرّ مترصّ بها. الجيوش في المقام الأول قائمة على الموارد البشرية التي تتحد عقلياً وجسدياً للاستخدام الأفضل للعتاد المتوافر لديها. فالعتاد بما يتضمّنه من أسلحة لا يمكن أن يؤدي هدفه ووظيفته إن لم يكن مُستخدمه على مستوى عالٍ من المسؤولية والمعرفة العسكرية والفكرية. هذا السلاح المُستخدم يؤدي وظيفة وطنية مترسّخة في ذهن الأفراد والعسكريين، فتتصهر المعرفة العسكرية مع تلك الوظيفة لتشكّل بناءً وهيكلًا متينًا لحدود الأوطان.

الجيش جماعة، ما يفرض تنظيمها وحسن إدارتها مع وجود قائد يقودها نحو الهدف المرجو. والقائد العسكريّ يكون دوره أخطر في المحافظة على الجماعة التي أوكل إليه مهمة قيادتها وتحمل مسؤوليتها؛ لأنه يحمل مسؤولية أرواح تداهما المخاطر والشر، على عكس أنواع أخرى من القادة غير العسكريين. القائد العسكريّ لكي ينجح عليه بثّ روح العزيمة في نفوس عسكريّيه وترسيخ الأفكار والعقيدة في عقولهم. هذا الأمر يتطلب من القائد العسكريّ المعرفة الفكرية والثقافية، والقدرة التأثيرية والإقناعية، ما يعني الاتزان وامتلاك الأسلوب التوجيهي. ولأنّ القائد العسكريّ يقود الجيش في إطار مؤسساتي بهدف إدارته بما يخدم المصلحة العامة للدولة؛ فإنّ ذلك يتطلب حسن إدارة البيئة البشرية الداخلية واكتساب ثقة البيئة البشرية الخارجية لتعزيز الأهداف الوطنية. ولا يسير الأمر بشكل عبثي في الجيش، فبناء الثقة في العلاقة مع البيئتين يحتاج إلى تواصل يوضّح الرسائل التي تسعى إليها المؤسسة العسكرية لضمان تكامل جهودها مع باقي نشاطات مؤسسات الدولة، لذا فإنّ الجيش يتبع استراتيجية تواصلية تتيح لقائد الجيش وأجهزة القيادة التأثير في الجمهور المستهدف وتوجيه سلوكياته. لكن على الرّغم من تعدّد الجماهير المستهدفة وأهمية التّواصل مع كلّ منهم لتوطيد العلاقة، إلّا أنّ العنصر البشريّ الداخليّ أو بالأحرى العسكريين في الخدمة الفعلية يُمكن وضعهم في المستوى الأوّل لأفضلية التّواصل، خصوصاً أنّهم الجهة الأولى والمعنية مباشرة في تنفيذ مهمّات الجيش العملائية التي تحتاج إلى إيمان هؤلاء العناصر بعملهم، ووعيهم بمدى أهمّيته للحفاظ على صورة الجيش كمؤسسة وطنية جامعة، وإدراكهم أنّ سلوكهم هو مفتاح بناء الثقة مع باقي الجماهير. من هنا، يسعى قائد الجيش ضمن استراتيجية التّواصل إلى إيلاء تواصله مع العسكريين أهمّيّة ليضمن نجاح نشاطات الجيش. لكن التّواصل مع العسكريين مختلف عن التّواصل مع باقي الجماهير، لأنّه يقوم على التّوجيه والتّحفيز بالمقام الأوّل. في هذا الإطار، تتنوّع أساليب الاتّصال والتّواصل التّوجيهي التي يستخدمها قائد الجيش مع العسكريين، أبرزها خطاب «أمر اليوم».

الإشكالية

كيف يتبلور التّواصل الداخليّ في الجيش اللبنانيّ الذي يؤديه قائد الجيش مع العسكريين، وما دور «أمر اليوم» في ترسيخ الأهداف العامة للجيش؟

الفرضية

يتواصل قائد الجيش اللبناني مع العسكريين بأساليب مختلفة ومنها التواصل اللفظي بشتى أنواعه، إلا أن خطاب «أمر اليوم» أبرز تلك الأنواع التي تسمح لقائد الجيش بترسيخ العقيدة العسكرية للجيش اللبناني عند العسكريين.

1- مفهوم الاتصال

1-1- لغويًا

ورد في معجم لسان العرب «وصل: وصلت الشيء وصلًا وصلًا... ووصل الشيء إلى الشيء وصولًا وتوصل إليه: انتهى إليه وبلغه»¹. وفي القاموس المحيط «وصل الشيء بالشيء وصلًا وصلًا... بلغه وانتهى إليه. وأوصله واتصل: لم ينقطع. والوصلة، بالضم الاتصال، وكل ما اتصل بشيء فما بينهما»².

يتضح أن المفهوم جذره اللغوي «وصل»، مع ضرورة وجود طرفين، وبلوغ الأمر من الطرف الأول إلى الثاني والانتهاء إليه، على أن لا ينقطع البلوغ حتى الانتهاء. «وفيد التواصل في اللغة العربية الاقتران والصلة والاتصال، والترابط، والالتئام، والجمع والانتهاء»³.

1-2- اصطلاحًا

يرد الاتصال على أنه نقل وتعميم لعقيدة أو فكرة ما، أو نشاط ذهني يتوخى فيها طرفا الاتصال مشاركة رموز معينة ليطفو المعنى التواصل على المياه الراكدة للنتيجة التواصلية. انطلاقًا من قاعدة وخلفية ثقافية، اجتماعية، سياسية، وفكرية... سواء أكانت مشتركة أو مختلفة. تقول الباحثة اللبنانية مي العبدالله «الاتصال يعني المعلومات المبلغة أو الرسالة الشفوية، أو تبادل الأفكار والآراء والمعلومات عن طريق الكلام

1 ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط.1، 2005، مج.2، ج.3، ص 4296.

2 الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.4، 2013، ص 1080.

3 فرحات، درية. «جهود العرب القدامى في النظريات اللسانية الحديثة - الجاحظ ونظرية التواصل عند جاكبسون أنموذجًا»، بيروت: مجلة المنافذ الثقافية، دار النهضة العربية، عدد 40 - خريف 2022، ص 14.

أو الإشارات والرموز»¹. هذا التبادل في العملية التواصليّة «يحتاج إلى وسيط لاتمام العملية، وعليه يكون لدينا المرسل والمرسل إليه وموضوع المرسل وقناة الاتّصال»².

يعود مصطلح «الاتّصال (Communication)» في أصله الأعجمي إلى اللاتينية من (Communis) بمعنى المشاركة وتكوين العلاقة. كما يرجع البعض هذه الكلمة إلى الأصل (Common) بمعنى عام أو مشترك»³.

على الرّغم من تعدّد نظريّات الاتّصال والتّواصل في المجالات شتى في الإعلام واللّغة، إلّا أنّ العالم اللّساني السّويسريّ فيرديناند دي سوسير⁴ (1857-1913) (Ferdinand de Saussure) ومن بعده عالم اللّغة الرّوسيّ رومان جاكسون⁵ (1896-1981) (Roman Jakobson)، يعدّان من أبرز منظّري عمليّة التّواصل. فالأوّل، درس نظريّة التّواصل بيولوجيّاً وفيزيائيّاً،. أمّا الثّاني فدرس التّواصل وظيفيّاً، ووضع لها أسسها في الأربعينات من القرن العشرين. وفق جاكسون فإنّ عمليّة التّواصل تحتاج إلى ستة عوامل هي:

1- المرسل أو المتكلّم منه تنطلق عمليّة الاتّصال، فيرسل إشارته بأنواعها المتعدّدة.

2- المرسل إليه أو المتلقّي الذي يستلم أو تصل إليه إشارة المرسل.

3- المرسله وهي مضمون وموضوع الخطاب في عمليّة التّواصل اللّغوي.

4- السّياق وهو العامل المفعّل للمرسله، التي تتفاعل وفق حركة العوامل الظرفيّة والزمانيّة والمكانيّة.

5- نظام الرموز وهو القواعد المنظّمة للقيم المشتركة بين المرسل والمرسل إليه.

6- قناة الاتّصال إما ان تكون فيزيائيّة أو فيزيولوجيّة، وهي الوسيط الذي يسمح

1 العبدالله، مي. المعجم في المفاهيم الحديثة للإعلام والاتّصال، بيروت: دار النهضة العربيّة، ط.1، 2014، ص 21.

2 فرحات، دريّة، م. س.، ص 14.

3 العبدالله، مي، م. س.، ص 21.

4 لساني سويسري، يعدّ أبا للسانيات البنيوية الحديثة، ورائداً للسيمولوجيا الفرنسيّة، يرى أنّ اللّغة جزء من السيمولوجيا، ينسب إليه كتاب (محاضرات في الأسنوية العامّة) الذي جمعه ونشره تلاميذته عام 1916 بعد وفاته.

5 هو عالم لغوي، وناقد أدبي روسي من رواد المدرسة الشكليّة الروسيّة. وقد كان أحد أهم علماء اللّغة في القرن العشرين وذلك لجهوده الرائدة في تطوير التحليل التركيبي للغة والشعر والفنّ.

بالتواصل بين المرسل والمرسل إليه.

2- منطلقات التواصل في الجيش اللبناني مع البيئتين الخارجية والداخلية

تشكل المؤسسة العسكرية كياناً مستقلاً بذاته يرتدي طابع المجتمع الشامل، فتعكس صورة المجتمع اللبناني باختلاف ثقافته لتتوحد جميعها تحت شعار المؤسسة العسكرية (شرف. تضحية. وفاء). وإذا كان للجيش خصوصيته الأمنية، فإنه من المنظور الإداري هو مؤسسة شاملة بكامل وظائفها وخصائصها. هذا الأمر يُحيلنا إلى مقوماتها وعناصرها المكوّنة لها؛ وعليه فإنّ العنصر البشري هو على رأس هذه العناصر ومدماك قيام المؤسسة، خصوصاً أنّها نتاج اجتماعي أوسع ينطلق من الفرد مع كل ما يحمله من حاجات وثقافة وانتماء. هذا يظهر مدى الصّعوبة في تحصين أي مؤسسة بالاستقرار الداخلي نظراً لتعدّد التوجهات البيئية للعناصر المنتمية إلى المؤسسة. لكن الجيش اللبناني - في يومنا هذا - ينجح في تثبيت أنموذج المؤسسة اللبنانية المستقرة، على الرّغم من اختلاف وتعدّد توجهات وبيئات وثقافات العناصر البشرية فيه. يُعدّ هذا الأمر صعب ودقيق يتطلّب جهداً مضاعفاً لإدارته، إلا أنّ العقيدة التي تقوم عليها المؤسسة العسكرية في الجيش اللبناني من الحوافز المساهمة في استقرارها. هذه العقيدة تنطلق من الدستور اللبناني ورؤية الدولة لأعدائها، فالعداء لإسرائيل ومحاربة الإرهاب على رأس عقيدة الجيش اللبناني؛ ما يشكّل عاملاً مشتركاً للعناصر البشرية المنتمية إلى المؤسسة العسكرية.

تنطلق المؤسسة العسكرية في تعاملها مع البيئة الخارجية والداخلية من منظور الحاجة إلى التواصل مع هاتين البيئتين، لتحسينها من أي تشويش يُسيء إلى صورتها ويعيق تحقيق أهدافها التي ترمي بالدرجة الأولى إلى تحقيق أهداف الدولة العامّة. في هذا الإطار، تتبع المؤسسة العسكرية في الجيش اللبناني رؤية محدّدة في تواصلها مع البيئتين الخارجية والداخلية، وهي ما تسمى «استراتيجية التواصل» التي تسعى إلى تحقيق التواصل الفعّال، وإطلاق الرسائل المناسبة وتوجيهها بما يتلاءم مع الأهداف المحددة من قبل قيادة الجيش. يمكن النظر إلى هذه الاستراتيجية على أنّها «مجموعة النّشاطات الهادفة إلى تعزيز مصالح الدولة عبر استخدام الدفاع كوسيلة للتواصل، بغية

التأثير في سلوك الجماهير المستهدفة، معتقداتها وتصرفاتها.»¹

3- علاقة التّواصل مع العسكريين باستراتيجية الجيش التّواصلية

يتضح ممّا سبق أنّ مصالح الدّولة هي المعيار الأوّل أو الغاية المرجوة من أي استراتيجية تقوم بها المؤسسة العسكريّة. وإذا كانت هذه الاستراتيجية على المستوى الداخلي تتألف من مجموعة خطط وبرامج بالمقام الأوّل، فإنّها من ناحية أخرى هي جزء من نشاطات وخطط ورسائل تقوم بها باقي مؤسسات الدّولة وتُدعى «أدوات القوّة الوطنيّة».²

جدول رقم (1): أدوات القوّة الوطنيّة وتصنيفاتها

أدوات القوّة الوطنيّة ¹			
الاقتصادية	العسكريّة	المعلوماتيّة	الدبلوماسية
السياسات التجارية	العمليات العسكريّة	المعلومات العسكريّة	السفارات والسفراء
السياسات المالية والنقدية	التعاون والتنسيق الأمني	الدبلوماسية العامّة	المفاوضات
الرسوم الجمركية والضرائب	عرض القوّة	الشؤون العامّة	المعاهدات
المساعدات والهبات	التكنولوجيا العسكريّة	مصادر المعلومات والاتّصالات	السياسات
	تكوين القوّة	المنتديات الدولية	المنتديات الدولية
		المتحدثون أو الناطقون الرسميون، ووسائل الإعلام	

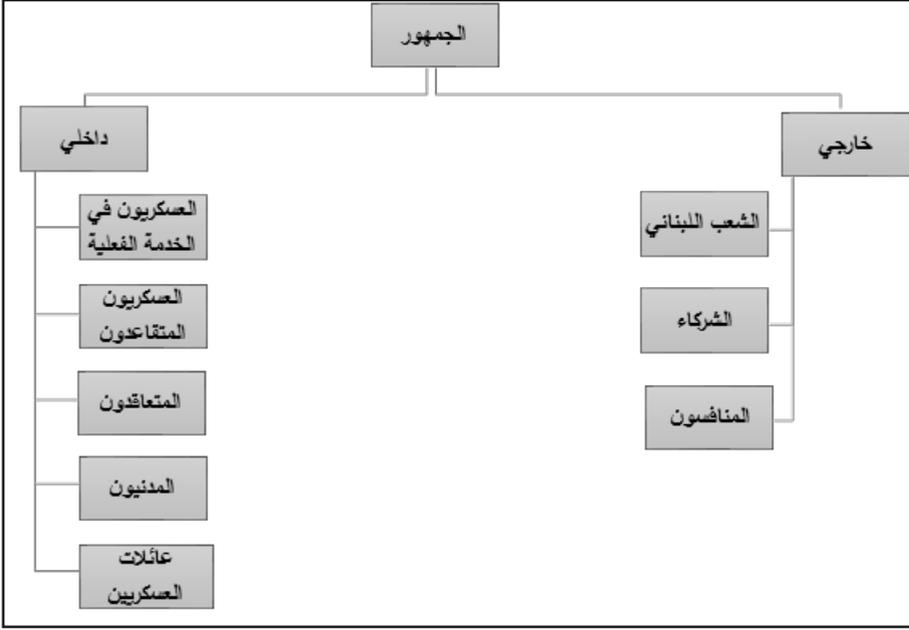
في سعيها إلى تحقيق أهداف الدّولة العامّة، تركّز المؤسسة العسكريّة نشاطاتها على التّواصل مع الجماهير، وهم نوعان: جماهير خارجيّة وجماهير داخلية. فالخارجية هي تلك المكوّنة لمختلف الجهات المرتبطة بسعي المؤسسة العسكريّة إلى إيصال رسائلها لها، ومحاولة تعديل موقفها وسلوكها كداعم رئيس. مثل: (الشعب اللبناني - الشّركاء

1 مرجع تدريبي: عمليات المعلومات، الجيش اللبناني - الكلية الحربية، السنة 3، ص 2.

2 مرجع تدريبي: عمليات المعلومات، م. س. ن.، ص 3.

- المنافسون). أمّا الداخليّة، فهي العناصر العسكريّة في الخدمة الفعلية، والمتقاعدون، بالإضافة إلى الموظفين المدنيين والمتقاعدين وعائلات العسكريين الذين هم على العاتق.

شكل رقم (1): أنواع الجماهير المستهدفة

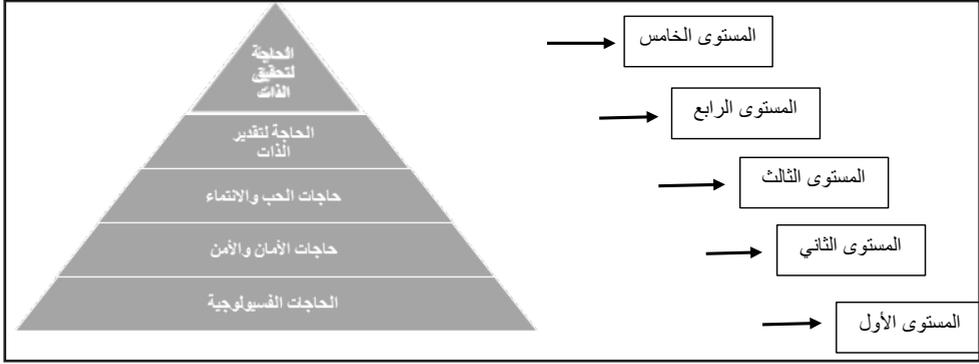


على هذا الأساس، فإنّ العسكريين في الخدمة الفعلية هم من الجمهور الداخليّ المستهدف في الاستراتيجية التّواصلية للجيش، ويشكّلون العنصر البشريّ الأساس والفاعل له. يُعدّ التّواصل معهم حاجة إنسانيّة كونهم جزءاً من هيكلية المؤسسة العسكريّة التي لا يمكن أن تتجح في مسعاها الاستراتيجي من دون مراعاة العوامل المؤثرة في سلوك العسكريين. وتالياً؛ فإنّ الشعور بالانتماء إلى الجيش وتقدير الذات هي من العوامل التي ترعاها المؤسسة العسكريّة في تواصلها مع العسكريين. وتأتي هذه الحاجة من ضمن الحاجات التي نظّر لها «ماسلو» Abraham Maslow (1908 - 1970) المعروفة بـ«نظريّة الحاجات»، وتضم

خمس حاجات هي:

- 1- الحاجات الفسيولوجية
- 2- حاجات الأمان والأمن
- 3- الحاجة للحب والانتماء
- 4- الحاجة للتقدير
- 5- الحاجة لتحقيق الذات

شكل رقم (2): هرم ماسلو للحاجات



يأتي التّواصل في المستويين الثالث والرّابع من هرم الحاجات.

فالمستوى الثالث هو الحاجة إلى الحبّ والانتماء، «فمجرد أن تشبع الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمان سواء بدرجة كبيرة أو صغيرة تأتي حاجات الانتماء والحب في المقدمة كدوافع للسلوك، ولهذا يصبح لدى الفرد رغبة قوية لتكوين علاقات إلفة مع الآخرين، وينتابه شعوراً مؤلماً بدرجة قوية من الإحساس بالوحدة ينتج من افتقاد الأصدقاء...»¹

أمّا المستوى الرابع من هرم ماسلو فلا يتحقق إلّا بعد تحقيق الحاجات الثالث السابقة، فيبدأ الفرد بالبحث عن قليل من اعتبار الذات. وقد «ذكر ماسلو نوعين من حاجات التقدير، حاجة أدنى للتقدير، وحاجة أعلى للتقدير. الأدنى منها الحاجة لاحترام

1 عبد الرحمن، محمد السيد. نظريات الشخصية، القاهرة: دار أبناء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص 437.

الآخرين، الحاجة للمكانة، للشهرة، للعظمة، للاعتراف، والاهتمام، للسمعة، للاعجاب، للكرامة، وحتى للسيطرة. ويتضمن المستوى الأعلى من حاجات التقدير، الحاجة لاحترام الذات التي تتضمن الحاجة إلى بعض المشاعر، من قبيل الثقة، الكفاءة، الإنجاز، الاتقان، الاستقلالية، والحرية.¹ من هذا المنطلق تأتي أهمية عملية التّواصل الداخليّة مع العسكريّين ضمن استراتيجية التّواصل للجيش.

4- التّواصل مع العسكريّين شرط لنجاح استراتيجية التّواصل في الجيش

تتعدّد أهداف التّواصل وفق الجمهور المستهدف والغاية المرجوة، ومنها: توجيهيّة - تعليميّة - تنقيفيّة - ترفيحيّة - اجتماعيّة - إداريّة. من هذه الأهداف تركّز المؤسسة العسكريّة توجهاتها في تواصلها مع العسكريّين على الأهداف التّوجيهية، من أجل اتباع العسكريّين لسلوك يضمن تحقيق الرسائل الفاعلة في استراتيجية الجيش التّواصلية.

يركّز التّواصل الداخليّ على العسكريّين، وهو يُعد أحد المسارات التي تتبعها المؤسسة العسكريّة في برامجها من خلال تحديد الجمهور المستهدف لتتوافق أفعاله وأقواله بما يضمن تحقيق أعلى درجات المصادقية لدى هذا الجمهور؛ بالتالي توطيد العلاقة بين الطرفين (المرسل - المتلقي). إنّ علاقة الثقة لا يمكن أن تستقيم أو تقوم إذا كان الجمهور المستهدف أو المحدّد معاديًا ومناوئًا لأهداف الجيش الوطنيّة والإنسانية. وإن كان لهذا النوع من الجمهور مساره المحدد من قبل قيادة الجيش للتعامل معه بأسلوب يُفشل أهدافه في زعزعة الثقة بالمؤسسة من خلال تحريضه وبثّ الإشاعات... لكن في قيام العلاقة الوطيدة لا بد من أن يكون الجمهور المستهدف ملتزمًا، وهذا ينطبق على العسكريّين في الجيش. فالتّواصل مع العسكريّين «يهدف إلى تعزيز العلاقات القائمة والتأكيد على اتجاهاته والتركيز على القدرات المتوفرة لديه وتحصينه ضد التّأثيرات السلبية التي قد تنتج عن أعمال أو نشاطات أو مواقف مختلفة»² ويتضح ممّا سبق أنّ التّواصل مع العسكريّين داخل المؤسسة العسكريّة له تأثيره التّشاركيّ في نجاح برامج وأهداف الجيش، وهذا التّواصل مضبوط بنظام وسلوك معيّن. على هذا الأساس عملت قيادة الجيش على تطوير برامج تواصلية داخلية لإيصال الرّسائل المرجوة من

1 هريدي، عادل. نظريات الشخصية، القاهرة: ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط.2، 2011، ص 259.
2 صقر، جورج. الناطق الإعلامي في الجيش اللبناني وتأثير وجوده على صورة الجيش لدى الرأي العام. بحث عسكري غير منشور. تموز 2018، ص 5.

دون تأويل، فقامت بإعطاء حيز للتواصل الداخلي ضمن استراتيجيتها التواصلية. ونظرًا لأهمية ما سبق «فقد أنشأت قيادة الجيش في العام (2022) مديرية التخطيط للتواصل الاستراتيجي، ومن مهماتها العمل على وضع استراتيجية للتواصل ذات رؤية واضحة لتوحيد الأهداف والجهود، عبر شبكة متماسكة منسقة ومتناغمة من الاتصالات المحفزة والفعالة، نواتها الوحدات ذات القدرات المرتبطة بالمعلومات التي تعمل مجتمعة للحصول على التأييد والدعم العام للمهمة والحفاظ عليها.»¹

5- دور قائد الجيش التوجيهي والتحفيزي في تواصله مع العسكريين

ليكون التواصل الداخلي فعالاً ومؤثراً في نفوس العسكريين لا بد من أن يتبع مسار التواصل التنازلي، أي من الأعلى إلى الأدنى. ولأنّ الكلام هنا حول استراتيجية وبرامج بعيدة المدى، فإنّ الأمر حكماً مرتبط بقيادة الجيش وتحديدًا قائد الجيش. يستخدم قائد الجيش في تواصله مع العسكريين عدة أساليب لتحقيق رسالته القيادية، أبرزها التواصل اللفظي والمكتوب. يحرص من خلالها الالتزام بالميزات القيادية للرسالة المرجوة التي تخلق علاقة ثقة بين القائد والمرؤوسين. من هذه المميزات:

1- المعنى (أن تعكس رسالته فكر المؤسسة)

2- القيم (أن تعكس رسالته رؤية المؤسسة ومهماتها)

3- الإيقاع (أن تكون رسالته بشكل متكرر ومنتظم)

يُعد تواصل قائد الجيش مع العسكريين من الخطط التواصلية للجيش القائمة على التوجيه المعنوي، ذلك من أجل تحقيق أكبر قدر من الرسائل الفاعلة والمؤثرة في رسم صورة لائقة للجيش. فالتوجيه المعنوي هو العامل المخطط النوعي والهادف إلى إعداد وبناء عناصر القوات المسلحة إعدادًا ذهنيًا ونفسيًا ومعنويًا. كما يشكّل تواصل قائد الجيش مع العسكريين ركيزة أساس من ركائز القيادة العسكرية، التي تسعى إلى تحقيق تنشئة وطنية تحصن الجيش من أي عامل سلبي داخلي وخارجي لضمان أمن المؤسسة بالدرجة الأولى، وأمن الدولة بالدرجة الثانية. على أساس أن أي خلل في المنظومة الداخلية للجيش ستعكس حكماً على أهداف الدولة العامة في حماية أمن مواطنيها.

1 مديرية التخطيط للتواصل الاستراتيجي، م. س.، ص 3.

يقود الجيش اللبناني قائد برتبة عماد، وهو يعمل لمواجهة المخاطر المحدقة بلبنان. أولاً، المخاطر التي يحملها العدو الإسرائيلي على الحدود الجنوبية وأطماعه تجاه لبنان نحو موارده الطبيعية. ثانياً، تربيص الإرهاب شراً نحو لبنان داخلياً وعلى الحدود. هذه المخاطر تفترض بقائد الجيش مواجهتها بعزيمة وصلابة، والعمل على بث روح الجماعة والانتماء الوطني والعسكري في نفوس العسكريين، فالعمل المؤسساتي يتكامل عقيدة وإدارة وتنظيماً وتنفيذاً. ولأن التوجيه سمة من سمات القيادة سواء أكان في وضع الخطط الاستراتيجية لبلوغ الأهداف، أو التواصل مع أفراد المؤسسة والمنظمة، فإن على قائد الجيش أن لا يتردد أبداً في استغلال أي فرصة تسنح له لملاقاة عسكريه، وتوجيههم، وشد عزيمتهم، وبث الروح الوطنية فيهم، ورفع معنوياتهم.

التواصل جزء أساسي وضروري بين القائد ومرؤوسيه؛ لردم الهوة الكامنة في عقول العسكريين وسد الطريق في وجه أي فكرة من الممكن أن تتسلل إليهم بأنهم أدوات تنفيذ لا يمكنهم ملاقاته قائدهم. علماً أن النظام العسكري العام يراعي هذا الأمر، ويشدد على ضرورة وقوف القائد العسكري على شؤون عسكريه وأوضاعهم.

يمثل قائد الجيش اللبناني القيادة التي يخضع لها العسكريين في الجيش اللبناني. فالقيادة هي «نتاج تفاعل الجماعة، والقائد بوصفه عضواً في الجماعة يستطيع من خلال إتقان المهارات المستعملة في بناء روح الجماعة، والتزويد بالحافز، وغرس الانضباط في وحدته؛ إظهار صفات القائد الحقيقي»¹. وبما أن القائد عضو في الجماعة، فإن ذلك يتطلب من قائد الجيش التأثير في عسكريه وتوجيههم؛ لتحقيق أهداف المؤسسة العسكرية المحددة في العقيدة العسكرية التي تخدم الاتجاه العام للدولة. إذ إن «القيادة هي فن التأثير في السلوك الإنساني بغية تحقيق مهمة بالأسلوب الذي يرغب فيه القائد»². يتضح مما سبق أن أهداف الجيش العامة تراعي سلوك القائد وتحركاته، وترسم له طريق المسار ليستطيع تنفيذ قيادته. لذا، فإن القيادة لها عناصرها المحددة وهي:

1 - وجود هدف يحرك الناس إليه.

2 - وجود مجموعة من الأفراد.

1 هيز، صامويل ووليم توماس. تولي القيادة: فن القيادة العسكرية وعلمها، تر. سامي هاشم، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا ط، 1989، ص 174.
2 م. ن، ص 18.

3 - وجود قائد يجعل ذلك في قوالب عملية تؤثر في الناس¹

للقيادة العسكرية التي يمثلها قائد الجيش أهمية وضرورة، لأنها «حلقة الوصل المتمثلة في القوة التي تتدفق لتوجيه الطاقات بأسلوب متناسق، ويضمن عمل العاملين بين خطط المنظمة وتصوراتها المستقبلية. وتدعم السلوك الإيجابي ونقل من السلبيات، وتسيطر على مشكلات العمل وترسم الخطط اللازمة لحلها كما تتطلب مواكبة المتغيرات المحيطة وتوظيفها لخدمة المنظمة. وتعمل على تنمية الأفراد وتدريبهم ورعايتهم»². ووفق «وارين بينيز»³ (Warren Bennis) (1925-2014) فإن القيادة مقومات أساسية تتمثل في الآتي:

1 - الرؤية المرشدة

2 - العاطفة

3 - المصادقية

4 - الثقة

5 - الجرأة⁴

هذه المقومات لا بد أن تنعكس عند قائد الجيش اللبناني فكرياً وعملياً، فهو لديه الرؤية البعيدة في تنظيم المؤسسة العسكرية وتطويرها، ويتمتع بالعاطفة التي يغرق فيها عسكريه وعائلاتهم، خصوصاً عوائل الشهداء. بالإضافة إلى الجرأة والثقة اللتين تتدمجان معاً لتجعله يخوض معارك عسكرية ناجحة وباهرة وثابتة. ولا تختلف مقومات

1 السويديان، طارق وفيصل باشراحيل. صناعة القائد، لا م: دار ابن حزم، ط 3، 2004، ص 40.

2 السويديان، طارق وفيصل باشراحيل، م. س.، ص 42.

3 هو كاتب ومستشار على المستوى الدولي، ولد عام 1925 م في أميركا. حاصل على بكالوريوس في الآداب من كلية انتيوك 1951م ، ودكتوراه من معهد ماساتشوستيس للتقنية MIT 1955. عمل في جامعات هارفارد وبوسطن وسينسنتي ومركز الصناعات في جنيف والمعهد الهندي للإدارة بكالكتا. عمل نائباً للرئيس التنفيذي لجامعة نيويورك - بفلوا، ورئيس جامعة سينسنتي في ولاية أوهايو. وهو استاذ في كلية إدارة الاعمال في جامعة جنوب كاليفورنيا USC ، وهو الرئيس المؤسس لمعهد القيادة الإدارية فيها. كما أنه عضواً في فريق عمل TASK FORCE الخاص بالسياسة العلمية في البيت الأبيض التابع لرئيس الأميركي من العام 1969 حتى 1970. كما شغل منصب مدير الجمعية الأميركية للإدارة.

4 العلوني، محمد أكرم. القائد الفعال، الرياض: قرطبة للإنتاج الفني، لا ط.، 2000، مج 1، ص 83.

بينيز للقيادة عن المهارات الأساسية السبع « لبيرت نانوس»¹ (1936-؟) (Nanus Burt) وهي:

- 1 - بعد النظر
- 2 - إدارة التغيير
- 3 - تصميم المنظمة
- 4 - التعلم المستمر
- 5 - المبادرة
- 6 - إدارة التكامل
- 7 - المصادقية العالية²

يتضح من خلال مقومات بينيز ومهارات نانوس أنّ العمل القيادي يتطلّب اتّصال قائد الجيش بمرؤوسيه؛ للتأثير فيهم بما يخدم مصلحة الوطن والأهداف التي وُجد لأجلها الجيش. «فالاتّصال هو الوسيلة التي يستطيع القائد بواسطتها أن يؤثر في الجماعة.»³ هذا الاتّصال يمكّن قائد الجيش من أن «يوطد سلطته القيادية مع جماعته حتّى يتمكّن في وقت الأزمات والمواقف الخطرة، من التأثير في سلوكها بصورة فعّالة.»⁴

إنّ اتّصال قائد الجيش بمرؤوسيه يجب أن يعتمد على رؤية لديه، ترسم له الأسلوب المناسب لتوجيه عسكريه، فيتلاءم ذلك ويتواءم مع الأهداف الوطنيّة. «فكارل البريخت» (Albrecht Karl) (1920-2014) يقول: «الرؤية صورة متفق عليها لما نود أن تكون عليه المنظمة مستقبلاً... إنّها توفّر نقطة تصويب لاتّجاه المستقبل»⁵. أمّا «جاي

1 ولد عام 1936 في نيويورك. وهو أستاذ فخري في جامعة جنوب كاليفورنيا، وعضوا في الكلية من العام 1969-1994. حاصل على بكالوريوس العلوم من معهد ستيفنز للتكنولوجيا عام 1957، ودكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة جنوب كاليفورنيا 1967. كتب أطروحته عن الآثار المترتبة على العمليات التجارية المتعددة الجنسيات. وعمل في شركة SPERRY RAND Corporation وهي شركة لتطوير الأنظمة. لديه شركة استشارات خاصة، وله العديد من المؤلفات أبرزها: القيادة الحكيمة - القيادة ذات الرؤية ...

2 العدلوني، محمد أكرم، م. س.، ص 85.

3 هيز، صامويل ووليم توماس، م. س.، ص 91-90.

4 م.ن، ص 14.

5 العدلوني، محمد أكرم، م. س.، ص 114.

كونغر»¹ (1952-؟) (Jay Conger) «فيصف الرؤية بأنها صورة عقلية تصف الحالة المستقبلية المرغوبة، أو علم مثالي يمتد بعيداً»². إنَّ الرؤية لدى القائد تتطلب خصائص يجب أن يتمتع بها كي يكون قدوة ومثالاً لعسكريه، يقتدون به ويسعون إلى مشاركته الرؤية التي تحمل قيم وطنية، وهي تعزز الاتصال مع قائد الجيش وفق النظام العسكري، وتدعم قوام الجيش وترسم إطاراً يحميه من الدخلاء والصائدين بالمياه العكرة. من هذه الخصائص:

- 1 - خصائص ذاتية (فطرية): الذكاء، والشجاعة، والكرم، والحزم، والصدق، والتواضع، والتفاؤل، والقوة، والاعتدال، والاستقامة، والنقّة، والوفاء...
- 2- خصائص شخصية (مكتسبة): الإيمان، والعلم، وضبط النفس، والشعور بالمسؤولية، والتضج، والجرأة، والطموح...
- 3- خصائص اجتماعية (تعاملية مع الآخرين): العدل، والمساواة، والمشاركة، والشورى، والعفو، وحسن اختيار الأعوان...³

إنَّ هذا الأمر ليس ببعيد من قائد الجيش اللبناني، فهو يعمل دائماً على الاتصال بالعسكريين وفق ما تقتضيه الحاجة. بما أنه لا يمكنه الاتصال بالعسكريين دفعة واحدة لصعوبة ذلك تقنياً؛ بسبب انتشار وحدات الجيش في مختلف المناطق اللبنانية وعلى الحدود -كبر عديد الجيش- فإنَّ النظام العسكري في الجيش اللبناني حدّد للقائد أسلوباً يجعله على اتصال بالعسكريين في مناسبات رسمية محدّدة تُترجم رؤيته العامّة للجيش. ولأنَّ الاتصال متنوع ومتعدّد، فإنَّ الخطاب يعدّ الوسيلة الفضلى بالنسبة إلى قائد الجيش. هذا الخطاب له خصوصيته التقنيّة في الجيش اللبناني، يعمل على ترجمة رؤية وخطاب الضباط كافة في تأكيدهم الانتماء إلى النظام العسكري واحترامه وتطبيقه، هذا الخطاب يدعى في الجيش اللبناني «أمر اليوم». فأمر اليوم خطاب مركزي في استراتيجية التواصل في الجيش، لأنّه صادر من قائد الجيش الذي يمثل أعلى سلطة عسكريّة تنفيذية، بعيداً من السلطات السياسيّة التي يُمنع على العسكريّ الدخول في شؤونها.

1 أستاذ السلوك المؤسّساتي في كلية الأعمال في لندن والمدير التنفيذي السابق لمعهد القيادة بكلية الأعمال التابعة لجامعة كاليفورنيا الجنوبية.

2 العدلوني، محمد أكرم، م. س.، ص 114.

3 العدلوني، محمد أكرم، م. س.، ص 21.

«أمر اليوم» هو خطاب رسمي عسكري يصدر من قائد الجيش في مناسبات محدّدة (عيد المقاومة والتحرير في 25 أيار - عيد الجيش في 1 آب - عيد الاستقلال في 22 تشرين الثاني...)، وهو يُعدّ خطاباً توجيهياً يمارس فيه قائد الجيش مهاراته التوجيهية والعسكرية. هذا الخطاب لا يصدر شفهيّاً من قائد الجيش مباشرة، بل له خصوصيته التقنية ألا وهي أنّه يوزّع نصّ الخطاب على قادة الوحدات العملائية المنتشرة على الأراضي اللبنانية، ليؤدّوا دورهم بإلقائه شفهيّاً على العسكريين ضمن مراسم احتفال خاصة.

6- أنموذج تحليلي لـ«أمر اليوم»¹ ودوره في بلورة الأفكار العامة لقائد الجيش وفاعليته في التّواصل مع العسكريين

1 «أمر اليوم» بمناسبة تسليم العماد جوزاف عون قيادة الجيش، 10 آذار 2017، موقع الجيش اللبناني في الشبكة العنكبوتية. تاريخ الاسترجاع: 3 نيسان 2024. الساعة: 23.00 مساءً.

<https://acesse.dev/Jlw7F>

«أمر اليوم» في مناسبة تسلّم العماد جوزاف عون قيادة الجيش

أيها العسكريون

شرف لي هذه الثقة الكبيرة التي منحني إياها فخامة رئيس الجمهورية، القائد الأعلى للقوات المسلحة العماد ميشال عون، ومقام مجلس الوزراء بتعييني قائدا للجيش اللبناني، تماماً كما كان لي الشرف منذ البداية، أن أكون ضابطاً في مؤسسة الشرف والتضحية والوفاء، هذه المؤسسة الوطنية العريقة المؤتمنة على وحدة الوطن وسيادته واستقلاله، والتي ما انفكت منذ تأسيسها تكتب بدماء شهدائها وجرحائها الأبطال صفحات تاريخه المجيد، وثبتت بعزيمة رجالها والأمل المتجدد في نفوسهم، أنها دائماً المؤسسة الجديرة بالحفاظ على هذا الوطن، في دولته وشعبه ومؤسساته ومقرّاته.

أيها العسكريون

أتسلّم اليوم أمانة الجيش في خضمّ الظروف الإقليمية الصعبة التي تمرّ بها المنطقة، وموجات الإرهاب التي لا تزال تطرق حدود الوطن، محاولةً استدراج نار الفتنة والفضى إلى داخله. وكما واجهتم المرحلة السابقة بكلّ صلابة وعزم وأثبتتم مناعتكم في مواجهة التحدّيات، إني على ثقة كاملة بأنكم ستكونون حاضراً ومستقبلاً على قدر الأمل المعقود عليكم. فكونوا على أتمّ الاستعداد على الحدود الجنوبية لمواجهة ما يبيّث له العدو الإسرائيلي من أطماع ومخطّطاتٍ تخريبية، جنباً إلى جنب مع السهر على تطبيق القرار 1701 بالتنسيق والتعاون مع القوات الدولية الصديقة، وكونوا على أتمّ الاستعداد أيضاً لمواصلة الحرب على الإرهاب بكلّ ما أوتيتكم من حزم وقوة، وضرب مخابنه وأوكاره حتّى استئصاله من جذوره، واضعين نصب العيون تحرير رفاقكم المخطوفين لديه وعودتهم إلى أحضان عائلاتهم ومؤسساتهم في أسرع وقتٍ ممكن.

أيها العسكريون

اعلموا أنّ العهد الجديد يراهن في ما يراهن على دور مؤسساتكم لتوفير الاستقرار الأمني الشامل والمستدام، الذي بدوره يوفّر قاعدة الانطلاق لما يصبو إلى تحقيقه من إنجازات اقتصادية وإصلاحية وإنمائية تنقل البلاد من ضفةٍ إلى أخرى، وهو في سبيل ذلك أبدى منتهى الحرص على تعزيز قدرات مؤسساتكم، سواء عبر الدعم الداخلي، أم عبر دعم الدول الشقيقة والصديقة، فلا تتأخروا لحظة عن القيام بهذا الواجب النبيل.

أيها العسكريون

- مؤسساتكم حامية الاستقلال، لأنها القدوة في الالتزام المصان بعرق التضحية ودم الشهادة، وهي نموذج العمل المؤسساتي الصالح، حيث الكفاءة والأهلية والنزاهة والشفافية.

- مؤسساتكم هي مرآة الشعب اللبناني، التي تعكس تنوّعه وتمسكه بدوره الحضاري، ويزانته النهائية في الانصهار الوطني والعيش الحرّ في كنف الدستور والقانون.

- مؤسساتكم تجسد إرث اللبنانيين وقوة حاضرهم وتطلّعات مستقبلهم.

حافظوا على هذه القيم والمبادئ والمكتسبات، لأنّها الخبز الذي يحيا به الجيش، والأمل الذي يستمرّ به لبنان.

البرزة في 10 / 3 / 2017

العماد عون قائد الجيش

يطرح خطاب «أمر اليوم» جهات الاتصال المعنية فيه، فيلقي الضوء على الجهة المرسله التي تكون عادة صاحبة الخطاب الممسكة بأطرافه ومضمونه وأهدافه، وهو خطاب حصريّ بقائد الجيش الذي يزود خطابه بالسلطة المكتسبة من المركز القياديّ الذي يتبوأه؛ فيصبح «لأمر اليوم» قوته السلطويّة.

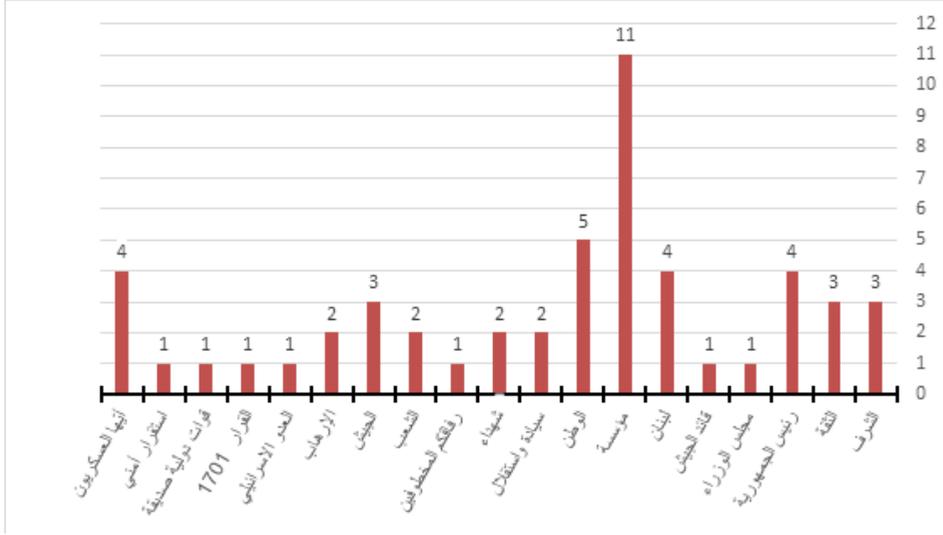
1-6- تحليل المفردات الواردة في خطاب «أمر اليوم»

جدول رقم (2): أبرز المفردات الواردة في الخطاب

المفردة ومشتقاتها	تكرارها
الشرف	3
الثقة	3
رئيس الجمهورية	4
مجلس الوزراء	1
قائد الجيش	1
لبنان	4
مؤسسة	11
الوطن	5
سيادة واستقلال	2
شهداء	2
رفاقكم المخطوفين	1
الشعب	2
الجيش	3
الإرهاب	2
العدو الإسرائيلي	1
القرار 1701	1
قوات دوليّة صديقة	1

1	استقرار أمني
4	أيها العسكريون

رسم بياني رقم (2) : أبرز المفردات وتكرارها في الخطاب



يبين الجدول أعلاه، أبرز المفردات الفاعلة في النصّ التي شكّلت نسيجاً متناسقاً للخطاب في إطار مواضيع وأمور محدّدة أراد العماد جوزاف عون إيصالها إلى العسكريين. يظهر جلياً أنّ مفردة «مؤسسة» ومشتقاتها وردت احدى عشرة مرّة، وهو عدد كبير مقارنة مع حجم النصّ. يحيل هذا التكرار الكثيف للمفردة إلى الإيمان بأنّ الجيش مؤسسة نظامية، مبنية على الانضباط والتراتبية الهيكلية مثل أي مؤسسة مدنية أخرى. فالمؤسسة في طبيعتها تقوم على النظام والقوانين والإنتاجية والموارد البشرية، يقودها رئيس مجلس إدارة. هكذا الجيش، نجاحه نابع من تكامل الجهود البشرية مع ما يتناسب من توفّر عتيد وعتاد مناسب لتلك الجهود، وقائد الجيش هو القائد الذي يدير مؤسسة الجيش ويضع خطته الاستراتيجية التي ينفّذها الضباط العاملون الذين يمثّلهم في المؤسسات المدنية رؤساء أقسام خطوط الإنتاج.

الملاحظ أنّ المؤسسة في خطاب العماد جوزاف عون اقترنت بالوطن أولاً، وبالعسكريين ثانياً. هذا الاقتران يمثّل التكامل العضوي بين المؤسسة المعنوية وكادرها البشري المتمثّل

بالعسكريين، فهم أساس العمل المؤسّساتي للجيش يحيطهم شعار «شرف، تضحية، وفاء» الذي يمثّل دستورهم وقسمهم.

في المستوى الأدنى للتذكّار في الجدول، يظهر أنّه يوجد عدّة مفردات وعبارات تكرّرت مرّة واحدة. مثل: (رفاقكم المخطوفين - العدو الإسرائيلي - القرار 1701 - قوات دولية صديقة - استقرار أمني). هذا التكرار على قلّته إلّا أنّه يمثّل أبرز القضايا التي أراد العماد جوزاف عون تركزها في ذهن العسكريين لرسم معالم وطريق عملهم. فالعسكريون المخطوفون على يد المجموعات الإرهابية العام 2014 من القضايا الأساس التي حتّ فيها العماد جوزاف عون العسكريين للعمل من أجل تحريرهم وعودتهم إلى الوطن، دلالة على أنّ الجيش لا يترك أسراه. أمّا العدو الإسرائيلي فهو عدو مكرّس في القوانين اللبنانية وفي عقيدة الجيش اللبناني، وعليه فإنّ مواجهته على الحدود الجنوبية دائمة لما يمثّله من أطماع. أمّا القرار 1701 فهو مرتبط بالعدو الإسرائيلي بعد حرب تموز¹ 2006. وتطبيقه من قبل العسكريين في الجيش اللبناني يمثّل احترام لبنان والتزامه في المقام الأوّل، والجيش ثانيًا بالقرارات الدولية، مقابل خروقات العدو الصهيونيّ لبند هذا القرار، وعدم احترامه الشّرع الدولية. واستكمالًا لتنفيذ القرار 1701 وتأكيدًا على احترام لبنان للقرارات الدولية ومنظمة الأمم المتّحدة التي يُعدّ لبنان عضوًا مؤسسًا فيها، فإنّ العماد جوزاف عون يطلب من العسكريين تطبيق القرار 1701 بالتعاون مع القوات الدولية الصديقة، في إشارة إلى أنّها قوات صديقة ليست محتلة، وهي موجودة من ضمن القرارات الدولية التي يعترّم لبنان تنفيذها ويحترمها. أمّا الاستقرار الأمني فقد ذكره قائد الجيش مرّة واحدة لأنّه بطبيعة الحال هو من مهام الجيش، هذا الاستقرار الذي يعنيه العماد جوزاف عون هو الذي يصبو إليه رئيس الجمهورية لتحقيق الازدهار الاقتصادي والأمنيّ.

التكرار الوارد في النّصّ يسهم ويساعد في ترابط الخطاب من خلال عبارة «أيّها العسكريون». فهذا التكرار يشكّل لازمة الخطاب وأداة الانتقال من فكرة إلى أخرى ببسر وسلاسة من دون الحاجة إلى التّطويل والاستطراد.

1 في 12 تموز العام 2006 شنّ العدو الصهيوني الإسرائيلي عدوانًا على لبنان، بعد أسر جنديين له على الحدود الجنوبية للبنان. استمرّ العدوان 34 يومًا (12 تموز 2006 - 14 آب 2006)، وانتهى بعد تطبيق مضمون القرار الدولي رقم 1701 الذي ينصّ على «وقف الأعمال العدائية».

2-6- تحليل القيم الواردة في خطاب «أمر اليوم»
جدول رقم (3): القيم الإيجابية والقيم السلبية في الخطاب

المفردة / العبارة	قيمة إيجابية	قيمة سلبية	تكرارها
الشرف	X		4
الثقة	X		10
الجيش	X		15
لبنان	X		11
سيادة واستقلال	X		6
العدو		X	3
تضحية	X		10
احترام الأنظمة والقوانين	X		4
أمن	X	X	12

يبين الجدول أعلاه القيم القائمة في الخطاب. والمقصود بالقيم هي الكلمات والمفردات أو العبارات التي تمثل بجوهرها قصداً قيمياً إيجابياً أو سلبياً، هذا القصد مرتبط بالسياق الجاري فيه. وتتوزع هذه القيم إلى ثلاثة اتجاهات:

الأول: قيم علاقاتها إيجابية حصراً.

الثاني: قيم علاقاتها سلبية حصراً.

الثالث: قيم علاقاتها موزعة بين الإيجابية والسلبية.

وإذا كان الجدول يظهر تسع قيم، فإن هذه القيم تلاحظ سيطرة الإيجابية عليها، إذ ورد سبع منها في الخانة الإيجابية، مقابل قيمة واحدة لكل من القيم السلبية حصراً والإيجابية والسلبية معاً.

الاتجاه الأول من القيم الإيجابية: وردت فيه قيمة (الجيش) بأعلى مستوى قيمي، إذ تنطوي تحتها مفردات: «القوات المسلحة» و«المؤسسة» بمشتقاتها، فتكررت هذه القيمة

خمس عشرة مرّة. هذا يدل على أنّ الجيش يمثّل المسار الصحيح عندما يذكر؛ بالتّالي خلق الطمأنينة في الأجواء المحيطة به، وهو ما يسعى إليه العماد جوزاف عون بعد تسلّمه قيادة الجيش.

الاتّجاه الثّاني من القيم السّلبية: وردت فيه قيمة (العدو) مرّة واحدة مع ما تتضمنه من عبارات ومفردات: «الإرهاب» و«العدو الإسرائيلي»، فنكرّرت ثلاث مرّات. هذا إن دلّ يدلّ على أنّ العدو واضح لا مجال للالتباس حوله ولا مجال لتعريفه، فأينما حلّ هذا العدو يبيّت الدمار في البشر والحجر، ولا يمكن للعسكري اللّبنانيّ أن يتهاون في وجوده، فذلك العدو هو الشرّ الذي يهدّد الوطن، والجيش اللّبنانيّ هو مناعة الوطن ضدّ هجماته.

أما الاتّجاه الثّالث من القيم فهو المتضمّن المعنى الإيجابي والسّلبى معاً وفق السّياق والبناء الدلالي الواردة فيه. هذا الاتّجاه مرتبط بشكل غير مباشر بالاتّجاهين السابقين؛ بقيمة «الأمن» التي وردت مرّة واحدة في الجدول ترتبط بقيمة «الجيش» في الاتّجاه الأوّل الذي يؤمّن الأمان والاستقرار الأمني للوطن وللشعب اللّبنانيّ. لكنّها في الوقت ذاته ترتبط بالاتّجاه الثّاني السّلبى عندما يتعلّق الأمر بالعدو الذي يززع استقرار الوطن وأمنه.

خاتمة

الاتّصال القيادي الذي يؤدّيه قائد الجيش اللّبنانيّ يساهم في بلورة مسار الدّولة اللّبنانيّة في مواجهة تحدياتها الأمنيّة، وقدرة العسكريين على التّفاعل مع هذا الاتّصال بأسلوب توجيهيّ يحمل في طياته المبادئ الوطنيّة المتمثّلة بالعقيدة العسكريّة للجيش اللّبنانيّ. إنّ تعدّد أساليب الاتّصال والتّواصل في العصر الحديث -في ظلّ الاتّصال الرقمي- يحتمّ على القائد العسكريّ اختيار إحداها لتكون مسعاه إلى الاتّصال الجماعي، عليه فإنّ القائد في الجيش اللّبنانيّ يختار الخطاب النّصيّ من خلال «أمر اليوم» ليتوجّه به إلى العسكريين. إنّ «أمر اليوم» يمثّل أفضل مثال عن رؤية القائد للجيش، ويوضّح الأسلوب الذي يعمل من خلاله قائد الجيش على توجيه العسكريين وتحفيزهم وإرشادهم، ويترجم عقيدة الجيش اللّبنانيّ في مواجهة العدو الإسرائيليّ والإرهاب، ويؤكّد أسلوب الاتّصال التّأثيري في نفوس العسكريين.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط.1، 2005، مج.2، ج.3.
2. السويدان، طارق وفيصل باشرحيل. صناعة القائد، لا م.: دار ابن حزم، ط.3، 2004.
3. العبدالله، مي. المعجم في المفاهيم الحديثة للإعلام والاتصال، بيروت: دار النهضة العربية، ط.1، 2014.
4. العدلوني، محمد أكرم. القائد الفعال، الرياض: قرطبة للإنتاج الفني، لا ط.، 2000، مج.1.
5. فرحات، درية. «جهود العرب القدامى في النظريات اللسانية الحديثة - الجاحظ ونظرية التواصل عند جاكبسون أنموذجاً»، بيروت: مجلة المنافذ الثقافية، دار النهضة العربية، عدد 40 - خريف 2022.
6. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.4، 2013.
7. هيز، صامويل ووليم توماس. تولي القيادة: فن القيادة العسكرية وعلمها، تر. سامي هاشم، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا ط.، 1989.
8. مرجع تدريبي: عمليات المعلومات، الجيش اللبناني - الكلية الحربية، السنة 3.
9. مديرية التخطيط للتواصل الاستراتيجي، استراتيجية التواصل في الجيش اللبناني للعام 2023، قيادة الجيش اللبناني - أركان الجيش للتخطيط.
10. عبد الرحمن، محمد السيد. نظريات الشخصية، القاهرة، دار أنباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
11. هريدي، عادل. نظريات الشخصية، القاهرة: إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط.2، 2011.
12. صقر، جورج. الناطق الإعلامي في الجيش اللبناني وتأثير وجوده على صورة الجيش لدى الرأي العام. بحث عسكري غير منشور. تموز 2018. موقع الجيش اللبناني في الشبكة العنكبوتية.

<https://www.lebarmy.gov.lb/ar>

Scott, Kevin. "Strategy". 25 April 2018. Joint Chiefs of Staff. PDF Joint Doctrine. 8 April 2024. <https://encr.pw/IYcnj>

الأوضاع الداخليّة في جبل لبنان (1697 - 1841م)

Internal conditions in Mount Lebanon (1697 - 1841 AD)

صفاء أسعد

Safaa Asaad

تاريخ الاستلام 2024 /5/15 تاريخ القبول 2024 /5/30

الملخص

تتناول الدراسة حقبة تاريخية مهمة من تاريخ جبل لبنان السياسي، وهي المرحلة الممتدة بين عامي 1697 و1841م، أي منذ انتقال الإمارة الإقطاعية التي تمثلت بثنائية درزية - مارونية من المعنيين إلى الشهابيين أقرباء آل معن، وما رافق هذه المدّة من شدّ ونفور تجاه السّلطة المركزيّة العثمانيّة في اسطنبول. لقد شهد جبل لبنان خلال هذه المرحلة العديد من التّجاذبات التي أفضت إلى العديد من الخلافات والأزمات والثّورات والفتن، وكانت فرصة ذهبيّة للقوى الأجنبيّة للاستفادة منها لتعزيز نفوذها وتحقيق أهدافها الاستعماريّة والتّحكم في سياسة جبل لبنان كما يحلو لها.

تعدّ الإمارة الشّهابيّة وريثة وامتدادًا للإمارة المعنيّة، إذ شهدت في نهاية عهدها تحولات جذريّة في مناطق حكمها وسيطرتها، مع نزوح الموارنة جنوبيًا، ما أدى إلى تزايد نموهم الديموغرافيّ وتنامي نشاطهم الزراعيّ والمهنيّ، فضلًا عن تنصّر جزء من الأسرة الشّهابيّة واعتناقها المارونيّة، بالإضافة إلى علاقاتهم المتنامية مع الغرب. حيث كشفت حملة نابليون عن موقف الزعماء في جبل لبنان منها، وكان من تداعياتها إعادة ترتيب التّحالفات الداخليّة. أمام كل هذا كان الدّخول المصريّ إلى بلاد الشّام الذي قُبِل بالتأييد والترحيب من الأمير بشير الثّاني، ففاقم الأوضاع السياسيّة داخل الجبل واندلعت الثّورات في وجه المصريّين وحفائهم الشّهابيين، وكانت الدّول الأوروبيّة التي دعمت الحملة المصريّة في البداية سرعان ما تراجعت ووقفت إلى جانب الدّولة العثمانيّة، واضطرّ المصريّون إلى الانسحاب من جبل لبنان بل من كامل بلاد الشّام، ومع خروجهم تحوّلت الخصومات السياسيّة المحليّة إلى مواجهات دمويّة طائفية بين الدّروز والموارنة، مع

تعاضم التّدخل الأوروبيّ في شؤون جبل لبنان الداخليّة ليدخل الجبل مرحلة جديدة مليئة بالصّراعات الدّمويّة والطائفية. انطلاقاً من هذا ما هي التّطوّرات والتّحوّلات السياسيّة التي طرأت على جبل لبنان منذ انتقال الحكم إلى الإمارة الشّهابية وصولاً إلى قيام نظام القائمقاميتين؟

Abstract

The study deals with an important historical period in the political history of Mount Lebanon, which is the period between 1697 and 1841 since the transfer of the feudal emirate, which was represented by a Druze–Maronite duality from the concerned to the Chehab relatives of the Ma'an family, and the accompanying tension and alienation towards the Ottoman central authority in Istanbul. Mount Lebanon has witnessed during this stage many tensions that led to many disputes, crises, revolutions and strife, and it was a golden opportunity for foreign powers to benefit from them to enhance their influence, achieve their colonial goals and control Mount Lebanon's policy as they wish.

The Chehab Emirate is considered an heir and an extension of the Emirate concerned, as it witnessed at the end of its reign radical transformations in the areas of its rule and control, with the displacement of the Maronites to the south, which led to an increase in their demographic growth and the growth of their agricultural and professional activity, as well as the Christianization of part of the Chehab family and its embrace of Maronite, in addition to their growing relations with the West. Napoleon's campaign revealed the position of the leaders in Mount Lebanon towards it, and one of its repercussions was the rearrangement of internal alliances. In front of all this, the Egyptian entry into the Levant, which accepted the support and welcome of Prince Bashir II, had exacerbated the political situation inside the mountain and revolutions broke out in the face of the Egyptians and their Chehab allies, and the European countries that supported the Egyptian campaign at first we see had retreated and stood by the Ottoman Empire, as the Egyptians were forced to withdraw from Mount Lebanon, but from the entire Levant, and with their exit, local political rivalries turned into bloody sectarian confrontations between the Druze and the Maronites, with the increase in European intervention in Mount Lebanon's internal affairs to enter a new phase full of bloody and sectarian conflicts. Based on this, what are the political developments and transformations that have taken place in Mount Lebanon since the transfer of power to the Chehab Emirate until the establishment of the Qaimaqamayn system?

أولاً: انتقال الإمارة من المعنيين إلى الشهابيين

سيطر الأمير فخر الدين المعني الثاني¹ على جبل لبنان في بداية القرن السابع عشر. وذلك بعد وراثته للمناطق الدرزية في الجنوب، ثم بسط سيادته فيما بعد على المناطق المارونية في الشمال. وبهذا يكون قد وضع الإئتلاف الماروني - الدرزي الذي قام عليه لبنان كولاية عثمانية.

كان فخر الدين داهية في السياسة جذبت سيرته أمراء توسكانا واسبانيا، في عهده ازدهرت البلاد اقتصادياً وعاش الناس في رخاء وراحة، كما ازدهرت التجارة مع أوروبا والدول المجاورة². وعندما ذاع صيته في أنحاء الدولة العثمانية وتحالفه مع الغرب، شعرب الدولة بأن هذا الأمر يشكّل خطراً عليها، فأرسل السلطان مراد الرابع حملة عسكرية تمكذنت من القبض عليه وأرسل إلى اسطنبول حيث أُعدم خنقاً بعد عامين³.

أنجب الأمير فخر الدين خمسة أولاد، لم يبق منهم بعد انتهاء حكمه سوى الابن الأصغر، عمل في البلاط العثماني، وأصبح سفيراً في الهند⁴. وخلف فخر الدين ابن أخيه الأمير ملحم، ومن ثم ابنه الأمير أحمد العام 1657م⁵.

وبعد وفاة الأمير أحمد العام 1697م، انقطعت سلالة الإمارة المعنوية، حينها أذن العثمانيين لوجهاء البلاد بانتخاب ابن اخت الأمير فخر الدين من آل شهاب، فانتخب الأمير بشير من وادي النّيم أميراً على البلاد⁶.

لم يكن انتخابه يرضي العثمانيين، مع العلم بأنّ هم من طلبوا انتخاب أمير على البلاد ووقع الاختيار على الأمير بشير. فما كان منهم إلا أن أصرّوا على أن تؤول الإمارة إلى حيدر شهاب من أقرباء أحمد معن وبشير شهاب. وبعد التفاوض تم الاتفاق على

1 فخر الدين من أمراء لبنان من آل معن، حكموا إمارة الشوف من حوالي 1129م حتى عام 1623م. يعتبر مؤسس لبنان الحديث فكان ينظر اليه على أنه أعظم شخصية وطنية عرفها لبنان وأكبر ولاة الشرق العربي في القرنين 16 و 17 - محمد، حسن، الإمارة المعنوية، لبنان تاريخ سياسة وحضارة، Edito creps، 1998، ج7، ص 47.

2 المصدر نفسه، ص 55.

3 الصليبي، كمال، 2008، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، ص 31.

4 محمد، حسن، مرجع سابق، ص 95.

5 المصدر نفسه، ص 116 - 118.

6 طنوس الخوري، أغناطيوس، 1953، مختصر تاريخ جبل لبنان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص 50

أن يحكم الأمير بشير الأول كوصي على الإمارة حتى يكون حيدر شهاب قد بلغ سن الرشد¹. وبذلك يكون الشهابيون أقرباء المعنيين، وأصحاب وادي النّيم أمراء على جبل لبنان.

ذكر المؤرخ اللبناني كمال الصليبي أنّ الشهابيين يدينون بالسنة، إلا أنّ الإمارة التي انتهت إليهم، قد خضعت للإقطاعية الدرزية لأنهم الأكثر عددًا. أمّا النصارى لا سيما موارنة الجبل شكوا آنذاك من الضعف السياسي².

فمن أواخر القرن 17، وقعت مناطق بشري والبترون وجبيل المارونية والكورة الأرثوذكسية تحت نفوذ مشايخ آل حمادة الشيعية الذين تولّوا حكم هذه المناطق عن ولاة طرابلس. وكان ظالمًا عنيفًا كما يقال³. ولم يكن للشهابيين من الأمراء حكم عليهم، وفي الوقت نفسه كان آل الخازن الموارنة في منطقة كسروان قد استعادوا جزءًا كبيرًا من الأراضي التي استوطنها الشيعية بمساعدة آل معن، وتمتعوا بوزن سياسيّ يعكس موارنة الشوف وجوارها، حيث التفوذ القوي للشهابيين والمعنيين. شجّع المعنيون مسيحيّ الشمال على النزوح إلى المناطق الدرزية، فتزايد عددهم بشكل كبير في العهد الشهابي، عمل هؤلاء النازحين فلاحين في مزارع أعيان الدروز الذين كان لهم السيادة والسلطة السياسية على البلاد⁴.

فكان الدروز منذ أن استوطنوا، أقاموا نظام إقطاعي خاص بهم، ولم يعمل العثمانيون على تغيير الوضع في البلاد الدرزية حيث سمحوا للدروز بممارسة تقاليدهم الإقطاعية وتبدير شؤونهم⁵، لذلك بلغت المكانة والتفوذ لدى آل معن حيث استطاع الأمير فخر الدين أن يوسّع حكمه إلى أن شمل جبل لبنان كلّه. وفي عهده وعهد خلفائه دخل النظام الإقطاعي مناطق الشمال فنهضت أسر مارونية كآل الخازن التي تبوّأت مكانة إقطاعية مستمدة من تعاونها مع مشايخ الدروز الإقطاعيين. وتولّت ادارة مناطقها على الطريقة الدرزية واعترفت بالسيادة الدرزية عليها.

1 الصليبي، كمال، المرجع السابق، ص 32.

2 الصليبي، كمال، المرجع السابق، ص 32.

3 ضاهر، مسعود، 1977، الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعي، دار الفارابي، بيروت، ط 1، ص 9.

4 الصليبي، كمال، المرجع السابق، ص 32 - 33.

5 ضاهر، مسعود، المرجع السابق، ص 20 - 21.

هذه المكانة والسيادة للإقطاع الدرزي لم تدم طويلاً، فمع دخول منتصف القرن 18 ارتفع عدد الموارنة وأصبح لهم مكانة اجتماعية مهمة بعد احتلالهم مراكز النفوذ كمستشارين للأمرء ومساعدين. ودخل الانقسام الداخلي بين الدروز فوق التنافس بين الأسر الدرزية الإقطاعية - الانقسام الحزبي اليمني (آل علم الدين) - القيسي (آل معن)¹.

وقعت عدة صراعات بين الحزبين ولكن ظلّ لهما مكانة وسيادة، فمثلاً رغم السيادة القيسية على بلاد الشوف وكسروان إلا أنّ اليمنيين ظلّوا أقوياء حتى حين خلف الشهابيون المعنيين عام 1697م. فكانوا قوة لا يستهان بها وظلّ آل علم الدين يعدّون أنفسهم أحق بالإمارة.

وكان العثمانيون يشجعون كما يُذكر على هذه الخصومة القيسية - اليمنية بين الدروز. ومع تولّي الشهابيون الإمارة نجحوا إلى حد ما في الحد من نفوذ اليمنيين. وكان الأمير بشير الأول (1697 - 1707م) أول أمير من السلالة الشهابية يتولّى شؤون الإمارة.

ثانياً: الأمير حيدر الشهابي

تولّى الإمارة العام 1697م، بسط سلطته جنوباً على جبل عامل وبلاد صفا، ما أربك الوالي صيدا العثماني، وكان الأمير حيدر الشهابي الذي تولّى الإمارة عام 1707م عمل على عزل حاكم جبل لبنان الذي عينه والي صيدا واستبدله بحاكم آخر. هذا أثار غضب الوالي العثماني في صيدا وأمر بتعيين يوسف علم الدين زعيم الحزب اليمني أميراً على بلاد الشوف وكسروان. وأرسل فرقة عسكرية لمواجهة حيدر الشهابي في دير القمر العام 1709م ونجح في ذلك بأن هرب الأمير حيدر ونصب يوسف علم الدين أميراً. لكن هذا أثار موجة غضب الدروز والمسيحيين القيسيين وعمدوا إلى مواجهة اليمنيين، فاجتمع نفر من القيسيين في عين دارا العام 1711م، ووقعت معركة طاحنة أبيد فيها آل علم الدين، وقضى على الحزب اليمني، وتم طرد معظم الدروز اليمنيين وقضى على الخلاف القيسي - اليمني².

1 محمد، حسن، المرجع السابق، ص 37.

2 حمصي، دعاء، المرجع السابق، ص 13 - 14.

ترتب على طرد اليمانيين من المناطق اللبنانية نقص في عدد الدروز وارتفاع في عدد الموارنة. وهذا ما أدى لاحقاً إلى خلق مشكلة في ميزان القوى بين الطوائف. لكن خلال هذه الحقبة بقي دون تغيير إذ التفّ القيسيون حول الأمير حيدر شهاب للحصول على المغانم. عمد الأمير إلى تعزيز النظام الإقطاعي وأعاد توزيع المناطق على الأسر القيسية ورفع مقامهم ومنحهم ألقاباً تميّزهم عن عامة الشعب.

وانتصبت الأسرة الشهابية على رأس الأسر الإقطاعية الدرزية وحمل الأمير الشهابي لقب «ملتزم بلاد الشوف وكسروان». وبلغت الأسرة الشهابية مكانة من القوة بحيث رسخت في أذهان الناس كما يذكر الصليبي استحالة زرععتها.

تلا الشهابيون في الوجاهة أسرة آل ابي اللمع الدرزية، فبعد معركة عين دارا أعطاهم الأمير حيدر مراتب عليا وتقرب منهم بالزواج - زوج شقيقته وابنته من أميرين لمعيين - فوضع تقليداً من التزويج بين الشهابيين والمعيين. وفي المقام الثالث جاء آل ارسلان أسياد الغرب وجوارها.

أما أسر المشايخ فكانت أكثر عدداً وأبعد نفوذاً منهم آل جنبلاط - آل علم الدين - آل أبي التكد وأضاف الأمير حيدر أسرة آل تلحوق وآل عبد الملك. وكوّنت هذه الأسر الخمس من الطائفة الدرزية طبقة «المشايخ الكبار». وعند الموارنة آل الخازن وآل حبيش آل الدحاح¹.

كان آل جنبلاط أرفع المشايخ الكبار مقاماً بين الدروز وكان لهم خصم سياسي هو الشيخ يزبك الذي يذكر أنه ناصر فخر الدين الثاني ضد آل جنبلاط. وكان لهذا سبب في الانقسام الدرزي في الشوف حينها بين الفريق الجنبلاطيّ والفريق اليزبكيّ، وحين تولّى الأمير حيدر تدعيم النظام الإقطاعي اللبناني اعترف بآل جنبلاط مشايخ على الشوف فوسّعوا نفوذهم في إقليم التفاح وجبل الریحان. ونجحوا في تحقيق الثروة والجاه هذا ما أثار حسد المشيخات الدرزية لا سيما آل عماد الذين أيّدوا الفريق اليزبكيّ.

فما كادت الخصومة تنتهي بين القيسية واليمينية حتى بدأ الدروز ينقسمون بين الجنبلاطيين واليزبكيين. وارتبط الانقسام بينهم بالنزاع بين الشهابيين على الإمارة.

1 الحمصي، دعاء، المرجع السابق، ص 15.

أقفل القرن 18 صفحاته بنزاع عنيف بين العائلات الدرزية، و تطوّر الصّراع الدرزيّ - الدرزيّ ليشمل كامل الإمارة، ولم يستطع الدّروز التّأثير في الواقع القائم ذلك أنّه بعد اعتزال الأمير ملحم أصبح الدّروز أقلية في مناطقهم.

أما الموارنة فبدأوا يزدادون قوّة. ويذكر أنّ الأمير ملحم تأثر باختلال التوازن بين الطوائف، وفي بداية تعزز قوّة الموارنة سمح لأبنائه المسلمين بأن يصبحوا مسيحيين وشجّعهم على ذلك. اقتدى سائر أمراء الشّهابيين والممعيين بالأمير ملحم لاحقاً، وأصبحوا مسيحيين، هذا ما أورده المؤرّخ كمال الصّليبيّ في كتابه تاريخ لبنان الحديث. وفي العام 1770 عندما تنازل الأمير منصور عن الحكم وخلفه الأمير يوسف المارونيّ المذهب، بدأ عهد الإمارة الشّهابيّة المسيحيّة - عهد الشّهابيين النّصارى¹.

ثالثاً: عهد الشّهابيين النّصارى

ازداد الموارنة قوّة بسبب ارتباطهم بصناعة الحرير إذ كانوا أكبر المنتجين اللّبنانيين، حيث عملوا على إحياء الصّلات التّجاريّة مع أوروبا وبلاد الشّرق. وهذا ما عزّز تفوّق الطّائفة اقتصادياً على سائر الطوائف في لبنان. وفي هذه الحقبة كان قد نزح الكثير من الأسر الثريّة من طائفة الرّوم الكاثوليك من الدّاخل السّوريّ إلى لبنان. فتحالفت مع الموارنة وقد استفاد الموارنة أنّ لكنيستهم علاقة وطيدة مع أوروبا. فكان غالبية رجال الدّين الموارنة يتلقون العلم في إيطاليا وكان مرسلو الكنيسة الكاثوليكيّة الرّومانيّة من الفرنسيّسكان واليسوعيّين مستشارين لدى البطاركة الموارنة، يسهمون في الرّقابة على الكنيسة وفي إدارة شؤونها.

في العام 1596م والعام 1736م أقرّ المجمعان الكنسيان المنعقدان في قنوبين واللويزة اتّحاد الكنيسة المارونيّة مع رومية.

وفي العام 1535م عقدت معاهدة بين فرنسا والسّلطان العثمانيّ منحت بموجبها فرنسا امتيازات خاصة مما سمح لها بأن تنمي مصالحها في بلاد الشّام. وكانت أقوى دولة كاثوليكية في أوروبا فعدت نفسها حامية الموارنة.

1 الصّليبيّ، كمال، المرجع السابق، ص 41.

ففي العام 1655م عيّن أحد مشايخ آل الخازن الموارنة قنصلًا لفرنسا في بيروت، وظلّ هذا المنصب وراثيًا إلى أن جرى تعيين مارونيين آخرين، وكان لهؤلاء القناصل تأثير شديد على الشهابيين إلى أن نظروا إلى فرنسا نظرة الدّعم الحليف.

يمكن القول بأنّ صلة الموارنة مع الكنيسة الكاثوليكيّة الرّومانيّة فائدة إذ زوّدتهم بتأييد سياسيّ خارجيّ لم يحصل عليه أي من الطوائف الأخرى، وكان للصلة هذه فائدة ثقافية فالكثير من الذين تخرجوا من المعهد المارونيّ في رومية عادوا إلى لبنان وعملوا على إنشاء المدارس لنشر التّعليم وأصبحت هذه المدارس بإدارة الآباء اليسوعيّين مراكز تربويّة ذات شأن تزود الأمراء الشّهابيين بالكتابة والمعاونين. وهكذا نشأت طبقة من المتعلمين الموارنة تبوّأت أعلى المناصب. وتجدر الإشارة ان الإقطاعيّة الدّرزيّة استخدموا الموارنة المتعلمين.

إلى جانب هذا كان للكنيسة الكاثوليكيّة الرّومانيّة نفوذ سياسيّ مباشر في لبنان - منذ أن حصلت على الحماية من فخر الدّين الثّاني ازداد مراسلوها إلى البلاد وكانوا أصحاب كلمة مسموعة- ما أن بدأ القرن 18 نشط عدد الإرساليّات من فرنسيسكان والعازاريين والكرمليين واليسوعيّين، وكانوا مقربين من الشّهابيين وعلى صلة مباشرة. فرأوا أنّ هذه خطوة مهمة لتعزيز المصالح الكاثوليكيّة في لبنان.

يمكن القول بأنّ ميزان القوى بين الدّروز والموارنة أصيب بتغيّر خطير. وذلك لحلول الموارنة مكان الدّروز في السّيطة السّياسيّة. وحين تنصّر أبناء الأمير ملحم، ثم تولّى الإمارة الأمير يوسف 1770م بدأ نجم الدّروز بالأفول مع تفوّق الموارنة المتزايد لكن مع ذلك ظلّوا قوّة لا يستهان بها. لذلك حرص الشّهابيون الموارنة على الظهور بمظهر الدّروز.

لكن الدّروز ظلّوا ينظرون إلى الموارنة على أنّهم حلفاء من دون الشكّ في مطامعهم السّياسيّة. فكان الموارنة يستوطنون القرى الدّرزيّة بحريّة وكذلك الطوائف المسيحيّة الأخرى ليزداد عدد المسيحيّين في البلاد، وكان الجو السائد هو التّسامح الدّرزيّ الذي لم يقابله المسيحيّين بالمثل على حد ما ذكر كمال الصّليبيّ.

رابعًا: الوضع العام في جبل لبنان

في هذه المدّة بدأ الضّعف يصيب الدّولة العثمانيّة مما سمح لعدد من المغتربين بالاستيلاء على الحكم في بعض الولايات. هذا الضّعف أثار اهتمام أوروبا في الشؤون الداخليّة للدولة¹، فاغتتمت روسيا الفرصة لتوسيع رقعة نفوذها. ففي العام 1768 جرت حرب ثالثة بين العثمانيين والروس، حاول هؤلاء إثارة الإضراب في بلاد الشام لتحويل انتباه العثمانيين، فوجدت المنطقة نفسها موضع نزاع دوليّ خطير.

فكان أوّل من تورّط في النزاع العثمانيّ - الروسي « ضاهر العمر » حيث جعل من نفسه واليًا على عكا العام 1750، لم تتعرّض الدّولة العثمانيّة بادية الأمر لكن كثرة الشكوك ضده من ولاية دمشق وطرابلس وصيدا جعلته في موضع حرج². فلم يجد ضاهر العمر في هذه الاثناء سوى استغلال الحرب بين الروس والعثمانيين لحماية نفسه، وفي المقابل وجدت روسيا في الخلاف بين ضاهر العمر ووالي دمشق وطرابلس وصيدا فرصة من ذهب للتّدخل لتحقيق غايتها. فعرضت على ضاهر المساعدة وتشديد عزائمه ضد الدّولة فأبحرت البوارج الحربيّة إلى سواحل شرق المتوسط للوقوف إلى جانب ضاهر العمر في محاربه لوالي دمشق.

وفي الوقت نفسه وجد ضاهر العمر أنّ والي مصر علي بك الكبير³ يطمح أيضًا إلى فرض سيطرته على بلاد الشام بعد ان انتزع السّلطة في مصر ونادى بالاستقلال عن السلطان العثمانيّ عام 1763م. وعرض عليه فكرة القيام بعمل مشترك ضج وتلي دمشق، رحبّ علي بك بالفكرة وأرسل العام 1770م قائد عسكره «محمد أبو الذهب» للزّحف مع ضاهر العمر إلى دمشق. وهاجموا الوالي الذي لاذ بالفرار واستسلمت المدينة وأصبح محمد أبو الذهب الحاكم المطلق في بلاد الشام.

هنا لم يجد العثمانيين حيلة إلا أن يعرضوا على محمد أبو الذهب تعيينه واليًا على مصر أن انقلب ضد علي بك الكبير. تحالف محمد أبو الذهب مع العثمانيين لينسحب

1 بعيو، غنية، 2008 - 2009، التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجا 1839 - 1876م، رسالة ماجستير في التاريخ، اشراف: الغالي غربي، جامعة الجزائر - كلية الاداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، ص 37.

2 حمصي، دعاء، المرجع السابق، 24

3 المصدر نفسه، ص 23.

من بلاد الشّام تاركًا ضاهر العمر، ثم زحف إلى مصر وطرد علي بك الكبير العام 1772م.

أما ضاهر العمر كان لا يزال يحظى بتأييد الرّوس حاول الصمود بمفرده ضد العثمانيين. وكانت الدّولة العثمانيّة في هذه الأثناء قد وقعت معاهدة «كوجك قينارجة» عام 1774م¹ وانتهت الحرب بينها وبين الرّوس، وعادت البوارج الرّوسية إلى وطنها تاركة ضاهر العمر وشأنه².

فتسنى للباب العالي أن يكرّس جهوده للقضاء على ضاهر العمر وانتزاع صيدا منه. وتحقّق ذلك بعد أن حاصر الأسطول العثمانيّ عكا، وطلب من ضاهر العمر الاستسلام لكنّه رفض، وأخذ يتحصّر لمغادرة عكا، لكنّه قتل على يد أحد معاونيه.

في العام 1775م بعد هزيمة ضاهر العمر عينت الدّولة العثمانيّة على ولاية صيدا «أحمد باشا الجزائر» فجعل عكا مقرّا له، وأصبح حتى وفاته 1804 أقوى رجل عثمانيّ في بلاد الشّام، حيث تولّى شؤون دمشق وصيدا وعزم على وضع جبل لبنان تحت سيادته. فعزل بيروت عن جبل لبنان، وعمد إلى إضعاف الأمير يوسف الشّهابيّ بتحريض أخويه « أفندي وسيد أحمد». كما أنّه أخذ يتدخّل في الشؤون الداخليّة لجبل لبنان، فأيدّ الجنبلاطين ضد اليزيكيين. وشجع دسائسهم ضد الأمير يوسف. وأثار الأمراء على بعضهم ليرغب كل منهم بان يصبح أميرًا.

ومع حلول العام 1788م قامت حرب أهليّة سمحت للجزار بأن ينتصر على الأمير يوسف وترك كرسي الإمارة. وعين مكانه بشير شهاب (مسيحيّ) عرف ببشير الثّاني حكم جبل لبنان حوالي 52 سنة.

خامسًا: عهد الأمير بشير الثّاني (1788 - 1840)

جاء الأمير بشير الثّاني إلى الإمارة نتيجة ظروف سياسيّة معقدة، حيث كان شخصية انتهائيّة قوي الإرادة واسع الدّهاء، شرس الطّبع وعبوس الوجه. عمل عند الأمير يوسف

1 بعبو، غنية، المرجع السابق، 37.

2 شرشالي، زكية، 2024-2025، الاتفاقيات العثمانية الأوروبية وانعكاساتها على الخلافة والعالم العربي، رسالة ماجستير، اشراف: صبيحة بخوش، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - المدرسة العليا للاساتذة، الجزائر، ص 12.

الشّهابيّ وأصبح فيما بعد شخصية مرموقة في البلاط الشّهابيّ. لفت وجوده خصوم الأمير يوسف لاسيما آل جنبلاط. حاولوا استماله إلى جانبهم، وفي العام 1787م أوفده الأمير يوسف إلى حاصبيا ليقوم بمهمة تقييم إرث له هناك بعد قتله لخاله أحد أمراء الشّهابيّين المسلمين في وادي التّيم. وهناك التقى بالأميرة شمس وتزوَّج بها وكانت صاحبة ثراء واسع. هنا وجد نفسه مستعدًا للسير مع الجنبلاطيين للمطالبة بالإمارة. في الوقت الذي كان الأمير يوسف يمارس الجشع والطّغيان من زيادة الضّرائب، حيث كلما فرض الجزار عليه زيادة في المال عمد هو إلى زيادة الضّرائب. ما أثار نقمة شعبيّة على حكمه¹.

ففي العام 1788م هبّ مماليك عكّا إلى العصيان ضد أحمد باشا الجزار، وكان الأمير يوسف قد أيدّ المماليك في العصيان لكنّهم فشلوا، وبعد أن أعاد الجزار الأمن، وجه جيش عساكره إلى جبل لبنان لمحاربة يوسف الشّهابيّ وتمكّن من هزيمته ونادى أعيان لبنان لتعيين الأمير بشير الثّاني على الإمارة. فتوجّه إلى عكّا الأمير بشير لضمان تعيينه أميرًا على جبل لبنان.

كان واضحًا أنّ الجزار من جعل الأمير بشير أميرًا على البلاد لكن هذا لم يكن من دون ثمن، مثلًا: عندما ذهب الأمير بشير إلى عكّا ليتولّى الإمارة أعاده الجزار إلى لبنان مع 2000 جندي لطرده الأمير يوسف. فتم ذلك العام 1789م ولجأ الأمير يوسف إلى حوران ومن هناك اتّجه إلى عكّا مطالبًا الجزار بالعودة إلى الإمارة. فاستقبله الجزار وأكرمه وأعاد تعيينه أميرًا مقابل وعده بدفع مبلغ من المال².

علم الأمير بشير الثّاني وشعر بالحرج وبدأ يدفع زيادة من الأموال على المبلغ الذي دفعة الأمير يوسف، فأعاد الجزار يوسف إلى السّجن بناءً على طلب الأمير بشير ليعدم شنفًا بتهمة التّامر كما ذكر كمال الصّليبي³.

1 حمصي، دعاء، المرجع السابق، ص 33.

2 معلوف اليسوعي، الاب لويس، 1912، تاريخ حوادث الشام ولبنان 1782 - 1841م، المطبعة الكاثوليكية للباء اليسوعيين، بيروت، لاط، ص 62.

3 حمصي، دعاء، لبنان تاريخ سياسة وحضارة - الإمارة الشّهابية، ج 8، بيروت: Edito Creps، 1998، ص 33.

لكن هذا لم يمهّد متاعب الأمير بشير، ذلك أنّ الجزائر سرعان ما استدعى أبناء الأمير يوسف « حسين - سعد الدين - سليم » إلى عكا ليوليهم الإمارة بالمشاركة. حتى كانت الحرب تتدلّع بين أنصار بشير وأنصار أبناء الأمير يوسف. فيتدخّل الجزائر لإثارة الدّروز ضدّ المسيحيّين، وبعض الأحزاب السياسيّة ضدّ بعضها البعض¹.

وفي العام 1798م تمّ تعيين أبناء الأمير يوسف مكان الأمير بشير وفي الوقت نفسه احتلّ نابليون بونابرت مصر فأبقى الجزائر الأمراء الثلاثة في عكا بانتظار نتيجة الأحداث.

زحف نابليون إلى فلسطين وحاصر الأسطول الفرنسي عكا العام 1799م. شعر الأمير بشير الثّاني بالسّرور بينما شعر الجزائر بالخطر فطلب المساعدة من الأمير بشير، لكنّ الأمير اعتذر عن المساعدة. كما اعتذر عن مساعدة نابليون.

وكان اقتراب الحملة الفرنسيّة قد عزّز التّوتر والخلاف بين الموارنة والدّروز. فالموارنة أصدقاء فرنسا انتظروا بشوق وصول بونابرت إلى لبنان بينما الدّروز شعروا بخشية وخوف شديد. وهنا كان حرص الأمير بشير على تهدئة خواطر الدّروز، وكان سببا لاعتذاره عن مساعدة الفرنسيين، لكنّ الظروف تغيّرت وعاد نابليون بونابرت إلى فرنسا مع جيشه.

لكن الجزائر لم يغفر للأمير بشير، وقرّر الاقتصاص منه، ما أدّى إلى حصول فوضى في لبنان، وعيّن الجزائر خمسة من الشّهابيين لمناوأة الأمير بشير.

في هذه الاثناء وبسبب الضّغوطات غادر الأمير بشير البلاد على متن بارجة بريطانيّة هرباً من الجزائر - حيث كان البريطانيّون حينها يساعدون العثمانيّين على إخراج الفرنسيين من مصر - ونزل الأمير بشير في قبرص ثم في العريش على حدود مصر. وقابل قائد الحملة العثمانيّة على مصر سليمان باشا عام 1801م. وكان الأمير أن دفعته به حذاقته إلى تزويد الجيش العثمانيّ بالمؤن عند اجتيازه بلاد الشام للقاء بونابرت، فحفظ له العثمانيّون هذا الجميل وأقنع سليمان باشا الجزائر بالسّماح للأمير بشير بالعودة إلى لبنان، وبقي تحت رحمة الجزائر إلى أن توفي الأخير العام 1804م.

1 الشدياق، طنوس، 1954، أخبار الأعيان في جبل لبنان، مكاتب سميا، بيروت، ج 2، ص 353.

حرص الأمير بشير على توطيد مركزه في لبنان وكان تدخل الجزائر في الشؤون الداخليّة لجلب لبنان لمدة 30 عامًا قد أضعف مكانة الإمارة. فكان يدعم فريق ضد آخر واستمرت الأمور على هذا المنوال إلى أن توفّي الجزائر. فسارع الأمير بشير إلى كسر شوكة الإقطاعيين الدروز وإعادة الإمارة إلى سابق عهدها.

وانصرف إلى تعزيز مكانته، فبنى قصرًا فخماً ضخماً في بيت الدين القريبة من دير القمر. ونقل إليه مقر إمارته، وجرّ إليه المياه من ينابيع نهر الصّفا، وأقام الجسور والطّرق المعبّدة، واعتنى برعاياه وأقام الحكم العادل الخيّر. وبين 1804 - 1819م قدّر له أن يصبح سيد لبنان الأول وأكبر مناصر للعثمانيين في بلاد الشّام كما ذكر الصّليبيّ.

بعد وفاة الجزائر 1804م عين الباب العالي إبراهيم باشا على عكا، لكنّ أنصار الجزائر نادوا بإسماعيل باشا واليّا، وعملوا على مقاومة إبراهيم باشا، ووقع أبناء بشير الثّاني رهينة عند إسماعيل باشا فما كان من الأمير بشير إلا أن تظاهر بالصدّاقة معه. وزحف إبراهيم باشا عبر لبنان وتلقى المساعدة خفيةً من بشير الثّاني لانتزاع الولاية من إسماعيل. ونجح في ذلك وقتل إسماعيل باشا في أثناء المعركة. ودخل إبراهيم باشا عكا. لكن العثمانيين سرعان ما استبدلوه بسليمان باشا فتحالف الأمير بشير مع سليمان باشا وامتدّ نفوذه إلى جميع الأنحاء الشّامية¹.

ففي العام 1810م زحف الوهابيين² إلى دمشق فأرسل الأمير بشير لمساندة العثمانيين وشدّ أزرهم ضدّ هجمات الوهابيين الذين اضطروا إلى التراجع بعد ان كسر شوكتهم محمد علي باشا والي مصر عام 1818م³. وقد رافق ظهور الوهابيين في بلاد الشّام، ضغط على المسيحيين وسائر الطوائف غير السنّة، ربما لتهدئة خواطر الوهابيين المتمسكين بالسنّة. وأمام الضّغط هذا نزح الكثير من مسيحيّ بلاد الشّام إلى لبنان وبيروت تحديداً. وهذا كان له دور مهم لجعل المدينة مركزاً تجارياً كبيراً. ويذكر

1 الصّليبيّ كمال، المرجع السابق، ص 52.

2 الوهابيون: حركة ظهرت في الجزيرة العربية من مبادئها التوحيد، أسسها محمد بن عبد الوهاب (1703 - 179م)، زعمت هذه الحركة بأن التوحيد تعرض للتشويه والانحراف بسبب المفاهيم الفكرية التي مُزجت مع العقيدة الإسلامية، فلا بد من محاربة هذا الانحراف والعودة إلى الإسلام السلفي. - بغيو، غنية، المرجع السابق، ص 29.

3 الصباغ، ليلي، 1981، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حيان، دمشق، ص 143.

أنَّ الأمير بشير شجَّع على هذه الهجرة ودعا الدروز المضطهدين في حلب إلى اللجوء إلى الشّوف والمتن وساعدهم في ذلك الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط.

وفي العام 1819م عزل سليمان باشا وعين مكانه عبدالله باشا واليا على عكا. وكان طامحًا في إخضاع الأمير بشير، وطالبه بدفع ضريبة باهظة اضطر الأمير إلى قبول الطلب بعد أن وضع عبدالله باشا يده على رعايا الأمير في صيدا وبيروت وعددهم 170 شخصًا. فأوكل الأمير بشير إلى مساعديه جمع المال من البلاد، لكنَّ هذا الأمر أثار ردة فعل سلبية لدى الأهالي فهبوا إلى العصيان لا سيما في المتن وكسروان، وعندما عجز عن جمع الضرائب والقضاء على العصيان غادر الأمير بشير البلاد إلى حوران وصدر أمر من عبدالله باشا يتعين «حسن وسلمان شهاب» خلفا له.

وقعت الفوضى في البلاد ولم يستطع الأميرين حسن وسلمان شهاب من إمساك زمام الأمور، فوجد عبدالله باشا أنه لا بدّ من عودة الأمير بشير وتنازل الأميرين عن الإمارة واجتمع أعيان البلاد وأعادوا انتخاب الأمير بشير بموافقة عبدالله باشا، فجرد حملة عسكريّة سحق فيها العصاة وأعاد الامن والنظام إلى البلاد. وأصبح الأمير صديقًا مع عبدالله باشا.

كان عبدالله باشا يطمح في ولاية دمشق كما طمح بها الجزار من قبل، وكانت دمشق في عهدة «محمد درويش باشا»، وكان بينه وبين بشير الثّاني عداوة سببها طمح درويش في البقاع التي تحت سيطرة الأمير بشير وعندما أرسل عساكره تصدّت لها عساكر بشير الثّاني وعادت إلى أعقابها مهزومة. وحين وقع النزاع بين درويش وعبدالله باشا أيّد الأمير بشير عبدالله باشا، وسار على رأس حملة عسكريّة لمهاجمة دمشق، فسحق عساكر درويش في معركة المزة العام 1821م. لكنَّ هذا لم يكن يرضي الباب العالي ففقل عبدالله باشا من عكا وعين درويش باشا واليًا عليها. ضغط العثمانيون على الأمير بشير لمصالحة درويش باشا، لكنّه أبى واختار مغادرة البلاد إلى مصر حيث محمد علي باشا تاركًا الإمارة إلى عباس شهاب.

وكان عبدالله باشا رفض الإنصياع والخضوع لأوامر السلطان العثمانيّ، فجردت إليه حملة من دمشق وحلب وأضنة لمحاصرة عكا، فاستعان بمحمد علي والي مصر وكان الأمير بشير في هذه الاثناء ضيقًا لمحمد علي، فناشده بمساعدة حليفه عبدالله باشا.

ونزلت الإستانة عند رغبته، وتلافياً للانقسام صفحت الدولة العثمانية عن عبدالله باشا وكلفت بشير الثاني بتبليغ عبدالله باشا قرار تعيينه من جديد والياً على عكا، وعاد الأمير بشير إلى لبنان.

لكن مساعدة محمد علي باشا والي مصر لم تكن من دون مصالح، فكان قد طمع في بلاد الشام وأخذ يوطد صلات قوية مع بشير الثاني وعبدالله باشا. لكن العثمانيين لم يرغب عن بالهم نوايا محمد علي باشا تجاه بلاد الشام، لهذا السبب وافقت تدخله لصالح عبدالله باشا لاعتقادهم بأن والياً قوياً في عكا يجعل الجهة الجنوبية من بلاد الشام في مأمن من المصريين.

وفي الوقت نفسه كان اليونانيون قد أعلنوا الثورة ضد الدولة العثمانية 1820 - 1821م. وكان علي والي مصر نجدة السلطان العثماني محمود الثاني لقمع الثورة. وفيما كان بشير الثاني ضيقاً لدى محمد علي عقد اتفاقاً بأن يعطيه وعداً بإمداد حملته على اليونان بعشرة آلاف مقاتل من لبنان إذا ما لزم الأمر.

عاد بشير الثاني إلى لبنان شاعراً بالقوة فأراد القضاء على خصومه وأولهم بشير جنبلاط الذي تأمر مع عباس شهاب لمنع عودة بشير الثاني إلى البلاد. فزحف على المختارة وهدم قصر الشيخ بشير جنبلاط وصادر أملاكه، بعد أن فرّ الشيخ جنبلاط إلى حوران وعندما علم بذلك عاد مصمماً على الثورة لكنها باءت بالفشل وهرب إلى دمشق حيث اعتقل واقتيد إلى السجن واعدم خنقاً. ويسقط بشير جنبلاط قضى الأمير بشير الثاني على الزعامة الدرزية ولم يغفر له الدروز ذلك وأخذوا ينتظرون الثأر لذلك.

إن الأمير بشير سحق الشيخ جنبلاط الدرزي ليس لأنه درزي، بل لأنه خصم سياسي له. لكن الدروز نظروا إليه كعدو مسيحي لطائفهم.

في هذه الأثناء كانت حرب اليونان في شبه جزيرة المورة¹، وكان العثمانيون قد استعانوا بمحمد علي لقاء حصوله على بعض الممتلكات لا سيما بلاد المورة التي وعد السلطان إسنادها إلى إبراهيم باشا نجل محمد علي. لكنها لم تبق في عهد الدولة العثمانية، ولم يحصل محمد علي إلا على جزيرة كريت. ورفض السلطان أن يعرض له وألح محمد

1 محمد عبد العزيز، عوض، 2020، التنظيمات العثمانية في الولايات العربية، مجلة دار جامعة المنظومة، الرياض، مج 3، عدد 3، ص 80.

علي أن يوليه السلطان بلاد الشام عوضًا عن المورة ، لكن السلطان رفض هذا الأمر .
فقرّر والي مصر الرّحف إلى البلاد الشّامية واصطنع خلافًا مع عبدالله باشا والي عكا
وبعث إبراهيم باشا العام 1831م لاحتلال عكا¹.

سادسًا: الاحتلال المصري لبلاد الشام

كان لرحف جيش إبراهيم باشا على عكا ردّة فعل في جبل لبنان، حيث وقع الخصام
بين الموارنة والدروز . ونشب القتال في دير القمر والمتن والبقاع ونظم الدروز النّاقمون
على الأمير بشير ثورة ضدّه لإحراج إبراهيم باشا في زحفه . والتحق عدد من الدروز
بالجيش العثمانيّ الرّاحف لمواجهة الجيش المصريّ . فيما الموارنة رأوا إبراهيم باشا
صديقًا وحليفًا له .

ما إن بلغ إبراهيم باشا مدينة عكا حتى طلب المساعدة من الأمير بشير الثاني لكن
الأمير تردد، وأخذ يخلق الأعذار خشية من السلطان العثمانيّ وخوفه من اندلاع حرب
أهلية . وعندما علم محمد علي بموقف الأمير بشير أرسل إليه كتابًا يذكره فيه بالعود
السّابقة ويهدّده باجتياح لبنان . فسارع الأمير بشير إلى تلبية دعوة إبراهيم باشا واضعًا
رجاله تحت تصرفه .

وبينما كانت عكا تقاوم الحصار المصريّ، حتى زوّد إبراهيم باشا بشير الثاني بجنود
مصريين لاحتلال صيدا وصور وبيروت وقاومت طرابلس بعض الشّيء فهبّ إبراهيم
باشا بنفسه لنجدة الأمير بشير حتى سقطت المدينة . واحتلت بيت الدين ودير القمر .
وبعد سقوط عكا توجّه إبراهيم باشا والأمير بشير إلى دمشق لاحتلالها فهرب الوالي
العثمانيّ وهزم في حمص 1832م وخضعت بذلك كل بلاد الشام للحكم المصريّ . ولم
يتوقّف إبراهيم باشا في دمشق بل استمر في زحفه إلى كوتاهية وكاد يصل إلى غرب
الأناضول².

سابعًا: نتائج الحكم المصريّ على بلاد الشام (ايجابيات وسلبيات)

يذكر أنّ إبراهيم باشا أقام حكما أفضل مما كان قبله . حيث أنشأ إدارة حازمة ونظامًا
فعالًا للأمن والعدل . وأقام مجالس تمثيلية سمحت للأهالي المشاركة في إدارة البلاد، وأهمّ

1 محمد عبد العزيز، عوض، المرجع السابق، ص 82 - 84 .

2 بعيتو، غنية، المرجع السابق، ص 68 .

ما بذله الحكم المصريّ أنّه عمل على محاربة الفساد والمحسوبية، وعمل على توطيد دعائم المساواة السياسيّة والاجتماعيّة بين المسيحيّين والمسلمين، وحرر المسيحيّين من الكثير من الضغوطات وبدأوا في منافسة المسلمين في التجارة التي كانت حكرًا عليهم وحدهم. الأمر الذي أدّى إلى زيادة شعبية إبراهيم باشا عند المسيحيّين فيما ضعفت عند المسلمين¹. هذه بعض ايجابيات الاحتلال المصريّ لبلاد الشام.

أما سلبياته أنّه أصبح فيما بعد الحكم المصريّ حكمًا مقوّمًا وزادت الاعباء والنقبات. وعوضًا أن تدفع الجزية للدولة العثمانيّة باتت تدفع للحكم المصريّ. وفرضت ضرائب باهظة على الأهالي، ولجأ إلى تدابير تعسفيّة يميقتها الشعب كالسخرة والتجنيد الإجباري. وكان الأمير بشير شريكًا للمصريين في ذلك وهذا ما أثار نقمة الأهالي على الحكم المصريّ والأمير بشير تمثّلت فيما يلي:

في العام 1834 وقعت أول حركة تمرد ضد المصريّين في فلسطين وطرابلس واللاذقية، ونجح إبراهيم باشا في قمعها بمساعدة الأمير بشير.

والمشكلة التي أثارها نقمة الأهالي هو الطلب بتجنيد 1600 مقاتل من الدروز في الجيش المصريّ. اضطرب الدروز ورفضوا ذلك. كما طلب بتجنيد 1500 مقاتل من المسيحيّين هنا ثارت نائرة المسيحيّين وأعلن البطريرك المارونيّ مقاومته التجنيد محدّدًا بالاستنجا بفرنسا، وضغطت القناصل الأوروبيّة للاقلاع عن عدم تجنيد المسيحيّين، بينما الدروز لم يلقَ أيّ دعم بسبب أنّهم كانوا من العاصين على الحكم المصريّ، واستطاع الأمير بشير بتزويد إبراهيم باشا بألف نفر من الدروز وتنظيمهم في فرقة خاصة بمعزل عن بقية الجيش.

وبعدها ألحّ محمد علي باشا بتجريد الدروز من السلاح، وسار إبراهيم باشا على رأس قوّة إلى الشّوف عام 1835م وعاوناه الأمير بشير بهدف ان يلقوا السلاح.

في هذه الاثناء أحدث الاحتلال المصريّ لبلاد الشام تغييرًا خطيرًا، ووجّه المسألة الشّرقيّة وجهة جديدة. فأبراهيم باشا عند وصوله بزحفه إلى كوتاهية وكاد يصل إلى غرب

1 البلخي، علي يوسف، 1985، الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام 1831 - 1840 من خلال الوثائق العثمانيّة، مجلة دار المنظومة، العدد 20 - 19، دراسات تاريخية - سوريا، ص 209.

الأناضول، دفع السلطان العثماني إلى الاستجداء بالدول الكبرى للوقوف في وجه الخطر الداهم. لم تتجده إلا روسيا، بريطانيا مشغولة في شؤونها الداخلية، وفرنسا صديقة محمد علي بحيث ينظرون إليه خليفة بونابرت في مصر. لذلك أرسل الروس أسطولاً بحرياً إلى الاستانة العام 1833م¹.

هذا الأمر أقلق بريطانيا وفرنسا فسارعتا إلى إقناع السلطان العثماني بمطالبة روسيا سحب بوارجها الحربية. لكن الروس أصروا ما لم تغادر القوات المصرية بر الأناضول. هنا وجد محمد علي الفرصة للمطالبة بالولايات الشامية لقاء عودته من غرب الأناضول. فضغبت بريطانيا وفرنسا على السلطان لقبول شروط محمد علي وتم توقيع «اتفاقية كوتاهية في 8 نيسان 1833»، بأن يجلو إبراهيم باشا عن الأناضول لقاء التنازل لمحمد علي عن الولايات الشامية. لكن روسيا رفضت الانسحاب إلا بشروط خاصة فأجبر السلطان على توقيع معاهدة «خونكار اسكله سي» التي نصت في إحدى موادها مساعدة الروس عند الحاجة بإغلاق مضيق الدردنيل في وجه أساطيل الدول الأخرى². لكن فرنسا وبريطانيا لم تظمتنا إلى هذه المعاهدة مخافة من عودة الروس إلى مياه الاستانة عقب أي خلاف وصدام مع السلطان ومحمد علي باشا.

فسعت بريطانيا إلى الحد من مطامع محمد علي بينما فرنسا صممت على تاييده لمطالبه³. هنا تطورت الأحداث في البلاد الشامية إذ وصل إلى بيروت القنصل البريطاني العام 1835م بهدف إبعاد بشير الثاني عم محمد علي لأنه لولا بشير الثاني لما استطاع محمد علي الدخول إلى بلاد الشام وعندما تلقى مقترحات القنصل بتردد حملها الأخير إلى بشير الثالث الذي أظهر استعداداً للتعاون مع البريطانيين، مقابل أن يمدوه بالمعونة اللازمة. وتم الاتفاق وراح القنصل يشجع الدروز ضد بشير الثاني وإبراهيم باشا، ومحاولة إبعاد الموارد عن فرنسا⁴.

بعد اتفاقية كوتاهية أخذ محمد علي يتهيأ لتدعيم حدوده الشمالية في بلاد الشام فعمل

1 حجار ، جوزيف، 1986، أوروبا ومصير الشرق العربي، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، تر: بطرس الحلاق وماجد نعمة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ، ص73.

2 محمد عبد العزيز، عوض، المرجع السابق، ص 87 - 92.

3 البلخي، علي يوسف، المرجع السابق، ص211.

4 الصليبي، كمال، المرجع السابق، ص 65 - 66.

على زيادة قوّاته العسكريّة بالتجنيد الإجباريّ وأرسل إلى إبراهيم باشا بتطبيق قانون الجنديّة على دروز حوران والمسلمين من أبناء العشائر في انحاء الشّام كافة.

هذا أثار ردة فعل قوية تمثّلت بحركة عصيان شملت حوران واحتاط الدّروز للأمر فتركوا ديارهم وتمركزوا في مكان واسع تسهل فيه المقاومة وطلب المساعدة من إخوانهم في الشّوف ووادي التّيم ونابلس. أرسل إليهم المصريّون قوّة من دمشق لسحق المتمرّدين لكنهم فشلوا. ثم جردوا إليهم حملتين عسكريّتين تمكن الدّروز من تحقيق الانتصارات وشدّت عزائمهم وراحوا يهدّدون دمشق. وكان دروز وادي التّيم وبقية المناطق قد لبّوا دعوة دروز حوران وأعلنوا العصيان بقيادة «شبلي العريان» من راشيا. فوجد المصريّين أنفسهم عاجزين عن مجابهة العصيان فطلب إبراهيم باشا من الأمير بشير الثّاني أن يرسل 4000 مقاتل من مسيحيّ لبنان ضد الدّروز المتمرّدين في حوران ووادي التّيم. لكنّ الأمير بشير كان يدرك كما يذكر كمال الصّليبيّ أنّ الصّدّام بين الدّروز والموارنة قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، خصوصا وقد علم الدّروز بأنّ الأمير بشير مسيحيّا وعدوّا للدّروز¹.

ولكن نتيجة لضغوطات إبراهيم باشا نجد أنّ الأمير هبّ مجدداً لنجدة المصريّين والنّزول عند طلبهم، لكن بذكائه اختار رجلاً مسيحيّا على معرفة بوادي التّيم، وحرص هذا الرجل بأن يحيط الدّروز علماً بتحركات الجيش المصريّ.

أعربت حركة التمرّد الدّريّة عن النّقمة العامّة في بلاد الشّام على الحكم المصريّ. هذا شجع السّلطان محمود الثّاني على الإسراع لوضع خطة للانتقام من محمد علي من دون استشارة الدّول الكبرى. فشنّ هجوماً على محمد علي العام 1839م، وكانت نتائجه كارثيّة. إذ تمكن إبراهيم باشا في معركة «النّزب»² من القضاء على الحملة وأسر حوال 15 ألف جندي عثمانيّ، كما استسلم الاسطول العثمانيّ في الاسكندرية بفضل خيانة محمد علي.

توفي السّلطان محمود الثّاني وخلفه ابنه عبد المجيد، فسارع إلى إجراء مفاوضات مباشرة مع محمد علي. فاشترط الأخير بأن يصبح الحكم في بلاد الشّام ومصر حقّاً

1 الصّليبيّ ، كمال، المرجع السابق، ص 67.

2 بركات، داود، د.ت، البطل الفاتح ابراهيم وفتحته الشّام 1832، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، د.م.ن، ص 146 ، 147 ، 167.

وراثيًا لسلالة محمد علي وكاد يقبل بالشروط السلطان العثماني.

لكن هذا لم يرق للدول الكبرى فهبوا لمساعدة الدولة ما عدا فرنسا التي استمرت في دعم محمد علي باشا. ولم تتراجع عن موقفها تحت الضغوطات، إلى أن انفردت بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا بعقد معاهدة « لندن » مع الباب العالي في 15 تموز 1840م¹. عرضت فيها على محمد علي ولاية مصر وراثيًا وولاية عكا مدى الحياة على أن يعلن قبوله بهذا الغرض في مدة عشرة أيام. وفي حال لم يفعل تسحب عرضها بالكامل تاركة للسلطان حرية التصرف.

طبعًا لم توافق فرنسا على هذه الشروط، لكنها لم تكن مستعدة لخوض حرب مع الدول الكبرى في سبيل محمد علي، كما كانت بريطانيا تمد بالسلاح كل العناصر الناقمة على الحكم المصري.

وكان الشيعة في جبل عامل قد أعلنوا العصيان، فأخضعهم المصريون بمساعدة الأمير بشير الثاني، وكان المسيحيون قد بدأوا بالاقلاع عن تأييد الحكم المصري ذلك أن إبراهيم باشا في العام 1838م جند 4 آلاف من المسيحيين لمحاربة الدروز في حوران ووادي التيم. ومحاولة تجريد الدروز في الثورة كما كانت تأمل بريطانيا².

فبريطانيا تمكنت من اجتذاب عدد من المسيحيين على رأسهم البطريرك يوسف حبيش واعدة إياه بإنشاء إمارة مارونية تتمتع باستقلال ذاتي وبضرائب مخفضة.

وفي العام 1840م دعا الأمير بشير الثاني مسيحيي دير القمر ودروزها إلى تسليم السلاح تنفيذًا لأوامر محمد علي، على أن أهالي دير القمر رفضوا ذلك معلنين المقاومة بعد أن تنادوا إلى خلوة درزية ضمت ممثلين عن الدروز والموارنة والروم الكاثوليك.

وسرعان ما انتشرت المقاومة المسلحة من دير القمر إلى أنحاء لبنان حتى ثارت كل البلاد ولم يستطع الأمير بشير الثاني وإبراهيم باشا من الوقوف في وجه حركة المتمردين والثوار³.

1 Goldschmidt, A.; Johnston, R. (2004), **Historical Dictionary of Egypt (3rd ed.)**, American University in Cairo Press, p. 243.

2 الصليبي كمال، المرجع السابق، ص 67 - 69.

3 المصدر نفسه.

ثامناً: نهاية الحكم المصري

أدت القوى السياسيّة الخارجيّة دوراً خطيراً في إثارة حركة التمرد عام 1840م. فعندما تألب الموارنة والدروز، فلاحين ومشايخ ضد الأمير بشير الثّاني، لم يبقَ أمامه سوى تأييد المصريين وتولّت فرنسا الانتصار له لتحالفها مع محمد علي، لم تستطع مساندة الأمير بشير لصداقتها التقليديّة للموارنة والدروز. بل حاولت التّوسط لمنع انتشار العصيان وإقناع إبراهيم باشا بالتّساهل مع المتمرّدين، أمّا الدّولة العثمانيّة وبريطانيا عمدتا على طرد إبراهيم باشا من بلاد الشّام فأخذا يمدّان العصاة بالتّشجيع. وكذلك فعلت روسيا لتوطيد مكانتها كحامية الرّوم الأرثوذكس والنّمسا لاستغلال موقف فرنسا والحلول محلّها كحامية للطوائف الكاثوليكيّة في لبنان.

اجتمع المتمرّدون من نصارى ودروز ومسلمين في انطلياس لتنظيم المقاومة وتوالت اجتماعات مماثلة في أنحاء البلاد، وشدّدوا على المطالبة بوقف الأوامر الصّادرة بتجنيدهم وتجريدهم من السّلاح، وإلغاء نظام السّخرة والضّرائب، وحين رفض إبراهيم باشا مطالبهم عمّت الثّورة في البلاد. وبعد أن كان معظمهم مسيحيّ ودروز الشّوف وكسروان قواعدهم بيروت ودير القمر وجزين سرعان ما انضم إليهم شيعة بعلبك ثم طرابلس ومسيحيّ شمال لبنان وانتظموا عصابات وجماعات.

قطع الثّوار مسالك الجبل وقطعت طريق بيروت وصيدا ودمشق، حيث توقفوا في عزل القوافل المصريّة وقطعوا المياه عن بيروت، واحتلّوا المطاحن المائيّة لتجويد الجيش المصريّ، فأعلن إبراهيم باشا جبل لبنان في حالة حصار وأتخذت اجراءات صارمة لمنع وصول السّلاح والمؤن إلى المتمرّدين، وهذا ما هدّد الثّوار بالجوع وفقدان الأمل وسارعت إلى التفرّق واستطاع الأمير بشير من القضاء على ما تبقى، ونفى زعماء الثّورة إلى مصر.

في هذه الاثناء أخذت البورج البريطانيّة والنّمساويّة تنزل شواطئ بيروت للتّدخل إلى جانب الثّوار وحثّهم على عدم الاستسلام، وعندما رفض محمد علي أحكام معاهدة لندن، دعا قائد القوّات الحليفة إبراهيم باشا إلى الانسحاب من بيروت وبعد رفضه الدّعاء، قصفت البورج البريطانيّة والنّمساويّة بيروت بالمدافع. وكانت القوّات العثمانيّة

والبريطانية والنمساوية قد نزلت شاطئاً جونية وانضمت إلى النوار¹.

هنا رأى المصريون بأن ينسحبوا من المدن الساحلية إلى التلال، وكان الجيش المصري في بلاد الشام قد أزهقه التقهقر وأضعفه الوباء. ما أدى إلى نقص كبير في القوات المصرية فسقطت عكاً ولم يجد إبراهيم باشا سوى الانسحاب من بلاد الشام².

شكل انهيار الجيش المصري ايذاناً بنهاية الأمير بشير وبعد أن سحقت قوات إبراهيم باشا المتبقية في قرية بحرصاف في المتن غادر الأمير بشير بيت الدين إلى صيدا واستقل بارجة بريطانية إلى منفاه في مالطة. ووقع الاختيار على بشير الثالث ليكون خليفاً على الإمارة الشهابية برضى بريطانيا والدولة العثمانية وبدأ عهد جديد في تاريخ لبنان³.

تاسعاً: عهد الأمير بشير الثالث

مع فلول نجم الأمير بشير الثاني نشطت القوى الخارجية في لبنان لبذر التفرقة بين الأهالي من فلاحين واقطاعيين واثارة التفرقات الطائفية، فاشتد التوتر الاجتماعي والطائفي، وعانت البلاد الكثير من النزاع والاضطراب، وكان للعوامل الخارجية أثر كبير. فبعد عودة العثمانيين إلى بلاد الشام بعد نهاية الحكم المصري، اتبعت الدولة السياسة المركزية بعد صدور «خط كلخانة شريف»⁴، وكان همها القضاء على كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتي خصوصاً لبنان، من هنا كان تعيين الأمير بشير الثالث الضعيف الإرادة والشخصية، وكان اختياره يراعي سياسة الدول الكبرى صاحبة الفضل في طرد المصريين من بلاد الشام.

فما إن استلم بشير الثالث الإمارة حتى بدأ زعماء الدروز الإقطاعيين الذين تركوا البلاد في أواخر الحكم المصري بالعودة إلى البلاد والمطالبة بالامتيازات التي خسروها سابقاً. وكان هؤلاء بزعامة نعمان وسعيد جنبلاط ولدا بشير جنبلاط الذي قتل في عهد بشير الثاني. لكن الأمير بشير لم يبد رغبة في تحقيق مطالبهم، ما أدى إلى توتر الوضع ووقوع الفوضى. عجز الأمير بشير الثالث عن انقاذ هيبة الحكم وفرض إرادته على البلاد.

1 المعلوف اليسوعي، الاب لويس، المرجع السابق، ص 54 - 55.

2 البلخي، علي يوسف، المرجع السابق، 215.

3 الصليبي، كمال، المرجع السابق، ص 76.

4 محمد عبد العزيز، عوض، المرجع السابق، ص 82 - 84.

وقفت فرنسا إلى جانب النّاقمين على بشير الثّالث بعد أن تزايدت مخاوفها من النّفوذ البريطانيّ. ورأى الإقطاعيّون المتمرّدون بمؤازرة فرنسا فرصة للمطالبة بإقالة بشير الثّالث والمناداة بسلمان شهاب خلفاً له. وكان سنياً تربيّاً على المسيحيّة، وكان قد حكم جبل لبنان بين 1820 - 1821م عندما كان الأمير بشير الثّاني في منفاه في حوران. لكن البطريرك المارونيّ يوسف حبيش أصرّ على أن يكون أمير لبنان مارونيّاً فصرف النّظر عن سلمان واقترح القنصل الفرنسيّ الأمير المارونيّ حيدر أبي اللّمع خلفاً لبشير الثّالث، وكان صديقاً للبطريرك. وافقت بريطانيا على ترشيحه وحسبت مع فرنسا بأنّ البطريرك سوف يدعم ترشيحهم لحيدر أبي اللّمع. لكن المفاجأة كانت عندما رفض البطريرك وألح على بقاء الأمير بشير الثّالث أملاً إن ازدادت الحالة سوءاً على يده سوف يرغم العثمانيّين بإعادة بشير الثّاني وهو الأمير المفضل لدى البطريرك.

وبهذا عاد التّباعد بين الموارنة والدّروز فما إن أُطلّت 1841 حتى تفاقمت أسباب الخصومة بين الطّائفتين منها:

- تعاون المسيحيّين مع المصريّين لا يزال عالماً في أذهان الدّروز.
- سلب الأمير بشير الثّاني الإقطاعيّين الدّروز الامتيازات والأموال وتوزّعت بالبيع على المسيحيّين.
- الشك والرّيبة بسبب حرم الدّروز من حسن المعاملة التي نعم بها المسيحيّين.
- تجريد الدّروز من السّلاح.
- تجنيد فتيانهم للقتال بعيداً عن الوطن والأهل.
- قيامهم بالثّورة ضد الحكم المصريّ التي باءت بالفشل وإرسال كبارهم إلى المنفى.
- إظهار المسيحيّين مواقف سياسيّة إستفزازية للدّروز.

إزداد التّوتر بين الدّروز والمسيحيّة فسعى بشير الثّالث بمساعدة بريطانيا والدّولة العثمانيّة إلى تسوية الوضع بإنشاء مجلس من 12 عضو يمثلون طوائف البلاد، مهمته معاونة الأمير في إدارة شؤون القضاء، لكن الدّروز رفضوا هذا الأمر. وأصدر البطريرك المارونيّ منشوراً موقّعاً من وجهاء الموارنة ووزّعه على مسيحيّ المناطق الدّريّة داعياً

إلى التمرد على السلطة القضائية التي في أيدي الزعماء الإقطاعيين، وقيام الموارنة بممارسة هذه السلطة. فعَدَّ الدروز أنَّ هذا الأمر استفزاز.

وقعت حادثة بين الدروز والموارنة في العام 1841 وذلك عندما قام أحد الموارنة باصطياد حجلاً ملكاً لاحد دروز بعقلين. فوقع خصام أخذ صيغة طائفية، وأغارت جماعة من مسيحيي دير القمر على بعقلين بالسلاح فقتل 17 درزيًا. لكن البطريرك الماروني سارع إلى الإعراب عن أسفه. وأرسل وفدًا إلى الشوف وتمت المصالحة. لكن الدروز في العلانية قبلوا المصالحة لكن فيما بعد راحوا يتأهبون لأخذ النار في الخفاء¹.

وفي أواخر العام 1841م دعا الأمير بشير الثالث زعماء الدروز إلى اجتماع في دير القمر للتباحث في موضوع الضرائب وبعض القضايا، ولبى زعماء الدروز الدعوة ودخلوا إلى دير القمر يواكبهم عدد كبير من الرجال وفرسان وادي التيم وهوران. وقبل ذلك كان عدد من المسلحين الدروز قد تسربوا إلى دير القمر. تخوف بشير الثالث من ضخامة القادمين، فأوفد 150 رجلاً من المسيحيين لتحذير العدد الكبير من الدروز من دخول البلدة. وما إن انتبه أهالي البلدة على ما يجري حتى خرجت الجماعات المسلحة من مخابئهم وهاجموا المسيحية في ساحة بلدة دير القمر. وانطلق الفرسان يطلقون النار في انحاء البلدة ودخلوا المنازل وأعملوا فيها السلب والنهب وأشعلوا فيها النيران.

لجأ الأمير بشير الثالث إلى قصر الإمارة القديم في دير القمر، وطلب المساعدة العثمانية وإمداده بأعداد من المسيحية في بعدها وغيرها من المناطق. استمر القتال حوالي يومين في دير القمر وكانت بداية الاضطرابات وبلغت خسائر الأرواح حوالي 80 درزيًا و100 مسيحيًا، وأجبر هذا القتال على تدخل سليم باشا والي بيروت العثماني والقنصل البريطاني، لكن هذا لم يمنع الدروز من استمرارهم في محاصرة البلدة وقطع المؤن والرجال عن المسيحية.

لم يقتصر القتال على بلدة دير القمر بل زحفت جماعات من المسيحيين في إهدن وزحلة وبعيدا وجزين للوقوف إلى جانب دير القمر، فاصطدمت بالدروز وفرق عثمانية داعمة للدروز. ويقال إنَّ العثمانيين من دبر المؤامرة وأمّدوا الدروز بالسلاح لأنَّ من

1 الشدياق، طنوس، 1859، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه: فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية - الإدارة المركزية، المتحف، ج1، ص 479.

مصلحتهم وقوع حركات طائفية من شأنها أن تقلل من قيمة الاستقلال الذاتي.

انتصر الدروز في ميدان القتال في دير القمر. ثم بدأ القتال يشتعل في زحلة أكبر بلدة للمسيحيين في البقاع، كان مسيحيو دير القمر ان طلبوا المساعدة من مسيحي زحلة فلبوا الدعوة، رأي دروز راشيا ان يهاجموا زحلة وزحفوا عليها مع جماعات من دروز وادي التيم والشوف وهوران. بقيادة شبلي العريان وسار اهالي زحلة إلى جانبهم شيعة بعلبك، ونشبت المعركة هزم بها الدروز، ونزلت بهم خسائر فادحة.

وكان لهزيمتهم أن اشتدت عزائم المسيحيين في جميع المناطق. لكن الفوز ظل حليف الدروز في دير القمر، حيث تقاسم المسيحيين ذلك أن الروم الأرثوذكس داخلهم الشك في نوايا الموارنة. فوقفوا في بعض الاحيان إلى جانب الدروز، وكان الروم الكاثوليك حلفاء الموارنة المخلصين. وكان المسيحيون يقاتلون دون هدف بينما الدروز هدفهم التخلص من بشير الثالث ولم يكن النصارى متحمسين لبقائه في الإمارة ذلك عندما حصر في قصره لم يجد من المسيحيين من يهب لنجدته.

وعندما أدرك الدروز موقف المسيحيين هاجموا القصر دون مقاومة وقبض على الأمير بشير الثالث. وأعلن العثمانيون تدخلهم لتسوية النزاع بطلب من الدول الأوروبية، فأرسل مصطفى باشا أكبر ضباط الجيش العثماني إلى بيروت للوساطة بين المسيحيين والدروز، لكن في الخفاء لم يكن هذا الهدف بل سعى إلى اقناع المسيحيين بفوائد الحكم العثماني المباشر، وشجع الدروز على استمرار نهب قرى المسيحيين كما ذكر كمال الصليبي.

بلغت الفوضى في البلاد، وبعد ثلاثة اشهر من الاضطرابات، استدعى سليم باشا ومصطفى باشا الأمير بشير الثالث إلى بيروت وارسله من هناك إلى الاسطانة، فخرج الأمير بأبهة تليق بمكانته برفقة الحرس الأميري، إلا أن جماعة مسلحة من الدروز عمدت إلى مهاجمتهم والتتكيل بالأمير¹.

وانتهت الإمارة الشهابية في لبنان عام 1842م، بعد ان اعلن مصطفى باشا عمر باشا النمساوي حاكماً على جبل لبنان وكان فوزا للسياسة العثمانية.

1 الصليبي، كمال، المرجع السابق، ص 86.

الخاتمة

شهد جبل لبنان توترات وأزمات يمكن وصفها بالطائفية، قد غدّتها القوى الأجنبية للتدخل في شؤون جبل لبنان. فمنذ انتقال الحكم من المعنيين إلى أقاربهم الشهابيين لم يمر على جبل لبنان حقب استقرار وهدوء بل عمّت الفتن والمآسي عدا التدخلات المتنوعة سواء من اليد الإقليمية المحيطة أو من الدول الأوروبية لا سيما فرنسا وبريطانيا، وعانى ما عاناه من مجازر دموية- طائفية، واللآفت أنّ الأمراء في جبل لبنان من الأمير بشير الثاني إلى الأمير بشير الثالث عند نهاية حكمهم يستقلون أول بارجة أوروبية لمغادرة البلاد، فحتى اللحظة الأخيرة من حكمهم وهم غير مدركين ربما لما تحيكة اليد الخارجية بالتآمر مع عملائها في الداخل، وهذا ما أظهره وضع جبل لبنان بعد العام 1842م وتقسيم الجبل إلى منطقتين طائفتين، وما شهدته من فتن ومؤامرات. فلبنان قدر له أن يعاني ما عاناه ومازال حتى يومنا هذا.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

1. بركات، داود، د.ت، البطل الفاتح إبراهيم وفتح الشام 1832، د.ن: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
2. الحمصي، دعاء، لبنان تاريخ سياسة وحضارة - الإمارة الشهابية، ج8، بيروت: Edito Creps، 1998.
3. الشدياق، طنوس، 1859، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه: فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية - الادارة المركزية، المتحف، ج1.
4. _____، 1954، أخبار الأعيان في جبل لبنان، بيروت: مكاتب سميا، ج 2.
5. الصباغ، ليلي، 1981، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق: مطبعة ابن حيان.
6. الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت: 2008.
7. ضاهر، مسعود، 1977، الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعي، دار الفارابي، بيروت، ط 1 - معلوف اليسوعي، الاب لويس، 1912، تاريخ حوادث الشام ولبنان 1782 - 1841م، بيروت: المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين.
8. طنوس الخوري، أغناطيوس، 1953، مختصر تاريخ جبل لبنان، بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
9. محمد، حسن، الإمارة المعنوية، لبنان تاريخ سياسة وحضارة، بيروت: Edito creps، 1998، ج7.

المراجع العربية المترجمة

1 - حجار ، جوزيف، 1986، أوروبا ومصير الشرق العربي، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، تر: بطرس الحلاق وماجد نعمة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ، ص73.

الرسائل والاطاريح

1. بعيو، غنية، التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجا 1839 - 1876م، رسالة ماجستير في التاريخ ، اشراف: الغالي غربي، جامعة الجزائر - كلية الاداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، 2009.

2. شرشالي، زكية، الاتفاقيات العثمانية الأوروبية وانعكاساتها على الخلافة والعالم العربي، رسالة ماجستير، اشراف: صبيحة بخوش، وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي - المدرسة العليا للاساتذة، الجزائر، 2014.

المجلات والدوريات:

1. البلخي، علي يوسف، 1985، الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام 1831 - 1840 من خلال الوثائق العثمانية، مجلة دار المنظومة، العدد 20 - 19، دراسات تاريخية - سوريا.

2. محمد عبد العزيز، عوض، 2020، التنظيمات العثمانية في الولايات العربية، مجلة دار جامعة المنظومة، الرياض، مج 3 ، عدد 3، ص 80.

المراجع الأجنبية

1 -Goldschmidt, A.; Johnston, R. (2004), **Historical Dictionary of Egypt (3rd ed.)**, American University in Cairo Press, p. 243.

صلاة الشَّهادة

مريم اسماعيل

صلاة الشهادة أدوا
صلّوا الفجرَ وارتحلوا
تُرى هل سلّموا
أم قبل ذلك الرّوحَ أسلموا
لله درّهم من توقيتٍ فيه عرجوا
وهم في ثورتهم الجنّة طلبوا
ويلٌ لعربٍ بالشّنائع سمعوا
ما اهتزت ضمائرهم وما نصرّوا
ما دانوا وما انتفضوا
بل للقاتل دعوا وصفقوا وهلّوا
وفي حاناته جلسوا ومن دمائمكم سکروا
أما وصل لمسامعهم: الأشلاء بالكيلو زانوا
هانوا على النّاس وعلى الله ما هانوا
أما شاهدوا النّاس في أمرهم حاروا
أم أنّهم سلاحهم ما عابنوا
شهداءً بوضوئهم تعفّروا
بصلاتهم وقرآنهم تسلّحوا
أهلُ غزّة العزّة صانوا
على المشاهدين الشّرفَ ورّعوا

والكرامة للأمة الصماء سقوا
نعم أيها الغزاويون ثوروا
القيود حطّموا
وأنوفهم مرغوا
بنعالكم على حكام العرب دوسوا
على دمائكم تواطؤوا
بالأعداد باعوكم وعلى حقكم ساوموا
الأرض أرضكم لكنهم نسوا
أن أصحاب الأرض لن يسكتوا
سيثأرون لكل شبرٍ ولن يرضخوا
سيتعاضمون مع كل شهيدٍ ولن يندموا
مراتٍ ومراتٍ كزروا
الدائر دائرنا هيّا ارحلوا
أيها المرتزقة أدرآجكم عودوا
فمن اليوم أيامكم عدّوا
وردنا المدوي انتظروا
بواسلنا العدة أعدّوا
فرساننا قبوركم حفروا
تذاكر بالجمع لكم حجزوا
إلى جهنم بالأرطال ادخلوا.

**Discourse Analysis of Pierre Poilievre's
Statements: A Study on Political Communication and
Rhetoric**

تحليل الخطاب في منطوق بيير بواليفير: دراسة في الاتّصال السّياسيّ والبلاغة

by

Ghada M. Al Ahmadieh

غادة محمود الأحمدية

تاريخ القبول 2024 /7/22

تاريخ الاستلام 2024 /7/4

Abstract

This article investigates the discourse strategies and tactics, and the rhetorical devices, which are manipulated and utilized by Pierre Poilievre, a leading contemporary Canadian Conservative politician. This study examines how Poilievre's communication style shapes public perception, forms political identity, and stimulates policy discussions using a discourse analysis approach. Pierre Poilievre often demonstrates linguistic skill in framing issues in a way that is persuasive while constructing strategic narratives. Poilievre's arguments foster party identification and support, particularly on the controversial issue of deficit finance and government debt. The findings reflect the crucial role language plays in the field of politics.

Keywords: Discourse analysis, thematic analysis, framing, rhetoric, political communication, Pierre Poilievre, Canadian politics.

ملخص

تبحث هذه المقالة في استراتيجيات وتكتيكات الخطاب، والوسائل البلاغية وتقنيات التّأطير وبناء الهوية التي يستخدمها بيير بوليفير، أحد أبرز الساسة المعاصرين في قيادة حزب المحافظين الكندي. وتبحث هذه الدراسة في كيفية تشكيل أسلوب بوليفير في التّواصل للإدراك العام، وتشكيل الهوية السياسيّة، وتحفيز المناقشات السياسيّة باستخدام نهج تحليل الخطاب. غالباً ما يُظهر بيير بوليفير مهارة لغويّة متمكّنة في صياغة القضايا السياسيّة بطريقة مقنعة في أثناء بناء السرديات الاستراتيجية. تعمل مناقشات وحجج بوليفير الخطابية على تعزيز هوية الحزب ودعمه، خاصّة فيما يتعلّق بالقضايا المثيرة للجدل المتمثّلة في تمويل العجز والديون الحكوميّة. تعكس نتائج هذه الدّراسة الدّور الحاسم الذي تؤدّيه اللّغة العارفة في مجال السّياسة عبر استخدام الوسائل البلاغية وتقنيات التّأطير وبناء الهوية على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: تحليل الخطاب، التّحليل الموضوعي، التّأطير، البلاغة، الاتّصال السياسي، بيير بوليفير، السّياسة الكنديّة.



Introduction

Pierre Poilievre is one of the “go-to” Conservative members who has emerged as a prominent critic of the governing Liberal Party and who situates himself as a champion of the right-wing political base “Poilievre is a very Canadian figure, fitting solidly into the right-wing prairie populist tradition” (Beauchamp, 2024)¹. Poilievre articulates his views in his social media interactions, provides responses to his riding constituents, and represents the Conservative Party in Parliament and in live, mainstream and alternative media platforms. Politicians in general, and political leaders in particular, recognize and value the importance of planned political communication “Political communication and political marketing techniques are nowadays an important part of every political campaign” (Kioumi, 2007)², that’s why they resort to verbal and nonverbal means of communication to find the proper channels for their messages, Canadian politicians are no exception, and such is the case with recently well-known Conservative party leader and politician, Pierre Poilievre. This paper analyzes Poilievre’s discourse and communication style in Canadian politics. The paper explores Pierre Poilievre’s strategies, both as a politician seeking to mobilize support for his party and as a cabinet minister implementing government policy on issues such as finance and democratic reform.

(1) Beauchamp, Z. (2024, April 26). Canada’s polite Trumpism. Vox. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from <https://www.vox.com/politics/24140480/canada-pierre-poilievre-conservative-party-populism-democracy>

(2) Kioumi, E. (2007). Political communication, the media & the creation of a leader. ResearchGate. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from <https://doi.org/10.13140/2.1.3745.5364>

Literature Review

Today, the paradigm of communication is principally drawing its implications from the thoughts of Shannon, Habermas, and Lasswell, among a few others who have heavily impacted the history of the development of the theory of Organizing Messages and the various fields of communication, effectively contributing to the principle of disentanglement of communication structures throughout the past century (Richhariya, 2020)¹. However, the thematic communication approach is the guiding actor in determining the texts used, as well as the criterion for their objective and final integration. Moreover, CDA denotes research within the humanities. Many researchers working within this area are interested in text-based language and communicative actions (Mullet, 2018)². These are taken to be constitutive of social, political and psychological concerns.

1. Thematic Communication Theory

Thematic Communication Theory constitutes a perspective that explicitly seeks to integrate theories about both symbolic communication and social organization (Panocová, 2020)³.

(1) Richhariya, A. (2020, June 4). Theories of mass communication [Slide show]. SlideShare. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from <https://www.slideshare.net/slideshow/theories-of-mass-communication-234987888/234987888>

(2) Mullet, D. R. (2018). A general critical discourse analysis framework for educational research. *Journal of Advanced Academics*, 29(2), 116–142. <https://doi.org/10.1177/1932202x18758260>

(3) Panocová, R. (2020). Theories of Intercultural communication. Univerzita Pavla Jozefa Šafárika v Košiciach, Filozofická fakulta. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from <https://unibook.upjs.sk/img/cms/2020/ff/theories-of-intercultural-communication.pdf>



For Thematic Communication Theory, the discussion of issues of organizational relevance in integrated mass-mediated communication environments and the manner of determining actual impacts are guiding questions. Recently, Schwartz's Thematic Communication Theory analysis has been proposed for political communication (Botterill & Lewis, 2023)¹. This proposal reflects the fact that political actors communicate by hierarchically organizing messages by themes. In their media productions that target relevant organizational issues, politicians transmit a message that places the most explicitly and clearly formulated theme to the audience, the country theme, supposedly framing the discussion. Then, an intermediate level of themes such as dominance of economic issues and a low level of themes such as openness, accountability, and public discussion meet the characteristics of the type of social organization that the speaker represents (Guest, MacQueen, & Namey, 2012)². Thematic theory can be considered the most systematic attempt made thus far to integrate communication, propaganda, and psychological considerations into political science (Wang, Chang, Kuo, & Tsai, 2023)³. It relates to what people talk in a certain period. The thematic theory has the added value of analyzing the evolution of

(1) Botterill, L. C., & Lewis, N. (2023). Thematic analysis using the Schwartz values theory: exploring the use of values appeals in persuasive speech during COVID-19 in Australia. *European Political Science Review*, 15(1), 136–144. doi:10.1017/S1755773922000509

(2) Guest, G., MacQueen, K. M., & Namey, E. E. (2012). *Applied thematic analysis*. USA, Sage Publications.

(3) Wang, M., Chang, W., Kuo, K., & Tsai, K. (2023). Analyzing image-based political propaganda in referendum campaigns: From elements to strategies. *EPJ Data Science*, 12(1). <https://doi.org/10.1140/epjds/s13688-023-00407-4>

the major themes of the people in each thematic field. Thematic field, in the language of Schwartz, means a “field of discourse” (Paltridge & Prior, 2024)¹ in which the dominant themes are linked and rigorously coordinated with each other. The reason why themes are coherent or thematically linked is that they originate from a supreme theme. This supreme theme “sets the tone” for all the conversation, in Lasswell’s language (Lasswell, Lerner, & Speier, 1980)². This paper evaluates the validity of the Thematic Communication Theory for politics and examines the implications of it.

2. Theoretical Foundations of CDA

Critical discourse analysis (CDA) emerged in the late 1970s and early 1980s as a growing number of scholars from the social sciences and humanities embarked on the analysis of the role of discourse in maintaining and reproducing systems of inequality, power, and social exclusion (van Dijk, 2008)³. While poststructuralist and critical intellectual traditions had provided the groundwork for studying the relationship between language and society for quite some time prior to the term ‘critical discourse analysis’ being coined, it was not until the 1970s and 1980s

(1) Paltridge, B., & Prior, M., T. (2024). The Routledge handbook of second language acquisition and discourse. The University of Sydney. Retrieved Tuesday, 2 July, 2024 from https://www.researchgate.net/publication/378195250_The_Routledge_Handbook_of_Second_Language_Acquisition_and_Discourse

(2) Lasswell, H. D., Lerner, D., & Speier, H. Eds. (1980). Propaganda and communication in world history: a pluralizing world in formation, Volume III. Honolulu: Published for the East–West Center by the University Press of Hawaii.

(3) van Dijk, T. A. (2008). Discourse and context: a sociocognitive approach. London, Cambridge University Press.



that these influences came together to form the flourishing field of study that CDA is today (van Dijk, 1993)¹. Critical discourse analysis is commonly attributed to the work of Norman Fairclough, Ruth Wodak, Teun van Dijk, Theo Van Leeuwen, and Michael Billig, among others. These scholars identified a wide variety of approaches to discourse that in some way related to their belief in the possibility of discourse to control, dominate, or otherwise subjugate others, and they lobbied for the adoption of more ‘critical’ research and analytical techniques in the study of discourse.

3. Political Discourse Analysis

Political analysis uses the concepts of frameworks, interpretation, meaning, explanation, and understanding embedded in political systems as a basic set of ideas (Fairclough & Fairclough, 2013)². The ability to access, interpret, and evaluate political discourse in a variety of contexts, including print, radio, TV, film, publication, exhibition, manifesto, or art form, is a multifaceted tool of political inquiry aimed at developing an understanding of how the language of politics may be used in democratic societies. The essence of political discourse analysis lies in investigating the differential ways in which speakers and listeners understand and make decisions on the basis of politically relevant discourse. Since most of our knowledge of politics is based on the analysis of texts, the study of political discourse should therefore attend closely and carefully to what messages really are, as well as

(1) van Dijk, T. A. (1993). Principles of critical discourse analysis. *Discourse & Society*, 4(2), 249–283.

(2) Fairclough, I., & Fairclough, N. (2013). *Political discourse analysis: A method for advanced students*. Routledge.

what implications they contain. Political discourse analysis is of particular importance in studying political and social phenomena. The method of articulation of the linguistic and thematic properties of political text provides the essential information of the norms that govern political communication. When differences in linguistic form are observed, they could possibly be attributed to variations in the intensity of competing interest. In the study of political discourse, it is also possible to focus upon one group's efforts to deny or legitimate some act, status, policy or proposal.

4. Previous Studies on Canadian Political Discourse

Discourse is of particular interest to Canadianists— Individuals engaged in Canadian Studies (Canadianists – British Association for Canadian Studies, 2022)¹— as it provides the primary means for both constructing meaning, such as values and identities, and negotiating a shared understanding of what constitutes legitimate national political practices in a very diverse society. Canada prides itself both on establishing itself as a leader in promoting a deliberative, multi-stakeholder approach, and on its ability to mediate social conflict through rational deliberation. These processes are of particular interest to Canadian researchers because of Canada's unique, multi-stakeholder political culture (Canada, 2024)². Canadian political discourse research tackled

(1) Canadianists – British Association for Canadian studies. (2022, September 28). British Association for Canadian Studies. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from <https://britishassociationforcanadianstudies.com/canadianists/>

(2) Canada, G. A. (2024, February 23). How Canada advances democracy in the world. GAC. https://www.international.gc.ca/world-monde/issues_development-enjeux_developpement/human_rights-droits_homme/advancing_democracy-avancer_democratie.aspx?lang=eng



issues like multiculturalism and the rhetoric of national identity (Kazemian & Hashemi, 2014)¹, however, the research on Pierre Poilievre's political discourse strategies and impact are still minimal, the case that necessitates research in this field.

I. Methodology

Discourse—a dialogue, or a sort of communication which involves social interaction—denotes messages which are created, distributed and invested with meaning by individuals and/or groups of individuals. There are different methodological ways to study political communication. This study touches upon the qualitative discourse analysis approach which focuses on language use as a combination between thematic analysis and CDA– Critical Discourse Analysis. It assumes that data are understood as relevant to understanding the way the world is and how it operates. It is focused on the relationship between the text and specific discursive practices.

1. Data Collection

The multifold objective of this study is to detect the outer limits of conversations that evolve while using the Political Discourse. Therefore, the data collection process encompasses the access to transcripts of Poilievre's speeches along with his audio and video recordings and social media posts. For attaining this aim,

(1) Kazemian, B., & Hashemi, S. (2014). Critical discourse analysis of Barack Obama's 2012 speeches: Views from systemic functional linguistics and rhetoric. *Theory and Practice in Language Studies*, 4(6), 1178–1187. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from https://www.researchgate.net/publication/260794225_Critical_Discourse_Analysis_of_Barack_Obama's_2012_Speeches_Views_from_Systemic_Functional_Linguistics_and_Rhetoric

three datasets are selected for this study. The first has to do with the speeches that Pierre Poilievre delivered in public occasions, the second focuses on his interviews on different media channels, and the third deals with his posts on social media platforms.

2. Analytical Framework

The analysis of data in this paper is two–leveled. The first is the thematic analysis where the second is that of critical discourse analysis or CDA. The former focuses on and elaborates the recurrent themes that are persistent in Poilievre’s political statements, where the latter– CDA– studies the linguistic aspects and the rhetorical strategies that are manifest in Poilievre’s statements. CDA also investigates the ideological labels and denominations that outline his overall communication. This twofold approach facilitates the study of the role of language in structuring narratives, affecting and shaping public opinion and, above all, modelling political identity.

II. Findings, Discussion and Analysis

The findings, discussion, and analysis section works on three levels which are: thematic analysis, rhetorical devices, and framing techniques and identity construction.

1. Thematic Analysis

Economic responsibility and fiscal policy, national identity and cultural heritage, accountability and transparency, and freedom and individual rights are the main themes that are manipulated in Poilievre’s political statements.

1.1 Economic Responsibility and Fiscal Policy

The topic of economic responsibility is fundamental to all conservative policy discussions, including those pertaining to fiscal policy, specifically, taxation. According to the Conservatives, conceptually, a government that perpetually spends more money than they have fails to live within their means and must continually rely on debt to fund its operations. Poilievre's contributions to Canadian conservatism and economic thought are noticeable particularly when he says: "We are going to put in thousands of amendments to committee and in the House of Commons forcing all night round the clock voting to block your (The Liberal Prime Minister) \$20 billion of inflationary spending and the rest of your economically destructive plans" (CTV News, 2023)¹.

1.2 National Identity and Cultural Heritage

Pierre Poilievre has made many notable remarks related to themes of national identity and cultural heritage. For example, in 2009, Poilievre states: "I go across this country and one of my favourite things to do is visit with people of different cultures and different backgrounds" (Search: MP: "Pierre-poilievre" Date: "1994-02 to 2024-07" Culture | openparliament.ca, 2023)²; he adds "Common wisdom, our common resources, our common

(1) CTV News. (2023, December 6). FULL SPEECH: Pierre Poilievre takes aim at carbon tax in address to Conservative national caucus [Video]. YouTube. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from https://www.youtube.com/watch?v=1lfi2O_9Vxc

(2) Search: MP: "pierre-poilievre" Date: "1994-02 to 2024-07" culture | openparliament.ca. (June 7th, 2023). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A%20%22pierre-poilievre%22%20Date%3A%20%221994-02%20to%202024-07%22%20culture>

heritage and our common future are determined by the people elected to serve in this place” (Search: MP: “Pierre–poilievre” Date: “1994–02 to 2024–07” Heritage | openparliament.ca, 2023)¹.

1.3 Accountability and Transparency

In Ottawa and the national context, Pierre Poilievre is well known for his steadfast commitment to a transparent, accountable government, which is achieved through proactive disclosure, spending controls, rigorous program evaluation, and an ongoing commitment to providing Canadians with the information that they have every right to see. He holds similar opinions on the role in political financing, refusing to accept donations from corporations or from federal lobbyists. He was the first minister to impose a strict public sector lobbyist code. Poilievre maintains “We will slash the consultants and the lobbying sector, and we will unleash the productive forces of our working–class people in our factories, our farms, our forestry and our fishery sectors, and of the people who do the real work in this country” (Search: MP: “Pierre–poilievre” Lobby | openparliament.ca, 2024)².

1.4 Freedom and Individual Rights

Pierre Poilievre is known for his commitment to liberal principles.

(1) Search: MP: “pierre–poilievre” Date: “1994–02 to 2024–07” heritage | openparliament.ca. (October 3rd, 2023). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A%20%22pierre–poilievre%22%20Date%3A%20%221994–02%20to%202024–07%22%20heritage>

(2) Search: MP: “pierre–poilievre” lobby | openparliament.ca. (March 21st, 2024). <https://openparliament.ca/search/?prepend=MP%3A+%22pierre–poilievre%22&q=lobby>



He has spoken out and written extensively on the need to uphold individual rights and fight government encroachment on the freedoms of citizens. Pierre Poilievre has grasped the significance of freedom and individual rights in political discourse, finding a way to inject a provocative voice into conservative politics. “It doesn’t matter if your name is Poilievre or Patel, Martin or Mohamed,” Polievre says, “If you’re prepared to work hard, contribute, follow the rules, raise your family, you can achieve your dreams in this country,” (Beauchamp, 2024)¹.

1. Rhetorical Devices

The most effective rhetorical devices used by Poilievre are: repetition, contrasts and antitheses, and emotional appeals.

1.1 Repetition

Repetition as a rhetorical tool is used by Polievre to mobilize public opinion in some preconsidered way and convince the audience that he and the audience “belong to the same team”. So, coherence–building is the substantial goal of his use of repetitious constructions. “Reckless spending” is a prominent repetitive phrase denoting the government’s overspending methods. Poilievre states: “The Liberals are putting our future in a reckless state of danger by spending our tomorrow on their today” (Search: MP: “Pierre–poilievre” Date: “1994–02 to 2024–

(1) Beauchamp, Z. (2024, April 26). Canada’s polite Trumpism. Vox. Retrieved Monday, 1 July, 2024 from <https://www.vox.com/politics/24140480/canada-pierre-poilievre-conservative-party-populism-democracy>

07” Reckless | openparliament.ca, 2018)¹. To further illustrate his idea, he argues: “what risky and reckless is to spend \$15 billion, which works out to \$1,000 for every family in Canada, for a project that will employ foreign replacement workers” (Search: MP: “Pierre–poilievre” Reckless | openparliament.ca, 2023)².

1.2 Contrasts and Antithesis

The use of contrast helps Poilievre to drive home his arguments in a concise manner, making his central message more memorable. This analysis of Poilievre political statements encompasses both quantitative and qualitative aspects. In terms of quantity, the most common (frequency) and intricate (density) instances of contrasts and antithesis have been identified like “While this government believes in raising taxes and increasing spending, I believe in lowering taxes and empowering Canadians to keep more of their hard–earned money.” Moreover, Polievre casts “the fight between his Conservatives and Trudeau’s Liberals as the ‘have–nots’ versus the ‘have–yachts’” (Beauchamp, 2024)³. In terms of contrasts of policies Polievre states: “He (The Liberal Prime Minister) wants to tax small business when our economy is already falling off the cliff and having the worst growth in the G7. That is insanity. Common–sense Conservatives would bring in taxes that are lower, fairer and simpler, so that hard work

(1) Search: MP: “pierre–poilievre” Date: “1994–02 to 2024–07” Reckless | openparliament.ca. (November 21st, 2018). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A%20%22pierre–poilievre%22%20Date%3A%20%221994–02%20to%202024–07%22%20Reckless>

(2) Search: MP: “pierre–poilievre” reckless | openparliament.ca. (November 22nd, 2023). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A%20%22pierre–poilievre%22%20reckless>

(3) – Op. cit. (Beauchamp, Z. (2024, April 26)).

would pay off” (Search: MP: “Pierre–poilievre” Conservatives | openparliament.ca, 2024)¹.

1.3 Emotional Appeals

Petty and Cacioppo argue that information is processed globally or superficially based on a voter’s specific interests or values when processing a message (Nickerson, 2023)². Emotion valence, emotion arousal, and emotions charged are investigated in Poilievre’s political statements. Poilievre attempts to influence voters’ emotions and decisions by evoking various emotions such as anger, hope, pride, moral shock and outrage and fear which is explained by Altheide as “fear has become a dominant public perspective. Fear begins with things we fear, but over time, with enough repetition and expanded use, it becomes a way of looking at life” (Wodak, 2015)³. A shared purpose of fear and condemnation is contained in this statement used by Poilievre: “Can members imagine that, in Canada, where we have the constitutional right to vote, some people thought that they or their family would be in danger if that vote went ahead...? It is disgraceful” (Search: MP: “Pierre–poilievre” Date: “1994–

(1) Search: MP: “pierre–poilievre” conservatives | openparliament.ca. (June 11th, 2024). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A+%22pierre–poilievre%22+conservatives&page=6>

(2) Nickerson, C. (2023, September 26). Elaboration likelihood model of persuasion. Simply Psychology. Retrieved Wednesday, 3 July, 2024 from <https://www.simplypsychology.org/elaboration–likelihood–model.html>

(3) Wodak, R. (2015). The politics of Fear: what right–wing populist discourses mean. Sage Publications.

02 to 2024-05” Disgrace | openparliament.ca, 2023)¹. Another example of emotionally appealing statement used by Poilievre is when he stimulates feelings of irony and cynicism coupled with alarm and concern against the Liberal Prime Minister as he concedes: “If he had read Nineteen Eighty-Four, he would have thought it was an instruction manual” (Beauchamp, 2024)².

1. Framing Techniques and Identity Construction

Poilievre frames his arguments in three major ways which are: Problem-solution frame, hero-villain dichotomy frame, and the existential frame.

1.1 Problem-Solution Frame

Framing of political issues to attract public support, bolster public consensus, and realize policy implications, is mostly used by Poilievre to denounce unworthy opponents. Poilievre uses the tripartite speech act of assertion, question, and praise in his political speech which serves as an organizing schematic frame. For example, Poilievre presents the problem that under this government’s watch, inflation is out of control, and families are struggling to make ends meet, then he suggests the solution that Conservatives need to cut taxes and reduce regulatory burdens

(1) Search: MP: “pierre-poilievre” Date: “1994-02 to 2024-05” disgrace | openparliament.ca. (May 8th, 2023). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A%20%22pierre-poilievre%22%20Date%3A%20%221994-02%20to%202024-05%22%20disgrace>

(2) Op. cit. (Beauchamp, Z. (2024, April 26)).

to lower costs and boost economic growth (CBC News, 2023)¹.

1.2 Hero–Villain Dichotomy Frame

Poillievre delivers his oratory to an other–oriented audience comprised of a large crowd of fellow citizens, whom he indistinctively binds with common feelings, a common identity, a shared experience, a common destiny, and a thus–far unsuccessful grappling with the villain–on–the–horizon. Poillievre, the hero, states: “Protecting our country and its citizens against foreign threats is the primary responsibility” (Search: MP: “Pierre–poillievre” Date: “1994–02 to 2024–05” Citizens | openparliament.ca, 2023)². He then presents the villain, the government’s Prime Minister “He has spent 40 million tax dollars that could have secured our ports and our borders, and he has not taken in a single, solitary gun. Is that why gun crime has risen by 100% since he became Prime Minister nine years ago?” (Search: MP: “Pierre–poillievre” Date: “1994–02 to 2024–05” Borders | openparliament.ca, 2024)³.

1.3 Existential Frame

Frame manipulation requires the message sender to switch

(1) CBC News. (2023, September 8). Poillievre “laser–focused” on addressing economic issues, Peter MacKay says [Video]. YouTube. <https://www.youtube.com/watch?v=8Mu1sXdOZYo>

(2) Search: MP: “pierre–poillievre” Date: “1994–02 to 2024–05” citizens | openparliament.ca. May 8th, 2023. <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A+%22pierre–poillievre%22+Date%3A+%221994–02+to+2024–05%22+citizens&page=1>

(3) Search: MP: “pierre–poillievre” Date: “1994–02 to 2024–05” borders | openparliament.ca. (May 1st, 2024). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A%20%22pierre–poillievre%22%20Date%3A%20%221994–02%20to%202024–05%22%20borders>

through not only organization-related frames, but also through existential references. The absence of existential concerns in frame research leads to an incomplete account of a speakers' performance. Poilievre seems aware of human anxieties about existence as he frames his clever, well-calculated speeches to try and allay these fears. It behooves both the political party and the politician to frame constructs in the most constant and positive fashion, which is the case with Poilievre. He says: "When each of us entered this place, this Parliament of ours, we entered a place rooted in a historic compromise between Crown and commoner, a compromise that was forged over centuries through bloody conflict, but also through peaceful evolution" (Search: MP: "Pierre-poilievre" Date: "1994-02 to 2024-05" Stability | openparliament.ca, 2022)¹, an existential dilemma that reveals eminent threat and the need for survival.

III. Conclusion

Ritzer (2008) has inspired the concept 'McDonaldization of Society' (Le Guin, 2023)², which is a broad philosophy of the changing nature of contemporary society. What is seen today is a manifestation of the one-dimensional varieties of popular culture and that it is a contributing factor to societal decay in Western society. Polievre, through his political arguments, creates

(1) Search: MP: "pierre-poilievre" Date: "1994-02 to 2024-05" stability | openparliament.ca. (September 15th, 2022). <https://openparliament.ca/search/?q=MP%3A%20%22pierre-poilievre%22%20Date%3A%20%221994-02%20to%202024-05%22%20stability> September 15th, 2022

(2) Le Guin, I. D. (2023). The McDonaldization of society | Overview & Examples. Study.com. Retrieved Tuesday, 2 July, 2024 from <https://study.com/learn/lesson/george-ritzer-mcdonaldization-society-principles-examples.html>

a collective identity, as opposed to singular existence. Within the political realm, this is evident in the replication of the different thematic, rhetorical and framing strategies he uses, through an ongoing pattern of electoral rite, wherein new heroes emerge and old heroes are deposed. Through the strategies he uses. Poilievre struggles to counteract the spiraling apathy and lack of interest in the political process and the credibility of politicians.

References

1. Beauchamp, Z. (2024, April 26). Canada's polite Trumpism. Vox. <https://www.vox.com/politics/24140480/canada-pierre-poilievre-conservative-party-populism-democracy>
2. Botterill, L. C., & Lewis, N. (2023). Thematic analysis using the Schwartz values theory: exploring the use of values appeals in persuasive speech during COVID-19 in Australia. *European Political Science Review*, 15(1), 136-144. doi:10.1017/S1755773922000509
3. Canada, G. A. (2024, February 23). How Canada advances democracy in the world. GAC. https://www.international.gc.ca/world-monde/issues_development-enjeux_developpement/human_rights-droits_homme/advancing_democracy-avancer_democratie.aspx?lang=eng
4. Canadianists - British Association for Canadian studies. (2022, September 28). British Association for Canadian Studies. <https://britishassociationforcanadianstudies.com/canadianists/>
5. CBC News. (2023, September 8). Poilievre "laser-focused" on addressing economic issues, Peter MacKay says [Video]. YouTube. <https://www.youtube.com/watch?v=8Mu1sXdOZYo>
6. CTV News. (2023, December 6). FULL SPEECH: Pierre Poilievre takes aim at carbon tax in address to Conservative national caucus [Video]. YouTube. https://www.youtube.com/watch?v=1lfi2O_9Vxc
7. Fairclough, N. (2013). *Language and power*. London, Routledge.

8. Fairclough, I., & Fairclough, N. (2013). Political discourse analysis: A method for advanced students.

Routledge.

9. Guest, G., MacQueen, K. M., & Namey, E. E. (2012). Applied thematic analysis. USA, Sage Publications.

10. Kazemian, B., & Hashemi, S. (2014). Critical discourse analysis of Barack Obama's 2012 speeches: Views from systemic functional linguistics and rhetoric. *Theory and Practice in Language Studies*, 4(6), 1178–1187. https://www.researchgate.net/publication/260794225_Critical_Discourse_Analysis_of_Barack_Obama's_2012_Speeches_Views_from_Systemic_Functional_Linguistics_and_Rhetoric

11. Kioumi, E. (2007). Political communication, the media & the creation of a leader. ResearchGate. <https://doi.org/10.13140/2.1.3745.5364>

12. Paltridge, B., & Prior, M., T. (2024). The Routledge handbook of second language acquisition and discourse. The University of Sydney. https://www.researchgate.net/publication/378195250_The_Routledge_Handbook_of_Second_Language_Acquisition_and_Discourse

13. Panocová, R. (2020). Theories of intercultural communication. Univerzita Pavla Jozefa Šafárika v Košiciach, Filozofická fakulta. <https://unibook.upjs.sk/img/cms/2020/ff/theories-of-intercultural-communication.pdf>

14. Pierre Poilievre, conservative MP for Carleton | openparliament.ca. (n.d.). <https://openparliament.ca/politicians/pierre-poilievre/>

15. Lasswell, H. D., Lerner, D., & Speier, H. Eds. (1980). Propaganda and communication in world history: A pluralizing world in formation, Volume III. Honolulu: Published for the East–West Center by the University Press of Hawaii.

16. Le Guin, I. D. (2023). The McDonaldization of society | Overview & Examples. Study.com. <https://study.com/learn/lesson/george-ritzer-mcdonaldization-society-principles-examples.html>

17. Mullet, D. R. (2018). A general critical discourse analysis framework for educational research. *Journal of Advanced Academics*, 29(2), 116–142. <https://doi.org/10.1177/1932202x18758260>

- 
18. Nickerson, C. (2023, September 26). Elaboration likelihood model of persuasion. *Simply Psychology*. <https://www.simplypsychology.org/elaboration-likelihood-model.html>
 19. Richhariya, A. (2020, June 4). Theories of mass communication [Slide show]. SlideShare. <https://www.slideshare.net/slideshow/theories-of-mass-communication-234987888/234987888>
 20. van Dijk, T. A. (1993). Principles of critical discourse analysis. *Discourse & Society*, 4(2), 249–283.
 21. van Dijk, T. A. (2008). *Discourse and context: A sociocognitive approach*. London, Cambridge University Press.
 22. Wang, M., Chang, W., Kuo, K., & Tsai, K. (2023). Analyzing image-based political propaganda in referendum campaigns: From elements to strategies. *EPJ Data Science*, 12(1). <https://doi.org/10.1140/epjds/s13688-023-00407-4>
 23. Wodak, R. (2015). *The politics of fear: What right-wing populist discourses mean*. Sage Publications.

Turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux au Liban

دوران طاقم التمريض في المستشفيات في لبنان

Sandra Abi-Daher Frangieh

ساندرا أبي ضاهر فرنجية

تاريخ القبول 2024 /8/20

تاريخ الاستلام 2024 /8/3

Résumé

Objectif: Cet article vise à analyser le turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux libanais en examinant ses taux, catégories, causes et indicateurs, et en évaluant son impact sur la qualité des soins et la stabilité des équipes.

Conception/méthodologie/approche: L'étude utilise des données d'enquête collectée auprès du personnel infirmier des hôpitaux libanais en 2022. Les taux de turnover sont analysés à l'aide de statistiques descriptives et sont catégorisés par taille et région des hôpitaux. La validité des constructions est assurée par des indices d'ajustement et la cohérence interne est mesurée par la fiabilité composite et l'alpha de Cronbach. La modélisation par équations structurelles est utilisée pour identifier les facteurs clés influençant le turnover.

Résultats: L'étude révèle que le turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux libanais est influencé par plusieurs facteurs, notamment l'environnement de travail, la rémunération, les opportunités de développement professionnel et le soutien

organisationnel. Des taux élevés de turnover ont un impact négatif sur la qualité des soins, la satisfaction des patients et la stabilité de l'équipe. À l'inverse, des taux de turnover extrêmement faibles indiquent un manque de dynamisme, ce qui peut freiner l'innovation et la croissance.

Originalité/valeur: Cette recherche contribue à la compréhension du turnover du personnel infirmier au Liban, fournissant des informations sur ses déterminants et implications, et souligne l'importance de politiques de fidélisation adaptées pour améliorer la performance des hôpitaux.

Mots-clés: Turnover des infirmiers, Qualité des soins, Stratégies de fidélisation, Hôpitaux libanais, Personnel infirmier.

الملخص

الهدف: يهدف هذا المقال إلى تحليل معدل دوران الموظفين التمريضيين في المستشفيات اللبنانية من خلال دراسة معدلاته، فئاته، أسبابه ومؤشراته، وتقييم تأثيره على جودة الرعاية الصحية واستقرار فرق العمل.

التصميم/المنهجية/المقاربة: تعتمد الدراسة على بيانات تم جمعها من خلال استبيان موجه إلى العاملين في التمريض بالمستشفيات اللبنانية في عام 2022. يتم تحليل معدلات دوران الموظفين باستخدام الإحصاءات الوصفية، ويتم تصنيفها حسب حجم المستشفيات وموقعها الجغرافي. يتم التأكد من صحة البنية التحليلية عبر مؤشرات المطابقة، وتقاس الاتساق الداخلي باستخدام معامل الثبات المركب وألفا كرونباخ. تُستخدم النمذجة بالمعادلات الهيكلية لتحديد العوامل الرئيسية التي تؤثر على دوران الموظفين.

النتائج: تكشف الدراسة أن معدل دوران الموظفين التمريضيين في المستشفيات اللبنانية يتأثر بعدة عوامل، بما في ذلك بيئة العمل، الأجور، فرص التطور المهني، والدعم

التنظيمي. يؤدي ارتفاع معدل الدوران إلى تأثيرات سلبية على جودة الرعاية الصحية، ورضا المرضى، واستقرار الفرق. على النقيض، تشير معدلات الدوران المنخفضة جدًا إلى نقص الديناميكية، مما قد يعيق الابتكار والنمو.

الأصالة/القيمة: تساهم هذه الدراسة في فهم معدل دوران الموظفين التمريضيين في لبنان، حيث تقدم معلومات عن محدداته وآثاره، وتبرز أهمية سياسات الاحتفاظ بالموظفين الملائمة لتحسين أداء المستشفيات.

الكلمات المفتاحية: دوران التمريض، جودة الرعاية الصحية، استراتيجيات الاحتفاظ بالموظفين، المستشفيات اللبنانية، العاملين في التمريض.

Introduction

Le turnover des infirmiers est une préoccupation majeure dans le secteur de la santé au Liban, en particulier avec les nombreux défis économiques et sociaux que traverse le pays.

Une étude détaillée sur ce sujet peut offrir des insights précieux pour les gestionnaires d'hôpitaux et les décideurs politiques pour aborder et potentiellement atténuer ce problème.

Dans un secteur aussi vital que celui des soins de santé, la rotation du personnel infirmier, ou turnover, représente un indicateur critique de la stabilité organisationnelle. Cependant, en période de crise économique et de pandémie, ce défi prend une ampleur particulière et révèle des enjeux profonds à la fois sur les plans économique, organisationnel et humain.

La crise économique et la pandémie ont amplifié les enjeux liés à la rotation du personnel infirmier. En plus des défis traditionnels tels que la rétention du talent et la cohésion de l'équipe, la charge de travail accrue et les risques sanitaires accrus ont été identifiés



comme des préoccupations majeures. Des études récentes, comme celle menée par l’American Nurses Association (ANA), ont souligné que près de 60 % des infirmières ont envisagé de quitter leur poste en raison de la pression accrue pendant la pandémie.

Calculé par le nombre d’employés quittant volontairement l’entreprise sur une période donnée, le turnover représente un aspect clé de la gestion des ressources humaines. La crise économique et la pandémie COVID-19 ont exacerbé les défis déjà présents en matière de rotation du personnel infirmier, comme le démontrent des recherches récentes.

Un turnover excessif peut signaler des problèmes sous-jacents tels que des conditions de travail défavorables, une mauvaise gestion, ou des problèmes de satisfaction des employés, comme l’ont souligné des études récentes de Chen et al. (2020).

Depuis plus de deux décennies, les hôpitaux au Liban font face à un taux de rotation du personnel infirmier, relativement élevé (supérieur à 3 % de son effectif moyen) et qui varie d’un hôpital à un autre, suivant leur taille, leur renommée, leur standing...

Une enquête en ligne menée au Liban auprès de 511 infirmières membres de l’ANI, Juillet–Octobre 2020 a montré que :

- deux infirmières sur cinq ont indiqué que rien ne les ferait renoncer aux soins infirmiers (40,6 %) ;
- mais presque autant (38,3 %) ont indiqué qu’elles ne souhaitaient plus être infirmière, mais que leur famille avait

besoin de leur salaire ;

- un quart des sondées a indiqué envisager de travailler à l'étranger (24,8 %) ;

Il est essentiel de prendre en compte les impacts spécifiques de la crise économique et de la pandémie COVID-19. Des études récentes, telles que celles menées par l'Organisation mondiale de la santé (OMS) et l'Organisation internationale du travail (OIT), ont révélé une augmentation significative du turnover du personnel infirmier pendant la pandémie, avec des taux allant jusqu'à 30 % dans certaines régions.

Ceci a suscité chez nous un certain nombre d'interrogations, du genre :

- Quel est le profil des hôpitaux qui souffrent d'un taux élevé de turnover du personnel infirmier ?
- Et pour quelles raisons?
- Quel coût ou problèmes représente ce turnover pour les hôpitaux au Liban ?
- Est-ce que les politiques de fidélisation suivies par ces hôpitaux, ont réussi à freiner le taux de rotation de leur personnel infirmier ?

C'est à ces questions que nous allons tenter de répondre dans notre étude.

L'objectif principal de cette étude est d'analyser en profondeur le phénomène du turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux



libanais.

Plus spécifiquement, l'étude vise à :

- Examiner les taux de turnover du personnel infirmier :
 - Mesurer les taux du turnover global des infirmiers
 - Identifier les variations de taux de turnover selon la taille et la catégorie des hôpitaux
- Identifier les causes et les indicateurs clés du turnover :
 - Évaluer l'impact des facteurs organisationnels sur le turnover
 - Déterminer les indicateurs les plus représentatifs du turnover

1. Le turnover dans une approche théorique et documentaire (revue de la littérature)

Connu également sous le nom de rotation du personnel, le turnover est un indicateur qui mesure le nombre des départs volontaires et d'entrées de personnel dans une entreprise sur une période donnée, généralement sur une base annuelle. C'est un élément clé de la gestion des ressources humaines, car, un turnover élevé peut avoir des conséquences négatives sur la productivité, la culture d'entreprise, et les coûts de recrutement et de formation. Il est le pourcentage des départs volontaires dans l'effectif total du personnel en milieu d'année.

Quant aux causes du turnover élevé, elles sont nombreuses. Nous en citons : problèmes de gestion, conditions de travail défavorables, salaires peu compétitifs, manque de perspectives de carrières, déséquilibre entre les attentes des employés et la

réalité du poste.

Quant aux facteurs qui résident derrière le turnover du personnel infirmier, nous en citons :

- La charge élevée de travail due aux horaires irréguliers et aux heures supplémentaires, le burn-out (épuisement professionnel) et l'insatisfaction au travail.
- Le stress et la pression causés par les situations d'urgence, et la confrontation à des situations émotionnellement difficiles.
- La faiblesse de la rémunération et des avantages sociaux, relativement à la charge du travail.
- Le manque de soutien et de reconnaissance de la part de la direction de l'hôpital.
- Les conditions de travail difficiles dues à un manque de personnel infirmier, à des environnements de travail stressant, à des équipements obsolètes ...

Il est également important de reconnaître que la décision des employés de rester ou de partir ne se limite pas uniquement à leur satisfaction au travail, mais qu'elle est également étroitement liée à la culture d'entreprise et à la gestion du changement. Les entreprises qui parviennent à créer un environnement de travail positif, axé sur la confiance, le respect et l'innovation, sont mieux équipées pour retenir leurs meilleurs éléments. De plus, une gestion proactive du changement et une communication transparente peuvent aider à atténuer les incertitudes et les craintes des salariés, renforçant ainsi leur attachement à l'organisation



(Eisenberger et al., 2021).

Le taux élevé de rotation du personnel infirmier, provoqué par les facteurs ci-dessus, a poussé certains hôpitaux au Liban à adopter, chacun de son côté, une politique de fidélisation quelconque pour stopper ou freiner au moins le départ dans le rang de ce personnel, lequel s'avère assez coûteux pour les établissements en matière de recrutement, d'intégration, de formation, de rattrapage par les recrues du niveau de rendement des partants, du transfert de connaissances ou de techniques de travail ou de gestion spécifiques à l'hôpital, aux hôpitaux concurrents...

En revanche un turnover trop faible (inférieur à 1 %), n'est pas nécessairement un bon indicateur, car, il indique un manque de renouvellement ou de dynamisme au sein de l'entreprise, ce qui risque d'entraver l'innovation et la croissance.

En ce qui concerne le turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux, quand il est élevé, il est susceptible d'avoir des conséquences néfastes sur la qualité des soins, la satisfaction des patients, la stabilité de l'équipe soignante ...

2. Les dimensions du turnover du personnel infirmier au Liban

2.1. Les techniques de recherche

Les techniques scientifiques, dont nous avons fait usage pour répondre aux questions de notre problématique se répartissent sur les étapes suivantes :

1ère étape : La recherche bibliographique

Elle a porté d'un côté sur les ouvrages, les articles, les thèses de doctorat, les documents en ligne..., qui traitent des fonctions de GRH, des politiques de fidélisation en général, dans le secteur hospitalier et tout particulièrement celles qui ciblent le personnel infirmier, ses conditions de travail, son turnover... et de l'autre, sur les références concernant le secteur hospitalier au Liban (capacité d'accueil, accréditation et classement, gestion...), et le personnel infirmier (effectifs, formation, syndicalisation...).

2ème étape : La recherche exploratoire

Elle a comporté deux techniques :

- L'observation participante dans quelques hôpitaux au Liban, pour avoir des informations sur le vécu de leur personnel hospitalier.
- Les entretiens semi-directifs que nous avons menés auprès de quelques directeurs des ressources humaines, et des responsables du personnel infirmier dans des hôpitaux au Liban. Ces entretiens ont été destinés à obtenir des informations diverses, des documents, des données statistiques sur leur personnel infirmier.

Cette recherche exploratoire a été utile pour notre recherche documentaire, notre échantillonnage et la mise au point de notre questionnaire.

3ème étape : La recherche documentaire

Dans le cadre de cette recherche, nous avons consulté deux genres de documents :

- Recueils statistiques concernant les hôpitaux au Liban et leur personnel infirmier ;
- Documents juridiques : les législations et les réglementations qui organisent le métier de l'infirmier au Liban.

4ème étape : L'enquête par sondage

Elle a été menée auprès d'un échantillon de 300 infirmiers et infirmières dans les hôpitaux au Liban qui a été choisi selon la méthode d'échantillonnage aux quotas, où ont été représentées essentiellement les trois variables indépendantes suivantes : le classement des hôpitaux, la région, et le sexe du personnel infirmier.

Après de cet échantillon, nous avons administré un questionnaire qui a porté sur : les caractéristiques démographiques, éducatives, socio-économiques (rémunération)... des infirmières et infirmiers, leur état matrimonial, leur ancienneté au travail, leurs conditions de travail, les mesures de motivation et de fidélisation prévues par leurs hôpitaux, leur attitude vis-à-vis de ces mesures, l'impact de ces mesures en matière de prestation, de fidélité à leurs hôpitaux, leur attitude vis-à-vis de leur hôpital, leurs perspectives d'avenir professionnel dans ce dernier...

Après l'administration de notre questionnaire, nous avons procédé à un croisement de ses variables dépendantes et indépendantes,

à la lumière de notre problématique, nos hypothèses et les thèmes de notre plan de thèse.

Ce croisement a déterminé le genre de tableaux dont nous aurions besoin.

Ces tableaux qui étaient de 312, ont été soumis à une analyse statistique qui nous a permis de retenir pour notre recherche ceux dont le croisement de nos variables dépendantes et indépendantes a donné lieu à des associations significatives.

A leur tour, les tableaux retenus ont été soumis à une analyse qualitative, avant le passage à la rédaction de notre article.

Quant à l'approche que nous avons adoptée dans cette étude, elle est interdisciplinaire, dans la mesure où s'agencent des facteurs d'ordre médical, démographique, psychologique, sociologique, économique, financier et de gestion des ressources humaines, dans l'analyse de nos données.

2.2. Les taux du turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux libanais

Le taux du turnover du personnel infirmier dans les hôpitaux libanais a été de 24.2 % au cours de l'année 2021/2022 (Tableau 1). C'est un taux assez élevé, et par conséquent, il aurait dû affecter négativement le rendement du personnel infirmier, et augmenter les coûts de recrutement et de formation dans le secteur hospitalier libanais.

En effet, le taux de turnover ou de rotation du personnel infirmier le plus faible (3 % et moins), est constaté dans 28.26 % des

hôpitaux, alors qu'il est supérieur à 15 % dans 51.7 % des établissements hospitaliers au Liban (Tableau 1).

Tableau 1 : Les hôpitaux au Liban, par taux du turnover au cours de l'année 2021/ 2022

Catégories des % du turnover des infirmiers(ères)	% des hôpitaux
0 – 3	28.26%
4 – 6	3.04%
7 – 10	3.48%
11 – 15	13.48%
16 – 20	12.17%
21 – 30	13.48%
31 – 40	4.78%
41 – 50	3.04%
51 et plus	18.27%
Total	100.00%
% moyen du turnover des infirmiers(ères)	24.20%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Nous envisageons le taux du turnover du personnel infirmier, par association à plusieurs variables indépendantes qui le déterminent, parmi ces variables, l'effectif du personnel infirmier de l'hôpital.

Ainsi, dans 70.7 % des hôpitaux dont l'effectif du personnel infirmier est inférieur à 100 personnes, le taux de rotation de ce dernier est inférieur à 3 % (Tableau 2), car probablement dans

ces petits hôpitaux, une bonne partie du personnel en question est peu qualifiée, ce qui réduit ses opportunités du travail ailleurs ; ce qui n'est pas le cas dans les grands hôpitaux, car dans 52 % de ceux où l'effectif du personnel infirmier est de 351 à 400 personnes, le taux de rotation est de 51 % et plus. Il en est de même dans 44 % des hôpitaux où l'effectif du personnel infirmier est entre 501 et 600 personnes (Tableau 2).

Par conséquent, ce sont les grands hôpitaux qui ont été affectés par le turnover, à cause probablement de la qualification de leur personnel infirmier.

Tableau 2 : Les hôpitaux au Liban, par taux du turnover au cours de l'année 2021/ 2022, et par effectif du personnel infirmier (en %)

0 - 3		Catégories des % du turnover des infirmiers(ères)									
		4 - 6	7 - 10	11 - 15	16 - 20	21 - 30	31 - 40	41 - 50	51 et plus	Total	
Le nombre des infirmiers(ères)	<100	70.7%	0.0%	0.0%	0.0%	24.4%	0.0%	0.0%	2.4%	2.4%	100.0%
	101 - 150	37.0%	0.0%	3.7%	3.7%	7.4%	37.0%	0.0%	0.0%	11.1%	100.0%
	151 - 200	0.0%	0.0%	50.0%	0.0%	0.0%	0.0%	25.0%	25.0%	0.0%	100.0%
	201 - 250	42.9%	7.1%	3.6%	0.0%	32.1%	10.7%	0.0%	0.0%	3.6%	100.0%
	251 - 300	0.0%	0.0%	0.0%	100.0%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	301 - 350	7.7%	0.0%	7.7%	15.4%	7.7%	7.7%	46.2%	7.7%	0.0%	100.0%
	351 - 400	4.0%	0.0%	4.0%	24.0%	4.0%	12.0%	0.0%	0.0%	52.0%	100.0%
	401 - 500	10.2%	10.2%	2.0%	38.8%	10.2%	4.1%	0.0%	2.0%	22.4%	100.0%
	501 - 600	7.4%	0.0%	0.0%	3.7%	0.0%	33.3%	3.7%	7.4%	44.4%	100.0%
	601 - 700	23.1%	0.0%	7.7%	7.7%	0.0%	23.1%	23.1%	7.7%	7.7%	100.0%

nfirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

De même, la zone dans laquelle se trouve l'hôpital s'avère être déterminant du taux du turnover, car l'on constate que dans 53.2 % des hôpitaux des zones rurales, le taux de rotation du personnel infirmier est de 51 % et plus, alors qu'il tombe à 3 % et moins dans ceux des zones urbaines (Tableau 3). La différence de rémunération devrait être pour quelque chose ici.

Tableau 3 : Les hôpitaux au Liban, par nombre des départs volontaires du personnel infirmier au cours de l'année 2021/ 2022, et par zone de l'hôpital (en %)

		Quel est le nombre d'infirmiers (ères) qui ont quitté volontairement votre hôpital (c.à.d. non compris les personnes licenciées, ou ayant quitté pour la retraite), durant les 12 derniers mois ?											
		10 - 20	20 - 30	30 - 40	40 - 50	50 - 60	60 - 70	70 - 80	80 - 90	90 - 100	> 100	Ne sait pas	Total
L'hôpital est dans une zone:	Rurale	31.9%	10.6%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%	4.3%	53.2%	0.0%
	Urbaine	74.1%	3.7%	3.7%	0.0%	14.8%	0.0%	3.7%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%
	Semi-urbaine	32.1%	9.6%	18.6%	2.6%	7.1%	3.8%	0.0%	0.6%	0.6%	5.1%	12.8%	7.1%
	Total	37.0%	9.1%	13.0%	1.7%	6.5%	2.6%	0.4%	0.4%	0.4%	4.3%	19.6%	4.8%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par genre de propriétaire, dans 38.4 % des hôpitaux possédés par un individu, le taux de rotation du personnel infirmier est de 3 % et moins, alors qu'il s'élève à plus de 40 % dans 43.2 % de ceux dont la propriété est détenue par un groupe d'individus laïcs

(Tableau 4). La différence de qualification devrait être de mise ici.

Tableau 4 : Les hôpitaux au Liban, par taux du turnover au cours de l'année 2021/ 2022, et par genre de propriétaire de l'hôpital (en %)

0 - 3		Catégories des % du turnover des infirmiers(ères)									
		4 - 6	7 - 10	11 - 15	16 - 20	21 - 30	31 - 40	41 - 50	51 et plus	Total	
Votre hôpital appartient à :	Un individu	38.4%	7.0%	2.3%	27.9%	12.8%	2.3%	7.0%	1.2%	1.2%	100.0%
	Un groupe d'individus laïcs	29.7%	0.0%	5.4%	2.7%	5.4%	13.5%	0.0%	10.8%	32.4%	100.0%
	Une communauté ou ordre religieux	21.3%	0.0%	0.0%	4.5%	13.5%	24.7%	2.2%	1.1%	32.6%	100.0%
	L'Etat	11.1%	5.6%	22.2%	11.1%	16.7%	11.1%	16.7%	5.6%	0.0%	100.0%
	Total	28.3%	3.0%	3.5%	13.5%	12.2%	13.5%	4.8%	3.0%	18.3%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Également, la comparaison par le personnel infirmier de ses salaires avec ceux des autres hôpitaux agit sur le taux de turnover de son hôpital. Ainsi, dans 46.4 % des hôpitaux dont le personnel infirmier indique que ses salaires sont supérieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban, le taux de sa rotation est supérieur à 50

% (Tableau 5). Il s'ensuit que ceux-ci auraient reçu des hôpitaux à l'étranger, de propositions de salaires plus élevés que ceux des leurs au Liban, ou de conditions de travail meilleures, en raison de leurs compétences.

Par contre, dans 63.8 % des hôpitaux où le personnel infirmier affirme que ses salaires sont supérieurs à certains hôpitaux au Liban, et inférieurs à ceux d'autres, le taux de turnover est de 3 % et moins (Tableau 5).

Tableau 5 : Les hôpitaux au Liban, par taux du turnover au cours de l'année 2021/ 2022, et la comparaison des salaires de l'hôpital aux autres du secteur (en %)

0 - 3		Catégories des % du turnover des infirmiers(ères)									
		4 - 6	7 - 10	11 - 15	16 - 20	21 - 30	31 - 40	41 - 50	51 et plus	Total	
D'une façon générale, les salaires des infirmiers (ères) dans votre hôpital sont ?	Supérieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban	0.0%	17.9%	0.0%	17.9%	0.0%	17.9%	0.0%	0.0%	46.4%	100.0%
	Presque à égalité avec ceux des autres hôpitaux au Liban	15.4%	1.9%	5.8%	1.9%	25.0%	23.1%	3.8%	1.9%	21.2%	100.0%
	Inférieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban	16.0%	1.2%	2.5%	30.9%	16.0%	6.2%	2.5%	6.2%	18.5%	100.0%
	Supérieurs à ceux de certains hôpitaux, et inférieurs à ceux d'autres	63.8%	0.0%	4.3%	0.0%	2.9%	13.0%	10.1%	1.4%	4.3%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

À noter aussi que l'apprentissage dont bénéficient les infirmiers (ères) à leur hôpital, est un déterminant du taux de leur rotation : dans 59.7 % des hôpitaux où le personnel infirmier dit avoir appris quelque chose qui profite à son métier d'infirmier (ère), grâce à son travail dans son hôpital, le taux de rotation de ce personnel est supérieur à 15 % (Tableau 6) ; ce qui signifie que les hôpitaux sont victimes de l'apprentissage qu'ils assurent à leur personnel infirmier.

Parallèlement, dans 63.4 % des hôpitaux où le personnel infirmier affirme n'avoir rien appris qui profite à son métier d'infirmier (ère), durant son travail à son hôpital, le taux de rotation de ce personnel est de 3 % et moins (Tableau 6).

Tableau 6 : Les hôpitaux au Liban, par taux du turnover au cours de l'année 2021/ 2022, et apprentissage à l'hôpital (en %)

0 - 3		Catégories des % du turnover des infirmiers(ères)									Total
		4 - 6	7 - 10	11 - 15	16 - 20	21 - 30	31 - 40	41 - 50	51 et plus		
Depuis que vous travaillez dans cet hôpital, auriez-vous appris quelque chose de nouveau qui profite à votre métier d'infirmier (ère)?	Oui	63.4%	14.6%	2.4%	4.9%	2.4%	4.9%	2.4%	4.9%	0.0%	100.0%
	Non	20.6%	0.5%	3.7%	15.3%	14.3%	15.3%	5.3%	2.6%	22.2%	100.0%
	Total	28.3%	3.0%	3.5%	13.5%	12.2%	13.5%	4.8%	3.0%	18.3%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

De même, l'adoption par l'hôpital de politique de rétention de son personnel infirmier, devrait en principe donner lieu à un taux de turnover relativement faible. Or, il s'avère que ce n'est pas le cas dans les hôpitaux au Liban, car, dans 29 % des établissements hospitaliers qui ne disposent pas de politique de rétention, le taux de rotation de ce personnel est faible (3 % et moins), contre 25.9 % dans ceux qui adoptent ce genre de politique (Tableau 7). En outre, dans 66.5 % des hôpitaux qui n'ont pas cette politique, le taux de rotation du personnel infirmier est supérieur à 10 %, contre 61.1 % dans ceux qui en ont (Tableau 7), soit une différence peu significative.

Il s'ensuit que la politique de rétention du personnel infirmier dans la plupart des hôpitaux au Liban, est assez insuffisante, et par conséquent, elle est peu dissuasive des départs volontaires.

Tableau 7 : Les hôpitaux au Liban, par taux du turnover au cours de l'année 2021/ 2022, et politique de rétention du personnel infirmier à l'hôpital (en %)

0 - 3		Catégories des % du turnover des infirmiers(ères)								
		4 - 6	7 - 10	11 - 15	16 - 20	21 - 30	31 - 40	41 - 50	51 et plus	Total
Est-ce que votre hôpital suit une politique quelconque pour retenir ses infirmiers (ères)?	Oui	29.0%	1.1%	3.4%	13.1%	13.1%	11.9%	1.7%	4.0%	22.7%
	Non	25.9%	9.3%	3.7%	14.8%	9.3%	18.5%	14.8%	0.0%	3.7%
	Total	28.3%	3.0%	3.5%	13.5%	12.2%	13.5%	4.8%	3.0%	18.3%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

À signaler aussi que l'existence de département de ressources humaines, pourrait contribuer à la réduction du taux de turnover. Ainsi, le taux de rotation le plus faible (3 % et moins), se trouve dans 29.3 % des hôpitaux dotés de ce département, contre 13.3 % dans ceux qui n'en ont pas (Tableau 8). De même, les taux de turnover supérieurs à 15 % sont dans 80.1 % des hôpitaux qui ne disposent pas de ce département, contre 49.9 % dans ceux qui en sont dotés (Tableau 8).

Tableau 8 : Les hôpitaux au Liban, par taux du turnover du personnel infirmier au cours de l'année 2021/ 2022, et existence de département de ressources humaines à l'hôpital (en %)

0 - 3		Catégories des % du turnover des infirmiers(ères)								
		4 - 6	7 - 10	11 - 15	16 - 20	21 - 30	31 - 40	41 - 50	51 et plus	Total
Se trouve-t-il dans votre hôpital un département de ressources humaines ?	Oui	13.3%	0.0%	6.7%	0.0%	66.7%	6.7%	0.0%	0.0%	6.7%
	Non	29.3%	3.3%	3.3%	14.4%	8.4%	14.0%	5.1%	3.3%	19.1%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.3. Raisons ou facteurs du turnover des infirmiers (ères)

Nous nous contentons ici de traiter les raisons les plus importantes du turnover.

2.3.1. Opportunités de travail ailleurs

56.52 % des départs du personnel infirmier ont été causés par des opportunités de travail qui leur ont été offertes par des hôpitaux à l'étranger (Tableau 11), tout particulièrement dans les pays du Golfe et en Europe (Tableau 10). A noter que la formation, l'expérience et la qualification des infirmiers (ères) du Liban bénéficient d'une bonne image dans les hôpitaux étrangers.

Tableau 11 : Les raisons des départs volontaires du personnel infirmier au cours de l'année 2021/ 2022

À votre connaissance, pour quelle raison ils ou elles ont quitté votre hôpital :	% des départs
Changement de zone de résidence	22.61%
Opportunité de travail à l'étranger	56.52%
Salaires insuffisants	12.61%
Salaires inférieurs à ceux d'autres hôpitaux au Liban	0.87%
Faible formation des infirmiers (ères)	0.43%
Je ne sais pas	6.09%
Autres	0.87%
Total	100.00%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Les infirmiers (ères) les plus sollicité (e)s sur le marché du travail hospitalier, sont ceux ou celles qui sont de niveau universitaire, soit dans une proportion de 96 % (Tableau 12)

Tableau 12: Le personnel infirmier, par réception de propositions de travail faites par d'autres hôpitaux, et niveau d'instruction, en 2022

Non		Est-ce que vous avez eu de propositions de travail faites par d'autres hôpitaux ?		
		Oui	Total	
Niveau d'instruction	Universitaire	4.0%	96.0%	100.0%
	Technique	55.6%	44.4%	100.0%
	Total	50.0%	50.0%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Sont encore sollicités (es) sur le marché du travail hospitalier, les infirmiers (ères) qui ont 15 ans et plus d'ancienneté au travail, soit dans une proportion variant de 49.5 à 62.5 % (Tableau 13).

Tableau 13 : Le personnel infirmier par ancienneté au travail, et par facilité de trouver du travail dans d'autres hôpitaux, en 2022

Très facile de trouver un emploi similaire	Dans quelle mesure vous serait-il facile de trouver un emploi dans un autre hôpital, avec à peu près le même salaire, et les mêmes avantages sociaux que vous avez actuellement ?		
	Plus ou moins facile de trouver un emploi similaire	Pas du tout facile de trouver un emploi similaire	Total

Nombre d'années de travail comme infirmier(ère) dans cet hôpital et dans d'autres :	1 – 2 ans	8.3%	91.7%	0.0%	100.0%
	3 – 5 ans	27.3%	36.4%	36.4%	100.0%
	5 – 10 ans	12.1%	69.7%	18.2%	100.0%
	10 – 15 ans	20.0%	60.0%	20.0%	100.0%
	15 – 25 ans	49.5%	26.4%	24.2%	100.0%
	25 ans et plus	62.5%	10.4%	27.1%	100.0%
	Total	39.1%	38.3%	22.6%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Vue la demande de l'étranger au personnel infirmier libanais, et la faible offre de ce dernier sur le marché de travail, même les infirmiers (ères) non titulaires de diplômes dans ce domaine, disent dans une proportion de 27.3 % qu'il leur est facile de trouver un emploi dans un autre hôpital, avec à peu près le même salaire, et les mêmes avantages sociaux qu'ils ont actuellement ; alors que les autres (72.7 %) affirment que ceci est plus ou moins facile pour eux ou elles (Tableau 14).

Tableau 14 : Le personnel infirmier non diplômé, par genre d'apprentissage du métier, et par facilité de trouver du travail dans d'autres hôpitaux, en 2022.

Très facile de trouver un emploi similaire		Dans quelle mesure vous serait-il facile de trouver un emploi dans un autre hôpital, avec à peu près le même salaire, et les mêmes avantages sociaux que vous avez actuellement ?			
		Plus ou moins facile de trouver un emploi similaire	Pas du tout facile de trouver un emploi similaire	Total	
Nombre d'années de travail comme infirmier(ère) dans cet hôpital et dans d'autres :	Grâce à une session de formation organisée par l'hôpital (actuel ou ancien) aux personnes non diplômées	0.0%	100.0%	0.0%	100.0%
	L'hôpital (actuel ou ancien) a chargé un tuteur pour m'apprendre ce métier	0.0%	100.0%	0.0%	100.0%
	En travaillant comme aide-infirmier(ère) pour un certain temps	75.0%	25.0%	0.0%	100.0%
	Total	27.3%	72.7%	0.0%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

En outre, en raison de la pénurie du personnel infirmier, même ceux d'entre eux qui n'ont rien appris de leur travail à leur hôpital qui servirait à quelque chose pour leur métier, disent dans une proportion de 68.3 % qu'il leur est très facile de trouver un emploi dans d'autres hôpitaux, similaire au leur (Tableau 15).

Tableau 15 : Le personnel infirmier, par apprentissage à leurs hôpitaux profitable à leur métier, et par facilité de trouver du travail dans d'autres hôpitaux, en 2022

Très facile de trouver un emploi similaire		Dans quelle mesure vous serait-il facile de trouver un emploi dans un autre hôpital, avec à peu près le même salaire, et les mêmes avantages sociaux que vous avez actuellement ?			
		Plus ou moins facile de trouver un emploi similaire	Pas du tout facile de trouver un emploi similaire	Total	
Depuis que vous travaillez dans cet hôpital, auriez-vous appris quelque chose de nouveau qui profite à votre métier d'infirmier (ère) ?	Oui	68.3%	22.0%	9.8%	100.0%
	Non	32.8%	41.8%	25.4%	100.0%
	Total	39.1%	38.3%	22.6%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Même 61 % des infirmiers (ères) qui n'ont rien appris de leur travail à leur hôpital qui servirait à quelque chose pour leur métier, ont eu de propositions de travail faites par d'autre hôpitaux

(Tableau 16)

Tableau 16 : Le personnel infirmier, par apprentissage à leurs hôpitaux profitable à leur métier, et par propositions de travail faites par d'autres hôpitaux, en 2022

Non		Est-ce que vous avez eu de propositions de travail faites par d'autres hôpitaux ?		
		Oui	Total	
Depuis que vous travaillez dans cet hôpital, auriez-vous appris quelque chose de nouveau qui profite à votre métier d'infirmier (ère) ?	Non	39.0%	61.0%	100.0%
	Oui	52.4%	47.6%	100.0%
	Total	50.0%	50.0%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.3.2. Rémunération insuffisante

13.5 % du personnel infirmier attribuent le départ volontaire de leurs collègues, à la faiblesse ou l'insuffisance des salaires servis par les hôpitaux au Liban (Tableau 11). À ce propos, 79.1 % de ce personnel disent que leur salaire ne leur permet pas de couvrir leurs dépenses et celles des personnes qui sont à leur charge (Tableau 17) ; ce qu'affirment aussi 53.6 % de ceux qui travaillent même plus de 48 heures par semaine (Tableau 17).

Tableau 17 : Le personnel infirmier, par nombre d'heures hebdomadaires de travail, et couverture de leurs dépenses par leur salaire, en 2022

Ne vous permet pas de couvrir vos dépenses et celles des personnes qui sont à votre charge		Votre salaire :			
		Vous permet de couvrir seulement vos dépenses et celles des personnes qui sont à votre charge	En plus de vos dépenses, il vous permet de réaliser une épargne	Total	
Le nombre d'heures de travail que vous effectuez par semaine à l'hôpital :	Moins de 10 heures	100.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	20 – 30 heures	100.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	30 – 40 heures	79.6%	20.4%	0.0%	100.0%
	40 – 48 heures	78.9%	13.8%	7.3%	100.0%
	Plus, de 48 heures	53.6%	42.9%	3.6%	100.0%
	Total	79.1%	16.9%	4.0%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Même ceux dont la rémunération se situe au sommet de l'échelle des salaires au Liban, soit de 4 millions de LL en 2021/2022, disent dans des proportions élevées, allant de 61.7 à 81.7 %, que leur salaire ne leur permet pas de couvrir leurs dépenses et celles des personnes qui sont à leur charge (Tableau 18)

Tableau 18 : Le personnel infirmier, par catégories de salaires, et couverture de leurs dépenses par leur salaire, en 2022

Ne vous permet pas de couvrir vos dépenses et celles des personnes qui sont à votre charge		Votre salaire :			
		Vous permet de couvrir seulement vos dépenses et celles des personnes qui sont à votre charge	En plus de vos dépenses, il vous permet de réaliser une épargne	Total	
Le salaire mensuel que vous encaissez, se situe dans la catégorie de :	1 – 1.5 millions	100.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	2 – 3 millions	93.3%	6.7%	0.0%	100.0%
	3 – 4 millions	80.4%	19.6%	0.0%	100.0%
	4 – 5 millions	81.7%	18.3%	0.0%	100.0%
	5 millions de LL et plus	61.7%	23.3%	15.0%	100.0%
	Total	79.1%	16.9%	4.0%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

De même, 90.4 % du personnel infirmier déclarent que le salaire qu'ils encaissent, n'est pas à la hauteur de l'effort qu'ils fournissent à leur hôpital (Tableau 19). Disent ceci aussi 96.4 % de ceux qui effectuent même plus de 48 heures de travail par semaine (Tableau 19).

Tableau 19 : Le personnel infirmier, par nombre d'heures hebdomadaires de travail, et par comparaison de leur salaire à l'effort qu'ils fournissent à leur hôpital, en 2022

Non		Est-ce que le salaire que vous encaissez est à la hauteur de l'effort que vous fournissez à votre hôpital ?		
		Oui	Total	
Le nombre d'heures de travail que vous effectuez par semaine à l'hôpital :	Moins de 10 heures	100.0%	0.0%	100.0%
	20 – 30 heures	100.0%	0.0%	100.0%
	30 – 40 heures	72.2%	27.8%	100.0%
	40 – 48 heures	94.7%	5.3%	100.0%
	Plus, de 48 heures	96.4%	3.6%	100.0%
	Total	90.4%	9.6%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Même ceux dont la rémunération se situe au sommet de l'échelle des salaires au Liban, soit de 4 millions de LL en 2021/2022, affirment dans des proportions très élevées (de 80 à 93.3 %), que le salaire qu'ils encaissent, n'est pas à la hauteur de l'effort qu'ils fournissent à leur hôpital (Tableau 20).

Tableau 20 : Le personnel infirmier, par catégories de salaires, et par comparaison de leur salaire à l'effort qu'ils fournissent à leur hôpital, en 2022

Non		Est-ce que le salaire que vous encaissez est à la hauteur de l'effort que vous fournissez à votre hôpital ?		
		Oui	Total	
Le salaire mensuel que vous encaissez, se situe dans la catégorie de :	1 – 1.5 millions	100.0%	0.0%	100.0%
	2 – 3 millions	100.0%	0.0%	100.0%
	3 – 4 millions	91.1%	8.9%	100.0%
	4 – 5 millions	80.0%	20.0%	100.0%
	5 millions de LL et plus	93.3%	6.7%	100.0%
	Total	90.4%	9.6%	100.0%

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par conséquent, il s'avère que 70 % du personnel infirmier ne sont pas satisfaits de leur salaire, et cette proportion est de 64.3 % même chez les infirmiers (ères) qui bénéficient des salaires les plus élevés dans le secteur hospitalier au Liban (Tableau 21).

Tableau 21 : Le personnel infirmier, par comparaison de leurs salaires à ceux des autres hôpitaux au Liban, et par niveau de satisfaction des leurs, en 2022

Satisfait (e)		Êtes-vous satisfait (e) de votre salaire actuel ?			
		Plus ou moins satisfait (e)	Non satisfait (e)	Total	
D'une façon générale, les salaires des infirmiers (ères) dans votre hôpital sont ?	Supérieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban	0.0%	35.7%	64.3%	100.0%
	Presque à égalité avec ceux des autres hôpitaux au Liban	1.9%	53.8%	44.2%	100.0%
	Inférieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban	4.9%	19.8%	75.3%	100.0%
	Supérieurs à ceux de certains hôpitaux, et inférieurs à ceux d'autres	0.0%	14.5%	85.5%	100.0%
	Total				

Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.3.3. Facteurs divers de turnover

Il semble que la vague massive des départs volontaires du personnel infirmier qui a commencé avec la crise économique et financière du Liban au dernier trimestre de 2019, n'a pas encore touché à sa fin, car il y a toujours 42.6 % de ce personnel qui sont disposés à saisir toute opportunité de travail ailleurs. Cette proportion s'élève à 63.8 % dans les hôpitaux où les salaires des infirmiers (ères) sont supérieurs à ceux de certains hôpitaux, et inférieurs à ceux d'autres (Tableau 65, page 107, Thèse doctorale).

Par contre, tous ceux dont les salaires des hôpitaux sont supérieurs à ceux des autres établissements hospitaliers, ne saisissent pas les opportunités de travail qui leur seraient offertes par ces derniers, ce qui confirme l'impact du niveau de salaire sur le turnover.

Saisissent aussi les opportunités de travail qui leur sont offertes par d'autres hôpitaux au Liban ou à l'étranger, 45.2 % des infirmiers (ères) qui jugent que leurs salaires ne sont pas à la hauteur de l'effort qu'ils (elles) fournissent à leurs hôpitaux (Tableau 66, page 108, Thèse doctorale).

Dans le même sillage, 68.5 % du personnel infirmier qui disent que leurs hôpitaux ne sont pas reconnaissants pour le travail ou l'effort qu'ils leur fournissent, sont disposés à saisir les opportunités de travail qui leur seraient offertes par d'autres hôpitaux. Par contre, 81 % de ceux ou celles qui ressentent cette reconnaissance, ne sont pas disposés à quitter leurs hôpitaux

pour une opportunité de travail ailleurs. Il s'ensuit que cette reconnaissance est un rempart contre le turnover (Tableau 67, page 108, Thèse doctorale).

De même, la discrimination salariale contribue considérablement au turnover, car 63.6 % qui disent qu'il y a dans leurs hôpitaux des infirmiers (ères) qui font le même travail que le leur, et qui sont mieux rémunérés (es) sans le mériter, sont disposés(es) à saisir les occasions de travail qui leur seraient offertes par d'autres hôpitaux, ce à quoi renoncent 62.7 % de ceux ou celles qui ne subissent pas cette discrimination (Tableau 68, page 109, Thèse doctorale).

En outre, 96.8 % du personnel infirmier qui ne sont pas fiers de travailler dans leurs hôpitaux, sont disposés à saisir toute opportunité de travail qui leur serait offerte par d'autres établissements hospitaliers (Tableau 69, page 109, Thèse doctorale).

En effet, une très forte majorité allant de 80 à 100 % du personnel infirmier – qui disent que leur climat de travail est déprimant, qu'il y a évaluation discriminatoire de ce personnel dans leurs hôpitaux, aussi bien que mauvaise gestion de ce dernier, pas de reconnaissance à ceux qui s'investissent dans leur travail, et bas salaires – sont prêts à saisir toute occasion de travail qui leur serait offerte par d'autres hôpitaux (Tableau 70, page 110, Thèse doctorale).

Sont disposés aussi de saisir les occasions de travail qui leur seraient proposées par d'autres hôpitaux 62.7 % dont le travail



à l'hôpital où ils sont, n'améliore pas leur chance de trouver du travail dans d'autres établissements hospitaliers, ce qui montre que le manque d'apprentissage au travail est un facteur de turnover (Tableau 71, page 111, Thèse doctorale).

Pour ces différents problèmes qui gênent le personnel infirmier, 86.3 % de ceux parmi eux qui ne conseillent pas à un (e) infirmier (ère) proche-parent ou ami(e) à eux, de travailler dans leur hôpital, sont disposé(e)s à saisir les opportunités de travail qui leur seraient offertes par d'autres hôpitaux (Tableau 72, page 112, Thèse doctorale).

2.4. La destination des partants

79.57 % des infirmiers (ères) qui ont quitté volontairement leurs hôpitaux, sont allés travailler à l'étranger, contre 20.43 % qui ont rejoint d'autres hôpitaux au Liban (Tableau 52), attirés par ces derniers qui avaient perdu une bonne partie de leur personnel infirmier qui les avaient quittés pour des emplois à l'étranger (Tableau 52, page 97, Thèse doctorale).

Quant à la destination de ceux qui ont quitté pour l'étranger, 37.39 % d'entre eux sont allés aux pays du Golfe, 33.04 % en Europe, et 7.83 % en Amérique (Tableau 53, page 97, Thèse doctorale).

3. La renonciation du personnel infirmier au départ volontaire

3.1. Les taux de la renonciation

Renoncent au départ volontaire 60 % des infirmiers (ères) qui

travaillent dans un centre hospitalier universitaire (CHU) ; 75 % de ceux ou celles qui trouvent que leur hôpital est le meilleur ou parmi les meilleurs ; 96.3 % qui connaissent une belle ambiance de travail dans leur hôpital ; 86.1 % de ceux ou celles qui parlent de la bonne renommée de leur hôpital ; 87 % du personnel infirmier qui ont un rapport étroit avec leur hôpital ; et 64.3 % de ceux ou celles qui disent que leur hôpital dispose d'une politique de fidélisation de son personnel infirmier (Tableau 73, page 112, Thèse doctorale).

Pour ces raisons, même 56.7 % de ceux ou celles qui leur est très facile de trouver un emploi dans un autre hôpital, avec à peu près le même salaire, et les mêmes avantages sociaux, renoncent à accepter l'offre de travail qui leur serait faite par d'autres hôpitaux (Tableau 74, page 114, Thèse doctorale).

Preuve en est, 59.1 % des infirmiers (ères) qui ont eu des propositions de travail faites par d'autres hôpitaux, y ont renoncé (Tableau 75, page 114, Thèse doctorale)

3.2. Raisons ou facteurs de renonciation

La renonciation au départ volontaire, ou l'absence de démissions malgré des conditions de travail difficiles, peut s'expliquer par plusieurs facteurs spécifiques, notamment dans le contexte libanais.

Raisons économiques et manque d'opportunités:

L'une des principales raisons pour lesquelles certaines infirmières choisissent de rester dans leur poste malgré des condi-



tions de travail difficiles est le manque d'opportunités alternatives. Au Liban, la situation économique complexe limite les options d'emploi, rendant la sécurité d'un emploi existant plus attrayante, même si les conditions ne sont pas idéales. Le coût élevé de la vie et les obligations financières peuvent également dissuader les infirmières de prendre le risque de quitter leur emploi sans garantie d'en trouver un autre rapidement.

– Attachement professionnel et éthique:

Un autre facteur pourrait être l'attachement à la profession et le sens du devoir. De nombreuses infirmières peuvent ressentir un fort engagement envers leurs patients et leur profession, ce qui les incite à rester malgré les défis. Ce sentiment d'engagement professionnel est souvent soutenu par un code d'éthique qui valorise le soin des patients au-dessus des considérations personnelles.

- Soutien social et familial:

Enfin, le soutien social et familial joue un rôle dans la décision de rester. Les infirmières peuvent choisir de ne pas démissionner en raison du soutien qu'elles reçoivent de leur famille, de leurs collègues, ou de leur communauté. Ce réseau de soutien peut atténuer les effets négatifs des conditions de travail difficiles et aider les infirmières à gérer le stress quotidien.

Ces facteurs montrent que la décision de ne pas démissionner n'est pas seulement dictée par des aspects économiques, mais aussi par un ensemble complexe de motivations personnelles,

professionnelles et sociales.

Conclusion

L'étude menée sur les taux de rotation des infirmières dans les hôpitaux libanais révèle une situation préoccupante, avec un taux de rotation de 24,2% pour la période 2021–2022. Cette tendance, particulièrement marquée dans les grands établissements, souligne les défis majeurs auxquels est confronté le système de santé libanais. Les facteurs identifiés, tels que la surcharge de travail, le manque de soutien institutionnel et l'absence de perspectives de carrière, sont en grande partie responsables de cette instabilité.

En comparant ces résultats avec les données internationales, il apparaît que le Liban n'est pas un cas isolé. Des taux de rotation similaires, voire plus élevés, sont observés dans d'autres régions du monde, en particulier aux États-Unis et dans certaines parties du Moyen-Orient. Les facteurs contributifs, bien que variant en intensité et en nature selon les contextes, partagent des caractéristiques communes, notamment la surcharge de travail, le manque de reconnaissance et les conditions économiques difficiles.

Cependant, un aspect notable de cette étude est la renonciation au départ volontaire chez certaines infirmières, malgré des conditions de travail éprouvantes. Cela s'explique par des raisons économiques, un attachement professionnel fort, et un soutien social solide, démontrant ainsi la complexité des motivations derrière la rétention du personnel infirmier.



Dans l'ensemble, ces résultats soulignent l'urgence de développer des stratégies efficaces de rétention des infirmières au Liban, qui doivent inclure des améliorations des conditions de travail, un soutien institutionnel accru, et des opportunités de développement professionnel. Ces interventions sont essentielles non seulement pour stabiliser le personnel infirmier, mais aussi pour garantir la continuité et la qualité des soins de santé dans le pays. En regard des défis similaires rencontrés à l'échelle mondiale, l'expérience libanaise peut offrir des leçons précieuses pour d'autres contextes souffrant de problèmes similaires.

- **Bibliographie**

ICN:

- International Council of Nurses. (2022). Nurse shortage and retention: The critical role of nursing in addressing the global health workforce crisis [Policy brief]. International Council of Nurses. https://www.icn.ch/sites/default/files/inline-files/ICN%20Policy%20Brief_Nurse%20Shortage%20and%20Retention.pdf

- Nsinursingsolutions

- Colosi, B.. (2024). 2024 NSI National Health Care Retention & RN Staffing Report. https://www.nsinursingsolutions.com/Documents/Library/NSI_National_Health_Care_Retention_Report.pdf

Press Ganey

- Doucette, J. (2023, November 29). The state of nursing turnover and key nurse retention strategies. Press Ganey. <https://info.pressganey.com/press-ganey-blog-healthcare-experience-insights/the-state-of-nursing-turnover-and-key-nurse-retention-strategies>
- Thèse doctorale "La fidélisation du personnel infirmier dans les hôpitaux au Liban et son impact sur sa motivation et rotation".